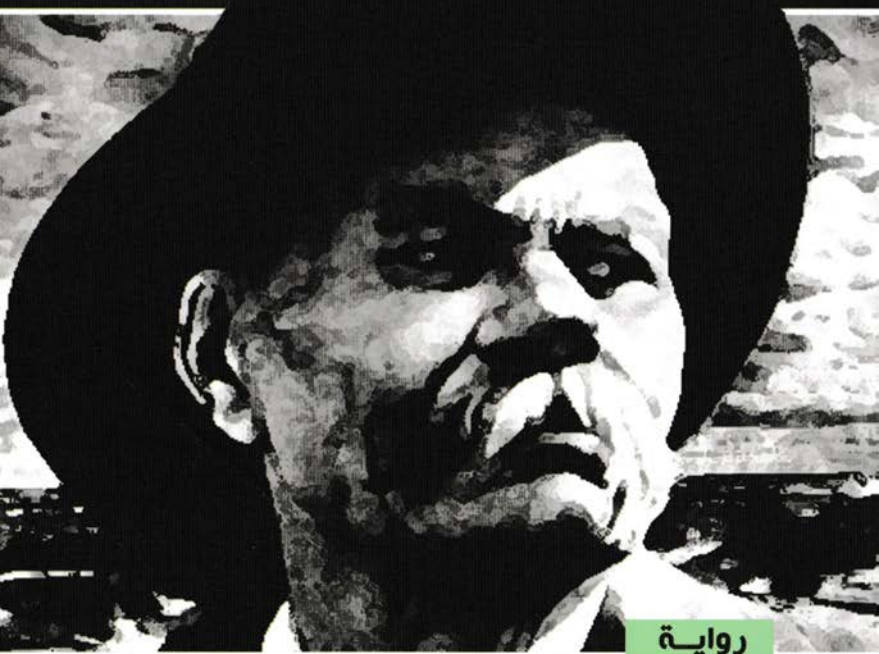


مكسيم غوركي

حياة ماتفي

سافليفتش كوجيمايكين



رواية

د. أنثوني

مترجم من الروسية

ترجمة: أسعد الحسين

حياة ماتفي

سافيليفتش كوجيمايكين

عنوان الكتاب: حياة ماتفي سافيليفتش كوجيمايكين

اسم المؤلف: مكسيم غوركي

اسم المترجم: أسعد الحسين

الموضوع: رواية

عدد الصفحات: 704 ص

القياس: 14.5 × 21.5 سم

الطبعة الأولى: 1000 / 2017 م - 1438 هـ

ISBN: 978-9933-536-96-1

مكسيم غوركي

حياة ماتفي

سافيليفتش كوجيمايكين

رواية

للمزيد والجديد من الكتب والروايات زوروا صفحتنا على فيس بوك

مكتبة الرمحي أحمد

ترجمة: أسعد الحسين

مراجعة: عقبة زيدان

القسم الأول

ها هو ماتفي سافيلفتش كوجيايكن الذي يقع فريسة لأرق الشيخوخة الليلي، بدغم نفسه بالوسائد، ويعود بذاكرته إلى حياته كلها ويستعرضها يوماً بيوم. يكتب بخط واضح وكبير عبارات شبه رسمية في دفتر سميك تحت عنوان:

"سجل لأفكار ومشاعر وحوادث معينة أيضاً من حياة بلدة أكوروف، نقشها مقيم مغمور حسب الإشاعات والملاحظة الشخصية"
وتحت هذه الكلمات أضاف بخط أصفر:

"لتقرأ بإخلاص من أجل الفوز بلمحة من حياة بلدة ريفية روسية"
استلقى الدفتر أمامه على طاولة كتابة محمولة مائلة صنعت قائمتها من نصفي دائرتين خشبيتين مثل حصان القفز، وقد استقرت على البطانية. على يمين الطاولة، ومن سلسلة نحاسية، تدلت محبرة حين تتأرجح تلقى ظلاً عائماً صغيراً يتراقص مثل فأر فوق البطانية. على مشجب طويل عند رأسية السرير اشتعل مصباح يصب ضوءاً دافئاً فوق الوسادة الملقاة عند ظهر الرجل، خلف أذنيه الكبيرتين ورأسه الأصلع الأصفر المطوق بحزام من الشعر الأبيض المبعثر. كلما رفع العجوز رأسه يسقط ظل دائري على دفتريه، يلامسه برفق براحة يده المتورمة، ويستمع إلى الدقات غير المنتظمة لقلبه المتعب وهو شبه مغمض العينين، ويحدق في قرميد الموقد الأبيض عند قدم السرير، وفي المكتبة الضخمة الملأى بالكتب ذات الأغلفة الداكنة التي امتدت من أول الجدار إلى آخره.

تركزت نظرة العجوز على الماضي عمداً، وطافت ببطء عبر ظلال الغرفة الكبيرة، واستقرت لفترة وجيزة على الأشكال الغامضة للثاث المألوف. لم تكن هناك قطع كثيرة لكنها قطع ثقيلة، وكأنها مدت جذورها في الأرض. كان وسط الغرفة فارغاً وظلاله باردة. يوجد باب في الجدار البعيد، وبين الباب والجدار تمتد مكتبة أخرى أنحمت بالكتب أيضاً. النافذتان المقابلتان مغلفتان بشكل محكم. بينهما ندلت مرآة عتيقة بيضاوية ذات إطار مذهب مزخرف.

نحت المرأة تنتصب أريكة؛ أمام الأريكة طاولة لها أرجل مقوسة، استلقى عليها إنجيل بغلاف جلدي مع مشابك فضية متلاثة؛ توجد قرب الطاولة بعض المقاعد ذات المساند التي تقوست أرجلها والمغطاة بقماش من الكتان. على أرض الغرفة حصير سميك من اللباد - في زاوية الأيقونات عند رأس السرير خزانة أيقونات من ثلاث طبقات تتضمن تسع أيقونات - مصباح من الكريستال معلق بسلاسل فضية يبقب بقدر حين يقذف نوره على وجه يسوع اللطيف ويوحنا المعمدان في الصف العلوي. نيقولا صانع المعجزات، "لا تبكي يا أمي" والمبارك فاسيلي في الصف الأوسط وصور لسيريل وميثودوس، أنتوني وثيوديس وصانعو معجزة موسكو، بيوتر وألكسي ويوحنا في الصف السفلي.

فوق السرير، وفي إطارات من خشب الصنوبر، صورتان فوتوغرافيتان لامرأة شابة وفي حضنها طفل مجعد الشعر. بهت الصور لدرجة بدت مثل انعكاسات في ماء متدفق.

حديق ماتفي كوجيمايكين بها لوقت طويل دون أن ترف عيناه ثم رسم إشارة الصليب على صدره، وهمس بصوت خافت:

"يا إلهي العزيز الذي في السماء، أطلّ أيام حياتي كي أكمل المهمة التي تعهدت بها من أجل حب عزيز ومن أجل ضميري"
غمس قلمه في المحبرة بترؤ، ثم أحنى رأسه مذعناً، وكتب بخط واضح وببطء:

"في ختام ذكريات حياتي البائسة المخزية هذه، أعترف مفجوعاً بأنني في أوقات متباعدة، كنت مدركاً لقوة ما ناعمة، لدرجة قلما كانت مرئية، تشدني نحو حياة أخرى وطريق مجهول، لكنها حياة أشعر بأنها أفضل بسا لا يقارن بتلك التي اتبعتها حتى ساعة موتي بسبب كسلي البدني والأخلاقي، الذي سعى إلى تبرير الفكرة بأنني لست أسوأ من الآخرين. لم أفهم ولم أقدر قوى الحب والتنوير في وقتها، بل قاومتها، لقد كنت عبداً كسولاً. حين تملكنتني تلك القوى النبيلة رغماً عني، كان الأوان قد فات. وهكذا مع ذلك الطعم الباهت لهذا العسل القليل على شفثي أموت"

كان صمت الغرفة ثقيلاً كالسجادة التي على الأرض. تسللت من الخارج أصوات مكتومة للحياة الليلية للبلدة الزاخرة بالنشاط، أصوات غير شخصية، لم تقلق الصمت الجليدي، ولا حتى أفكار الرجل المعجوز الغارق في الماضي.

كما لو كان يقف لوحده في أرض يباب عند سفح جبل، ومن ذرى هذا الجبل الذي تحجبه الغيوم الداكنة، انزلق بالتدريج وبشكل غير طوعي إلى المستوى الذي يقف فيه الآن. وكان ينظر إلى الوراء إلى تلك المسافة البعيدة التي استرجعها عشرات المرات في ذهنه.

كان في السابعة من عمره حين اختفت أمه فجأة. لم تمت، بل رحلت خفية في إحدى الليالي، تاركة في عقل الصبي الصغير ذكرى لشكل نحيل

ووميض مرعب لعينين سوداوين ورفرفة ليدين مضطربتين صغيرتين تسعى دوماً لإخفائهما، كما لو كانت خائفة. إلا أنه لا يتذكر ولو كلمة واحدة نفوht بها.

كان والده رجلاً ضخماً وطويلاً، له أنف أحمر ولحية كاملة حمراء مثل مكسيم الإغريقي كما صورته الإيقونات^(١)، لعينيه الرماديتين نظرة فيها شيء ساخر وغير عادي، وشفته السفلى نائثة للأسفل بازدراء. كانت حر كانه خرقاء، وكان يتنفس بصوت مسموع، وكثيراً ما يوبخ الطباخة والعمال الذين يعملون لديه. ظل ماتفي لوقت طويل لا يشعر نحو والده إلا بالخوف، لكنه فجأة وعلى نحو غير متوقع بات يحبه.

حدث ذلك في اليوم الثاني لعيد الفصح. بعد آخر ذوبان للثلوج وانبعاث أبخرة دافئة عطرة من الأرض التي دفأتها الشمس وظهور بقع خضراء من عشب الربيع رقيقة مثل أريطة حذاء على الجانب المشمس من التلال.

كان ماتفي يرتدي سترة حريرية قرنفلية، ويلحق بوالده في ساحة البيت وهو معجب بوميض الشمس على حذائه الجلدي الجديد اللامع.

"ميروشي، ميروشي"، صاح والده وهو يقرص أمام وجار الكلب. "أتشعر بالوحدة يا كليب؟"

اندفع ميروشي بوحشية فجأة من الفتحة الدائرية. أطلق والد ماتفي سباباً وقذف بذراعه للأعلى، فرش وجه الصبي بشيء دافئ لزج.

جاء الناس يترامضون، فلا سيفنا الطباخة البدينة بحاجبيها الكثيفين، ربطت يد والد ماتفي بمنشفة وهو يخبط بقدميه ويطالب ببندقية الرش. اندفع الكلب الهائج للأعلى والأسفل مقعقماً بسلاسله وأخرج من فمه فقاعات ونبج بطريقة مرعبة.

جلب سوزونت صاحب الوجه العريض المبتور بالجدرى بندقية الرش.
انحنى والد ماتفي على ركبتيه وأمال سبطانتهما إلى الأمام وإلى الخلف وهو
يتتبع حركات الكلب، وسدد على فكيه الأحمرين اللذين تقاطر منها اللعاب
وعلى أنيابه الصفراء.

"يجب ألا...." "كان عليك ألا...." استمر سوزونت بالتمتمة
محدثاً نفسه. دوت طلقة فترنج والده، وسقط على ظهره وسط غيمة من
الدخان الأزرق. نهض الكلب المبقع ذو الشعر الخشن على قائميه الخلفيتين
جاذباً السلاسل بقوة ومزقاً كهامة المدماة بحركات متشنجة بمخيليه
الأمامين، وعلى الفور انهار وسقط على جانبه، وهو يصر على أسنانه
بصوت عالٍ.

"أصبته في عينه"، قال والد ماتفي لسوزونت، وهو يركل فكي
الحيوان.

"سيفلي إيفانوفيتش"، نجبت فلاسييفنا، وهي تناوله مطهراً مائياً:
"اغسل يدك".

"كان علي أن أطلق النار عليك أيضاً"، زار والد ماتفي وهو يلوح بيده
المصابة. "كم مرة أخبرتك ألا تطعم الكلب لحماً نيئاً! سوزونت، اذهب
واحضر الطبيب"

بدأ بفك المنشقة الملوثة بالدم، وأخذ ماتفي الذي انقطعت أنفاسه من
الخوف والاستغراب المطهر من فلاسييفنا، لكنه أسقطه فجأة، فاندلق
السائل على حذائه. لقد رأى ألسنة اللهب الأحمر تخرج من داخل وجار
الكلب وتحاول الوصول إلى ساقبي والده. أمسك والده بالوجار فوراً وقلبه،
وبدأ يدوس القش المحترق. أينعت زهور صفراء قليلة لثانية بجانب كهامة

الكلب ثم انقلبت إلى الوراء. ركض والده عبر الدخان، وهو يصرخ ويزيد وقد رفع رأسه إلى الخلف.

سببت رائحة دخان القش المحترق الواخزة ورائحة الجلد الشائط دوارة للصبي، فجلس على درج الشرفة وقد أوشك على البكاء. انتظر قلقاً بانتظار ما سيقوله والده الذي كان يقف إلى جانبه ويحدق بيده المصابة المحمولة بيده الأخرى مثل فنجان. تقدم الرجل إلى الأمام وجلس إلى جانبه، وقال بلطف:

"هل خفت يا ولدي؟"

"أعمم"

"حسناً أنا أيضاً خفت"

نظر ماتفي إلى والده غير مصدق أذنيه ومندهشاً من قدرة رجل بهذا الحجم الكبير والشكل المرعب على التكلم وببساطة عن خوفه.

"أنا آسف"، قال الصبي بعد صمت قصير.

"من أجل الكلب؟"

"من أجلك"

"من أجلي؟" مطّ والده كلامه في صوت غريب.

"من الطريقة التي امتدت بها ألسنة اللهب إليك! من الطريقة التي حاولت فيها الوصول إليك! من أين أنت؟"

"من الحشوة، أنت تعرف أننا ندفع دائماً حشوة من القنب في بندقية الرش"

اقترب ماتفي من حضن والده، ونظر إلى وجهه الأبيض وعينه المتوهجتين.

"هل تؤلمك يدك كثيراً؟"

"ليس كثيراً،" قال في نغمة مختلفة. "لقد كانت اليد اليسرى لحسن

الحظ"

لم يحدث من قبل قط أن كان هناك أي تقارب هيم بين الأب والابن، وهذه التجربة غير المتوقعة جعلت الصبي منشوقاً ليسأل والده ذا الشعر الأحمر مئة سؤال، كما شعر أن تفسير الحريق كان خطأ وبسيطاً جداً.

"هل للكلب روح؟"

"لماذا يجب أن تكون له واحدة؟" قال والده متهمكاً.

توقف.

"كيف خرجت النار؟" قال ماتفي.

وضع والده يده الثقيلة المشعرة على رأسه.

"حزنت على الكلب" قال برقة غير معهودة "إنه عندنا منذ تسع

سنوات. لكن الشيء الجيد أنه عضني أنا. ماذا لو عضك أنت؟ يا إلهي!"

توهج وجهه واقترب حاجباه الأحمران من بعضهما وأظلمت عيناه، لكن ماتفي لم يخش هذه المرة، بل إنه اقترب أكثر في حضنه، باحثاً عن قدر أكبر من دفئ جسده الكبير.

ظهر في فناء البيت رجل يعرج؛ كان ضئيل الحجم، مرح ومدور مثل البلب، يرتدي معطفاً من قماش عليه تربيعات وسروالاً، ذهب والد ماتفي معه إلى داخل البيت.

"لا تأت معنا يا ماتفي، ليس من الصواب أن ترى الدم"

بعد أن ظل الصبي وحيداً على الشرفة، اعترف لنفسه بأن والده قد أثار في نفسه الكآبة والرعب أيضاً. بعد اختفاء أمه مباشرة جلب والده امرأة

لطيفة اسمها ماكاريفنا، لها يدان قويتان ودافتان وصوت رخيم، كانت تروي له حكايات مفرحة تقطع الأنفاس، ومن بينها حكاية مشوقة نصف كيف يحيا الرب في السماء:

على عرش متلاشي يجلس رب الكون المروع، والملائكة يرفرفون بأجنحتهم الفضية فوقه ويسبحون بحمده، هو الذي يفوق كل وصف يناشدونه بأن ينزل رحمته على الخطائين الذين في الأسفل وهم يخفون أعينهم عن النظرة المرعبة لرب الجموع.....

كلما كانت تنشد هذه القصيدة، تلمع عيناها بدموع مثل لآلئ في إطارات مزخرفة.

بعد أن أمضت ماكاريفنا ثلاثة أشهر تقريباً، أمسكت بها فلاسييفنا وهي تسرق نقوداً. مددها والده وسوزونت والطباخة على المنضدة في وسط المطبخ، وربطوا يديها الصغيرتين تحت المنضدة بمنشفة. أمسكت فلاسييفنا بقدميها وهي تضحك، بينما قام سوزونت الذي أدار وجهه جانباً بجلد جسدها الذي كان يرتجف كاهلام بالسوط بفظاظة.

"ارحموني، ارحموني!" بقبقت ماكاريفنا كأن فمها كان مملوءاً بالماء. "أنا لم أفعلها، أقسم بالرب أنني لم أفعلها- آه! آه! آه!"
"أعطها لها يا سوزونت" صاح والده الواقف بجانب الموقد، وهو يمسك بيد الصبي بقوة.

"انظري إليه!" قالت فلاسييفنا، وهي تغمز سوزونت "إنه خجل، ويخفي وجهه، مغفل".

تمنى ماتفي أن يطلب من والده الكف عن ضرب المرأة المسنة، إلا أنه لم يجرؤ، فبكى بمرارة وألم.

في المساء كانت فلاسييفنا هي من جلست بجانب سرير الصبي، وكان عليه أن يصغي إلى نصائحها التملقية، بدلاً من حكايات ماكارايفنا الهادئة. "يجب عليك أن تكون صبياً طيباً ونحسب والدك وتطيعه، بدلاً من الاختباء منه دائماً. ما الذي يدفعك إلى فعل ذلك؟"

بعد قليل أنت سيكلتيا لترعى الصبي، وهي خادمة سمينة، لها وجه مسطح وشارب أسود مع خال على خدها الأيسر. كانت بليدة ولا تعرف كيف تروي القصص، ولا تستطيع سوى الغناء بصوت حاد كأنها عقمق. كلما صادفها والد ماتفي كان يغمزها متعمداً، ويضرب مؤخرتها الكبيرة بكفه، وينعتها بقاذفة القنابل. وقد رآه الصبي أكثر من مرة وهو يحشرها في زاوية ويقرصها ويهرسها، ما يجعلها تصدر صريراً مثل عجينة حامضة. بكت فلاسييفنا وهددت بالرحيل.

"سوف أرحل، سأفعل، يا للمخلوقة الكافرة!"

لكن الذي رحل أخيراً كانت سيكلتيا. في الليلة التالية التي دفع لها أجرها، سمع ماتفي، الذي كان مستلقياً على سرير، صوت والده قادماً عبر الحاجز الرقيق الذي يفصل بين غرفتيهما.

"لماذا تنتقلين من مكان إلى آخر وتصرخين وتعبسين أيتها الغيبة البدينة؟"

"يا حبيبي الغالي... دندنت فلاسييفنا.

ابقي بعيدة عني! أنت تعرفين بأنه لا فرق عندي أي امرأة أعاشر. لست أنا من يفكر...."

"ألست أنا مربية صالحة لماتفي؟"

"هو يريد أمّاً"

شدّ الصبي البطانية فوق رأسه، وبكى بصوت خافت.
رغب بأن يسامح والده على جلد المرأة العجوز بالسوط، وهذا الحديث
مع فلاسيفنا فسر بوضوح وبساطة كل الذي أشعره بالخجل والقرص.
"لقد فعلها من أجلي" قال الصبي لنفسه.
ظهر وجه والده في النافذة.

"تعال لتتناول الشاي يا ماتفي!" صاح قائلاً.

شربا شايًا وفودكا ومشروبات كحولية ذات ألوان مختلفة، وأكلا كعك
(باسكا) وبيضاً مسلوقاً. في ذلك المساء عزف الطبيب المرح تريباك على
الغيتار، ورقصت فلاسيفنا بحوية كبيرة، لدرجة أن المقاعد قفزت للأعلى
والأسفل. كان والده يلوح بيده غير المصابة، يصفر ويصيح:

"اذهبي إليها أينها الساحرة! تعال هنا يا ماتفي! إذا أنت تختبئ ألبس
كذلك؟ ابتهج أيها الرعديد المسكين الصغير الذي باتت أمه راهبة!"
أعطى لولده قدحاً من سائل كحولي، ثم خبط بقدمه الكبيرة، وهز رأسه
الأحمر، وغنى في وجه الصبي مباشرة بصوت رفيع وممتع وبشكل مدهش.

هذا برمبل من الجمعة يرغي

جلبته هنا لأجلبك لك البهجة

لأعطي عينيك بريقاً مرحاً

وأرقصك بعد ذلك.

لسبب ما حزن ماتفي، وشعر بالأسف نحو والده؛ شعر أن صوت
الرجل قد يتوقف في أي لحظة وينفجر بالبكاء.

"أسرع يا ماركوف! ووب لا! أسرع، أسرع!" زار الأب قائلاً.

شكل الطبيب ضئيل الحجم حفلة كاملة حين ضغط الغيتار على بطنه
وأخنى رأسه الأصلع المتعرق فوقه. كانت أصابعه تضرب الأوتار بمرح،
ورقص بمهارة وهو يغني بصوت رخيم صداح.

سيموت القس

ويموت الجندي

هو وحده لن يموت

من يتجاوزه الموت

"أي، أي" زعقت فلا سيفنا، وهي تلوي يديها فوق رأسها بشكل
يائس.

"أنظر إليها يا ماركوف" صاح والده "إنها زوبعة، أليس كذلك؟"

"أعجوبة العجائب" رد الطبيب مرحاً، وهو يشد وتراً من الأوتار.
حرق ماتفي به محاولاً أن يعرف أين يمكن أن تكون ركبته.

دخل بوشكاريوف في الحال، وهو جندي متقاعد يعمل لدى
كوجيباكيين، تعلمو وجهه الخليق تقطية داكنة.

"بحق الشيطان لماذا أطلقت النار على ميرغوري؟" سأله بفضفاضة.

رفع والد ماتفي يده المربوطة بعصابة.

"أترى هذه؟ لقد قضم مفصلاً من إصبعي الصغير. لقد قصه بالمقص.
اجلس"

"كان عليه أن يقص رأسك" زجر الجندي قائلاً، ثم أخذ بيد ماتفي
وهو يقهقه.

"حان موعد نومك" قال.

في يوم الأحد التالي، حين عاد إلى البيت من القديس، شعر بالملل في الوقت الذي يسبق الغداء، فذرع الغرفة ذهاباً وإياباً وغنى لنفسه:

منذ اللحظة الأولى لشبابي كانت روحي

ساحة معركة للعواطف المشبوبة

لكن المخلص يعرف معاناتي

وسيجلب لي الخلاص.

أفحم بوشكاريوف رأسه الأشيب فجأة بين الأوراق المنثقة لأصيص

نبات إبرة الراعي التي وضعت على عتبة النافذة:

"أتمارس تدينسك للمقدسات ثانية يا سيفلي؟"

"اغرب عني!" قال والده دون أن يقطع أغنيته تقريباً.

"أنت لا تعرف الكلمات حتى. إنها ليست "يعرف" وإنما "يرى":

يرى معاناتي"

خطأ والده نحو النافذة.

"وما الفرق الذي تشكله أيها الشيطان الكبير؟" صرخ وهو يذق صدره

بقبضته "المخلص يعرف، المخلص يرى....."

انفجر بوشكاريوف بالضحك.

"يرى لو سمحت، هاها!"

"اغرب"

"دع حل الرب وشأنه!"

أطلق سيفلي كوجيايكين زئيراً، وحمل أصيص النبات بكلتي يديه،

وقذف به رأس بوشكاريوف.

حدث ذلك في رمشة عين، ووجد ماتفي الأمر مسلياً، ثم ركض نحو النافذة وهو يضحك، لكنه تراجع مذعوراً في اللحظة التالية. كان وجه والده قائماً ومتنفخاً ويحدق أمامه بعيون ثابتة مغبشة، كما لو كان أعمى، وهمس بصوت أجش وهو يمسك بيده اليمنى:

"يا ربي، يا للهول....."

ركض ماتفي خارج الغرفة. وجد في الساحة الجندي المعجوز يمسح الدم والتراب عن وجهه.

انطلق ماتفي مسرعاً إلى مخزن الحبوب، حيث اختبأ داخل كومة فضية رمادية من القنب. لم يستطع تجنب تذكر الحكايات التي روتها له ماكارايفنا والتي يقف لها شعر الرأس، فدائماً كان يحدث شيء مرعب في الحكايات، لكن باباغا الطيب كان واثقاً من إنقاذ الصبي الصغير التemis. إلا أنه هنا، في الحياة الواقعية، ليس هناك من ينقذه سوى فلا سيفنا التي تصدر منها دائماً رائحة خانقة من الزيت المحروق.

جاء صوت والده من الساحة في الخارج.

"في يوم من هذه الأيام سأجسكم أيها الشياطين في مخزن الحبوب وأضرم النار فيه! سوف تدفعني إلى فعل ذلك يا ماتفي!"

زحف الصبي إلى الخارج وهو يرتجف من الخوف، ووقف في المدخل، دون التفوه بأية كلمة. قاده والده إلى البستان، وجلس على العشب تحت شجرة تفاح. أخذه بين ركبتيه، وقال له بصوت خال من البهجة:

"ما الذي أخافك؟ ليس عليك أن تخاف بهذه السهولة. كيف ستواصل الحياة إن بقيت تخاف دائماً وتهرب؟ ألم تره وهو ثمل من قبل؟"
"نعم، لكنك حطمت رأسه" ذكره الصبي بلطف.

"وماذا في ذلك؟ هذا لا شيء مقارنة بما أصابه في الجيش"

ثم باشر في رواية مفصلة عن الكيفية التي يجلد فيها الجنود في الجيش. ضغط ماتفي خده على صدر والده كما يجب.

"لا تخش"، قال الرجل "هو يؤذي فقط لأنه عاجز عن فعل أي شيء أفضل. إنه رفيق طيب حقاً. وكذلك لا تخف حين يتعارك الناس. فهم يتصالحون"

تكلم بلطف، ولكن بتردد مختاراً كلماته بصعوبة واضحة. كان يقاطع نفسه بين الحين والآخر ليجلس ويحدق بصمت في السماء الفارغة ويتشاءب ويمط شفثيه السميكتين.

الأشجار التي ترصعت بنجمات صفراء من الأوراق الشابة، كانت تشرب بنهم في ضوء الشمس كانت البراعم تفتح بأصوات تشبه أصوات الفلين، وكان النحل يطن، وبدا البستان مشبعاً بروائح لذيدة.

"هل أنت نعيسان؟" سأل ماتفي بحزن.

"كلا أنا وضجران فقط. دائماً أشعر بالضجر في أيام الأحاد"

"وفي الأيام الأخرى أيضاً؟"

"وفي الأيام الأخرى أحياناً"

عصر كوجيمايكي ابنه عصرة خفيفة بركبتيه وازدادت حيويته.

"كانت الأيام الماضية أكثر فرحاً. لم تكن هادئة تماماً، ربما لأنها ممتعة أكثر. يوماً ما سوف أروي لك قصصاً عن الحياة الواقعية بدلاً من الحكايات الخرافية التي اعتدت على سماعها. أنت صبي كبير الآن، وحن الوقت لتعرف نوع الحياة التي عاشها والدك"

"أخبرني الآن" حثه ماتفي.

"ولم لا؟ قال والده: "مثلاً، كنت أعمل مع والدي (الذي يكون جدك). كنا (نقالين) نسحب قوارب نقل الأمتعة، نقطع سبعة وعشرين فيرست (مقياس روسي) في طريق الجمر مشياً على الأقدام. كان جدك رئيس النقالين. كان رجلاً ضخماً وقاسياً ومتشبهاً برأيه. لكن هذا حديث ثقيل على رعديد صغير مثلك يا مانفي: ما يزال رأسك صغيراً لحمله"

قال وهو ينظر إليه ساخراً: "من الأفضل أن تنتظر قليلاً للتحدث بهذه الأشياء"

"كلا يا أبي أخبرني الآن" أصر الصبي وهو يرفع الحية والده ويبعدها. بعد لحظة من التفكير بدأ بصوت منظم وسلس:

"كنا رجالاً لدى كوستروما. عشنا على نهر فيتلوغا على بقعة بين فرعين، الأوشما والنبشما، في عمق الغابات في مكان مريح ومناسب جداً للإنسان والوحش على السواء. كان الأوشمي والنبشمي يغصان بسماك البيرش - ليس هناك إحصاء لكل السمك الذي اصطدته وأنا صبي. لكنه أفضل سمك يوجد في نهر كوتوروس قرب روستوف الكبرى. هناك بلدة جميلة تناسبك أيها الصبي! ليس فيها مداخن مثل تلك التي في روستوف، وقلعة البلدة العvisية لا يمكن أن تؤخذ: لم يستطع التتار أو البولونيون أو حتى بونابرت نفسه أن يأخذها (بجتلها)^(١). احتل موسكو وروسيا كلها، ولكن حينها وصل إلى روستوف، مشى حول أسوارها وهو يحك رأسه وقال لجنرالاته: لا يمكننا فعل شيء هنا يا أعزائي، لا يمكننا الاستيلاء على هذه البلدة. لقد قال هذا ليخدعهم. وهكذا تمت العملية في الليل، حين ركب حصانه ولفّ حول أسوارها. استمر الرهبان بقرع الأجراس المصنوعة من الفضة النقية التي أخذها أهل البلدة من

المتسولين عن طريق الغش. كان المتسول يعطي قطعة فضية ويبدلها له أهالي روستوف بقطعة نحاسية. لقد خدعوا المتسولين طبعاً. لكن الأجراس كانت مفيدة. حسناً هذا القرع لَين قلب نابليون. "لقد أخذت كل شيء" قال لنفسه. (لكن ما الفائدة منها؟ أنا رجل بلا ذرية). هذا لأن أولاده ماتوا كلهم، وذلك هو السبب الحقيقي الذي منع أولاده من لمس روستوف... حسناً، الآن نعود إلى سمك البيرش: البيرش يا بني سمكة كسولة نهمة، ويجب أن تتعلم كيف تمسك بها. ذهبنا مرة أنا وأبي إلى أوشما لصيد سمك البيرش. مشينا عبر الغابة وكانت مظلمة. وفجأة رأينا مالك الأرض من قرية بولوتين قادماً وبندقيته بيده وحقيبة الصيد على ظهره. والدي (يعني جدك) همس لي: (اختبئ بين الشجيرات). غطستُ، واستلقيتُ حابساً أنفاسي.

نخر كوجياماكين وتوقف عن الكلام. نقل عينيه في البستان ثانية، ثم استقرنا بهدوء على قبب الكنيسة. الصبي الذي كان يسرح لحية والده بأصابعه، لكز بكوعه صدر والده بعد أن نفذ صبره:

"تابع" قال متأملاً.

"هم" قال والده بنعومة وباختصار: "حسناً، بعد ذلك هرب جدك إلى رايبني ليعمل ناقلًا هناك"
"ومالك الأرض؟"

"مالك الأرض؟ هو - ت - ار" تتمم والده متقلباً وهو يحرق في السماء،
"في تلك الأيام يا بني كان ملاكو الأراضي يفعلون ما يشاؤون بأقنانهم. أقنانهم لا يستطيعون أن يقولوا إن أرواحهم لهم، وكانوا يخشون هؤلاء الملاكين أكثر من الشيطان نفسه أو عفاريت المستنقع. أختي (أي عمك)"،

جذب الرجل ذو الشعر الأحمر نفساً عميقاً، وقال بحزن "ها نحن نعود إليك ثانية! بما أن لقصتي علاقة بالكيفية التي يعيش فيها الناس، فإنه تتعذر روايتها لطفل صغير مثلك. ذلك لا يمكن. هذا كل ما في الأمر. اركض الآن واجلس بجانب البوابة كي آخذ غفوة وأعيد التفكير في الأشياء" أرخى ركبتيه ودفع الطفل بعيداً عنه.

وجد ماتفي حارس الفناء جالساً على الشرفة بجانب البوابة، مرتدياً سترة حمراء وسروالاً أزرق، جلس بلا حراك كما كان يفعل دائماً. ألصق ظهره العريض بالسياج، وغرز يديه في الحزام، وقد خلا وجهه المبشور من أي تعبير. كان تنفسه ثقیلاً كالسكران، وهناك نظرة ثمل في عينيه شبه المغمضتين اللتين كانتا تحدقان أمامهما بثبات.

دائماً كان الجواب الوحيد الذي يرد به على أسئلة الصبي:

"أنت لا تعرف، من يعرف؟ لا أحد يعرف"

لكنه كان يتمتم بصوت هس وغير متناسك أحياناً، كما لو كان ثملاً. "هناك شيء وحيد أريده: أن أجد الطريق. أين ستصل لو مشيت بشكل مستقيم لمدة سنة؟ لا أحد يعرف. خمس سنوات؟ لا أحد يعرف، لا أحد يعرف أي شيء. هم يجلسون هنا وهناك. إنهم يملؤون الفراغ" كان يشرد ثم يحدق طويلاً بقدميه بشكل متعمد، وكأنه لم يستطع أن يكتشف ما هي وظيفتهما. وفي الحال تبدأ الكلمات العلنية المشبعة باللعب بالتدفق من فمه ثانية.

قال لي رجل مرة في بسكوف: أنا مشيت ستة آلاف فيرست (مقياس روسي). قلت له: وماذا في ذلك؟ لا شيء. قلت إذاً ليس هناك نهاية للعالم أليس كذلك؟ قال: من يعرف، ثم سرق قميصي بعد ذلك.

مرة ثانية انطلقت أفكاره في التجول. ثم لكز ماتفى لكزة خفيفة في أضلاعه، وقال:

"ماذا لو مشيت إلى حافة البحر، البحر الأخير الذي ليس له شواطئ؟ بحر قزوين له شواطئ، القرغيزيون يعرفون ذلك، لقد مشوا حوله. إنهم سحرة على الأغلب"

كان هناك شيء محزن وكتيب لا يمكن الإفصاح عنه حول هذا الرجل. لا أحد في البيت يحبه؛ قالوا إنه مجنون ويشتمونه بسبب كسله. ماتفى لا يحبه أيضاً، وكان يتوتر حين يكون معه ويخاف أحياناً، وفي مناسبات ما، أثارت كلماته المحرفة والمشوشة في نفس الولد اشمزازاً من الناس، وجعله يبتعد ويختبئ في ركن يحدق منه بنظرات كثيفة في البيت لساعات متواصلة.

كان بيت كوجيمايكيين مكتباً لأراضي آل بوبنوف سابقاً، لكنه بات الآن معزولاً عن ملكية المالك بأرض يباب، وبقيت آثار الجناح محروق من البيت الكبير. غطت الموقع أشجار القنب البري والحماض والأرقطيون وصريمة الجدي والقراص، وانتصبت وسطها سوق الأشجار السوداء بحزن، وامتدت الفروع الجديدة المنبثقة بوهم نحو الشمس، لكن الأعشاب الضارة خنقتها وحولتها إلى غصينات رفيعة جافة مثل شعيرات شائبة وسط العشب الأخضر.

انتصب بيت كوجيمايكيين المبنى من زنود الخشب على جانب الطريق واستلقى منخفضاً. كانت نافذتا البيت الجانبيان محجوبتين عن أعين الفضوليين بواسطة شبك وأشجار الحديقة الأمامية. وكان الفناء مغلقاً بسياج عالٍ مع بوابات قوية مركبة على أعمدة صلبة من السنديان. مقابل الفناء توجد واجهة المبنى مع شرفة منحوتة في الوسط. تطل نوافذه الأمامية

الست على الطابق الثاني المظلم والخالى والمسدود بألواح خشبية لبيت الملاك مع سقفه الأحمر الذي أكله الصدأ، ومؤشر الريح المعوج، ومداخن خربتها الريح، ونوافذ ناتئة من السقف المائل تشبه عيوناً مغمضة بازدراء. طيور من الحمام الرمادي وجدت منفذاً لها عبر النوافذ المكسورة، وجعلت من العلبة عشاً لها، ويمكن رؤية القطط الجائعة وهي تتسلل من فوق السقف ترصد الطيور الغبية البليدة.

كان السقف العلوي لبيت آل كوجيايكيين مصدعاً بطريقة غريبة وغير متوقعة، وكانت نافذتنا السطح بإطاريهما المتقرحين البليدين مثل عيني بومة تحدقان في ضوء النهار دون أن تغمضا أو ترفا. في الجانب الآخر للبيت يقع بستان ضيق وطويل وحديقة مع حمام يتصب وسط صفوف من الجزر والشمندر واللفت في الجانب الآخر من بستان ثمر التوت. بستان الفاكهة والحديقة مطوقان بسياج عال، مع مسامير منتصبة على طول قمته. في الجانب الآخر من هذا السياج هناك حديقة الدبر. وسط الخضرة الكثيفة توجد أشجار زيزفون عتيقة تعلو القباب الزرق للكنسيتين الصغيرتين التابعتين للدير: كنيسة صيفية وأخرى شتوية. حين تزهر أشجار الزيزفون تزين البتلات الساقطة سقوف أبنية الدير الرمادية. كانت إحدى الأشجار عالية جداً لدرجة أن أغصانها وصلت إلى نافذة برج الأجراس، وكان في إمكان أوراقها الحريرية لمس الأجراس.

كان الفناء المربع لبيت كوجيايكيين مملوءاً بكل أنواع المراحيض الخارجية، التي توفر أمكنة هادئة ومفتوحة للاختباء. يقع المخزن الثابت والقوي مقابل البوابة الأمامية وقد مدّ جذوراً قوية في الأرض، وانتصب بطفح بمخزونه من بذور القنب الرمادية الفضية. لقد بهت لونه تحت أشعة

شمس لا تحصى، وغسل بهطولات أمطار لا تعد. في الطقس الجميل والجاف، تفتح أبوابه على مصاريعها، فيبدو مثل موقد هائل امتلاً سخام دخان متصلب ينفث رائحة زيت بذور القنب والزفت. عبر تلك الأبواب يصل المرء إلى مشغل الحبال الذي يقع وسط فراغ مكشوف يمتد إلى الحقول، وكان مثلها مغطى بالأعشاب الضارة باستثناء ممشى عريض في الوسط كانت ترتعش فوقه ألياف رمادية من القنب، كانت مربوطة من طرفها البعيد بمزجحة مثبتة للأسفل بقطع من القرميد. في الوسط، ومقابل باب الحظيرة، دولاب شاقولي بكلايب حديدية بدور بيطء على قاعدة قوية من السنديان. تنهمر من تلك الكلايب خيوط الليف الناعمة، حين يدور الدولاب من قبل رجل شبه أعمى وشبه مجنون يدعى فالانتين. بينما كان الدولاب يصدر صريره، كان فالانتين يكرر أغنية واحدة تلو الأخرى بصوت واهن جداً، لدرجة لم يفهم فيها مانفي أي كلمة. مضارب القنب يشغلها رجلاًن، ورجلاًن آخران يمشطان القنب. أما العجوز بوشكاريوف فكان يتنقل بينهم، وهو ملوث بالقار، وعليه خصل من القنب. لقد بدا مثل دب الفجر الراقص.

الرجال كلهم كانوا يتحركون بخمول ومن دون كلام. كان بوشكاريوف يحرك الدولاب لوحده بملل، ويتلمس شد الألياف بأصابعه المتسخة، ويفرص لينلصص عبرها بواسطة عيون شبه مغمضة، ثم يركض على ساقيه المتيبستين إلى نهاية الفراغ المكشوف ليقبل أو يزيد ثقل المزجحة. كان يسعل ويتمتم لنفسه، ثم يجلس على قرمة شجر ويمسك المعداد ويحمله في الهواء ويدفع حبات الخرز إلى الوراء وإلى الأمام. يشتم بغضب كلما أمسكت بأسلاك معوجة أو التصقت بأصابعه الملوثة بالقطران. يضع المعداد ليلتقط دفترأ ضيقاً ويخربش عليه بعقب قلم رصاص، ثم يدفعه بين شفتيه

الشاحبتين. لم يكن يلبس قبعة أبداً. وكان وجهه الأحمر المغطى بلحية رمادية قصيرة مثل فحمة متوهجة مرشوشة بالرماد.

حين لا يجد ماتفي ما يفعله، كان يتسلق فوق سقف مخزن القبو، حيث يخزن فيه الزيت والزيت وأدوات أخرى. كانت تظلمه أغصان كثيفة لشجرة حور قديمة. ومن هذه النقطة المفضلة كان يمسح الفراغ المفتوح المغطى بالأعشاب الضارة وسوق القنب كله والتلال المنقطة التي وراءه والجريس ونبات الخوذان، لكنها كانت عقيمة وخفيفة بالمجمل. على التلال ترعى أبقار بنية اللون وأغنام رمادية. ومن السماء المظلمة تتلألأ شمس هزيلة تسكب حرارتها على التربة الضحلة. وراء القمم الجرداء يمكن رؤية الحدود الخشنة لغابة. كان الهواء الثقيل مشبعاً برائحة القنب والزيت، تلك الرائحة التي غطت على نكهة عطر بسايتين الفاكهة التي كان ينضج فيها التفاح والكرز والعنب الأسود المتدلي بعناقيد معطرة جداً.

على اليمين يقع البيت المهجور وبقايا الجناح المتفحم. على اليسار يقع الدير الصامت، ومن كل جانب كآبة عظيمة غزت الروح المنعزلة للولد الصغير، وأخذت كل رغبة وابتلعته كما تبتلع مياه المستنقع الفاترة أشعة الشمس.

حاول بوشكاريوف أن يسلي الصبي، فكان يصيح له بصوت خشن بمجرد أن يلمحه:

"تعال إلى هنا أيها الصبي!"

وحين يأتي، كان يحدثه عن قدر الجنود القاسي.

"هل تريد أن أغني لك أغنية؟" سأله ذات مرة، "أغنية جميلة يا ولدي."

ومن دون أن ينتظر جواباً، كان يلوي وجهه كما لو أنه يحاول أن يغلق عينيه، ثم يبدأ بصوت أنشوي عال:

ضباطنا صارمون بشكل مرعب

وفجأة تلمع عيناه بوحشية ويتنقل إلى نغمة خشنة:

صارمون جداً.....

ثم مرة أخرى يتحول إلى النحيب العالي:

كم مرة عوقبنا

ثم يتنقل إلى نغمة خشنة:

عوقبنا!

في النهاية، يغلق عينيه، ويهز رأسه متكلماً بصوت قصير وحاد وممطوط:

هم أعطوا الأمر: تقدموا إلى الأمام!

رغم الطريقة الهزلية التي غناها بها، إلا أن ماتفي وجدها مثيرة للكآبة.

"لم تحبها أليس كذلك؟" سأل بوشكاريوف بدهشة "هم! هذا لأنني لم

أغنها من بدايتها، إنها تبدأ بالشكل التالي:

أنباء سيئة انتشرت في كل أرجاء الأرض

وسمعت من قبل كل شخص

بأن القبصر دعا الصبيان للتجنيد

سوف يلبسهم بزات الجنود

"لا أريد سماعها" قال ماتفي وهرب. أمسكته فلاسييفنا، وجرته إلى

داخل المطبخ، حيث وضعته على الطاولة أمامها، وقالت وهي تصر شفيتها

بشكل مؤثر:

"دعنا، أنت وأنا، نستمع بحديث هادئ وجميل، أفضل من الاختباء في الزاوية مثل عنكبوت. هل تعرف العدد الذي يقاس به عمر الرب؟ سألت برزانة.

"كلا" رد الصبي برزانة.

"انتبه إلي، وإلا فلن تتذكر" قالت الطباخة البدينة "الرقم هو ٣٣. لاحظ ذلك. وما هو عدد الأجيال من آدم حتى ولادة سيدنا المولى؟
"لا أعرف"

"ثلاثمئة. والآن أصغ إلى هذا" ونظاهرت بنغمة واثقة: "ذلك الشيطان الشرير قال لنفسه: أنا سأجعل نفسي ضعف العدد ٦٦٦ لكنه نسي أن الصليب مصنوع من ثلاثة أقسام وليس ستة. إنه أحق. وهكذا منذ ذلك اليوم بات الشيطان جلياً مثل الأنف على وجهك لكل شخص لم يكن من القراصين^(٣) ويتمسك بالإيمان الحقيقي القديم.

لم تكن تتكلم كثيراً عن المسيح الدجال، وحين تفعل ذلك تتكلم من دون خوف وبازدراء. كان هناك شيء آخاذ في الطريقة التي يلفظ بها اسم الرب، دائماً كانت تلفظه بنغمات منخفضة، فيما تدور عينيها للأعلى وترسم إشارة الصليب كأمر عادي، كما يتقبل المرء الحرارة في الصيف والبرد في الشتاء.

كان موضوع المناقشة المفضل لدى الطباخة هو السحرة والشعوذين والسحر، وكان اهتمام ماتفي بالقصص كبير جداً، وقد خفف ذلك من شعوره بالكره نحوها.

حين كانت تتكلم عن السحر، تخفض صوتها إلى حد الهمس، ويتحول خداهما المدوران ورقبتها السمينة إلى اللون الأبيض. كانت تغلق عينيها تقريباً، ويطغى على كلماتها نوع من الهلاك البائس. روت كيف يقص

السحرة آثار قدم الضحية من الأرض، ثم ينتمون بتجسيدات فوقها لتجفف دمها؛ وكيف يثرون أنواع الحمى والأورام في الجو؛ وكيف يدقون شظايا خشبية يأخذونها من أغطية التوايت في حوافر الخيل، وفي الليل تأتي الجثة وتعذب الحصان بإرسال آلام صاعقة في ساقه.

لاحظ الصبي، المرعوب من الأشياء الرهيبة التي قالتها حول الساحرات والمشعوذين، أنها كانت تسارع وتضيف:

لكن لا تتصور أن كل السحرة شريرون -أوه- كلا هناك الجيدون منهم أيضاً، الجيدون أكثر من السيئين. هم يعرفون استخدامات الأعشاب، عشبة الجنون وعشبة البكاء والسرخس التي تشفي جذورها الأوجاع وتطرد الأرواح الشريرة، وكل ذلك يستطيع السحرة والمشعوذون فعله. مثلاً إذا أرسل لك أحد أعدائك لعنة بواسطة الريح، يستطيع الساحر إبطال السحر بتدليك حفرة إبطك بعشبة الجنون. أوه نعم، إنهم يقومون بأشياء مفيدة كثيرة.

"هل هم قديسون؟" سأل ماتفي.

فكرت فلاسييفنا لبرهة قبل أن ترد بشكل متردد: "كلا، القديسون هم أولئك الذين يلجؤون إلى الأديرة والبرية، أما السحرة فهم الذين يندفعون إلى الخارج ليهاجموا الأرواح الشريرة"

"هل يساعدهم الرب؟"

"نعم في الواقع الرب يساعد كل شخص"

"لماذا لا يقتل الأشرار بصعقهم بالبرق؟"

أطلقت فلاسييفنا تنهيدة عميقة، وأجابت: "أعتقد أنه يشعر بالأسف نحوهم. فهم، أولاً وأخيراً، مخلوقاته أيضاً"

لكن من بين كل الأشياء التي سمعها ماتفي في ذلك الوقت، حديث جرى مع والده عن الفولغا، كان له الأثر الأكبر عليه. لقد حدث ذلك في مساء يوم ربيعي في البستان عند عودة والده من شراء القنب من القرى المجاورة. كان والده في مزاج تأملي ولطيف، وكانت نغمة صوته تنم عن شخص كان مدركاً لخطاياها بعمق.

جلسا إلى طاولة وسط نبات التوت. أسند كوجبمايكن رأسه إلى الخلف، وأخذ نفساً عميقاً، ومدّ ذراعه:

"نعم يا بني الفولغا هناك - الفولغا الأم - عريض بشكل رائع وعميق وساطع ويتدفق بشكل دائم، كما لو كان في صميمك أو بالأحرى من خارج قلبك، وجماله يتجاوز كل إدراك حين يمتد هناك في عمر مائي فسيح مذهب بأشعة الشمس، ونجري القوارب بخفة وسرعة فوقه فاردة أشرعتها مثل بجعات بيضاء قوية بجناح واحد. تتحرك ببلاني ذهبية ببطء مثل سيدات جبيلات في تنانير قطنية بيضاء. وتتحرك موشكاتي وكلومنكي وكل أنواع الزوارق والمراكب تتحرك ذهاباً وإياباً فوق مياه زرقاء، تبدو كأنها خبطت بخيط براق على قماش من المخمل. كانت بعض الأشرطة بحواشٍ حمراء، وعلى قمة صواربها مؤشر اتجاه الرياح كدبك أو سهم أو سيف نشد عليه قبضته لم توضع هناك لتبين الجهة التي تهب منها الرياح فقط، وإنما لهدف جمالي على الأكثر. ولقد نحتت حواف الأسقف فوق الدكات في أشكال طيور وبهائم، وطلبت بكل ألوان قوس قزح، ورفرفت أعلام زاهية من الصواري، انعكست صورها كلها في النهر كما في مرآة، تتحرك وترتجف، حية آه يا ماتفي!"

رغم كلماته بصوت غنائي خفيض، وحرك أصابع يده اليسرى الغليظة، كما لو أنه يلتقط أوتار الغولسي (أداة موسيقية وترية روسية قديمة) ليعزف

عليها مزمو ر داوود، ثم أسقط بده، ورسم دوائر وصلبان على الطاولة واستمر في تأمله.

"حين تبجر في النهر على زورق تأتي الضفاف لتستقبلك. تقبع البلدات والقرى على حافة الماء. تنطلق القوارب كالسهام من حولك ومثل العصافير. صبادو السمك يرمون شباكهم. وفي أيام الأحاد والعطل يتجمع الناس في حشود مبتهجين على الضفاف، وعباءات النساء مثل الستة من اللهب المشتعل. يعيش فلاحو الفولغا عيشة رغيدة ويرتدون ثياباً جميلة، نساؤهم أيضاً يكسبن كوبيكاً، المال متوفر وكثير والثياب رخيصة. أحياناً يطفر قلبك من الفرح حين تلمع ضفة النهر، وتضحك من كل قلبك وتمتف: "مرحباً أيها القوم الأخيار! إنها حياة جميلة أليس كذلك؟". يمر البورلاكي (النقالون) زورقاً كبيراً بالحبال، ويلتوي الرجال في عقد مثل البرتيزل (نوع من البسكوت) على خيط، ويبدون صفاراً جداً من بعيد، ويأتي صوت أغنيتهم إليك مثل نحلات كبيرة تطير في سرب في مكان ما خارج مدى البصر. في الليل يكون النهر قائماً ومظلماً وفضياً تحت ضوء القمر، وتومض الأنوار في نقاط الرسو، تهتز في المياه السوداء وتحرق عالياً في السماء كما لو كانت من قاع النهر. ومن السماء العالية تتدلى نجومنا الروسية، ويبدو كل شيء لك قريباً وقريباً إليك، وسيكون قلبك على حق إذا انفجر بالفرح من هذا كله. أمنا الفولغا تبدو كأنها تلف ذراعيها حولك وتقول بلطف: لا تقلق يا بني، كل شيء سيكون على ما يرام. أعطانا الرب الفولغا ليخفف عنا متاعبنا يا ماتفي، وحين ننظر إليه يمتلأ قلبك بالفرح، ولا تحتاج أو تريد أي شيء، سوى أن تتبعه وتواصل السير معه. الفولغا هو ذلك النوع من الأنهار يا بني"

تنهد، ثم سكت وأحنى رأسه. كان الولد صامتاً أيضاً، وشعر بالكبرياء والفرح. لم يتحدث إليه والده بهذه الحميمة وهذا الإحساس من قبل قط.

"الآن احكِ لي عن نفسك" قال بعد برهة قليلة.

"عن نفسي" رد الأب "ما الذي هناك ليحكى. أنا لا أعرف كيف أتحدث عن نفسي. كنت في الخامسة عشرة حين انطلق والدي في الفولغا. كنت صبيّاً مؤذياً. أنت صبي هادئ، أما أنا فقد كنت شيطاناً حقيقياً. لقد عوقبت مرات كثيرة على ذلك من والدي ومن آخرين ومن أي واحد شعر بأنه يود تمرين نفسه. لم أستطع تحمل ذلك الضرب، وكنت كلما تعرضت لعقوبة فررت هارباً. في أحد الأيام في بلقانا ضربني والدي ضرباً مبرحاً، فقفزت على طوف متجه إلى كوزديميانسك، ومنذ ذلك الوقت بت أعيل نفسي، وغبت عن ناظر والدي، ولم تره عيني بعد ذلك أبداً"

عقد حاجبيه الآخرين، وأطلق نخرة، ورسم إشارة الصليب على نفسه. داعب خد الطفل، ثم ضمه إليه أكثر:

"لست كبيراً كفاية لتسمع أشياء كهذه"، قال: "ليس لدي ما أحكيه لك. لو كنت أكبر سنّاً الآن"

"أنا في الحادية عشرة تقريباً" ذكره مائفي.

"حسناً، حسناً، اركض الآن ودعني أغفو. قل لفلاسييفنا أن نحضر لي الحصيرة"

"سأجلبها لك بنفسي"

"كلا دعها هي تفعل ذلك"

أصيب مائفي بالحزن، فهو لم يرغب في الذهاب بعيداً، لكنه غادر البستان. دفع البوابة الثقيلة، فانفتحت على مصراعيها أمامه. تفجرت في داخله قوة لم

يعرفها من قبل . عبر فناء البيت بمشية ثقيلة كمشية والده . وعندما وصل إلى المطبخ عاوده الحزن ثانية . كانت فلاسيفنا جالسة إلى طاولة هناك تتفحص أنفها في مرآة صغيرة . كانت ترثدي سارفان (مريول) بلبون الخزامى وبلوزة مطرزة ووشاحاً أزرق ، فبدت جميلة جداً وواثقة من نفسها .

هي أفضل مني ، فكر بحزن . ثم قال لها بلهجة قاسية : " هبه ، أنت خذي الحصيرة لوالدي "

نظرت إليه بسرعة ورشاقة ، احمرت ثم ركضت ودخلت غرفة الأب . كان سعيداً لأنه أربكها . قذف برأسه إلى الوراء وهو مقطب الجبين ، وخرج من البوابة متبخراً .

لقد منع من الخروج إلى الشارع من غير أن يكون سوزونت معه ، ولم ينتهك أمر والده قط ، لكن اليوم كان لديه نوق عظيم للجلوس خارج البوابة لوحده .

لم تكن في السماء أي غيمة ولا أي نفس في الشارع . كان أهل البلدة ، بعد أن حشوا بطونهم بفظائر الملفوف ، ينعمون بغفوة منتصف اليوم . في مكان بعيد كانت الأراجيح تصدر أصوات صرير ، وهناك فتيات يزعنقن ، ومن النهر أتت صرخات صبيانية قلصت المسافة البعيدة .

على كلا جانبي الشارع المشمس رأى وميض الزجاج في النوافذ المفتوحة وبريق الزينة التي طليت على مصاريع النوافذ . هنا وهناك طيور في أقفاص جلبت إلى الخارج وعلقت على الأشجار في الحدائق الأمامية : صدحت طيور الحسون بشهوة عارمة وغردت طيور السسكن^(١) . صفر طائر الفجر

١ - السسكن : عصفور كالحسون حاد المنقار - المترجم .

المفضل عند ماتفي بحزن على نافذة بيت بازانوف. أحبه لريشه المعتدل
وصدره الأحمر وساقه الناعمين، وبنفس القدر لأغنيته البسيطة والحزينة.
كان الطير الحبيس يذكره بأمه دائماً.

غطت صبحات الزرازير الساخرة على أغنية الربيع التي كانت تغنيها تلك
الطيور المتيمة. الزرازير السوداء واللماعة مثل قطرات من الزيت جلست
تترفرف بأجنحتها وتفتح مناقيرها الصفراء على آخرها، مقلدة الطيور
الأخرى بطريقة هزلية تمزج أغنية قبرة مع قعقعة الدجاج. تذكر ماتفي ما
روته له فلاسيقنا مرة حين سألها لماذا تقلد الزرازير الطيور الأخرى:

"لأن الزرازير حقودة وغبورة. الزرازير وعصافير الدوري لا تؤمن
بالرب، لهذا لم تمنح أغنية خاصة بها كما هو الأمر عند البشر، إن لم تكن مؤمناً
فليس لديك ما تقوله"

حديق الطفل في طول الشارع المكسو بالعشب، ونخيله صدر الفولغا
الأزرق الواسع.

كان الشارع هو النهر، أما البيوت والحدائق فكانت ضفتيه. لكن ذلك لم
يهزه ويؤثر فيه بقدر نصف قصص والده.

فجأة سمع نكة المزلاج الحادة ورأى والده في المدخل. كانت شفة الرجل
السفلى ناتئة، وكان يحديق في الشارع بعيون شبه مغمضة:
"تعال إلى هنا" قال.

حين أصبحا داخل الفناء، أمسك بابنه من كتفه.
"شيء جميل" قال مكشراً "ألم أقل لك إنني لست الشخص الذي يصل
إليك قبل أن تفكر وتجرب الخروج من البوابة، ألم أخبرك ألا تخرج وحدك؟
بالإضافة إلى ذلك، لقد كنت فظاً مع فلاسيقيا في المطبخ"

"كلام أكن" أجاب وعبونه مطرقة نحو الأرض.

"لقد قالت إنك كنت كذلك"

"لم أكن"

تمشى والده لبرهة ذهاباً وإياباً وهو يحرق في زوايا الفناء كأنه يبحث عن
مخبأ. عندما أخذه والده إلى غرفته أخيراً، أغلق الباب وجلس على السرير،
وثبت الطفل أمامه ممسكاً إياه بركبتيه السميتين.

"أريد أن أتحدث معك مرة أخرى، هذه المرة عن مسائل هامة"

وضع يده الثقيلة على رأس ماتفي، ووضع اليد الأخرى، التي فقد منها
أحد مفاصل الأصبع الصغير على وجهه القلق المتورد:

"ربما أنا في الثالثة والخمسين فقط، إلا أنني عشت حياة قاسية. عظامي
كلها تؤلمني في الليل وهناك وجع في قلبي وأشعر بأنه ليس في مكانه
الصحيح؛ هناك شيء يعصره دائماً، وكأن هناك مقبض مستمر في الإمساك
به وإيقافه. هذا هو الحال مع قلبي"

أسف ماتفي على حال والده واقترب منه وقال:

"حالة وستزول"

رفع الأب عينيه إلى السقف وقد ارتعش رأسه وتدلّت شفته السفلى، ثم
أطلق حسرة:

"كل شيء سيزول حين أموت" تتمم قائلاً "لكن إلى ذلك الحين سأظل
أتوجع"

بدت يده تزيد من ثقلها.

"والأكثر من ذلك" قال وهو ينظر خارج النافذة "أنني أفكر
بالزواج"

"من فلاسييفنا" سأل أبنه وهو يخفي رأسه تحت لحية والده.

"كلا من واحدة غيرها"

ابتسم ماتفي في ارتياح:

"أنا مسرور بأنها ليست هي"

"هل تقول بأنك مسرور؟"

"نعم" همس الطفل "هي تتحدث عن السحرة والمشعوذين دائماً"

"أنا لا أو من بهم يا بني" قال والده بابتهاج "لقد لكمت وجوه هؤلاء

المشعوذين في الآحاد وغيرها من أيام الأسبوع، وفي أحد الأيام أطبقت على

عنق طحان مشعوذ"

توقف، وأغلق عينيه. هز رأسه باحتقار وتنهد ثانية:

"وهكذا سيكون لك زوجة أب يا بني"

"هل هي صغيرة في العمر؟" سأل ماتفي.

"هي كذلك تماماً"

عرف ماتفي لماذا يتزوج الناس، الطريقة التي يتحدث فيها بوشكاريوف

وفلاسييفنا والخدم عن الجنس أوضحت له الأشياء منذ زمن بعيد. لقد كان

مسروراً أن والده هجر فلاسييفنا، وناق لمعرفة من تكون زوجة والده. لكن

في الوقت نفسه شعر بحزن يغمره ويفقده الرغبة في التحدث.

"أوه يا إلهي يا إلهي!" زفر والده "النساء شيء لا يمكنك فهمه الآن.

المسألة كلها مسألة قدر، شيء لا مفر منه حتى بالنسبة إلى الرهبان"

"لقد كانت لك زوجة سابقاً" قال ماتفي وهو يصارع ليمنع دموعه من

الانهمار.

"نعم فعلت ذلك مرة، وسأفعلها ثانية. أنت تحتاج إلى شخص ما يعتني بك، شخص طيب وعطوف. ولقد وجدت مثل هذا الشخص"

أدار نظره إلى عتبة النافذة؛ حيث كان أصبسان للزهور وقارورة مملوءة بشراب ذهبي: "أمك كانت ذكية يا ولدي"، وأكمل بصوت منخفض: "ذكية جداً وهادئة، فهمت كل شيء، وحزنت كثيراً من أجل الناس، لذلك كان الدبر المكان الوحيد المناسب لها. لهذا ذهبت إلى دبر وعاشت فيه"

"هل هي في دبر؟" سأل "دبرنا ذلك الذي يوجد في بيتنا؟"

"كلا" قال والده وهو يهز رأسه بحزن "إنها بعيدة، بعيدة جداً. في مكان ما بعيد في عمق الغابة، لا أحد يعرف أين يكون. أنا لا أعرف؛ فعلت كل شيء، تملقتها وهددتها. قلت "فارفا! فكري بما تفعلينه يا فارفا، سوف أقيدك بالسلاسل، أنت امرأة مشاكسة!" جلست على ركبتيها ونظرت إلي، ليس لي طاقة على تحمل نظرها نلك. دخلت القلب مباشرة. دفعتها وأخبرتها أن تنصرف، كانت ستذهب زحفاً على ركبتيها، ونظرت إلي فقط. لم تطلب مني أبداً أن أتركها. كانت تنظر إلي فقط"

سالت الدموع على خدي ماتفي؛ كانت دموع حزن وفرح، فيما هو بسمع والده يتحدث بهذه الطريقة عن أمه.

انحنى الرجل وغطى وجه الصبي بلحيته الحمراء ثم قبله.

"أنت أخذت منها عيونها" همس قائلاً "وأنت أيضاً تفهم كل شيء كما يبدو؛ أه أيها الشاب المسكين الذي أضحت أمه راهبة"

ابتلت لحيته أكثر. شعر ماتفي بطعنة حادة من الحب والتعاطف مع الرجل الضخم ذي الشعر الأحمر الذي عانى كما عانى هو نفسه كثيراً ومراراً.

بعد أن عرف ماتفي الآن أن أمه أصبحت راهبة، وجد فلاسييفنا كريمة أكثر، وتحاشى أن يكون معها، ولم يعد ينظر في وجهها أبداً حين مخاطبه، ولاحظ كذلك برضا معين أنها بدأت تنكمش، فلم تكن تلبس مريولات مبهرجة بعد ذلك وكانت تتنقل برأس منكس وشفتين مشدودتين.

بعد هذا بوقت قصير مرض والده، ظل لمدة أسبوعين مستلقياً على الحصيرة الرمادية على أرض غرفته، وقد غطت وجهه بشور سوداء. ويوماً بعد يوم كان الطفل يجلس بجانبه ويستمع إلى صوته الأَجَش الذي كان يقطعه السعال كثيراً.

كانت النوافذ مغلقة بإحكام والغرفة مظلمة وباردة، وذهن الطفل الجالس سريع التأثير يتشرب ما يخبره به والده بسهولة.

"كنت رجلاً عادياً بسيطاً، مخلصاً وصريحاً وجديراً بالثقة، إلا أن الأندال نالوا مني؛ هناك نوع من الروس يبدون طيبين من الخارج ويتكلمون مثل الرجال الصارمين الشرفاء، لكنهم أوغاد من الداخل لا يثقون بأحد ولا يمكن الثقة بهم. إنهم ينسللون إلى روحك مثل دودة ويقضمونها قبل أن تعرفهم؛ كان من السهل عليهم أن يقيموا صداقة معي - كل شخص مرح صادفته كان صديقي، استغل الأوغاد هذا. حين تصبح كبيراً وناضجاً ياماتفي ربما تسمع الناس يقولون عني أشياء سيئة، مثل أنني لم أجمع مالي بطريقة غير شريفة أو شيء من هذا القبيل لكن لا تصدقهم يا بني"

"لن أفعل" وعده الصبي.

"لا تصدقهم. المال؟ كل شخص يناله بنفس الطريقة، وذلك بانتزاع فرصته واختطافها. إن كنت محظوظاً ستصبح غنياً، وإن كنت غير محظوظ

ستبقى متسولاً مهما كان عدد الأشخاص الذين تسرقهم؛ الأمر برمته مغامرة. القمار يؤدي إلى الشجار غالباً، لكن ماذا في ذلك؟ لا يمكن تجنبه: ذلك هو قدرنا، أن نحيا بواسطة القمار، أنا لا أتباهى؛ ربما ما فعلته كان خطأ وضد وصايا الرب، بيد أن الجميع يفعلون هذا، هؤلاء الخجلون الذين لا يعصون الوصايا يصبحون رهباناً وراهبات. أما نحن فلا نستطيع أن نذهب ونعيش في الأديرة، سيموت الرهبان جوعاً إن فعلنا ذلك. والإنسان لا يستطيع العيش وحده؛ حتى السمك يسبح في أسراب ويلتهم بعضه بعضاً"

"مقارنة بالآخرين لا أظن أنني مذنب كبير. خذ المنطقة التي انحدر منها فورغورود؛ كل الرجال الأغنياء كانوا للصوصاً دائماً. سوكونين مثلاً، صاحب السفينة البخارية وأحد كبار الكاتدرائية - أنت لا تعرفه - كان صديقاً حياً لمكسيم باشليك^(١)، وبالعودة إلى العشرينات وما قبلها كان مكسيم رئيس عصابة تعمل في منطقة الفولغا العليا. في أحد الأيام ذهبوا بالاخنا وسلبوا زوييف التاجر المشهور كل أملاكه؛ سبعة براميل من الذهب والفضة؛ لم يكن عدد رجال عصابته كبيراً، لكنهم كانوا من النخبة، وتم اختيارهم بعناية شديدة. لم يتم القبض على أي منهم. فكر في ذلك. اليوم سوكونين رجل ورع وله حظوة كبيرة عند السلطات. وهناك الكثير مثله. خذ آل ماسلوف تجار السمك الكبار؛ حصلوا على انطلاقتهم بواسطة نقود مزيفة، والآن المعجوز ماسلوف يتمشى هنا وهناك وقد علقت على صدره ميدالية ذهبية. لا تعتقد أنني ألوم أحداً؛ أنا أخبرك فقط؛ في الأيام الماضية كل منطقة أعلى الفولغا عاشت من السطو على الطرقات الرئيسية واشتهرت فورغورود بهذا، وهذا هو سبب ازدهارها الكبير. كل عائلة لديها فضيحتها المخبأة، واليوم كل واحدة لديها بعض الأقارب من رهبان

أو راهبات أو حتى نساك ليكفروا عن خطاياهم التي ارتكبوها في الماضي؛ في البداية كانت سرقة الطرق الرئيسية والنقود المزيفة ثم حرب القرم؛ أثناء الحرب قدم أهالي فورغورود اللحاء وزيفوه كجلد لصنع أحذية للجيش، فأخذت النقود تصب في أحضان التجار في تلك الأيام. النقود الفضية كانت تغرف بالمكيال. خلال المجاعة في الأربعينيات، ذهب لابزين تاجر الحبوب الكبير إلى الحاكم بيوتورلين وقال "أنا أعطي ثلاثة مكاييل مملوءة بالفضة للجائعين" سألوه: "كم؟" قال "ثلاثة مكاييل مملوءة، وأنا لا أستطيع عد ما يحتويه المكيال من قطع نقدية فضية" كلاً لم يكونوا بخلاء في أموالهم؛ كانوا يرمونها مثل النبلاء، لكن هناك فرق كبير واحد بينهم وبين الأفضل منهم: يعرف أفراد الطبقة الأرستقراطية كيف يعيشون، نعم يعرفون يا بني؛ يعرفون كيف يعيشون"

ابتسم الرجل المعجوز، وكأن ذكرى ما حضرته، وأغلق عينيه ولم يقل شيئاً لبرهة.

"تذكر شيئاً واحداً" تابع قائلاً أخيراً: "لا توجد زهرة بلا شوكة، لكن طالما هناك زهرة فهناك شوكة إذاً، ربنا الروسي رب طيب. إنه يتحمل أي شيء. يستطيع أن يرى أن فينا غباء أكثر من السوء. آه يا بني عليك أن تتوقف وتفكر طويلاً قبل إلقاء اللوم على أفعال شخص ما؛ إننا نتسرع في اللوم. نحن نخطئ كبشر ونعاقب كحيوانات - نظير إلى أفواه بعضنا ونزهِق حيواننا"

تساءل الصبي وهو يصغي عن السبب الذي جعل والده يعيش هذه الحياة المنعزلة. لم يكن يزوره أحد قط سوى الدكتور ماركوف والشماس كورنيف، ولم يخرج من البيت في مشوار إلا نادراً كما كان يفعل أهل البلدة

الذين يرتدون أفضل ثيابهم ويخرجون مع زوجاتهم وأطفالهم. إنه يواظب في الذهاب إلى كنيسة القديس نيقولا، أفقر كنيسة في البلدة ولم يذهب ماتفي إلى دير جميل حيث يذهب الأغنياء لتأدية الصلاة. كلما دخل آل كوجيباكيين إلى كنيستهم المزدهمة والمظلمة، يلاحظ الصبي أن الناس يفسحون الطريق لوالده مترددين ويتبعونه بنظرات عدائية بطريقة غير ودية من وراء ظهره.

تذكر أن بوشكاريوف قال يوماً لسوزنت ساخراً:

"من يعرف من أي مكان أتيت أنت وسيدك، أو من أين حصل على ماله، أو من أنت في الحقيقة؟ أنا على سبيل المثال؛ هنا ولدت وتربيت وأستطيع أن أذكر أسماء أجدادي وأجداد أجدادي، العشرات منهم، وأخبرك ماذا فعلوا والسبب الذي ضربوا من أجله لكن أنت، من أنت؟"
"وهكذا يا بني أنت ترى بأن الحياة ليست شيئاً سهلاً"، تابع والده قائلاً وهو يحك صدره: "ولهذا علينا أن نعيش بطريقة ودية وأكثر بساطة، لكننا بدلاً من ذلك نحاول كل منا التتقيب عن ذنوب الآخر وإخراجها من مدفنها ليخفي ويبرر ذنوبه. يبحث عنها مثل القمل في معطف جاره. هذا ليس بالشيء الصحيح. لا أحد يشعر بالأسف من أجل أي أحد. نحن مثل قطيع من الذئاب"

"ماذا عن أمي؟" ذكره ماتفي بلطف.

"أمك؟" قال والده متأملاً: "نعم كانت تشعر بالأسف نحو الناس؛ كانت كائناً ضعيفاً وصغيراً ومروصاً؛ لقد جلد والدها ووالدتها في السوق أمام عينيها. كان والدها رسام أيقونات وكانوا يعيشون في بلائنا، مكان على الأوكا، واتهم مرة بسرقة الفضة من إحدى الأيقونات، واتهمت وزوجته بإخفائها. أقسم على أنه لم يفعل ذلك، وقيل أن مالك الأرض المحلي هو من

سرقها. الآن بات مالك الأرض رجلاً ثرياً ومن كبار رجالآات الكنيسة، وهو ووالدها لم يحبا بعضهما لسبب أو لآخر. حسناً، لقد اعتقل أمها وأباها، لكنهما هربا، وأرسل عربية ملاك الأرض لإيجادهما. أمسك بهما قرب موروم، ونشب هناك شجار، وجرح والد فارفا واحداً من الرجال. كنت في يلائما في ذلك الوقت ووقفت في الحشد أنفزع على أبيها وأمها وهما يجلدان بالسوط. رأيت فارفا ملقاة على الأرض تتلوى من الألم، كأنها أصيبت بالطاعون. كان منظرها يكسر القلوب. أرسل والدها ووالدتها إلى سبيريا، وتركت وحيدة مثل خروف في غابة. تزوجنا وانتقلنا إلى هنا. اشترت هذا البيت، وبدأت مهنة الحبال، فقد كانت لدي معرفة جيدة بها وأحببتها. في البداية كانت المهنة مثل العزف على الفوسلي، أمشي ذهاباً وإياباً على طول الخيوط وأفكر بالحياة. وهكذا واصلنا العيش معاً. لم تكن حياة مريحة لكنها ودية بما يكفي. صحيح أننا تجادلنا مرة حول خلق الأذن. كان لدي زوج من الحلق من الياقوت واللؤلؤ، خلق من اللؤلؤ بحجم ظفرك، خلق جميل جداً حصلت عليه بالصدفة. "هيا، ارتديه يا فارفا" قلت لها لكنها لم تفعل "أريد لروحي أن تكون جميلة وليس جسدي" قالت. قلت "أيتها الغيبة الصغيرة ألا تستطيعين تعليق خلق في روحك؟" وتشاجرنا كثيراً....."

رمى والده بنظرة حانية وتنحنح. جلس صامتاً مغمضاً عينيه.

تزوج سيفلي كوجيايكين بعد أن شفي من مرضه بفترة قصيرة. في الزفاف؛ لبست عروسه، تلك الشابة الطويلة، سارافانا أزرق مطرزاً بالفضة، وارتدت فوقه، رغم الحر، سترة قرمزية دمشقية حريرية. لوجهها الحسن والمدور نظرة ضبابية غامضة كأنه يذوب بالدموع، وكل ما حولها يذكر المرء بجليد يطفو على نهر في يوم ربيعي مشمس.

وقف والده إلى جانبها في معطفه الأزرق وسترته الحريرية الصفراء. ضوء المصابيح الذي سقط على الحرير الأصفر أعطى لماتفي انطباعاً بأن صدر والده يشتعل، وأن حرارة هذا الاشتعال هي التي صبغت شعر والده ووجهه بلون أحمر قان.

لبس الصبي سترة حمراء وسروال مخملي أزرق وحذاء جلدي طويل الساق أخضر ومطرز بالحرير الأحمر والأخضر حسب الطريقة الترية. كان الشهود الرسميون للزفاف هم الدكتور والشاس وبوشكاريوف وشخص له لحية سوداء ضخمة من باليمر يدعى ياكوف وهو عم العروس. حدثت المراسم في يوم عادي من أيام الأسبوع^(١). لم يكن في الكنيسة عدد كبير من الناس، لكن أزيز العجائز أنى من الأماكن المظلمة. وقفت قرب ماتفي امرأة عجوز طويلة وهزيلة ترندي ثياباً سوداء كراهية، وواصلت الهمس إلى فلاسيفنا:

"هناك شائعات كريمة في الخارج عن سيدك....." أو "قولي ما شئت لكنها لا تناسبه...." أو "تناسبه أم لا تناسبه فقد انتهى الأمر الآن. أين سيترك ذلك؟"

لماذا لا يتخلص والده من فلاسيفنا؟ فكر ماتفي.

بعد المراسم، طلبت العروس الإذن للذهاب إلى البيت في إكليها برفقة القس، لكن زوجها اعترض على ذلك "الأفضل ألا يتم ذلك" قال بطريقة هادئة.

سرت تمتمة عدم استحسان في أرجاء الكنيسة.

عادوا إلى البيت، مشى ماتفي بلا قبعة ضاغظاً الأيقونة على صدره
بكلتي يديه، وحين تعثر عند تقاطع الشارع سمع فلاسيقنا تهمس....
"انظر، لقد تعثر!"

التحق بذيل موكب الزفاف كلب مبقع كان من وقت إلى آخر يتقدم
ليركض أمام الناس، ثم اندفعت امرأة ضخمة وهزت عصا في وجهه،
وقالت:

"انصرف أيها الكلب الملعون!"

"كلب مبقع يعني حياة مبقعة في الانتظار" قال ياكوف لموجيك ذي
اللحية السوداء بصوت يمكن سماعه من نهاية الشارع إلى الآخر.
حين وصلوا إلى فناء بيتهم، بدأت النسوة جدالاً حول شيء ما. ووقفت
العروس تنتظر إليهن وقد توسعت عيناها الزرقاوان من شدة الخوف.
"أوه، أنا لا أعرف كيف...." قالت بحزن.

"أين الرقصة؟" سألت المرأة المعجوز ذات الثياب السوداء.
"إذا هي لا تعرف كيف، أليس كذلك؟" قال أحد ما بدهشة مفتعلة:
"لا نعرف كيف، هل نسمعون ذلك؟"

امرأة مكورة تزن بودين (مقياس روسي ٣٩ باوند) أمسكت العروس
من أكمامها وقالت لها:

"ابدئي بالنحيب، ابدئي بالنحيب"

وفجأة بدأت العروس بالنحيب:

آه كم أنا فتاة تعيسة

لا أب لي ولا أم

ولا حتى شقيق

ليجدوا لي زوجاً

يعطيني مهراً ولو كان عاجلاً صغيراً أو حملاً صغيراً.

"أنت أيها الإوزة السخيفة!" صرخت المرأة العجوز التي ترندي الأسود باحتقار "منى الوقت المناسب للنحيب؟ إنه قبل الذهاب إلى الكنيسة أيتها الحمقاء!"

دفع والد ماتفي المرأة بعيداً، وأخذ عروسه من يدها قائلاً وهو يضحك ضحكة قصيرة:

"انتظري حتى أوسعك ضرباً، ذلك سيكون وقتاً كافياً للنحيب"

حين وصل القس والشماس وكورنيف، اندفع كل الضيوف من الفناء إلى البيت، وتدافعوا ليجدوا لهم أمكنة على الطاولة. وبمجرد أن جلسوا باتوا منشغلين جداً بالتهام فطائر الدجاج والإسراف في شرب الفودكا والمشروبات الكحولية، لدرجة أنهم لم ينطقوا بكلمة لفترة من الوقت.

جلس ماتفي بجانب زوجة والده، واستمر ينظر في عينيها الطافحتين بالدموع اللتين ذكرناه بالبنفسج والجريس المرشوش بالندى. بدت خائفة منه، فابتعدت إلى حافة المقعد الذي تجلس عليه مسبلة رموشها المبللة. حين رأى جنبها همس في أذنها:

"يجب ألا تخافي من بابا"

أطلقت تنهيدة عالية.

طوال الفترة التي جلس فيها القس ورئيس الشماسة إلى الطاولة، لم يتكلم أحد سوى بوشكاريوف الذي روى قصصاً لا تنتهي عن قس في الجيش.

"ربما ليس لدي بندقية، لكنني أستطيع أن أشد أذنك! -وكان يقرص أذن العريف قرصة قوية".

انفجر القس ضاحكاً، قاذفا رأسه إلى الوراء مثل حصان ملجوم. سقط شعره الطويل على وجهه المبثور ودفعه خلف أذنيه. نفخ خديه ثم توقف عن الضحك فجأة، وعبس بالضيوف المجتمعين حين اقتبس مقطعاً من الكتاب المقدس بصوت عالي. وفوراً، وبصحة رئيس الشمامسة، خرج مترنحاً وهو يلوح بيده في كل الاتجاهات. وفور ذهابه نهضت المرأة المعجوز الضخمة وشدت عقدة منديلها، وقالت بصوت عالٍ ومؤنب.

"هذا خطأ فادح منك يا سافيلي إيفانوفتش ألا تحترم العادات، وهذا خطأ منك أيضاً يا بيلاجيا، وخطأ جسيم حقاً منك أنت ربة المنزل الآن ولم تقومي ونسكبي لضيوفك كأساً لشرب نخب صحتك"

"اسكبيه بنفسك أيتها المستهترة" صاح والد ماتفي وهو ينمطق.

"لا تكثرني به يا أمي" قال ياكوف مستاء، وهو يضع ملعقة من السكر في قدح الفودكا.

بدأت المرأة التي تزن بودين بالقهقهة.

"كيف يمكن أن يكون هناك حديث عن مراعاة القواعد؟" قالت "مثلاً ما فائدة وضع وردة في فطيرة دجاج؟ الكل يعرف بأن العروس ليست عذراء، لقد قطفت الوردة منذ زمن بعيد"

أحنت العروس رأسها للأسفل، وبدأت برسم إشارة الصليب على نفسها بسرعة. سمعها ماتفي وهي تهمس لنفسها "الرحمة أيتها العذراء المقدسة....."

قفز والده "انتبهي لما تقولين!" صاح بالمرأة.

تسمرت المرأة العجوز في مقعدها، وكأنها تقلصت، بينما استمر المضيف الذي قام بإيلاء صريحة وقال بلهجة أكثر هدوءاً:

"لم أدعوكم لتعلموني ما أفعل، وإنما لتشاركوا في الطعام والشراب الذي أنعم به المولى علينا"

"أنا لا أريد أي طعام" صرح ياكوف وهو يتجشأ بصوت عال، وسقط إلى الأمام على الطاولة.

"إذا تناول الشراب"

"لا أريد أي شراب، شرابك ليس طيباً"

"لأنك وضعت سكرأ فيه"

"أنضن علي بقليل من السكر؟" وضرب الطاولة براحة يده ضربة قوية: "تضن علي بقليل من السكر؟"

"أوه إذاً اجلس بهدوء" قال المضيف وهو يلوح بيده تعبيراً عن القرف. كان هناك خليط من الأصوات؛ بدأ بوشكاريوف بالتجادل مع الشماس، وتجادل ماركوف مع النسوة، وهاج ياكوف فجأة، فأزاح طبقاً رقيقاً وبعثر الملاعق بحركة من ذراعه.

"لا أريد أن أجلس هادئاً. أنا ضيفك أأست كذلك؟ أظنك تعتقد بأنك أفضل منا لأنك تعيش في بلدة؟"

"أف يالك من خنزير!" قال والد ماتفي باشمئزاز.

"من هو الخنزير؟" سأل ياكوف وهو يرمش بعينه الكلبيتين.

"إنه أنت"

جلس ياكوف يحدق به لبرهة، وقد استند على الطاولة بكتفي يديه.
اعتدل واقفاً على قدميه:

"أمي! ماريا! من الأفضل لنا أن نخرج من هنا" صرخ بصوت ثمل
ميال للبكاء.

قفزت العروس والدموع تسيل على خديها، ونحبت:
"عمي ياكوف! جدتي افدوتايا!"

"اصمتي!" صاح كوجيبا يكين بقسوة وهو يمسكها بقوة ويعبدها إلى
مقعدتها "أنا لا أعلف خنازير، هيه أيها الرفاق ارموهم إلى الخارج بما أن
طعامنا لا يعجبهم!"

بدأ بوشكاريوف وسوزونت والخدم بدفع الضيوف باتجاه الباب.
مسحت العروس التي كانت تبكي دموعها بأكمام صدرتها القطنية
الرفيعة.

"مثل قطرة تغسل نفسها" فكر ماتفي.

حين ذهبوا، نهض والده. عدّل كتفيه، ودفع رأسه إلى الوراء.
"قرارنا لن يتغير أيها الأصدقاء" قال "دعونا نستمتع قليلاً ما دامت
فينا حياة! أحضر الغوسلي خاصتك يا فاسيلي نيكيتش واعزف لنا لحناً.
وأنت يا بيلاجيا سيطري على نفسك. يكفي بكاء! لماذا أنت خائف يا
ماتفي؟ أنظر إنها ليست أكبر منك عمراً بكثير."

"عليك أن نحيا في خوف وارتعاش يا سيفلي" قال الشماس وهو يخرج
الغوسلي من الحقيبة.

"وبدلاً من ذلك هو ممسوس بعشرة شيطان" صاح بوشكاريوف.

اقترب ماتفي ليجلس على حافة مقعده، محاولاً الاقتراب من زوجة والده التي وضعت ذراعها حول كتفيه وهما يراقبان الشماس وهو يدوزن الآلة.

بدا الشماس النحيل الذي يشبه العصا في ردائه الكهنوتي الطويل مثل امرأة، كان هناك شيء متنافر بخصوص كتفيه النحيلتين ورقبته الرقيقة التي يعلوها وجه واسع مع حاجبين عريضين، ووجنتين عاليتين ولحية ناتئة. كان يفتل باستمرار خصلة شعر نمت شامة تحت عينه اليسرى ويحجر الجفن إلى الأسفل، ما جعل عينه اليمنى تبدو أصغر من اليسرى. ومضت عيناه في محجريهما العميقين بنور دافئ ينذر بحزن وبأشياء محسوسة عميقة.

أخيراً وضع الغوسلي على حافة الطاولة. كفّ أكمام ردائه وقميصه الداخلي إلى الوراء كاشفاً عن زوج أذرع نحيلة مجوفة، ومرر أصابعه النحيلة والطويلة على الأوتار.

"أصغ يا سيفلي" غنى بصوت دافئ ورش نغمات حلوة من الأوتار فوق كلماته كالندى الذي يرش على الأزهار.

أنصت إلى شكوى الجميلة فينوس

"تفاحتي نضجت وسرقت"

واسمعي الرد "أجلي شكواك"

قلبان اتحدا في هذا اليوم

عندما رأى ماتفي دموع زوجة أبيه التي كانت ما زالت تبكي، لكزها بكوعه بلطف وقال: "لا تبكي"

تابع الشماس غناءه بوقار، وانهمر وهج دافئ من عينيه الجميلتين على وجه الصبي.

الآن بات لغزنا جلياً جداً
 عروس جميلة تم اقتيادها
 إلى مذبح الكنيسة، إلى حبيبها
 وبعدها إلى سرير العرس الذي ينتظر
 "لا تبكي، أقول لك"، كرر ماتفي، لقد تأثر بالموسيقى الجميلة
 والعواطف التي أثارها وأوشك على البكاء.
 مالت المرأة للأسفل، وهمست بكلمات يعرفها بشكل جيد.
 "أشعر بالضجر الشديد!"
 "جميل جداً، لكن لا تذهبي إليه" صاح والد ماتفي وهو يخطو خطاً
 واسعة وسط الغرفة"
 "هيه أنتما أيها الرفيقان دعانا نملك شيئاً يثبت حياة في العظام الهرمة، هيا
 تعالاً!"
 "الفرح أيضاً يمكن أن يكون قساً ويسهر على راحة القلب" قال
 الشماس.
 التقط ماركوف غيتاره وجذب ركبتيه عالياً، وجلس محدودباً، ثم بدأ
 يغني بصوت عال:
 يتموج قمح الشتاء على طول الحقول الجميلة الشقراء وعرضها
 ضرب الشماس كل أوتار آله دفعة واحدة وزين اللحن برعشات عزف
 رقيقة، وأضاف صوته الغني إلى الأغنية:
 يتدفق النهر الساطع على طول المروج الخضراء وعرضها
 صر والد ماتفي كتفيه وغمز عروسه.

"تعالى يا بيلاجيا" صاح وقذف رأسه إلى الوراء، وقطع الغرفة طولاً،
فيا إحدى يديه على وركه والأخرى وراء ظهره.

"أعتقد أنه يجب على" قالت بيلاجيا وهي تنهض وتسوي ثوبها.
زاد صوت الأغنية جهورية:

في النهر الساطع تسبح ذهبية العينين^(١)
فوق الماء الساطع تجري ذهبية العينين بخفة ورشاقة
تهز جناحها عالياً وأعلى من الضفاف

انطلق كوجييايكين نحو بيلاجيا وكانت قدماه تكادان لا تلامسان
الأرض. حين أوشك على الوصول إليها، تراجع فجأة وهو يدق الإيقاع
عالياً بكمبي حذائه وكان هذا إشارة لبيلاجيا كي تلحق به، وفعلت في
انسياب جانبي، يداها على وركيها، وقد رفعت حاجبيها كأنها مندهشة
والدموع ما زالت في عينيها.

"ارحلي أيتها الشيخوخة واخرجي من هذه المعظام!" زار سيفلي
كوجييايكين.

في أعالي النهر البراق جاءت محبوبته لتقابله
ذهبية سعيدة! آه، يا للحلاوة التي حيينه فيها!
حلقت بيلاجيا حوله مثل طائر وغنت بنعومة:
وبقول الناس شيئاً رائعاً
الحياة مع من نحبين حلوة

ازداد ثقل عيني ماتفي. عبر غشاوة رمادية رأى وجه سوزونت الخشبي بحاجبيه المرفوعين وفمه المفتوح والشكل الهزيل لبوشكاريوف يتمايل في مدخل الباب مثل النواس، ورأى أمامه رشات من اللونين الأزرق والأصفر امتزجا في دوامة براقعة واتحد مع موسيقى الغوسلي والغيتار المفرحة. لقد سبب له لحن الأغنية ونقر كعاب الأقدام دوارة. لسبب ما شعر أنه غير مرتاح. لم ير والده يرقص من قبل قط. كان مسرورا، مع هذا فقد سبب له المنظر بعض الارتباك، وتمنى لو انتهى الرقص وتوقف.

"سيدي" أتى صوت سوزونت الكتيب، حارس الفناء، عبر الضجيج "تجمع بعض الأشخاص في الخارج يريدون أن يتفرجوا يا سيدي! أقول لك هناك بعض الناس تجمعوا في الخارج....."

"اطردهم بعيداً" قال كوجييايكين بخشونة بعد أن توقف ومسح العرق عن وجهه.

"إنهم يدمدمون"

"طاردهم وأبعدهم أقول لك! ناس؟ خنازير! هل تسميهم ناس؟"

"لا يمكننا أن نفعل لهم شيئاً، نحن خمسة فقط لكن ما يزال..."

"اغرب" صاح كوجييايكين وقد اكفهر وجهه.

أنت بيلاجيا وجلست بجانب ماتفي.

"انظر كم ازدادت جرأتي!" قالت بابتسامة خجولة.

فجأة رمى ذراعيه حول عنقها وقبل خدها.

"لا تخافي.... سنكون معاً...." همس بكلام غير مترابط.

"شكراً لك ماتفي" ردت بهمس وهي تقبله على جبينه، ولكنها سكبت

دموعها ثانية "يعلم الرب أنني سأفعل ما بوسعي وأنا بقربك...."

"انظر يا سيفلي!" صاح الطبيب "أهو!"

نظر الصبي إلى الأعلى. كان والده يقف أمامه مع تكشيرة عريضة على وجهه وبوشكاريوف يتمايل في مدخل الباب، عاتماً ومسطحاً، كما لو أنه نحت من لوح خشبي أتلفه الطقس. ضحك الطبيب الذي يشبه البرميل بصوت عالٍ جداً، لذلك اختفى شقا عينيه الصغيرتين تماماً، ونشوه وجه الشماس ذي القسمات الخشنة أيضاً من الضحك.

"انظر إلى ذلك الآن!" صاح ماركوف "إنه لا يستطيع الانتظار، الصغير لا يستطيع!"

"شيء جيداً جداً" قال كوجيمايكين مع ضحكة قصيرة.

شحب لون بيلاجبا، ورفت عيناها في حيرة.

"هو قبلني أولاً...." تمتت قائلة.

التصق بها خجلاً وبدأ يكي. حين رأى بوشكاريوف هذا، أمسك ماتفي من يده وأخرجه من الغرفة.

"أفسحوا الطريق، أيها البهائم الملوثة أدمغتهم!" قاد بوشكاريوف

ماتفي إلى سريره وهو يقول له وهما يخرجان "لا تكثرث بهؤلاء الحمقى"

أبقت الصرخات ودقات الكعاب وقعقة الأطباق ماتفي مستيقظاً لوقت طويل. من هذه المسافة كان هناك شيء حزين في الموسيقى والأوتار. انهمرت ظلال وأصوات خفيف عبر النافذة المفتوحة، ثم سمع غنمة غامضة كما لو أن كلبين واحد كبير والآخر صغير كانا يزجران على بعضهما.

"يا للعار..."

"أوه يا عزيزتي..."

تسلل الصبي إلى النافذة وتلصص بحذر من فوق عتبتها. رأى فلاسييفنا على منضدة تحت شجرة الكرز شعرها منكوث وكثفاها عاريتان وترنجان وبجانبيها سوزونت مع غليون في فمه. جلس منحنيًا فوقها يحدق بالأرض. كانا مغطيان بشبكة متحركة من الظل، بدت وكأنها تحاول إمساكها بشراكيها.

"أي نوع من الزوجات ستكون له؟" نحيبت فلاسييفنا بنعومة.

"قلت لك إن ذلك عار" قال الحارس بوجوم.

أبحرت نتف غيمة عبر السماء ببطء وانسابت حوافها المهترئة بجانب القمر الذي تدرج خلفها. زينة رقيقة متشابكة من الزيزفون وأغصان كرز الطيور لوحت بلطف في النسيم، وبدأ كل شيء، البستان والبيت والسماء، يدور في رقصة بطيئة.

بعد الزفاف أصبحت الحياة في البيت أشد كآبة من قبل. وكان والد ماتفي قد دهن ولمع بمرهم قوي وأصبح رقيقاً وناعماً جداً، كان يقطع الغرفة ذهاباً مبتسماً بتملق، يداه خلف ظهره يصب لنفسه مثل قط حسن التغذية، يرمي الناس بنظرة بلهاء خاوية، كأنه يحاول أن يتذكر من هم.

خشي ماتفي من أن يكون والده قد أصيب بالمرض ثانية. تحول لون وجهه من الأحمر إلى الأرجواني، وظهرت حبوب كبيرة تحت عينيه. كان يجير قدميه بصعوبة عبر أرض الغرفة. جلست بيلاجيا عند النافذة ساعة تلو الأخرى تحدق في الحديقة وهي تمص السوس أو النعناع أو السارفان ذو الألوان الزاهية التي تحتفظ فيها، أو تمضغ بذور عباد الشمس أو البندق المحمص.

"ما رأيك ببعض البندق؟" كانت تسأل ماتفي كلما اقترب منها.

لم يعرف ماذا يقول لها، وهي نفسها لم تكن من النوع البارع في المحادثة. كانت ترد على كل أسئلته بابتسامة: "نعم، لا، حسن جداً"

أحياناً كانت تحضر كل ثيابها إلى الغرفة، وتمضي ساعات في تجريبها بخمول، تبدل من الأزرق إلى القرنفلي أو من القرنفلي إلى الأحمر، ثم تجلس عند النافذة ثانية وتبكي، فتسيل دموع كبيرة غير ملحوظة على خديها دون أن يتغير التعبير المتأمل لوجهها اللطيف. كانت غرفة ماتفي بجانب غرفة والده. وفي الليل استطاع أحياناً سماع زوجة والده وهي تبكي. شعر بالأسى نحوها.

"لماذا تبكين دائماً؟" سأها مرة.

"أنا أبكي؟" سألت باندهاش، وضعت يدها على خدها "يا سلام!"
تمت بابتسامة خجولة.

"لماذا تبكين؟"

"لا أعرف هي مجرد عادة"

تقريباً، وبشكل ثابت، حين كان ماتفي يجلس معها، كان والده ينضم إليهما زاهياً في حذاء طري النعل وسروال أسود واسع وشدة براقه حمراء أو زرقاء مثبتة بحزام حريري صنعته راهبات الدير وقرآن صلاة داخل مادته.
كان مزاج والده في تلك الأيام طيباً ورائقاً. كان يضرب لحبته ويقول لابنه:

"لم تعد خائفاً من زوجة أبيك، أليس كذلك؟ حسناً أركض والعب بعيداً الآن"

لم يعد يذهب في رحلات طويلة إلى القرى ليشتري القنب أو إلى البلدة لبيع البضاعة. كان يرسل بوشكاريوف بدلاً منه.

"أبي" قال له ابنه مرة "الرجال يسألون عنك في المشغل"

"هل سافكا هناك؟"

"نعم"

"أرسله لي"

وجاء سافكا؛ صبي مفتول العضلات أنفه أفطس ووجنتاه كبيرتان، وشعره أصفر باهت مثل خيوط الكتان غير المصبوغ يتدل في خصل فوق جبينه، وأذناه وحاجباه متباعدان وأبيضان لدرجة كانا غير مرئيين تقريباً، ما جعل عينيه المدورتين الباهتتين تبدوان كما لو أنهما تخرجان من محجريهما. وقف في مدخل الباب يحدق في بيلاجيا، رأسه إلى الأمام وأسنانه تعرت عن تكشيرة بلهاء. وحين كان ماتفي ينظر إليه تحيل والده يقول له "سافكا التهم الموقد!" وسافكا يحبو إليه ويبدأ في طحن القرميد بين أسنانه الكبيرة الصفراء.

تلثم حين لفظ "سيد"، التوى كتفه الأيمن وسحب المقاطع بطريقة خبيثة متلמظة "اغرب بوجهك القبيح من هنا" قال كوجيمايكين بتلويح من يده فيه ازدراء.

في أحد الأيام جاء ثلاثة من أهالي البلدة لزيارة والد ماتفي، وأحدهم ذو شعر شائب ومجمع يدعى بازونوف قال:

"نحن قررنا -المواطنون القادة- بأن نكرمك يا سيفلي ايفانوفتش، ونطلب منك أن تتولى وضع حجر الأساس للكنيسة الجديدة. صحيح أنت من النوع العنيد، لكن بما أن سمعتك غير ملوثة كرجل أعمال فقد رأينا أن نشرفك"

جلس كوجيمايكين بصغي وقد وضع كوعيه على الطاولة، بينما شفته السفلى ناثئة وتبدو سخرية على وجهه.

"كيف ذلك، أليس هناك قوم شرفاء آخرون غيركم؟" سأل حين أكمل بازونوف "وتعتقد بأنه شرف لي أن أصدر أوامري إلى زمرة من اللصوص، هل ترى ذلك؟"

"هيا، الآن، من قال إنك ستعطي الأوامر؟"

"ليس لي رغبة في رعاية قطيع من الخنازير، شكراً لكم"

"لماذا أنت متعسف وبذيء؟"

نهض والد ماتفي ودفع رأسه إلى الوراء :

"عودوا من حيث أتيتم! ليس هناك واحد منكم أعبره أدنى اهتمام، ولا أريد منكم تكريماً أو تملقاً!"

نهض أهل البلدة، وخرجوا دون أن يقولوا كلمة، لكن بازونوف التفت إلى الورااء وهو في المدخل وقال:

"ما قالوه عنك صحيح، وجه أحمر وروح سوداء"

راقبهم كوجيمايكين وهم يخرجون ويضحكون بصوت عال، ثم شرب حتى ثمل وصرخ بأغاني بأعلى صوته وأجبر بيلاجيا على الرقص. حين دافعت عن نفسها باكية بأنها غير قادرة على الرقص بدون موسيقى، قذفها بمملحة، لكنه أخطأها وكسر الإطار الزجاجي لإحدى الأيقونات.

في المساء صبحا من ثمل، وخرج يتمشى في البستان من دون زوجته. وصل إلى سمع ماتفي حديثهما:

"أنت امرأة جميلة، يجب أن تكوني أكثر ابتهاجاً" قال الرجل بصوت خال من الروح.

"أنا أحاول ياسيفلي ايفانوفتش...."

بينما كان ماتفي جالساً بجوار النافذة، تذكر السخرية التي على وجه والده والكلمات القاسية التي خاطب بها رجال البلدة. أنساءل لماذا فكر الصبي.

بعد اختيار لحظة مناسبة، سأل والده بعد عدة أيام:

"لماذا طردتهم يا والدي؟"

بلطف أبعد سيلفي كوجيايكيين ابنه عنه قليلاً، وحدث في عينيه بشكل ثابت وقال متنهداً:

"هم ليسوا من صنفنا يا بني"، وتابع: "في زمن ما حاولت أن أصادهم، لكنهم هاجموني كما تفعل كلاب الصيد مع ثعلب، تفوهوا بعبارات معسولة، إلا أنني أستطعت رؤية مخالبتهم الحادة. وهكذا كان الأمر حرباً، سرقوني مثل قطاع الطرق - ادفع من أجل هذه وادفع من أجل تلك - حتى نفذ صبري. سرقوا حصاني وقتلوا خنزيري المخصي، استمروا في سرقة ديوكي ودجاجاتي، ولم يكتفوا بالسرقة، بل لقد أثلثوا أملاكنا بدافع الأذى المحض. كسروا أغصان أشجار التفاح والكرز التي زرعتها. زرعت التوت، فداسوا الأغصان بأقدامهم، بنيت خلايا نحل فدفعوها وأسقطوها على الأرض، حاولوا إحراق منزلي مرتين، مرة كادوا ينجحون لو أنهم اختاروا وقتاً أفضل، لكنه كان بعد هطول الأمطار، وكانت البراميل مملوءة بالماء، لذلك أستطعنا إطفاء الحريق بسهولة.

في المرة الثانية أنا نفسي أمسكت سيداً معيناً مع قدر مملوء بالفحم الحار خلف المخزن، هناك جلس على وركيه ينفخ ليشعل النار، صببت القدر كله على رأسه، يفترض أن بعض الفحم دخل تحت قميصه، وقد عرفت ذلك

من خلال صراخه وهو يركض إلى داخل الحقل: أوه - ووا، أوه - ووا! كانت ليلة مظلمة، وأستطعت أن أرى الشرارات تتطاير وتخرج منه. أضحكني الأمر. في الليل كنت أحرس ملكيتي، أختار عصا غليظة جيدة، وأذهب في جولات كانت مخيفة جداً، حتى النجوم التي كانت نضيء عبر أغصان الأشجار كانت كالأعداء"

أطلق ضحكة ودودة، لكنه في اللحظة التالية استأنف في نغمة رصينة وهو يهز رأسه متأملاً:

"بينت أسواراً عالية، ووضعت مسامير ناتئة في أعلاها، اشترت أربعة كلاب كانت قد قامت بعضة أو اثنتين من عضلة الساق، اثنان منها كانا كلبتي رعاة، يمكن لأحدهما طرح رجل أرضاً إن قفز على صدره. لكنهم سمموا الكلاب. لهذا أنت ترى كيف هي الحال! كيف يمكنني الإفادة منهم بعد كل ذلك؟"

"لكنني حاولت نسيان ذلك"، ختم في نغمة ميتة وهو يكتفم تثاوباً "إنه شيء مضجر"

نظر ماتفي إلى الأعلى. والده يستخدم دائماً هذه الكلمة، وأصبح الولد يشعر شيئاً فشيئاً بالضجر الذي خيم مثل غيمة خانقة فوق البيت وكل شيء حوله.

ظل ماتفي كوجيايكين يتذكر طيلة حياته رعشة الخوف السائفة والغموض الذي جربه في اليوم الذي بدأ فيه دراسته الرسمية.

اجتمع أهل البيت كلهم: والده وزوجة والده وبوشكاريوف وسوزونت وحتى الباكية المتذلة فلاسيقنا، في حجرة الصبي، بينما سجد الشماس كورنييف أمام الأيقونات وخطب في نغمات مهيبية:

"تنوّل إلى ربنا يسوع المسيح وأتباعه كوزما داميان وأندريه الأول المسمى بذلك، أن ينبروا بالضوء الإلهي قلب هذا الطفل، لكي يصبح تربة خصبة تبذر فيها حكمة الكلمات"

حين أنهى الصلاة قال بلطف، لكن بقوة:

"اذهبوا الآن واركبوا لوحدنًا"

أجلس ماتفي بجانبه على منضدة قرب النافذة، ووضع ذراعه حول كتفه، وانحنى يتملى وجهه بعيون محبة:

"لا تخف" قال بنعومة "لا ترتعش. أنت تعد نفسك للخير وليس للشر" مشيراً إلى الحديقة، وتابع بنفس النغمة العذبة: "انظر كم هو جميل هذا اليوم الذي منح لنا لنبدأ فيه!"

زخرف الخريف الأشجار وطلاها بلون ذهبي، فارتدت أشجار القيقب أوراقاً حمراء، واكتست أشجار الزيزفون أوراقاً صفراء، ونسدت عناقيد العليق الأحمر من الأغصان، وعلقت سوق خضر باهتة ثخينة من شجيرات الخطمي بأوراق ذابلة، فبدت مثل مزق من الحرير الملون، واختلطت رائحة التفاح الناضج والشمرة والتراب المقلوب، وحلها النسيم معه، وأتى الضحك وصيحات الفرح من حديقة الدير.

"ما هو التعليم؟"

الهدوء الذي طرح فيه السؤال جعل قلب الصبي ينكمش بغموض له دلالة واقترب أكثر من معلمه واثقاً:

"التعليم" قال الشماس وهو يمسد شعر تلميذه "هو الوسيلة التي نعرف عقولنا بواسطته على الأحداث في الزمن الماضي وعلى الحياة في الحاضر وعلى أحلام البشرية من أجل المستقبل، التعليم إذاً يربط رجلاً

بآخر، وفي عبارة أخرى إنه وصلة تصله بالعالم برمته. والآن دعنا نر ما يعنيه ذلك. ما هي الكلمات؟ الكلمات هي جسد العقل البشري. إن جسدي وجسدك وغيرهما من الأجساد هي كساء الروح لا أكثر ولا أقل. إضافة إلى ذلك خذ أي كتاب كتبه رجل، ولنقل عاش منذ مائة سنة مضت مثلاً، فقد ترك لتثقيفنا وتنويرنا كل الكنز الذي راكمته روح الرجل على مدار حياته. وهكذا يمكننا القول إن الكتب تحوي أرواح وأنفس الناس الذين عاشوا قبل يومنا أو ما زالوا يعيشون. إن الكتاب سرد لوضع العالم بكل مآثره، وهو السجل الحياتي لنفس البشرية، هل ذلك واضح؟"

رأى ماتفي في خياله مجموعة من المجلدات الكنسية الضخمة في أغلفة جلدية ومشابك نحاسية.

"نعم" قال بصوت خافت.

"هل تعبت؟"

"أوه، كلا!" أسرع الولد في التأكيد.

"أنا أصدقك وأرى بأنك ستترقى بشكل ملحوظ"

أنارت وجهه ابتسامة. نهض وأعلن لتلميذه: "هذا يكفي للمرة الأولى.

فكر جيداً بما قلته لك، وإن كان هناك شيء غير واضح اسألني"

كان الشماس محقاً: كان تلميذه مملوءاً برغبة عارمة في التعلم والتقدم بسرعة أدهشت الجميع. قبل أن يبدأ الشتاء تضلع في الكتاب التمهيدي (مبادئ القراءة)، وحين أتى الربيع قرأ كتاب الصلاة والمزامير مرتين واستوعبهما. وحين انتهى الدرس أخذ الشماس آتته الموسيقية وأنشد مقطوعة دينية لتلميذه:

انظر كم هو جميل ومفرح

أن يستوطن الأخوة معاً في وحدة!

رأى، أكثر من مرة، دموع النشوة في عيني معلمه المرفوعتين إلى الأعلى.

كانت أغنية الشماس المفضلة:

مولانا أنت جربتني وعرفتني

أنت عرفتني في جلوسي ونهوضي

ازداد صوته قوة وتأثيراً بشكل خاص حين وصل إلى الكلمات:

..... ولم يكن أي خداع في فمه أيضاً.

شرب طبعاً واستمر في جولات من الشرب لعدة أسابيع. حبسوه في البيت، لكنه أفلت منهم، وذهب ليتجول في شوارع البلدة؛ شكل رمادي طويل بوجه شاحب وعينين حمراوين يلوح بيده اليمنى يمسك بقرميدة أو حجر بيده اليسرى ويصرخ بكل من يقابله:

"مخلوقات مقرزة! بهذا الحجر سأسحقك مثل حشرة طفيلية"

هرب بعض رجال البلدة منه، وشتمه آخرون، وأبلغوا رجال الشرطة عنه، والبعض الآخر أخذوه إلى بيوتهم وأعطوه مزيداً من الشراب وجعلوه يرقص ويفني، وعذبوه مثلما عذبت الشياطين إسحق في البرية وضربوه أحياناً.

أحب ماتفي الشماس. لم يخشيه حين كان ثملاً، بل أشفق عليه فقط.

الشخص الثاني الذي أصبح ماتفي على علاقة به كان بوشكاريوف.

في أحد الأيام بعد أن بدأ ماتفي دراسته بقليل، وجده الجندي العجوز جالساً على سقف مخزن القبو وكتاب التمهيدي في يده.

"تعال، أرنا كيف هو كتاب المبادئ الجديد" سأل بوشكاريوف وقد

أمسك ماتفي من ساقه "ابومود اوستياك"⁽⁴⁾ قرأ وهو يحرك فكيه غير

الحليقين "فكر بذلك الآن!" هز رأسه مشككاً وجذب نفساً عميقاً وقال بصوت منخفض:

"تزايد أعداد الناس الذين يكبرون في بلادنا روسيا، بلادنا، وهذا شيء جيد، نحن نحتاج إلى أيدي جديدة، نحن الأيدي القديمة نعينا، لقد أدينا وظيفتنا، وحان الوقت كي نرتاح ولأخذ آخرون مكاننا. أرض كبيرة، تملؤها الجبال وأرض جدباء لا نهاية لها. انظر إلى هناك فليس سوى أعشاب ضارة، إننا نحتاج إلى الطعام كالبازلاء مثلاً والقنب ونحتاج إلى أيدي. مهما كان الذي تفعله فإنه يتطلب أيدي تفعله: تجفيف المستنقعات والأدوية، نسوية الجبال، حراثة الحقول، بذر البذور. لكي يكون هناك طعام لكل شخص، روسيا في أمس الحاجة إلى العمال"

كان ماتفي سريعاً في تعلم كل ما يشير اهتمامه. غالباً ما كان الجندي المعجوز يناوله قطعة من القنب ويطلب منه أن يحدد قوة الليف باللمس ويقرر أي جدل وقتل يلزمه. أشبعت ثقة الرجل المعجوز غرور ماتفي، فكان بضغط الليف بين أصابعه ويقرر عدد دورات الدولاب التي تحتاجها تلك الخيوط بالذات. كان بوشكاريوف بصرخ سعيدياً ويرمي بواحدة من خطبه التي لا نهاية لها: "في وقت سابق كان والدك أيضاً يأخذ قبضة، يصبر عينيه ويتلمس ثقلها، لم يخطئ أبداً حول القتل. والدك يتقن صنعته جيداً"

"لماذا لا يحبه الناس؟ سأل ماتفي مرة.

"لماذا يجب عليهم ذلك؟" رد الجندي في دهشة "ما الشيء المميز فيه؟" وانفجر بوشكاريوف بالضحك، لكنه في الحال أمسى جدياً، وعلق بعد لحظة تأمل "هم لا يحبون أحداً، هؤلاء الخنازير"

"لماذا لا؟"

"من يعرف؟ اذهب واسألهم، هم أنفسهم لا يعرفون"
"يقول الكتاب المقدس إنه يجب أن يحب واحدنا الآخر" قال ماتفي.
حدق بوشكاريوف به، مسح فمه بيده المتسخة كما لو أنه يزيل الابتسامة
وقال:

"الكتاب المقدس يقول أشياء كثيرة"

"هل تحبه؟" أصر ماتفي.

"حسناً" قال الجندي بضحكة قصيرة "كل شجرة تغني بمدح أيكنتها
كما يقول المثل، أحبه بشكل مقبول، أحترمه، لم يؤذ أحداً دون سبب أبداً،
سأقول ذلك له، وهو يعرف العامل الجيد حين يراه"

"هل تذكر المرة التي ضربك فوق رأسك بأصيص الزهور؟"

"بنبتة الراعي؟ هو، هو نجح في ذلك، أليس كذلك؟، هو بنجح في كل
شيء. كنت ثملاً في ذلك اليوم، وحين أتمل أبداً في وعظ الجميع. طريقة
كريمة أن أنتقل وأخبر الناس بما يجب أن يفعلوه، مرة جربتها على قائدنا
الأمير: ليس لك الحق بأن تحطم وجوهنا. قلت ذلك وحقق مكسباً جيداً،
أستطيع أن أخبرك"

وقف ونظر إلى ماتفي بزاوية عينه، تنحنح وقال بشكل مفاجئ: "هيه،
سوف أروي لك قصة وسيكون أمراً جيداً إن تذكرتها. قرر هؤلاء الذين في
السلطة مرة أن على الفلاحين أن يزرعوا البطاطا، ولأن الفلاحين جهلة
كثيراً، رفضوا أن يفعلوا ذلك ولم يكن هناك تمويل لهم "طعام الشيطان!"
قالوا وكلما أرسلوا إليهم البطاطا كانوا يرمونها في الوادي والنهر والمستنقع
وفي أي مكان للتخلص منها. هذا ما حدث في غوسليتيا.

"أنت تعرف المكان الذي يضعون فيه النقود المزيفة، ولهذا أرسلونا جنوداً لنقمع شغب البطاطا. كان أمرنا ألمانياً، اسمه غوستاف، لكننا كنا نسميه أوستاف (كلمة روسية للقوانين وتعليقات)، رفيق ضخيم قاس بشكل غير عادي، لهذا قرر أن يجلد الفلاحين بالسياط. أوقف دزينة منهم في صف في الساحة أمام الكنيسة وضربهم بأسبابيرت وهي سياط خاصة لضرب الناس. وفي الحقيقة كانت مثل غيرها من السياط لكن الاسم الأجنيبي جعلها تبدو أسوأ. وهكذا جلدناهم. زجر الفلاحون، لكنهم ظلوا لا ينظرون إلى البطاطا. أمرنا أوستاف أن نسلق قدراً كاملاً ونجبر الفلاحين الذين جلدوا على أكلها. هز الفلاحون رؤوسهم رافضين "لا ولو من أجل العالم" قالوا. أقحم الألماني البطاطا الحارة في أفواههم. سعل الفلاحون وتقيؤوا البطاطا. أنا ورغم كوني جندياً، إلا أنني لم أستطع أن أتجنب الشعور بالأسف والحزن على هؤلاء المغفلين. صرخت النساء وزعن الأطفال. تلوث الرجال بالدماء. شيء كرهه ونحز حتى لو كانوا مجرد فلاحين؟ فهم روس ومسيحيون. وبسبب هذا، وفي ذاك المساء بعد الجلد بالسياط، سلقْتُ قدراً من البطاطا وأخذته إلى الفلاحين في إحدى الحيام وقلت: "أنتم مغفلون. انظروا إلى حبات البطاطا هذه، إنها مثل الدقيق والماء أو هريس الشعير. انظروا إلي، أنا مجرد جندي، وأضع صليباً حول عنقي، وباختصار أنا مسيحي. وأظهرت لهم الصليب الجيد المصنوع من الفضة والمينا. وبدأت بأكل البطاطا أمامهم. حين أنهيتُ الحبة الثالثة ورأوا أنني لم أنفجر، مدت إحدى النساء يدها وكانت امرأة شابة كأنها تريد مني أن أعطيها حبة، ناولتها، فأخذتها. رسمت إشارة الصليب على نفسها وناولتها لأحد الفلاحين الذي يتحمل أنه زوجها

وقالت: "كلها يا ميشا، لا أطبق رؤيتك وهم يجلدونك بالسياط ثانية" نظر ميشا إلى الرجال الشيوخ وأشاحوا رؤوسهم بعيداً حين بلمعها، لحق بميشا غريشا ولحق بغريشا تيشا باختصار أكلوا البطاطا كلها. طبعاً كنت مسروراً بوضع حد لشغب البطاطا وقلت: "ليست سيئة جداً، أليس كذلك، هل أجلب لكم المزيد؟".

ذهبت مباشرة إلى العريف، خاييولا وهو تيري تنصّر، وحكيت له القصة كلها. لقد كنا نجلدهم بالسياط معاً دائماً، فقال "هذا ذكاء وبراعة منك يا بوشكاريوف. سوف أخبر الأمر بذلك وسوف تنال ميدالية لقاء ذلك"

أخذنا قدراً آخر مليئاً بالبطاطا إلى الكوخ، وقد أخرج الفلاحون بعض النبيذ وأقمنا وليمة! لكن فجأة دخل علينا أوستاف وكأنه أنزل من السماء: "ماذا؟ أترفضون أوامري وتقبلونها من هذا الجندي المقل؟" وشمهم بالروسية بطريقة تثير الضحك. "في الصباح اليوم التالي جلدنا أنا وخاييولا بالسياط، نعم جلدات يمكنني أن أقول لك إنني لن أنساها أبداً!"

ظل لسان الرجل المعجوز ينش بنفائيات الماضي القذر بلا كلل، بينما كان ماتفي يصغي وقد أرهته رباطة الجأش التي يتكلم بها بوشكاريوف. حين أنهى قصته قشط بقعة من القار على ركبة سرواله. نظر نظرة جانبية إلى الطفل وقال مفسراً وشارحاً:

"إن عاملت الناس بطريقة مهذبة يمكنك إقناعهم مهما كانوا عنيدين. لكن والدك مثل تلك البطاطا. فجأة جاء رجل لا أحد يعرف من يكون وليس لديه ذرة احترام لأي شخص أو شيء، ومعه سوزونه ذاك بوجهه

الذي يشبه وجه لص ولسانه الثقيل الذي لا يستطيع فعل أي شيء سوى الزجاجة. من يكون هذان الاثنان؟ من أين جاءا؟ من السماء كالصاعقة. أهل البلدة هنا هم أنفسهم لصوص. تستمر الأمور هنا على هذا النحو منذ عشرين سنة! لماذا لا يستطيع الرجل الخروج من بيته والعودة إليه ويجده غير ناقص. لقد سرقوا بيتاً في شيخان واهمونا نحن الذين كنا نسكن في مستوطنة الحرفين بأننا من سرقه. هناك كل أنواع اللصوص بعضهم يسرق للمتعة وبعضهم الآخر بسبب الحاجة"

أحدث حديث الجندي العجوز فوضى في نفس الطفل، وشعر أنه مسحوق تحت ثقل تلك الحكايات المخيفة؛ كيف يضرب الرجال وتقلع أسنانهم ويجلدون بالسياط حتى الموت ويباعون كالبهائم. في قصص والده كانت الحياة لعبة أو حكاية، أما في قصص الجندي، فكانت محنة تتطلب من الرجل أن يكون صبوراً ومستسلماً.

لم يستطع الصبي التوفيق بين هذين الرأيين المختلفين. لم يشعر بالشفقة نحو تلك الجماهير التي تضرب بالسياط، ولكن الشكوك عذبنه وأنهكته، حتى إنه لم يكن يريد سوى النوم، سوف يختبئ في زاوية معزولة بعد محاولة عقيمة لفهم ما سمعه. سيقط في نوم عميق تملأه الكوابيس.

قال له الشماس مرة أثناء الدرس:

"انظر إلى السرعة التي تعلمت فيها الكتابة بخط جيد! سيكون شيئاً مفيداً لو خطت بعض الصفحات معاً لتصنع دفترًا وتكتب عليه كل شيء جدير بالذكرى. إن فعلت هذا، عليك أولاً وقبل كل شيء أن تتعلم التعبير عن أفكارك، وثانياً عليك أن تخصص وقت فراغك لشيء جيد وممتع ومفيد، ويجب أن يحفظ للأجيال القادمة"

قبل الطفل الاقتراح بحماس، وطلب من والده أن يشتري له ورقاً جيداً قوياً للكتابة، وطلب من الشماس أن يكتب له "أغنية فينوس" على الصفحة الأولى.

"ذلك لا ينفع" قال كورنييف وهو يطبطب على كتف الصبي "يجب أن تأخذ هذا بشكل جدي، هكذا يجب أن تنظر إلى الأمر. كل واجب يمكن أن يكون متعة وكل متعة يمكن أن تكون واجباً. أولاً سنجد كتابة جديدة بكتابتك الجديد". بعد لحظة تأمل قال: "اكتب هذا" وعلى الصفحة الأولى نقش مانفي بمنابرة بقلمه الريشة:

"مجموعة أغان وقصص وأحداث متنوعة في حياة بلدة أكوروف، منطقة فورغورد، جمعتها أنا مانفي كوجيمايكين منذ عمر الثالثة عشرة"
"والآن اكتب: باسم الأب والابن وروح القدس، وحين تنتهي اكتب آمين"

أمسك بيد تلميذه وأمال رأسه إلى الوراء محدقاً في عينيه بنظرة صارمة ومحبة وقال:
"آمين تعني أن ذلك سيكون. والآن دعنا ندون بعض الأقوال لتكون دليلاً لعقلك"

ظهر على وجه الشماس المتسامح تعبير من التركيز العميق، بدت عيناه تراجعان تحت حاجبيه ورفع إصبعه كما لو كان محذراً:

"هنا، اكتب بحروف صغيرة في الحاشية: "أنا لا أدعي الحكمة، أنا أدون شهادة عينية فقط، جيد، والآن أسفل ذلك بقليل: حياة الإنسان تنتهي بسرعة لكن أفعاله قد تعيش عبر العصور". الآن هنا على اليمين حاول أن تبقي حروفك مستوية:

إن غناء الطير المتواضع يعلن أن الحقيقة أروع من الخيال.

بعد أن ألقى نظرة مستحسنة على ما كتب، قال مشجعاً:

"انظر إلى الجمال الذي انتشرت فيه بذور العقل على هذا الحقل النظيف! كل مرة تكتب فيها مادة، اقرأ هذه الصفحة. والآن إذا كنت ترغب، سوف أدون تلك الأغنية التي غنيتها في الزفاف"

وفعل ذلك بخط مناسب كبير مع كثير من العرى والذبول.

بعد ذلك بوقت قصير، اختفى الشماس كورنييف من البلدة بطلب من أهل البلدة. أرسل إلى دبر بعيد ليكفر عن سكره وحياة الفسق التي يعيشها. بكى ماتفي حين سمع بذلك، أما سيفلي كوجيايكين قد مدّ شفثيه إلى الأمام بازدياء وشتم ثم غتم:

"طبعاً تخلصوا منه. لقد أخذ المسار الخطأ، وأي مسار أخذتم أيها الضفادع؟ لقد سئم منكم كلكم، ماركوف رحل ليعيش في بلدة كبيرة، والآن هذا الرجل رحل أيضاً. شباطين! فاسيلي أيضاً - يسمي ذلك شرباً؟ لماذا، حين كنا في مثل سنه، كنا نشرب بالسطل، ولم يصبح أي منا سكيراً مدمناً"

انصرف ماتفي للعمل في دفتره بجهد، لكن الصفحة الأولى تلك جعلت من المستحيل عليه وفي سنه أن يتعهد بالواجب الحكيم الذي فرضه الشماس والخط الجميل المتقن الذي كتب فيه النقوش، فتردد في كتابة أي شيء خشية إفساد الانطباع الأول.

مرة، بعد تصميم طويل، بدأ الكتابة بطريقة عصبية على ظهر الصفحة الأولى:

"اليوم حكى لي والدي كيف كان النقالون يقاتلون في بالاخانا"

ارتعشت أصابعه واهتز القلم. وفجأة سقطت نقطة من العرق من جبينه على الورقة. شهق يائساً. لقد سال الحبر ومدت الحروف ذبولاً صغيرة في كل الاتجاهات. بعد أن قلب الصفحة رأى أن بقعة الحبر اخترقت الورقة وعبارة "لكن أفعاله" صار لها بقعة تحتها مثل لون الكدمات تحت عيون الشغيلة. في صباح يوم الاثنين كان متضيقاً جداً، وقرر ألا يلمس الدفتر مرة أخرى.

قام بمحاولة أخرى، دَوَّن فيها كل الأغاني المقفاة التي استطاع تذكرها بما حكنه له ماكاييفنا عن مكسيم الخجول الذي طول قامته عشرة أقدام، وعن بريوما وفيودوسيا، لكنه أحب أكثر شيء تلك التي عن الغراب: على النافذة غراب/ نقر بإبهامه/ وقال "استيقظ"/ "اخرج من السرير"/

استطاع أن يرى هذا الغراب كطائر مهم وفخور جداً بصدره الرمادي ورأسه اللامع الأسود.

تعهد عدة مرات بأن يكتب القصص التي حكاها له والده، لكنه لم يجد الكلمات المناسبة، وكانت عملية الكتابة مملة، وعلى الورق تتحرك القصص ببطء وتتحول إلى شيء باهت كخيط القنب.

حين كان في الخامسة عشرة، بدا أكبر من سنه، كان ممتلئاً وقوياً وقصيراً، له شعر داكن مجمد فوق جبهة بيضاء ونظرة شك في عينيه، هادئ ومتحفظ لديه طريقة متأنية في التكلم وطريقة حادة في النظر.

لعبت العزلة دوراً كبيراً في تطوير خيلته. الكسل وزيادة الطعام الدسم سببا له مشاكل في النوم وصداع وحساسية مفرطة. كان كلما رأى كتفي زوجة والده الورديين أو أعضاءها ذات التشكيل الجميل، يهرب بعيداً

عنها. كانت دائماً تحمل ابتسامة لطيفة وكانت صامتة على الدوام. عاشت مثل قطة في الشتاء تسعى إلى الزوايا الدافئة لتجلس فيها، وفي الصيف تختبئ بعيداً في ظلال الحديقة، حين تخطط أو تحيك، وكانت تهرهر في نغمة رتيبة وتخطب أي شخص باسمه الأول حتى زوجها. وكانت فالسييفنا الاستثناء الوحيد، حيث تنادياها بـ "عمتي" كلما نظرت إلى ماتفي تسدل رموشها، وكان هو يشعر بالارتباك ويفقد الكلمات في حضورها، ويتجنب أن يكون وحيداً معها، لبعض الوقت. موقف سافكا نحوها سبب له قلقاً؛ إذ كلما رأى سافكا على نحو غير متوقع في المطبخ أو في الفناء، كان يتوقف تماماً، بميل جسمه كله إلى الأمام كأنه شجرة ساقطة، وتنفرج شفتاه عن ابتسامة عريضة تلمح إلى أنياب جائعة عارية.

"الس-بدة!"

"صباح الخير" كانت تقول ببلاجيا وقد شحب لونها.

في أحد الأيام كان ماتفي في مخزن القنب حين سمع سافكا يقول:

"أنا أملك يداً حرة الآن! أنا سيد عملي الآن! إذا أنت تحتاجين إلى المال

أليس كذلك؟ حسناً أستطيع القول إننا نستطيع إيجاده"

أصبح غير رسمي أكثر في سلوكه، وقلت تأتأته، وكبرت عيونه الخالية من أي تعبير، وانفتحت أكثر تحت جبينه الضيق.

في أحد أيام الصيف الحارة وصف بوشكاريوف لماتفي احتراق قرية هنغارية^(١). هرع القرويون مرعوبين إلى الشوارع، وثغت الأغنام وخارت الأبقار في حظائرهما بعد أن تسممت بالدخان، وانفلتت الخيول من اسطبلاتها، ونبحت الكلاب، وقافأ الدجاج، واندفع رجل كان يحترق نحو الجنود الروس مباشرة الذين كانوا يختبئون في خارج القرية.

"ألم يستطيعوا إنقاذه؟" سأل ماتفي.

"من، الهنغاري؟" سأل بوشكاريوف في اندهاش "كانت حرباً، أيها الأحمق الصغير. نحن كنا من أضرم النار بالقرية، وتساءل إن أستطعنا إنقاذه! أطلقنا النار عليه هذا ما فعلناه!"

"لماذا؟ لقد مات على كافة الأحوال"

"كنا خائفين" ضحك الجندي "جاء يركض نحونا مباشرة وهو بصرخ بأعلى صوته. كان الليل مدلهماً. صحيح أنه لم تكن هناك حاجة لإطلاق النار عليه، فقد كانت الأوامر التي أتتنا أن نحرق القرية فقط ونراقب إن ظل جنود مختبئين فيها، كان يجب ألا نعطي العدو أي إشارة أو أن يصدر أي صوت عنا. أنا وتكاري أضرمنا النار فيها. لقد أمسكوا به في تلك الليلة وحدث ذلك على الشكل التالي: أضرمنا أنا وهو النار في القرية وجبونا عائدين حين رأينا ذلك الرجل المشتعل يطاردنا، أردناه قتيلاً بالرصاص، ثم ظهر خيالهم فجأة - لديهم خيالة رائعون هؤلاء الهنغاريون - وبدأوا بشقنا يا إلهي! يا لها من مذبحة! لقد فتحوا في رأس التري شقاً حتى عينيه، وأصبت في كتفي، بالإضافة إلى ذلك ركلني حصان في بطني. لن أنسى تلك الليلة. أستطيع أن أقول ذلك. كنا عشرين رجلاً وبقي منا ستة أحياء فقط، وكلنا أصبنا بجروح. كانوا سيبيدوننا إلى آخر رجل، لو لم تأت النجدة من الغابة. كان اسم الرجل التري إبراهيم وكان رفيقاً رائعاً. ليس هناك شيء يهزم التري، وليس هناك شعب أصدق وأخلص منهم، هذا ما أقوله: حين يتعلق الأمر بالحيوانات، فالكلاب هي الأفضل، وحين يتعلق الأمر بالبشر فالتار هم الأفضل. كان يناديني سيابان شخص هزلي جداً.

حكى للصبي أشياء أخرى كثيرة، وهو يقف تحت الشمس الحارة التي انصبت على رأسه الأشيب ورقبته البنية وكتفيه الهزيلين، كأنه يحاول التخلص من الحرارة الخائفة.

لم يعد ماتفي يستوعب أكثر - احتياظه من الانطباعات لم يكن كبيراً - لذلك فاضت بسهولة وجهال، في ثياب زرق كانوا يتحركون بصمت وتكاسل في الشمس الحارقة، اهتز خيط القنب الرمادي المشدود، أصدرت العجلة صريراً كثيباً، وكان الفلاح السمين القصير إيفان يتدحرج جيئة وذهاباً وهو يدور. اهتزت أكداس من نبات الحميض الجاف. خيم هواء راكد فوق التلال، ووقف راع على إحدى القمم العارية فبدا معلقاً في الفضاء.

كانت النسوة يشدون بأغنية بشكل عذب في حديقة الدير، وغنى أحد الأصوات الرقيقة كخيط الحرير بحزن واكتئاب:

افتح الأبواب على مصراعيها

ورد صوت آخر بشكل أقوى وأعمق:

افتح البوابات على مصراعيها

بعد ذلك انفجرت كلتا المنشدين في ضحكات رنانة.

نهض ماتفي وذهب إلى مخزن الغلال. رغب أن يغمر نفسه بهاء مثلج من رأسه حتى قدمه، أو يقحم نفسه في زاوية مظلمة باردة، كي لا يسمع أو يرى أو يفكر فيها بشيء.

تسلق كتلة من القنب وتمدد عليها، وغرق ذهنياً في الأغنية التي كانت تشدو بها الراهبات مسترجعاً الكلمات التي بدت له:

مثقل بحمل من الخطيئة

فجأة سمع شخصاً يهمس بنعومة وحاس:

"أين ستذهب، أوه، أين يا حبيبي؟"

كان صوت بيلاجيا، وقد رد عليها شخص في صوت عريض:

"هناك كثير من الأماكن على الأرض....."

"سافكا!" فكر ماتفي بغصة حادة، رفع رأسه بحذر هناك في الظلال وقريباً جداً منه وقفت بيلاجيا وسوزونت يضع يده حول كتفها ورأسها مائل إلى أحد الجانبين، وكانت تتحسس أهداب مژرتها وتحقق في الفراغ. بدت عينها لماتفي خضراوين مثل عيني قطه، مفتوناً بهما وغارقاً في ذكريات من أحلامه وملاحظات بوشكاريوف الصريحة عن النساء مدّ نفسه إلى الأمام ليراقب ويستمع في هياج عذب.

مرر سوزونت يده فوق جسد المرأة، قاومت مشيخة عنه بوجهها ومبعدة يديه عنها بحركات دفاعية صغيرة:

"لا تفعل" همست.

اندبجت أنفاس سوزونت الثقيلة وآهات بيلاجيا في لغة صوتية واحدة شملت صرير العجلة التي خارج المخزن وتمتات بوشكاريوف المتواصلة.

"عشرة في اثنان عشرة في ثلاث..... سافكا، أيها الشيطان الكسول!"

ضحك ماتفي من فكرة سافكا الذي كان يلهث.

"أيها الأحمق!" قال لنفسه وهو يحقق بهم لكن بشعور صارخ بالأذى.

دفع سوزونت زوجة أبيه قليلاً بكتفه إلى زاوية مظلمة في المخزن الكبير، وحين مال ماتفي إلى الأمام في محاولة ليراهما، انزلق فجأة إلى أسفل كومة القنب، وضرب الأرض بكعبيه بصوت قوي.

اندفع سوزونت إلى باب المخزن وهو يخبئ نفسه وكأنه يخبو، بينما كانت المرأة تحلق بدهشة في ابن زوجها وتنشج مثل كلب في نومه، كان ماتفي يشعر بالحر والبرد من الخوف والعار والشفقة عليها، اتجه نحو الباب ورأسه مدلى إلى الأسفل، لكنه شعر بيدين حارتيّن تمسكان به وانضغط خده على جسد دافئ طري.

"لا تذهب يا صبي العزيز، لا تذهب" وتوسلته في همسة مذبذبة "ولا تخبر أحداً من أجل المسيح، لا تحك من أجل أمك، يا عزيزي ماتفي أيها الصبي العزيز! أرجوك لا تخبر"

نزلت قطرات الدمع على خديه واشتدت ذراعا المرأة حوله، تملكته لهفة عذبة فأوى أقرب في حضنها "أخيراً، أنت لم تعد صغيراً" استمرت المرأة في الهمس بسرعة "أنت ترى أن والدك عجوز ومريض وأنا شابة وأريد أن أعشق، ماذا سيحدث إن أخبرته يا ولدي العزيز؟ سوف يضربني وسيكون تعيساً هو وذلك الشخص الآخر، يجب علينا أن نفكر فيه أيضاً. سوف أكافئك أيها الولد الصغير. انتظر فقط حين يزلن الأعشاب الضارة من الحقل....."

كأن ريحاً حارقة حبسته وحمته بعيداً ومعه المرأة. حين حاول أن يحرر نفسه من حضنها أقفلت ذراعيها بلطف وشدت أزرار قميصها بأصابع ترنجف.

"أه، حسناً الرب سيكون قاضيك. اذهب إن كان يجب عليك ذلك" قالت بصوت لا حياة فيه.

"لن أخبر أحداً" أكد ماتفي بنعومة. وعندما شعر أنها لم تصدقه قال مرة أخرى: "لن أخبر أحداً هل تسمعين؟"

انكشمت بيلاجيا حتى بدت صغيرة ومسلية.

"فعلاً؟" همست وهي تنظر إليه بلهفة.

"فعلاً" رد ملقياً نظراته إلى الأعلى، رسم إشارة الصليب على قلبه وأخذ يدها بين يديه "لكن أرجوك لا ترحلي"

"آه، ماتفي يا حبيبي!"

وضعت يديها حوله ثانية وقبلته على خده وجبينه. كانت عيناها الطافحتان بالدموع تلمعان بالفرح ثم قاده بعيداً.

"شكراً لك يا عزيزي أيها الصبي اليتيم!" قالت في صوت عميق غير مألوف.

جلسا متلاصقين في البستان تحت شجرة كرز، كان فيها عصافير الدوري تصدح وهي تأكل الفاكهة بمناقيرها. كان حزينان في نهايته وكانت أشجار الزيزفون التي تفتحت براعمها الصفرة الذهبية قد تغلغل عطرها في رأس ماتفي.

"أحياناً" قالت بيلاجيا بحماس شديد مع تلويحة بيدها البيضاء "حين أراك تنتقل في طريقك الهادئة كأنك لا تنتمي إلى هذا العالم، كنت أقول لنفسني سوف يتبع خطى أمه في أحد الأيام؛ صبي مسكين سيخدع فتاة من متعة حبه! نحن حشرنا هنا معاً مثل أرانب على جزيرة مع فيضان نهري - والدك وأنا والآخر - كل واحد منا يعاقب بطريقته الخاصة مثل العمى المكتوب علينا"

وجد ماتفي وجهها المتورد جميلاً بشكل لا يوصف في هذه اللحظة وكلماتها تنضج بالحكمة مثل كلمات الشساس كورنييف، مازال جسده

يرنجف من الإثارة والخجل. حلق واثقاً في عينيها وتاق لوضع رأسه على كتفها المدور الذي لوحته الشمس.

ظهرت لحية والده الحمراء فجأة من اللامكان. قفز الولد على قدميه كالمدوغ، ونهضت بيلاجيا بتثاقل مثل امرأة عجوز.

"استيقظت وناديتك - أردتك أن تجلي لي بعض شراب الكفاس" تتمم الرجل العجوز وهو يتشاءب ورسم إشارة الصليب على فمه "حول ماذا كنتما تتحدثان؟"

كان يرتدي قميصاً قزياً طويلاً أظهر ربلتا ساقيه العاريتين اللتين تصالبتا بأوردة منتفخة وتوهج وجهه الأرجواني مع شعره الأحمر مثل هرة غريبة وسط خضرة ساطعة.

نظر ماتفي إلى زوجة والده الهيفاء، كان خذاها عذيين بفم صغير كفم طفل، وقفت ويداهما متصالبتان بخنوع على صدرها ويبطاء جف اللون من وجهها.

"أنا أسأل من؟" نبج العجوز.

"كانت تخبرني حول.... حول...." رد ماتفي وعيناه على الأرض.

"حول كيف عاش الفلاحون وعملوا عند الأغنياء في باليمري" قالت بيلاجيا وهي تجذب نفساً عميقاً.

"أوه سوف تسرد لك أشياء كثيرة!" تتمم كوجيمايكين وهو ينظر بطرف عينيه إلى زوجته، وفي الحال أرسلها لتعد الشاي.

لاحظ ماتفي النظرة الفظة التي وجهها إليها، وأجهد ذهنه ليفكر بشيء ما يقوله، لكن والده جلس على المنضدة مباعداً ساقيه وغاضباً، واستقرت شفتاه البارزتان على ابتسامة.

"حسناً ماذا لديك لتقوله عن نفسك؟" سأل.

"قرقف بنى عشاً في شجرة البتولا خلف الحمام" كذب ماتفي وهو ينظر إلى والده خائفاً ومفكراً: سوف يطلب مني أن أريه له.

"تلك كذبة يا ولدي" قال والده وهو يتشاءب بصوت عال.

اهتزت الأشجار كأنها ترفرف بأجنحتها الخضراء، وبدت تحلق عالياً في السماء "لو كان قرقف لبنى عشه في شجرة قوية، طائر القرقف ينسج عشه جيداً هذا ما يجب عليك أن تعرفه"

أطلق ماتفي تنهيدة تعبيراً عن ارتياحه، وأسف فوراً على والده وخجل من نفسه. ألقى العجوز نظرة حوله في البستان ومرر أصابعه في لحيته، ورفع ذراعيه نحو الأعلى تعبيراً عن امتنانه للسماء.

"الرب يحمل مشاعر لطيفة للأرض ليضع مثل هذا الجمال فيها"

قاس ابنه بنظرة ثم نحسر بعمق:

"أنت رفيق كبير الآن، شيء غريب، لغز نضوج الإنسان ونموه - لا يلاحظ أحد كم هو حجم الشجرة في فصل الصيف لكن في الربيع حين تظهر زيتها الفاخرة -"

نادتهم بيلاجيا ليشربا الشاي. حين جلسوا إلى الطاولة بدأ الأب بمدح بوشكاريوف:

"رجل طيب بوشكاريوف، صلب كال فولاذ، وحين يتعلق الأمر بالعمل، هو صديق حقيقي ليس مثل هؤلاء الآخرين الذين يخطفون روبلاتهم مثل نزع أغصان شجرة بتولا تاركين الشجرة تموت دون اكتراث. أخبرني قبل الأمس بأن لديك نظرة جيدة بخصوص التجارة، وأنا أصدقك. يمكنك تصديقه دائماً فهو يفضل أن يعض لسانه ويقطعه على أن يكذب"

غطل ماتفي بفتات كمكة ونحسرت بيلاجيا بصوت مسموع.

"قال لي" تابع كوجيمايكين قائلاً "أريد أن أصلح كوخ ابن أخي من أجله، قال "هل يمكنك أن تدفع لي أربعين روبلاً مقدماً؟" ها هي خذها" قلت له: "سأعطيك مئة روبل إن أردت الآن، العامل الجيد جيد بقدر ما يحقق سيده وهو نصف نجاح التجارة والعمل"

استرق الصبي نظرات جانبية إلى بيلاجيا وتعجب من رباطة جأشها، وكان وجهها الوردية الذي يشبه وجه دمية ودبعاً وصامتاً دائماً، ألقت الأهداب الطويلة ظلاً جميلاً على عينيها، كانت تلوك علكتها بلا استعجال، ودون أن تفتح فمها تحركت شفناها الحمراءوان مثل بتلات زهرة في النسيم. ببقى الماء بشكل خفيف في السماور. انطلق البخار في صفيح حاد حين نفذ من تحت الغطاء. في البستان في الخارج صدح أبو الحناء بالغناء، وكان الزيزفون والنعناع وشجيرات الزبيب الأسود تبث روائحها من خلال النافذة في الداخل، وأطلق خشب البتولا المحترق عبقراً كأنه بخور اختلط برائحة الحلويات والشاي الثقيل. كل شيء كان هادئاً وآمناً وروح الصبي التي هدأت بأغنية الطائر وبنكهة اليوم الذي قارب على الزوال. تمدد ليتلقى كلمات والده بمزيج من الفرح والشعور بالذنب.

لو أخبرته عن بيلاجيا، فكر على نحو غامض، لكانت قد جلدت بالسوط وبكت، ولكان قد صرخ في وجه الكل مثل وحش بري.

"في هذه الأيام" قال سيفلي بضحكة قصيرة ازدرائية "الطبقة الوسطى، نحن هذا وذاك، حصلنا على كل شيء مرتب ومقاس، نحن أهل البلدات كما تعرف، لهذا من يدبر الأمور، ذلك محض هراء يا ماتفي، نحن كلنا مجرد عمال أجراء لدى أمنا روسيا، بوشكاريوف يعرف ذلك، أكثر من مرة صاح بي

قائلاً: "هل نظن أنني عندك ومن أجلك أيها الشيطان ذو الشعر الأحمر؟ كلا لا شيء من هذا النوع، أنا أعمل من أجل أمانا روسيا. أهل المدن خائفون من أن يعصرهم الفلاحون وذلك صحيح تماماً، بعد أن حرر القيصير الفلاح من القنانة ربما يعصر ابن المدينة بمجرد أن يتنفض ويحرر نفسه ويرى الأمور. هناك الكثير من الرجال الأحرار في روسيا الآن. الشكر للرب أهل المدن سيكونون سعداء بشراء أقتان يعملون لديهم، لكن لا أمل في ذلك، لقد قيل للجميع الكلام عينه، فكر فيما يمكنك أن تفعله كرجل حر.

أنزل كوجيايكين يده على الطاولة بقوة:

"هذه أوقات طيبة للعيش يا بني" صاح بعينين وامضتين "بالنسبة إلى لقد عشت أكثر من أربعين سنة كفن"

ضيق عينيه ومسح الغرفة بنظرة صقرا:

"روسيا بلاد عظيمة وطيبة ورحبة. لقد ذهبت بعيداً حتى البحر الأسود، لقد تجولنا أنا وسوزونت ورأينا أماكن جديدة، بلاد عظيمة هي روسيا! والآن وبعد أن أهلت بسكان أحرار وبعد أن بدأت طريقة جديدة في الحياة وشرعت في دروب طويلة جديدة، أوه لن يوقفها أي شيء الآن!" هزت بيلاجيا كتفها بحركة عصبية خفيفة ونظرت إلى الخارج عبر النافذة:

"لم يمش أبي وأمي ليريا هذا اليوم" قالت بهدوء.

مال والد ماتفي إلى الأمام وبات صدره على الطاولة وضحك ضحكة قصيرة قاسية:

"هل تعرف أن والدها بيع وأبعد عن عائلته؟" سأل ماتفي "بيع الأب واحتفظ بالزوجة والطفلة. والدها كان فلاحاً جيداً، لكنه كان متمرداً،

ولهذا أبعاد إلى جبال الأورال ليعمل في مناجم الحديد. بقي الملاكون حتى النهاية وقبل التحرر مباشرة يظهرون كل حقدهم على الأفتان"

"وخصوصاً النساء والفتيات" قالت بيلاجيا بنعومة وهي تمسح دموعه. "يزداد الطلب على النسوة والخمر في الأوقات الصعبة دائماً" قال كوجيمايكين بحكمة "لكن لا يجب أن تصدر نفس الحكم على الكل يا ماتفى. صحيح أن الملاكين قد سببوا الضرر الكبير وصحيح أيضاً أن الكثير منهم كانوا أشراراً كوحوش البرية، لكن كان هناك بعض الرجال الطيبين بينهم، وبمجرد أن يكون الملاك طيباً مرة فهو طيب جداً، لم يشعر النبلاء الجدد بأن أقدامهم راسخة على الأرض وقد خطفوا وسرقوا بقدر ما استطاعوا مثل آل بوبنوف هنا لكن هناك آخرون أيضاً شعروا بأنهم مالكو الأرض منذ بداية الزمن وفكروا بالبقاء إلى الأبد، ولذلك حاولوا أن يعملوا عملاً طيباً، لكن لم يكن لذلك فائدة. الرجل الذي يزرع البذور في مستنقع يهز ذراعه عبثاً وبلا نفع، ثم هناك فلاحون أفسدوا الملاكين أنفسهم مثل فطر بلوث كل الفطور إن استلقى إلى جانبه"

هل تذكر الكسي الذي كان يعمل لدي؟ أراي مرة كيف أبدى ولاءه، خلية العجوز بوبنوف بدأت تتودد إليه كانت شابة جميلة ولم تنل المتعة الكافية من الرجل العجوز"

اندفع الدم إلى وجه الصبي واسترق نظرة إلى زوجة أبيه، ورأى شفيتها مضغوطتين بإحكام وهناك لمعة باردة جديدة في عينيها.

"لهذا ذهب الكسي إلى سيده وأخبره بالقصة" تابع كوجيمايكين بمزاج طيب "أرسل السيد بطلبها وطلبه وقال: "اجلدها يا الكسي يا خادمي الوفي! فجلدها الكسي حتى سقطت مغمى عليها" لماذا فعلت ذلك ألم تكن

نحبها؟" سألته "أحببتها جداً" قال "كانت فتاة طيبة ومحتشمة وتمنيت لو أن السيد أعطاني مثلها لأتزوج منها"، "إذا لماذا أخبرت سيدك عنها؟" قلت "كيف يمكنني مساعدتها؟ هي مملوكة للسيد" رمى كوجيايكي بنفسه على الكرسي وضحك، قال "لم أستطع تحمل ذلك الرجل بعد ذلك وكنت أجد الأخطاء فيه دائماً، دون سبب وجيه كنت أعرف أن ذلك غباء، لكنني لم أستطع تجنبه، كلما وقعت عيني عليه كنت أصرخ به، كان يقف هناك ينحني ويرمش. مخلوق قدر فاسد. الناس من أمثاله ارتكبوا ضرراً كبيراً يجعلك تطلق اللجام للوحش الذي في داخلك فهم يحررون كل شياطينك من معاقلهم، لديه نظرة خنوعة لكنها جعلتني أرغب في تخطيم وجهه. لقد طردته من العمل "انصرف يا ألكسي" قلت له "أنت لست من النوع الذي بلانم ذوقي، أنت تخثر دمي"

"توجد كثير من النفايات بيننا وسنحتاج إلى وقت طويل حتى نتخلص منها، أوه وقت طويل جداً، سيجدون سادة يدفونهم دوماً لأنهم بلا إرادة خاصة بهم، الإرادة هي شيء عميق جداً داخل الإنسان، أمثالهم صاغرون ويخشون العيش لوحدهم ويجب عليهم أن يجدوا أحداً آخر ليجيب عنهم أمام الرب وأمام القيصر. لن يأخذوا شيئاً على عانقهم سوى السوط. سيكونون واثقين أن يقولوا للمولى حين يقفوا أمام مقعد الحساب: لم أكن أنا يا مولاي، فلان جعلني أفعلها. هم سيئون جداً يا ولدي ابتعد عنهم"

استمر كوجيايكي، الذي ومضت عيناه الحادتان، بثقب ابنه بحكايات من الماضي حتى وقت العشاء. التف ظل خفي حول قلب الصبي. كانت قصص الماضي تلك أكثر إقناعاً له من الحاضر، فقد نزع

ذهنه تماماً ودون تطفل مما كان يدور حوله، وقد هدأت روحه بإيقاع العبارات ورنين الكلمات.

كانوا يتناولون طعام العشاء في المطبخ مع العمال، ولم يكن هناك أي نقص في الطعام أبداً. يأكلون أوكروسكا وهي حساء بارد مصنوع من الكفاس مع اللحم والبيض المقلي والمخللات والبصل المقطع وتقدم مع قشدة حامضة ثم يأكلون نوعين من الحساء الساخن إما حساء المعكرونة والملفوف أو حساء لحم الضأن، يتلو هذا حبوب بزبدة الذرة أو الحنطة، كل هذا باللبن الحامض أو معجنات الفاكهة. في أيام الأحاد والعطل هناك الفطائر بالإضافة إلى تلك التي تملأ بالملفوف أو الجزر أو البيض المقلي والبصل أو الحنطة المنكهة بزيت السمك أثناء فترات الصيام يأكلون حساء بارداً فيه سمك بدلاً من اللحم، عجينة من دقيق الشوفان وشورية الفطر والبازلاء واللفت المبخر أو الشوندر ويقدم مع دبس السكر.

كان والد ماتفي مغرمًا بقول التالي:

"كلما كثر الطعام الذي يدخل فيك كثر العمل الذي يخرج منك"

كانوا كلهم يأكلون من زبدية خشبية واحدة. كانوا يجلسون منتصبين وباستقامة، ولا يتفوه أحدهم بكلمة ما عدا بوشكريوف الذي يظل يثرثر مثل عقق عجوز.

أول شخص يغمس ملعقته في القدر (الزبدية) كان السيد ثم يتبعه الآخرون حسب أعمارهم.

كان الحساء يؤكل دون لمس اللحم فيه حتى يعطي السيد الإشارة بضرب حافة الزبدية بملعقته ثم يقول:

"أخذموا أنفسكم!"

إن أخذ أحد أكثر من قطعة واحدة يعاقبه المعجوز بضربة على جبهته بملعقته، وكانت جبهة بوشكاريوف المسمرة بالشمس والتي حفرتها خطوط عميقة تتلقى معظم الضربات.

كانت الفكوك والذقون تعمل بلا توقف، وتفاحة آدم تطلع وتنزل مثل المكوك، أسنان ذئبية تومض، البخار يرتفع من الصدور المشعرة، حبات من العرق تتلألأ على الوجوه، شفاه الذين يتناولون طعامهم تتمطق بصوت عالٍ تتنهد بالإرهاك ويلعقون ملاعقهم بالسنة حمراء سمينة، حين يقومون عن الطاولة يرسمون إشارة الصليب على أنفسهم مراراً، ويديرون وجوههم نحو ركن الأيقونات حيث شعلة من اللهب الأصفر تغمز فوق العيون الحزينة للعدراء والجبين المريض لنقولا والملاح القلقة ليسوع. بعد أدائهم الصلاة ينحنون احتراماً لسيد البيت ويتمتمون بأصوات منخفضة:

"شكراً لك من أجل خبزك وملحك"

وكان سافكا يدبر نظرة نحو السيدة ويتمتم:

"شكراً لو... شكر ليا... لي..."

"شكراً لك" يزجر بوشكاريوف "أيها الغبي! ألا تستطيع قول ذلك" وسمعه مرة ماتفي وهو يتمتم لنفسه وهو يعبر الفناء "شكراً..."

ليا.... لي... أوه اللعنة!"

بدا وكأنه يطحن أسنانه.

أحب ماتفي طقوس الغداء والعشاء المقدسة. استمتع برؤية الناس وهم يتخمون أنفسهم، وكيف كان الشبع يبدل تعابير وجوههم الكثيرة إلى الأنس والدمامة ويدخل ابتسامات الرضا إلى عيونهم المبللة. لقد أتى الشكر

الذي يقدمونه للطعام - كما رأى - من فيض من المشاعر، ونمى أن تظل عيونهم تحمل مثل تلك الابتسامة الودودة.

في مساء خاص قال والده حين أجال بصره على الطاولة:
"أين سوزون؟"

تلمل سافكا على مقعده، فتح فمه وأطلق قهقهة:
"ما معنى ذلك؟" صاح كوجيايكيين.

اهتزت المعلقة الخشبية في يد بيلاجيا، وانفجر وجهها بلمحظة حمراء. نحاشى الناس الموجودون على الطاولة النظر إلى بعضهم البعض. رأى ماتفي أنهم كلهم يعرفون سرّاً. كان متشوقاً ليطمئن زوجة والده. ربت على ركبتيها مرتين واقتربت منه أكثر رداً على ذلك.

لوى سافكا رأسه من جانب إلى آخر وتفوه بأصوات غير مفهومة رغبة منه ليروي ما كان يعرفه.

"لماذا تتلوى وتتأني؟" سأل والد ماتفي بصراحة.

"لقد رحل، هاها!" أعلن سافكا بابتهاج "طلب مني أن أخبرك بأنه رحل، لأن ذلك أفضل. كنت ذاهباً إلى النهر لأحضر الماء حين قابلته قادماً مع حزمة على ظهره هاها!"

"إن كان قد رحل مع صرته فلن يعود أبداً" قال بوشكاريوف "بعبارة أخرى لقد اعتاد على الطرق ثانية"

"هممم" تتمم كوجيايكيين مخفضاً عينيه "لم يقل وداعاً حتى"

"لقد كان مستعجلاً جداً" علل بوشكاريوف "نحن الروس متشردون بطبيعتنا"

وضع والد ماتفي ملعقته من يده على الطاولة.

"رأيت عدداً كبيراً من هؤلاء الناس القلقين في حياتي" لاحظ قائلاً:
"قبل إن أحلامهم بحجم حلم عصفور الدوري. هناك طير يدعى عصفور
الدوري يصدق كما لو كان نائماً في طريقة حالة ناعمة رغم أنه طير كبير
بحجم نقار الخشب. يبني عشه في مفارق الطرق ولا أحد يعرف ما هو
حلمه. بعض الناس لديهم حلم هذا الطائر وحين يحلمون به يتتهون.
يطوفون الأرض بحثاً عن المكان الذي حلموا به وإن وجدوه يظلون هناك
طيلة حياتهم"

بدأ الأشخاص الذين على الطاولة بمضغ طعامهم ببطء، وتحركت
شفاههم بهدوء أكثر وسقط ظل على وجوههم.

"هذه هي المرة الثالثة التي يرحل فيها سوزونت" قال كوجيمايكين
"شيء ما يخبرني بأنني لن أراه ثانية، حين يعود سأكون قد رحلت من هذا
العالم"

ازدادت عتمة المطبخ، وأضحى لهب المصباح أكثر سطوعاً، وبدت عينا
العذراء الحزينة أكثر وضوحاً.

حين ذهب إلى سريره، استلقى ماتفي وهو يفكر بوجه سوزونت المحفر
القبيح والنظرة المخادعة لعينيه الباهتتين والأشياء المملة والمتكررة التي
يقولها:

"أريد أن أرحل ولم؟ كل ما نفعله هنا أننا نصب العدم في الخلاء، لو
أستطيع الوصول إلى نهاية البحر فقط"

تصور الصبي في عقله طريقاً تريباً طويلاً مع ظلال سوداء لأشجار
البتولا تحيك نماذج عبره وشكل وحيد لرجل يمشي بصمت، بينما النجوم
تحرق فيه في الأسفل، وفي الغابة وعلى المسافات البعيدة كانت تخزن الأحلام.

بعد ذهاب والده لشراء القنب بوقت قصير، وفي وقت مبكر في صباح
اليوم الذي تلا مغادرته، استيقظ ماتفي على غناء في الحديقة خارج نافذته:

في الفجر يا أمي العزيزة

بدأت الطيور تغني

لكن لا شيء يا أمي العزيزة

يستطيع أن يبهج قلبي المعتم

قطع الأغنية صوت امرأة عجوز تقول:

"اصمتن أيتها الغانيات! ابن السيد نائم هناك في الداخل"

"آن له أن يستيقظ!"

"تعالين لنرى كيف يبدو التاجر الصغير وهو نائم!"

كان هناك حفيف عند النافذة. رفع ماتفي رأسه ولمح زوجاً من العيون
الضاحكة. تذكر وعد زوجة والده وغمرته موجة حارة، فشد خجلاً
البطانية فوق رأسه.

"إنهن قاطفات الأعشاب الضارة" فكر.

"إنه ليس نائماً يا فتيات!" ضحكت من إحداهن موبخة من خارج
النافذة.

وثب من السرير وركض إلى المطبخ ليغسل قائلًا لنفسه إن عليه أن يلبس
أفضل ثيابه. ملأ فمه بهاء الصابون حين دفعته فلاسيقنا إلى الوراء وأوقعته
على الأرض وهي تتمتم ساخرة:

"انظروا كيف خرج من السرير بسرعة حين شم تنورة امرأة!"

"ألا تريد بعض الحليب؟"

عرض الحليب كان إهانة هنا، فهو على وشك الشروع في مغامرة أسطورية، وهي تعرض عليه شرب الحليب كما لو أنه كان عاجلاً. لم يتنازل للرد عليها، وركض قبل أن يكمل ارتداء ثيابه ليوقف زوجة والده. اندفع إلى داخل الغرفة بصخب وشد ستائر سريرها وتوقف فجأة وهو يغلق عينيه:

"انهضي" قال بنعمومة.

توهجت عيناه وتبللت. كانت الشمس عالية في السماء وانهمر ضوء الصباح الذهبي في شعاع مهيب من النافذة مضيئاً السرير وغامراً جسد المرأة شبه العاري في تألق مفعم بالحوية. لقد دمت نفسها في لحاف قطني أحمر واستلقت نائمة وهي تضع يديها تحت رأسها. جسدها المسفوح بلهب الشمس مشدود كالخيوط. ارتفع ثدياها العاريان بلطف كما لو كانا يكبران مع حلمتين ورديتين صغيرتين مشدودتين إلى الأعلى. كان من المخجل النظر إليهما، لكنه لم يستطع إبعاد عينيه عنهما، وجلب المنظر إحساساً مدغداً لشفتيه. كان لوجه المرأة الذي أظلمته الستائر منظر غير مألوف. ارتفع حاجباه وافترت شفتاه وارتعش منخراه كأنه يوشك على البكاء؛ إنها تجسد الندم. وكان هذا الندم مع ضوء الشمس غطاء نقياً قاسياً، انسحب فوق إغراء عربيها ليطفئ الاشتياق الخجول الذي تحرك في دم الصبي وأثار مشاعر جديدة غير مألوفة. أسقط ماتفي الستارة وذهب إلى غرفته بهدوء، حيث جلس على السرير، وحاول أن يركز ذهنه على شيء ما، لكنه لم يستطع أن يفكر بشيء سوى بالبرعمين الورديين الصغيرين المشدودين نحو الشمس.

رقصت ذرات غبار فضية في شعاع ضوء الشمس من خلال النافذة، وأنى صوت الضحك والمجارف والارتطام الناعم للتراب الساقط؛ ذهب

ماتفي إلى النافذة ووقف عند أحد جانبيها ينظر إلى الخارج إلى الحقل الذي غمرته الشمس. سوق طويلة من نبات الخطمي المتدانة المرصعة بكثافة بأزهار صفراء وبنفسجية زاهية تمايلت بلطف في النسيم. كان الهواء المتلألئ مشبعاً برائحة الشمرة والبقدونس والتراب المقلوب.

كانت النسوة يعملن بين الصفوف وقد ربطن رؤوسهن بمناديل ملونة وأبدت ظهورهن المحنية منظر أقدام وسيقان حمر مبقعة بالقذارة، كن منحنيات لدرجة بدون وكأنهن يحبون على أربع ويقضمن العشب كالنعاج. لوحت أذرعهن الشمس التي ومضت وتمايلت أوراكنهن العريضة ورفعت تنانيرهن للأعلى وثبتت بأحزمتهن وكشفت أحياناً عن بقعة كبيرة من العري، لكن ماتفي بدا وكأنه لا يرى ذلك.

كانت الفتيات يستخدمن كلمات فاحشة من حين لآخر، وكان الصبي يعرفها، تلك الكلمات التي قال عنها الشماس كورنيف "من الأفضل ألا يعرفها كي لا تظنى على صوت الكلمة المقدسة لرسالة الرب"

فكر ماتفي بجسد والده السمين المترهل المغطى بشعر احمر (حين كان معه لوحده في الحمام وجد أن النظر إليه منفر) وبجانبه رأى جسد امرأة أبيه، أبيض ونقياً مثل غيمة في صباح ربيعي مشرق، وأثار التباين المرارة ضد أبيه. تذكر كلمات سمعه يتكلم بها بسخرية بعد زواجه بفترة قصيرة. قال لبوشكاريوف وهو يغمز نحو بيلاجيا التي كانت تتمشى في الحديقة: "قطعة جيدة، أليس كذلك؟ رد عليه بشكاريوف "ليست سيئة في النهار"، قال والده مع غمزة أخرى: "إنها أفضل بكثير في الليل" وتابع قائلاً "لكن كل النساء أفضل في الليل" وأطلق ضحكة عالية وفظة.

سأل ماتفي الجندي لماذا تكون النساء أفضل في الليل "لماذا؟" ضحك بوشكاريوف "لأنهن يكن مختلفات في الليل". بصق وأضاف بجدية: "هناك الكثير من الساحرات وسطهن. يطرن من المدخنة، ألم تسمع؟" رد ماتفي متلعناً "لكن المدخنة ضيقة جداً" قال بوشكاريوف وأنهى الكلام بشكل صارم: "أوه، ذلك غير مهم. عظام النساء طرية. لكنك صغير جداً على هذا النوع من الحديث"

جفل ماتفي من حلم يقظته بسماع بيلاجيا تقول: "إذا أنت هنا، تراقب الفتيات أليس كذلك؟" ضحكت ووضعت يديها على كتفيه. "أي واحدة أحببتها أكثر؟" "ولا واحدة منهن" ردّ وهو عاجز عن الحركة من شدة الخوف. ملأه شوق لعناق بيلاجيا وهمس بكلمات ناعمة في أذنها.

"انظر، ناتاليا نيونوفا فتاة رائعة"، وأضافت وهي تتطلع من النافذة: "إنها شابة حرة. منذ أربع سنوات رحل زوجها إلى فورغورود ولم يسمع منه أي خبر منذ ذلك. تصور لقد زوجها إلى أرمل قبل أن تبلغ الخامسة عشرة من عمرها! كأنهم رموها تحت حجر الرحي" أصفى صامتاً متفادياً عينها خشية أن تخمن أنه شاهدها وهي عارية. رغم هياجه كان مدركاً أنها كانت تتكلم في نفس النغمة الميتة التي يستخدمها والده أحياناً.

حين كانا يشريان الشاي معاً، لاحظ أنها كانت تأكل بدون شهية وكانت شاحبة وكانت عينها ثقيلتين.

"أنت لست على ما يرام، أليس كذلك؟" سأها.
"أوه، نعم" قالت "مكتئبة فقط"

بنظرة سريعة إلى الباب بدأت تتكلم بصوت منخفض سريع:

"كنت خائفة جداً خلال الأيام القليلة الماضية! هل تذكر تلك الليلة أثناء العشاء؟ أنا متأكدة أن سافكا يعرف كل شيء. ليرحمنا الرب! وكنت مرعوبة منك أيضاً. ليباركك الرب لأنك لجمت لسانك! انتظر، سأحرص أن تكافأ على ذلك"

ابتسمت وغمرت له، لكن الشاب وجد شيئاً مصطنعاً في الابتسامة والكلمات، وقال وهو متورد الوجه من الخجل:

"لا أريد أي مكافأة"

"يا لها من فكرة! وهل أنا جاهلة بأحلام الشبان الذين يمثل عمرك؟"

"لا تقولي أشياء كهذه" تتم مانفي وهو يخفض عينيه إلى الأسفل.

"حسناً جداً. لن أفعل"، وضحكت مرة أخرى.

بعد وقفة قصيرة قالت بوضوح: "سأكون سعيدة إن أنت ارتكبت الخطيئة: سأعرف شيئاً ضدك أيضاً، وسنكون متعادلين"

قبل أن يتوفر الوقت لمانفي ليرد، بدأت تهمس بسرعة، تتذمر وتبتلع دموعها مثل امرأة عجوز تصلي: "لم أستطع أن أغمض عيني طوال الليل لأنني كنت أتساءل عن المكان الذي رحل إليه. هو لم يعد صغيراً أبداً، لقد شقت خاصرته بسكين وكسر له ضلعان. لقد أراي ذلك. عاش يهدوء هنا دون أن يؤذي أحداً. ليس لديه روح واحدة في العالم. أين يمكن أن يكون؟ أوه يا مانفي أنا ارتكبت خطأ بواسطة والدك، أنا أعرف ذلك، لكن لو كنت تعرف كم مخزياً أن تعيش امرأة شابة مع رجل عجوز - كم قبيحاً! كم يكون الأمر ثقيلاً على روحها! يا صبي العزيز! أنت أذكى مني، لكنني

سأقدم إليك نصيحة: إن رأيت أن زوجتك لا تحبك أطلق سراحها - دعها تذهب -"

أسبلت يديها إلى جانبيها وغاصت في كآبة محزنة.

"لو أنك كنت أكبر عمراً!" قالت.

"أنا أفهم كل شيء" قال ماتفي ضارباً الطاولة بأصابعه بشكل خفيف.

"كل شيء؟ حتى القس لا يفهم كل شيء. سأكون سعيدة لو عرفت هذا فقط: سوزونت ليس صغيراً أيضاً، لكن هناك شيء مميز فيه. والدك يحكي قصصاً عن الماضي بشكل جيد جداً، لكن حين يرويها سوزونت لي يمنحني لمحة من الفردوس!"

"لماذا؟ وهل يعرف كيف يتكلم حتى؟" سأل ماتفي في شك.

"استمالي بأسلوبه هذا" قالت المرأة بحماس وتورد كتفها أيضاً.

"حين كنت أصغي إليه وهو يروي القصص كنت أفقد كل وعي بالزمن. كنت أذهب إليه خلف الحمام العمومي تحت شجيرات التولا، وكان يأخذني بين ذراعيه مثل طفلة صغيرة، ويبدأ بقص حكاية عن بلدات مختلفة وعن أناس وعن نفسه. يعرف الرب فقط لماذا لم يكن يحتجزني أبداً، وكنت أعود إلى والدك في الوقت المحدد. كان سوزونت يرسلني (اذهبي) ويقول (حان الوقت). أنا جاهلة جداً ولا أعرف شيئاً، لم أزر أي مكان قط، لقد مشيت الخمس فيرسات من باليمري إلى أوكوروف خمس مرات ربما فقط. المرة الوحيدة التي كنت أبداً فيها مريحة حين أكون في حلم بقطعة أو أصغي إلى الحكايات. لو كان لي طفل فقط! لكن لا يمكنك زرع القمح في تربة حجرية"

بدأت تبكي، وبدت عيناها تذوبان وكانت دموعها غزيرة جداً. كان عليه أن يضع ذراعيه حولها ويواسيها ويقبلها حتى قبل ذلك، لكنه الآن كان خائفاً. لحق بها من مكان إلى آخر في البيت حتى حان وقت العشاء، مثل مهر يلحق بفرس. وكانت صورة جسد المرأة المعرى إلا من تألق الشمس تطرد كل فكرة من ذهنه. خلال العشاء جلست الفتيات اللواتي يميزن العشب على طاولة مقابله. تألفت خدودهن وجباهن الملوحة بالشمس من الفك والتنظيف؛ وكانت عيونهن ضبابية ومحمرة من الزيت وباتت أكثر ضبابية بعد تناول الطعام الجيد. قهقهن وتغامزن ودفعن معالقهن في الزبدية بشكل عشوائي وضربن معالق الشغيلة باستخفاف أو ربما بسبب جهلن بقواعد غمس معالقهن في الزبدية. وجد ماتفي الأمر غير مقبول. أربعه منظر فم ناتاليا ذي الشفاه النهمة تقريباً. كانت الأكثر حيوية بينهن؛ تدفق صوتها باستمرار في دفق جميل وكثيف، ونظر الرجال إليها مثل كلاب مقيدة تنظر إلى عظمة أبعد من منال مخالبها الفظة.

كانت الفتيات يطلقن صرخات صغيرة في مرات كثيرة ومتكررة، وكانت ترد عليها ببلاجا بجبن: "ليس بهذا الصوت العالي يا بنات" كانت إحداهن تلهث وتقول: "لقد قرصني أحد ما"

الفوضى غير المألوفة على طاولة الطعام ودعابات الشغيلة غير المحتشمة ونظرات الفتيات العاملات الوقحة والأهم عيون سافكا الحولاء، جعلت ماتفي مستاء. رمى ملعقة الطعام من يده وقال:

"يا أمي أخبرهم أن يتبھوا إلى ما يفعلونه. يبدو أنهم نسوا أنهم على مائدة الطعام"

انتابه على الفور شعور بالارتباك بسبب جسارته، ولم يرفع عينه لدقيقة أو اثنتين، متوقفاً أن يرد أحد عليه. لكن الكل أصبح خانعاً وصامتاً لدى سماع صوت السيد الصغير، ولم يسمع شيء سوى تلمظ الشفاه ومضغ الفكوك والأنفاس العميقة وضربات الملاعق على حافة الزبدية. نظر ماتفي حوله في ذهول وازداد ذهوله حين نهض عن طاولة الطعام ووقف الجميع جانباً باحترام ليسمحوا له بالمرور. احمرّ من الخجل مرة أخرى، لكنه كان ممزوجاً بالمتعة هذه المرة- الشعور الممتع بسلطته على الآخرين. حين وصل إلى غرفته التي كانت تلتهب بشمس الظهيرة أغلق مصاريع النافذة واستلقى على الأرض. رأى في خياله عيون والده الصغيرة الحادة ويدبه المشعرتين التي يخاف كل واحد منها. يا لسهولة ذلك! فكر. كل ما يلزم فعله أن تصبح بالناس لتجعلهم يطيعونك! كم بسيط ذلك! غرق في نوم عميق، وحين استيقظ كان المساء قد اقترب. الأمر سهل إلى هذه الدرجة! دخل شعاع أحمر من ضوء الشمس عبر المصاريع وانصهر في حرارة الغرفة. نسوة كن ينادين بعضهن في أصوات واهنة في الحديقة؛ سمع خوار القطيع قادماً من الحقول، قافاة الدجاج وصراخ الغربان.

خرج ماتفي إلى البستان وأخذ نفساً عميقاً وهو يشعر بولادة شيء جديد فيه في هذا اليوم. دخل الهواء العبق في رأسه، وسكب سماً لذيذاً في دمه. أحب تلك اللحظات حين بدت السماء كلها تجتاح صدره وتتدفق أشعة ضوء الشمس عبر عروقه وهي ترتعش؛ حين ملأ السديم الأزرق عينيه وجسده، تلاشى وذاب منتشياً برائحة التربة وعرف إشارة التوحد مع الأرض. من خلال الرنين الباهت في أذنيه سمع بيلاجيا نصيح في نغمات مكبوتة: "أوه، ماذا تقول؟" أدار رأسه إلى الوراء بحركة مفاجئة، ابتسم

ونظر حوله لكنه لم ير زوجة والده. "أوه، كلا!" سمعها تصيح ثانية. أتى صوتها من خلف حمام الكوخ. أربع شجرات بتولا تضافرت وشكلت ركناً بمنزلاً ظليلاً هناك. مدفوعاً بتوجس مفاجئ بالشر، ركض بصمت عبر بقعة توت العليق، وتوقف فجأة حين وصل إلى حمام الكوخ. شعر كأن شخصاً قبض على قلبه بأصابع باردة. تحت أشجار البتولا وقفت بيلاجيا تعصر يديها بينما كان سافكا يمسك بكوعيهما ويصب كلمات في أذنها. كان همسه عالياً ومميزاً، لكن الصبي لم يفهم ما كان يقوله في البداية فقد ملأه الاحتقار والغضب على زوجة أبيه. تخيل عيونها تجحظ من رأسها مثل عيون سافكا. أخيراً سمع بوضوح ما كان الرجل يقوله "نحن أناس أحرار الآن. من يمتلك النقود لورد وسيد الآن"

كان يمسك بذراعي بيلاجيا، مرة يرفعها عالياً ومرة يضغطها على جسدها.

"دعني اذهب" كانت بيلاجيا تقول "هل أنت مجنون؟"

"صممي وقرري - أنا لن أعطيك الأمن والسلام. وبالنسبة إلى الإشفاق على الرجل المعجوز، لماذا عليك ذلك؟ من يكون هو بأي حال؟ فقط رشي القليل في شرابه من الكفاس - أنا سأعطيك إياه - مقدار قليل جداً فقط. يمكنك أن تخلطيه في خبزه. يمكنك أن تفعلي هذا لابنه أيضاً...."

فهم ماتفي معنى الكلمات؛ سمع قصصاً كثيرة عن أشخاص جرى تسميمهم بالمساحيق. فقد صوابه فجأة وانتزع مجرفة مسندة على جدار حمام الكوخ وقفز إلى الأمام وضرب سافكا بكل ما أوتي من قوة. "رحمتك يا رب!" صاحت بيلاجيا وهي تقفز جانباً. رفع ماتفي المجرفة ثانية لكنها أمسكت بالهواء وانتزعت من يديه. أوقعت ضربة في المعدة الصبي على

قدميه وغطس في ظلام. أيقظه شعور بالألم من غيبوبته: داس أحد على أصابعه. رفع رأسه وجلس معتدلاً. مجموعة من الأشخاص انشغلت في مشادة يسهلون ويلوحون بأذرعهم كأنهم يدرسون الذرة. رؤوس كانت ملتصقة عالياً فوق المسامير في قمة السياج وأصوات تصبح عالياً وتشجع:

"اضربوه في البطن! نحت لوحى الكتف، ابن الزنا!"

كانت بيلاجيا منحنية فوق ماتفي، لكنه لم يستطع أن يفهم ما كانت تقول. ارتعب جداً من منظر الرجال وهم يضربون سافكا الذي كان مبطوحاً بجانب السياج، يهز ذراعيه وساقيه كما لو كان يسبح. فلاح مرح ضخم اسمه ميخايلو ظل يركل سافكا في ظهره بكعب قدم أسود وصلب كحافر حصان. جثا غلام سعيد، وهو قوي وضخم يدعى ايفان بجانب الضحية، ظل يضربه بعنف على عنقه من الخلف كأنه يحاول قطع رأسه بقبضة مثلثة حمراء. سافكا الذي مزقت ثيابه إرباً وتلطخ جسده بالدماء والقذارة، سقط رأسه في الوحل وصاح بصوت حاد:

"توقفوا! آه! توقفوا!"

"أقربوه والكموه في القلب" أتى صوت من السياج. "هناك أشخاص يمتلكون رئين في صدورهم - الضرب لا يؤذيهم، ليس هناك نهاية لتنفسهم"

كان كل من بيلاجيا وبوشكاريوف ونااليا يمتنون بماتفي. وضعوا قطعة قماش مبللة على جبينه وأعطوه شيئاً يشربه فبلعه دون أن يحول نظره عن المنظر المرعب. حاول أن يقول شيئاً، لكن الألم والرعب أخرساه تماماً. وصاح أخيراً: "توقفوا عن ذلك!" استدار ميخايلو ونظر إليه: "نعم، أعتقد أنه نال ما يكفي" وافق قائلاً.

ابتعد سافكا حائياً وهو يتمسك بألواح السياج بأصابع اكتست بالوحل الذي تشكل من دمه والتراب، وبدأ مثل جذع شجرة منزوعة من جذورها، ساقاه المتعبان الرخوان المنهكان، قميصه وسرواله كاللحاء الممزق الذي من تحته رشح سائل داكن اللون.

كان ميخايلو واقفاً بجانب بيلاجيا.

"هل تتكرمين علينا بشراب أيتها الخليفة؟" قال بابتسامة

"اسحلوه إلى داخل الحمام الآن!" صاح بوشكاريوف.

توجع قلب ماتفي وارتعشت يدها وكان يتنفس بصعوبة بسبب التشنج في حلقة. أمسك بيد زوجة والده وحقق مشفقاً بالناس المحيطين به. وكل كلمة تفوهوا بها كانت مثل مقلب حاد يحفر في لحمه.

"ستييان فيودورفيتش" قالت بيلاجيا لبوشكاريوف "لن أضعه في

الحمام قد يخرج في الليل - قد -"

"ها إذا أنت خائفة أليس كذلك أيتها العاهرة!" صاح أحدهم مغتبطاً

من السياج.

وثب ماتفي، وبدأ يقذف كتل من التراب على المتفرجين.

أربعة رجال حملوا سافكا من ذراعيه وساقيه وأبعدوه مثل كيس من الدقيق، وكانوا يصدمون ظهره بالأرض ويكشطونه.

"احملوه أعلى من ذلك" قال ميخايلو محذراً "سوف تكشطون عنه

جلده"

العمال والمعشبات وفلاسييفنا كلهم تجمعوا في البستان. حلق بهم ماتفي دون أن ينطق بكلمة وهو مصدوم جداً وعاجز عن الكلام. تحدثوا بأصوات عالية. ضحكوا وغمازحوا. لم يظهر الخوف على أي منهم أو الاشمئزاز من

منظر الدم أو الغضب الحقيقي من سافكا. لقد سخروا منه وفاخروا باللطم التي كاله له.

"هو أحمق" قال إيفان بلهجة طيبة "شبه معنوه"
"هو يتحدث عن الحرية دائماً، لاشيء سوى الحرية"
"هم، لم ينضج بعد!"

كانوا أكثر مرحاً وحيوية من المعتاد كأنهم أتموا يوم عملهم وظلوا نشيطين.

دخل ماتفي إلى المطبخ فوجد فلاسييفنا تغسل خدشاً عميقاً في كتف بيلاجيا الأيسر وصدرها.

"يا إلهي ما الذي ستقوله للسيد حين يعود إلى البيت؟" كانت فلاسييفنا تقول.

"لقد داسوا على سوق الثوت البري" قالت بيلاجيا. لمحت ماتفي فاستدارت نحوه.

"انظر أنت وأنا في هذه القضية!" صاحت.

"ذلك لا يهم" قالت فلاسييفنا مهدئة "هو لا يزال طفلاً"

أراد ماتفي أن يطلعها على جزء من رأيه، لكنه عض على أسنانه وخرج إلى الشرفة؛ حيث جلس على إحدى الدرجات وانهمك في التفكير.

من نظام الأشياء أن الناس يتقاتلون في أيام العطل. رأى رجالاً ثملين يسحقون بعضهم البعض لاختبار قوتهم وقدراتهم. لقد رأى نزالات شريرة تدحرج فيها الرجال كالكلاب في كتلة لا شكل لها فوق الأرض يطحنون أسنانهم من الحق ويدورون عيونهم المحمرة البرية. هكذا نزالات لم ترعه، لكن قتال اليوم كان مختلفاً لقد رأى اليوم رجالاً متحمسين

يضربون رجلاً بحماس ودم بارد حتى الموت، ووجدوا متعة في ذلك كالتي يأخذونها من ممارستهم للعبة، وكان خائفاً، كان خائفاً من رجال استطاعوا أن يمسحوا بهدوء أصابعهم الملوثة بدم رفيقهم العامل بسر واليهام.

ركضت ناتاليا، مثل دمبة لمعوب، وراءه لتفرغ سلة من الأعشاب الضارة في الفناء، تبعها ظل طويل عاتم أنار فيه عواطف غامضة غير مرغوبة. خرجت بيلاجيا وجلست على درجة فوقه.

"هل تألت حين ضربك سافكا؟" سألت وهي تضع يدها على كتفه.
"كلا" رد قائلاً وهو يقترب منها أكثر دون قصد وينطلع في وجهها الشاحب "هل أنت من ناداهم ليضربوه؟"

"كلا، هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم، لقد صرخت حالماً رأيته. أوه لو تعرف كم كان منظره مخيفاً! أمسكني من حلقي ثم أتى الرجال يركضون وتغلبوا عليه بسرعة وسهولة. كان وحشياً معي، لكن هل تعتقد بأنه سينقلب على ذلك؟"

تطلع ماتفي إلى السماء في بقعة صغيرة من الأزرق، بجانب القمر بدأت نجمة ذهبية تومض. عادت عيناه إلى وجه زوجة والده:
"لورشوهم بالخمر من أجل أن يقتلوه هل تعتقدون أنهم كانوا سيفعلون ذلك؟" سأل.

"نعم، أعتقد" قالت بحسرة. صاحوا بها لتناول العشاء.
امرأة عجوز تلقب بـ "الماء الحي" قدمت وصفاً حياً ومفصلاً لإصابات سافكا، وقالت إنه كان يثن بشكل مخيف خارج الحمام. ضحك الرجال وهم يصفون إلى ما اعتبروه وصفاً مرضياً.

"ذلك جيد" قال ميخايلو في لهجة من يعرف ماذا كان يتحدث "سوف يشفى في الصباح. كان عليك أن ترى الضرب الذي نلته قبل خمس سنوات! ذلك ليس شيئاً يذكر"

بدأ الكل يتحدثون معاً، بروون قصص الضرب الذي نالوه أو كالوه لغيرهم بمتعة.

هل هم أشرار جداً في الحقيقة؟ فكر ماتفي وهو ينظر إليهم من تحت حاجبيه المنكسين.

تحت غطاء الحديث يفترض أن كوزما الصغير قرص ناناليا لأنها كتمت صبيحة ورمت ملعقتها وأقحمت يديها تحت الطاولة.

"توقفوا عن ذلك أيها الأصدقاء!" صاح بوشكاريوف بعد أن ضرب الصبي والفنأة بالملعقة على جبينها ضربة عالية. ضحك الجميع وتمتت زوجة والد ماتفي متذمرة وصدرت أصوات غريبة من ناناليا في محاولة الابتسام لكن وجهها استطال وتجمد من الألم.

نهض ماتفي. أراد أن يقول شيئاً يجعل الناس ينجحون من أنفسهم ويعتذرون للآخرين، لكن الكلمات لم تخرج منه، ولهذا تخطى المنضدة وخرج إلى المطبخ وتمتم وهو يخرج: "لا أستطيع تحمل ذلك"

بمجرد أن أصبح خارجاً، قرفص في زاوية قرب البوابة وبكى في غضب عاجز وخوف ونقمة.

وجدته بيلاجيا هناك. "أيها الصبي بنيم الأم المسكين!" قالت حين جرفته وعادت به إلى البيت "كم آذوك، وذلك كان هنا قبل أن تغادر البيت! تخيل ما الذي سيحدث حين تكون خارج البيت"

"أود لو حطمت أكوأهم!" صاح متعلقاً بها "انتظري فقط حتى أكبر كفاية!"

كانت نافذة الغرفة مفتوحة، ومن خلال قمم أشجار الزيزفون التي كانت مثل غيوم شفافة مزغبة ومضت السماء المنارة بضوء القمر. من على مسافة بعيدة جاء صوت غناء وقرع على الرق. دق جرس في الدير وأصدر النحاس نحيباً حاداً.

قادته بيلاجيا إلى داخل غرفته وهو ممسك بيدها، وجلست بجانب النافذة. وضع رأسه على كتفها وقد هدا برنين صوتهما ونعس:

"لو أنني أتيت من مكان بعيد لكان الوضع مختلفاً، لكن هنا الكل يعرف أنني مجرد امرأة ساقطة كانت عشيقة بوينوف وأن والدك أخذني مقابل دين له، لا أحد يهتم أو يحمل لي أي احترام. أنا أصلح عشيقة جميلة فقط. هم لا يخاطبونني باحترام حتى، لا أجرو على الخروج من البيت وليس لي صديقات. كان يمكن أن أجد البعض لو سمح لي والدك بالخروج ولكنه لا يثق بي، ولماذا عليه ذلك حقيقة؟ الدرب مفتوح لأي شخص، القس والشيطان على السواء كما يقول المثل. إن سافكا ذاك ليس إلا مجرد صبي ومع ذلك نجرأ وطلب مني أن أسمم سيده. لم يكن يقول مثل ذلك الشيء لأي امرأة أخرى، لكنه استطاع أن يقول لي ما يرغب فيه. ذاك النعجة السوداء. أنا وحيدة جداً. آه لو كان لدي شيء يشغلني فقط!"

طفرت الدموع إلى عينيها وتأوهت بحزن واضعة ذراعيها حول ماتفى. ضغطت رأسه على صدرها وكررت:

"وحيدة جداً، وحيدة جداً"

اضطربت أفكار داخل رأسه، وأدرك بخجل أنه كان يجرب الإثارة التي شعر بها في الصباح، لكنه ضغط شفثيه على كتفها مستنشقا رائحة جسدها لافتقاده إلى القوة لكتبها.

"أيها الصبي العزيز يا ولدي العزيز" همست بيلاجيا "لماذا ولدنا؟ ولماذا نعيش؟"

دون وعي ضغط أكثر ثم تراجع إلى الخلف فجأة.

"هل وخزت نفسك بإبرة؟" سألت ببراءة "تمزق قميصي وثبتته بدبوس، لم يكن لدي الوقت لأبدله، سوف أنزع الدبوس الآن" استندت على عتبة النافذة وكان صدرها مكشوفاً. فقد كل سيطرة على نفسه وأقبل على صدرها بنهم بشفثيه.

"ما الذي تفعله؟" همست وهي تدفعه بعيداً "توقف عن ذلك يا ماتفي!"

ناضلت لتقف على قدميها وهي تتمتم موبخة، وقد أخذت رأسه بيديها "أترى كان عليك ألا ترفض ناناليا" ابتعدت عن النافذة وذهبت إلى الظل.

"اذهب إلى سريرك ولا تقفل بابك" قالت في نغمة مجردة من العاطفة. "لماذا؟" سأل برعشة صغيرة.

"أترك ذلك لي"

قبلته على جبينه بقوة، وخرجت لتركه مقرصاً في الزاوية وهو يراقب الظلال على الأرض تزحف نحوه مثل شبكة من أفاع سوداء. اختلس النظر من النافذة، كانت السماء المقمرة تومض بنعومة.

"يجب أن أغلق ستائر النافذة..... البعوض... " تمنم لنفسه كأنه في حلم.

لكنه انكمش أكثر إلى الجدار وانتابته رعشة أخرى. أصدر شيء ما صوتاً خفيفاً خارج بابه، ثم فتح الباب بحذر وسطع الضوء الأزرق على وجه ناتاليا وشكلها، كما لو أنه يحاول أن يجعلها ترجعه.

تجمدت ابتسامة على شفيتها ولمعت أسنانها ببرود. مدت رأسها إلى الأمام وعيناها مثل شرارتين تتطايران في الغرفة، فتشنا السرير وتوقفنا عند اكتشاف الشاب في الزاوية وثبتناه إلى الجدار. تقدمت نحوه ببطء كأنها تطوف في الهواء وهمست وهي قادمة، فبدا له أن ظلالاً كالأفاعي قفزت عن الأرض والتفت حول ركبتيها ورمت نفسها على صدرها ووجهها.

"اغربي!" قال بصوت عال.

لم تكثرث به واقتربت منه أكثر، ففاحت من جسدها رائحة التراب والعرق والتبن.

"اغربي!" صاح بصوت عالٍ مرة أخرى حين اقتربت منه أكثر لدرجة كان في مقدوره لمسها.

"أماء!" صاح بصوت أجش وهو يخبط الأرض بقدميه.

وثبت ناتاليا إلى الخلف وشفقت الباب وراءها.

لفه الظلام فجأة وعصف به وحمله بعيداً.

حين عاد إلى وعيه كان مستلقياً على السرير يلهث من رائحة الخل الحادة والفجل الحريف وكانت ييلاجيا تجلس إلى جانبه وسمعتها تقول لفالسيفنا

"يوم مرعب هذا الذي أرسله المولى لنا"

كانت فالسيفنا جالسة تحك الفجل الحريف وقد حولت رأسها جانباً.

"كما لو أنك كنت أمأ له" قالت في لهجة عذبة "الصبايا اللواتي بمثل سنك يتزوجن صبيان مثله، في القرية الصبي الذي في الخامسة عشرة من عمره دائماً يخطب امرأة أكبر منه بكثير، ذلك طبيعي فقط لأن الفلاح محكوم عليه أن يعمل طيلة حياته. كل واحد يحاول أن يحمي ظهره من الانكسار قبل أن يحين وقته"

"ما الذي يجب علي فعله؟" همست بيلاجيا متجاهلة كلماتها "كيف لي أن أنكر قدحهم؟ والآن هو يعاني من مرض ما" ازدادت القتامة في عينيها الخائفتين وبدأ وجهها طويلاً ومسحوقاً بحسرة عميقة. وضعت أذنها على صدر ماتفي فهمس لها قائلاً:
"أرسلني فالسيفنا بعيداً"

بشهقة صغيرة استوت وجلست تحديق في الجدار صامتة لبعض الوقت، ثم تمتمت: "يبدو أنه نائم. من الأفضل لك أن تذهبي وتستلقي سوف أناديك إن احتجتك"

انحنى فوق ماتفي بعد أن ذهب الطباخة فوراً.
"هل أخافتك تلك الفتاة المعتوهة؟" سألت بلهفة.
"كلا" قال وهو يشيح بنظره بعيداً، لكنه أضاف بفخر ورعونة "هي لم تلمسني حتى"

"ماذا حدث؟" سألت بيلاجيا بفضول شغف وهي تقترب أكثر.
حين حكى لها ما جرى باختصار أنهى كلامه قائلاً:
"لماذا أرسلتها إلى هنا؟"

"حسناً أنت ترى" تمتمت وقد احمرت وابتسمت "أخيراً وبعد كل شيء، أنت..."

أطلق تنهيدة عميقة وهو يلعب بأصابعها.

"ظننت أن من سيأتي هو أنت"

وثبت إلى الوراء وهي ترمش بعينيها من الذهول وازداد خجلها.

"لتكوني بصحبتني" قال مانفي.

ضحكت بهدوء وهي تضع يدها فوق فمه.

"يا الله! يا رحيم يا للفكرة التي خطرت لي!"

"ما هي؟"

"ليست شيئاً مميزاً" ثم قالت وهي تمز رأسها بحزن وتنهد بعمق:

"حماقة"

"من الذي رمى ثيابي عني؟" سأل مانفي في ارتباك.

"نحن فعلنا لماذا؟"

شد البطانية حوله. نهض وذهب صوب النافذة.

"هل كان ينبغي عليك أن تنهض؟" سألت المرأة قلقة وهي تتحاشى

عينيه.

"لا أستطيع التنفس" همس "لقد دخل الفجل الحريف في عيني"

كان لون السماء وراء النافذة أزرق عميقاً؛ تلالاً نجوم قليلة في ضوء

القمر؛ اهتزت أوراق الأشجار كأنها تحاول أن تنفض عنها الغطاء الفضي؛

استطاع سماع التمتمة اللطيفة للحياة الليلية للنباتات والأعشاب؛ وقفوا عند

النافذة لوقت طويل دون التفوه بكلمة.

"ما الذي تفكرين فيه؟" سأل مانفي أخيراً.

"سيأتي والدك قريباً" قالت المرأة ببطء "ستنسكب الحكايات عني في أذنه من جميع الأطراف وماذا سأقول له؟ قل لي"

طرب ماتفي لأنها أصرت على طلب نصيحته. رفع حاجبيه ولم يقل شيئاً، ليس لديه ما يقوله ثم سأل مندهشاً:

"لو أنهم سألوا ناتاليا وقالوا لها اذهبي ونامي مع بوشكاريوف هل تظنين أنها ستذهب؟"

"إن دفعوا لها مقابل ذلك" ردت بيلاجيا ببساطة.

فكر ماتفي للحظة.

"هم ينشرون إشاعات مقينة عن فتيات مثلها" لاحظ قائلاً باكتئاب.

"نعم ينشرون إشاعات مقينة عنهن" ردت بيلاجيا ثم تحولت إلى همس غاضب "سيأتي والدك وسيبلغ الشرطة عن الأمر وستثار ضجة. أوه يا للعار والذل الناتج عن ذلك!"

"اسمعي" قال ماتفي رافعاً إصبعه.

انزلق القمر واختفى من السماء في هذا الوقت، واستقرت بطانية سميكة من الظلام على الأشجار واحترقت الأضواء السبعة لعربة الملك داوود بشكل باهت، ونثر الغبار الذهبي للنجوم على الأرض، ومن خلال الحاجز الذي شكلته شجيرات التوت البري يمكن رؤية ضوء كليل بومض في نافذة الحمام كما لو كانت ممسوحة بخرقه صفراء. استطاعا سماع أحد يحنك بالسياج ويتعلق به ويثن بوهن ويصق.

"سافكا" همست بيلاجيا وهي تضع يدها على صدرها.

"إنه يفر" قال ماتفي متعشاً "اتركيه، اسمعي سوف نفتح له البوابة لن يقدر أن يتسلق السياج"

"سوف بضربك!"

لكن ماتفي مد نفسه من النافذة وهمس في سكون البستان:

"أذهب إلى الفناء يا سافكا سأفتح البوابة لك. أسرع!"

للحظة كان الصمت غمياً في البستان ثم قال صوت أجش:

"أعطني بعض الفودكا"

ركضت بيلاجيا إلى الغرفة الأخرى.

"سأجلبها لك" قالت.

وضع ماتفي بعض الثياب على جسده بسرعة وخرج من الباب مندفعاً

إلى البوابة؛ حيث وجد سافكا على ركبته يلهث بصوت مسموع ويصق.

رأسه يسقط إلى الجانب الأول حيناً وحيناً إلى الجانب الآخر مثل كرة سوداء

دون أي وجه.

"حسناً!" تمت حين دفع ماتفي المزلاج للخلف "لقد تسببت في قتلي

تقريباً والآن تريد التخلص مني"

فتح ماتفي البوابة بهدوء واسترق النظر إلى الشارع الفارغ وتصور في

ذهنه بقايا هذا الرجل المنكسر وهو يزحف فيه مخلفاً وراءه خيطاً من الدم

والكلاب التي أيقظتها الرائحة تندفع وراءه وتنبج.

"هؤلاء الحشالة خائفون!" زجر سافكا "لولا الشرطة لما تسلمت

وهربت هكذا.... كنت"

جاءت بيلاجيا راكضة وناولت ماتفي كأساً، رائحة الفودكا جعلت

سافكا يطلق آهة ويمسك بالهواء.

"أين هو؟ لا أستطيع رؤيته"

الظلام وربما تورم جسده جعلاه يبدو ضخماً بشكل خيالي. ابتلعت
الكأس مخالب ضخمة حملتها إلى الأعلى وضغطتها إلى هذه الكتلة السوداء
اللحمية التي يصعب تسميتها وجهاً بشرياً.

شرب طويلاً وهو يتمم "أم، أم!"
حين انتهى منها، رمى القدرح بعيداً وناضل ليقف على قدميه.
"حسناً أنا مغادر!"

فتح مانفي البوابة على مصراعها. دست بيلاجيا شيئاً ثقبلاً مربوطاً
بقطعة قماش صغيرة في يده.
"أعطه هذا إنها نقود"

"آه...ه...ه!" بكى سافكا بسماع صوتها "مال من أجل كفني أليس
كذلك! لو لم أكن خائفاً.... دعينا نفعلها، أعرف أنك تعيشين مع ابن
زوجك هذا يا بيلاجيا! وأنت على صواب سيموت الرجل العجوز
وستصبحين سيدة البيت"

ترنح في مدخل البوابة متمسكاً بالعمود كأنه بلا قوة ليخطو إلى الشارع.
لكن بمجرد أن خطا قال بصوت أشد وأكثر حيوية وهو يخطط البوابة بشيء
حمله بيده:

"لا تقفل البوابة أيها الخنزير وإلا سيخمنون أنك من تركني أخرج"
هو على صواب، فكر مانفي وومضت شرارة حسنة نحو سافكا في
داخله.

غطت بيلاجيا التي كانت تجلس على درجة الشرفة وجهها بيديها ورأى
مانفي كتفيها وصدرها يرتفعان وينخفضان وبدت له صغيرة وغير محمية
مثل طفلة.

من الموقع حيث تبني الكنيسة الجديدة أتى صوت الخفير الليلي وتلاه في الحال رنين القرص الحديدي يلقى في السوق معلناً انتهاء الحراسة الليلية. بهت الظلال ونحول لون السماء إلى الأزرق الفاتح كأنها كانت تنسحب من الأرض.

"تعالى إلى السرير" قال ماتفي أخذ المرأة من ذراعها بقوة. تأثر بشكلها المطرق وخطوتها المترددة وخنوعها، فملأه ذلك بحرص بالغ عليها.

"هل أنت متعبة؟" قال بلطف وهو يشعر بأنه أكبر عمراً منها وأقوى. أوامات برأسها. وحين وصلا إلى غرفة والده مسد يدها وقال: "أذهبي إلى السرير ونامي. أنا مسرور لأن سافكا هرب" "وكذلك أنا" قالت بيلاجيا بنعومة وهي تفك مريولها. بشيء من الفضول والاندھاش حلق في الغرفة المظلمة الباردة، فرأى السرير الواسع وقد تكومت الوسائد عليه بشكل مرتفع وشعر بالفخر بأن هذه المرأة تخصه.

"باركك الرب لدفاعك عني ماذا كنت سأفعل بدونك؟" همست بيلاجيا وزادت الكلمات من شعوره بالقوة والسلطان. كانت تجلس على السرير دون أي ثياب ماعدا القميص الذي بدا شفافاً على خلفية اللحاف القائمة. بشفتين منفرجتين درس خطوط جسدها الخارجية، وبابتهاج وبدون خوف أو خجل شعر بتسارع دوران الدم عبر عروقه ورأسه. "لكن أخشاك أيضاً فأنت لم تعد طفلاً" أتى صوتها الناعم المشير "وأنا أحبك أكثر فأكثر هل سمعت ما قاله سافكا؟ وفلاسييفنا أيضاً نقول أنا لست أمأ لك"

وصل ماتفى إلى جانبها، نشر ذراعيها مثل جناحين فضمته إلى صدرها وقبلته على جبينه.

"طابت ليلتك أيها الغالي!" قالت.

مر على ذلك الصباح أكثر من أربعين سنة من حياة ماتفى، وكلما كان يتذكره يمتلئ قلبه المفجوع بالعرفان للمقدر الذي التفت إليه بابتسامة متوهجة في شكل امرأة وللرب الذي عاقبه على خطيئة جعلته يعيش حياة مليئة بالمشاق والوحدة، حياة إنسان احتقره فيها مواطنو أكوروف المترممين وبصقوا عليه.

تذكر جيداً حين كان مستلقياً في السرير وقد أضعفه العار والجماع، ولكنه مغمم بابتهاج فخور، كان وجه المرأة الصباحي المتورد المنحني فوقه، كانت تبسم وتبكي، سقطت دموعها الخنونة على وجنتيه وسالت إلى عينيه وفركت طعم الملح على شفثيه. سمعها وهي تنطق بكلمات غريبة بدت كالصلاة:

"ليكن حزني فرحك وخطيئتي سلوانك، لن أتذمر وأشتكي بكلمة أبداً، وسأتحمل وحدي كل اللوم أمام الرب والبشر، أنا ممتنة لك جداً لأنك غمرت كياني كله بحنانك وجلبت لي الراحة يا قلبي العزيز يا زهرني المنكماش الغالية، كما لو أنني غطست في جدول وأنت غسلت روحي وجعلتها نظيفة؛ ليكافئك ربي على الحنان الذي أبدته لي بإعطائي السعادة كلها التي يوفرها العالم....."

مفتوناً بتعويذات غريبة استلقى وهو يتسم ويلعب بشعرها عاجزاً عن إيجاد كلمات للرد، وشعر أنها كانت الأم والأخت لشبابه.

أنت الكلمات الحكيمة التي نطق بها الشماس كورنيف إلى ذهنه بشكل شعاع فخم وساطع.

"الزواج اندماج روحي لمخلوقين من أجل تغلبهما المشترك على مشاق الحياة التي تلدغ الروح بوحشية وبلا كلل يوماً مثل أفاع سامة"
أحب أن يقول هذه الكلمات لبيلاجيا، لكنها استمرت في التحدث دون توقف وكانت مقاطعة التدفق العذب لخطابها حماقة.

كانت السماء ساطعة بفجر يوم جديد. خارج النوافذ نشر البستان الذي غمره الصباح الذهبي المعطر برائحة الزهور عقبه في الهواء. هزت أوراق الشجر نفسها لتستيقظ ومطت نفسها باتجاه الشمس وتمايلت قمم الأشجار ببطء وتأمل كأنها تصلي. سقطت بقع ذهبية من ضوء الشمس على بشرة المرأة البيضاء فقفزت واعتدلت خائفة.

"يا ربي سيستيقظ القوم ويطلقون صياح المطاردة "فر سافكا" سيأتون ليوقظوني من النوم ارحل! أسرع!"

بدت صغيرة بشكل غريب مربعة ومضغوطة في قميصها الداخلي.
حين وصل ماتفي إلى غرفته استلقى على السرير وأغلق عينيه، لكن قبل أن تتوفر له فرصة النوم سمع بوشكاريوف يصرخ في الفناء:

"أيها المعتوه ذو الأقدام المسطحة لا تستطيع حراسة رأسك حتى! ما الذي سيقوله سيفلي بشأن هذا؟ استعد لتلقي اللكمات على أنفك!"
كان اسم والده مثل هبة من الهواء البارد على الصبي. فكر بعينه الساخرتين النهمتين وبتوء شفته السفلى والأصابع الحمر لبيديه المتفتختين.
انكمش ماتفي وأخفى رأسه تحت الوسادة.

غاب والده عن البيت لمدة أربعة أيام وتذكر ماتفي بدقة وحيوية كل دقيقة من تلك الأيام. لديه مقدرة نادرة وصحية في تذكر لحظات الحياة المشرقة.

لم يستطيعا إخفاء إثمهما: نجول ماتفي شاحباً وشارداً مثل شخص في حلم. أصبح وجه بيلاجيا البورسلاني أكثر حيوية وامتلات عيناها بضوء فرح فيه مسحة من القلق وافترت شفتا فمها الصغير الممثلتان عن ابتسامة دائمة وتنقلت قلقة في البيت والفناء وهي متشوقة كي يراها الناس.

"يا ويلى لقد نسيت الأمر تماماً!" صاحت بصوت عال وهي تضرب فخذها بكفها.

ابتسمت فلاسييفنا ابتسامة ذات معنى. حك بوشكاريوف لحيشه القصيرة بخفة وصهل باستياء نافخاً وجتبه.

بينما كان ماتفي ينتظر بيلاجيا في أحد المساءات بعد العشاء، وصل إلى سمعه صوت بوشكاريوف وهو يتحدث إلى فلاسييفنا في المطبخ:

"أنت غبية"

"ربما، لكن ارتكاب إثم مثل هذا الإثم! مع زوجة والده.."

"من المؤسف أنه لم يكن معك أليس كذلك؟ هي ليست أمه"

"أوه، أليست كذلك؟ إنها زوجة والده"

"أنت أيتها المغفلة! هل لديها أي طفل؟"

"وما الفرق الذي يشكله ذلك؟ وأنت تدعو نفسك جندياً!.."

"لينزل بك الطاعون!"

تصبب العرق البارد من ماتفي. حين جاءت بيلاجيا أخبرها بما سمع فشحب لونها وسرت في جسدها رعشة أيضاً.

"من المؤكد أن فلاسييفنا ستقل الخبر" قالت وقد دلت رأسها للأسفل
"هي من دفعته إلى ذراعيك. لا تزال تأمل أن والدك لم يهجرها تماماً"
لم يصدقها ماتفي لكنها أقنعتة بصدق كلامها.

"ما الذي ساهتم به؟ دعهم يكونون معاً سيكون ذلك أفضل لي لا تخف
يا ماتفي" قالت وهي تقذف رأسها وتضغطة إلى صدرها "لو أنه يتركك
وحدك! بالنسبة إلي لقد ضربت سابقاً قبل أن أعرف كيف يكون الضرب
الشيء الوحيد الذي أخشاه هو المحاكمة..."

فكرت لحظة ثم قالت في نغمة أكثر مرحاً:

"ما رأيك في بوشكاريوف يا ماتفي؟ تبارك فؤادك، صحيح أنا لست
أماً لك. أنا أكبر منك بخمس سنوات فقط وبخصوص كوني متزوجة فهو
لم يكن زفافاً حقيقياً. صحيح أننا ذهبنا إلى الكنيسة لكننا لم نؤد الطقوس
كلها ولم يغن أحد فوق أغنية ولم أنتحب أو أبكي حتى ولم يتم أي شيء
وفقاً للتقاليد. زوجني القس لأنه قبض مالاً مقابل ذلك، لكننا لم نتزوج
بواسطة أصدقائي وأقاربي كما في العصور القديمة كما يفترض بالروس أن
يفعلوا....."

"أخشى" قال ماتفي "ربما ينبغي علينا أن نهرب. دعينا نفعل يا
بيلاجيا"

شدته إليها بقوة غير متوقعة وقبلته على صدره فوق القلب.

"يا صبي الطيب الطاهر! ليباركك الرب من أجل كلماتك اللطيفة"
قالت.

امتلات عينها المرفوعتان للأعلى بالدموع مثل وردتين بالندى وتلوى
وجهها في نوبة من الألم.

قفز للأعلى مدعوراً. لكن اللحظة مرت. هدأته بقبلة ثم نعس ونام بين ذراعيها. وضعت رأسه بلطف على الوسادة ورسمت إشارة الصليب فوقه وانحنت بشكل منخفض له وهي تضع يدها على قلبها.
رآها تنحني من خلال رموشه المسبلة وجعله الشعور بموت وشيك يرتعش.

في الصباح التالي أيقظه بوشكاريوف من نومه ويذا عابساً وأشعث أكثر من أي وقت مضى.

"نائم؟" قال "يفترض أنك فررت بعيداً بدلاً من النوم"
"أين المكان الذي أستطيع الهروب إليه؟" سأل ماتفي غير مبال للتظاهر بالجهل.

"هذه هي المشكلة إلى أين؟" قال الجندي بهزة يائسة من رأسه "آه أيها الصبي لقد زججت نفسك في ورطة كبيرة. يقولون إن غرائز الرجل تحول قبصر نفسه إلى عبد. لكن ذلك ربما يكون... سأخبرك ماذا. لدي صديق تيري يعيش على بعد أربعين فيرست تقريباً من هنا" قال مشدداً:

"سوف أزودك برسالة إليه فهو يستطيع القراءة. هو يشتري البيض من القرى ويبيعه، اذهب وأقم معه لفترة حتى أحسم الأمور هنا في البيت. أيها المسكين ماتفي أنا أشعر بالأسف من أجلك فعلاً!"

دخلت بيلاجيا إلى الغرفة وأومات برأسها في تحية لهما وتسمرت في مدخل الباب.

"ها هي الشابة التافهة" تمتم الجندي وهو يفرك خده فجأة، ثم فتح فمه مثل البوم الصباح وانفجر ضاحكاً:
"ليأخذكما الشيطان كلاكما!"

هز رأسه الرث ونجشأ برذاذ من البصاق.

"اسمع!" قالت المرأة التي انتبهت فجأة.

أتى من خلال النافذة صوت غامض تزايدت سرعته وحجمه كلما اقترب أكثر.

"من المفترض أنه هو" قال بوشكاريوف ببطء "حسناً يا رفاق توقعوا الورطة!"

شعر بشيء مثل مخلوق غير مرئي يمسكه بأصابع باردة من يديه وقدميه ويمطه ببطء. ظلت بيلاجيا ترسم إشارة الصليب عليه وتتمتم "الرحمة يا مولانا، الرحمة يا مولانا"

اندفع الصبي إلى الفناء في الخارج دون أن يمشط شعره أو يغتسل، وكانت ثيابه مهلهلة في اللحظة التي عبر فيها كوجيمايكين البوابة.

"هل كل شيء على ما يرام؟" كانت هذه تحية والده الفظة، ثم انحنى وقد احمر وجهه من الحرارة وكان شعره رمادياً من الغبار ليقول لولده بتلهف: "ماذا بك؟، لست بصحة جيدة أليس كذلك؟"

فيما بعد في غرفة مانفي تكلم بوشكاريوف لسيدة بالتفصيل... ولوح كثيراً بذراعيه. كان كوجيمايكين جالساً على السرير بلا قبعة ولا زال في معطف السفر وبيلاجيا راكعة في مدخل الباب وقد تدلى كتفها ويدها بارتحاء إلى طرفيها وهي تقول "اضربني.... اضربني...."

طفى تغير غريب على وجه الرجل العجوز الأرجواني؛ ازداد شحوب خديه وانتفخا مثل عجينة، واختلط بياض عينيه مع البؤبؤين، وشكلا لطختين خضراوين رماديتين، وارتعشت لحيته، وظل يسحق حافة قميصه بيديه الحمراءين ثم نجح قائلاً وقد حرك إحدى قدميه إلى الأمام:

"اخرجني من هنا أيتها العاهرة!"

فك ياقة قميصه بعد أن نهض باتجاه الباب وضرب المرأة بقبضته ودحرجها بقدمه وقال:

"تعال معي يا بوشكاريوف"

لحق بوشكاريوف به إلى الخارج بعد أن أغلق الغرفة بإحكام خلفه. أمكن سماع الرجل المعجوز وهو يتنقل بصخب في غرفته الخاصة به، وهو يرمي ثيابه ويقذفها ويفتح النافذة على مصراعها بقوة ويجر كرسيّاً عبر الأرض.

تنفس ماتفي بسهولة أكثر ورأى بشكل أوضح ذهاب والده فانحنى فوق بيلاجيا وداعب شعرها.

"ابتعد عني! لا تلمسني!" همست خائفة وهي تراجع بانكماش إلى الخلف.

انزلق وسقط على الأرض إلى جانبها وتحشبا استعداداً لما سيحدث. كل ما حدث إلى هذه اللحظة كان أقل رعباً مما توقعه ماتفي، لكنه خشي أن هذه النعمة الحالية ستجعل العقوبة المستقبلية أروع بكثير.

امتلاً البيت بصمت حائق شريـر وزحفت ظلال متخمة إلى داخل الغرفة. كان النهار مليئاً بالتغيرات؛ فوق مستنقع لاياخوسكويـا علقـت غيمة رمادية ثقيلة ارتخت خصلاتها الريشية وتسلفت فوق البلدة فلامست الجدران والأشجار بظلالها التي زحفت عبر الفناء وتسلفت إلى النافذة، وانتشرت فوق أرض الغرفة، فبدا البيت يتجرعها بتلهف كأنه يتغذى على الكآبة والبؤس.

بينما كانا ينتظران اللحظات اللامائية سمعا صوت الجندي بوضوح من وراء حاجز الغرف الرقيق وهو يتكلم كما لو كان شاهد عيان لهجوم سافكا على مائتي ومن الواضح أنه تكلف في هذه النعمة العالية لفائدتها:

"هل آذاه كثيراً؟" سأل كوجيمايكين في صوت خلا من أي تعبير.

"لقد اشتكى من بطنه قال إن بطنه تؤلمه"

"بارك الرب قلبه! هو يقول ذلك لكي لا يلمسك والدك" همست

بيلاجيا وهي سعيدة. مكتبة الرمحي أحمد

"لقد ظل مستلقياً لوقت طويل" قال بوشكاريوف "هي سهرت عليه

في النهار والليل. كان الصبي في حال سيء فقد ورث تكوين والده إلى جانب تكوينه، إذ يستطيع أي أحد أن يرى بأنه من لحمك ودمك كما يقول المثل: "إنه ابن السيد وليس من العامة"

"لا نحاول نظرية الأشياء!" نبح كوجيمايكين "ما هي علاقتها معه هل نسيت ذلك؟"

"أوهو!" زار الجندي "هي في العشرين من العمر وهو في الخامسة عشرة هذه هي علاقتها به ولا شيء أكثر!"

"انصرف يا مات، وأرسلها إلى الداخل، وأرسل ابني إلى الحديقة" زبحر كوجيمايكين.

"لهذا علينا أن نجد صيماً جديداً للفناء الآن"

"فيما بعد"

"اسمع هناك تري من معارف يعيش على بعد حوالي أربعين فرستا. إنه الرجل الذي نحتاجه بالضبط"

"فيما بعد قلت لك!"

"أرسلني لأحضره ودعني آخذ ماتفي معي"

"صلي من أجلي يا ماتفي" همست بيلاجيا باكتساب وبدأت تحرك شفيتها بدون ضجيج وقد رفعت عينها للأعلى.
"حسناً جداً" قال والده.

"أنا لن أذهب! ولا من أجل أي شيء!" همس ماتفي.

"أيها الصبي الغالي!"

"سغادر غداً" قال الجندي.

"الأفضل اليوم" قال كوجييايكن.

"لدي بعض الأشياء علي أن أتولى أمرها أولاً" قال بوشكاريوف.

"بوشكاريوف"

"إيه؟"

"الأمور تبدو سيئة"

"ما الذي يبدو سيئاً جداً؟"

"سوف يكون هناك حديث في هذه البلدة"

"إذاً هو خائف مما يقوله الناس" قال ماتفي الذي لم يستطع أن يقاوم

التعليق.

"لا يمكنك لومه على ذلك" تنهدت المرأة.

"أوهو" صاح بوشكاريوف "وكأنا لا نعرف تلك الإشاعات! ما

يجب عليك فعله هو أن تلجم لسان طباحتك تلك!"

"لماذا لم تضرب سافكا حتى الموت وتأخذ جسده إلى المستنقع ليلاً؟"

"كان ذلك سيكون شيئاً رائعاً! حسناً. لقد توقفت عن ذلك. تذكر

القول: الكلمة الطيبة أقوى من القبضة".

"انصرف" صاح العجوز.

فتح باب غرفة ماتفي وأقحم بوشكاريوف رأسه إلى الداخل.

"اذهبي إلى زوجك" قال في صوت خفيض ويهو يغمز بيلاجيا، ثم

همس "لفي نفسك أينها الحمقاء. احثي شيئاً طرياً داخل ثيابك"

ضحكت بيلاجيا ضحكة قصيرة، ضمت ماتفي وقبلته وخرجت دون

أن تتكلم.

"هيا تعال" قال.

"هل سيضر بها؟" سأل الصبي بحزن.

"قليلاً" قال الجندي وأضاف بطريقة معزية "ذلك صحيح، هي لا

تزال شابة. النساء مجوفات من الداخل. صنعن ليتلقين الضربات. الأعضاء

الداخلية للرجل متماسكة بإحكام لكن توجد فراغات بين أعضاء النساء

الداخلية"

ماتفي الذي شعر باليأس والعجز، خرج إلى البستان حيث رمى نفسه

تحت شجرة تفاح واستلقى محرقاً في السماء. كان هناك صوت رعد بعيد

ونف غيمة عابرة ونسيم حار ورطب هز أوراق الشجر (بو-وو-م)

وصوت مكتوم منقوع بالماء كدوي الرعد.

دارت في ذهنه أفكار رمادية صغيرة مثل بعوض في شعاع ضوء لشمس،

ظلت غيوم ممزقة تتحرك بهدوء إلى الجنوب، آخذة شكل أكياس نين مغلقة

بدخان أزرق أو كومة فضية من القنب أو شجرة مقلوعة من جذورها أو

قطيع من كلاب الصيد: في لحظة كانت مثل رأس ضخمة ملتصق بلا عيون

وبفم مفتوح وأذنين مدببتين. وفي لحظة أخرى، معطف فراء مهلهل بأحكام

طويلة، تدلى أحدها إلى الأسفل نحو الأرض بينما طفا الآخر في الريح وانهمر الدخان إلى الخارج من داخله.

أدرك ماتفي أن بيلاجيا كانت أقرب إليه من أبيه وأعلى، وكانت كل أفكاره تدور وتدور مثل فراشات حول اللهب. حاول متعمداً تذكر ابتسامة والده وحكاياته الرائعة عن الماضي وكل الأشياء الجيدة التي قالها عنه بوشكاريوف، لكن لا شيء استطاع أن يخفف أو يطفى نظرة الأمومة التي في عيني بيلاجيا العزيزتين.

انكمش قلبه وشعر بحرارة وجفاف في حلقه بسبب قلقه عليها. تخيل أشواكاً حادة تنبثق من الأرض تنغرز فيه وتخرق ظهره وتمزق لحمه.

وفجأة رأى بيلاجيا. كانت تترنح نحو الحمام وشكلها مهلهل وشعرها طليق. كانت تسحب أصابع إحدى يديها من خصلات شعرها المتدلّية وتلف الشعر الممزق حول أصابع اليد الأخرى. تشوه وجهها الذي كان شاحباً جداً لدرجة كاد أن يكون مزرقاً بتكشيرة مرعبة، وكانت تحدق في الفراغ كأنها عمياء وتسعل بصوت منخفض، وظلت تدور يدها في الهواء وهي تلف شعرها حول أصابعها.

موجة من الغضب جعلت ماتفي يقف على قدميه.

"هل الحق بك أذى؟"

"لا يهم" قالت ببساطة واكتئاب "أنت ستكون التالي"

ترنحت وغمست بكتفه وهي تشج في أذنه.

"خذ بوشكاريوف معك، لا تذهب لوحده! لقد ركلني..... في

بطني... أخشى أنني حامل بطفل"

ركض بشكل أعمى كما لو كان مذهولاً إلى غرفة والده ورمى نفسه على شكله العائم المنبطح على المنضدة بجانب الطاولة.

"اضربني أنا أيضاً! اضربني أنا!" صاح قائلاً وهو يلوح بقبضته في الهواء، لكنه جمد بلا حراك فجأة وكأن شخصاً ضربه على رأسه. والده الذي كان ظهره إلى الطاولة، مد لساناً أرجوانياً سميناً خارج فمه وكان يتمسك بالخشب بأظافر يده اليسرى وقدمه اليسرى على الأرض كأنه يبحث عن مساعدة، يده اليمنى تدلت بثقل وقد التوت أصابعها بطريقة تضرعية، عينه اليمنى كانت مغبشة وتبدو ميتة وممتلئة بالدم والدمع، أما عينه اليسرى فكانت تتلألأ بضوء أخضر. التوت زاويتا فمه بصورة متشنجة ولهث بوقاحة:

"أنت عاهرة..... عاهرة"

فرّ مانفي من الغرفة كالصاعقة واصطدم بفلاسييفنا.

"انتبه!" سمعها تهتف ثم صرخت "يا رحيم! لقد قتلته! والده"

من تلك اللحظة امتلأ البيت بهياج صاحب عقيم وبؤس مؤلم استمر ودام وقوض قوة الصبي.

اندفع بوشكاريوف إلى الداخل مثل مخلوق ممسوس وأمسك بحلق فلاسييفنا وهزها.

"قتله؟ سوف أعلمك قول أشياء كهذه!" صاح قائلاً.

"الدم-الذي على الأرض-"

"إنه دم بيلاجيا وليس دمه! أمثالك يجب أن يرموا في البركة، تلك هي

الحقيقة!"

"لا تقلق بشأنها" قالت بيلاجيا من مدخل الباب وهي تمسك بعضادة الباب للدعم "استدع القس-الطبيب"

الآن، كوجيمايكين محدد على السرير، يرمش بعينه اليسرى المفتوحة والرعب يومض منها بشكل تشنجي بينما أصابع يده اليسرى تتمسك بشيء غير مرئي وغير مفهوم.

تدافعت النسوة فوق درج الشرفة وفي البيت. تزلحق ماتفي فوق الأرض الرطبة بالقوارير والمناشف في يده. بعد ذلك بقليل حاول أن يساعد بيلاجيا في خلع ملابس والده، لكنه صدم جداً بمنظر الطرف الأيمن المشلول للرجل الذي كان مزرقاً بلا حياة، والمترهل، ثم هرب بعيداً.

أضاء السماء المظلمة ضوء باهت كأنه يحاول أن يخترق سداً سميكاً من الغيوم. تساقطت نقاط من المطر الصيفي على الأشجار والسقوف والأرض. بدت السماء تواقه للقيام بمهمة رش هذه البقعة لكي تحمل رطوبتها المنعشة إلى مناطق واعدة أكثر. دوى الرعد وعلا صوت حفيف الأشجار، اندلقت شرائط براققة من الماء من السقف واندفعت عبر الفناء إلى البوابة في جدول موحل. حمل الجدول المائي المندفع وشيعة اصطدمت بالبوابة وظلت تدقها كأنها تتوسلها لندعها تخرج إلى الشارع.

خرجت بيلاجيا ووضعت ذقنها على كتف ماتفي كما تفعل الخيول وهمست في أذنه:

"أخشى أنني سأضطر إلى الذهاب والإقامة في أحد الأديرة كما فعلت أمك يا قلبي العزيز"

قرع شخص ما البوابة. سمع ماتفي القرع ونجاهله. خرج ميخايلو النشيط من الحظيرة وقفز مثل النيس حول برك الماء الموحلة إلى البوابة وفتحها للقس ضئيل الحجم وللشاس صاحب الذقن الجوزي.

"شيء جميل! ترسلون بطلب وكلاء الرب ولا تفتحون البوابات لهم أيها البرابرة!" تذر القس بصوت عال وهو يخطو إلى الداخل ويحمل رداءه الكهنوتي للأعلى كما تفعل امرأة بتنورها.

حين اختفى داخل البيت، فك ميخايلو الذي جاء بزار حزامه ورفع قميصه ليدع المطر ينهمر إلى أسفل ظهره.

"أوه، آه!" صاح بسعادة.

كانت هناك متعة محضة في الصوت، لذلك تاق ماتفي أن يركض إلى الخارج في المطر بنفسه، لكن ميخايلو الذي لمح استدار ومشى باتزان إلى داخل الحظيرة.

أبي محتضر، ذكر الولد نفسه. حاول بكل طاقته، لكنه لم يكتشف في قلبه أي شعور أقوى من رغبته بأن يكون مع بيلاجيا.

ركد المطر وتوقف الغيم فوق البلدة وارتعد حين سقط عليه وميض أزرق لضوء بعيد، نفث آخر نقاط الماء القليلة على الأرض الطينية. نعب غراب فرحاً بالمطر.

مرة أخرى دق شخص آخر البوابة بعنف وسمعت فرقعة المزلاج، ما سبب جدالاً في الحظيرة.

"اذهب وافتحها"

"أنا فتحت للقس."

"أنا أردت أن افتح للقس"

"اذهب أنت يا فانيا"

"اذهب أنت يا ياكيم"

خرج ياكيم الطويل الهزيل من الحظيرة، حديق برك الماء والوحل، دار حول أول اثنتين منها وخطا في قلب الثالثة مقررأ أن الأنسب تجاهلها، واتجه نحو البوابة مباشرة بسرعة متروية.

خطا رجل ضخيم في معطف كهنوتي مضحك وبنطال مخطط وقبعة مع عقدة وشريط إلى الداخل.

"هل هذا هو المكان الذي فيه الرجل المريض؟"

حك جيم رأسه وهو يفكر بالسؤال:

"تقصد السيد، أليس كذلك؟ ومن سيكون غيره؟ هناك في البيت"

"مفغل" لاحظ الرجل قائلاً بلامبالاة.

سمع مانفي حسرة حزينة، وشعر كأن الغيوم الرمادية الثقيلة كانت تمتصه إلى داخل أعماقها.

"تعال، تعال" قال بوشكاريوف من الخلف وهو يربت بكفه على كتفه.

"ليس الأمر سيئاً جداً. شلل. لقد أصيب به النقيب زيميل لو كوف هكذا

كان اسمه - أثناء عرض عسكري. طرحه على الأرض"

"وهل مات؟"

"آوه، نعم"

"وهل سيموت والذي أبضاً؟"

"سؤال مشير للضحك" ضحك الجندي وهو ينظر بعيداً "طبعاً

سيفعل - وكذلك أنت وأنا. هذا ما نعيش من أجله، بمجرد أن تنتهي

وظيفتنا، نرحل"

تأمل ماتفي وفكر لحظة.

"لقد ضرب بيلاجيا" قال لنفسه باستياء.

"نعم لقد ضربها وكان محقاً" قال الجندي موافقاً "" لم يستطع تجنب ذلك. المعجوز الأحق غيور على نسائه. ذلك أغضبه، ذلك التيس المعجوز ذو الشعر الأحمر"

كسر الجندي ويصق وفرش البصاق تحت قدميه.

"لكن لا تدع ذلك يقلقك، إنها قوية. خنزيرة، بيلاجيا" أضاف بلطف.

استرق ماتفي نظرة من وراء كتفه.

"هل أنت آسف بما حل بوالدي؟" سأل هامساً.

"أنا اعتدت عليه" قال بوشكاريوف متنهداً " هو وأنا انسجمنا معاً.

نحن نحترم بعضنا البعض، الصداقة يا ولدي لا تكبر في الوادي مثل الفطر. إنها تنمو في القلب"

مشى مبتعداً رافعاً ساقيه مثل لقلق وأنزلهما في الوحل في رشرشة ضاحجة.

يقول أشياء كريهة عن والدي... ويصق.... لكنه آسف من أجله.

"لن أستطيع التحمل لفترة أطول" قال بابتسامة اعتذارية.

"أخذها إلى غرفته، وحين كانت مستلقية على سريريه، حول عينيه عنها"

وابتعد نافرأ من الرائحة المألوفة، الرائحة الدافئة والمالحة- الرائحة التي خرجت من سافكا بعد أن ضربه الرجال.

"ينبغي ألا أستلقي على سريرك" تمتت "لقد ركلني لهذا سحق

أحشائي كما يفترض"

حديق ماتفي ونحقق بوضوح رهيب. إنها تختضر. شحوب وجهها غير الطبيعي أخبره هذا وكذلك عيناها الغائرتان وشفتاها المزرقتان وكأنها طلبتا بذلك اللون.

بدون أي كلام، دفن وجهه في صدرها. أنت بيلاجيا ومررت لسانها الجاف فوق شفثيها.

"لا تفعل" همست بصعوبة. "لا أستطيع التنفس"

بعد ذلك بقليل كان واقفاً بجانب بوشكاريوف بجانب سرير والده. لمعت عينا الرجل المريض الخضر اوان حين جرّ يد ابنه وحاول أن يقول شيئاً.

"بو..... بوش-"

"أنا؟" قال "تقصدي أنا؟".

"ما-"

"ماتفي؟ علي أن اعطني به؟ أعرف دون أن تخبرني بذلك. لا تقلق بشأن ذلك يا سيفلي".

لكن الرجل العجوز لوح بيده.

"بيل..... بيل..... دي....."

"أفهم" قال بوشكاريوف. "أعرف. الدير"

أبعد العجوز يده وأمسك بقلبه وأصدر أنيناً وهو يدور لسانه السميك ويضرب صدره، وأمسك يد ماتفي ثانية بأصابع باردة ودبقة.

بدا الجانب الأيسر من جسده يحاول بقوة فصل نفسه عن الجانب الأيمن الذي استلقى محققاً بصفاء بعينه الميتة بشيء وراء السقف. كان ماتفي

مرعوباً، لكنه لم يشعر بالأسف على والده، قبل أن تطفو عيناه على وجه المرأة الشاحب وسريع الزوال. ذكره تنفس العجوز بأزيز الفطر المقلي على النار. كان الطبيب والقس واقفين بجانب النافذة.

"سمكي المفضل هو الحفش" قال القس "حتى أنني أحلم به ليلاً" كان الشماس الضخم واقفاً أمام ساعة الجدار يحك بقع الذباب عن واجهتها بأظافره. طنين الذباب الأزرق الكبير ملأ الغرفة. كل شيء كان مغلفاً بالكآبة، وكل شيء وصل إلى توقف تام كأنه انصياح لقوة ما غير مرئية.

بهذه الطريقة مرت أربعة أيام مظلمة وممطرة، في اليوم الثالث، أصيب الرجل المريض بسكتة قلبية أخرى، وفي صباح اليوم الخامس مات سيفلي كوجيمباكين الضخم ذو الرأس الأحمر. لم يشهد أحد موته. دخلت الراهبة التي كانت تسهر إلى جانب سريره إلى المطبخ لتشرب كوباً من الشاي، وحين دخل بوشكاريوف ليأخذ مكانها وجد الرجل العجوز ورأسه تحت الوسادة. "قلت له، "من تختبئ؟" - وحول ذلك إلى دعاية. قلت "اخرج" وحملت الوسادة. وها هو هناك، لقد انتهى، كل شيء في مكانه ماعدا روحه"

سيطر على مانفي خوف لا يوصف من الموت ورأفة مفاجئة على والده ورعب مما سوف يحدث لبيلاجيا. هي لم تنهض من سريرها. استلقت تنقلب على السرير، تهذي من الحمى، بطنها متنفخة كالطبل. رأى مانفي مرة أو اثنتين خرقاً ملوثة بدم أسود تخين ملقاة في زاوية الغرفة، ولم يستطع أن يتخلص من رائحتها المنخمة. في مناسبات نادرة حين كان يصفو ذهنها كانت تنظر إليه نظرة فيها شعور بالذنب والإثم وتهمس:

"أنا مريضة جداً! وهنا غرفتك! أين تنام؟ هل أنت مرتاح؟"

أقاموا تشييعاً جميلاً لوالده، شاركت فيه جوقة الكنيسة وكل قساوسة البلدة وأحد المنشدين ورجل الإطفاء كلوتشريف، رجل له رأس ولحية مدبية سوداء مزرق، غنى بصوت أعلى من الجميع وظل ينظر إلى ماتفي باستغراب طول الطريق إلى المقبرة، وهذا ما اعتبره الشاب غير مقبول ومثير للكآبة.

لدهشته وصل إلى مسمعه ما قاله عدد قليل من الناس من ملاحظات طيبة عن والده.

"لا حاجة للقول بأن المتوفى كان مغروراً وجلفاً" قال العجوز خريابوف الذي كان يمشي خلف ماتفي في موكب التشييع "لكنه قلب طيب. كان يرسل كعكاً ساخناً للسجناء كل يوم سبت"

"إلى السجناء، صحيح أن الطيور على أشكالها -"

"وفي أسبوع الفصح الشرقي، بيض وجبن وفي أسبوع الميلاد لحم"

بعد تعداد كل الأعمال الخيرية للمتوفى، أضاف خريابوف بنغمة الآثم:

"صحيح أنه لا يكن أي احترام لجيرانه لكن حين تفكر في الأمر، لماذا عليه أن يفعل ذلك؟ لو أخذت في اعتبارك الطريقة التي نعيش فيها - هم، لا أستطيع القول إنها تستحق الكثير من الاحترام"

"من يستطيع القول كم عدد الشياطين التي ستهاجم بقاياتنا في ساعة موتنا؟" قال أحدهم بغضب.

بجانب ماتفي مشى بوشكاريوف ذو السيقان الطويلة الذي بدا مثل بيت الطائر على عمود في زيه الأخضر المنبعث من القبور مع زركشة ذهبية

على الياقة والأكمام، أضرار نحاسية تحت الصدر وبقعة سوداء كبيرة على أحد الذراعين. كان يستدير بين الحين والآخر، يرفع ذراعه ويصدر الأوامر: "سكوت"

فينصاع الجميع.

حين بدأوا بإنزال الجثمان في تربة أو كوروف الرملية فتح رجل الإطفاء ذو اللحية السوداء فمه الأحمر الضخم ليزعق بشكل مفاجئ كطلقة "س-ل-ا-م-ا-ب-د-ي". سقط ماتفي على الأرض وهو يتحب ملقياً رأسه على قبر مجهول انتصبت فوقه أعشاب جافة. لفه بوشكاريوف بذراعيه القويتين وضغط خديه على الأضرار النحاسية، وبينما كان يخنق همس بكلمات متقطعة في أذنه.

"هيا، حاول، امثل للطقوس يا ماتفي! أنا هنا، يا ولدي، هنا بجانبك"

ظل الجندي يتحدث بهمس طول الطريق إلى البيت حتى وصلوا إلى الفناء، كما لو كان يحرق بشجاعة بتراب أو كوروف المتناسك.

كان قائد نفسه، نعم! لو عاش في مكان آخر لقام بأشياء كبيرة. يا للطريقة الرائعة التي كان يعمل بها ذلك الشيطان أحمر الشعر! حين اشترى هذا البيت مثلاً، كان هو الساقف والتجار والدهان والمعمار في الوقت نفسه. لم يكن هناك شيء لا يستطيع فعله. البستان الذي زرعه! كل شجرة فيه جمل بعد ذاتها - ليس هناك دود أو حشرات، لحاء نظيف. جاءت الراهبات ليتعلمن البستنة منه. شيء عظيم أيها الصبي، حين يمكنك تعليم القوم مهارات مفيدة. قال في مرات كثيرة: ليست الأشجار والزهور فقط التي يجب أن تكون زينة للأرض بل الناس أيضاً. لقد وجد الوقت الكافي لكل

شيء، لشحذ سكينته وتقبيل زوجته. كنت أقول له على سبيل المزاح: "هل ترى تلك الشجرة هناك يا سيفلي؟ اذهب واقطعها عند غروب الشمس" آه نعم لقد عشنا بالشكل الصحيح يا غلام ويجب عليك أن تعيش بالطريقة نفسها. لا نخش من الاختلاف مع إنسان آخر، لكن نعلم أن نقرأ قلبه"

عند الوصول إلى البيت، اكتشف ماتفي خجلاً بأنه جائع. رأى أن وليمة الجنائز لن تبدأ إلا بعد بعض الوقت. لقد كان الشغيلة في المقبرة لتنصب صليب على القبر ولم يتجمع سوى عدد قليل من المتسولين حتى الآن. لذلك سرق قطعة من الخبز من الطاولة وخرج إلى البستان حيث اختبأ خلف الحمام ليأكلها. كان يشعر بالذنب حين عاد.

لم يكن من قبل مركز اهتمام قط كما هو الآن. لقد أعدت تسع طاولات في الفناء. في المطبخ كانت فلاسيفنا وناتاليا تضعان فطائر الحلوى، وانهمرت رائحة السمن المقلي في تيار قوي من النافذة جعلت المتسولين المحتشدين حولها يستنشقون بتلهف بهم.

إن اللحى الملبدة الرمادية الشائبة والوجوه الصفرة المنفخة والأيدي الجشعة التي بدت كأن لها عيوناً في أصابعها، ذكرت ماتفي برؤى غريبة للحاج الورع حين عبر حقول العذاب الإنساني. بدا الأمر وكأن نفايات الشوارع قد كنست وجمعت في داخل الفناء. تلالآت قطع صغيرة من القوارير المكسرة وسط الحشد الفاسد المنحل. انكمش شخصان أو ثلاثة فقط في الزوايا يحدقون باندهاش كما لو كانوا يتأملون ويفكرون بحل مشكلة عصبية ذات أهمية بالغة الخطورة. مخلوق له كرش مدور ووجه حليق وعيون جاحظة مدورة مثل نقود معدنية موشاة بعروق حمراء صغيرة، جاء يعرج إلى ماتفي ملوحاً بيد سميكة وقصيرة في الهواء وبدأ في الصراخ:

"عبث، كل آمالنا وما نتوق إليه"

"قريباً سيأتي المنظف القاسي"

"فوق الحقول ساخراً"

"لبضعنا في التوايت المظلمة"

"إنه مشعوذ أيها الصبي" همس أحدهم في أذن ماتفي "هو ليس رجلاً متديناً. لقد كان قساً، ثم نفي بسبب الاختلاس. أنظر إليه، القملة القبيحة! لكن يجب أن نمتلك رجلاً متديناً حقيقياً بيننا"

"أيها السيد الطيب" انتحب القس بصوت عالٍ "استمع إلى تراتيل طاهرة ومحكمة كتبها عمي، شاعر شعبي مشهور -"

لكنه أبعد جانباً لإفساح الطريق لرجل طويل صمم من عظام حادة بشكل سخيف ليدو وكأنه حيك في كيس من جلد بني بال. رأسه صغير وجبهته المائلة تدلت فوق عينيه. وقف محدقاً بالشاب دون أن ترف عيناه كما لو كان أعمى.

"غنّ يا اليوشا! غنّ لنا أغنية!" صاحوا له. وقف ينبش الأرض بقدم واحدة ويتمتم بشكل غير منسق:

"شين-شان الشحاذ.

"ركض حتى انقطع نفسه".

"وجد قطعة نقدية في علبة معدنية"

"فاشترى لنفسه موتاً سريعاً"

"فكر بهذه الكلمات" همس أحدهم في أذن ماتفي "كل شيء يقول له معنى عميق، كل شيء له هدف. لقد أدى القربان العظيم وكان ابن تاجر سابقاً"

شعر ماتفي بالاختناق من رائحة الحشد الرديئة، لكن فجأة مرت حركة فيه وظهرت فتحات في الجدار الأصم من الكائنات البشرية.

"إلى الطاولات أيها الرعاع! أسرعوا!" صاح الجندي قائلاً.

أراد ماتفي أن يقول إن المتسولين أخافوه وأثاروا اشمئزازه ولن يجلس إلى الطاولة معهم، وبدلاً من ذلك استدار نحو بوشكاريوف وقال:

"لماذا تدفعهم بعيداً بتلك الطريقة؟"

"أنا لن أؤذيهم"

"إنهم يصلون من أجل أرواحنا"

"في الحانات على الأغلب"

"ألا يوجد شيء نخافه؟" سأله ماتفي.

"أنا؟"

فرك الجندي ذقنه الحليقة وهو يفكر.

"لا أعرف. لم أصرف الكثير من التفكير بهذه المسألة" قال.

أخيراً أخبره ماتفي عن رأيه بضيوفهم.

"لكن يجب عليك ألا تذهب وتركهم" قال بوشكاريوف وهو يجمد جبينه "لا يجوز أن تذهب، ذلك مخالف للعادة ولن ينفع أبداً"

انكمش ماتفي. لقد خجل من موقفه وتأسف لأنه أخبر بوشكاريوف بذلك.

دخل ليرى بيلاجيا. لم تعد تهذي لكنها فقدت القدرة على استخدام ساقها.

"أنا لم أعد جميلة بعد اليوم، أليس كذلك؟" قالت بإصرار.

"أنت أجمل من قبل حتى" قال.

لقد أصبحت نحيلة بشكل كارثي في أربع وعشرين ساعة. انخفض أنفها وغار خداه وبرزت عظام وجنتيها بحدة وتورمت شفثاها وأزرقنا وبدنا ملتصقتين بأسنانها.

"أيها الصبي الغالي" تمتت "سوف تترك وحيداً بلا أي روح على الأرض. تثبت بيشكاريوف، إنه روح طيبة حتى لو جاء من المستوطنة، أنا لا أعرف أفضل منه. لو أمكنني التكلم معه عنك لدقيقة واحدة صغيرة....."

شعر بالسرور واعتذر قائلاً بأنه سيذهب ويحضر الجندي.

وعلى الفور خرج وذهب إلى داخل الحمام حيث تسلق إلى أعلى أحد الرفوف وجلس جاثماً في زاوية تفوح منها رائحة الخشب الرطب وأوراق البتولا السمفوعة بالحرارة. لم يمض سوى أسبوع لم يسخن فيه الحمام مع ذلك نسجت العناكب شبكة رمادية فوق النافذة وعلق شباكها في كل زاوية. حين كان ماتفي ينظر إلى ثمار جهودها خطر له أن قلبه علق في شبكة، شبكة من الأفكار التي لا يمكن التعبير عنها.

سمع فلاسيقنا وناتاليا تناديانه وسمع تمتمة عميقة لأصوات كثيرة في الفناء، ذكرته الضجة المبهمة لسبب ما بنقاط الدهن الذي يطفو في أنبوب الفضلات. شعر بمحرض يدفعه للخروج إلى الحقول والاستلقاء على ظهره فوق العشب ليحرق بالغيوم الرمادية، نذر الخريف القادمة من جهة مستنقع ليخوفسكي.

حين أخبره صمت الفناء والظلال العميقة داخل الحمام أن المساء قد حل، نزل من الرف وخرج إلى البستان ووصل إلى بوشكاريوف الذي كان

جالساً على منضدة تحت شجرة التفاح. كان رأسه متدلياً للأسفل وساقاه ممددتان أمامه ممسكاً برصفتي ركبتيه يديه الاثنتين ويعاني من الفواق.

"هم، إذا هربت من المتسولين" قال وهو مغمض عينيه نصف إغماضة "هم تحتك، أليس كذلك؟ بالنسبة إلى بيلاجيا- لا يمكنك خداعي! إنها تختصر. لقد قتلها الشيطان- والدك الميت. لديه حاسة شم للأشياء مثل كلب. إنه رجل نادر! أتمنى أن ترقد روحه بسلام. كانت المرأة الشيء الرئيسي بالنسبة إليه. هذا الديك المعجوز جلب لنفسه دجاجة أيضاً. لو لم يأمرني سيفلي أن أريها له! وفعلت، لقد خطفها الأحق المسكين قبل أن أعرف ما حدث.

لمس ماتفي ذراعه.

"دعنا ندفنها بشكل لائق، بدون أي شخص" قال.

"بيلاجيا؟" قال وهو مغمض عينيه مرة أخرى "سوف ندفنها بأنسب طريقة، بجانبه"

"آوه، كلا ليس بجانبه!"

"بجانبه!" صاح الجندي "دعها تلحق به في القبر ونقف إلى جانبه أمام الرب. الرب سوف يعطيها له، الشيطان ذو الشعر الأحمر".

"لا نحت" قال ماتفي.

حدق الجندي به لحظة ثم قال وهو يهز رأسه.

"الكل يتبعحون في الخطابة كما لو كانوا أذكىاء، لكنهم أغبياء. فلتذهب إلى الجحيم!"

ازداد ثملته أكثر فأكثر وتأرجح بعنف، وكان يفترض به أن يغوص بالتأكيد ويسقط على الأرض ورأسه في المقدمة وتقصم رقبته الهزيلة، لكنه

سحب ساقه دون أي جهد فجأة وتفحصها ثم ضحك ووضعها على المنضدة واستلقى ممتداً.

"القرار لن يتبدل" قال، إذاً هذا هو الرجل الذي سوف أعيش معه، فكر ماتفي وهو ينظر من وراء ظهره.

في وقت متأخر من ذلك المساء دخلت بيلاجيا في غيبوبة وماتت بعد خمسة أيام من دفن سيفلي كوجيمايكين.

حث ماتفي الجندي المعجوز كي يدفنها بهدوء ودون وليمة. لم يوافق بوشكاريوف إلا بعد بعض الوقت، لكنه استسلم أخيراً، مريحاً ضميره بإرسال ثلاثة بودات من اللحم ومثلها من الكعك وثلاثمائة بيضة إلى المساجين الذين في السجن. دفنت في أبعد مكان ممكن عن قبر كوجيمايكين بناءً على رغبة ماتفي، في مكان معزول من المقبرة بجانب السياج وسط خضرة خصبة من صريمة الجدي والهندباء البرية والأرقطيون. في اليوم التاسع أزال ماتفي بنفسه الأعشاب الضارة من البقعة وزرع خمس شجيرات من البتولا في الأرض التي نظفها. اثنتان عند رأس القبر وواحدة على كل جانب وواحدة عند قدم القبر.

"حسناً أيها الصبي، أنت الآن سيد نفسك!" قال الجندي لماتفي بقسوة ودية "انتبه! بالمناسبة، هذا هو حال الفناء الجديد. هيه يا شاكرا!"

قدم شاب تترى برشاقة من خلف البيت، خلع قبعة مطرزة بفراء ثعلب، صر على أسنانه ثم انحنى.

"انظر إليه، هذا الشيطان!" صاح الجندي وهو يضربه بكفه على كتفه ويدوره ليتفحصه السيد كما لو كان حصاناً جديداً "صلب كالحديد. هو هو!"

حمال الفناء ذو القلب الطيب الذي كان يضحك، لوى رأسه كي لا تتحول عيناه الرماديتان المائلتان عن ماتفي. كان يرتدي قميصاً أزرق من الكتان يصل إلى أسفل ركبتيه ومشرراً أبيض وكساء للساقين وصندلاً جديداً مصنوعاً من الحبال، وعلى رأسه الحليق قلنسوة أرجوانية بلون الخزامى. قدم انطباعاً عن تكوين جديد ولطيف ومتين. كانت هناك نظرة جادة في عينيه وعظام وجنتيه بارزة واستطال وجهه بلحية سوداء مجمدة غطت خديه من الأذن إلى الذقن وافترقت عن فم لتكشف عن شفتين منحوتتين جيداً تحت شاربين مقصوصين.

"الجندي، رجل طيب" قال غامزاً باتجاه بوشكاريوف.

"يدك أيها السيد! نحن نحب بعضنا بعض، أنت نجني وأنا أحبك"

وفجأة امسك ببوشكاريوف وحمله عالياً في الهواء.

"أي-دا! أي-دا!" صاح ثم ذهب. "أرني اللوح وأرني المكنسة، أرني

درج العدة"

ضحك ماتفي بحسرة، ثم ذهب إلى البلدة.

في حياة والده حلم كثيراً بالبلدة وامتنع من عدم السماح له بالخروج لوحده أبداً، ونجّل حياة البلدة مليئة بالمغريات الغربية والمرح، رغم محاولة والده الحثيثة في زرع عدم الثقة في كل الناس، لم يتجذر ذلك الشعور في قلب الشاب أو يقلل من اهتمامه في حياة البلدة. بعد أن بات حراً الآن ويفعل ما يرضيه، كان يمضي وقتاً طويلاً وهو يتمشى في الشوارع ذهاباً وإياباً، يلقي نظرات ثابتة وودية على كل شيء وضعت الحياة في أوكوروف في دربه.

لقد تفاجأ بأن سكان أو كوروف لم يكونوا في عجلة من أمرهم، فقد كانوا يسبرون الهوينا في الشوارع ويتوقفون عند لقائهم بمعارفهم ليتحدثوا بود.

اليوم حين خرج من بوابة البيت، رأى ماتفي امرأتين في الشارع الفارغ على بعد عشرة بيوت. كانت الأولى تحمل نيراً على كتفها مع دلاء من الماء تتدلى من طرفه، والثانية تحمل صرة تحت ذراعها. حين وصل إليهما سمع حديثهما المسهب. مدت صاحبة الدلاء رأسها إلى الأمام حين نقلت النير من كتف إلى آخر.

"ها نحن في يوم الخميس مرة أخرى" قالت وهي تتحسر.

"آه، نعم، كيف يطير الزمن!"

"بعد غد يكون يوم الخبز والتحميص"

"ما نوع الحشوة التي ستعدينها"

"انه موسم الملفوف أو حتى الجزر لكن رجلي لا يحب حشوة الجزر"

نظرتا إلى ماتفي بشزر.

"يمكنك أن تمرري على آل خريابوف" قالت صاحبة الصرة "لقد

ذبحوا عجلاً وربها يبيعونك الكبد. أنا أحب حشوة الكبد كثيراً"

دون أن تحول نظرها عن ماتفي، ردت المرأة صاحبة الدلاء ببطء كما لو

كان ذهنها على شيء آخر.

"إنهم يبيعون أولادهم، آل خريابوف. عجلهم كان مريضاً ولهذا

السبب ذبحوه كما يفترض"

قربتا رأسيهما من بعضهما وبدأتا بالهمس، ظلال متنافرة سقطت فوق

قمة السياج. ديك سمين جثم على السقف ينظر إليهما بعين واهنة،

دجاجات ينقرن بكد في تراب الطريق، بعض الحمام من ذوات الريش الناعم الأملس يمشن الهوينا في الفناء، يحدقن بمكر في البوابة من حين إلى آخر ليعرفن إن لم تكن هناك هرة ترصدهن في ظلها. حين شعر ماتفي بأن المرأتين كانتا يتحدثان عنه، أسرع الخطى، وعندما وصل إلى نهاية الشارع استدار ورأهما لا تزالان واقفتين تراقبانه وهزان رأسيهما.

مرت عربة تحمل القش بجانبه ببطء تصدر عنها رائحة التراب وكان الحصان المنهك يرفع ساقاً بعد الأخرى؛ رأسه تدلى إلى الأسفل وعيناه تسمرتا بالطريق الذي تراكت عليه العظام وقشور البيض والبصل وقطع صغيرة من الخرق القذرة.

الفراخ بين آثار الدوايب كان ينضح بالقمامة ومغطى بالنفايات. هذا مكب نفايات أو كوروف. لكن الأوراق المهملة لا ترى هنا إلا نادراً، كلما حملت الريح قطعة مجمدة من الورق الأبيض إلى الشارع تطير عصافير الدوري وأبو زريق والدجاج مرعوبة. لم تكن معتادة على هذا الشيء الأبيض الغريب. هرول كلب كتيب على الطريق ثم خرج كلب آخر من مدخل إحدى البوابات، شها بعضهما ثم أكمل الأول طريقه وجثم الثاني بجانب البوابة، مصوباً أنفه إلى السماء وعوى بلين.

في قمة برج مراقبة الحرائق الرمادي، كان هناك رجل في سترة وردية بلا حزام يتمشى حول المكان وهو يتشاءب وينخر. فوق البرج كان هناك صقر يدور في الجو وصوت قرقرته الجاثمة وقع على الأرض مثل حصيات مبعثرة. اندفع السنونو الأوروبي كالسهم هنا وهناك، نيكوديم راعي البقر الأحق كان ينفخ نايه في الحقول، جرس الدير كان يدعو الناس إلى صلاة المساء، ومن خارج بوابات الحديقة جاءت سيدات عجائز كئيبات يعرجن في الممر بجانب الأسيجة.

كما لو أن هذه الحياة الساكنة، رسمت على الأرض بألوان سريعة الزوال باهتة تنقصها الحيوية وبدأت مترددة للتحرك بسرعة وحزم. بدأ الناس عاجزين عن الضحك وجاهلين بالكلمات المبهجة. يبدو أنهم لم يجدوا متعة في استنشاق هواء الخريف الصافي والنظر إلى السماء الزرقاء والمشي على الأرض التي طرزت بخيط حريري من الأعشاب.

في شارع ستريلبتسكايا تسكن أفضل العائلات. آل شوخوباييف وآل تولوكونيكوف والأخوة خريبابوف وآل ماكلاكوف، كلهم مقاتلون مشهورون ومعربدون. ويسكن بازونوف ذو الشعر المجعد هناك أيضاً. هؤلاء الناس يرمون كوجياماكيين الصغير بنظرات غير ودية، ونادراً ما يردون تحيته، ويتبخثون في الشوارع الضيقة بتأرجح أكثر من كل الساكنين الآخرين ويتكلمون بأصوات عالية متفطرسة، وفي أيام الأحاد والمطل يجلسون أمام حدائقهم على المناضد خارج بواباتهم ويصرخون عبر الطريق:

"لدي من الأوراق الرابعة، ورقات الأربعة والستة والثمانية فقط"

"لا تقل ذلك! هل كان الورق معلماً بإشارات؟"

"لديه حفنة رابعة، اللعنة عليه! الأس والملك والصبي"

"إنها مؤشرة بالتأكيد"

"هكذا كانت النتيجة أنا نلت تسعاً وعشرين ونصف ونال هو واحد

وثلاثين"

في مكان آخر ينادي صوت آخر:

"لماذا جلدت ميشا يا فاسيلي بيتروفيتش؟"

"العفريت الصغير لوث ذيل الهر بغراء الإسكافي"

صيححات من الضحك.

ينبعث البخار من السماوارات بعيداً إلى الردهات وداخل الحدائق
الأمامية في أمسيات الأحاد، ويلبس أعضاء من هذه العائلات المزدهرة
أفضل حللهم المخصصة ليوم الأحد، ويجلسون في حلقة مغلقة حول
طاولاتهم يشربون الشاي ويأكلون المربي المحضر حديثاً والعسل الجديد.
ملاعق القصدير ترن بابتهاج، طيور تصدح في أقفاصها على عتبات النوافذ،
وهناك طنين محادثة متمهلة، رائحة الفحم والفطائر وزيت الشعر ومصابيح
الزيت والقار ومن خلال أكمام متشابكة يمكن رؤية عيون الفتيات
الصغيرات تتلأأ.

"ليلة أمس كنت عائداً من صلاة المساء سمعت أحدهم يقول: (رأيت
رجل الإطفاء مبطوحاً في الوحل في الساحة في وسطها غماماً)"

"إذاً لهذا هو لم ينشد الأناشيد ليلة أمس!"

"لقد كان ممدداً هناك ملوثاً كله بالوحل يا ليزا"

أما أرياب العائلات فيتسلون بأحاديث ثقيلة.

"حالمًا يلغون حق امتياز النبيذ سيبدأ الفلاحون بشربه أكثر من

السابق" (٧)

كان العجوز الوسيم بازونوف جالساً على منضدة بجانب البوابة،
يتحدث بالأخبار الجديدة بعبارات محكمة.

"لقد بانت النقود رخيصة جداً بسبب الإفراط في صكها. كان هناك
زمن يستطيع المرء فيه شراء اللحم اللازم له بربع كوبيك، لكن اليوم يكلفه
ذلك ثلاثة كوبيكات....."

اشتهر بازونوف في كل أرجاء البلدة في الماضي بقدرته على رواية
الحكايات بأي شكل: سردي أو حوارى أو شعري.

نحدث الناس بمسائل التقوى وانتقدوا المسؤولين بالسر وحكوا عن أحلامهم.

"استلقيت في غفوة قصيرة بعد الغداء أمس ولو لم يظهر لي جدي المعجوز...."

"بالنسبة إلي يا جاري، حلمت ليلة أمس حلماً لا أستطيع تفسيره طيلة حياتي. كنت ماراً بكنيسة بيضاء ورفعت يدي لأخلع قبعتي فانخلع رأسي مع القبة ووقفت ورأسي مخلوع في يدي، أنساءل ما الذي سأفعله بعد ذلك....".

وثبت طيور أبو زريق تتراقص على الطريق والأسبجة براقعة غير مروعة وتتمب بابتهاج لبعضها البعض. أتت صرخة صفرد^(١) من مكان بعيد في الحقل. شخص من مستوطنة الحرفيين كان يعزف على الأوكوردبون، طفل كان يبكي، نجار ثمل جاء بترنح في الشارع ويحك كتفه على السياج وينشق باستياء ويتمتم لنفسه:

"خطأي - حسناً، إنه خطأي - تعال، اضربني، هيا، أقول...."

تعلقت شمس أوكوروف في السماء الغربية حمراء وبلا أشعة.

بينما كان الصغير يتمشى حسد هؤلاء الناس على الانسياب الهادئ لحياثهم، ورغب في الاقتراب منهم والجلوس إلى طاولة معهم والإصغاء إلى حديثهم العرضي - حديث يعج بالتفاصيل لدرجة يصعب فهم فحواه.

عند مروره في حديقة ماكلاكوف الأمامية لمح عينين سوداوين لفتاة كانت تلتصص من خلال وزرة السياج وسمعها تظن مثل يعسوب نحل:

"أوو، الولد الذي عشق زوجة أبيه!"

جفل، ومدت الفتاة لسانها واختفت.

مرة أخرى صاححت إحداهن بسرور من النافذة:

"ها قد أتى الصبي المصاب بنوبات الإغماء!"

ماذا تقصد، تساءل ماتفي. بحث في ذاكرته حتى وجد المرة التي أغشي عليه فيها، وقال لنفسه: إذاً الكل يعرف. لم ينزعج من ذلك، لكن العدوانية التي جابهها من كل شخص جعلته يفكر.

في أحد الأيام سمع المحادثة التالية:

"سيفلي كوجيمايكن خارج للتنزه مشياً مرة أخرى"

"لماذا يخرج ويتجول بهذا الشكل؟"

"دعيه يفعل ذلك. الخنازير تحب التجول في الشوارع"

"أنا لا أحب هؤلاء المتشردين الجوالين وخصوصاً أمثاله الذين -"

لم ينتظر ماتفي حتى يسمع التشبيه.

لقد استاء من الشرطي أكثر من كل الناس الآخرين. كان يجلس على عتبة النافذة من الظهر حتى حلول المساء، يدخن غليوناً طويل الساق ويتنحى بطريقة وحشية ويبصق من النافذة. كان يخلق ذقنه لكنه كان يترك سالفين شائين يتدليان مثل لغدين مما يعطيه منظراً كليبياً. كان ماتفي يخلع قبعته وينحني احتراماً.

"آآآ-بوووو!" كان الرد عليه.

شارع بورشنايا كان لتنزه القساوسة والموظفين ولنسائهم بشياهن المزركشة، وهناك أيضاً كان الشاب يحيا باهتمام لاذع في شخصه.

"أقول، انظري!" هتفت امرأة لم تعد صغيرة، ترندي ثوباً وردياً وقبعة خضراء مطرزة بالريش والزهور.

"هل تحبين تقبيله؟" سأل الرجل الذي يضع قبعة رمادية وسروالاً ذا مربعات كان يرافقها "إنه بفوح برائحة البصل"
"أوه، يا عزيزي! أنت تتصرف مثل مزحتك!"
"ويأكل زيت القنب مع وجبة الشوفان"

ضرب الرجل صاحب السروال ذو المربعات السياج بعكازه وصاح منادياً "مرحباً أيها الرفيق، مرحباً أنت!"
مانفي الخائف والمهان استدار بسرعة وانعطف إلى الأرض الخراب التي كانت عليها الكنيسة الجديدة، وبحث عن ملجأ فيها هرباً من النظرات الغريبة خلف كوم من القرميد.

بعد ذلك بات يلبس حذاء أنيقاً وقمصان والده الجميلة التي قصرت لتناسبه، آملاً أن يكسب التميز ويرفع نفسه في أعين أهل البلدة.
في أحد الأيام وبينما كان عائداً من القديس سمع فتاة صغيرة تقول:
"يا إلهي! انظروا كيف يبدو؟"
"مثل القرد" قالت الأم.

شعر بأن نوافذ البيت كلها تحدق به في سخرية وعيون الناس في شك وعدم قبول. من حين إلى آخر تومض نظرة سريعة ألطف عليه لفترة وجيزة، لكن هذا كان نادراً. ولاحظ أن النساء العجائز فقط كن يظهرن له قدراً قليلاً من التعاطف.

أحب التجول حول تل بنيوخوف. هذا مكان الفلاحين. البيوت صغيرة جداً، مربوطة ببعضها بأسيجة من الوتل، تحدق بتؤدة بالحقول والتلال الهادئة التي تصبح ذهبية في فصل الربيع بنبات الحوذان والهندباء البرية وخضراء بنية كأنها غطيت بحرير دمشقي قديم. وفي أيام الشتاء الطويل

البلدة تكون بيضاء فضية وناعمة بشكل مفرّ. بعيداً جداً وراء التلال ارتفع جدار أزرق قاتم لغابة تدعى شورنايا رامين، مقحمة قمم أشجار صنوبرها في كتل الغيوم الرمادية. أتى ضحك الأطفال الذين يلعبون في الحقول وصغير صناع البراميل من الألفية.

هنا وجد ماتفي عدواً في شخص الإسكافي سينيونوف. الرجل المعجوز الذي كان يمضي جلّ وقته على منضدة تحت نافذة كوخه المتداعي الذي تقشر الدهان الأحمر عن نوافذه الخارجية، يجدل السيور الجلدية ويدق مسامير طول أحدها بوصة في كعوب الأحذية وهو يسعل ويشز ويصرخ بأغان مقفأة في المارة. هو نفسه له مظهر مسحوق ومتآكل، وبدا كوخه بنوافذه المعوجة وسقفه الراشح ونوافذه التي كأنها لطخ حمر، كما لو أنه خارج من قتال ضارٍ، وكان جائئاً على الأرض من أجل استراحة. كلما لمح الإسكافي الشاب الصغير في ثياب جميلة يتمشى في الشارع، كان يرسم إشارة الصليب على صدره بذراعيه، ويبدأ في الصغير الحاد ويحدق بكسل في المدى البعيد الأزرق حتى يصل إليه ماتفي، عندئذ يثب على قدميه، ينحني احتراماً ويتمتم بصوت ساخر عالٍ:

"أستمبحك عذراً. أستمبح عذر سموك...."

أو يقول بتزلف:

"مرحباً أيها الكنغر، هل هناك ما يمكنني فعله من أجلك؟"

في البداية أمتع هذا ماتفي، لكن على الفور جعلته سخرية الرجل السقيم يشعر بعدم الارتياح والندم.

"ذهاباً وإياباً حول البلدة" غنى الإسكافي في أحد الأيام.

صحيح، لماذا أتجول في المكان؟ فكر ماتفي.

وذهب إلى المقبرة ليرى كيف أصبحت شتلات البتولا التي زرعها عند قبر بيلاجيا. وجد أن اثنتين منها جردتا من أغصانها وواحدة اقتلعت من جذورها وسرقت. زرع شتلات بتولا جديدة وأضاف شتلة صنوبر إليها وبني سياج حول القبر بناء على أمره ووضعت منضدة داخل السياج.

ازداد كثيراً ارتياده لهذه البقعة الهادئة التي غطاها نبات الأرقطيون وسيجتها شجيرات الزعرور البري. هناك كان يجلس ويسترد في ذهنه كل الانطباعات التي تجمعت من خلال مشاويره حول البلدة. بينما تغرد عصافير الدوري على الشجيرات وعناقيد الكرز الأحمر فتتهز أسواقها، أوراق صفر ترفرف على الأرض وأسراب صاخبة من طيور الحسون انقضت تلتهم بذور الأرقطيون. من الممتع الجلوس هناك ومشاهدة الشمس الحمراء الكبيرة وهي تنزلق بشكل مهيب في المستنقع ساكنة ذهبها بسخاء على أشجار الصنوبر المنتصبة. سماء أوكوروف الشاحبة أصبحت وهجاً من الألوان. جبال من الغيوم الرمادية فلقتها أشعة أرجوانية وصفراء، ألستة لب اندفعت من كتل داكنة لتبتلعها مرة أخرى وهي متوهجة وذهبية ومندفعة. النسيج الحي من الغيوم ولد وحوشاً أجسادها البالية مخترقة بسيوف من ضوء الشمس. نهض عملاق يمد يديه الملتطختين بالدم نحو الأرض، لكن كومة من الثلج نزلت فوقه وأفتته بلا ضجة. أفعى زرقاء تلوت في نهر من اللهب حتى استهلكت هي أيضاً. جبال مهددة ارتفعت قاطعة الضوء وملقية ظلالاً هادئة على التلال. إصبع ناري أشار بحنين واشتياق إلى الأرض للحظة قصيرة كأنه يقول:

"ارحوها. أحبوها"

حكاية ملتزمة من الصراع والانتصار كانت ترويها السماء الغربية. كانت معركة تدور بين الضوء والظلام، بينما في الشرق وراء أوكوروف وقفت ظلال جرداء باردة، مطوقة بسلاسل سوداء من الغابات وبعمى حديدية من نهر بوتاتيسنا الذي التف فوقه ضباب خريفي أرجواني. زحفت ظلال رمادية فوق البلدة، ممسكة بها في عناق قوي، بدت كأنها تنكمش وتلهث من الخوف، وفي اللحظة التالية بدت وكأن الظلال مسحتها عن وجه الأرض تماماً وكنسرتها إلى داخل بركة باردة من الظلام.

حين كان الشاب يراقب استعراض الخريف لثيابه الساطعة، تأمل في الحياة وحلم بلقاء رجل حكيم وطيب مثل الشمس كورنييف يستطيع التحدث إليه بصراحة عن رفاقه البشر وعن والده وبيلاجيا وعن نفسه أيضاً.

وربما يكون لهذا الرجل ابنة يعطيها له ليتزوجها، فكر. بدأ ماتفي يهتم بالفتيات. كان واضحاً من مظهره، وأكثر من مرة قرعه عشاق أوكوروف بقسوة بسبب ذلك. كل مرة يخرج فيها تقريباً إلى الحقول حيث يلعب الناس الصغار، كان يُقابل بنكات ساخرة كهذه:

"انتبه، هناك! سوف تفقد عينك وتنخلع"

"من الأفضل أن تذهب وتستشير سوميخا! أيها الزوج"

"ليس هو، إنه يعرف كل شيء"

عرف ماتفي من بوشكاريوف ومن العمال مسبقاً أن سوميخا كانت امرأة قذرة بدينة علمت الناس الصغار من أجل قنينة فودكا ورطل من البسكويت ما يجب أن يعرفوه عن الحب.

"الأرمل!" صاحوا "لقد عاشر زوجة أبيه!"

كان يمشي مبتعداً من دون أن يتلفظ بكلمة، شاحباً ومبتسماً بطريقة مرتبكة. كان تقريبعهم أكثر ما ييغض.

ما أهمية ذلك بالنسبة إليهم؟ سأل نفسه إن ارتكبت عملاً خاطئاً، أنا أسأت إلى الرب وإلى أبي ولم أسئ لهم، لماذا يهجم ذلك؟ لم يرد عليهم أبداً، ولم يستطع أن يعرف إن السبب كان في خنوعه وابتساماته المربكة ونحواله غير الهادف حول البلدة وعجزه عن الاقتراب من الناس ومصادقتهم، لذلك عاملوه باحتقار يبدونه للمعتوهين والمتسولين والمتشدددين في الدين.

ازدادت رغبته في فهم هذه الحياة المنعزلة التي تشبعت بالضجر والقسوة غير المبررة. شعر بها مثل حنين لشيء مجهول. شعر لو أنه استطاع أن يعيد النظام لكل ما سمعه وراه، لو أنه يستطيع أن يرى علاقات حقيقية ويتأملها بشكل عميق، لوجد تفسيراً وتبريراً لكل شرو الحياة، ثم بعد ذلك ستولد كلمة ظاهرة في روحه تمكنه من فهم رفاقه البشر ويصبح واحداً منهم.

بعض الظواهر التي لاحظها كانت مقززة للنفس. في وقت مبكر في صباح أحد الأيام، مثلاً حين كان واقفاً يتفرج على بناء الكنيسة الجديدة، رأى بعض البنائين يقذفون كلباً أسود بقدر من الكلس. كان الكلس يغلي ويفور وقد حرق عيني الكلب بسرعة وحرق لحمه أيضاً. لهث الحيوان المسكين وصرخ مستنجداً وقام بجهود متشنجة ليسبح ويخرج من القدر، لكن الشغيلة ضحكوا وضربوه على رأسه بعصي تحريك الكلس الطويلة ودفعوا فكيه الفاغرين في المادة الكاوية الحليبية البيضاء السمكية.

"لماذا تفعلون ذلك؟" سأل مائفي.

"لماذا، هل هو كلبك؟" قال شاب ذو وجه أحر مدور وشارب غطاء مسحوق الكلس.
"كلا"

"حسناً إذاً، نحن نفعل ذلك من أجل المتعة" قال الشاب بضحكة بهيجة. "شيء ممتع جداً، الطريقة التي يحاول الخروج فيها"
"إنه مجرد كلب ضال" صاح آخر. "الضالون أغبياء دائماً. لقد وقع. سوف نشده إلى الخارج، لكن ما الفائدة؟ لقد أضحى أعمى الآن. دعه يموت"

أسبل مانفي عينيه وابتعد وهو يشعر بالعار. لقد رأى الشيء نفسه، الشغيل ذو الشعر الأحمر ينادي على كلب آخر، ضربه على رأسه وركله في داخل القدر وهو ينادي رفاقه:
"ادفعوه إلى الداخل!"

في مناسبة أخرى، رأى القس السابق تشبرنولاسكين وهو الآن متشدد ديني، وقد أتى مهرولاً في وسط الشارع على ساقيه القصيرتين يرش رش الوحل من كلا جانبيه، وخلفه عصبة من الأولاد الصغار يصيحون ويصرخون مثل الجراء. ركضت قلة منهم أمامه، حملوا حفنة من الطين وقذفوا بها وجه الرجل المرتعش وصوبوها نحو عينيه اللتين كان لهما نظرة شبحية وتنوهجان بحرق عقيم. لقد رُش من رأسه حتى قدمه، الطين يقطر من بطنه المترهلة التي تدلت حتى ركبته تقريباً. قفز فوق البرك وهو يفتح فمه ويغلقه مثل سمكة، ملوحاً بإحدى يديه أمام وجهه ليعمي عينيه وممسكاً بكرشه باليد الأخرى كأنه يخشى أن يفقدها. اندفع شكله القصير والبدين هنا وهناك، خارت قوته وتدحرجت دموعه على وجنتيه المتسختين.

رقص الأولاد الصغار حوله يصيحون في جوقة:

"تشيرنولاسكين ذو النظرة الباردة! باع زوجته بمطواة! السكير ذو البطن الكبيرة! السكير ذو البطن الكبيرة!"

وجوه غامضة متشابهة كلها، ظهرت من نوافذ البيوت واستحسنت التعليقات التي كانت تسمع:

"انظروا، هؤلاء الصغار يطاردون ذلك القس الكاهن ثانية!"

"لماذا تزعجونه وتعذبونه؟" سأل ماتفي ولدًا ذا شعر مجعد ووجه منمش

"نحن نطارده طول الطريق من الدير" قال أحد الأطفال متباهياً

"لماذا؟"

"لمجرد المتعة!"

"عليكم أن تشفقوا عليه"، قال ماتفي بنعمومة مع نظرة حذرة حوله

"انظروا كم هو منهك!"

"أنا متعب أيضاً" اعترف المطارد الشاب وهو يمسح وجهه المتعرق بأكمامه.

"لو كان قديساً حقيقياً لتركناه" قال ولد أكبر ذو أنف حاد وأذنان كأذني الفأر. "عندئذ سنشفق عليه"

"نحن لم نلمس ألبوشا" أضاف اثنان أو ثلاثة منهم بسرعة.

"نحن لا نطارده سوى تشيرنولاسكين وأم الكلاب"

ابتعد الصبي ذو الأنف المدب ثم استدرك، يده على وركيه وقال "إذا أنت ابن كوجيايكين، أليس كذلك؟ الابن الذي عاشر زوجة أبيه؟" ثم اندفع مبتعداً.

في نهاية شارع نابونابا انتصبت البقايا المتفحمة لبيت من طابقين. من الواضح أنه احترق منذ زمن بعيد. غسل المطر والثلج معظم الفحم عن قرم الخشب، وظهرت في الشقوق والأخاديد قطع صغيرة بارزة للأعلى مثل أسنان مسوسة، بينما بدا الكتان الناتئ من بين قرم الخشب مثل خصلات لحية.

حدقت السماء من خارج النوافذ المكسرة في الطابق العلوي غير المسقوف. داخل البيت اختلطت ألواح خشبية جدارية وعضادات الأبواب والموارض التي تفحمت كلها في فوضى مربعة، ظهرت بقع خضر من الطين على الخشب المتعفن، وبزغت أعشاب ضارة في الدبش، مثل القراص والعلقم على النوافذ، وفي أحد أطراف البيت هناك حديقة فيها شجيرات حور انتصبت متفحمة، وفي الجانب الآخر فناء اهترأت مراحضه الخارجية.

في أيام الآحاد، كان الوميض الأسود على الفحم في الأخاديد مثل تكشيرة الأفواه السود. في الأيام الماطرة دموع بلون الصدا تسيل على القرم الخشبية الملساء. ألواح تثبت بمسامير فوق نوافذ الطابق السفلي، ألواح زجاجية بلون قوس قزح يمكن رؤيتها خلف الألواح الخشبية وخلف الألواح الزجاجية. ظلام. في هذا الظلام عاشت أم الكلاب.

طويلة ومتنصبة القامة تنتقل في البلدة حافية الأقدام، شال رمادي دافئ يلف رأسها وكتفها وأسماها بالية تغلف جسدها كما يغلف اللحاء الشجرة. كانت تشد الشال فوق جبينها عالياً حتى ذقنها، ويكشف الفراغ بينهما عن زوج من العيون كعيني بومة وأنف كبير كأنه سبك من حديد..... خطوتها ثابتة وتقيس دربها بالتلويح بعصا كستناء ضخمة وهي تمشي. تدق النوافذ بهيبة وحين تفتح لها تطلب قي صوت أجش وفظ:

"أعطوني شيئاً ما"

عصبة من الكلاب تتبعها دوماً، كلاب مهجنة عجوز مع لطح بيض على شعرها وسوالف رمادية منتصبه على أنوفها، كلاب صيد قدرة مع أشواك وكتل وحل معلقة بشعرها وذبولها بين سيقانها كأنها فقدت احترامها منذ وقت طويل. كلابات هزيلات اندفعن في المكان ودسسن أنوفهن يبحثن في كل شيء، جراء صغيرة فرحة مع السنة وردية متدلية وعيون مدورة بريئة. كل الكلاب كانت متحدة بسعادة، بذلك الشعور في الاستقلالية عن الكائنات البشرية تلك الميزة لأغلب الطفيليات، كلها تعيش وتلحق بمن يطعمها من صدقات في حضور نفس الأشخاص الذين تتلقاه منهم.

كان أهل البلدة خائفين منها، قالوا إنها تتعامل مع أرواح شريرة وعفاريت البيت تطيع أوامرهما. وتعمل بناء على أمرها. في مكان إقامتها كان حليب البقرة يجف، والشيطان يطارد الحصان في الفناء ليلاً والدجاج يحشى مريه، وأشيع أن لديها قوة تنشر الحمى والأورام وتذبل الأطراف في الريح لتعدي الكائنات البشرية.

كانوا يعطونها الصدقات بسخاء وبلا تعليق دون أن يسألوا عن شيء مقابل ذلك. إن نسي أحدهم وقال "خذيها وصلي لراحة روح....."، كانت أم الكلاب تقذف الصدقة إلى الكلاب وتغم بغضب: "لقد اهتمت كثيراً بالأرواح!"

عرف ماتفي قصتها، فقد سمع فيلاسيفنا تحكي ليلاجيا أنه منذ سنين طويلة واحد من آل فوييفودين أحضرها وهي ما زالت فتاة صغيرة إلى أوكوروف واشترى لها بيتاً وعاش معها لفترة قصيرة ثم تركها. بعد ذلك استخدمها موظفون مختلفون من أجل متعتهم. حين كبرت في السن وزادت أوجاعها قررت أن تكفر عن الآثام التي ارتكبتها في شبابها، فاتخذت من الكلاب الرفاق الوحيدين لها فيما بقي لها من حياتها.

تذكر ماتفي بيلاجيا وهي تقول في نغمات حزينة متأملة:

"ربما قررت ذلك لأنها اشمازت من الكائنات البشرية"

"يا لطيف ماذا تقولين؟ أليست الكائنات البشرية مخلوقات الرب؟"

"أليست هي كذلك أيضاً؟"

"من؟"

"تلك المرأة"

انطلقت فلاسيقنا بعرض تثقيفي حول الفرق بين الكلاب والبشر وأم الكلاب، وبينما كان ماتفي يصني تذكر عقدة الازدراء على شفة والده السفلى.

أولاد الشارع الصغار يلحقون أم الكلاب بالحجارة من مسافة آمنة، لكن حين يحاولون الوصول إلى زقاق مسدود أو قطعة أرض خراب أو ركن مظلم كانوا يحتشدون حولها.

"أرينا التذكرة الصفراء يا أم الكلاب! أرينا التذكرة الصفراء!"

ثم ترفع تنورتها للأعلى وتربهم ساقبها الأصفرين وبطنها المشعرة وتلفظ بثلاث كلمات بالتوافق مع صياحهم:

"هذه - هي - تذكرني!"

بمشاهدة هذا المنظر، كان الكبار يقولون للأولاد أحياناً:

"حسناً، هل نظرتم بملء أعينكم؟ عاملتكم كما تستحقون يا أوغاد؟"

حين تكشف نفسها بشكل شرير وبلا حياة، كان ماتفي يغلق عينيه من الخوف والرعب، ويتخيل أن كل هذه الكلاب والأولاد الصغار خرجوا من تلك البطن الصفراء المشعرة التي ذكرته بالتلال المرعبة التي تطوق البلدة.

كل يوم تقريباً كان يقابل المعتوه الورع اليوشا بقميصه الطويل المفتوح، ويظهر صدره العاري المعلق عليه صليب نحاسي كبير. كان يندفع مسرعاً في الشارع بجسمه الهزيل المنحني إلى الأمام ورقبته الضامرة ممدودة إلى الخارج ويده اليمنى مدسوسة في حزامه ويسراه تمسك بقطعة صغيرة من الخشب صقلتها أصابعه بفضل الحك الدائم. بدا يطارده شيئاً غير مرئي ظل يروغ من قبضته. كان يأتي مهرولاً في المشى الخشبي على ساقين مهزوزتين ويتمتم بلسان جاف:

"انتبهوا واحذروا مخلوقات الرب!"

كان الكبار يفسحون له الطريق دائماً، أما الصغار فيقفزون جانباً رعباً منه، وإن حدث واصطدموا به كانوا يتبعثرون بدون أي كلمة حتى لو أفسح لهم الطريق. حتى رجل الشرطة الشجاع تشيرميس الذي يستطيع تطويع ثلاثة عمال لوحده وهم ثملون ويضربون زوجاتهم أو يتشاجرون في لعبة الورق - حتى الشجاع انكودين يتأكد من الالتفاف حول ألبوشا.

في أيام السوق كان مانفي يتجول في السوق ليستمع إلى الشجارات بين أهل البلدة والفلاحين. كان الفلاحون ممتلئين وملتحين مثل جذع شجرة نما بإفراط في المستنقع، وفي المقابل كان أهل البلدة صغار الحجم وعصبيين كالجرذان التي تقلق كلب الحراسة. قلة من أهل البلدة كانوا يخاطبون الفلاحين بأصوات معسولة، لكن أغلبهم لم يبذلوا أي جهد لإخفاء الاحتقار الذي يكونونه لهم.

كثيراً ما وصل إلى مسامع مانفي ملاحظات كهذه:

"بلهاء من أمثالك كان يجب ألا يُحرروا أبداً، ففي ذلك خرابك"

"كم هو ثمن لفنك؟" سأل بازونوف مرة.

"خمسـة عشر كوبيكاً للمكيال الواحد"

"منذ زمن ليس ببعيد أنت وأطفالك المزعجون معاً كنتم تعرضون أنفسكم بخمسة عشر كوبيكاً ولا أحد يشتريكم بذلك السعر!"
"ها ها! استمعوا إلى بازونوف فقط" يقهقه القوم.

العجوز خريابوف الذي كان يساوم على زبديـة خشبيـة للخبز، وبخ فلاحاً بصوت يمكن سماعه من الطرف الأول من السوق إلى الطرف الآخر:

"أعجب من لص مثلك لا يخاف من غضب الرب! عشر كوبيكات! هل تعرف ماذا تعني العشر كوبيكات؟"

كان أهل البلدة يبدون سخطهم من جشع الفلاحين وقالوا إن التحرير لوئهم وأفسدهم. عند مخاطبة الفلاحين الكبار كانوا ينادونهم عادة بالرضع. تطايرت الكلمات القبيحة والتجديف مثل خفافيش في الجو وأضواء السوق المشرقة بدت مبيضة بأبخرة العداء العام.

عند افتتاح السوق يكون الفلاحون هادئين: هم لا يردون على تجديف أو سخرية أو مداهنة أهل البلدة. كانوا يحدقون بهم فقط في عدم مبالاة كأنهم ينتظرون أناساً آخرين يبدون موقفاً مختلفاً.

لكن بعد زيارة أو اثنتين إلى الحانة، يستجمع الفلاحون الشجاعة ويردون على التجديف بمثله وكذلك السخرية، وعند الظهر يكون أغلبهم سكارى، وجدالاتهم مع زبائنهم كانت تنتهي بالقبضات دائماً تقريباً. السكارى والمشاكسون يرسلون إلى مركز الإطفاء. المواطنون المحترمون يتنحنون بطريقة مؤثرة ويقولون:

"لا يمكنك التصرف بذلك الشكل هنا، هذه ليست غابتكم الخلفية!"

صُدم مائني بالعدد الكبير من الكلمات الفاحشة التي كان الناس يستخدمونها، وبالطريقة الفظة التي يهينون فيها بعضهم البعض وعدم المبالاة التي يتلقون بها تلك الإهانات. بدا له أن الجو كله في السوق تتخلله العداوة وعدم الثقة اللتان فعلتا فعل السم. كانوا كلهم خائفين من أن يتعرضوا للغش علماً أنهم كلهم عاكفون على الغش. باختصار في هذه الساحة الصغيرة من بين برج مراقبة الحرائق وجرس الكنيسة، ضمن نصف الدائرة الصغيرة المرصوفة بأكواخ السوق المنخفضة، هناك تجمع من القبائل، كل واحدة منها كان عدائياً اتجاه الآخرين كلهم ووسطهم ذهب المتسولون يجنون مثل الدود، يضغطون بعضهم البعض بالمثل، وعلت الشفقة الزائفة لتضرعاتهم فوق صباح السوق.

"يا أيها الناس الأخيار، باسم المسيح..."

كان اسم المسيح يذكر كثيراً في حرارة المجادلات وكان صدهاء بلا روح، مثل أي كلمة عادية نسي الجميع معناها.

على الأرض بجانب أحد الأكواخ جلس ثلاثة متسولين عريان، ثلاثة أشكال صدئة بدت وجوههم التي خلت من أي تعبير منحوتة من حجر نفوذ، تلعثموا بأغنية كثيبة بفكوكهم التي لا أسنان فيها.

منهكة، منهكة عظامنا

وإن كانت ذنوبنا ستعتقنا

سوف نستلقي ونموت ونحن سعداء.

شد بيوتر تولوكونيكوف الصغير الشعر الأحمر الذي على شفته العليا وهو يرمقهم.

"إن كانوا يريدون الموت فلماذا يطلبون الصدقات إذًا؟" قال في صوت

جهير.

فاسيا خريابوف، بوجه مثل ابن عرس، حلق بهم متعمداً.

"ربما هم يتظاهرون بذلك فقط" قال ساخراً بصوت عالٍ.

"أرم حفنة تراب في عيونهم" اقترح الطويل الأخرق ماكلاكوف الذي يتاجر بالأيقونات والأواني الخزفية والأكوردونات.

تسلل فاسيا عليهم، ورمى بعض التراب الرمادي على وجوههم. توقف الرجال العميان عن الغناء، وبدؤوا يمسحون وجوههم الحجرية براحتي أيديهم المجمعدة. من الواضح أن هذه لم تكن المرة الأولى من الأذى التي يجربونها.

"إنه فاسيا الذي ليس في قلبه ذرة من الشعور!" قال نولوكونيكوف وهو يغمز ماكلاكوف.

كان هؤلاء أكثر المتسبيين بالأذى في السوق كله. كانوا يمسكون بالكلاب الضالة يربطون علب قصديرية بأذيالها ويتفرجون على الحيوانات المذعورة وهي تركض بشكل جنوني وتنبح وتأن والعلب تصطدم بالأرض وتصدر أصواتاً خلفها. في الأيام الماطرة كانوا يفركون الصابون على ألواح المشي ويفرحون في مشاهدة العابرين وهم ينزلقون ويسقطون. يصنعون حزماً من النفاية القذرة ويضعونها في الطريق، ليضحكوا على الناس الذين يظنون أنها مشتريات مفقودة، فيلوثوا أيديهم وملابسهم حين يحملونها.

يستمتعون في قلع الأشجار الصغيرة وتخطيم المناضد التي بجانب بوابات الحدائق، يخربون أعشاش الطيور بحجارة مصوبة ويقذفون البيض الفاسد من النوافذ.

لكنهم لم يكونوا الوحيدة في الاستمتاع في التسبب بالأذى والضرر. عرف ماتفي أن كل الأشخاص حتى الصغار في البلدة لديهم شغف في

تخريب الأشياء. في الربيع يكسرون شجيرات الليلك والأكاسيا وأشجار التفاح المثمرة فور نضوج الثوت البري والخضار وينهبون البساتين والحدائق، ويستمر هذا طوال فصل الصيف إلى عيد التجلي، حين يجمع الملاكون ما تبقى من التفاح على أشجارهم المتضررة وهم يشتمون ويلعنون مرتكبي الضرر، متناسين أنهم كانوا مثلهم في شبابهم.

في كل يوم أثناء نشاط الصباح والصمت الثقيل في الظهيرة الحارة ومنتمة المساء الهادئة، يمكن سماع صراخ الأولاد المعاقين ونحيبهم. كانوا يتلقون الصفع واللكم والقرص والصفع والشقبة والجلد وكانوا يضربون بالعصي ويجلدون بالسبور الجلدية. ماتفي الذي لم يجرب أباً من هذه العقوبات تذكر والده وكان ممتناً وشاكراً له.

كان الأولاد الذين يتعرضون للضرب يسخرون من مصائب بعضهم البعض وهم يضربون ويلكمون بعضهم بعضاً أيضاً. لم يُظهروا أي نوع من الرحمة تجاه الحيوانات الخرساء. في الخريف أثناء رحلة الطيور إلى الجنوب، يمسون بعدد لا يحصى من البلابل، ويعذبونها بحبسها في أقفاص صغيرة جداً وقذرة. في الربيع يمسون بصغار الطيور بأشراك مصنوعة من شعر الحصان. بعد أن تقع في المصيدة، كانت الطيور تكسر سيقانها وتموت أيضاً وهي تصارع لتحرير نفسها.

يخلق الأولاد مثل الكبار، انطباعاً بأنهم مقيمون مؤقتون في البلدة ولا شيء فيها غالي وعزيز عليهم ولا شيء يستحق أن يبقى ويدلل. رغم اكتظاظ البلدة هناك أماكن فارغة فيها. تقريباً كل الفناءات نمت فيها الأعشاب الضارة التي كنست الرياح بذورها إلى الحدائق، لهذا وجب تعشيب الخضار مرتين أو ثلاثة في الموسم الواحد. أشجار الفاكهة في

البساتين مغطاة بالأشنيات، لذلك نمت ببطء وكانت معوجة ولم تحمل سوى القليل من الثمار.

لكن أكثر ما علق في ذهن ماتفي هو موقف أهالي أو كوروف تجاه النساء. بوضوح موجه كشف موقفهم عن وجود شيء رهيب يترصد في أرواح هؤلاء الناس. شيء شعر أنه ترك بشكل غير مدرك، لطخة في روحه هو، مثيراً أفكاراً أزعجته وسببت له توتراً مؤلماً في عضلاته. حين كان يراقب الشباب وهم يلعبون في الحقول المجاورة للدير، لاحظ أن الفتيان يستمتعون بإيذاء الفتيات. كانوا يقرصونهن ويرمون ثماراً شائكة في جدائهن. في لعبة المطاردة كانوا يطاردون الفتيات إلى نبات القراص الذي بجانب الدير ويوقعوهن على الأعشاب القارصة. تقريباً بشكل ثابت، كانت دموع الفتيات تضحك الفتيان، وبغض النظر عن نوع اللعبة التي كانت تلعب، يحاول الفتيان إيذاء الفتيات ويدون عرضاً فظاً لقوتهم الأعظم.

وكان هذا الأخير ملفتاً بشكل خاص. في البداية وجد ماتفي أضراراً للقبوة المفرطة التي انتهجها شبان أو كوروف. حين رآهم يختالون مثل الدبكة أمام الفتيات، يصفقون قشور بذور عباد الشمس على تنانيرهن ويصدمونهن بأكواعهم بطريقة متعمدة للمس صدورهن. ضحك بينه وبين نفسه وقال، ليس بدون حسد:

يا لطريقتهم في التباهي.

كانت النسوة يتقاتلن بوحشية وغلّ كربه. الأمهات يضربن البنات والحמות يضربن الكنات. يتشاجرن في الحدائق وفوق الأسبجة وعند البوابات وفي الشوارع والسوق وساحة الكنيسة، أي شيء نافه كان يسبب

شجاراً، دجاجة ضائعة، قطرة سارقة، كلب نابح، حسد جيران لابنة جميلة، حسد إحداهن لزوج الأخرى. وكان صراخ ضيمهن وشكواهن يسمع من آخر الشارع بشكل إعصار من الكلمات، يطلقن عنان نكدهن المكبوت بشكل مسعور وخالٍ من الحياء. أحياناً بدا للشباب أن صرخة طويلة وحادة علقت في الجو بشكل دائم.

"أ، و، و، و"

كل ليلة أحد وفي المساء تُسمع صرخة قوية مجنونة لإحدى النسوة، كما رأى ماتفي في مرات عديدة شكلاً شبه عارٍ وبشعر متطاير يسير في الشارع مترنحاً، وجفل حين تذكر بيلاجيا كيف لفت شعرها الممزق حول أصبعها. لكن الأسوأ هو حديث الرجال الحميمي حول موضوع النساء. كل ما سمعه من الشغيلة رغماً عن إرادته، مع ما جمعه من الملاحظات البذيئة المنقولة بين والده وبوشكاريوف أو فلاسييفنا، تدفق وصب الآن معاً ليشكل بركة عميقة مقرزة أغرقت فيها نساء عاريات بلا حياء وألصق بهن كل عوالت الفحش.

شعر بالذهول والاختناق بالفظاظة غير المعبر عنها في أقوال الرجال عن النساء. أحياناً كان يتخيل أنه يرى امرأة عارية مستلقية في وسط الطريق وأحذية ملوثة بالوحل تدوس على بطنها - بطن الأم. ساحقة الحيات التي لم تولد داخلها بعد والحكايات التي لم ترو. كان متأكداً أن كل النساء باستثناء فلاسييفنا كن بسيطات وعطوفات ويستجبن فرحات اللود كما كانت بيلاجيا ومشفقات كما كانت أمه مع والده. فكر ماتفي بكل النساء كأمهات وأخوات لطيفات وكريبات وكعذارى صغيرات ينتظرن خطابهن كما تنتظر الزهور الشمس.

لكنه الآن بدأ يجرب فضول واستغراب شخص تحقق وأدرك بأنه كان مصنوعاً من مادة مختلفة عنهم. سابقاً كان ينجعل من سماع أن عقولهن تخضع لأجسادهن. الآن بات يستمع بصمت وانتباه. أخفض عينيه نحو الأرض، وكان يظهر له بشكل ثابت جسداً عارياً أمامه.

في الليل أدرك أن شيئاً طيباً وطاهراً تفكك داخل قلبه المسموم وأن جسده كان يُستهلك بلهيب الشهوة الحار، وبكى من عجزه لأنه شيء مرّ وحزين أن تدرك أنه في كل يوم جديد، بدلاً من إضافة شيء لإثراء روحه، يؤخذ شيء منه ويترك قلبه معزولاً مثل الحقول التي وراء البلدة.

أحس بالقسوة في كل مكان. في تدفق الحياة اليومية البليدة التي لم يبرز منها سوى بقع ساطعة، تجذب انتباهه بشكل لا يقاوم، وتجعله يتذكر كثيراً ملاحظات والده المزدرية عن قاطني أو كوروف.

الحياة التي تحدث عنها والده في حكاياته المشوقة لم تكن موجودة هنا في البلدة؛ حيث الشمسون الوحيد الذي عرفوه هو رجل أجذب وأصلع، أنفه معقوف، كان يصنع قبعات من السراويل العتيقة.

قال ماتفى لنفسه بحزن مراراً: من الأفضل الاستمرار في تخمين الأشياء كما اعتدت أن أفعل على معرفتها كما أفعل الآن.

في البيت كانت الحياة غير مقبولة. أصبحت المعشبة ناتاليا الآن طباحة بدلاً من فيلا سيفنا وأحضرت معها رائحة مستفزة غريبة، وكان الشغيلة يتقاتلون مع بعضهم البعض ويضايقون شاكراً أيضاً وينعتونه بأذن الخنزير، ويسألونه عن عدد الزوجات اللواتي يحتفظ بهن في وطنه، وهل صحيح أن المحمدين الأخبار مطلوب منهم أن يخلقوا شعر أجسادهم. لم يكلوا من اختراع الإهانات، وكانوا يرشقون التري بنفاية منتنة من الكلمات القذرة

ويرد عليهم بالتحديق بهم بعينه المائتين وطقطقة لسانه ويقول بهدوء لكن بشكل مؤثر:

"هذا رديء جداً- كل ما تهزؤون منه. أنتم تهزؤون من محمد وتهزؤون من الله. ليس هناك شيء لا تهزؤون منه. إنه لسان روسي هزاز رديء"

تحمّر أذناه مثل قبضات إناء من الفخار وتزداد غشاوة عينيه الرماديتين. بدأت الأمطار في أو كوروف، قدفعت الهواء المنعش خارجاً وكست المناظر الزرقاء بالضباب. سالت جداول مائية باردة بين التلال وشقت خنادق على جانبي الأخاديد. امتدت برك الوحل عبر الشوارع، بكت نوافذ البيوت، تحولت الأشجار إلى لون أسود واختنقت الأرض بالماء، بدت البلدة هادئة أكثر وفارغة وقارسة ومتورمة بالمطر. سمعت الغربان وطبور الزاغ وكل المخلوقات الحية إلى الملاجئ. باتت الأصوات أكثر بلادة وغموضاً. كان الشيء الوحيد المحدد والواضح بكاء المطر الكئيب. في الليل بدا وكأن مخلوقات مرهقة غير مرئية كانت تنشد بشكل يائس:

"النجدة! النجدة! الرحمة!"

في إحدى الليالي المظلمة، خرج ماتفي إلى الفناء وسمع صوتاً غريباً، مثل لهاث امرأة أنهكها النشيج. ذكره بالأغاني الموحشة التي كان يفتيها شاكر وهو يعمل أو حين يرتاح على المنضدة بجانب البوابة في أيام الآحاد.

"هل هذا أنت يا شاكر؟"

توقف الصوت. بزغ من الظلام الشكل الوسيم لحارس الفناء. جاء إلى سيده، هز كتفيه بيأس وتكلم وكأن يداً ثقيلة تمسك بحلقه.

"صعب جداً يا سيدي. أخشى أن هذه البدل لن تطيعني. هي تريد أن تسحق وجوههم القبيحة. آوه! لم أعد أحتمل أكثر! ادفع لي أجري لأرحل"

السيد الصغير العاجز عن الجلوس إلى طاولة مع رجال شتمهم بقسوة، خرج إلى البستان الذي تجردت أشجاره من أوراقها بسبب رياح تشرين الأول، وظل يتمشى ذهاباً وإياباً على عمرات المغطاة بالأوراق المتناثرة منذ فترة طويلة.

لقد بدأ الطقس البارد، ولقت السماء بطانية ثخينة من الغيوم الرطبة الصماء التي ضربت القمر والنجوم وأطفأت لهب المغيب الخريفى الأحمر. وحين بدأت الريح بتمزيق البلدة، هزت الأشجار وعوت في المداخل وزعقت منذرة بصواعق قادمة ومزقت الأصوات إرباً جالبة للأذن مزقة من الكلمة أو صبيحة متشظية.

يدق جرس الدبر في الصمت المطبق للبلدة المنبطة. وفي كل مرة يشد فيها جبل الجرس، تطلق صفيحة رخوة من القصدير على سقف غرفة الجرس صرختين صغيرتين قاشطتين. كان قرع الجرس خنوعاً وحزيناً مثل صرخة مخلوق ناته في الظلام منهك من البكاء ويائس من أن يُسمع.

في مساءات الأحاد كان يظهر كلونشاريف، رجل إطفاء ومغنٍ في الجوقة، في المطبخ، وكان من أقرباء ناتاليا، يظهر مثل بوشكاريوف بوجه ساخر وخائب في الوقت نفسه.

أحب ماتفى الجلوس على طاولة لعب الورق في المطبخ مع كلونشاريف والتتري في الطرف الأول ويلعبان الداما بهيئة جدية حازمة، وبوشكاريوف في الطرف الآخر يوازن كتبه ويحسب الدين والرصيد على حاسب يدوي جديد كبير. هنا تجلس ناتاليا أيضاً مع خياطتها، وقد باتت أقل قذارة. وأظهر تعبير عينيها الخضرواين أنها أخذت مسؤولياتها الجديدة على محمل الجد. كانت الريح تصفر في المدخنة، وهناك حفيف للخنافس خلف الموقد،

الصفيع يقطع في الفناء، والخرز يقطع في الحاسب البدوي. دندن شاكر بأغنية، وسخرت منه ناتاليا بمودة. استغرق كلوتشاريف بعض الوقت ليعود على حضور ماتفي. في البداية كان ينهض ويعطس ويحول عينيه بجفنيهما الثقيلين في كل مرة يدخل فيها، يزجر في صوت عميق جهير:

"لك الصحة والعافية"

كان الترحيب يترد من زاوية بعيدة في صدى.

كان شاكر ينقر على المنضدة بجانبه ويقول لسيدته:

"هنا، اجلس. تعلم. انقل أنت يا إطفائي. إلى أين؟ أنا هنا. ابسيل!"

وكان يغمز ماتفي ويلكزه لكزاً خفيفاً.

لم يكن كلوتشاريف نداءً للتري. كان يجلس طويلاً ويضع كوعيه على الطاولة من أجل كل نقلة؛ أصابعه تمسك بشعره الأسود المجمع؛ يحدق في اللوح بعينين لونهما غير محدد. يمسك شاكر وجته بيده في صوت خفيض حلقي:

"امدى - كيلاك - كيلان

كونوم - نوتشوك - كوغان

رفع كلوتشاريف رأسه وحدق به لحظة في صمت قبل أن يعود إلى طاولة الداما.

"ماذا تعني تلك الأغنية باللغة الروسية؟" سألت ناتاليا.

"تعني في اللغة الروسية: ماذا علي أن أفعل؟ كيف علي أن أعيش؟"

"أنتم التار تغنون أغاني مضحكة" قالت ناتاليا بحسرة.

نظر ماتفي إلى كلوتشاريف، وتذكر الصفاء المخيف الذي غنى به حين كان يمشي وراء جنازة كوجيايكين العجوز إلى المقبرة ووقف بجانب القبر.

لمغني الكورال وجه لا ينسى. مثلث مقلوب، قاعدته جبين الرجل الكبير الأسمر وارتفاعه الذي كان مقاساً بأنف طويل معقوف. كانت وجنتاه مغطأتين تقريباً تماماً، بلحية سوداء انتصب شعرها وشارب كثيف لم يسمح برؤية شفتيه أو أسنانه. تولد عند ماتفي انطباع أن الرجل لم يكن يفكر بطاولة الداما، وهذا سبب خساراته الدائمة.

"حلمت ليلة أمس" قال دون أن يبعد عينيه عن الطاولة. "رأيت فلاحاً ضخماً وطويلاً مثل السماء في الحلم وهو يحمل منجلاً بطول نصف فيرست في يديه، يمشي إلى الأمام ويحصد كل شيء في طريقه، الأشجار والقرى وكل شيء دون أي ضجيج"

"نذير شؤم" قالت ناتاليا بهدوء "حلمك يعني وباء الكوليرا" "الكوليرا؟" كرر كلوتشاريف مشككاً. "اهممم، ماذا لو جاء مثل ذاك الرجل الكبير في الحياة الحقيقية، وأخذ برج جرس الكنيسة، وبدأ بتحطيم البيوت والسقوف ورؤوس الناس به؟"

"أنت تعود إلى تأليف الأشياء مرة أخرى" قال بوشكاريوف مستنكراً بهزة من رأسه.

"هها! هها! لسان ثرثار!" ضحك شاكر وهو يهتز للأمام وللخلف. حذق كلوتشاريف بالجندي بعينين مفتوحتين وبجدية.

"أحلام؟ الأحلام لا تؤلف. حلمت في مرة أخرى أنني أرى سمكة تشبه سمكة السلور لكن لها أسنان. كانت تطير بجناحين وتتنقل، كل جناح بطول مئة قدم"

"حسناً" قال ماتفي فوراً حين رأى أن رجل الإطفاء انجر إلى ظلمة أحلامه.

"حسناً، كانت تطير في المكان. هذا كل الأمر وألقت ظلاً على الأرض
وحين كان يسقط هذا الظل على شخص كان يعني نهايته. أحياناً كانت
تتحول إلى حصان، وإن حدث وجود بحيرة في طريقه كان يفرق الأرض
كلها بضربة واحدة من حافره....."

بدت كلماته التي كانت تنغربل عبر كتلة لحيته السوداء المتشابكة سوداء
وغامضة أيضاً كالعناكب.

"هل كانت السمكة بيضاء؟" سألت ناتاليا وهي شاردة الذهن.

"رمادية، بلون التراب"

"قد يعني ذلك المطر" قالت ناتاليا. "الأبيض يعني الثلج. أما الحصان
فربما يعني الطقس الدافئ"

"بوشكاريوف" قال شاكر وهو يغمز ماتفي "ماذا يرى رجل الإطفاء
في حلمه؟"

"سمكة-سمكة سلور"

زأر التري ضاحكاً.

"إذاً هو يحكي لنا قصة سمكة. هها! هها! لسان ثرثار! الروسي، يجب
كلمات كثيرة. هها! هها! قصة سمكة!"

وجد ماتفي بعض الحقيقة في كلام التري.

في أحد الأيام سأل السيد الصغير كلوتشاريف عن البلد الأصلي الذي
ينحدر منه، واندش حين علم أنه ولد في مستوطنة الحرفيين.

"اعتقدت أنك أثبت من مكان بعيد جداً" قال في خيبة أمل.

رفع مغني الجوقة رأسه المثلي.

"توجد عائلتان منا نحن آل كلوتشاريف. عائلة ماكار وعائلة غريغوري. أنا أنتمي إلى عائلة ماكار"

أتعتقد هذا؟" قال بوشكاريف بضحكة شكاكة صغيرة. "ذلك ليس مؤكداً. الاحتمال الأكبر أنك تدين بالشكر لصراف الرواتب بيريكوبوف لإنجابك وجلبك إلى هذا العالم. في مستوطنتنا يصعب القول من هو والد هذا الطفل. هذا لأن الكل فقراء جداً"

"وماذا في ذلك؟" قال كلوتشاريف بهدوء "أنا أتكلم عن كيفية تدوين اسمي في سجلات الكنيسة. تقول السجلات: أنا ابن ماكار كلوتشاريف، إذاً ذلك ما يجب أن أكونه. أنا لست أغنى ولست أفقر رجل على أي حال". استدار نحو ماتفي وتابع قائلاً: "لقد زرتُ أماكن بعيدة. تأرجحتُ على سرج الفروسية خمس سنوات. شربت وثلمت في مئة بلدة. مرة كنا نعسكر في رومني وكان هناك أوكرانيون وبولونيون لا يفهمون أية كلمة. ثم كنا في بينسك. كان المكان يعمج بالمستنقعات البليدة مثل مياه الخنادق. لا يعرف الناس كيف يجدون مكاناً يعيشون فيه، وكانوا محشورين في أماكن تجمع فيها الكل. شيء مضحك. حين تركتُ الفروسية انضممتُ إلى فوج إطفاء. إطفاء النيران - تمتع، ألا تعتقد ذلك؟"

مشت الكلمات القائمة إلى المطبخ، وألقت سحراً كثيراً فوق الجميع حتى الحنافس التي خلف الموقد زاد هدوؤها.

"حتى وأنا صبي أحببت إطفاء النيران. كان الرفاق الآخرون يشعلون الكوانين وكنت أطفئها. كنت أرمي الرمل فوقها".
"لماذا؟" سأل ماتفي.

"ولماذا لا؟ إن الضوء في النهار كافٍ بدون حرائق، وفي الليل المقصود منه أن يكون مظلماً"

"ما صنعه الله كله يجب على الإنسان ألا يغيره" قال شاكر مضيفاً مع ابتسامة. "لكن حين يحرس راعي القطيع خيوله في ليلة مظلمة ويعوي ذئب، حيثئذ يحتاج إلى النار"

أحياناً كان بوشكاريوف يحدثهم عن خدمته في الجيش مستخدماً كلمات بات ماتفي معتاداً عليها مثل "سبي بروتن" و "قبة عسكرية" و "رصاصة خارقة" كان غالباً ما يدخل في جدال مع كلوتشاريف وكان يهز كتاب حساباته عليه:

"أنت جندي رائع!" صاح باحتقار مرة.

"وماذا عنك نفسك؟ أنت تلف الحبال فقط" رد رجل الإطفاء برباطة جأش.

"وما هي علاقة الحبال بها؟ إنها عمل. كل امرؤ يجب أن يقوم بوظيفته. كل وظيفة تؤدي إلى خدمة الدولة، خدمة روسيا. وما هي روسيا، هل فكرت بذلك في حياتك كلها؟ ليس هناك نهاية لها، روسيتنا هذه، سهوب ومستنقعات وصحارٍ، هل يجب أن نمر أم لا، أنت أيها الأحمق؟ لا يوجد هناك شيء، روسيا ليست في حاجة إليه. أنا أعرف. لقد قطعت هذه الأرض من أولها إلى آخرها. هناك عمل لمتي سنة قادمة. لهذا شمر عن ساعديك وركز عليه. حين تعمل وتكون هناك وفرة في كل شيء لكل شخص، يمكنك أن تتوقف. تلك هي روسيا من أجلك"

"أنا سعيد بما أكونه، ليس لي نفع للحبال - لا أريد أن أصبح أي أحد"

"أوه، ليس بك فائدة لهم؟" صرح بوشكاريوف، وهو يتلوى من الغيظ
"أنت سعيد بما أنت عليه. أليس كذلك؟ فكر بذلك الآن! سفينة بلا ميناء،
إليه؟ تذهب أينما تهب بها الريح؟ دودة. هذا ما تكونه أنت!"
"رجل إطفاء، ذلك ما أكون!"

"لأنك كسول جداً لفعل أي شيء غير ذلك. بمقدوري أن أكشف
حيلك. لدينا حريقان أو ثلاثة أو خمسة على الأكثر في السنة، وكلها ليست
كبيرة، لهذا فكرت بينك وبين نفسك: تلك هي وظيفتي، في فوج الإطفاء.
ليس هناك ما أفعله سوى الوقوف على برج المراقبة وإحصاء المغفلين"
بينما كان يتشاجران، لعب التري الداما لوحده، عاقصاً للأعلى عيناً
واحدة في البداية ثم العين الأخرى بعدها. جلس ماتفي يستمع إلى كلمات
الجندي العجوز وهو يراقب وجه رجل الإطفاء الهادئ، ويحاول أن يقرر
أيهما كان محقاً.

"كل إنسان عليه أن يقوم بعمله، ذلك هو القانون. العمل هو الشيء
الوحيد الذي يعطي للشخص الحق بأن يعيش"
زعم بوشكاريوف، وهو يقطع بحبات الحاسب، وخبط الطاولة
بقبضته، وكشط حذاءه بأرض الغرفة.

"أنا لا أكثر إطلاقاً بكل ذلك" قال كلوتشاريف متشدقاً من خلال
لحيته. "كل ما أهتم به ألا يضايقني أحد. كل وظيفة تصل إلى النهاية
نفسها. تموت إن عملت، تموت إن تهربت من عمل الواجب"
تذكر ماتفي الأغنية المفضلة للطبيب المرح صغير الحجم:

القس سوف يموت
والجندي سوف يموت

هو وحده لا يموت

من يفعله الموت.

شعر الشاب بمخالب الاكتئاب الخشنة تسلبه. اشتاق للذهاب إلى السرير والنوم لمدة أسبوع أو شهر بل سنة.

رياح ناحية لعبت فوق الحقول مغطية التلال بأجنحتها البيضاء، دافئة البلدة في انجرافات عظيمة من الثلج. عوت الذئاب الجائعة في الليل، وردت عليها كلاب أوكوروف الجبانة بالنباح. نادراً ما خلت السماء من غيوم رصاصية، لكن تلك اللبالي كانت مجيدة حين تكون قبة السماء عميقة تهتز باللون الأزرق، مخترقة حتى أعماقها بأشعة النجوم الذهبية، بلورات الثلج تلالأت بالفرح، كأن الأرض التي تنتظر تحت لحافها الطري الناعم انبعثت الربيع، رشت بغبار النجوم. انحنى أغصان الأشجار المحملة بالثلج بتواضع، كل غصن فيها ازدان بشريط من الندى وترصع بالأماس والزمرد. الصليبان الذهبية للكنائس تحولت إلى فضية، الأعشاش ارتدت قلنسوات بيضاء مديبة، توضع الثلج في عروق سمكة على ضلوع الأسقف وتدل في طبقات فوق الخواف، حيث نحتت الريح في نماذج عجيبة. كان الهواء الصقيعي البارد ناقلاً حساساً للصوت: نقيب الغربان وتغريد الطيور المرح وزقزقة عصافير الدغماش المضحكة، كانت تُحمل من طرف إلى آخر في البلدة، لكن الصمت نجمد على التلال المحيطة. استلقت أوكوروف كما لو كانت على فرس سباق فضية نحتها الصقيع ونقشتها الريح.

على جليد نهر بوتانيسا بدأت الملائكة السنوية. كل يوم أحد بعد وجبة منتصف اليوم، يأتي الأولاد المراهقون راكضين من مستوطنة الحرفيين التي

توضعت مطمورة حتى سقفوها في الثلج، وبعد أن عبروا النهر كانوا يصيحون من قاع التلال:
"اخرجوا وقتلوا!"

لبس بعضهم سترات أمهاتهم أو أخواتهم والتف آخرون بشالات، وارتدى الكثير منهم أحذية آبائهم القاسية. قسم منهم كانوا بلا قبعات ربطوا رؤوسهم بمناديل، أغلبهم كانوا بلا قفازات. على التل واجهتهم عصابة معادية من أهل البلدة في ثيابهم الدافئة. سخر صبيان البلدة من صعاليك المستوطنة:

"ازحفوا واخرجوا من تنابر أمهاتكم أيها الخنافس!" صاحوا قائلين
"اصعدن أينها السيدات! سوف نصنع هريساً من أكوازكم (وجوهكم)
هذه!"

أخذ صبيان المستوطنة القتال على محمل الجد. تسلقوا سفح التل الجليدي في تشكيل مغلّق، ممسكين بأيديهم العارية بتتواءات الأرض المتجمدة.

في هذا اليوم حاول صبيان البلدة صد الهجوم برمي أعدائهم إلى أسفل التل، لكن الأمر كان خطيراً: فلو أمسك صبيان المستوطنة بسيقانهم المتعلة أحذية عالية الرقبة وعجزوا عن التمسك بمواقعهم، سيندرج الاثنان إلى أسفل التل معاً. تراجع صبيان البلدة بالتدريج مفسحين المجال للغزاة للوصول إلى شارع بورشنايا؛ حيث بدأ القتال المرح.

"لا تخلصوا الصفوف يارفاق!" صاح صبيان المستوطنة الذين تقدموا إلى الأمام كجدار أصم. "أعطوها للمفرورين"

كانوا أنحف وأسرع من صبيان البلدة، ولكونهم تلقوا ضرباً من آبائهم أكثر مما تلقاه خصومهم، فقد اعتادوا على الإصابات وتعلموا تحمل الألم.

استخدم صبيان البلدة المكر في معاركهم مثل آبائهم. أرسلوا خمسة أو ستة من أشجع مقاتليهم في مقدمة صفهم. وحين جعل صبيان المستوطنة صفهم كإسفين، انطلق صبيان البلدة على أجنحتهم، لكن صبيان المستوطنة تعلموا هذه الخدعة وتصدوا لها وذلك بقيامهم بتراجع سريع، وأمسكوا بصبيان البلدة في شبه دائرة، ودفعوهم إلى الخلف نحو السوق، حيث ضربوهم وصرعوهم هناك بقبضاتهم العارية.

تجمع حشد من صبيان البلدة من الأكبر عمراً في السوق فوراً، وكانوا ينتظرون دورهم للانضمام إلى الشجار. توقفت الجبهتان المتخاصمتان، وأطلق الصبيان الشتائم وعبارات السخرية من بعضهم البعض.

"هل يكفيكم هذا؟" صاح أولاد المستوطنة وهم فخورون بنصرهم.

رد صبيان البلدة بالإنشاد معاً وبصوت خشن:

خنازير المستوطنة أصحاب البطون المتفخة والعارية

يبيعون بناتهم مقابل قينة من الخمر

رد صبيان المستوطنة على ذلك:

الرجال الذين يعيشون في البلدة يطهون أمهاتهم ويشربونهن

رنت أصوات شابة في الهواء وقُذفت نعوت قبيحة للأمام وللخلف.

"متسولون!"

"زبالون!"

"لصوص!"

"أنتم اللصوص!"

وفرت معركة الكلمات استراحة قصيرة للمقاتلين، لكنها أشعلت غضبهم في الوقت نفسه. أخيراً، رموا أنفسهم على بعضهم البعض مرة أخرى، نخلوا وفحوا وحطموما أنوف بعضهم بعضاً ومزقوا شفاهمهم. كان الصبيان الكبار يراقبونهم الآن، كل صبي منهم كان متلهفاً لعرض قوته وجراته ورشاقته الآن.

تحت مظلة الدكاكين، وقف المتفرجون، كثيرون منهم من أمثال كولوكونيكوف واثنان من آل ماكلاكوف ولوكسميث كويتيف ورجل الإطفاء البدين سيفاتشيف، وكانوا كلهم من المقاتلين المشهورين.

ارتدوا كلهم قفازات دافئة بأيديهم ومعاطف مناسبة للقتال: جلود خرفان قصيرة من الجلد الرقيق ربطت بإحكام بنطاقات ملونة زاهية. كانت قفازات ماكلاكوف الأكبر من الجلد الناعم الأخضر.

بين الفينة والأخرى، يركض شاب من الخط بأنف مكسور أو شفة مشقوقة. يصعد إلى المتفرجين يبصق على الثلج ويذل كل قوته ليمنع دموع الألم والكره والأذى. ييازحه عمه أو أبوه أو أخوه الأكبر قائلاً:

"تقدم واصرخ أيها المغفل! انظر كيف لوى خطمه!"

إن بكى الصبي يهزه أحد أقاربه من شعره أو أذنه ويقول له:

"انتبه، الزعيق ممنوع! بمجرد أن تكون في القتال يمنع الزعيق أيها

الجرأ!"

ظهر أولاد من المستوطنة أكبر عمراً أيضاً.

"هيه، أنتم" كانوا يصبحون بأولاد البلدة من حيث وقفوا خلف خط

مقاتليهم. "تعالوا! دعونا نر من أي مادة أنتم مصنوعون!"

"لا نجبنوا الآن!"

تقدم ميشكا كلوشارييف ابن أخ رجل الإطفاء واخترق خطه. كان نحيلًا وذا قوام جيد وفي السادسة عشر من عمره.

"ارجعوا!" صاح قائلاً بصبيان البلدة وهو يبعثرهم بيده كما لو كانوا عصافير. تراجعوا باحترام وهرب بعضهم إلى الصبيان الأكبر عمراً، وهم يشتمون مذعورين.

"تقدم ميشكا كلوشارييف إلى الأمام، أقول ها هو هناك، هل ترونه؟" رمى ميشكا ثيابه البالية ونزع قبعته وقذفها إلى الخلف وصاح متحدياً:
"تعالوا أيها الخنازير! من يريد منكم منازلتي؟ هيا يا أسراب الدجاج!"

كان شعره واقفاً على رأسه المدور مثل رصاصة، أنفه قصير ومعقوف كمنقار بومة، شفتاه مشدودتان إلى الأسفل بازدياء، وقف مفرشحاً رجلبيه ويداه على وركبيه، مواجهاً العدو، محملاً بهم بعيون شاحبة فيها شرارة قبيحة.

عقد صبيان البلدة اجتماعاً تشاورياً طويلاً. كان متوقعاً منهم أن يرسلوا صبياً بعمر ميشكا، لكن الصبيان الذي في مثل سنه كلهم كانوا خائفين من قبول التحدي فهم يعرفون براعته.

أخيراً تقدم بازونوف الضخم بوجهه الواسع. ضحك الصبيان وأطلقوا الصفيير. (في الربيع سيبلغ عمر بازونوف التاسعة عشرة).

"انظروا إلى المعجوز الذي أرسلوه!"

"اضبط أعصابك، يا جدي"

شعر بازونوف بالخجل. استدار نحو الخلف وصاح:

"اذهب أنت يا فاسيا! أو أنت يا كولوغوروف!"

"من بعدك" رد كولو غوروف وأضاف بصراحة "حاولت مرة، أنا
لست ندأله"

"هل ترضى أن تنازلي؟" سأل بازونوف ميشكا دون أن ينظر إليه.
"أقتل أباك" قال ميشكا متباهياً "هيه، يا رفاق"، صاح في صفه
"أخبروا شبيخي أنني أرسلت إليه كفني قبل أن أموت"
عبس بازونوف واتخذ هيئة قتالية، قدم قبضته اليسرى وحنى كوعه
الأيمن.

طقطق الثلج تحت وطأة قدميه، ساد صمت شديد، انضبط كلا الصفيين
في حلقة حول المتعاركين.

"وسعوا الدائرة!" صاح أحدهم "أفسحوا لها مجالاً أوسع"
ظل ميشكا ينظر إلى خصمه بعينين حادتين. كان ذراعه الأيمن ينطلق
من حين لآخر ويتفاداه بازونوف فيرفع ميشكا ذراعه ليحك رأسه.
"لا تخف" قال "لن أقتلك - فقط سأدفع أنفك إلى داخل أذنك. هذا
كل الأمر! تابع أرجحة ذراعك بتلك الطريقة كأنك تصنع عجينة أو تصطاد
ذباباً، وسأظل مرتاحاً حتى أشعر بالبرد الشديد. يا لها من قبضة تلك التي
لك! إنها تزن أكثر من طن! يا لزوجتك المسكينة!"
"أنت المسكين!" زجر بازونوف.

أرسل صبي المدينة ضربة صحيحة، تفادها ميشكا وأعطاه ضربة سريعة
على ذقنه من الأسفل.
"كيف تشعر الآن؟" قال.

قذف بازونوف بنفسه عليه وهو حائق ويتأرجح بشكل مجنون، بينما كان
صبي المستوطنة الرشيق يتفادى ضرباته.

"لا تفقد أعصابك يا بازونوف! ما المشكلة معك، هل جنت؟ اثبت!"
صاح أهل البلدة.

"لا تفقد أعصابك!" أضاف صبي المستوطنة وهو يرقص حوله مثل كرة من المطاط حتى انحني للأسفل وأوقعه فجأة عند قدميه ونطحه على صدره برأسه وبقبضته على البطن. أطلق المتفرجون من المستوطنة صيحات وصفرات البهجة، أما أهل البلدة فمدحوا المنتصر بقوة.

"إنه وحش سريع"

"هو كذلك بالتأكيد!"

"بازونوف مجرد طفل صغير بجانبه"

جلس بازونوف على الأرض وهو يلهث.

"هل تسمي ذلك نزالاً؟" زججر. "يئز حولك مثل بعوضة"

"نعال يا كولوغوروف! أنت التالي!" صاح المنتصر فخوراً.

"أنا لا أحب القتال لوحدتي"

"أوه، أنت لا تفعل. أليس كذلك؟"

"أحب القتال ضمن الصف"

"أم تحب الاستلقاء على السجادة بجانب الموقد؟"

"على السجادة، على السجادة، جلس هر بدين! ربة البيت جلبت المقص وقضمت أذنيه!"

ثار هرج ومرج قليلين وسط أهل البلدة وهممت أصوات.

"انتبهوا أيها الرفاق!" صاح كلوتشاريف بصبيان المستوطنة "نعال يا فيديا! وأنت يا غريتشا وفوما! قفوا بجانبني!"

فجأة وبتلويع بالقبضات، اندفع هو وأصدقاؤه وهجموا على صبيان البلدة.

"عليهم يارفاق!" صاح. "لا تخافوا! انتزعوا أحشاءهم!"

تطايرت القبضات وسقطت الأجساد وطحنت الأسنان وأمطرت اللكمات الصدور وظل الأولاد يركضون إلى خارج الشجار ليصقوا الدم من أفواههم أو يعطسوه من أنوفهم.

"استمروا!" جاء صوت ميشكا الرنان.

كان النزال في ذروته، زوج من المقاتلين اشتبكا وضربا بعضهما بكل ما أوتيا من قوة، وكان كل منهما مصمماً على التغلب على خصمه.

"حطموا صبيان المكسرات" صاح أبناء الحرفيين.

"لا تفروا!" صاح كولوغورف وبازونوف، لكن صبيان البلدة تراجعوا عاجزين عن الصمود بوجه الهجوم السريع والموحد الذي شنه الخصوم.

وهكذا كانت النتيجة منذ زمن بعيد وبقدر ما يتذكرون. أولاد المستوطنة يفوزون دائماً بمعركة السوق ويدحرون صبيان البلدة ويطردونهم حتى باحة الكنيسة.

حين رأوا أبناءهم مهزومين، التفت رجال البلدة غاضبين إلى أبطالهم البالغين وقالوا:

"ماذا تنتظرون؟ ألا ترونهم يضربون صبياننا؟ انظروا إلى ما يحدث! آن لكم أن تتدخلوا!"

وهكذا وصل كوييتيف وتوكونيكوف والأخوة ماكلاكوف إلى وسط صبيان المستوطنة واندفعوا إليهم بكل قوتهم وبعثروهم مثل لعبة القناني الخشبية على الأرض.

"هاها! الآن سنريهم!" ضحك المتفرجون سعداء، وهم يشجعون طرفهم ويقفزون للأعلى والأسفل في فرح ويركلون الصبيان الذين يقعون على الأرض.

"لا تركل رجلاً ملقى على الأرض. أنتم أيها الوحوش!" صاح الضحايا وهم يزحفون جانباً، حيث كانوا ينتظرون - أذرعهم فوق وجوههم ليحموا أنفسهم من ركلات رجال البلدة - فرصة للاندفاع إلى النهر.

أصيب ماتفي بعدوى هياج أبناء بلدته، فهلل لانتصارهم وركض وراء المقاتلين ضاحكاً. لكنه حين رأى الرجال يركلون الصبيان وهم على الأرض توقف ومشى بعيداً. أحب أن يصرخ "ذلك ليس عدلاً!" لكن شجاعته خائنه وعرف أنهم لن يصفوا إليه في كل الأحوال.

اندفع ميشكا كالأفعى بين السيقان الطائفة، فيديا أورديتسيف، ابن أشهر مقاتل في المستوطنة، تدرج مثل البرميل فوق الأرض يلهث بالغبظ ويفرك الثلج على وجهه النازف. كان صبيان المستوطنة في حالة ذعر، خلخلوا الصفوف واندفعوا بعيداً كأن الريح بعثرتهم.

"هوراه!" زار المنتصرون هاتفين على قمة الجسر ومن السفح الجليدي أنت صبيحة رجال المستوطنة:

"اثبتوا يا أولاد نحن قادمون!"

كان النهار الشتوي قصيراً في هذا الوقت، وكانت الظلال الزرق تتجمع فوق النهر حاجبة منظر المستوطنة. الطيور التي أزعجها رنين أجراس الكنيسة طارت من أعشاشها في برج الأجراس وتزايدت شدة البرد.

تحرك رجال المستوطنة فوق الجليد دون استعجال. لاحظ رجال البلدة الذين كانوا ينتظرون على حافة الجسر من كان وسط المهاجمين.

"هناك سترليستوف، الشيطان الماكر!"

"هل ترون كفاشنين؟"

"ها هو هناك على الجانب"

"اللعنة إن لم يكن ماسيدون معهم"

"اورينتسييف على رأسهم"

"يبدو أنهم ظهروا كلهم هذه المرة"

"هيه أيها الرجال!" صاح الإسكافي ماسيدون الذي لم يعرف عنه أنه لم يكن ثملاً "انزلوا! نحن متلهفون لنحتفل ونسلي بكم!"

شد أهل البلدة أحزمتهم ونزلوا إلى أسفل السفع الجليدي.

"أنت يا كويتيف في الوسط وآل ماكلاكوف على الجانبين" قرروا وهم

ذاهبون.

"ضعوا سيفاشيف ويرمبل وتولوكونيكوف وبضع من الأقوياء الآخرين على الجناح الأيسر ودعوهم ينقضون على الخنازير بمجرد أن يبدووا بالانتشار.

"أنشعرون بالغثيان؟ خذوا الأمر ببساطة!" صاح رجال المستوطنة وهم يأخذون أماكنهم في الصف.

كانوا أفضاظاً ومرهقين جداً، الكثير منهم شربوا كثيراً جداً وكلهم سكارى، وغير السكارى منهم كانوا طائشين بالاستهتة. سخروا من أهل البلدة بحبوبة بالغة وبمهارة كبيرة، وكان هناك شيء ذئبي وبائس ومرعب في كل واحد منهم.

جاء نيسي ماسيدون يترنح في مقدمتهم وهو يزعم بأقصى طاقة رثية.

مقاتلوا أو كوروف يربون الدجاج - يتصارعون طوال اليوم مع
أصدقائهم - يحافظون على بقائهم رشيقيين - (لكن ليس فيهم النحيل) من
خلال سرقة دجاج أصدقائهم.

ثم سمع صوت آخر:

وجوه زوجاتهم تحمق باندهاش - القبضات لكتنهم وغبرت أشكالهم.
"هيه!" صرخ تولوكونيكوف بشراسة. "من منكم أيها الأوغاد يريد
أن يختبر قوته مقابل قوتي؟"

"مقابل قوتك؟ اليس ذلك جميلاً الآن؟ قبضتان متلهفتان لتقبيل
جسمتك!"

"إذاً، هيا تعال"

"هل أنت مستعجل؟"

"خائف؟"

"بررر - ساقاي تظلان تقفران خلف أذني"

"سأسوي أذنيك لك وأسطحهما"

"جيد! إذاً أنا لن أسمع المزيد من ملاحظاتك السخيفة!"

"حسناً، هيا لنذهب أيها الرفاق!" صاح لوكسميث كوبنييف وهو
يشد قبعته فوق أذنيه بكلتا يديه. "كلنا معاً! دعونا نلقن اللصوص درساً لا
ينسوه!" وأطلق صيحة متوحشة أثارت رفاقه "دعهم يذوقوها! هيا يا
رفاق! حطموهم وانتزعوا أحشاءهم من بطونهم!"

تدحرج رجال البلدة في موجة قوية ضد صف الحرفيين، القبضات
ضربت والأسنان اصطكت وسمعت أصوات الزئير والعواء التي تصم
الأذان.

تفهم أهل البلدة إلى الورا إلى ضفة النهر، وبدا كأنهم سينحشرون على
الجسر وستسحقهم عشرات القبضات الحديدية وتحولهم إلى عجين..
امتلاً الجو بصوت اللكمات والأنات والنفخات والصيحات المتوحشة.
بصق الرجال ونفوهوا بشتائم قاسية. هجم رجال المستوطنة بحنق على
وسط صف أهل البلدة وهم مصممون على اختراقه. طرحوا الرجال
الواحد تلو الآخر كما لو كان وراءهم جيشهم الحقيقي المخيف جداً.
عند هذه النقطة نادى فيديا أورديتسيف مندرأ:

"انظر يا أبي! إنهم قادمون من الخلف!"

فات الأوان. فقد انقض أهل البلدة الذي كانوا بقيادة رجل الإطفاء
وقلة من أفضل المقاتلين لديهم على رجال المستوطنة من الخلف. كان رجل
الإطفاء صغير الحجم وذراعه قصيرتان ورأسه بارز من بين كتفيه مباشرة،
رفع ذراعيه إلى مستوى كتفيه، ضرب خصومه في بطونهم وصدورهم
بسرعة لا تصدق ودفعهم إلى الخلف فأوقعهم أرضاً، وشق صفوفهم إلى
نصفين. هثوا وسقطوا عند قدميه مثل جذوع مقطوعة من الخشب.
"واو-وو" زعق بصوت عالٍ.

مقاتل المستوطنة سترليتسوف أوقعه وطرحه أرضاً، حين نطحه برأسه،
لكن هذا المقاتل أسقطته لكمة على رأسه وجهها له تولوكونيكوف.
"حطموهم!" صاح صبيان البلدة.

"تراجعوا!" صاح صبيان المستوطنة عند رؤية آبائهم وأعمامهم
وأخوتهم يدحرون ويرتمون مبعثرين.

في هذا الوقت وصلت المشاعر إلى دركها الأسفل، لم يستطع فيها الكبار
اللعب بنزاهة. وقف ضد كل رجل واحد من رجال المستوطنة الأقوياء

خسة أو ستة من رجال البلدة. انتهى التنافس وبدأت مشاجرة جماعية مفتوحة. تذكر الرجال فيها الإهانات والأضرار السابقة والشجارات والغيرة والاحقاد التي كانت مضمرة في القلوب. هذا جعلهم أشراراً وقتلوا بضراوة حيوانات برية.

"تراجعوا!" صاح رجال المستوطنة المبعثرين في محاولة عقيمة لتوحيد قواهم، لكن صفوفهم تفككت إلى مجموعات صغيرة، طاردها رجال البلدة في شوارع المستوطنة الضيقة ومن وإلى الحقول وفي الكشبان الثلجية.

حين تدفق المنتصرون في شوارع المستوطنة تغنوا بأغان فاحشة عن زوجات الحرفيين وبناتهم وبصقوا على زجاج النوافذ وفتحوا بوابات الفناءات وأهانوا كل امرأة قابلوها.

اعترف ماتفي أن كل اللون والجمال اللذين وجدتهما في التنافس من قوة ورشاقة وازدراء للألم واللكمات المسددة جيداً والملاحظات الذكية والمتعة الراقية، تلاشت كلها ومن كل طرف فاض جدول موحل من البغض الأسود الموجود عند طبقتين من الناس لم تفهما وتطيقا بعضهما بعضاً، هو نفس البغض غير المفهوم الذي يقع بين الفلاحين وأهل البلدة في أيام السوق.

يحدث دائماً أن طرفاً أو آخر، يصبح شكاكاً بمقاتل بعينه من صف العدو، يسحبونه ويفتشونه وعند وجود ثقل رصاصي أو زوج من القضبان البرونزية في قبضته أو أكمامه كان يُضرب بلا رحمة لانتهاكه قوانين القتال.

حين اشتبك الطرفان في آخر مرة، سمع ماتفي زئير وعواء المحاولة اليائسة النهائية. أدرك بقلب خائر عدم وجود أي شيء مشترك بينه وبين هؤلاء الناس.

بين حين وآخر، وهو غارق في الغم وحيداً ومنعزلاً، كان يحسدكم، فقد ملأته الصيحات المتوحشة وتشوق لرمي نفسه وسط الشجار والضرب بلا رحمة حتى تخور قواه.

وجاءت تلك اللحظة التي أجبر فيها على القتال: في طريق عودته إلى البيت هاجمه بعض من مقاتلي البلدة المرهقين. رأيهم يصقون دماً أحمر في الثلج ويتحسسون أسنانهم المخلخلة ويتلمسون الانتفاخات التي تحت عيونهم. سمعهم يحاولون كتم الألم في صدورهم وينخرون وهم يتحسسون أضلاعهم.

في شارع بورشينايا أمسك ثلاثة شبان به.
"الآن من يكون هذا باعتقادكم؟" تشدق أحدهم قائلاً.
"كوجيمايكين" قال آخر.

"كو-جي-ما-يك-ين؟ من يكون كو-جي-ما-يك-ين؟"
"ابن سيفلي" قال الثالث ضاحكاً.

"سيفلي؟ من يكون سيفلي؟"

"دعوني وشأني!" صاح ماتفلي غاضباً، ورأى أن ماكلاكوف وخريابوف وكولوغوروف هم من كانوا يبادرونه بالكلام.
"ابن سيفلي أم ابن العاهرة؟" قال خريابوف هازئاً.

كان ماتفلي دائماً يحتقر هذا الشاب بسبب مزحه اللفظ والآن أثار غضبه بسبب سخريته المهينة. لف ساقه إلى الوراء وركله في بطنه بكل ما أوتي من قوة. سقط الشاب على الأرض وهو يلهث، وتابع ماتفلي طريقه دون أن يقول كلمة، لكن كولوغوروف وماكلاكوف رميا نفسيهما عليه من الخلف وأوقعاه أرضاً بلكمه على أذنيه وبدأ يركله في البطن وهو ملقى.

"إذا أنت تركل، أليس كذلك؟ وفي البطن؟" صاح.

تمسك ماتفي بمعطفه، لهذا لم يستطع أن ينهض، وتابعا ركله، مستهدفين وجهه. عاد إلى البيت مهلهلاً ومخمشاً ونازفاً بعينين مسودتين. وحين كان يغسل نفسه في المطبخ سمع ناتاليا تنتحب.

"يا الله! ما الذي فعلوه بك؟ من هم؟"

بها أن ماتفي تجاهل السؤال، رد بوشكاريوف.

"رفاقنا، طبعاً، من المستوطنة. هو من أهل البلدة لهذا من الطبيعي جداً أن يهاجموه. حسناً، هذا نزالك الأول أيها الصبي، وهو شيء جيد. كم كنت أحب القتال حين كنت في مثل عمرك!"

توقف ماتفي عن الذهاب إلى النهر ونحاشى الساحة الوسطى، فهو يدرك أنه لو التقى بخريابوف ورفيقه فسيتورط في قتال آخر. أحياناً، قبل النوم، كان يركع خافضاً رأسه للأسفل، وذراعه مسبلتان على جانبيه، الوضع الذي اتخذته ببلاجيا حين ركعت أمام والده في ذلك اليوم الذي يذكره، ويتمنم بكل الصلوات والآيات التي يعرفها عن ظهر قلب. كان المصباح الزيتي يغمز مستجيباً وهو ينير وجه العذراء الحزين. الجهد الذي بذله في الصلاة أنعبه وأحل السلام في قلبه.

ظهرت مغنية جديدة طويلة ونحيلة مثل شجرة بتولا في الجوقة. ذكره لطف نظرتها ببلاجيا. وعندما استقرت عينها على وجهه مرة في أحد الأيام، شعر بالامتنان. ذكره فمها الصغير والمشرق ببلاجيا أيضاً، وحين أنشدت "يا رب كن رحيماً....، في صوت عالٍ وواضح، شعر أنها كانت تطلب الرحمة من أجله، وتذكر أمه التي قادها إشفاقها على رفاقها البشر إلى

الهروب إلى الغابات لتصلي من أجلهم، وربما ماتت من أجلهم منهكة من كثرة الصلاة حتى.

بدت المغنية، بردائها الكهنوتي الأسود وغطاء الرأس، مثل برج أجراس صغير دقائقه الفضية تدعو الناس إلى حياة من السلام والهدوء والحب. حين وقفت هناك في شرفة الكورس بدت معلقة في الهواء، ارتسم شكلها بوميض الأضواء الصغيرة ودخان البخور الشفاف. الملامح القاسية للأيقونات المزينة بالفضة والمضاءة بمصابيح خفيفة، استدارت إليها بنفس الانتباه الذي أبداه ماتفي.

شعر أنها اكتشفت نظراته المثبتة عليها، فقومت جسدها النحيل وكأنها تجاهد للصعود إلى الأعلى أكثر، وأصبح صوتها أقوى وأحلى كأنها متلهفة لتشجيع أمل هش مثل ندفة ثلج. وجهها الشاحب وجسدها المكسوف في تلك الثياب السود الكتيفة استحضرا خيالات: تخيل ماتفي أنها في يوم ما ستخلع عن نفسها تلك الثياب السود وتظهر أمام الناس طاهرة وجميلة مثل البجعة البيضاء في الحكاية الخرافية، وستمد ذراعين قويين وتقول في صوت فاسيليسا الحكيمة:

"أنا أم الخلق!"

بعد ذلك سيفغر الناس عار كبير وسيذرفون دموع الندم وينحنون أمام حكمتها وجمالها، وتبدأ حياة جديدة يلهمها الحب.

لم يسأل ماتفي أحداً حول من تكون المغنية الجديدة أو من أين جاءت خشية أن يسمع شيئاً كان يفضل ألا يعرفه. حين سألته حمالة الدبر تايسا بابتسامة لطيفة "هل سمعت منشدتنا الجديدة؟" أسرع بانحناء بسيطة وتغم "نعم، صوت جميل. طاب يومك"

بعد ذلك اختفت المنشدة، ولم تحضر صلاة السبت المسائية ولا حتى صباحية الأحد أو صلاة المغرب.
ربما كانت مريضة.

لكن في مساء عيد السيدة سمع ناتاليا التي تعرف كل أقاويل وإشاعات البلدة وهي تروي القصة التالية بوقار كبير:

"إنهم أغنياء، آل شيرنوزوبوف، أعني الناس في ابوزيد، قواربهم وطوافاتهم تبهر ذهاباً وإياباً في القولغا. يتاجرون بالأخشاب ولديهم منشترهم الخاصة. لهذا كنت أقول، حالما رأى حماها في المستقبل أن ابنه الأصغر كان متيباً بها أعني كاترينا!، وضعها في ديرنا ثم عاد الابن الأكبر إلى البيت (رجل بعين واحدة، ذهب لصيد البوم حين كان ولداً واقتلعت عينه) سأل "أين كاترينا" فأخبره المعجوز الشيطان أن ابنه الأصغر كان يمارس الحب معها"

"إيغور" قال ماتفي (والابن الأكبر هو ليفون).

"إيغور" قالت ناتاليا "وهكذا ذهب ليفون إلى المنشرة، حمل قضيباً حديدياً ولحق بأخيه. ضربه على صدغه مباشرة فسقط الصبي ميتاً، ثم جاءت الشرطة وموظفون مختلفون وسواهم وأخذوا كاترينا بعيداً تحت الحراسة لاستجوابها"

"هل تتكلمين عن المنشدة الجديدة؟" سأل ماتفي بوهن.

"هي بعينها. وهناك إشاعات سيئة في الخارج تقول إنها كانت على علاقة بالرجل المعجوز، حماها في المستقبل قبل ذلك. من يدري؟ إنها يتيمة ويمكن أن يحدث أي شيء لليتيم"

وقف ماتفي في مدخل الباب مستنداً على قوائم الباب بيدين ممدودتين كأنه مصلوب.

"تلك كذبة - كذبة" تتم قائلاً.

بدأت ناتاليا دفاعاً حماسياً حول تصريحاتها، لكنها مشت مبتعدة. ذهب إلى غرفته الخاصة ووقف ينظر إلى الخارج من النافذة. بدا له أن أبخرة سامة كانت تتصاعد من حوله وأن الخريف عاد، وعلق في الجو ضباب كثيف ابتلع المربع الساطع للنافذة ولمعان المساء الربيعي.

في اليوم الأول من أسبوع الفصح الشرقي ذهب إلى المقبرة وقبّل الصليبان التي على قبر بيلاجيا وقبر والده، وملاه فرح هادئ حين رأى أن الشجيرات التي زرعها مدت جذورها في الأرض. امتلأت العصي الرفيعة لشجيرات البتولا براعم، ومن أطراف شجيرات الصنوبر انتشرت شموع صغيرة صفراء مزخرفة بالصمغ الذي كان بتلاً مثل الذهب في الشمس. ندف من الثلج كانت تنظر بخجل إلى السماء من العشب الذي غطى القبرين، زهور الربيع الحريرية تمايلت مع النسيم وبراعم الهندباء البرية تفجرت في هالات ذهبية.

كان الناس يمشون متمهلين بين القبور. من بعيد، رأى ماتفي رأس كلوتشاريف الشائب. كان منشد الجوقة حاصر الرأس، يدفع ساق زهرة إلى الورا والأمام بغصن صغير كأنه يريد أن يجعلها تنحني للشمس والتراب. قبل الرجلان بعضهما كما جرت العادة في عيد الفصح، وتمتم كلوتشاريف حول الربيع الذي أتى مبكراً هذه السنة.

"مَنْ مِنْ أقرائك مدفون هنا؟" سأل ماتفي وهو يومي برأسه نحو القبر.

"لا أحد"، قال، ثم نظر من وراء ظهره، "لنذهب. الجو رطب هنا"

أَلَقْتُ الصَّلْبَانِ ظِلًّا بَاهِتًا أَخَذْتُ فِيهِ خَضِرَةَ الْعُشْبِ الَّذِي سَقَطَتْ عَلَيْهِ.
"وحيد؟" سأل المنشد وهو ينظر إلى ماتفي بطرف عينه.
"ك-كلا،" قال ماتفي بعد وقفة قصيرة.

"كان شاكر محققاً حين قال نحن قوم وحيدون، نحن الروس" تابع
المنشد قائلاً: "وعزلتنا نجعلنا ننسج خيالات وأوهام وخصوصاً في هذه
الأصقاع"

"لكن شاكر أتى من هذه الأصقاع وهو ابنها"
شد كلوتشاريف قلنسوته فوق أنفه.

"هو وبوشكاريوف مختلفان، لكن لديهما شيئاً واحداً مشتركاً، إيمانهما
بالرب".

نظر ماتفي بدهشة.

"لماذا، أليس لديك إيماناً أيضاً؟"

"أنا لا أتكلم عن نفسي، أنا أتكلم بوجه عام" قال المنشد.

"ماذا تقصد بعبارة بشكل عام؟" سأل ماتفي.

"لا شيء بعينه" قال كلوتشاريف وهو يتشاءب، لكنه حين ألقى نظرة
حوله قال في نغمة تأمل غريبة: "لا أعرف كيف أعبر عنها بالضبط، لكن
انظر: هناك رب ويسوع المسيح وهناك قدر. إن كان هناك رب فلا يمكن أن
يكون هناك قدر. لا شيء سوى الرب. الرب في كل مكان ويأتي منه كل
شيء. لكن نحن لدينا رب وقدر وإبليس وشياطين وغيلان وجنيات الماء
وجنيات الغابات والضوء الأزرق في المستنقعات أيضاً. والقوم يؤمنون بها
كلها. دون تمييز بينها: ما يأتي من الرب وما يأتي من القدر. كاهنتنا الآن،
يؤمن بالغيلان بشكل أكيد كما أقف هنا ويؤمن بالقدر أيضاً." هذا هو

قدرك يا ياكيم! لا يمكن تجنبه" هذا ما يقوله لي دائماً. "كيف يمكن أن يكون هذا قدري إن كان هناك رب؟" سألته مرة. ضحك فقط وقال: "القدر مجرد لفظة". لوح كلوتشاريف بيده إلى الأعلى وقال بصوت مهدد: "مجرد لفظة؟" أعرف كلماتك تلك! أوه، لا، إنه ليس مجرد لفظة!"

فكر مانفي في الاستسلام الذي يتكلم الناس فيه عن القدر وعن الأقوال التي لا تخصي التي تنسب أشياء للقدر. هو لم يكن في مزاج يصغي فيه لخطبة حول الموضوع الآن، لهذا استأذن من المنشد وغادر.

بعد بضعة أيام سأله كلوتشاريف بطريقة عرضية مباشرة: "هل تخرج مع فتيات؟"

"كلا،" قال مانفي محمراً.

"ولماذا لا تفعل؟"

"ليس هناك واحدة أخرج معها". رد مانفي بصعوبة بعد لحظة من التأمل.

"أوه" قال كلوتشاريف في نغمة تشير إلى أنه وجد تعليلاً مقنعاً لكبح الشاب لشهوته الجنسية، وعلى الفور قدم عرضاً:

"تعال معي" قال. "لا تخف، سأهتم بك، سنذهب غداً، اليوم يعتبر ذلك إثماً لكن غداً....."

نظر مانفي إلى وجه الرجل الجامد وقال لنفسه "هل علي أن أذهب؟ هكذا ومنقاد مثل ثور إلى المسلخ؟ في الأمس كان يتحدث عن القدر واليوم عن هذا وغداً سيكون عن أحلامه...".

وجد مانفي أن التفكير بهذه الأشياء كريهاً، لكنه ليس معيياً. أصبح وضعه أن يعيش في عفة يزداد صعوبة عليه أكثر فأكثر، وكلما رأى نائاليا

فكر فيها كما كانت عليه في تلك الليلة البائسة حين أرسلتها بيلاجيا إلى غرفته.

بالتدريج فقدت ذكرى بيلاجيا سلطتها عليه في منعه من التفكير في غيرها من النساء، وكانت أفكاره تعذبه دائماً تقريباً.

في مساء اليوم التالي كان يجلس في غرفة في أحد أكواخ المستوطنة وهو يقوم بمحاولة عقيمة لإخفاء هيجانه. وبدأ السماور الذي كان منتصباً على الطاولة ينكمش ويتمدد رويداً رويداً وهو يطلق بخاراً "اس.س.س.س!" ولوى وجهه الأصفر اللامع في تكشيرة كثيفة. ألواح خشب الأرضية أصدرت صريراً. والخف المصنوع من جلد الماعز الذي تلبسه فتاة صغيرة أصدر صريراً وهي تندفع في الغرفة بسرعة للدرجة لم يميز فيها مانفي سوى صفائر سود وأكتاف بيض وثنايا تنورة وردية.

"الآن، تناول شرباً" ظل كلوتشاريف يحشه في صوت أجش "يجب عليك أن تشرب في مكان كهذا"

الرجل نفسه كان ثملاً مسبقاً، وأجلس امرأة ممتلئة على ركبتيه.

"دنياشا!" صاح "اجعليه يشرب!"

"لن يشرب من أجلي أي شيء"

"اجعليه يفعل ذلك"

فجأة ذهب المنشد وكان دنياشكا كنسته من الغرفة بتنورهما الفضفاضة المنتفخة.

"هل يمكنك أن أضع ذراعي حولك؟" سألت مانفي وهي تجلس بجانبه.

"نعم - نعم" تمنم قائلاً وهو يحول نظره جانباً.

وضعت ذراعها حوله وحدقت بوجهه بعينين فارغتين غبيتين.
"ما الذي يجعلك وقوراً جداً؟" سألت في اندهاش.
اقترب منها أكثر.

"الأمر..... ليس بهذه السهولة" قال بلا مبالاة "أنا لم أرك من قبل قط".

أطلقت ضحكة.

"وأنا لم أرك أبداً أيضاً"

بعد الليلة الأولى تلك، وبمهمة سامية، استمر في قيادة ماتفي عبر
المتاهات المظلمة للأعماق المنخفضة في أوكوروف وكان يأخذ مالاً مقابل
ذلك. كان يمسك النقود المعدنية بيده ويرفعها إلى الضوء أو يقلبها في راحة
يده قبل أن يدسها في جيبيه.

هو لم يطلب مالاً أو يتسول بل كان يأخذه كحق له، وقد فعل ذلك
مرات كثيرة، لذلك قال له ماتفي في مناسبات كثيرة:

"ألست تأخذ من المال أكثر مما يجب؟" زجر بوشكاريوف قائلاً.....

"لا تكثر بهذا الهراء! من يهتم؟" رد كلوشاريف، واستمر في شراء
الهدايا للصبابا ودعوتهم إلى المكسرات والكعك والمشروبات الكحولية.
من يهتم؟ كان الصلدي الأجوف الذي رن في قلب ماتفي ولحق بالمنشد
أينما ذهب كأنه يقوده بسلسال.

لاحظ ماتفي بدلاً يغمر كلوشاريف: أصبح أقل ثروة، وكان يشرب
دون أن يشعل، وقد استطال وجهه وتغيرت عيناه وبات يمشي بشكل أبطأ
يجر جر قدميه ويتعثر، وبدا له أنه يواجه صعوبة في جر ظله خلفه وكأنه بات
سميكاً وثقيلاً جداً.

كانت ناتاليا وقحة في حضوره. كلما لمح شاكر لحية كلوشارييف السوداء الكثيفة كان يزم شفطيه ويبتعد عنه. لقد برع بوشكاريوف في توبيخه.

"أنت ثانية أيها الشيطان" كان يقول.

"هل صحتك على ما يرام؟" سأله ماتفي مرة وهو يحس بوجود خلل فيه.

حرق منشد الجوقة بعينين ثقيلتين في البعيد للحظة ثم عوى بكلمة مألوفة جداً لأوكوروف:

"أنا ضجراً!"

فكر الشاب بوالده الذي أطلق هذه الكلمة الثقيلة المدورة بطريقة تجعل الأرض تهتز من الاستياء.

في أحد الأيام وبينما كان يتمشى في الحقول خلف الدير، انتعشت روح كلوتشاريف بما يكفي ليحكى للشاب قصة أخرى من أحلامه الكثيرة:

"وإن كنت ستصدق فقد كان البحر أمامي هناك!" قال بعينين واثبتين وهو يطوح بذراعيه. "المحيط! في بقعة واحدة كان هناك جبل ارتفع عالياً ليصل إلى الغيوم، وكنت هناك مرفصاً في منتصف الطريق إلى أعلى الجبل ويدي بندقية كما لو أنني خارج للصيد. فجأة، ظهر لي مخلوق بلا وجه تكسوه ثياب بالية وصاح بصوت عالٍ: هذا الجبل هو ذنوبي وعرش الشيطان. ثم وضع كتفه على الجبل ودفعه وأنا معه"

"هل ذلك عندما استيقظت؟"

لم يجب كلوتشاريف. شد نفسه إلى الأمام وهو يحمي عينيه بيديه ليحرق في التلال البعيدة.

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي تعالت صيحات في البلدة بأن أحد الأشخاص أطلق النار على نفسه وأردى نفسه قتيلاً في الحديقة خلف مركز الشرطة.

وضع كلونشاريف نهاية لأحلامه تحت وسادة قديمة ملتوية خلف كوخ مركز الإطفاء. انحنى تحت غصن سميك ثبته بخيط وربط البندقية بالخيط، شد خيطاً من الزناد إلى إصبعه وأطلق النار على نفسه في الفم، ناسفاً قمة رأسه. انتشرت قطع صغيرة من العظم مع شعر أسود حول جسده الطويل النحيل، التصقت بالكوخ خثرات من الدم مثل حبات كرز نضجت أكثر مما يجب، وعلقت كتل لحم رمادية من الدماغ بألواح الخشب المغطاة بالطحلب.

أحدث أفراد شرطة أو كوروف هرجاً ومرجاً عظيمين. جلبوا شمشون ليلم كسر العظام. كان الرجل المعجوز مخموراً جداً لدرجة لم يستطع الوقوف على قدميه، ولهذا جبا على قوائمه الأربعة وكانت حذبه تشير إلى السماء. وضع القطع في سلة من البلاستيك، وكان يهز يده في الهواء بعد وضع كل قطعة من القطع كما لو أنها كانت تحرق أصابعه.

"من يكون؟" سأل أهل البلدة بعضهم بعضاً بأصوات مرعوبة.

"يا مولانا القادر على كل شيء! إنه رجل الإطفاء!"

"الذي أنشد في عيد القديس نيقولا"

"الكل يعرفونه"

"نسف رأسه!"

"هؤلاء الحرفيون يدبرون أمراً ما دائماً" قال رجال في السوق.

"لماذا، هل كان حرفياً؟"

"أوه، رجل إطفاء - كلهم مثل بعضهم"

"كلا ليسوا كذلك. الحرفي لا يفعلها يوم الأحد. الحرفي كان سيختار يوم الثلاثاء).

"صحيح. فهو يكون ثملاً يوم الاثنين"

"ثم بعد ذلك يشنق الحرفيون أنفسهم"

(أقصد - لأنه أخيراً، كان ينشد في الجوقة"

"ذلك لن يفيد"

"إنه الرجل السابع عشر الذي وصل إلى نهاية كهذه في حياتي" قال
المعجوز خريابوف الواهن وعدّ على أصابعه كل المخمورين الذين تذكّرهم
والذين أغرقوا أنفسهم أو تجمدوا حتى الموت أو شنقوا أنفسهم أو أطلقوا
النار وأردوا أنفسهم أو ماتوا من مجرد الشرب.

كان بازونوف يهز خصلات شعره الرمادية المجمدة التي على رأسه
الأصلع ويرجعها إلى الوراء، بدأ بترنم بصوت كما لو كان يقرأ في سفر
المزامير.

"حين لا يكون هناك خوف من الرب في قلب الإنسان، فإنه لا يكون
إنساناً بل مثل دواب الحقل التي لا تجلب فائدة إلى الأرض"

كان الوقت شهر آب/ أغسطس وكثير من أوراق الصفصاف تحول
لونها إلى الأصفر. اثنان منها طويلتان ومديتان، توضعتا على ظهر
كلوشاريف. أشرقت الشمس منذ زمن طويل فوق البلدة، ولكن هذا
الركن الرطب من الحديقة كان ترابه مبللاً بالندى ومسوداً بظل الكوخ.

"نعال، دعنا نذهب إلى البيت" قال بوشكاريوف وهو يلكز ماتفي
برفق.

ذهبا. بدت الأرض تتمايل تحت أقدامها ووثبت البيوت الملونة ورقصت
تكثيرات الخوف والرعب وومض الاستسلام المزيف في النوافذ. كسر
صوت شاكر صمت الصباح المشرق.

"ذلك لأن الروس يطيلون التفكير، أليس كذلك؟" سأل شاكر.

"وكانك بمقدورك أن تفهم!" زجر بوشكاروف مؤنباً.

"أنا أفهم. أنا آسف. لماذا هو فكر بعدد كبير من الكلمات؟ كلمات كثيرة
خفيفة. ذلك، ذلك سيء جداً. كان خائفاً وقد أربع الآخرين"
"الجم لسانك!"

"لماذا؟" أصر التري بلطف. "لقد ضجر الروسي لأنه فكر بالكلمات. لم
يعمل ما فيه الكفاية. فكر بأشياء صعبة بشكل خاص. لم يكن يحب العمل"
"اصمت أيها الخنفس!"

لزم ماتفي البيت لمدة أسبوع تقريباً. شعر بالذهول وكأن الطلقة كانت
في داخل صدره هو، وحركت كل ما كان غامضاً ومزعجاً، كل ما أخذته
لامبالاته، لامبالاة شخص استسلم لحياة دون أن يخوض معركة. شكلت
انطباعاته نفسها آلياً، بقوة ثقلها الذاتي ضد إرادته، في كتلة غروية سميكة
ملأته بإحساس حزين من المعجز وأطفأت بسرعة شرارة أي احتجاج. أي
فكرة قد تعمق امتصاصه التدريجي إلى حياة فظيعة في رتابتها وجذب في
أحلامها وأهدافها - حياة أوكوروف القذرة التي يرثى لها.

من أجل تجنب الوقوع في أشراك أوكوروف التي يصعب الخلاص
منها وتفجر قيود الضجر التي تثير الغضب في البداية وتوقظ البهيمة في
الإنسان ثم تقتل روحه بالتدرج ونحطه إلى حالة من اللامبالاة البليدة،
يجب على المرء أن يبقى منابعه الروحية في حالة من التوتر الثابت ويمتلك

إيماناً لا يتزعزع في قدرة العقل. مثل هذا الإيمان لا يأتي إلا لهؤلاء الذين لديهم صلة حميمة مع الحياة السامية ولهؤلاء الذين بالنسبة إليهم تظل النيران السرمدية للآمال والطموحات التي تنور الأرض دائماً وأبداً مرئية وواضحة كالنجوم في السماء.

لم تكن النيران مرئية في أوكوروف.
كان الشتاء طويلاً ومملاً. عانى ماتفي من حرمان جديد. في أحد الأيام جاءت ناتاليا إليه وهي تركض:
"تعال يا ماتفي سافيليفيتش!" صاحت "هناك مشكلة عند بوشكاريوف"

كان الجندي العجوز جالساً على لفة كبيرة من الحبال في مدخل باب الحظيرة ومستنداً على العمود ويصق دماً.
"أمم-مم-نتم". يبدو أنني انتهيت يا ماتفي. أجهدت نفسي. كان يجب ألا أفعل. أظن أن هناك شيئاً في رثتي-"
"كان يجب ألا ترفع ذلك الثقل" علق أحد العمال الواقفين خلفه.
"انصرف!" نتمم الجندي بوهن وهو يمسح الدم عن شفتيه. "انظر لا يزال ينبجس..."

حاول أن ينهض، لكنه ترنح وكاد أن يسقط.
"شيء جميل" نتمم وهز رأسه معترفاً بالذنب. "لقد تناولت شرباً منذ سنة وهذا هو أثره البغيض"

حين حملوه، رأوا لفة الحبال التي غرقت في الدم وثيابه كذلك. أخذوه إلى المطبخ حيث رسم إشارة الصليب على نفسه بمواجهة الأيقونة وتمدد على المنضدة.

"انصرفوا" قال للعمال. "احضري الجليد أيتها الطباخة. سوف أمصه". خرجت ناتاليا. وحين ترك لوحده مع ماتفي قال له ببطء ووقار وقد تسمرت عيناه بفتحة الموقد القائمة "هذه هي النهاية. اعتمد على ذلك التتري يا ماتفي، إنه يعرف كل شيء، شاكر. تذكر ما قلته لك. حين يتعلق الأمر بالحيوانات، الأفضل هي الكلاب وحين يتعلق بالبشر التتر هم الأفضل. اعتنِ به وارفع أجره. آه لو لم تكن صغيراً جداً! ظننت أنني صالح لخمس سنوات أخرى لكنني كنت مخطئاً. هذه هي النهاية"

عقد حاجبيه وغمز عينيه. سقطت قطرات الدم على الأرض. جلبت له ناتاليا الجليد ثم وقفت نجھش في مدخل الباب.
"لماذا تقفين هناك؟ انصرفي"

حين ذهبت تكلم في لهجة خالية من العواطف: "كن طيباً معها، إنها ليست من النوع الرديء. شاكر أخذها في عهده، كن حذراً في تعاملك مع النساء. يمكنك نيل متعتك، لكن المرأة يجب أن تُحترم. إذا كنت تريد زوجة فابحث عن واحدة في مستوطنتنا، ربما هن فقيرات وشبه جائعات لكنهن يملكن أدمغة وذكاء أكثر من نساء البلدة هذه هي الحقيقة".

أغلق عينيه بوهن. أصبح وجهه مخططاً وقائماً كأنه حرق بنار خفية. تحركت أصابعه المعقوفة على ركبة ماتفي وأرسلت حركتها رعشات صغيرة في حبل الشاب الشوكي.

"هناك ضجيج في رأسه كأنه يعج بخنافس سوداء" قال بوشكاريوف "لا تتعجل بالزواج، النصيب محتوم وسيأتي من تلقاء نفسه.....".

وَدَّ ماتفي أن يريجه، لكنه وجد من العبث أن يكذب في لحظة كهذه ولهذا ظل صامتاً متألماً.

"عندما أموت" تابع الجندي في صوت واهن وأجش "اطلب إحضار الحلاق ليحلقني. لا تقم لي وليمة جنازية، أنا أعرف أنني لا أستطيع أن أهضم المتسولين والعلاقات المقملة. لي ابتنا أخ اثنتان: سافينكا وزسيما. يمكنك أن تعطيهما شيئاً ما في وقت ما"

"سأفعل" قال ماتفي بصعوبة.

"لا تعطهما الكثير جداً، ستأخذان كل مالك. ألبسني حلتي الرسمية مع كل الزينة والحبل. توقف عن البكاء"

"آسف، -" غص ماتفي.

"أعرف" قال بوشكاريوف دون أن يفتح عينيه "أنا آسف أيضاً، آسف لأنني أموت. لا تنس بخصوص اللباس الرسمي... أظهرني بصورة جميلة. ربما أقابل جلالته، القيصر نيكولاس^(٨).....". في انفجار مفاجئ للقوة أضاف بشكل واضح "اثنتان وسبعون سنة خدمته بأقصى ما أستطعت. أياً كان الذي فعلته فإنني قمت به بإخلاص. ذلك كله مدون في كتاب الرب. إن الرب قاضي أسمي وأرفع من أي قيصر". مرة أخرى سيطر عليه الضعف وشد كم قميص ماتفي "لماذا لم يأت القس؟ أنا في حال سيئة. أرسل شاكر في طلبه - أسرع!"

ذهباً. بدت الأرض تتمايل تحت أقدامهما، وثبت البيوت الملونة ورقصت، ومضت تكشيرات الخوف والرعب والاستسلام المزيف في النوافذ. كسر صوت شاكر صمت الصباح المشرق.

ركض ماتفي إلى المدخل الأمامي حيث وجد التتري في زاوية ويداه فوق وجهه وهو يتمتم لنفسه في الفناء. كانت ناتاليا تذرع المكان بلا هدف وعلم من صباحها المستيري أن الطبيب في نوم ثمل لم يستطع أحد إيقافه منه وأن

القس الذي من كنيسة القديس نيقولا ذهب لصيد السمك من بركة الطاحونة وقس كنيسة القديسة بربارة كان مريضاً إذ لسهه النحل ولا يستطيع فتح عينيه المتورمتين حتى.

حديق ماتفي من الشرفة عبر أبواب الحظيرة المفتوحة بالأرض التي زينتها لفات رمادية من جبال القنب.

أنا من سيهتم بفعل ذلك الآن، قال لنفسه.
شعر بأنه يعود إلى بوشكاريوف، كانت نافذة المطبخ مفتوحة وسمع الجندي يهمس وشاكر يتلفظ بهتافات كثيفة قصيرة:

"ارقد بسلام أيها الصديق الحقيقي"

ثم ظهر رأس التتري من النافذة.

"سيدي!" صاح قائلاً.

بدا الجندي متفتحاً أكثر منذ قبل، انتصب شعره الرمادي ولحيته مثل أشواك النيص وكست وجهه حلة قاسية وكثيفة وخلت عيناه اللتان غصتا بدموع الموت من أي بريق حياة. تقوست أصابع يده اليمنى لترسم علامة الصليب واستقرت على قلبه.

"إنه لا يسمع" قال شاكر وهو يدفع قلنسوة رأسه من أذن إلى أخرى.
"يده لا تتحرك"

"هل أنت هنا.... يا ماتفي؟" سأل الجندي "ضع أصابعي.... على شكل... علامة صليب...".

"لقد وضعتها مسبقاً" قال شاكر.

"صالب يدي.... على صدري.... أين القس، اللعنة عليكم؟"

سال جدول من الدم القاتم ونساقطت قطراته فوق أرض المطبخ ببطء.

سوف يتسرب إلى القبو ويتن، فكر ماتفي برعشة بسيطة.
كان فك الجندي مفتوحاً، لكن ظلت شفتاه تتحركان وتهمسان بكلماته
الأخيرة:

"بين يديك - لا تنسَ سافلتبكا وزوسيبا.... الوداع يا ماتفي. هل
شاكر هنا؟"

"هنا يا صديقي هنا"

كان التري واقفاً يحرق في راحتي يديه المفتوحتين ويهمس لنفسه كأنه
يقرأ من كتاب خفي.

"قل لعمك رحمة الله... إنني أشكره على صداقته. إن احتجت إلى أي
شيء، يا ماتفي.... اطلبه منه - رحمة الله... يستطيع فعل أي شيء.... رجل
صالح... أخبره... أنا سعيد لأنه كان صديقي..."

عند هذه النقطة وصل كاهن الدير الأشيب الطويل "أتركونا
لوحدها،" قال بلطف وهو ينظر نحو الرجل المحتضر.

"هل رأيت" قال التري وهو يجلس مع ماتفي في الفناء في الخارج "كم
كان الدم كثيراً. لقد عاش إلى آخر نقطة"

"سوف أفتقده" قال ماتفي بانفعال. "أفتقده بشكل فظيع. لم أهتم بهذا
القدر الكبير حين مات والدي"

"أنا أعرفه منذ أن كنت ولدًا صغيراً. الآن أنا نتري بالغ وأبكي.
أمسكني بين ركبتيه، تظاهر بأنه يلعب معي الناي والطبل. منذ عشرين
سنة، قال عمي لرحمة الله: "أنت روسي لكن لديك قلباً طيباً ورأساً حقيقياً.
رب واحد".

نظر ماتفي إلى التري وقال في نغمة متأذية:

"ألا تحب الروس؟"

"التري يقول الحقيقة: هو يحب كل الرجال الأخيار ويكره كل الأشرار. الروسي - لا يحب أحداً، لا الصالح منهم ولا السيئ. الروسي يكذب كثيراً. بوشكاريوف لم يكذب، كان يقول الحقيقة. شعبي أناس بسيطون، يحبون الحقيقة"

تابع التري الكلام، لكن ماتفي لم يكن يصغي. من خلال النافذة أتى صوت القس الناعم وهو يقوم بطقس دهن الزيت، كانت بعض الغربان فوق سقف بيت بوبنوف تنفث ريشها في الشمس.

خرج القس في الحال وقال ببساطة:

"يمكنكم الدخول الآن لنستأذنوه فقد شرع في الرحلة التي لا عودة فيها"

نادى شاكر العمال. نفشت الغربان ريشها ونظرت بعيون مشككة إلى الناس الموجودين في الساحة. ظهر العمال من كل جانب واتجهوا نحو المطبخ. مشوا وقد انحنت عيونهم نحو الأرض وأيديهم تشد أحزماتهم أو تنظف القنب من لحاهم.

حين دخلوا المطبخ سمع ماتفي ناناليا تقول بنفس مقطوع:

"يجب أن يضعوا نقوداً على عينيه كيلا تتزججان ومن ثم لا تنغلقان"

"واربطوا ذقنه" أضاف ماتفي ببلادة وهو يحدق بوجه الرجل الميت الرائق من وراء أكتاف الذين تجمعوا في المطبخ.

بعد ذلك خرج ماتفي إلى الأرض التي لا شجر فيها، وجلس هناك لوقت طويل يراقب ميخائيلو الملتحي وهو يمشي إلى الأمام وإلى الخلف على خطوط القنب المجدول بلمعها بشعر الخيل أولاً ثم بقطعة قماش مبللة.

كان يلوح بذراعيه كأنه يقاوم شخصاً كان يجبره على المشي إلى الخلف في الوقت الذي يريد فيه المشي إلى الأمام. تدرجت لفة خيط تحت قدميه فركلها بعيداً بقدمه، لكن المخروط الخشبي رسم نصف دائرة أعادته إلى تحت قدميه مرة أخرى. ركله ميخائيلو ثانية دون أن ينظر إلى الأسفل وتدرج عائداً إليه مرة أخرى.

الأحق! لماذا لا يركله بقوة أكبر؟ فكر ماتفى.

بهرت خيوط القنب الكثيرة مع الإبر الفضية المخربة العالقة بها عينيه. من وقت إلى آخر، تخرج كلمة مختصرة يتلفظ بها العمال المربوطون بهذه الخيوط الرمادية المرتعشة التي خلقت الوهم بأنها تتناول وتمتد في الفراغ.

"ما شأني بهذا كله" فكر ماتفى "لماذا لا أتخلص منها وأرحل؟"

كان الصباح الربيعي يتلاشى إلى سماء كالحة، فأعشاب السنة الفائتة كانت تصدر حفيفاً في النسيم وكان القطيع متخماً وناعساً وراضياً، وكان يخور بنعومة وهو عائداً إلى البيت من الحقول. أما النفس الرطب للتراب الذي ذاب عنه الجليد فقد وعد بعشب ريان غض وبوفرة من الزهور البرية. صانع براميل كان يدق بمطرقة بعيداً وجرس صغير جهوري كان ينادي أبناء الأبرشية إلى صلاة الصوم الكبير، وأتى من حديقة الدبر ضحك شباب وأصوات قوم صغار كانوا يحفرون هناك. غردت عصافير الدوري وشدت قبرات وصعد ضباب أزرق باهت من التلال التي خلف البلدة.

ومن خلال كل هذه الأصوات والحركات أمكن اكتشاف نفس شهر أيار/ مايو الطري: الحركة الحريية للأعشاب الصغيرة وظهور الأوراق الجديدة الرطبة واندفاع البراعم والأغصان. كل شيء كان مشبعاً بخمرة الربيع المسكرة وكان الهواء كان مربوطاً بخيوط مشدودة، استجابة للمسمة

ناعمة من أصابع خفية نشرت موسيقى رخيصة لتوقظ آمالاً جديدة في قلوب البشر.

تأثر الشاب حتى سالت دموعه حين تأمل أحلامه الخاصة به والوحشة المنتشرة حوله التي ذابت في سماء معلقة كثيبة.

لقد رحل الناس الطيبون كلهم من هنا، فكر شاعراً بوخز خفيف من الامتناع. حتى لو كان الشخص أفضل من غيره بقليل كان إما يموت أو يهرب مثل سوزونت وماركوف أو يصد ويرفض مثل الشساس.

جاءه شاكر وقد نزع قلنسوته وطلب بعض المال.

"ضع قلنسوتك على رأسك"

"بماذا تفكر"

ابتسم التري ابتسامة باهتة.

"أخشى أن أتكلم. أنت تفكر"

"لا تخف أيضاً!" قال مانفي في صوت ودود وناعم "أنا من هو خائف

من كل شيء"

"ابتهج!" قال التري وهز رأسه مشجعاً "يجب ألا تفكر بأشياء بليدة.

كل شيء سيكون على ما برام. سيأتي الربيع وستحدث في العمل والتجارة.

أنا وأنت علينا أن نحفر قبراً. يجب علينا أن ندفن الرجل العجوز"

دفن بوشكاريوف في يوم ماطر، ولم يحضر جنازته سوى عدد قليل جداً

من الناس، حتى أن بعض المتسولين تكاسلوا ولم يحضروا.

سار شاكر بجانب الموكب. لم يكن يلبس قبعة وإنما قلنسوته الترية التي

زاد لمعانها بالمطر فأرسلت سيلاً صغيراً من الماء تساقطت قطرات ماءه على

جبينه الأسمر. وكان بين فينة وأخرى يرفع يده إلى وجهه ويحني رأسه.

تلاّات يدها وارتعشتا، ولم يكن ينظر إلى أين كان ذاهباً، فاستمر في التعثر في البرك. وكلما فعل هذا كان الناس الذي يتبعونه يتناقلون ملاحظات مهينة. رأى ماتفي أنهم كانوا يعاملون التري بشك وريبة وسمع أحدهم من خلفه يتمتم مستنكراً:

"وثني مثله في جنازة مسيحية!"

"هم لن يتركوه يدخل إلى المقبرة بالتأكيد!" كان الرد.

ماتفي نفسه لم يكن واثقاً بأن يُسمح لشاكر بأن يكون في المقبرة. نظر إلى التري الذي كان المطر يقطر منه وقال لنفسه: إن الحياة ستكون صعبة عليه. ازداد هطول المطر وضرب السقوف بضجيج أكبر وهز أغصان الأشجار، كما أصبحت بقبة الجداول في المزارب أكثر مرحاً، وأصبح صوت تمطق الوحل تحت أحذية العمال الذين كانوا يسرون بخطوات طويلة وسريعة بالتأبوت الطويل والخفيف على ظهورهم أشد علواً. أما أهل البلدة فقد ركضوا هارين بحثاً عن ملجأ دون أن يتركوا أحداً للسير وراء التأبوت سوى المتسولين وهؤلاء الذين كانوا أصدقاء مقربين من الرجل المتوفى.

ستييان بوشكاريوف، جندي شجاع وباسل، دفن بجانب بيلاجيا. عجّل القس ذو الوجه المنمش والمبلل والقادم من كنيسة القديس نيقولا بتلاوة الصلاة وأرجع الشماس المبخرة بصخب ثم أمسك الاثنان بأطراف رداءيهما الكهنوتين بعد ذلك واندفعا مسرعين إلى كوخ الحارس. أنزل ميخائيلو وإيفان وياكيم التأبوت بسرعة وبدأوا برمي التراب المبلل الذي دفعوه بمجارفهم وأحذيتهم، وكان الصوت المكتوم على غطاء التأبوت يشبه صوت القرع على طبل مبلل. تساقطت قطرات لامعة من المطر من أغصان شجيرات البتولا الرفيعة ومن فروع شجيرات الصنوبر القوية في القبر مع التراب.

ضغط ماتفي وجهه على الصليب السندياني الذي على قبر بيلاجيا ويكى.

"تعال، تعال يا ماتفي فاسيليفيتش" قال ميخائيلو في صوت أجوف "حان أوان الذهاب إلى البيت"

من خلال دموعه وستارة المطر الرمادية رأى ماتفي التري واقفاً على قدميه ووجهه نحو الشرق وقلنسوته ملقاة على العشب عند قدميه وقد تشوه شكلها من المطر.

"هممم" تتم ميخائيلو "ملحد لكنه يملك روحاً طيبة على ما يبدو"

"كان الجندي روحاً طيبة" قال إيفان. "فظ لكنه روح طيبة" وقفوا هناك صامتين، أكتافهم محدودة، بنفضون حبات المطر عن لحاهم.

"من سيكون المسؤول الآن" سأل ميخائيلو. لم يجب ماتفي.

"آوه، حسناً، من يهتم؟ لن يشكل ذلك فرقاً" قال إيفان وهو يطلق حسرة عميقة.

ثم أبدى كل واحد منهم بعد ذلك ملاحظة بالتسالي دون أن ينظروا إلى السيد أو إلى بعضهم البعض.

"طالما يعرف المهنة....."

"يمكن أن يكون تترياً أو موردوفياً أو من الشوفاش...."

"كل المطلوب منا هو العمل...."

اكتشف ماتفي من وراء لامبالاتهم المصطنعة آمالاً خفية سيئة وامتعضاً
متزايداً.

سيكون ذلك صعباً على شاكر وربما أصعب عليّ أيضاً، فكر.
سار عائداً إلى البيت بجانب التري ولحق العمال بهما. من حين إلى آخر
كان أحدهم ينفض المطر عن لحيته بشجرة عالية.

منذ ذلك اليوم بات ماتفي مثل مسافر يركب زلاجة فوق طريق شتوي
ناعم. الرحلة الطويلة رنية وبلا هدف أو غرض وحركة الزلاجة تثير حالة
من النعاس نمت كل الأفكار والمشاعر. من وقت إلى آخر ترتج الزلاجة
فوق أخدود أو تنحرف إلى أحد جانبيها عندها يرفع المسافر رأسه الثقيل،
لكنه ينكص في حالة من السبات بعد أن يتفحص المشهد المألوف.

في أعماق نفسه، كما في الأرض تحت غطائها الثلجي، تكمن بذور أفكار
لم تتحقق ومشاعر لم تتطور، لم تكن مدركة كلها، بذور انطباعات جديدة
شقت طريقها عبر الغطاء السميك لعدم مبالاته ونقص إيمانه بقواه التي
يرثي لها، تغلغت في داخل أعماق قلبه الخفية وأثقلت عليه. لكن في أغلب
الحالات كانت تموت مع الإنسان دون أن تصل إلى الضوء والدفء
الضروريين لتطور كل حياة سواء كانت داخلية أم خارجية.

القسم الثاني

استمر هطول الأمطار الناعمة لمدة أسبوع، وهي تمس السقوف وتجلد الأشجار، تتحسر وتبكي. تتوقف لساعة أو اثنتين، ثم تعود ثانية بشكل رذاذ ناعم.

اخضلت البلدة أكثر وانتفخت، وبدأت كأنها تذوب. تدفقت جداول وسواقي في كل مكان. كانت الأرض المشبعة العاجزة عن امتصاص رطوبة أكثر مثل عجوز متسولة غطتها سلسلة من الفقاعات ولبست بركاً بدلاً من الخرق الممزقة.

بدأت الشمس في زوال، انتشر ضوءها فوق الأرض في رمادية قائمة ضبابية، ما جعل معرفة الوقت عملية مستحيلة في الشوارع الخالية التي غرقت بصمت في الوحل دون اعتراض. لكن كانت هناك أوقات بين ساعة أو اثنتين تظهر فيها حمرة باردة لا شكل لها في السماء الزرقاء الرمادية يسميها العجائز شمس الرجل الميت.

كان ماتفي كوجيبا يكين جالساً عند النافذة يحدق بهدوء في البستان؛ حيث كان المطر يخطف آخر الأوراق وينزعها عن الأشجار، فتسقط مباشرة مع المطر، ثم تثب للأعلى حين تقترب من سطح الجداول الجارية. دخل شاكر.

"امرأة وولد صغير في المطبخ إنهما مبللان" قال مكشراً.
"من يكونان؟" سأل ماتفي بدهشة.

"لا أعرف. إنها يبحثان عن مسكن للإيجار منذ ثلاثة أيام. ليس هناك مسكن" ليس في بلدتنا".

دفع شاكر قلنسوته إلى مؤخرة رأسه ولمس أطراف شاربيه.
"هل نعطيهما العلية؟" قال التري "ليس هناك أحد فيها. لماذا لا نفعل؟"
الولد الصغير مسل جداً

"كما تشاء" وافق ماتفي وهو مشمت. "هل هي مناسبة للعيش؟"

"نستطيع المرأة أن نرى بنفسها"

"لم يعش فيها أحد إلى الآن"

"أنت اطلب رويلاً واحداً" قال التري غامزاً ثم خرج.

أفكار ماتفي - أفكار صغيرة خجولة وواهنة - مصحوبة بالظلال والأشباح دائماً. كل فكرة تخطر له تخرج نفيماً فاتراً وراءها، ما جعل من الصعب عليه أن يركز انتباهه على أية فكرة محددة في الجدول الواهن الذي انزلق فوق سطح ثابت وصلب. السطح كان احتجاج روحه الصامتة ضد الحياة التي يعيشها.

سمع أناساً ينتقلون في الطابق العلوي الذي فوقه وقال لنفسه: المستأجرة. إنها كالجلدي بالنسبة إلي. إن كانت شابة سيكون هناك قيل وقال وسيكون الطفل مصدر إزعاج وصخب، سيرمي الحجارة ويكسر النوافذ. لماذا علي أن أتحمل ذلك الأمر؟

عاد شاكر.

"ستدفع رويلاً واحداً" قال فرحاً.

"اسمع أخبرها يجب أن تكون هادئة، المالك لا يتحمل أي ضجة".

"إنها هادئة" قال التري مؤكداً له مع ضحكة مكتومة.

ما الذي وجده مضحكاً؟ تساءل ماتفي.

عند الإفطار في صباح اليوم التالي، ابتسمت ناتاليا وقالت:

"إنها امرأة مسلية يا ماتفي سافيليفيتش تلك المستأجرة الجديدة. لا

يمكنك أن تخمن كم هي مسلية!"

أرجع شاكر رأسه إلى الخلف وتحول وجهه إلى تجعدات من الضحك

وانحنى نحو سيده و... أصابعه أمام أنفه.

"إنها تنظف أسنانها بفرشاة" قال وهو يوشك أن يختنق من الضحك.

"ما-ذا؟" هتف ماتفي غير مصدق.

"لماذا، هل أسنانها تؤلمها؟" قال ماتفي.

"لم تقل هكذا" كان وجه ناتاليا السمين مشقوقاً من الأذن إلى الأذن

حين كانت تثرثر. "يفترض أنها أنت من مكان بعيد جداً، ويمكن لأي

شخص أن يرى أنها ليست من الناس العاديين، إنها مهذبة جداً. كل ما

نقوله (شكراً لك) و(لو سمحت) جلبت لها دلواً من الماء وشكرتني قائلة:

شكراً لك، لكن لماذا فعلت ذلك؟ يمكنني إحضاره بنفسي. أرجوك لا

تزعجي نفسك بذلك"

"هل هي جميلة؟" سأل ماتفي.

"تماماً. لها كتفان مدوران وشدبان كشدي فتاة عذراء. هناك نظرة جديدة

في عينيها وتبتسم بنعومة كبيرة وعلى طريقة النبلاء"

"هل هي صغيرة في السن؟"

"بالحكم من خلال الطفل، هي في الخامسة والعشرين كما يبدو. أو أكثر حتى-من أي بلاد أنت؟" سألت ناتاليا ثم أضافت: "سيدة مؤثرة جداً. كل ممتلكاتها الدنيوية في سلتين وصندوق جلدي مع زينة نحاسية"

خبطت الريح النوافذ ورشقتها بالمطر، في الفناء قطرات من المطر تساقطت في برمبل المطر. ابتسم شاكر راضياً وهو يرتشف شايه، غنت ناتاليا أغنية عاطفية. نظر ماتفي حوله بقلق لم يستطع أن يفسره.

"كفانا حديثاً عنها" قال وهو ينزل عينيه للأسفل. "يمكنها العيش هنا طالما ظلت هادئة. ماذا عن الطفل؟"

"ودود جداً. دخلت وكان مغطى كله بالصابون وقال مرحباً ما اسمك؟" تماماً كما أنا جالس هنا.

"حسناً، إن كانا ودودين سنكون نحن كذلك أيضاً" أعلن السيد في انفجار من الكرم.

أوما شاكر برأسه تعبيراً عن موافقته واستحسانه، لكن ناتاليا قالت وكأنها خجلة:

"لولا مسألة أسنانها! هي ممتعة جداً، إنها تقحم فرشاة عظمية داخل فمها ونمس بها، ولولا لطف الرب لحفرت حفرة في خدها"

بعد الغداء تكشفت الغيوم عن بقعة من السماء الزرقاء التي انعكست في البرك التي في الفناء. وهناك بجانب أكبر بركة، قرفص صبي صغير ذو شعر مجعد وأنف مدبب صغير. كان يصبح بشيء حين دفع كتلة من الخشب في البركة واستمرت الماء في التفضن كأنها ترد عليه بابتسامة.

فتح ماتفي النافذة بهدوء. كان صوت الولد الرنان يصل إلى الغرفة:

"أوهل كان خيالاً جيلًا؟/ أوهل القيصر؟/ استطاع سماع صلواتي؟"

بجانب شجرة البتولا وقف شاكر مرفوع الرأس، ويده تعبت بلحيته. وفي مدخل باب الحظيرة كان الحمال الأتبع ماركوشا يتدحرج إلى الأمام والخلف على ساقيه المقوستين. تراجع ماتفي إلى الورا كي يتمكن من تفحص الطفل دون أن يراه الأخير.

يميل إلى النحافة، ساقاه هزليتان. أنا كنت مختلفاً حين كنت في سنه، فكر ماتفي.

طافت ذكريات طفولته داخل نفسه وهدأت روحه. وقف الصبي الصغير، مسح يديه بسرواله ومط ذراعيه وغنى بصوت أعلى من قبل وهو يلفظ بشكل مميز:

آه، حر-بة، حر-بة مباركة!

شمر سرواله للأعلى ثم رفع ساقاً أخرى حمراء رقيقة كساق الإوزة ومشى بشجاعة في البركة وهو يصيح بصوت عميق جهير: لا شيء بهذه القيمة!

سقطت ساقه المشمرة في الماء فقفز المغني ثم انزلق ووجد نفسه على أطرافه الأربعة.

"اللعة!" هتف قائلاً وهو ينفض الوحل عن أصابعه.

مال ماتفي إلى الأمام إلى خارج النافذة وقال متعاطفاً:

"ستعاقبك أمك الآن"

قرص الطفل مرة أخرى وغسل يديه في البركة.

"أنا لست خائفاً" قال في ابتسامة ورفع وجهاً بحاجبين أسودين ورموش تأطرت في لفات جميلة.

"ما اسمك؟"

بوريس. وأنت ما اسمك؟"

"ماتفي"

رفع ماتفي يده ليخفي ابتسامته، ثم نحس لحيته وأسرع ليعوض جملة العم ماتفي. ماتفي سيفيليفيتش"

وضع الصبي يديه في جيبه وأغمض عينيه نصف إغماضة.

"هل أنت مالك البيت؟" سأل.

"نعم، لماذا؟"

"لا شيء" قال بوريس لكنه أضاف على الفور: "أقول إنك بدين."

"ذلك يعني أنك لم تر شخصاً بديناً فعلياً".

"أوه. كلام أرا!" قال بوريس بضحكة قصيرة "رأيت الكثير والكثير.

لماذا، في كيانسك في بلدي"

"أين تقع هذه؟"

"كيانسك، ألم نسمع قط بكيانسك؟"

"في أي مقاطعة تقع؟"

"هي ليست مقاطعة، إنها في سييريا"، صرح الطفل في نغمة

المتحذلق.

تراجع ماتفي عن التبانات المؤصصة واستند إلى خارج النافذة. غادر

شاكر وكان ماركوشا يمشي مثل الدب حول الحظيرة.

"لماذا كنت تعيش في سيبريا؟" سأل ماتفي في صوت منخفض.

نظر الولد في ارتباك للحظة قبل أن يرد قائلاً:

"أنت مضحك! لأن البلدة التي بنوها تقع هناك، في سيبريا. لقد بنوا بلدتك هنا وبنوا تلك البلدة هناك. هذا كل ما في الأمر."

"فهمت،" رد ماتفي بسرعة. "أينما تبنى بلدة يكون المكان الذي تقع فيه. هل تستطيع أن تقرأ وتكتب؟"

"طبعاً، أستطيع" قال بوريس مندهشاً.

"وأنا أستطيع كذلك" قال ماتفي لكن محدثه فقد الاهتمام كما يبدو، إذ التقط عصاً وحقق في السماء التي كانت ترش رذاذاً رطباً فوق الأرض مرة أخرى.

"بوريس!" أتى صوت أنثوي واضح. "أليس من الأفضل أن تأتي إلى الداخل. السماء تمطر."

على الشرفة وقفت امرأة طويلة في ثوب أسود. كانت ملامحها شاحبة وقاسية، شعرها ممشط للخلف بنعومة، بدت مثل راهبة. وبدا كأن هناك شيئاً عنيداً في طبيعتها لا يستسلم، جعلها في وحدة مع الطقس الغائم. عند رؤية كوجيامكين عند النافذة، لم يكن لديها شك بأنه كان مالك البيت لكنها لم تنحن له.

"تعال إلى الداخل يا بني أرجوك" قالت.

ابتلع النهار الحريفي القصير بسرعة في عتمة المساء الرطبة. غصن عار من شجيرة السمن دق على النافذة. هبة من الريح نفثت دموعاً ناعمة عبر زجاج النافذة. أصوات بكاء صغيرة أتت راشحة عبر جدران البيت.

منذ موت الباسل بوشكاريوف، الذي بكى عليه عشرون خريفاً، مرت تلك السنوات الفارغة متشابهة على نحو رتيب وبيطء مثل حجاج كئيبيين يشقون طريقهم بتأن وهم يؤدون ولاءهم واحترامهم دون أن يتركوا خلفهم سوى ضجر معتاد جداً ومتكرر، لدرجة أصبح فيها غير مدرك كما يصبح المرء غير شاعر بحذاء مريح يلبسه.

لكن ضجره اليوم كان مشوباً بعدم الارتياح. أفكار مضطربة انفجرت مثل فقاعة رمادية قي ذهن ماتفي. شعر بدافع لأن يصعد إلى العلبة إلى المرأة ويقول لها:

من أنت؟ لماذا أتيت من سييريا؟ لماذا تقولين من فضلك لطفلك؟ ولماذا تفرشين أسنانك بمسحوق أبيض؟

لكنه ذرع الغرفة ذهاباً وإياباً في ضوء الغسق، أخبره ركن من روحه أنير حديثاً أن هذه الأسئلة غبية.

من الأفضل أن تفكر في الطفل.

دبك مقاتل صغير! قال لنفسه.

حالما قالها، كانت بدا الطفل الحماوين الباردتين قد دفعنا عجلة ذاكرته، ما جعلها تدور ببطء وتردد، وهي تفك شريط الماضي الرمادي. استمرت الغرفة تدور وتدور حين كان ماتفي يمشي متاقلاً في الغرفة بحذائه البيني، وجلبته ذكرياته أخيراً إلى بيلاجيا، وهذا حول أفكاره مرة أخرى إلى المستأجرة الجديدة.

يجب أن تكون زوجة أحد الضباط، فكر. هي متباهية، لم تنحن حتى.

دخلت ناتاليا.

"هل أشعل المصباح؟" سألت بنعومة.

"ليس بعد، سوف أشعله بنفسى"

فى تنهيدة أخبرته أنه عندما يشعل الموقد فى العلبة فإن الغرفة تمتلئ بالدخان، وأن المستأجرة وابنها يتمددان على الأرض لتفادى الاختناق.

"لماذا لا ينزلان إلى هنا؟" سأل ماتفى. "أنا لا أعض"

تسلى شاكر إلى السطح ووجد عش الغراب فى المدخنة.

"هذا ليس مفاجئاً"

تنهدت مرة أخرى ودلت رأسها وقالت بشعور من الذنب:

"يوجد رجل آمن هنا"

"ماذا يريد؟"

"لا أعرف، شىء يتعلق بالمستأجرة الجديدة"

"عرفت أكثر" زجر ماتفى "أنت وشاكر تخلقان المشاكل"

خرج ودخل إلى المطبخ لكن الشرطى ذهب. كانت هناك شمعة تحترق على الطاولة وبجانبتها مغرفة خشبية تصدر منها رائحة البيرة. كان شاكر جالساً إلى الطاولة ينقر المغرفة بإصبعه. كانت يدا ناتاليا مشبوكتان تحت مئزرها، ذهبت ووقفت بجانب الموقد. كان واضحاً من النظرة الأولى أنها خائفة. ماتفى نفسه شعر بالخوف حين أخبره أن الشرطى أمرها بأن يراقب المستأجرة بحرص، وأنها ممنوعة من مغادرة البلدة، وأن الذين تعيش معهم ملزمين بنقل كل ما تفعله وت قوله إلى الشرطة.

هذا أثار مخاوف غامضة، لكنه أثار أيضاً فضولاً تزايد مع كل كلمة قالها. جلس الثلاثة ينظرون إلى بعضهم البعض، وهم يرمشون بقلق وخوف ويتكلمون بصوت منخفض حتى أن شاكر أطفأ المصباح.

"ماذا يمكن أن تكون قد فعلت؟" سأل ماتفى بصوت متوتر.

"هل زيفت عملة؟" سأل شاكر.

"إنها لا تبدو من ذلك الصنف" قالت ناتاليا.

"لا يمكنك الحكم على الناس من خلال مظهرهم" لاحظ كوجيمايكين.

"ربما فعلت شيئاً لزوجها" قالت ناتاليا "لها وجه قاس ربما وضعت شيئاً في كعكة خبزتها"

"الجمي لسانك" صاح شاكر.

أثارت الشرطة مشاعر مختلطة في نفوس كل قاطني أو كوروف وورثت هذه المشاعر من جيل إلى جيل. كانوا يكرهون رجال الشرطة لكنهم يخافونهم ويخضعون لهم. لم يستطيعوا أن يتخيلوا سبب ضرورة هذه المؤسسة، مع ذلك يهرولون إليها فور حدوث أي شيء. والآن في المثال الحالي، لجأت أفكارهم إلى الشرطة.

"هل أخبرتماها بخصوص الشرطة؟" سأل كوجيمايكين.

"كلا" قال شاكر "من تكون- أنا لا أعرف. من الشرطة؟- أنا أعرف جيداً"

أصبحت ناتاليا مهتاجة.

"هي روح وحيدة، بلا زوج. من يعرف ماذا يريدون منها؟ وهي صغيرة جداً... نعم، سأذهب وأخبرها"

فكر كوجيمايكين لحظة.

"انتظري" قال "سخني السماور. تعال معي يا شاكر"

حين كان في غرفته أشعل المصباح وخاطب التتري بلهجة شخص يقرر في مسألة مهمة.

"الأمر سيان بالنسبة إلينا، الشرطة أو هذه المرأة الغريبة. نحن نريد شيئاً واحداً، أن نواصل العيش بسلام وسكينة. لهذا سأرسل في طلبها وأسألها بصراحة وبشكل مباشر. ما معنى هذا؟ وإن تكشف وجود شيء خطأ فعلاً - حسناً، سنخرجها من البيت. هذا كل ما في الأمر"

"نعم - م" قال شاكر قلقاً وهو ينحني للأسفل ليسوي الطرف المطوي من السجادة على الأرض، وعند اعتداله تحسر وخرج.

ذهب كوجيمايكي إلى المرأة. عكست المرأة وجهها بجهة واسعة وخدين متفتحين استطالا بلحية شقراء وعينين زرقاوين، ليستا صافيتين جداً وفيهما ضوء حزين. كان يكره وجهه ووجده خالياً من أي تعبير ويبدو غثشاً رغم اللحية. اكتشف اليوم عيوباً جديدة فيه.

"لا يمكن أن تكون أصغر مني عمراً" فكر بقلق.

"اذهبي وناديا" قال بهدوء. "أخبريها... أ... أن مالك البيت يود التكلم معك. انتبهي وكوني متحضرة معها. قللي لها أن تأتي إلى الطابق السفلي من فضلك. تصرفي وكأنك لا تعلمين شيئاً. لا يوجد أي مبرر لجرح مشاعرها"

حين ذهبت ناتاليا أنزل قميصه إلى الأسفل ومرر أصابعه فوق معطفه ووقف في وسط الغرفة ينصت. على الفور سمع صوت أقدام تفرقع على الدرج. فتح الباب. وفي وسط الغرفة دخلت امرأة في ثوب أسود وشال من القماش ذي مربعات. كانت طويلة ونحيلة، شعرها مسرح للخلف. جبينها ووجتها كأنهما من الثلج، حاجباها مشدودان شكلاً خطاً رقيقاً غاضباً، بينهما ونحت عينيها ظلال أسي وتعبد. عاجزاً عن مواجهة نظرتها انحنى كوجيمايكي قليلاً ودفع كرسيّاً إلى الأمام دون أن يرفع عينيه.

"صباح الخير" قال مرحباً ومعتذراً تقريباً. "هنا لو نكرمت. هل تسمحين لي أن أقدم لك فنجاناً من الشاي؟ إن وجدت الأمر وقحاً..
"أوه، كلا البنت"

كان صوتها أنعم والطف هذه المرة من تلك حين تكلمت في الفناء، ونظر إليها: وجهها تبدل أيضاً. لم يكن هناك خط بين حاجبيها وكانت عيناها السوداوان تبتسمان.

"إيفجينيا بيروفنا منسوروفنا" قالت المستأجرة وهي تنطق كل مقطع بشكل واضح ومميز وبابتسامة مفاجئة، تطوعت بالمعلومات التي كان يبحث عنها؛ "ليس لدي جواز سفر لكن لا يقلقك ذلك، أنا تحت المراقبة الشرطة وهم يعرفون مسبقاً أنني أعيش في بيتك"

صعق كوجيمايكن من صراحتها وبساطتها. تفجر العرق منه، ومرت لحظات قبل أن يعتذر متلعثماً:
"أوه، أفهم"

كان يحارب أفكاراً فلتت داخل رأسه وضربت صدغيه، إذاً هي ستعيش في بيتي وربما أمرتها الشرطة بذلك؟ لتلحق بي الأذى أو لتجعل مني أضحوكة؟ -وماذا عن رجل الشرطة الذي كان هنا؟

تابعت الكلام لكن الكلمات التي استخدمتها لم تكن مألوفة له وفي كل لحظة باتت غير مفهومة أكثر، وسيبت بحركاتها وارتجاليتها في الإشارة إلى الشرطة الاضطراب لهذا الرجل غير المثقف.

"كم هو دافئ الجو في الداخل!" سمعها تقول، وليتأكد من أنه لم يكن مخطئاً في فهم كلماتها كرر عبارتها.

"نعم، أنا أحب أن يكون الجو دافئاً في البيت"

"ما هو ذلك الشيء الذي يصدر رائحة لذیذة؟"

"عسل براعم الليمون في القرص" قال كوجييايكن وهو يدفع إصبعاً بقوة على الطاولة ويقوم بتفحص شديد للساور الذي تصاعد منه البخار. ولدهشته سمع نفسه يقول خذي بعضاً منه - لولئك الصغير"

"شكراً لك" قالت المرأة في صوت واضح أخاذ. "ذلك التري الذي عندك الآن. يبدو أنه شخص لطيف"

استطاع أن يفهم هذا.

"إنه يعيش معي منذ أربع وعشرين سنة" قال بتنهيذة تعبر عن الارتياح. "رجل شريف جداً. التار شرفاء دائماً. كأنه فرد من العائلة وليس أجيراً"

انزاح الشال عن كتفها المدورين ورأى شعرها الناعم المتدلي على ظهرها في جديلة سمیكة ونلك الربطة السوداء عقصت في طرفه.

لم تكن فتاة صغيرة، لماذا سوت شعرها في جديلة ودلته للأسفل؟ خطرت له تلك الفكرة وهو يصب لها كوب الشاي. ظهرت ابتسامة على وجه المرأة، ولدت في أعماق عينيها اللتان اتسعتا في جمال عظیم، وافترت شفتاها لتكشفها عن لمعان أسنان بيضاء صغيرة، وظهرت غمازتان في خديها، وانبعث بريق لطيف من كل ملامحها، ذكر ماتفي للحظة بوجه محي زمنه من ذاكرته تقريباً.

لمن يمكن أن يكون؟ فكر. هي لا تشبه بيلاجيا.

الآن خفتت الابتسامة وظهر الخط الصغير بين حاجبيها مرة أخرى، شدت شفتيها، وجلست أمامه كثیة غريبة، ما أثار هواجس غامضة في داخله.

ماذا سأقول لها؟ فكر ماتفي وهو يدفع الكعك والبسكويت. لو أنها تبسم مرة أخرى!

"تفضلي، كلي" قال بصوت أجوف "كعك صنع في البيت،..."
"شكراً لك" قالت بابتسامة ودية وهي تأخذ واحدة. كلما أمسكت بشيء بأصابعها النحيلة كانت تغلق عليه بلطف وقوة.

"لكن لا ندع الأمر يقلقك" تابعت قائلة "ليس لدي نية للهروب"
ما الذي تتكلم عنه؟ نساءل ماتفي وهو يحرق بها بطريقة تخلو من الكياسة. ها هي تبسم ثانية!

"هروب؟ لماذا عليك أن تفعل ذلك؟" قال كمن يحاول ثنيها عن ذلك.
"ليس هناك مكان يفر إليه المرء - غابات ومستنقعات هي كل ما يحيط بك.
والوضع ليس سيئاً هنا وخصوصاً في الربيع. وفي الصيف أيضاً. ولدك الصغير سوف يحب المكان. السمك في النهر ويمكنه صيد الطيور. وهناك أكوام من الفطر في الغابات. قوما يذهبون لقطف الفطر في العربات - لا يستطيعون حمل سلال كثيرة جداً والعودة بها إلى البيت.
"هل هناك في البلدة مدرسة رياضية؟"

"ليس هناك مدرسة رياضية"

تحسر ماتفي: من المحزن ألا تكون هناك مدرسة رياضية في أوكوروف.
"يا لها من بلدة متخلفة!" قالت المرأة وهي تتحسر بدورها، وأضافت
لتخبره كيف أمضت أربعة أيام في الخان وهي تبحث عن بيت للإيجار
وعجزت عن إيجاد واحد. أينما ذهبت كانت تعامل بفظاظة أو شك، من
تكون، من أي مكان أنت، لماذا جاءت إلى هنا، ماذا تنوي أن تفعل، أين
زوجها...."

"لا أستطيع أن أفهم وكأني لست روسية وأتكلم بلغة أجنبية والكل يخافني!"

كان هذا الشعور مألوفاً له وجذبه إليها وأثار تعاطفه معها.

"وأين زوجك؟" سأل.

نظرت إليه للحظة قبل أن تجيبه باختصار.

"إنه ميت"

بدت هذه الكلمات السوداء جداً عادة لا تحمل أي معنى مؤلماً لها.

"أصيب بالبرد ومات" كررت القول على نحو واضح. "الجو بارد

جداً في سيبيريا"

"هل كان يعمل هناك؟"

هزت المرأة كتفها.

"لا، أبداً" قالت ببساطة "أخبرتك مسبقاً أننا أرسلنا إلى سيبيريا،

نفينا، ألا تفهم؟"

وتفوهت بيضع كلمات أخرى لم يسمع بها قط. تملل في كرسيه.

عضت على شفتيها وجذبت شالها فوق كتفيها ثم حدقت بالغرفة

وقالت:

"هل تعرف ما هي السياسة؟ هل سمعت بحياتك بالجرائم

السياسية؟"

"ك-لا" قال كوجيمايكين. تملل بصعوبة وأخفض عينيه تحت نظرة

حطت عليه بثقل.

"حسناً، سأشرح لك ذلك في مرة أخرى" سمعها تقول: مرة أخرى.

كان صوتها ناعماً ورقيقاً.

"والآن وداعاً. شكراً لك. أنا لا أعرف ماذا كنت سأفعل لو لم تعطيني غرفة السقيفة الدافئة خاصتك؟"

ابنسمت مرة أخرى، وخرجت. هدأت إلى حد ما المخاوف التي أثبتت بكلمات مروعة مثل سييريا ونفي وجرائم سياسية وكانت أشد اللحظات كلمة سياسية التي ترافقت بالنسبة إليه مع كارثة. ركز كل قواه في محاولة تذكر ماذا كانت ومتى خطرت له لكن عبثاً.

شعر بتعب، وكأن الحديث مع المستأجرة قد دام لساعات. ظل جالساً على الطاولة ويداه مشبوكتان بقوة خلف رأسه بينما ظلت الكلمات: سييريا ونفي تصفر في ذهنه بإلحاح مشؤوم من الريح الخريفية. لكن خلفها لاحت أفكار أخرى، أفكار أكثر بهجة.

ذفنها أبيض كالثلج وفيه غمازة، كغمازة طفل؛ حيث الملائكة يقبلون الأطفال في نومهم. وتلك الأسنان البيضاء! أتساءل لماذا نفرشينهم بمسحوق؟

انفجرت في ذهنه ذكرى غامضة فجأة. في مساء أحد الأيام قبل سنوات كثيرة، في يوم اثنين وليس أحد، بدأت الأجراس الكبيرة كلها تدوي في الأبراج ودق جرس الدبر بجنون امرأة مستهترة، بينما بدا جرس القديس نيقولا وكأنه فلت وخرج عن السيطرة، كان يضرب بصوت قوي راعد ما إن يلمس البرونز بلسانه حتى يجعل المعدن يعوي ويتشنج.

خرج ماتفي إلى الشارع بركض، واندفع شاكر والشغيلة في اتجاهات مختلفة، بعضهم إلى السطح ليروا أين شب الحريق، لكن لم ير لهب ولم يكن هناك دخان في الجو. أصيبت البلدة بموجة من الإنارة. خرج الناس مسرعين من بيوتهم وجاءوا معاً وصرخوا واندفعوا بعيداً وابتلعهم

عاصفة ثلجية ربيعية قوية. هرول رجل على حصان أسود إلى الدير، طوح
بذراعه وصرخ بأعلى صوته:

"أوقف! أوقف رنين الأجراس!"

دوى جرس القديس نيقولا الذي كان الأعلى والأشد إنذاراً بالخطر.
وبينما كانوا يتراكمون تضاربت تخمينات الناس حول سبب الإنذار.
بعضهم قال إن الكنيسة تعرضت للسطو، وصاح صوت حاد أن الأب
فيتالي مات فجأة، أفصح العجوز شاباكوف وهو جندي سابق أن حفيد
نابليون جمع قوات وجنوداً من أربعين أمة واجتاز الحدود وطوق بطرسبرغ.
كانت الرؤية غير ممكنة بسبب الثلج، ما جعل صيحاتهم أكثر رعباً.
"لقد تفكك جليد النهر قبل أوانه!" "نحب أحدهم يائساً: "الماء
يرتفع"

"من قال هذا؟"

"لقد أتت رسالة"

"نحن نعيش على هضبة ولن يصلنا الفيضان!"

كتمت الأصوات في عتمة المساء ودوامة الثلج، وسقطت الكلمات مثل
الحصى على رؤوس الحشد. انتصبت أشكال البيوت والناس وتلاشت في
العتمة كما لو أن البلدة اقتلعت من جبالها التي تربطها وأبحرت بعيداً وهي
تندحرج وتنعب.

وصل العجوز بازاروف يقودانه ابنه وصهره. كان حاسر الرأس
ويعطف أسود فوق قميصه غير المربوط بحزام. وقف فجأة ثم اندفع
ليعلن في صوت أجش عال:

"على ماذا تزعقون؟ ألم تعرفوا مِنْ قَرَع الأجراس أن القيصر الكسندر قد مات؟ اخلعوا قبعاتكم!"

صمت الجميع وأصبح المشي في الشارع وسط الأشكال المظلمة والصامته أقل خوفاً:

"لقد نفذت العناية الربانية الغامضة....."

وجد ماتفي في الكلمات شيئاً مألوفاً نائباً، شيء يتصل بكلية الحياة في طرق متشعبة. لقد أقلقه سلوك شاكر الذي كان واقفاً في الكنيسة وهو يهز رأسه ويتمتم لنفسه كأنه يعاني من ألم في أسنانه. كان ماتفي يخشى أن يلاحظه القوم ويهجمون عليه.

لكن الكنيسة كانت في ظلام تقريباً؛ إذ لم تشعل المصابيح إلا على المذبح أمام بعض الأيقونات المعلقة بشكل خاص التي أُلقت بقعاً من الضوء الأصفر الباهت على وجوه القديسين الكثيرة. غمرت الظلال الأشكال والملامح. كانت الكنيسة ممتلئة بجسد ضخم بلا رأس بشن، فوقه بنوس في شكل قس معلق في الهواء.

خرج ماتفي من الكنيسة مشوشاً ومذهولاً ومصاباً بصداً وكأنه نسمم بأبخرة الفحم. حين وقفا برأسيهما الحاسرين في باحة الكنيسة، حك شاكر صدره وطقطق بلسانه.

"لماذا فعلوا شيئاً كهذا؟" قال "آه! يا لهم من أناس سيئين! يا له من ضرر!"

"اصمت" قال كوجيمايكين "استمع إلى ما يقولون"

قالوا أشياء كثيرة بطرق كثيرة، لكن كانت كلها في أصوات منقبضة حذرة ومكتومة.

"أراهن بأن الإنكليز رشوهم ليفعلوها"

"أو الأتراك"

"نعم الأتراك. إنها من أعمال الأتراك"

"لأنه هزمهم"

"احذر يا شاكر، ربما يبدأون في الهجوم عليك" همس كوجيمايكين

للتتري.

ازداد غضب التتري.

"أنا؟ أنا لست تركيا. أنا أعيش في روسيا. أنا أحب الروس!"

لكن كانت هناك دمعة متناقضة منخفضة تنذر بالشر.

"من حاول؟"

"هؤلاء-ار-"

"من هم هؤلاء-ار-؟"

"كيف لي أن أعرف؟ اسأل رجال الشرطة. فهم الأشخاص الذين

يعرفون مثل هذه الأشياء"

"تغيرات كبيرة يجب توقعها الآن يا قوم!" قطع الصمت صوت

متلهف حاد.

قوبلت العبارة بحماس مفعم بالأمل.

"نعم، بالفعل"

"تغيرات؟ هممم"

"الم تكن هناك تغيرات حين مات القيصر نيقولا؟"

"يجب أن أقول هذا! أولاً وقبل كل شيء، امتياز الخمر..."

"لتنجنا السماء من آخر!"

"وحقول الفلاحين على حريتهم...."

"والتجنيد الإجباري العام..."^(٩)

ذلك يعني ضرب الناس بقسوة"

"وجلب الثروات لكثير آخرين"

"ليحمنا الرب من هكذا تغيرات!"

زجر أحدهم من وراء ماتفني:

"من هؤلاء السادة وسياساتهم. ألا ترون أن الوضع شديد الضيق؟"

"صحيح" صاح بازاروف "هذا كله من صنع سادة البلاد"

حوالي عشرين مواطناً من مواطني البلدة البارزين تنافسوا في قذح ملاكي الأراضي الأغنياء - جشعهم، بذخهم، وحبستهم وغرورهم وكل العيوب الأخرى للطبقة المكروهة الغريبة دائماً.

"من هؤلاء الرجال، من يظنون أنفسهم؟" زجر شاكر.

"قديسون" رد كوجيمايكين بهدوء. "تعال لنذهب إلى البيت"

فعلاً ذلك لكن الألوان فات. رجل ضخم في قبعة بالية كان يلوح بذراعه فوق رؤوس الناس ويصرخ:

"انتظر، أنت أيها الوغد! ما اسمك؟ هيه، أيها الشرطي! سوف أريك أنت يا مشير المشاكل! امسكه يا زاخار ما اسمك أيها الشيخ؟ بازونوف؟ آه-ها!"

رحل ماتفني وشاكر. على بعد عشر خطوات فقط..... الثلج، الأصوات الناعبة للحشد، بات الشارع أهدأ وبدت كأن الضجة قد خرجت من البلدة وتسللت إلى الصمت في الحقول البيضاء.

اليوم، في غرفته، كل هذا عاد إليه في شكل ذكرى نشطة ومركزة ظهرت أمام عينيه مثل حروف مكتوبة مشتتة على جدران المعبد، تهدده وترهبه وتثير أفكاراً متناقضة.

"دعوها نجد مكاناً آخر تعيش فيه. ابنها يتغنى بالقيصر-القيصر بورك قلبه!- بينما أمه؟ انظروا إليها فقط! أين ستذهب؟ ليست هناك بيوت للإيجار، وحتى لو توفرت فإن أهل البلدة لن يعطوها لها، والاحتمال الأكبر أنهم سوف يضربونها- هذه حقيقة"

دخلت ناتاليا إلى الغرفة.

"هل علي أن أخرج الساور؟" سألت بابتهاج.

"أرسلني لي شاكر بسرعة!"

كان شاكر أيضاً في مزاج عال.

"لماذا تبترسم؟ اجلس"

جلس التري وهو يتبسم ويهز رأسه.

"هل تعرف لماذا أرسلت هي إلى سييريا؟" سأل كوجيمايكين بنعومة.

"هل تتذكر متى اغتيل القيصر؟ لقد كانت هي واحدة منهم"

هز شاكر رأسه.

"لقد ذهبت إلى سييريا قبل أربع سنوات من ذلك" وبدل الموضوع

قبل أن يقول سيده أي كلمة.

"بوريس يعرف كل شيء. باله من ولد رائع! أوه، نعم، هم أناس

رائعون. أوه، نعم!"

"توقف عن قول أوه أوه وقل لي بلغة بسيطة ومفهومة"

لوح التري بيده وضحك.

"كل شيء جميل. إنه يحب كل شخص، أنت وأنا وكل شخص على السواء. يا له من ولد مرح! أقول لها سيده وترد ليس سيده وإنما ايفجينيا بيتروفنا فقط. أقول سيده ايفجينيا بيتروفنا فتقول إذا خاطب ناتاليا بالسيدة ناتاليا أيضاً. كل الزوجات سيدات" أنا أضحك وبورس يضحك أيضاً وهي تضحك-تضحك وتبكي. إنها مسلية"

هل قلت بأنها ضحكت؟" سأل ماتفي.

"ضحكت كثيراً. قذفت برأسها إلى الوراء ثم ضحكت وضحكت"

شرب الشاي من الطبق وأصدر صوتاً، فقد حرق لسانه ونقل الطبق من يد إلى أخرى، نفخ على الشاي واستمر في الحديث المرح، وبدد البريق الفرح في عينيه مخاوف ماتفي.

"ماذا قالت؟" سأل.

"أشياء كثيرة. أوه كم هي بسيطة!"

"حسناً، يكفيننا منها" قال كوجيمايكين بحزم وبحسرة تنم عن الارتياح. "لكن لا تخبر أحداً أنها واحدة.... من.... هؤلاء"

"لماذا سأفعل ذلك؟ من سيصدقني؟"

"كل واحد مستعد لتصديق الأسوأ. شعبنا حاقد جداً، هم قادرون على أي شيء. بالنسبة إليها، لا يعنيها من تكون هي. كل ما نريده منها أن تعيش بهدوء ودون أن تلفت الانتباه، مثلنا نحن وكما نفعل. هذا كل ما في الأمر" من حين إلى آخر ظل يشرح لساكر شيئاً لم يكن واضحاً له نفسه. جلس التري والعرق يتفجر منه ويسيل من وجهه ويرمش بعينه كي لا يخر ناتالياً.

بينما كانوا يتناولون العشاء في المطبخ في ذلك المساء، لم تتحدث ناتاليا عن شيء سوى عن المستأجرة الجديدة وكانت مسرورة جداً من الأم وطفلها وفضولية جداً لتعرف الكثير عنها.

"إنها لطيفة جداً ومهذبة! مثل سيدة راقية حقيقية"

"ذلك لأنك لم تلتقي بأناس مهذبين ومحتشمين أبداً" قال ماتفي، الذي كان يشعر بالاطمئنان بالتدريج "أنت لم تري أحداً أبداً، لهذا هي تبدو لك كل هذا وذاك. لكن احذري من ثرثرة لسانك يا ناتاليا في السوق وأماكن أخرى. ففي النهاية هي متورطة مع الشرطة"

نظروا إلى بعضهم البعض دون التفوه بكلمة.

دق كوجيمايكن بأصابعه على الطاولة وهو يدرك تماماً أن هناك لغزاً في حياته الآن وليس هناك مفر منه. ليس ذلك ما أريده، فكرر باستسلام. ليحدث ما يحدث. ما هو الفرق الذي سيحدثه ذلك؟

تذكر أن شاكر في السنة الأولى التي عاش فيها في بيته كان يضحك فرحاً ومرتاح البال كطفل، لكنه لاحقاً فقد براعته ونحول ضحكه إلى نخرة مصطنعة غير ملائمة. لكنه الآن كان يضحك بالطريقة القديمة.

انه مغرم بالأطفال إن لم يضايقوه بأذن أنثى الخنزير أو يرموه بالحجارة، فكر.

حين استلقى على السرير في الليل سمع خطوات ناعمة تنتقل في الطابق العلوي وأحبها. سابقاً كان لا يسمع سوى الفئران في العلية، أو الريح التي كانت تدخل من النافذة المكسورة، فتخط الأبواب وتبعثر الأشياء في الزوايا. في ليالي الشتاء الباردة الهادئة، حين تقف الذئاب في الحقول وتطلع نحو البلدة وتعوي متعجبة ومستهبة، كانت العلية مملوءة بطنين خفيف وكأنه

رد متعاطف مع عوائدها، يستحضر كل أنواع الذكريات المرعبة، بيلاجيا المغطاة بالدماء، والده الذي أصابه الشلل، الاختفاء الغامض لسوزوزنت، خثرات الدماغ الرمادية لكلوتشاريف، وتذكر الكلاب وألبوشا الورعة شبه المعتوهة، وشعر بالتوتر حين تصور كيف كان شكل شين-شان المنسول.

حين تزعق عواصف الشتاء وتقصف كدوامة فوق البلدة لتطمس البيوت بالثلج حتى أسقفها وتضرب الجدران ومصاريع النوافذ بأجنحتها الممزقة، كان يتخيل مخلوقاً ناعماً وصامتاً ضخماً، لوى نفسه في كرة من الأسمال، يتدحرج من طرف من الأرض إلى الطرف الآخر ثم يسقط الحصون ويملاً الأفجاج ويسحق البلدات والقرى ويضغط الخرائب المدمرة في داخل الأرض أو في داخل جسده المخيف الذي لا رأس له دون أي ضجيج، دون تطفل يبتلع المخلوقات البشرية وهو يتدحرج ويكبر ثم يكبر، لا يترك شيئاً في أثره سوى أرضاً ياباً وصرخة كثيفة عالقة في الجو.

كانت الأيام مليئة بواجبات صغيرة لذلك مرَّ الشهر الأول الذي عاشت فيه المستأجرة بسرعة في بيت كوجييايكن قبل أن يدرك ذلك. حدثه شاكر عن إعادة وضع الموقد في العملية ومد أرضية جديدة وإجراء عدد لا يحصى من الإصلاحات. انزعج ماتفي:

"كل هذا سيكلفني أكثر من الإيجار الذي ستدفعه لي خلال ستين" قال معترضاً.

"وماذا في ذلك؟" رد التري مبتهجاً. "يقول التري إن (الرجل الصالح أئمن من المال).

"ما بزعجني ليس المبلغ الكبير من المال وإنما الطرق والنشر"

بينما كانت العلية تُرَّم شغلت المستأجرة غرفة الطابق الأرضي التي ماتت فيها بيلاجيا. كوجيما يكين اقترح هذا بنفسه، لكن حالما وجدها تعيش بجواره شعر بالارتباك والخوف حتى من الاقتراب منها، ولهذا ذهب بعيداً في رحلة لشراء القنب.

على الطريق، رزحت الأفكار المترامية الثقيلة المرائية نفسها التي تدور حولها على قلبه ولم تنعشه، ولم يكن هناك سوى شيء واحد واضحاً له: إنها غريبة هنا أيضاً مثلي أنا.... بعد رجوعه إلى البيت واكتشافه بأن غرفة بيلاجيا أضحت خالية، تحسر وشعر بالندم.

جاء الشتاء، وفي كل صباح يفرق وحل الطريق وأغصان الأشجار وأسقف البيوت القصديرية والكنائس في الصقيع، وتشتت الريح الباردة ضباب الخريف الرقيق، ويصبح الهواء الرطب الضبابي فضاءات فارغة فسيحة داخل المشهد، وتزداد عتمة الغابات ويظهر العشب الجاف بموج بكآبة على التلال الجرداء التي تطوق البلدة.

احتفل المجندون بإجازاتهم لكن بصخب أقل من المعتاد هذه السنة؛ إذ لم يخلعوا سوى ثلاثة من أعمدة إنارة السوق، وكسروا نوافذ بيت المراقب الريفى، وهدوا قسماً من السياج الذي حول باحة كنيسة القديس نيقولا ليصنعوا المهرات حين اشتبكوا في قتال بالقبضات مع صبيان المستوطنة. وفي باليميري ارتعب ابن أخ الفلاح الغنى شابونوف من فكرة الخدمة العسكرية، فشنق نفسه، لكنه أوقف في الوقت المناسب.

استطالت المساءات حتى بدت لانهاية. سابقاً كان مانفي يمضيها في المطبخ يقرأ بصوت عال المقالات الدينية القصيرة، بينما تنشغل ناتاليا في الخياطة، ويقوم شاكر بواجباته الدينية، ويجلس ماركوشا حمال الفناء الأتبع

على الأرض يبري العصي ليصنع أقفاصاً قوية ومزركشة للطيور. أحياناً كانوا يلعبون الورق، ألعاب مثل "حار" أو "ورقتك هي الرابعة"، وفي أحيان أخرى كانوا يجلسون ليغتربوا الناس أو يستمعوا إلى روايات ماركوسا عن الأشياء التي يؤمن بها الناس، عن السحرة والمشعوذين وحيل الغيلان والأرواح الشريرة وعمليات البحث عن الكنز المفقود.

لكن الآن بات الشخص الذي نال الاهتنام الأكبر في المطبخ هو ابن المستأجرة، هذا الصغير النشيط بشعره المجعد وأنفه الدقيق وعينيه المغمضتين بالحبوبة يستأثر بكل شيء، وكان يأتي راكضاً إلى الطابق السفلي منذ الصباح ويمد يده بأظافره المكسورة:

"جئت لأساعدك يا ناناليا" كان يعلن بطريقة عادية.

كان يجلس بجانبها بينطاله الخشن وحذائه اللبادي ذي النعل الجلدي وسترته البنية التي بدت وكأنها فصلت من معطف رجل وقلنسوته التي من جلد الفقمة التي كان يدفعها للوراء إلى مؤخرة رأسه دائماً. كان يرد على كل أسئلتها في نغمة عادية وهو يساعدها في قشط الجزر.

"كيف أتيت من تلك المسافة البعيدة؟" سأله مرة.

"ذلك بسيط جداً، في عربة"

"من المفترض أنك رأيت بلدات كثيرة جداً؟"

"دياترنبرغ ويوم وسارابول، لكن الأفضل كانت قازان التي يوجد فيها سيرك ولديهم حصان يبدو مثل نمر"

"يا رب السموات"

"كله مخطط وله ساقان طويلتان وليس هناك شيء يخفى عن ذلك"

الحصان!"

حين قدم وصفاً مفصلاً لذلك الحصان الذي يشبه النمر، نفض قشور البطاطا عن بنطاله وركبته والتفت إلى شاكر:

"شاكر، أعطني شيئاً آخر أفعله"

"تعال معي، دعنا نذهب إلى مشغل الحبال"

رحب الشغيلة بالطفل بتكشيرات عريضة ونظرات فضولية.

"صباحكم سعيد أيها السادة المهذبون" قال بوريس بوقار وهو يرفع قبعته عن رأسه "ليكن الرب معكم!"

"شكراً لك" ردوا عليه وهم يمشون متساقلين فوق التراب البابس المرصوص في صنادلهم.

"ماركوشا، أعطني شيئاً أفعله!"

"تفضل أيها الصبي" قال ماركوشا وهو يثر. لماركوشا عينان ضيقتان في وجه ذي وجنات عالية ولحية طويلة حمراء. وحين تكلم مع بوريس امتط فمه الكبير في تكشيرة إلى أذنيه المديبتين المشعرتين كاشفاً عن أسنان صفراء كبيرة.

"احذره يا بوريس!" حذر الشغيلة الطفل "إنه ساحر.."

"ليس هناك سحرة إلا في الخرافات" قال الطفل ابن السابعة بازدراء "إنهم غير موجودين في الحياة الحقيقية"

هزت قهقهة الرجال الهواء الرطب الذي امتلأ برائحة القش الحلوة.

"حسناً، لن يحدث ذلك أبداً!"

"أسمع ذلك يا ماركوشا؟"

"ذلك يضع حداً لك يا ماركوشا".

طبطن إيفان شبه الأعمى على ظهره.

"أوه، يا له من شخص حاذق أوه يا له من عظمة ذكية!" وقهقهه.

اهتز كرش ماركوشا، لكن شاكر ضيق عيناً قلقاً على الرجال.

كوجييايكين الذي أفزعه ما رآه من الطفل، تجنب التورط معه في محادثة، فقد انتهت محاولات عديدة سابقة بصورة غير مرضية؛ إذ لم يفهم أسئلة بوريس وأجوبته ووجد الكثير منها وقحة.

"هل نحب العيش معي؟" سأل مرة.

رمش الولد بعينه ودفع قلنسوته إلى مؤخرة رأسه.

"ما الذي جعلك تظن أنني سأعيش معك؟"

"حسناً-ار- لمن هذا البيت؟ وهذا الفناء ومشغل الجبال؟"

"والبلدة؟".

"البلدة للقيصر"

فكر بوريس.

"ما هي مهنتك؟" قال أخيراً.

"أنا، لدي مشغل جبال"

"كلا" قاطعه بوريس بخبطة من قدمه "ما هي مهنتك؟"

"أنا؟ لماذا، أنا السيد، أراقب الأشياء"

"أنا لم أرك في الجوار أبداً".

"ما هي مهنة أبيك؟"

"أبي؟"

"نعم"

"هو يقرأ الكتب ويكتب الرسائل ويرسم الخرائط. لقد كان مريضاً جداً. كان يعمل طول الوقت حتى في الليل ثم مات بعد ذلك".

لقى الطفل نظرة مستعجلة في الفناء الذي خيمت عليه سماء رصاصية ومشى مبتعداً، وكان الرجل الثلاثيني يراقبه وفكر، إنه يكذب في كل شيء.

في مناسبة أخرى قال له ماتفى:

"كيف حال أمك؟ أهى بخير؟"

"نعم، شكراً لك"

تحيل ذلك، الآن، هتف كوجيمايكين لنفسه متأثراً بكياسة الطفل.

"هل هى لوحدها؟"

"إنها بالغة" رد الطفل بصورة تعليمية "فقط الأطفال من يشعر

بالوحدة"

"حسناً، أنا بالغ لكننى أشعر بالوحدة"

"إذا اقرأ شيئاً ما" نصحه بوريس "روبنسون كروزو أو المجلة الروسية

لكن روبنسون كروزو أفضل" (١٠)

أتساءل ما هى مواضيع المجلة الروسية، فكر ماتفى.

حافظ كوجيمايكين على صمت مزعج. قلب هذا المواطن الأوكروفي

اخترقته طعنة إشفاق من أجل هذا الصبي يتيم الأب وفكر، ماذا لو تبين بأن

والدى هذا الصبي قد شارك فى تلك المعركة؟ وجد موقف الأم نحو ابنها

أكثر من غريب. ونساءل: ألا نحب؟

فى أحد الأيام اختفى بوريس، رفع شاكر وناتاليا الإنذار لكن المستأجرة

قالت بهدوء حين جاءت:

"ليس هناك ما يبعث على القلق، سوف يعود فهو معتاد أن يذهب إلى

أى مكان يحب"

"أوه يا حبيبي، أوه يا حبيبي" صاحت ناتاليا مثل دجاجة مذعورة
"معتاد أن يذهب حيثما يشاء! كيف يمكنك السماح له بشيء كهذا؟ البلدة
كبيرة جداً ومليئة بالكلاب والسكراري والصاحين السيئين جداً"
"دعني يرى الحياة كما هي عليه" قالت الأم بضحكة صغيرة.

هل هي غير خائفة فعلاً؟ فكر ماتفي، وفي نظرة سريعة عليها وعلى
وجهها غير القلق الذي حثه أن يقول لها:

"هو في السابعة من العمر، كما تعرفين"

"سيكون في الثامنة في كانون الثاني/يناير"

قام ماتفي بحساب سريع: تخيله.... في نيسان/أبريل.

شاكر الذي وضع قلنسوته على رأسه، ركض إلى الشارع وعاد بعد قليل
بيوريس الذي رغم كونه مزرقاً من البرد كان سعيداً بمغامرته. فركت
ناتاليا يديه بالفودكا بينما كان يخبرهم بما حدث له.

"طاردني صبيان كبير أن لكتني هزرت قبضتي عليهما"

"لا تكذب كذباً أبيض يا بيوريس" نصحته أمه قائلة.

"كيف تعرفين أنني كنت أكذب كذباً أبيض؟" سأل الطفل بدكاء.

"لأنني أعرفك"

"هما لم يفعل ذلك حقيقة. لم يحدث شيء له على وجه الخصوص. كان
الناس يتمشون ذهاباً وإياباً فقط. لم يكونوا كثيرين. رمى أحد الرجال كلباً
بقطعة جليد وسخر الشرطي منه. كان هناك زاغ ميت بلا رأس ملقى قرب
الكنيسة"

"الآن أنت تروي الحقيقة" قالت أمه بلطف وهي تربت على خصلات
شعره المجعد.

"نعم" قال الطفل وهو يسحب نفساً عميقاً.

"كل الحكايات المشوقة التي ابتدعها كانت الأم تقضي عليها في مهدها!"

"إنه عالم عظيم لكن ذلك مضر. على المرء أن يعرف الحياة وليس أن يبتدعها"

انقضى الأمر وكأن تلك الكلمات كتبت بحروف كبيرة، إذ انطبعت في ذاكرة كوجيمايكن على الفور، لكن معانيها لم تكن واضحة له.

"هل ابتداع الحياة ممكن؟"

لاحظ أن للمستأجرة طريقتين في الكلام: أحياناً تتكلم في نغمة ساخرة متفطرسة وارتجالية، وفي أحيان أخرى تتكلم بجدية وكأنها تطلب من الآخرين ضرورة تصديقها. دائماً تقريباً هناك تعبير من العدوانية والمقت في عينيها الداكنتين اللتين تضيقان بثقل رموشها وحاجبيها، تزم شفيتها ويبدو فمها مثل زهرة همراء شائكة، وكانت تقول عبر أسنانها.....:

"لكن ذلك غباء! بلاهة!"

كانت تعتدل في هيئة متحدية، وتسقط كل ثنايا ثيابها في خط مستقيم مثل ثنايا ألعاب خشبية منحوتة أو أيقونات مرسومة.

نادراً ما كانت تذهب إلى الفناء أو المطبخ. قالت ناتاليا إنها تجلس تكتب رسائل من الصباح حتى الليل ويأخذها شاكر إلى مكتب البريد يومياً تقريباً. مرة أخذ كوجيمايكن المغلف من يد التري وقرأ مذهولاً:

"سعادته..... نعم، سعادة جورجى قسطنطينوفيتش منسوروف"

أسمع ذلك يا شاكر؟ اسمها منسوروف أيضاً. هل يمكن أن يكون جلالته عمها؟ تفضل يا شاكر، ضعه في البريد. احذر أن تضيعه!"

منذ ذلك اليوم، أحرز ميزة في الانحناء لها أولاً وكانت انحناءاته أعمق وأكثر احتراماً.

أحياناً كان يصادفها في المدخل الرئيسي أو على الشرفة وهي تنادي ابنها. كانت عادة تدندن بشيء لنفسها وهي تمشي، حاجباها يرتجفان قليلاً، منخرا أنفها المستقيم بتوسعان. هناك سلاطة في وجهها لا تتناسب مع جسدها القوي والجميل. هي لم تهتم بالبرد. كانت دائماً تقريباً تقف لوقت طويل في الأيام الشتوية بدون معطف في انتظار ابنها. يصبح خذاها أحمرين من البرد ويغطي الصقيع شعرها، لكنها لا ترتجف أو تحني كتفيها.

"هذا جيد لها، فهي معتادة على العيش في سيبريا، فكر ماتفي.

أراد بيأس أن يتحدث معها حول موضوع بسيط مبهج ما، لكنه لم يجد الشجاعة ولا الكلمات لذلك.

في أحد الأيام أصيب إصبع بوريس بشوكة إصابة سيئة أثناء تمشيط القنب في الورشة. نقطت قطرات الدم بغزارة على الثلج. احتشد الشغيلة حوله يراقبونه وهم يفتحون قبضته الملوثة بالدم ويغلقونها ويطبقون بأسنانهم ويتممون بأصوات خشنة ويضغطون وجوههم المكفهرة عليه مثل كلاب تشمشم جرواً غريباً.

"هيه سوف أزيل الدم بالسحر" قال ماركوشا، سجد وصلب نفسه واتخذ هيئة صارمة جداً وتمتم مهدداً فوق يد بوريس: مثل ماء يخرج من فرخ بط، مثل حظ الشيطان السيئ... ها هو... رجل عجوز يأتي بأقصى ما يستطيع حصان رمادي. توقف، ارحل! اللعنة على الحصان! في السماء، بحر أزرق وحجر أزرق، سوف أصلي للحجر -"

"لا تفعل!" صاح الطفل "دعني أذهب!"

لكنهم لم يعيروا انتباهاً لما قال.

"هذا سحر ضد جروح الناس وليس ضد الإصابة بالشوك" عارض إيفان، ذو الشعر الرمادي والعين الحمراء التي لا تبصر.

"لا تدس أنفك في المكان الذي لست مرغوباً فيه" قال ماركوشا.

لاحظ كوجياماكن كل هذا من المكان الذي كان يقف فيه في الحظيرة. في البداية امتنع عن التدخل لكن حين صرخ بوريس بصوت عال، ارتعب وأخذ الطفل إلى المطبخ.

جاءت المستأجرة إلى الطابق السفلي. كانت منزوعة هذه المرة ووبخت ابنها وهي تغسل يده.

"إنها لا تؤلم، لقد كنتُ خائفاً فقط" قال بصعوبة.

"مم كنت خائفاً؟ أنت لست خائفاً من كونك..... أليس كذلك"

"كلا اسمي يا ماما! لقد قال أشياء مضحكة-ماذا قال يا عم ماتفي؟"

"سحر لوقف نزف الدم" شرح كوجياماكن.

"هل تؤمن بالسحر؟" سألت المستأجرة دون أن ترفع رأسها لتتأمل.

"ولماذا لا؟ إنه يوقف نزف الدم، ألم يفعل؟"

"من أوقف النزف كان الخوف وليس السحر" قالت المرأة باختصار.

"كانوا مثل الهنود البربريين يا ماما وكنت الأسير الأبيض"

"هراء. أنت هندي نفسك!" ردت عليه بنظرة استياء في جهة ماتفي

وقالت مهددة: "كنت أود أن أبيع ذلك الساحر-ار"

صر كوجياماكن كتفيه معتبراً هذا رداً، وخرج من المطبخ وسمع من

خلال باب المطبخ شبه المفتوح صوت التري بتكلم بنغمة ناعبة:

"يجب ألا تدعيه يخرج إلى هناك لوحده. يا آنسة ماما! أشياء سيئة كهذه تحدث هناك! يقولون كلمات سيئة ويحبون رؤية الدم. يجب ألا تدعيه"

"أنت جعلت من ابني غثناً يا شاكر. يجب عليه أن يرى كل شيء"
"كلا، كلا، يا آنسة ماما! يجب ألا يفعل. إنه ليس بحاجة إلى ذلك. وأنت لا تحتاجينه والسيد لا يحتاجه. الناس الطيبون لا يحتاجونه. على الناس الطيبين أن يخافوه!"

ردت المستأجرة بضحكة رنانة.

"كلا يا شاكر، أنا لا أتفق معك"

كوجيما يكين الذي فهم مخاوف شاكر وثمنها، لم يفهم شجاعته، وقد انزعج من ذلك.

انتظري فقط أيتها السيدة الشابة، سوف تتعلمين الخوف منه! غرورك هذا سيتآكل، وبعد ذلك ستصبحين معتدلة وقابلة للطرق! قال لنفسه.

مملوءاً برغبة منحرفة بأن يراها خائفة ومرعوبة، استدعى في ذهنه كل الرعب الهادئ في حياة أو كوروف الذي أنكرته المرأة دون معرفة، واحتقرته دون أن تذوقه.

استرجع في ذهنه كل الإيذاءات الساخرة وكل الخطابات التشبيفية التي ألقتها، وقد امتعض من ذلك. اعترف بعجزه عن مجارة تلك المظاهر الغريبة غير المفهومة في شخصيتها التي منعت من الاقتراب منها، والتي خلقت حاجزاً غير محسوس وغير ملحوظ بينها. قام بجهود ملحة للتحدث معها، لكن في كل مرة كان يتعثر، ولم يستطع فهم ما كانت تقوله، وكان خجولاً من الاعتراف بذلك.

كانها حين تحكي كلماتها تشكل نفسها في عرى متشابكة، كان يعلق فيها بشكل لا خلاص منه. لم ير سوى رؤيا غامضة وضبابية من وجهها الجميل، من خلال هذا الشرك من الكلمات التي بدت غريبة له، وكأنها تتكلم بلسان أجنبي.

في أحد الأيام شعر بنحو خاص بالهوة التي تفصلها عن كل شيء مألوف لديه. كان جالساً في المطبخ يكتب رسالة، وكان شاكر يوازن الحسابات، وناتاليا نخط، وأما ماركوشا فكان يجلس على الأرض بجانب المدفأة ويبري العصي ويحكي لبوريس عن القدر الإنساني.

في الحال فُتح الباب بهدوء ودخلت المستأجرة. هزت إصبعها مهددة بوجه ابنها الذي كان مستلقياً على قدمي ماركوشا. جلست بشكل غير واضح بجانب ناتاليا. جلست كما لو أنها جاءت تتجسس على أحد ما.

"حسناً" كان ماركوشا يقول بصوت أجش "لهذا تكشف أن قدر الإنسان يولد معه ويتبعه طيلة حياته مثل ظله، إن استدار يميناً يدفعه يساراً وإن استدار يساراً يدفعه إلى اليمين، وهكذا يستمر طوال حياته يدفعه ويحرفه هنا وهناك.

"كيف هو القدر؟" سأل بوريس متأملاً.

"القدر؟ نسبي يختلف من شخص لآخر. إنه للبعض شراب وللبعض الآخر غرق"

"لكن كيف يبدو؟"

توقف كوجياماكي عن الكتابة، وراقب المستأجرة التي كانت تصغي بانتباه وتجلس مستندة إلى الجدار. أمالت رأسها إلى أحد الطرفين، وزمت شفتيها، وضيق عينها، فيها هي تلعب بأهداب شالها.

"كيف يبدو؟" كرر ماركوشا قائلاً وقد نجمدت جبهته. "إنه يبدو مثل كل الأشياء. مرة يبدو فلاحاً على نهر كامارا. سحب شبكة صيده ورأى أنه أمسك بسمكة كراكي صغيرة. التقطها ورفعها إلى الأعلى من خياشيمها، فبدأت تدافع عن نفسها بصوت بشري: "دعني أذهب يا إيفان، أنا قدرك!" يمكنك أن تشق بذلك. أسقطها وفر مسرعاً! حسناً، كان محظوظاً في الهرب، ولكن بعد ذلك بقليل بدأت زوجته تتوجع، وبعد خمسة أشهر أسلمت الروح"

"لماذا؟" سأل بوريس بنظرة حذرة إلى داخل الموقد.

"ذلك واضح جداً. لاقت قدرها. مصيرها"

"وسمكة الكراكي؟"

"السمكة سبحت بعيداً. القدر يأخذ كل الأنواع يا ولدي. أحياناً يكون أرنباً وأحياناً كلب أو قط أو ورقة شجر ميتة حتى. هذا ما حدث مرة لفورنيج. امرأة كانت تمشي في الشارع في المطر في ربح شمالية عاصفة، وكان الفصل خريفاً. عصفت الريح بورقة ميتة بوجهها والتصقت بخدها. نزعتها وكانت على وشك أن ترميها بعيداً حين سمعت صوتاً يهمس في أذنها: "يجب عليك أن تضعيني داخل قميصك وندفئني يا عزيزي أنا قدرك" أصيبت المرأة بالصمم من الرعب، وبدأت تركض بأقصى قوتها. حين وصلت إلى البيت وجدت زوجها واثنتين من أولادها مسممين باللفظ. حسناً، ماتوا وظلت تعيش مثل ورقة ميتة في الريح منذ ذلك الحين، وكانت تذهب حيثما تهب الريح"

توقف عن الكلام لفترة طويلة، ثم تشاءب، وسقط ظل رأسه الأشعث على سطح الموقد الأبيض المنبسط، وانهمرت قشور رمادية نحيلة من ركبته في جدول ثابت صامت.

جذب بوريس نفساً عميقاً.

"هل الخنافس هي من أصدر تلك الضجة تحت الموقد؟" سأل.

"ربما الخنافس، ربما الفئران" قالت ناتاليا.

"أو غول" قال ماركوشا. "إنه يجب الاختباء تحت الموقد. تلك بقعته المفضلة"

تململت المستأجرة.

"حان وقت النوم يا بوريس" قالت.

"ليس الآن يا أمي. مازال الوقت مبكراً"

"كلا، يجب أن تذهب" قالت مصرة.

نهض الطفل. هز رأسه، وجال ببصره في المطبخ كأنه يراه لأول مرة.

"إذا تعالي أنت أيضاً يا أمي" قال.

"كلا أنا سأبقى وقتاً أطول"

اتجه نحو الباب متردداً. فتحه. حذق في الممر، وخطا ببطء فوق العتبة.

"يجب أن يذهب أحد معه" قالت ناتاليا وهي تضع خياطتها من يدها

"اذهب أنت يا شاكر"

قفز التري، لكن المستأجرة مالت إلى الأمام وأوقفته قائلة بصرامة:

"من فضلك، ابق حيث أنت"

أنساءل لماذا؟ فكر كوجييايكين. وقال بصوت عال:

"ربما الصبي خائف"

"مم هو خائف؟" سألت المستأجرة، وهي ترميه بنظرة كأنها تتحداه في

عراك.

"من الظلام" قال شاكر بابتسامة جذابة، أما ماركوشا فبدأ يقهقه.
"إنه يعرف أن الليل مظلم دائماً" قالت المستأجرة وهي تنظر إليه بزاوية
عينها.

جلس الجميع في صمت يصفون إلى الأقدام الصغيرة وهي تنسلق الدرج
بصعوبة والتي تعثرت عند الدرجة العليا، ثم سمعوا الباب يصدر صريراً
عند فتحه وعند إغلاقه.

"لقد أصبح هناك" قالت ناتاليا وهي تطلق تنهيدة ارتياح. "يمكنني
تخيل كيف يفترض بقلبه الصغير أن يدق"

رأى كوجياماكين ثلاثة أزواج من العيون تحديق بالمستأجرة، زوجان
ينظران بتوبيخ وتأنيب، وزوج آخر في متعة حاقدة. شعر بالأسف من
أجلها، لكنه لم يستحسن سلوكها. أعجب بها وفكر بشعور قريب من
الحسد: إنها تمتلك شخصية!

أسندت ظهرها إلى الوراء ثانية وقالت في نغمة عالية جداً ومتعجرفة:
"أخبرنا شيئاً يا مارك"

ارتعشت أذنا الحمال، ورفع وجهه الملتهجي الأعمى:

"اسمي ليس مارك وإنما يليستي يا سيدتي" قال بفظاظة "إنهم ينادوني
بذلك فقط - مارك، ماركوشا لأن اسمي الأخير ماركوف. اسمي الأول
يليستي واسم الأب بيتروفيتش، يليستي بيتروفيتش. ذلك هو أنا"
شدت شالها ولفته حولها وأطلقت ضحكة قصيرة.

"حسناً جداً، أنا مسرورة لأنك أخبرتني ذلك. هذه الأقدار التي
تحدث عنها يا يليستي بيتروفيتش، هل هي شريرة؟"

نفض ماركوشا القشور عن ركبته، نخر، ثم بدأ ثانية بسحب الكلمات من فمه مثل القشور.

"إن أخذت القدر كما يأتي فهو ليس سيئاً، لكن إن أظهرت بأنك لا تستطيعين تحمله يجعلك تعانين"

"هل رأيت قدرك قط؟"

"ك- كلا. لكن هناك خباز في موروم رآه تقريباً. حاول وحاول لكن دون أن يفلح، ثم حدث أن تعلم سحراً سرياً من الكتاب الأسود. ذهب إلى تقاطع طرق في الغابة، نزع الصليب من رقبته وقال السحر، قاله مرة واحدة، مرتين- لم يحدث شيء. حين قاله في المرة الثالثة سمع عواء في الغابة "اووو-أي ي!" كان رجلاً شجاعاً، تفجر منه العرق وارتعش من رأسه حتى قدميه، لكنه استمر في قول السحر، وحين وصل إلى النهاية، آخر كلمة- كان هناك، يجبو إليه وهو يئن ويتأوه ثم لف ذيله بأقصى طاقته، هرب بأقصى سرعة ممكنة حملته فيها ساقاه، ومنذ ذلك اليوم فصاعداً التوى قلبه وانقلب إلى داخله"

"هل تؤمن بالرب؟" سألت المستأجرة فجأة وهي تميل إلى الأمام.

تبادل شاكر وناتاليا النظرات، وجفل كوجيايكين وكأن شخصاً غرز فيه إبرة.

هز ماركوشا رأسه ونفخ في الهواء كأنه يطرد ذبابة.

"حتى بهائم الحقول تصلي للرب يا سيدتي. انظري حين يكون القمر بدرأ فإن الكلاب تعوي. ما هو ذلك؟ وحين تسطع الشمس بقوة لا يستطيع الكلب رفع عينيه إلى السماء ويبقيهما على الأرض لأنه بهيمة أرضية، لكن حين يكون القمر عالياً في السماء يرفع عينيه."

"انتظر" قاطعته المستأجرة "أنا سألتك إن كنت تؤمن بالرب"
رفع رأسه بشكل أخرق وحقق بها من تحت حاجبيه الكثيفين:
"هل أنا أسوأ من الكلب؟"
"وأن الرب كلي القدرة؟"
"وماذا في ذلك؟"

"إذاً ما هو القدر؟" سألت "من أين دخل قدرك هذا؟"
أطلق ماركوشا نخرة، هز رأسه وانحنى على عمله مرة أخرى.
"القدر؟" قال في صوت صريح "القدر من الرب أيضاً. الأشياء كلها
تأتي من عند الرب. الشخص يولد - أنت مثلاً - حالماً تولدين يستدعي
الرب أحد الملائكة الرئيسيين ويقول له "أعطها قدرها" لهذا هو يعطيك
واحداً ويدونه كما يقول المثل لقد كتب عليه منذ ولادته. ليس هناك مهرب
من القدر يا سيدتي"

كان يتحدث بتلك اللهجة الموحشة متعمداً إثارة غضبها، فكر ماتفي.
الأفضل لها أن تترك الموضوع.

"إذاً هذا هو القدر بالنسبة إليك يا سيدتي. ليس الناس وحدهم من
لديهم أقدارهم وإنما البلدات والقرى أيضاً. مدينة قدرها أن تبني على سفح
جبل وأخرى في غابة"

"لكن عندها" أضافت بلطف "ينبغي أن الرب -"

لكن ماركوشا لم يدعها تكمل جملتها.

"ما ينبغي عليه فعله ليس من شأنك. سمح لنا أن نعرف هذا القدر لا
أكثر. وسوف نتعلم البقية عندما نموت"

انحنت وتكلمت في أذنه مباشرة وقالت بإصرار:

"هل تعرف من هم الملائكة الحراس؟"

"الملائكة؟ طبعاً أعرف" قال بإيماءة "الملائكة هم من أجل الحجاج الأتقياء الذين افتتنوا بالدين، المتنبؤون المجانين - وظيفة الملائكة أن يرعوهم، ولهذا يستطيعون المشي حفاة في الشتاء البارد دون أن يصيبهم شيء. إن مجرد تسميتهم بالملائكة الحراس هذا يعني أن وظيفتهم أن يجرسوا، ويعني أن الرب يحتاج إلى القوم الذين أرسلوا لحراستهم"

"وماذا بشأن القدر؟"

"القدر له وظيفة مختلفة. وظيفته أن يختبر الناس. أنت مثلاً، ولدت في العالم - أي نوع من الأشخاص ستتحولين إليه؟ هذا هو قدرك. دعينا نرى كيف ستفهمينه"

رأى كوجيمايكين أن المستأجرة كانت غاضبة، انشد حاجباها في خط مستقيم وظلال صغيرة تومض وتختفي على وجهها. شعر أنها تواجه صعوبة في البقاء جالسة كأن قوة ما كانت ترفعها عن المقعد. سعل قليلاً وقال في طهجة:

"يبدو أنك وجدتِ معتقداتنا غريبة نوعاً ما"

"هل هي معتقداتك أنت أيضاً؟"

لم يكن متأكداً أنها كانت كذلك، لكن بعد أن تفاجأ لم يستطع أن يقول إلا:

"أوه، يفترض أنها كذلك"

"وهل تؤمن بالقدر؟"

"الجميع يؤمنون بالقدر" قالت ناتاليا وهي تسترق نظرة إلى شاكر.

"إنهم ينشدون أناشيد عن القدر"

وضعت المستأجرة يدها على كتف ناتاليا، إذ كان من الواضح أنها كانت ترغب في قول شيء لها، لكن ماركوشا تابع الحديث بنفس العناد الذي أبدته هي:

"هناك كلمتان تتقاتلان مع بعضهما يا سيدتي" قال في نغمة جديدة "الرب قال "أنتم محكومون بالقدر" والشيطان يقول "أنتم أحرار". إنه يهمس بذلك في آذاننا ليضعنا على المسار الخاطيء، لهذا يعتمد الأمر على ما يسمعه الإنسان. كلمات الشيطان تسقط في قلوب البعض ثم يبدؤون بعدها في التفكير: أنا حر بأن أفعل ما أحب، وهكذا يصبحون إما حمقى أو ينحطون إلى مجرمين"

تجمد وجه ماركوشا، وانتصبت لحيته مثل أشواك النمس، وارتسم خطان عميقان من زاويا فمه إلى أذنيه وهز رأسه. إنه يضحك، اللعنة عليه، قال مانفي لنفسه.

"حين كنت أعيش في كوليفي، مقاطعة رازان جاء رجل إلى البلدة" تابع ماركوشا مرسلًا كلماته الصغيرة الواهنة التي تحبو وتتلشى في كل أرجاء المطبخ.. "كان الرجل يدعى فيودور ناتروسكين، ظن نفسه رجلاً حكيمًا وفعل، وقد عاش في موسكو وطرد منها لأنه ابتدع ديناً جديداً. حسناً، جاء إلينا في كوليفي وقال إن هذا ليس صحيحاً. قالها لكل شخص حتى للقس نفسه. من يعرف ما هو الرياني وما هو غير الرياني؟ ذلك شيء غير ممكن إلا في التخمين. أصفى إليه الفلاحون لبعض الوقت وابتسموا، لكن في أحد الأيام أمسكوا بلبص خيول فأنهالوا عليه ضرباً بقبضاتهم، فجاء ناتروسكين يركض وصرخ: "توقفوا يجب ألا تفعلوا. لهذا هجموا عليه أيضاً وضربوه بعمود أو بشيء ما لست أدري، وقتلوه. وها أنت. فكر ثم

قال "أنا حر لكن قدره يحطه وينزله. والأمر هكذا دائماً يا سيدتي. الناس الأحرار حياتهم قصيرة. لكن إذا أخذت قدرك كما يأتيك يمكنك العيش بسلام وسكينة. ليس من العقل أن تقفي ضد الريح، لا يمكنك أن تعرفي ماذا سيقذف بوجهك. هذا ما حدث لتاجر من معارفي"

مالت المرأة إلى الأمام كأنها تريد أن تقذف بنفسها فوق ماركوشا، ومدت يدها:

"الاعتقاد بمثل هذه الأشياء مدمر" قالت بصوت عميق ومهذب "أنت أذكى من ذلك بكثير. إنها تكبل روحك وتخدر عقلك، تخدره بشكل رهيب"

استند كوجييايكين إلى الأمام أيضاً، مَدَّ ذراعه عبر الطاولة وأغلق أصابعه بإحكام على حافتها البعيدة وأغمض عينيه تقريباً وابتسم توقعاً لما هو قادم. إنه لم يجب هذا الثرثار العارف بكل شيء والذي يشبه المشعوذ. لم يحبه أبداً، لكنه كان يرهبه ويخافه تقريباً. هناك شيء مخادع وغير صادق في وجه ماركوشا المريض بلحيته القاسية وأنفه الممدود وتكشيرته الممتدة من الأذن إلى الأذن، لكن هناك شيئاً غامضاً في شقي عينيه، شيء أصاب ماتفي بالجنون. كان ماركوشا عاملاً فقيراً وكسولاً. الشيء الوحيد الذي يتقنه هو صنع أقفاص الطيور التي كان يبيعها للراهبات أو في السوق، ويخبئ النقود في مكان لا يعرفه أحد.

اقترح شاكر ضرورة طرده من البيت أكثر من مرة، لأنه عامل كسول، لكن ماتفي لم يستطع أن يجبر نفسه على فعل ذلك.

"أوه، اتركه" كان يقول دائماً. "هولن يلتهم كل طعامنا ويتركنا جائعين، وإن نخلصنا منه فربما يصب حقه علينا بطريقة مزعجة"

كان هناك سبب آخر لعدم التخلص من ماركوشا، قصصه عن قوى غامضة لا تقاوم، تتحكم بحياة الناس التي توافقت مع كل شيء جربه ماتفى ومربه وعرفه، وكل الذي فكر فيه طويلاً في ظلمات الليل، ربطت الماضي برباط قوي. جدار رمادي عالٍ مطوق كان كل يوم جديد يضيف إليه قرميدة جديدة. قامت قصصه بفعل مخدر لشخص كان يرفع رأسه أحياناً ويحاول أن يلمح شيئاً أبعد من ضجر الغد الممل. وهنا بدت المستأجرة، كما لو أنها تبيد الصورة الظليلة المظلمة لرأس ماركوشا على المدفأة بتلويع من يدها الرشيق.

تابع ماتفى عن كذب تلاعب التعبير على وجهه الذي أنير بوهج لطيف من عينيه، ولاحظ الارتجاف الحساس لشفتيه، وأصغى إلى النغمات المهذبة للصوت الذي نشر جدولاً غزيراً من أعماق صدرها، جالباً رسالة كانت جديدة بالنسبة إليه وأهمته بإيمان راسخ: في البداية تكلمت عن أشياء بسيطة ومفهومة عن المسيح والرب الواحد والأناجيل التي اعتاد عليها ماتفى منذ زمن بعيد.

لكن بعد قليل أصبح حديثها ممزوجاً ببقع داكنة من كلمات غير معروفة له أحدثت فجوات في فهمه، وقبل أن يتمكن من تخمين معاني تلك الكلمات كانت تواصل وتتابع، فتركه هذا في تساؤل عن الرابطة بين الذي كانت تقوله وبين ما قالت قبل لحظة واحدة.

لا تستعجلي، قال في ذهنه لأنه خجل من قول ذلك جهراً وبصوت عال. "هذا كله أكثر من عتيق وليس له أي علاقة بالديانة المسيحية" كانت تقول بلطف مثل أم لطفلها "الأمر هو أننا نحن السلافيون....."
"سلافيون؟" فكر كوجيباكيين.

"مولعون بالدين - طائفة دينية....."

طائفة؟ كرر كوجييايكيين الكلمات الغريبة لنفسه، احتار وانزعج. في هذه الأثناء هاجمت أذناه كلمات جديدة أخرى: ثقافة، ملاحم، تصوف. كان هناك الكثير والكثير منها، التي غلفت ايفجينيا بتروفنا بنوع من الضباب الذي عتم ملامحها وجعلها غريبة وأبعد منالاً.

تطلع حوله بحسرة عميقة. ناناليا غلبها النعاس ووخزت إصبعها بالإبرة، والآن بعينين مفتوحتين تمتص الدم وتبصقه وهي تصدر ضجة. كان شاكر منكباً على الطاولة يخربش على قطعة ورق بقلم صدي. أما ماركوشا فلم تتوقف سكينه عن اللمعان وهو ينتج حلقات وهلالات من القشور.

فجأة انقطع صوت المستأجرة مثل خيط مشدود جداً. نهضت، ألقت نظرة على الجالسين هناك وقالت بنغمة ضعيفة اعتذارية:

"لكن لا أظن أن هذا يثير اهتمامكم"

أسقط ماتفي نظره نحو الأسفل، وهو غير مرتاح، وكاد أن يقول إنها كانت تتكلم بسرعة كبيرة ومن الصعب فهم ما كانت تعنيه حين ردت ناناليا برياء:

"لا تثير اهتمامنا؟ كيف يمكنك قول شيئاً كهذا يا يفجينيا بتروفنا؟ طبعاً لقد أمتعنا هذا طبعاً"

"قرأنا يقول الشيء عينه" لاحظ شاكر باستحسان وقور حين هز أصابعه المتييسة لتعود إليها الدورة الدموية.

"شكراً لك يا شاكر" ابتسمت المستأجرة وسوت بحركة بارعة شالها الذي كان قد انزلق من على كتفها ثم اتجهت إلى الباب وهي تتنهد:

"آه، حسناً، طابت ليلتكم".

خشي كوجيمايكن أنها شعرت بالإهانة. اعتدل ماركوشا بحذر ورفع رأسه ومط فمه من الأذن إلى الأذن. "لم نلتقط أي ذرة واحدة، هاهـا" قال مقهقهاً "علقت كل الحقائق في أذنيها لكنها لم تلتقط أباً منها. ليباركني الرب! ما الفائدة من كل هؤلاء الناس الذين على أرضنا؟"

نهض ماتفي وقال بفظاظة:

"لم يفهم أحد كما يبدو. إنها ليست الوحيدة"

"هَذَا ما قلته تماماً!"

نظر شاكر إلى ماركوشا وكشر:

"أنت تحاول إخافة الناس، أما هي فتتحدث عن الرب وليس لتخويف الناس"

"إنها صغيرة جداً في العمر" رد ماركوشا "كل شخص يكون شجاعاً في عمر الشباب، لكنها ستخاف أيضاً حين تصبح أكبر عمراً"

استدعى ماتفي في ذهنه ما قالته عن المسيح حين بدأت كلامها، وكأنها عرفت المسيح الحي ومشيت معه على الأرض، تكلمت عنه ببساطة كبيرة وبشكل حيمي.

ذهب إلى غرفته الخاصة وأخرج الإنجيل، وقرأ مرة أخرى المقاطع التي ذكرتها. ولدهشته وجد بأن المسيح كان أبسط وكان مفهوماً أكثر مما كان يعتقد دائماً. وفي الوقت نفسه شعر وكأن برية فسيحة يصعب اختراقها وقفت بينه وبين بلدة أو كوروف.

وهكذا كان الحال مع ما قالته، استغرق في التأمل حزيناً. واضح وبسيط لكنه ناء جداً.

كيف له أن ينام في تلك الليلة، فقد تردد صدى الكلمات غير المألوفة في عقله ودقت على قلبه كما تدق طيور متجمدة على زجاج النوافذ، بينما بزغت في عقله رؤيا عبارة عن صورة لوجه امرأة لطيف. في الخارج كانت الريح تنن والثلج ينساقط مرتطماً بالأشجار والأسقف، أما نقاط الماء فكانها كانت تعلم وتحدد مرور الدقائق. كان هناك ذوبان في تلك الليلة.

أخيراً بعد أن غرق في النوم داهمته أحلام غريبة. رأى ظلالاً رمادية كبيرة تندفع فوق الحقول والتلال الجرداء وهي نموء قائلة: "سلافيون! سلافيون!" كما رأى ماركوشا مع أقفاص طيوره مكشراً بتمنم "هذا ما قلته تماماً". على واحدة من التلال التي تعرت من الثلج وقطعت إلى صدوع - نازفة بواسطة الريح، استلقى هناك شخص يصيح بصوت عال: "الأمر ليس هكذا! الأمر ليس هكذا!". بدأت الدبكة في الصباح والغربان بالنعيق ونادى جرس الدير لصلاة الصبح في صوت حاد متردد.

استلقى مانفي وعينه مفتوحتان لنصف ساعة أخرى تقريباً، ثم ذهب حافياً إلى النافذة وحدث إلى الخارج طويلاً بكأبة الصباح التي كانت تتلاشى ببطء.

هل يجب أن أذهب إلى قداس الصباح؟ سأل نفسه. لسبب ما تذكر كيف دست ناتاليا في يده ورقة مكتوبة قبل ثلاث سنوات وابتمت في مكر حين همست: "هدية صغيرة، يا مانفي سافيليفيتش". فتح الرسالة المكتوبة وقرأ كتابة مبهرجة: "إن كنت لا تستطيع كتم السر، في الساعة الحادية عشر ليلاً إلى شجيرة الكرز التي بجانب جدار الدير ستعرف شيئاً هاماً جداً"

الراهبات يتهادين في الشقاوة.....، استتج بدون أن يتفاجأ.

كانت كل البلدة تعرف أن أشياء كهذه تحدث باستمرار في الدير. مرة
تفاخر ضابط شرطة المنطقة وتباهى بأنه يعرف راهبة نديهاها ليسا متساويين.
واحد يزن خمسة أرطال والثاني ستة أرطال وربع.

لكن "بدون إثم لن تكون هناك توبة، وبدون توبة لن يكون هناك
خلاص" كانت مغامرات الراهبات الطائشة شأنهن هن، أما صلواتهن
فللعالم أجمع.

ذهب إلى مكان اللقاء متردداً بدافع الفضول أكثر منه رغبة، وحينما
وصل المكان تمدد على التراب الدافئ، ونظر من خلال صدع في الجدار.
كانت ليلة مقمرة، وخيم سكون ناعس على حديقة الدير التي ازدانت
بالظلال. فجأة تحرك أحد الظلال، وكان هناك طحن حصى وشيء أسود
يتمايل نحو الجدار. خن على الفور من الارتفاع والمشية أن الشكل لرايسا
وهي امرأة في منتصف العمر اعتادت على الشرب، وكانت مهمتها تقديم
الضيافة للحجيج الذين يتوقفون في الدير. تذكر أن عينيها صغيرتان
وغارقتان في الدهن، وكانت تنظر بحلاوة كلما قابلها، وتغطي وجهها
ابتسامة مثل زبدة على حلوى مقلية حارة. أشعرته تلك الذكرى بالمرارة
والعار.

تظاهر بأنه لم يسمع تنهيدتها ونحنحتها، وظل مستلقياً على الأرض حتى
الصباح. لقد افتقر إلى الشجاعة لينهض ويرحل. استلقى بلا حراك لدرجة
أن عصفوراً صغيراً رعديداً حط على ساق كاد أن يلامس وجهه، لكنه حين
لمح العينين المفتوحتين اندفع المخلوق الصغير بعيداً واختبأ وسط جذور
بعض الأعشاب.

تذكر أيضاً أن بوبيجا وسيطة الزواج في البلدة، حاولت أن تعطيه الفتيات اللواتي لم يردهن أحد: بعضهن مصاب بالحول وبعضهن الآخر يلثغن أو يعرجن، وإحداهن لديها طفل غير شرعي كمهر لها.

"لماذا تعرضين علي مثل هؤلاء الفتيات؟" سأل ماتفي موبخاً.

"أي نوع نحب؟"

"الفتيات العاديات"

"تختار البضائع لتناسب المشتري" ردت العجوز الوقحة بغمزة. "هل تظن أن أهل البلدة نسوا قصة زوجة أبيك؟ أوه، كلا لديهم ذاكرة جيدة، لديهم ذلك!" وارتعشت من رأسها حتى قدميها بضحكة صامتة.

وقف عند النافذة إلى أن استيقظ كل من في البيت، ثم غسل نفسه بسرعة. لبس وذهب إلى المطبخ ووقف في مدخل الباب. كان ماركوша جالساً إلى الطاولة ممسكاً ببوريس بين ركبتيه.

"إذاً أنا وثني، أليس كذلك؟ أوه نعم، شيء رائع أنها نعتت الناس بالأسماء، وثني. هم. نعم يا ولدي أنا أعرف.. لكل أنواع الأشياء لهذا عليك أن تحذرا أسأها أنت مثلاً، كيف يمكن التخلص من الثؤل. انظر هذه ثؤل على يدك"

دخل كوجيمايكين إلى المطبخ ولدهشته قال:

"لا تملأ رأس الطفل بلغوك"

ادخل قوله هذا السرور في قلبه.

رفع بوريس التنظيف والوردي الساحر حاجبيه وحياء بحرارة:

"عمت صباحاً"

صافحه ماتفي.

"أتمنى أن تكون قد نمت بشكل جيد" قال.

(لقد فعلت، شكراً لك" رد الطفل وهو يقرقع بكعبيه معاً وبأدب.

ضحك ماتفي راضياً. خطف الطفل وحمله عالياً بين ذراعيه.

"ما رأيك بأن نكون صديقين؟" قال.

"لنكن كذلك" قال بوريس. ربت على رأس ماتفي "يا لشعرك

الناعم، إنه أنعم من شعر ماما"

"أوه تعال! هيا!"

"أنا أقول الحقيقة"

"ذلك جميل"

"لماذا؟"

لماذا بالواقع كان ماتفي خاسراً. يا له من عفريت صغير! فكر وهو ينزل
الطفل إلى الأسفل.

"هل تناولت إفطارك؟"

"كلا، ماما لم تلبس ثيابها بعد"

"تلبس ثيابها؟" أغلق عينيه لمدة ثانية "إذا دعنا نتناول الإفطار معاً أنا
وأنت. سنطلب من ناتاليا أن تصنع لنا بعض الكعك المحلى، أليس
كذلك؟"

كبرت الصداقة أثناء الإفطار. روى الطفل سرداً نشطاً لروبينسون
كروزو، وأصغى الرجل إلى الحكاية العجيبة.

"هل تعطيني ذلك الكتاب لكي أقرأه؟" قال حين انتهى الطفل.

صدف أن قابل المستأجرة في وقت لاحق من اليوم.

"ابنك مسلٌ جداً" قال لها "وذكى جداً"
"يسرنى سماع ذلك" قالت بابتسامة ودودة.
شجعتة الابتسامة.

"وأطيب قلباً من أمه"
عبست المرأة وتجاوزته ونبذته ببرود.
"أنا لست طفلاً"

لماذا قالت ذلك؟ فكر ماتفي في تكشيرة ألم. هل تعتبرني طفلاً؟
بشعور عميق من المرارة خرج إلى مشغل الحبال.

أدرك بوضوح أن ماركوشا أكثر أهمية من سيد ماركوشا بالنسبة إلى هذه
المرأة. بعد ذلك النقاش الأول جاءت إلى المطبخ كثيراً، وبحشت عن حمال
الفناء أثناء النهار وتحدثت معه لساعات. تراجعت عينا الرجل القديم
عميقاً في محجريها وهز رأسه العتيق وتمتم مهدداً:

"لماذا تريد أن تكون معه، تساءل ماتفي. هي تتحاشاني ومع ذلك -

في مساء شتوي هادئ أنت إلبه في مزاج مرح. كانت ترتدي صدرية
حمراء وقبعة عالية أزهارها على الجانب مثل تاج، ما جعلها تبدو أفضل.
"جئت أطلب منك خدمة" قالت وهي تجلس بجانب الموقد القرميدي
في زاوية الغرفة.

سببت له الصدرية الحمراء دواراً، واستطاع بصعوبة تمييز وجهها على
خلفية القرميد الأبيض. قالت إنها ملزمة بكسب بعض المال وأنها وجدت
عملاً: كانت معلمة خصوصية لابنة ثري البلدة ماتوشكين وحفيد التاجر
خربابوف.

"آه، يا للمسكين فانيا!" تتم كوجييايكين، بعد أن شعر أن عليه أن يقول شيئاً "لقد غرق والده وأمه في سفينة تجارية، اشتعلت فيه النار وغرقت"
"ولكنني مُنعت من تعليم الأطفال، ولهذا لا أريد لأحد أن يسمع بالعمل"

"لن يسمعوا بذلك" قال ماتفي متحمساً، لكنه تفصد بالعرق حين فكر في نفسه: طبعاً سوف يسمعون!
خطرت بباله فكرة نيرة.

"عليك أن تتظاهري بأنك لا تعلميهما وأنها يأتيان لبلعبا مع بوريس"
"طبعاً، سأفعل" قالت مبتسمة "وهناك شيء آخر: هل تسمح لي أن أعلمهما هنا؟ في غرفتك؟"

ابتهج لدرجة وثب من مقعده وصاح حرفياً:
"بقدر ما تشائين!"

"ثلاث مرات أسبوعياً لمدة ساعة واحدة في المرة الواحدة، ألا يضايقك ذلك؟"
"أنا"

ارتعش حاجباها وقطبتهما، لكن في اللحظة التالية أطلقت ضحكة سعيدة:

"أوه، أنا متأكدة أنهم سيكتشفون ذلك ويوقفونني، لكن علي أن أستمّر في العمل أطول مدة أستطيعها، شكراً لك".

صافحته وضغطت يده بقوة وخرجت تاركة خلفها عطرأ مدوخاً. مشى ماتفي داخل الغرفة وهو يشعر بالإثارة ومسح العرق عن جبينه وقال لنفسه:
يكتشفون، هل سيفعلون؟ سوف أرشيهم.

لم يجرؤ من قبل على التفوه بأية كلمة تحجب إليها ولو في خياله. تطلع حوله بخوف ورفع يده كأنه يضمها فوق فمه. رأى في المرأة منظر رجل كبير وقوي بلحية وشعر طويل مصفف بشكل مستقيم حول رأسه، سترة قصيرة وقميص بنفسي، رجل في وسط الغرفة يتعرق ويحمر وينسم بطريقة غبية خجولة.

"أنت رجل رائع!" تتم بمرارة وهو يستدير إلى النافذة ويحدق بالظلال الزرق في الحديقة.

لا يجرؤ الرجل على وضع ذراعيه حول امرأة بتلك الطريقة، قال لنفسه بابتسامة صغيرة وحسرة. تراجع إلى الركن المظلم وصلى قائلاً: أيتها العذراء المقدسة، ارحمني ونجيني من هذا الإغراء!

هطل الثلج مرتين في ذلك الربيع. "جاء الحفيد ليحضر الجد" كما يقول المثل. زينت البيوت والأشجار بنقاط الماء المتجمدة، ورسمت شمس آذار الباهتة أقواس قزح عليها وحدقت نوافذها عالياً في السماء الزرقاء كميون أعمى تعافت، أصلحت الغريبان أعشاشها وغردت القبرات فوق الحقول الذائبة، وخرج بوريس وماركوشا لصيدها بقطع المرايا.

قرأ كوجيمكا يكين روبنسون كروزو وردنيو سلوفو وأطفال العالم وخمسة كتب أخرى أو ستة، وبهذه الطريقة تقوت صداقته بابن المستأجرة. واصلت الابتسام بلطف وسرعة، وكانت تفعل ذلك بأدب وتحفظ دائماً. ثلاث مرات في الأسبوع كان كوجيمكا يكين يقترب على أطراف أصابعه من الحاجز الذي يفصل غرفته عن الغرفة التي ماتت فيها بيلاجيا، ويضع أذنه على ألواح الخشب الرقيقة، ويصفي إلى المستأجرة التي تعلم لوييا صاحبة العينين الزرقاوين والشعر المجعد وفانيا بوجهه العريض والمرتبك.

تمكن من سماع كل شيء، ونادراً ما كانت الألواح تكتنم الأصوات وخصوصاً بعد أن وسع الشقوق بإدخال نصل فأس بينها.

بعد الدرس كانت المستأجرة عادة تقرأ للأطفال أو تروي لهم قصة. كانت تصعقه بمعرفتها الواسعة. أحياناً كانت تسأل تلميذها أن يحكيها كيف أمضيا يومهما.

"إليكم كيف تصطاد القبرات" قال بوريس "إن وضعت المرأة على الأرض لترى القبرات نفسها فيها فتظنها الأشياء الغيبة السماء وتهجم للأسفل في داخلها، معتقدة أنها تطير للأعلى بدلاً من الأسفل. القبرات غيبة بشكل مرعب"

"ليست أغبي منك" قالت أمه، وانطلقت في وصف مشوق لحياة القبرات.

إنها تعرف كل شيء! تعجب مانفي. أثار اطلاعها الواسع الاحترام في نفسه، لكنه أرعبه وبدد أحلامه ويرد رغبته الأولية، في الوقت الذي كانت تجذبه فيه أكثر وبشكل لا يقاوم.

في أحد الأيام سمعها تقرأ القصيدة القصيرة التالية في صوت غني وحزين:

"ززانتي مظلمة وموحشة، يبطنها العفن وتغص بالجرذان، من الأقواس المتدللة المنخفضة تتساقط قطرات الماء، بينما يمرح العالم الخارجي ويستمتع بالربيع. فراشي كوم من القش سيء الرائحة، تشاركني فيه الهوام والأشياء الزاحفة، ورغم ذلك أعرف من البرج المشهد، حقول مرمية بعيداً وتلال أرجوانية. أنه بأس تفجرت من صدري ومانت غير مسموعة في الهواء الراكد، مقعقة أصفادي وبليدة حين أنحرك، بينما فوق التلال تغريدة طائر"

عندما رآها في المطبخ في ذلك المساء، قال:

"كنت ماراً بالباب اليوم وسمعتك تنشدين قصيدة. هل يمكنك إعطاءها لي؟"

"لا أستطيع. لقد أنشدتها عن ظهر قلب وأنا لا أملك الكتاب"

"إذاريما تكتبينها لي؟"

"نعم، هل أحبيتها؟"

"كثيراً جداً"

"لقد كتبها شيشيرينا" قالت ببطء "كنت مغرمة جداً به في السابق منذ زمن بعيد"

"اكتبها لي، وسأنسخها في دفتر ملاحظاتي"

"دفتر ملاحظاتك؟" ضحكت "ربما نكتب الشعر؟"

"أوه، كلا. أنا أكتب أشياء لتمضية الوقت فقط" قال معترفاً.

"حقاً؟" قالت، تخيل أن عينيها اتسعنا أكثر "هذا ممنع. هل ترينني إياها؟"

كان صوتها ودياً على نحو غير عادي، لم تتكلم بهذه الطريقة من قبل أبداً، ما شجعه على القول بثقة جديدة:

"لم أكن أحب أن أفعل ذلك، هناك كل أنواع الأشياء فيه، لكن إن أتيت لزيارتي مرة حينما تكونين غير مشغولة سأختار قطعة وأقرأها لك"

حدثت المرأة بعيداً بصمت وتأمل، وبينما كانت عيناه معلقتين بعينيها شعر ببرد في قلبه خوفاً من جوابها.

"حسناً، سأفعل ذلك" قالت بقرار مفاجئ وهي ترتب نفسها.
"متى؟"

"هذه الدقيقة إن أحببت"

"يا سلام! أنتم الكتاب!" ضحكت بنعومة، ثم قالت في صوت مختلف
وشبه غاضب "كم عمرك؟"
"واحد، اثنان وثلاثون"

"مستحيل، أنت في الخامسة عشرة" قالت بلهجة أخرى.
جفل ماتفي.

هل هي تغازلني؟ فكر.

ذهب نحو الباب واستدارت لتقول بجفاف:
"سوف أزورك بعد ساعة"

طلب من ناتاليا أن تسخن السماور، ذهب مسرعاً إلى غرفته، انتزع كتابين
سميكتين من المكتبة، رماه على الطاولة وقرر أن يلبس ثياباً خاصة بالمناسبة.
أخيراً اقترب من نهاية واحدة من أطول الساعات في حياته. ناتاليا التي
كانت تنسم بمغزى وترمي سيدها بنظرات جانبية، وضعت السماور الذي
كان يغلي على الطاولة وجلس ماتفي على مقعد مقابله. كان يرتدي قميصاً
أزرق كشميرياً غامقاً طرزته الراهبات بخيط حريري ذهبي أصفر وسروالاً
واسعاً من المخمل. بصعوبة كبيرة لبس حذاء جديداً من الجلد ونقع شعره
بالملمع. فكر بلبس ساعة والده الذهبية الكبيرة، لكنها لم تكن تتناسب مع
جيب القميص. كانت الغرفة حارة جداً وغير مناسبة لارتداء صدرية.
جلس هناك بلا حراك وهو يحاول أن يرى خيال وجهه المشوه المنعكس في
السماور النحاسي ويصفي بشدة إلى صوت خطواتها وهي تنزل الدرج.

سبعة عشر دقيقة، ثمانية عشر، عد وهو يحرق بحزن في وجه الساعة
الأصفر الكبير المدور مثل قمر طالع على جدار. خنقته قبة القميص العالية

وضغط الحذاء الضيق على أطراف أصابع قدميه وكان يصدر صريراً كلما تحرك.

حين مرت الدقيقة الثانية والعشرين انفتح الباب. نهض عن المقعد وانحنى احتراماً.

أنت إلى الطاولة ومسحته بعينيهما من رأسه حتى قدميه وقالت:
"لماذا جهزت نفسك مثل حوذي؟"

جلس ماتفي.

"لكنك أنت أيضاً، في صدرتك الحمراء....." تتم مدافعاً.
"ماذا فيها؟"

"لا أعرف" قال ماتفي.

"ولا أنا" قالت.

أسقطت نفسها على المقعد فجأة وانفجرت ضاحكة وهي تقذف برأسها للوراء وتلهث بين نوبات الضحك:

"ساعني - لكنك مسلٌ بشكل رهيب. حقاً، أنت...."

كان فرحاً. اهتز إلى الأمام وإلى الخلف وهو يربت على ركبتيه المخمليتين يردد صدى ضحكاتها في صوت جهوري عميق.

"أنت طريف" قالت وهي تمسح دموعها.

كانت نظرة حزينة في عينيهما الجميلتين.

صب لها كوباً من الشاي بيدين مرتعشتين.

"متوحش، هذا ما أنا عليه. هنا الكل متوحشون وخصوصاً أنا كما

أظن. أعيش على هذه الحال دائماً لوحدي"

ظهر خط بين حاجبيه.

"سوف أصب الشاي وأنت ستقرأ" قالت بنجمة عادية. لاحظ ماتفي
تبدلاً في وجهها وصوتها. نهض فأصدر حذاؤه صريراً لا يرحم. غمرت
قلبه مرارة كبيرة وأخفض عينيه.
"وأنا غبي أيضاً" قال.

"لماذا تقول شيئاً كهذا؟" قالت بهدوء بعد توقف قصير.
"يمكنك رؤية ذلك بنفسك. أردت أن يكون كل شيء جميل من
أجلك، لكنه تحول إلى شيء مضحك"
بحركة منهورة فك اثنين من أزرار ياقته ثم جلس إلى الطاولة وفتح
دفتره.

"اقرأ" قالت بنجمة راضية.
تنحنح وقرأ "قصيدة غنائية إلى فينوس" وحقق بضيفته.
"هذا الشعر قديم بشكل فظيع" قالت بابنسامة "وأنت قرأته وكأنك
تحتضر"

"هذا أفضل ما يمكنني فعله" قال.
"اقرأ ببساطة كما تتحدث" قالت.
تخيل وجود امرأتين واحدة طيبة ولطيفة تشعره بالسعادة والارتياح
وأخرى ماكرة ومنسلطة.
"هذه قصيدة أخرى"

أيها الغالي استيقظ واسمُ بنفسك! لديك واجب سام! أنجز أعمالك
الخيرة قبل أن يأتي الليل وحضر نفسك للموت.
"مرحة جداً ومبهجة" علفت قائلة.
جذب كوجيما بكين نفساً عميقاً وتابع:

وهل تجرؤ على التفلسف حين تتلمس العقول الكبيرة طريقها عبثاً؟
للعمل نولد، لنخطئ ونفرح متألمين.

"في أي مكان نقتت ووجدت هذه الحكمة؟" سألت وهي تمز كتفها.
"أشترت لوازم نحاسية للتوافذ وكانت البراغي ملفوفة بهذه
القصيدة" قال متردداً.
"لماذا أحيتها؟"

"معناها" قال مدافعاً. "من هنا الذي يفكر بمثل هذه الأفكار؟"
"آوه، أعتقد هذا؟" ضحكت "أخشى أن مثل هذه العواطف
الوجدانية لن تفيدك - كيف قيلت - اسمُ بنفسك"
لن أنحني أمامها مثل علاقة الملابس، قال ماتفي لنفسه، وقلب عدة
صفحات دفعة واحدة، وبدأ يقرأ بنفس الصوت الرتيب متلفظاً بكل كلمة
بشكل بطيء:

قبل يوم أمس في ٢١ أيار عام ١٨٧٥، مسحت النيران تلة بيتخوف، فقد
احترق تسعة عشر منزلاً، وقالوا إن الإسكافي ستيونوف الذي كان يسخر
مني، أضرم النار في منزل جاره بدافع الحقد، لكنني لم أصدق ذلك. أمسكوا
به البارحة صباحاً بين رماد بيته وهو يحاول فك الأجزاء المعدنية لموقده،
فأخذوه إلى مركز الشرطة ومات بنفس الليلة.

"هل ضربوه؟" سألت.
"لا أعرف، ربياً" قال المدون دون أن ينظر نحو الأعلى "العقاب يأتي
رخبصاً هنا"

"لماذا كان يسخر منك؟"

"أوه، كان عجوزاً ومتوعكاً وكنت صغيراً. هذه حادثة أخرى في نفس السنة في ٢ آب: عامل تركيب الآلات كوبيتييف أعطته زوجته مادة الزرنيخ، فقبل أسبوع من ذلك كان ثملاً وشق فمها من الأذن إلى الأذن كما مزق معطفها الشتوي والسرفان الحريري الذي ورثته عن أمها، أخذوها إلى السجن وحين وصلوا إلى السوق نعت من ثيابها لأنها فقدت عقلها تقريباً.
"لن اقرأ البقية إن لم يكن لديك..... فهي غير ملائمة بتاتا"

"لماذا دونت كل ذلك" سألت بهدوء.

"لا أعرف" ثم بعد لحظة من التأمل "أنا لا أدون سوى الأشياء المهمة.
هذه قصة مشوقة:

السنة نفسها وفي العشرين من أيلول

آل ماكلاكوف في ورطة: قتل عم فيودور المرأة المعالجة تينوفا بينما كانت تعالجه من البط مجاناً، فقد أسقطت الفأس على ظهره لأنها كانت ثملة أو ربما بسبب كبر سنها على كل حال، قفز للأعلى وأمسك بها من شعرها ودق رأسها بعمود الباب فانشطرت جمجمتها وماتت في مكانها. إشاعات عن محاكمة ماكلاكوف، لكن آل مكلاكوف أغنياء ومعروف للجميع أن تينوفا سكيره عاتية، الاحتمال الأكبر أن تهمل القضية، وسيقولون إن السيدة المعجوز أصيبت بسكتة قلبية.

قربت المستأجرة مقعدها أكثر. نظر إليها وكان خائفاً: كان وجهها مشدوداً كأنها تتألم وعيناها كبيرتان وقامتان. قالت بابتسامة محيرة:

"أنا لا أفهم، ما هو البط ولماذا كان لديها فأس؟"

"الفأس علاج قديم" بدأ.

"الفأس علاج؟" قالت "كم هو غريب هذا وما هو البط؟"

"هذه تسمية لوجع العصعص. حين يكون لديك ألم في العصعص، يلزم حزمة من العيدان أيضاً. يستلقي المريض في مدخل الباب وتوضع حزمة العيدان على ظهره وتضرب العيدان بفأس - ليس بقوة كبيرة ثلاث مرات وثلاث ضربات في المرة الواحدة. في كل ثالث ضربة على المريض أن يسأل "ماذا تضرب أنت؟" فيقول المعالج: "أنا أضرب البط" ثم على المريض أن ينشد السحر "اضرب البط بسرعة أكبر، شتت البط، حزمة العيدان على طول الطرقات الاثني عشر، على طول الطرقات الاثني عشر إلى المقرات المظلمة، وضعها في كيس لا تخرج منه أبداً. ابراسكوفايا المقدسة أشفقي على عظامي المتوجعة! بعد ذلك ترمى العيدان تحت البوابة وقال طيب إن شمتها قطعة عند الفجر"

رنت المرأة نفسها وتطلعت حولها في الغرفة.

"هل تريدن شيئاً؟" سأل ماتفي بصعوبة.

"لا، شكرًا لك"

"ربما اكتفيت بما قرأته لك؟"

"كلا. قل لي، ألا يوجد طبيب في هذه البلدة؟"

"يوجد طبيب عسكري عجوز، طبيب جيد لكنه سكير"

"تابع القراءة" قالت وهي تحني رأسها.

السنة نفسها ٦ تشرين أول

دفنوا في هذا اليوم ممثلة من الشركة التي تقدم عروضها في كوخ مركز الإحصاء حينما يعطوهم إذناً بذلك. ماتت قبل ثلاثة أيام بسبب فقدان الدم، لا أحد يعرف لماذا، لكن الأقاويل تتحدث عن ضرب. كانت حية في الباية فقد رأيتها أنا. مثلت دور سيدة، كانت القطعة الأدبية فاترة حتى وصلوا إلى

المكان الذي فيه جندي يلبس خوذة من الورق المقوى يمسكها من شعرها ويطمئنها بسكين. يقولون إن الرجل الذي مثل دور الجندي كان زوجها. كان مشهداً وحشياً جداً وكانت هي طويلة ونحيفة ولها صوت أجش. أثناء العرض، أضحك بازاروف الجميع حين صاح "هيه، توقفي عن السعال يا سيدة، أنا أسمع ذلك كل يوم في حياتي دون أن أدفع شيئاً!" لقد أصيبت كتفه بالسل. حمل تابوتها اثنان من رفاقها واثنان من رجال الإطفاء ومروا بمحاذاة بيتنا، أما الرجل الذي يفترض أنه زوجها فقد مشى خلفهم مع شرطي وكان غموراً والدموع تسيل على خديه ويتحجب "راحة أبدية" بأعلى صوته. حاول الشرطي أن يهدئه لكنه لم يستطع، فلم يسمحوا له بالدخول إلى المقبرة. دفنت في الركن الذي دفن فيه كلوتشاريف وأمثاله.

"هذا كل شيء"

"فكرة جيدة أن تدون كل هذه الأشياء" قالت المستأجرة بتمعن "فكرة جيدة جداً"

"لماذا؟" سأل "أحياناً حين أعيد قراءتها أراها بليدة وغبية"

"بليدة؟ ولا شيء آخر؟"

ماذا تقصد؟ فكر ماتفي لكنه بدأ يقرأ المادة الثانية دون سؤال:

٢٩ نيسان ١٨٧٦

يوم أمس أمسك موظف يدعى بايستريتوف برجل غير معروف في السوق، وضعه في السجن، لكنه هرب أثناء الليل، وهم يبحثون عنه اليوم مشياً وعلى ظهور الخيل منذ الصباح الباكر. قاموا بمعاينة أحد المارة لكن تبين أنه ليس الرجل الذي كانوا يبحثون عنه. قال بازاروف إن الرجل الذي فر من السجن أرسله البولونيون ليضرموا النيران في أراضي الغابات

الحكومية وقال إنهم وجدوا ورقاً حارقاً عليه. من الصعب تخيل هروبه لأنهم خلعوا له ذراعه من الكتف حين قبضوا عليه في السوق.

سحبت المرأة يدها عبر وجهها وغارت للوراء في مقعدها وطوت ذراعيها وسألت:

"هل وجدوه؟"

"كلا، هل شعرت بالملل؟"

"نابح" قالت وهي تغلق عينيها.

انكب كوجيمايكين على دفتري.

"جل ما تبقى وصولاً إلى عام ١٨٧٩ عن شؤون أهل البيت: مثلاً كيف

ضربوا شاكر بسبب ناتاليا-"

"من فعل ذلك؟"

"أهل البلدة. ثم هناك بعض الأفكار عن الشغيلة-"

"أفكار من؟"

"أفكاري. مرة أخرى حول البيت وحولي- هل أحذف ذلك؟"

"كما تحب" قالت بحسرة وهي تشد شالها حول كتفيها رغم حرارة

الغرفة.

أتمنى لو لم أبدأ هذا أبداً، فكر ماتفى مرعوباً، وهو ينظر إلى وجهها

المنهك والقلق والدوائر التي تحت عينيها.

استمر في التحدث والإصغاء إلى الطنين البليد وهو يقلب الصفحات.

"هذا عن إكمال الكنيسة الجديدة واحتفال التفاني وعن ثمل أحد

المجسسين، لكن ذلك ليس ممتعاً. هذا عن المقاتلين الثلاثة من مستوطنة

الحرفيين الذين قتلوا لأن الرجال الذين تصارعوا معهم كانوا يضعون أثقالاً

في قبضاتهم. دخل ذئب إلى فناء آل فاجين وقتل كلبهم ثم تأوى بعد ذلك مواد غبية: عض الحائك سينوخين أنف أخت زوجته، ولوث شخص بوابة كاليستراتوف بالقطران خطأ. ثم هناك شيء عن الجرس الجديد: جربوه قبل أن يرفعوه في برج الكنيسة الجديدة مباشرة "يزن ستمائة وعشرين بودا" فتصدع ولم يعلقوه حتى عام ١٨٨٢ عشية عيد الهجوع. ثم بعد ذلك أشياء عن الحرائق طبعاً. فهناك حرائق سنوياً؛ ليس ممتعاً رؤيتها. فما بالك بالكتابة عنها. حاول بعض الصبية الصغار أن يدوسوا على جليد النهر حين انفتح في الربيع فسقط سبعة منهم، غرق ثلاثة منهم واربعةهم "كنت وصيه" أصيب بذات الرئة. امرأة تدعى سيكليتيا دويتشينا ذهبت إلى الغابة لجمع الفطر ولم ترجع أبداً. قال البعض إنها غرقت في المستنقع وآخرون قالوا إنها ذهبت لتصبح راهبة في دير تشيرنوبوريسكي، ويبدو إنها تورطت بمشاكل مع الأب فيتالي من كنيسة القديس نيكولاس.

بعد أن رتل كل هذا بصوت شماس يتلو طقساً دينياً، نهضت المستأجرة وذهبت إلى النافذة؛ حيث وقفت يلفها الغسق. ما الذي سبب لها كل هذا القلق؟ فكر ماتفي وهو ينظر إليها بزاوية عينه، وبدأ يشعر بعدم الارتياح من وجودها شيئاً فشيئاً.

"ثم إليك هذا" قال وهو يبذل جهداً كبيراً ليقرأ بصوت نشط:

الثالث من حزيران ١٨٧٩

وضعوا حورية حبة في المعرض في السوق، لقد أمسكوا بها في نهر دجلة، نصفها العلوي امرأة أما نصفها السفلي فسمكة. حفظوها في حوض غسيل. وحين سألتها الرجل الذي يملكها عن اسمها ومن أي بلاد أتت، كانت تردد دائماً: "سماره من ساماره". غطت البثور كتفها العاريين مثل البشر تماماً.

ظن كثير من الناس أنها مزيفة وصاح بازروف أن سماره لم تكن من دجلة وأن دجلة جف منذ زمن بعيد، لكن صاحب سماره قال إن سماره تعني ساماريا أي المكان الذي جرى الحديث عنه في الكتاب المقدس؛ حيث تكلمت المرأة ذات الأزواج السبعة إلى السيد المسيح عند البشر. أصاب بازاروف الخجل والعار، هز قبضته بوجه الرجل ومشى مبتعداً، فهو لم يوضع في مكانه من قبل أبداً بتلك الطريقة. وشعر أغلب الناس بالأسف عليه لكن بعضهم سروا برؤيته مهزوماً. تجاوز بازاروف التسعين من عمره. في نفس هذا العرض كان هناك حوض ماء كان الناس يرمون نقوداً فضية معدنية فيه -من فئة كوبيك أو كوبيكن- وحين حاولوا إخراجها بأيديهم لم يقدرُوا، كانت هناك قوى سحرية دفعت أيديهم بعيداً وسببت لهم الخدر في أصابعهم. باع الملاك الماء، القنينة بعشر كوبيكات وقال إنها تشفي من الحمى.

"هل كتبت شيئاً عن الحرب؟" سألت المستأجرة.

بدا لكوجيمايكن بأنها كانت تبكي، فخاف وأسرع قائلاً:

"عن الحرب؟ ثانية فقط. ليس عن الحرب تماماً ولكن عن الأتراك.

هنا"

عادت صاحبة عقار فيوفودين بأسير تركي، فعبر أهل البلدة كلهم النهر لبروه، وذهبت أنا أيضاً. كان طويلاً وله وجه أسمر ورأس كبير وشاربان كان يرندي ثياباً روسية ويضع على رأسه قلنسوة حمراء مثل أصيص الزهور. كان يتسم بطريقة مدنية، لكنها ليست وحشية تماماً، وكان يذهب في مشاوير برفقة المرأة التي من فيوفودين إلى السلال التي وراء المستوطنة، كانت سميكة ولا يصل طولها إلى كتفه ولها عيان متفختان لكن فيهما نظرة ودية. كان التركي يحمل عصا ويمر قدمه اليمنى، اعتقد أنه قد جرح.

انتشرت إشاعات كريمة حولها في البلدة وقال بازاروف إنه سيشتكي للحاكم وإن لم يفعل شيئاً حول ذلك فقد يختلط الدم التركي بدمنا ويتنقل إلى قبيلة تركية. وكما يقول إن أبناء طبقتنا الارستقراطية لا يملكون أكثر من سبع نقاط متبقية من الدم الروسي فيهم.

ثم إليك هذا عن نفس الموضوع

التاسع من تشرين أول

أخبرني الأب فيتالي أن المرأة الفويفودونية أخذت إلى فورغورود وهي تحتضر من مرض تركي يدعى بتضخم الغدة الدرقية. جمحظت عيون الناس من هذا المرض وكانوا متأكدين أنهم سيموتون لأنه لا علاج له. قال الأب فيتالي "انظروا إلى ما تجلبه شهوة المرأة عليها!"

أتمنى أنها لن تشعر بالإساءة! فكر ماتفي وهو يتطلع بضيفته. كانت تقف قرب الموقد ورأسها محني ويدها متصالبتان.

"هنا، قال بسرعة "كتبت أنني كنت في قرية فيوفودين في ذلك الوقت ولم يحدث شي مهم سوى أنهم قطروا رجلاً من السهوب..... في السوق"

الخامس من حزيران ١٨٨٠

الكاتب رجل الدين بيستريتسوف أصابته مصيبة، فقد جاء الضابط لزيارته ومات بشكل غير متوقع، ونسوا أن يرموا "صابون الميت" على مفترق طرق-

"أي نوع من الصابون؟" سألت المستأجرة في صوت ناعم كأنه تنهيدة. "صابون الميت، صابون يغسلون فيه الجثة" شرح قائلاً "انه مضر. يفترض أن يرمى للرياح الأربعة، لكن بيستريتسوف نسي أن يفعل ذلك

ووجب على زوجته أن تفتسل به لأنها أصيبت بقروح-المرض الفرنسي،
العفو منك. ضربها زوجها بسبب ذلك. فضيحة إنها صغيرة وجيلة.
"لترحمنا السماء!" شهقت المستأجرة وهي تأتي إلى الطاولة بلا أي ضجة
كأنها تمشي على الهواء. "يال له من سجل مرعب للأحداث! ألا تجده
هكذا؟"

"ليس مرعباً"، قال في نغمة شبه اعتذاريه. "ليس مرعباً لكنه ممل. لا
توجد كلمات للتعبير عن درجة ملله.

تلك كذبة، قال لنفسه. كذبة لأنه مرعب طبعاً.

"لا يمكنك أن تقصد ذلك" قالت وكأنها قرأت أفكاره. "اقرأ لي المواد
التي كتبها لعام ١٨٨١"

تفضلي! قال سراً. كان يجب ألا أبشر بهذا. أملت أن أفوز بها حين أريها
دفترتي وبدلاً من ذلك وضعت كومة نفاية بيننا والآن هذه!
خفض صوته وقرأ بسرعة وبدون اتساق:

الخامس من مارس آذار ١٨٨١

اغتيال القيصر في سان بطرسبورغ^(١) ووقع اللوم على النبلاء، لكن لم
يسمح لأحد بالكلام عن الموضوع. ضرب ضابط شرطة بازانوف على
صدره وهدده بوضعه في السجن حين اتهم النبلاء وبازانوف رجل طاعن في
السن ومشهور، كما قبضوا على كوكيتشيف الحانوتي. كان أول من لامهم.
كانت هناك محاولات كثيرة غير ناضجة لقتل القيصر والآن قتلوه أخيراً
بقنبلة، ولم يستطع أحد أن يفهم السبب الذي جعلهم يقومون بهذا العمل.
توقف عن القراءة.

"هل ذلك كل شيء؟" سألت المستأجرة بصوت عال راجية أن تبدد ذلك الارتباك الذي جثم بقوة عليه.

بإرهاق وإرباك جلست على حافة المقعد وأبدت ابتسامة كئيبة.

"هل بكى الناس؟ هل بدوا حزينين وآسفين؟" سألت في صوت غريب.

"لا يمكنني القول. لقد بكت المعجائز لكنهن يفعلن ذلك بغض النظر عن هوية الشخص الميت"

"لكنه فعل الكثير جداً من الخير للناس!" هتفت قائلة وهي تغلق أصابعها بإحكام لدرجة طقطقت العظام فيها. "ألم تعرف ذلك؟"

إذاً هي لم تشارك فيه! استنتج ماتفي في فرح مفاجئ. الحمد لله على ذلك.

"ربما تأسف عليه بعض الناس لكنني لم أرسو القليل جداً منهم-"

"لماذا ذلك؟" سألت وهي تحملق بعينين ثابتتين.

"لا أعرف. أنا لا أعرف كيف أنسجم مع الناس وأكسب معرفتهم- ولكي أقول الحقيقة، لا يوجد أحد أحب الانسجام معه أو كسب معرفته. حالما تظهرين لشخص أدنى درجة من الصداقة يخدعك أو يؤذيك بالتأكيد"

نهضت ثانية وبدأت تمشي ذهاباً وإياباً. انسدل شالها على كتفها ووقع على الأرض.

"لكنك تذكر بالتأكيد بعضاً مما قال الناس عنه؟".

"لم يقولوا أي شيء مميز، لقد تساءلوا عن هوية الشخص الذي تمكن من قتله والسبب الذي دفعه إلى ذلك، واتفق الجميع أن العملية من تدبير النبلاء بالتأكيد"

"لم يحدث من قبل قط"

"هو لم يأت إلى بلدتنا قط طبعاً، الناس لا يعرفونه إلا من خلال الصور والرزنامات كما أن الصور والرزنامات ليست متوفرة لدى الكل. نحن نعيش في مكان بعيد جداً"

"هل ظلوا يتحدثون عنه طويلاً؟"

"لا أعتقد هذا. إن الأشياء تنسى بسرعة هنا. لكل شخص حياته الخاصة به واهتماماته الخاصة"

توقف وتأمل شكلها الطويل لبرهة قصيرة قبل أن يقول:

"إن كنت غير متعبة سأخبرك كيف حدث الأمر"

"أرجوك افعل، أوه من فضلك"

لقد أغرمت بي بالتأكيد، فكر.

بدأ يخبرها عن المساء المرعب كما استرجعه من مدة ليست طويلة، بينما كان يتكلم كانت المرأة تتمشى ذهاباً وإياباً بلا ضجيج وهي تتمايل مثل بندول الساعة الجدارية. نوبة من الريح نفثت ثلجاً ناعماً على الحقول، أبحرت غيوم بيضاء ومرت بالنوافذ. ومن حين إلى آخر كانت نتف الثلج تضرب زجاج النافذة. ثم صحت السماء بعد ذلك فجأة وتسلسل شعاع من ضوء القمر عبر النافذة البعيدة مشكلاً بقعة منيرة على قدمي المرأة مع صليب أسود في الوسط رسمته قضبان النافذة الصقيلة.

أنهى ماتفي قصته. نظرت المرأة إليه وضحكت ضحكة قصيرة.

"صابون الميت حقيقة" قالت بنعومة "هل تمنع لو قرأت المزيد؟"

هي مليئة بالنزوات، فكر بتهيدة صغيرة. من الصعب أرضاؤها.

السابع من نيسان ١٨٨١

في صباح يوم الأسس الأول سقط العجوز بازاروف من على المنضدة بجانب البوابة، فقد أصيب بسكتة قلبية، لهذا وضعوا بعض الأسمدة الدافئة على قلبه ووضعوه في فراش من الشجرة.

توقف لأنه لم يستطع أن يعرف إن كانت المستأجرة تضحك أم تبكي.
"منذ مئات السنين سابقاً" قال بطريقة شبه هستيرية "وضعوا أحد الأمراء في الشجرة وكان الأمير هو فلاديمير كوكو؟ يا إلهي!"
بالتأكيد أنها جنت، فكر ماتفي غاضباً.

"هم يضعون أسمدة دافئة على القلب دائماً ويضعون الشخص في الشجرة حين يصاب بسكتة" شرح قائلاً وهو يراقبها بشكل مختلس.
"صابون الميت" تمتعت.

حدقت حولها كأنها ترى لأول مرة الساور الذي برد وأطباق الحلوى والمربى وإطار المرأة المزخرف والساعة التي على الجدار وكل تلك الغرفة الكبيرة غير الجذابة التي تعج برائحة الكعك وملمع الشعر والمصباح الزيتي. بدا شعرها المجعد مثل أجنحة سوداء على جانبي رأسها.
عاد ماتفي إلى دفتره:

قال لا مرتين وأسلم الروح. اليوم هناك جنازة ممتازة شاركت فيها البلدة كلها بالإضافة إلى كل رجال الدين وكلا الكورسين في الكنيستين. كان المتوفى أكبر معمر وأذكى شخص من بين مواطنينا، لم يغلبه أحد في نقاش واحد أبداً. حزننا وأنا أراه يموت رغم أنه لم يكن صديقاً لي، حتى إنه غشني بمائتين وسبعين روبلاً. لقد خرجت الدموع من عيني حين انزلوا التابوت إلى داخل القبر.

"البقية عني"

"ماذا كانت مهنته؟" سألت المستأجرة وهي تنهض.

"كل هذه الأشياء وكان مرابياً أيضاً"

ابتسمت ابتسامة باهتة متكلفة.

"شكراً لك" قالت "لا أريد سماع المزيد"

مدت يدها وقالت: "أنت شخص غريب، غريب جداً. كيف تستطيع العيش وسط هذا كله - تعيش راضياً؟ هذا فظيع ومعيب. ساعني لكن هذا هو الحال. معيب"

وقبل أن يكون لديه الوقت لبصغ إجابة، خرجت، وعند الباب التفتت وكررت قائلة: "شكراً لك"

رمى كوجيمايكين دفتره على الأرض ووضع كوعيه على الطاولة ورأسه بين يديه وحدق بصورة خياله المشوهة المنعكسة في السماور.

معيب؟ أي مهنة تلك التي لك؟ فكر بمرارة. من أنت؟ أخني الكبرى أم أمي؟ كلا، أنت لا شيء بالنسبة إلي - لا شيء بتاتاً.

بينما كان يتجادل معها عقلياً شعر ببقعة مرة في قلبه لم تلمس منذ زمن بعيد، وكان قد نسي أمرها تقريباً، أما الآن فقد لمستها هي فأوجعته بشكل وحشي.

"هل آخذ السماور إلى الخارج؟" سألت ناتاليا بعذوبة وهي تدس رأسها من الباب.

"نعم وساعدني كي أرمي هذا الحذاء"

قرفت أمامه. وجد ماتفي ابتسامتها هجومية. حول عينيه عنها وتمتم بنزق:

"ما الذي يجعلك تكشرين؟ أنت لا تفهمين شيئاً"

"طبعاً. أنا لا أفهم، كيف يمكن توقع ذلك مني؟" ردت بتواضع وهي تشد الحذاء.

"إذاً، ليس هناك شيء تكشرين بسببه" قال بود أكثر وهو يمرن أصابع قدمه المقروصة.

"لا تؤخري العشاء بانتظاري، سأخرج لأتمشى"

"عشاء؟ ما الذي تقصده بالحديث عن العشاء؟ انظر إلى الساعة، لقد تجاوزنا منتصف الليل. كما أن الوقت متأخر جداً للمشي في الخارج"

"اهتمي بشؤونك!" صاح قائلاً "لماذا تعلمونني كلكم ما ينبغي علي فعله؟"

بعد نصف ساعة كان يتمشى برشاقة بمحاذاة شريط قائم لطريق خارج البلدة ويتناقش في ذهنه مع المستأجرة:

أنا لست أسوأ من رفاقي وليس هناك من سبب يجعلك تسخرين مني؟

غاب القمر وكانت النجوم كبيرة وساطعة. على جانبي الطريق لمعت بقع مزرقة من ثلج لم يذوب بعد نشرته حديثاً هبة ريح خفيفة في المساء. كانت عباءة الشتاء الحريرية البيضاء ممزقة الآن، وبدت الأرض العارية والمنكشمة صغيرة جداً في الظلام. أما جذوع الأشجار المنقطة والفروع السوداء لأشجار البتولا فقد رسمت الطريق دون أن تترك ظلالاً لها. كان كل شيء بارداً وذابلاً ما عدا التلال التي تورمت مثل علامات سوداء وزرقاء على جسد تعرض للضرب، وكانت القشرة الهشة فوق العشب تطحن حين تداس مصدرة ومضات زرق عبارة عن انعكاسات للنجوم.

كان الجو هادئاً كقمر بركة، ولاحت من قلب الظلام ذكريات الماضي، فأدخلت قشعريرة باردة في قلبه: وجوه غامضة ضبابية وأصوات مكتومة مخيفة.

دنياشا بخديها الآخرين وأنفها الأفطس نظرت إليه بعينين تلمعان،
لعمت شفيتها الممتلئين اللتين قبلهما عشرات الرجال وتمتت كأنها في
نومها: لماذا لا تتزوجني يا ماتفي؟ لا توجد فتاة محترمة يسمح لها بالزواج
منك، أنت تعرف ذلك. كانا يشربان الكحول ووجد ثرثرها مسلية. "لماذا
لا تفعل؟" "ألا تعرف الإشاعة؟" قالت وهي تظفر شعرها بأصابعها
السمينة "يقولون إنك وذلك الثري الذي لديك تشارك بامرأة
واحدة". ما تقوله شيء غبي، فكر كوجيياكين بينما تابع السير مبتعداً عن
البلدة أكثر. يفترض أن شخصاً ما أطلعها على ذلك. لكن لا يمكنها
التفكير فعلياً بأنني سأتزوجها.

تذكر ساشا سيتونوفا ابنة الاسكافي اليتيمة. كان تولوكونيكوف الرجل
الأول الذي أخذها ثم تنقلت بعد ذلك من واحد إلى آخر لتحفظ الجسد
والروح معاً. تقدم ماتفي ليتزوجها لكنها قالت باستخفاف: "لا تكن
سخيفاً!" كانت صغيرة الحجم ونحيلة، لها ساقان سميتان ووجه حاد
وقاس وعينان سوداوان كعيني فأر. أحبها. لقد كان شيئاً صادقاً وقوياً في
طبيعتها وحاول جاهداً أن يقنعها لتتزوجه لكن نوسلاته أضحكتها وقالت:
"لماذا؟ أنا لست مالك الذي تنفقه بحماقة أيها التاجر، إن تزوجت منك
سوف تجرني من شعري بعد أسبوع وتركلني في بطني، وسأموت بعد ذلك
بقليل كما يحدث عادة. لا تتحدث بهذا مرة أخرى وصب لي قدحاً آخر منراً"
وبينما كانت مخمورة ازداد شحوبها ودورت عينيها بطريقة مجنونة وغنت
أغنية لم يحبها أبداً:

"م-ن يريد فتاة مث-لي؟" رددت السيدة "أنا منهكة تماماً
مسبقاً....."

"أرجوك لا تفعل!" توسلها قائلاً. "هل تريدني أن أبكي؟ لم أزرك من أجل ذلك؟"

"آه، اغفر لي يا سيدي الطيب. العفو يا سيدي الطيب!"

ثم تعمدت أن تصبح بلا حياء. وفي اليوم التالي تذكر التجربة برعب واشمئزاز.

في إحدى الليالي سرقت المال من جيبه واختفت، تاركة له ملاحظة خريشتها على قصاصة ورق مزقتها من كتاب الصلاة. طلبت منه ألا يبلغ الشرطة عن السرقة، قائلة إنها افتقدت الشجاعة لطلب النقود منه ولم تكن تعتقد بأنه سيعطيها في كافة الأحوال.

لا يوجد أحد يثق بأي أحد آخر، قال ماتفى حين تعثر في مشيته.

تذكر أن ناتاليا حاولت بعد موت بوشكاريوف أن تكون معه كما كانت فلاسيفنا مع أبيه. لكنها أنت راكضة إلى البيت مرة بعد أن تعرضت لمضايقة من بعض النسوة في السوق بسبب العيش مع التري، وقد طردت كل الأفكار الأخرى من ذهنها ورمت نفسها فوق شاكِر:

"هل بقدرن حقيقة أن يفرقن بيننا يا عزيزي الطيب شاكِر؟" قالت وهي تنتحب.

التري الذي كان شاحباً من الخوف والغضب صر على أسنانه وزجر:
"ما الذي يجب علينا فعله؟ أنت سيئة وأنا سيء وهم الأخبار فقط. ربما يمكننا الهرب بعيداً؟"

وفي أحد الأيام عاد شاكِر من السوق والدماء تغطيه بسبب شجار، وانهار على مقعد يتحسس أسنانه المخلخلة، ثم بصق وانتحب قائلاً:

"آه، آه، يا شاكِر غادر هذا العالم! شاكِر رجل غبي!"

ماتفي الذي كان جالساً بجانب الموقد كان مدركاً بمرارة عجزه عن تقديم العون لهذين الشخصين اللذين يحبهما ويحتاجهما، حتى إنه عجز عن إيجاد عبارة مواساة، ولم يستطع فعل شيء سوى الوقوف صامتاً وخجلاً من منظر دمائهما ودموعهما.

قامت ناتاليا بمحاولة غسل رأس شاكر الذي كان ينزف، لكنه دفعها عنه بعيداً:

"سوف يكسرون لك رأسك أيضاً. آه، آه يا سيدي! ماذا قال نبيك عيسى ابن مريم؟ لا تخلق عدواً ولا تؤذ صديقاً. سأقول لك ماذا يقول القرآن. قل ماذا يقول الإنجيل. لكن هنا لا يحتاج إليك أحد. لا يحتاج إليك أحد"

إذاً هذا هو نوع الحياة التي نعيشها! صرخ ماتفي في قلبه للمرأة التي جاءت لتعيش في بيته.

كلما فكر في هذه المسألة أكثر كانت الحياة تبدو له مثل حلم سيء أكثر، حلم تمر فيه الأشياء الجيدة بسرعة كأنها مجرد ومضات من الوجود.

تذكر جلوسه في غرفة الأب فيتالي المدفأة كثيراً. أمامه كان القس وهو رجل ضخم في تنورة قماشية بيضاء وأكمام مشمرة للكوعين. لديه إزميل في إحدى يديه. وكانت الأرض مغطاة بقشور الخشب والقطع، لأن هواية الأب فيتالي صنع خلايا النحل من قرم الخشب. كان يصنع العشرات منها خلال فصل الشتاء ويقدمها هدايا لكل من يريدها.

"اغم" قال وهو يضيق عينيه الصغيرتين الكريمتين. له حبة رمادية كبيرة وجبين عال وأنف أحمر صغير ضغط بين خدين سمينين وفم بدا منزلقاً للأسفل حتى رقبتة.

"أنهم. إذاً صاحبك المحمدي لا يريد أن يكون مسيحياً. حسناً إذاً، إلى متى سيظل هذا المتواضع مختبئاً في ظرفه البائس؟ كيف أستطيع أن أرسله إلى السلوان؟ أكثر من سلطتي يا صديقي. قومنا أوغاد، أوغاد كبار متأصلون. أخذ عقولهم الكسل والضجر. يبحثون عن عذر لإثارة المشاكل... يا للأسف على الأرواح المحبة للسلام التي أجبرت على العيش مع مثل هؤلاء البهائم. عار على راعي أبرشية مثلي أن يضطر إلى قول أشياء كهذه لك. لكن ليس في الإمكان تفادي ذلك. آه عليّ! يا لي من قس رائع!"

خبط ركبته بالإزميل الذي في قبضته، وكانت ضربة موجعة بالتأكيد لأنه جفل إلا أنه استمر في الطرق.

"لقد قيل "ارع خرافي لكن دون أي كلمة عن الخنازير، سوى مرة، حين ساق المسيح الخنازير كقطع، نعم، هذا هو الأكثر بؤساً يا ولدي. أنت فرد من أفراد الأبرشية لا عيب فيه ومع ذلك ليس هناك شيء يمكنني فعله لمساعدتك في القضية الحالية سوى الطلب منك أن ترسل لي ذلك التري. سوف أتحدث إليه وربما يجد بعض العزاء في الكلمات التي سأقولها له. أنت تعرف موقفي وكيف تنخر الخنازير علي دائماً، وكذلك أعرف أنك بطيبة قلبك ستسامح عجزني عن مساعدتك. يا لقدرنا البائس نحن البشر! ليكن سلام الرب معك يا ولدي: سيكليتيبا، دليه إلى الباب"

نهضت امرأة صغيرة الحجم من الركن وأتت نحوه. لديها عيناان كبيرتان وأنف بارز وحاجبان رقيقان. نحن ماتفي أنها سيكليتيبا دوتشينا كما يفترض، وهي أرملة ابن شقيق الأب فيتالي الذي قضى في عاصفة ثلجية في الشتاء. لم يمض عليها زمن طويل في أوكوروف، لكن الإشاعة كانت أنها أصبحت بديلة زوجة الأب فيتالي، الذي كان مريضاً بالاستسقاء. لا تبدو

سيكليبتيا شخصاً طبيعياً. كانت تمد كوعيهما مثل أجنحة حين تمشي مما جعلها تبدو مثل فرخة تكاد تطير بعيداً.

قابلها مرة أخرى في مساء صيفي وهو عائد من باليمري. كانت تجلس على جانب الطريق تحت شجرة بتولا ومعها سلة من الفطر علقنها بكتفها. تشابكت جذور الشجرة وخرجت من تحت ساقبها في كل الاتجاهات وكانت تلبس تنورة زرقاء وقميص نسائي أبيض وتربط منديلاً اصفر على رأسها وبدت في مجملها ساطعة وغير متوقعة وجميلة جداً. وضعت غصن نبات خلف أذنها وزهيرات شاحبة تدلت مثل حلق على رقبتها.

"هل أقلك إلى البيت؟" قال وهو يشد حصانه

"كلا، شكراً لك. أفضل أن امشي لكن يمكنك أخذ سلتني إن أحببت" ردت دون اثر من الطباع السلوكية النموذجية لنساء أو كوروف. "هل توقفوا عن مضايقة رجلك التري؟"

"لا يزالون ينعتونه بالألقاب لكنهم توقفوا عن ضربه أخيراً"

"سمعت ما قلته في تلك المرة ودهشت من تأثر الكبير بسبب ذلك"

"انه رجل صالح جداً" قال ماتفي في شيء من الارتباك.

"نعم لقد تولع الأب فيتالي به" وأبدت ابتسامة حزينة حاملة. "قال مرة إن المحمدين يشبهون المسيح أكثر من بعض أفراد الأبرشية" وأنا لا أرى أي ضرر من أن يحب اثنان من الناس من ديانتين مختلفتين بعضهما" قالت ذلك باندفاع كما لو أنها فكرت بالموضوع منذ زمن بعيد "أخيراً سيتوصل البشر كلهم عاجلاً أم آجلاً إلى الاعتراف برب واحد."

"نعم-م" قال ماتفي مندهشاً من حكمة كلماتها. "كم هذا حقيقي وصحيح جداً!"

"وداعاً" قالت سيكليتيا بإيماءة من رأسها وانطلقت في طريقها ثم استدارت على الفور لتعبر الحقل باتجاه البلدة.

راقبها وهي تذهب وفكر في نفسه أنها ربما مشيت عبر حياتها كلها بنفس هذه الطريقة: نجيلة منتصبية ومتجهة نحو هدفها بشكل مباشر.

بعدة فترة قصيرة سقطت هذه المرأة من حياة أو كوروف وزالت وعند استذكارها كان يتصور دائماً منظر الجذور الممتدة فوق الأرض والزهور المرتعشة على خدها.

في الظلام تحرك أمامه شيء بحجم البيت، وكان يصدر صريراً ودويّاً. من الظلال انبثقت عربتان محملتان بالأغصان وبأشكال سميكة بلا سيقان لفلاحين جثموا على قمتيهما. انهمر نهر من سباب أو كوروف الفاحش في الجو البارد.

"لماذا تمشي هنا بحق الجحيم.....!"

لا يمكن أن يمرّوا بشخص دون أن يشتموه، فكر ماتفي وهو يلتفت محققاً بالعربتين المتراجعتين. هم يعرفون أنهم نادراً ما يلتقون بشخص محترم، لهذا يشتمون كل من يجدونه في طريقهم.

ظهرت بقعة برتقالية في الأفق الشرقي مضيئة بعض الأشجار المعمرة التي حاكت أغصانها نموذجاً معقداً من الضوء. فقد الثلج مسحته الزرقاء وكان التراب أسود، وظهرت حدود البلدة الغامضة من بعيد: عنقود من البيوت على شكل صليب انحنى نحو الأرض طلباً للدفء، وهناك خصلات من الدخان الهارب من المداخن مثل هروب نائح أحلام ليلية. أمسكت أشجار البساتين البيوت في شباكه المظلمة، وبدت البلدة مثل عملاق أمسك وقيد ثم تمدد على الأرض ميتاً أكثر منه حياً. ربطت ساقاه

معاً وارثت ذراعاه إلى الخارج، كان الدبر يمثل رأسه وبرج أجراس كنيسة
يقولون مثل رمح مكسور انغرز في صدره.

حين وقف كوجيمايكن يتأمل المشهد ويداه في جيبيه ثار في نفسه شعور
غير مألوف، شيء أقرب إلى الشفقة حل مكان الخوف والضجر اللذين
يثيرهما منظر البلدة.

حاولي أن تعيشي فيها عشرة سنين تقريباً، قال لنفسه وهو يخاطب
المستأجرة بعقله، حاولي فقط!

بدأت البوابات تصدر صريراً والأبواب تخبط ومصاريع النوافذ تفتح،
وتسلل ناس متكاسلون وخرجوا إلى الشوارع كما لو أن المدينة المستيقظة
كانت تسعل وتبصق لطخاً من المخاط الأسود.

كان شاكر واقفاً عند البوابة يحمل رفشاً، وحين رأى سيده خبط بقدمه
بشكل هزلي.

"أراك مستيقظاً باكراً؟"

"منذ وقت طويل"

"لم يستطع قلبي أن ينام"

"لقد زرت المقبرة"

"قلبك لم يستطع أن ينام أيضاً، أليس كذلك؟"

حديق مانفي بالوجه اللطيف، وابتسم في حزن، ولكز التنري بكوعه
لكزة خفيفة.

"أنت تفهم كل شيء يا محمد، أليس كذلك؟"

"أنا أفهم وأنت تفهم: لا يمكن إنجاز شيء بشكل جيد على عجل.

يجب أن نتحلى بالصبر لبعض الوقت"

دفع التري بقبعته إلى مؤخرة رأسه، تنهد ثم بصق على الطريق.
"كتبوا كلمات سيئة على البوابة بالطبشور والفحم. لماذا تعلموا القراءة
والكتابة؟ ليكتبوا كلمات سيئة فقط؟"
"أين؟" قال مانفي عابساً وهو يتفحص البوابة.
"لقد مسحناها"

نظرا ببعضهما ثم نظر إلى الشارع.
"ربما الصغار الأشقياء من جوقة المرتلين في الكنيسة" قال مانفي "قائد
الجوقة قادر على تعليمهم خدعاً كهذه. احذر ألا يرى بوريس والسيدة هذه
الكلمات"
"سأسهر على ذلك"

دخل كوجيمايكين إلى البيت، وهو يفكر في قائد الجوقة، ذلك الرجل ذو
الشعر الطويل والعينين الخضراوين ومعطفه البني الذي كان يمر مؤخراً من
أمام بوابتهم يومياً وهو يغني بصوت ناعم لكن مميز:
أنا لم أسرق أبداً بخنجر / عبر الغابة الظليلة / أنا لم أكن أبداً في خندق
انتظر -

كانت الأغنية حزينة ومؤثرة وكان المغني نحيلاً وصغير الحجم، له وجه
طويل مهزول يغطيه النمش.
كان هناك رجل آخر، موظف لدى مجلس البلدة، كان يمر من أمام
بوابتهم بشكل منتظم، لكنه كان ثملاً دائماً ولا يغني أبداً!
مرت خمسة أيام على مانفي في ترقبه القلق لما يجعله. تخيل المستأجرة تومي
برأسها له بصورة ودية أكثر من قبل، وبدت ابتسامتها أحلى وتدوم وقتاً
أطول.

لكنه قال لنفسه وهو مستاء: أنا لن آتي لأنوسل ودها!
أصبح انتظاره أكثر قلقاً: هل كانت صديقة له ولو لمرة واحدة؟ هل
حدث وتعلم أن يفهمها؟

فجأة حدث شيء غمره تماماً. في مساء أحد الأيام كان ماركوشا في
المطبخ يحكي لبوريس عن حسون الصنوبر الذي يعبش عند تقاطع الطرق
في الغابة، حين دخلت المستأجرة، وبعد أن أصغت إليه لبعض الوقت
قاطعت قائلة:

"لكنك نفسك لا تصدق هذه الأشياء يا ماركوشا"

قذف برأسه إلى الوراء غاضباً، وقال:

"أنا في الثانية والخمسين من عمري يا سيدتي" لوى أذنيه وصرخ قائلاً
"من المعيب أن أصدق هكذا ثرثرة"

حدقت فيه طويلاً وهي صامته وعيناها الواسعتان ترمشان من
الاندهاش، وغامرت أخيراً وقالت وهي تنظر حولها:

"إذاً لماذا تحاول أن تجعل الآخرين يصدقون هكذا ثرثرة؟"

"كي يكون بعض الإيوان في قلوبهم. هذا هو السبب" أن ثم قال "لقد
طففت هذه البلاد مشياً من البحر إلى البحر وزرت أركينجل ومنها إلى
أوديسا وأستراخان، لقد اكتسبت معرفة بفضل أخص قلمي أكثر مما تعلمه
الآخرون بواسطة رؤوسهم. أنا لست من النوع الذي يُخدع-"

رأى ماتفي المستأجرة تجفل وكأنها خائفة. شحب وجهها واستطال،
وظهرت نظرة قاسية في عينيها وقالت:

"لكن لماذا تعلم الآخرين أشياء أنت نفسك لا تصدقها، ألا تدرك بأنك
تخدعهم؟"

فوس ظهره مثل قط وهز رأسه وأطلق ضحكة خفيفة وقال:
"ولا يزالون يضايقونني!"

سوف أرسله للحزم في المشغل، فكر ماتفي.

تمشت المستأجرة ذهاباً وإياباً بخطى غير واثقة، وقالت بابتسامة مرتبكة:
"هذا أقطع من العفاريت والغيلان وأقطع من القدر ومن الموت ومن
كل المواد التي كتبتها في دفترك يا ماتفي فاسيليفيتش. هل تدرك هذا؟ من
فضلك يا ناناليا خذي بوريس إلى الطابق العلوي. هيا أسرع يا بوريس"
فرح ماركوشا.

"ولا يزالون يضايقونني، الناس يفعلون ذلك" صاح باكياً "أنا حزين
ومغموم أكثر من أي شخص آخر ومع ذلك يضايقونني بأسئلة سخيفة. ما
معنى هذا وما المقصود بذلك؟ وأنا أجيب: إليك معنى هذا وتفضل
المقصود بذلك وأفكر طول الوقت: اذهبوا إلى الشيطان واتركوني بحالي،
ويفعلون ذلك. ليس هناك فرق بالنسبة إليهم سواء كذبت عليهم أو قلت
الحقيقة، يتوقفون عن مضايقتي. لماذا يظنون أنني الرب، القدير؟ لو كنت
الرب القدير لجعلتهم يرون أفعالاً تسليهم وتضحكهم لكنني لست رباً ولا
قديراً، ليس في مقدوري سوى أن أروي لهم الحكايات. من يحتاج للراحة
والمواساة هو أنا. أنا تهمني نفسي أكثر من أي أحد آخر وهكذا كل شخص.
حين يغط القس في خطبة فهو يفعل ذلك من أجل نفسه. كل شخص يفعل
الأشياء من أجل ذاته هو. لهذا ما تقوله للناس وتخبرهم به لا يشكل أي
فرق طالما أنهم يدعونك في سلام وأمان. هل هناك شياطين؟ حسناً، لا
يوجد- اتركني بسلام! هذا هو الأمر برمتي يا سيدتي: إن كان الشياطين
موجودين أم لم يكونوا يتركوني بسلام. هذا ما يفعله كل شخص وأنا

مثلهم. لا يوجد في هذا العالم سوى شيء واحد أكيد: نحن كلنا سنموت بغض النظر عما نؤمن به. الموت لا ترعبه الكلمات ولن يصل أحد السماء وهو حي يا سيدتي"

ظلت تمشي خارج المطبخ بهدوء ورأسها محني للأسفل وكأنها تلقت صدمة مدوخة.

"من الأجدى أن تنتبه للسانك هذا يا ماركوشا" قال ماتفي بقسوة "لن أسمح لك بتلفيق أكاذيب كهذه"

"أتركوني بحالي ولن أكذب عليكم" كان الرد بصوت فظ وقاس غير مألوف "لماذا هي تضايقني؟ هل تظنني مهرجاً يسليها؟ رب هذا ورب ذاك. لدي عقل في كعبي الأيسر أكثر عما لديها في رأسها، لماذا تحشر نفسها في روحي دائماً؟ هذا ليس صحيحاً، ذلك غير صحيح، لماذا وبماذا أكثرث بحق الجحيم؟ لقد عشت حياتي ولم أنل شيئاً ذا قيمة البتة من أجل الصحيح أو الخطأ فيها. كل شخص يعرف الطريق إلى المقبرة وأنا لست مضطراً للذهاب لوحدي. سوف يتم أخذي إلى هناك وليس هناك خطر في إضاعة الدرب!"

توقف عن قطع الأغصان ونبح كلماته بشكل فظ وانتقامي وبدت بلانهاية.

"آه-آه، يا للعار! يا لهذا العجوز المخزي!" صاح قائلاً وهو يلوح بذراعيه في الهواء.

لوى ماركوشا رأسه من جانب لآخر وظل يتمتم: "أتركوني بسلام هذا كل ما أريد. أتركوني بحالي"

"توقف يا شاكِر" قال ماتفي ثم لوح بيده وهو يخرج.

متعياً ومنبوذاً جلس على المنضدة وحاول استجلاء ما حدث. أنا بالتأكيد خائف منه، فكر، ظنته شخصاً مميزاً، رجل مفكك وتبين أنه لا شيء تماماً. هتف لنفسه فجأة: لهذا ظلت نظارده! وتعمقه طويلاً!

فوق السقف المنخفض لبیت بوبنوف تعلق قمر عليل بدا على وشك اختصار النجوم القليلة المتفتحة في السماء. سمع نباح كلاب والنواء الألواح الخشبية بالمسامير وأقدماً تسحق الجليد في ظل مخزن الغلال وشيئاً يشبه النشيج.

"هل هذا هو أنت؟" سأل ماتفي جافلاً.

"نعم" ردت المستأجرة بعد توقف قصير. بعد ذلك دخلت طويلة ومسودة إلى دائرة الضوء.

"ما هذه الضجة الفظيعة؟" سألت.

"يجب أن يكون سببها الفقراء الذين يقطعون بيت بوبنوف ويأخذونه حطباً للوقود" قال وهو يحدق بها بنظرة احترام تطل منها الرهبة التي نظر بها سابقاً إلى العارف بكل شيء ماركوشا.

"ترتكب أشياء كهذه ببساطة هنا" قالت.

"رجعت ملكية البيت إلى ميراث البلدة وليس هناك من يحرسه" وسأل وهو ينظر بوجهها الشاحب:

"هل جرح ماركوشا مشاعرك؟"

"نعم" قالت وهي تجلس على إحدى الدرجات. "يعني، هو لم يجرح مشاعري بالضبط لكن - أنا لا أعرف كيف سأعبر لك عن ذلك. كنت أشعر دائماً أنه كان مرابطاً ومزدرياً في الخفاء لذلك هو لا يؤمن بما يقول. قابلت أناساً كثيراً في حياتي واكتشفت أن أغلب الفلاحين يقنعون مشاعرهم

وشكاكين. العيش معهم يترك عادة بقلب كئيب وحيرة. الليلة ظهر كل شيء وبان". توقفت لثانية قبل أن تقول بحماس هادئ كأنه تضرع تقريباً "أردت بشدة أن يثبت لي أنني على خطأ! كان شيئاً مرعباً جداً! تذكرت المواد التي في دفترك - صابون الميت وكل ذلك -".

لماذا تقول هذا، فكر مانفي جاهداً ليمسك بكل كلمة تقولها.
"سوف أطرده من العمل" قال.

"أتدري؟ لماذا ستفعل ذلك؟" هتفت بحزن.

"الأمر مزعج جداً" شرح معللاً "كنت أتعجب حين أصغي إليه، أمامي رجل يعرف كل شيء ويمكنه شرح كل شيء لكن تبين أنه كان يتحدث من أجل أن يُسمع فقط"

"لا شيء صادم أكثر من افتقاده للإيمان" قالت كأنها توضح الكرب الذي سببه ماركوشا. "حين تلتقي بأناس متعلمين غير مؤمنين (وجدوا هناك ومازالوا) تظن: حسناً، ولا يمكنك تفادي ذلك بأنهم يفتقرون إلى الحيوية مثل النباتات السقيمة لكن هو؟ إنه القذارة نفسها. إنه من الشعب. عند التفكير في نجواله لعشرات السنين وهو يعلم الآخرين الأشياء التي لا يؤمن بها هو نفسه! هذا منفر! لم أعرف أبداً بوجود رجال كهذا. يبدو لي الآن أنني قابلت العشرات منهم، رجال يقولون "نعم" أو "لا" هم بقصدون ببساطة "أتركوني بأمان" يا للهو الرهيبة التي يضعها الإنسان بينه وبين الآخرين وبينه وبين العالم كله. هو مستعد لقول أي شيء من أجل الأمان: أي أمان؟ إن الناس المتعلمين الذين لا إيمان لديهم يؤمنون بأنفسهم على الأقل، بشخصياتهم وقوة إرادتهم لكن رجلاً من نوعه ليس مدركاً لنفسه حتى. أنت تتذكر ما قاله عن القدر؟ يا له من رضا عن الذات ويا له من يأس مطبق! هل تفهم؟

كلا، هو لم يفهم. أمسك بكلماتها وخزنها في ذاكرته لكن معانيها نجحت منه. لقد خجل من الاعتراف بذلك ولم يرغب في مقاطعة تدمرها، وكانت الفجوات تزداد في فهمه كلما تكلمت أكثر وتظهر أسئلة في ذهنه فجأة، لكن قبل أن يتوفر له الوقت لطرح السؤال يدفعه جانباً سؤال آخر يطالب بأن يسمع. اندفع شيء في داخله في مطاردة وهو يحاول أن يتابع معها وأن يقبض ويتمسك بأفكارها، لكنه لم ينجح إلا في لخبطة كل شيء. ولكي يتأكد من وجود أفكار معينة توافقت مع أفكاره الخاصة به قال:

"الحياة تجري وتندفق لتدركي فجأة بأنك تعيشين في أرض غريبة وسط أغراب كل واحد منهم ضد الآخر، لا تقبده أي روابط - لبس هناك روابط عيش. هكذا هي، لا شيء سوى أنشودة جبل تعصر أنفاس الناس وتخفهم"

"نعم هي أنشودة جبل"

"يريد المرء أن يملأ الفجوة التي تفصله عن زملائه البشر لكنها تستمر في الاتساع والتعمق"

"نعم تنوسع وتعمق أكثر"

أهمته هذه الشظايا التي فهمها وجعلته يؤمن بها، وحين صمتت وغرقت في أفكارها، قال وهو يحرق حوله خشية أن يُسمع: "كيف تفسرين هذا يا يفجينا بيتروفا: أنت روسية وأنا روسي ومع ذلك يصعب علي فهم ما تقولين؟"

التفت إليه بسرعة وقالت: "يصعب؟"

"أوه، نعم" قال "بعض الكلمات التي تستخدمونها -"

"آه، كلمات! تنفست رائبة" لكنك تفهم أنني أتمنى الخير للناس، أليس كذلك؟ وتفهم أنني صادقة؟"

"أوه، نعم، لم أفكر قط بأنك لست صادقة" قال.

كان على وشك التأكيد على إخلاصه برسم علامة الصليب على نفسه.
"شكراً لك" قالت بنعومة ثم أمسكت يده وارتعشت قليلاً حين نظرت في الفناء وإلى السماء وقالت:

"الجو موحش وبارد هنا"

"دعينا نذهب إلى الداخل" اقترح. وحين نهضت ودخلت أمامه صار لديه هاجس داخلي حلوا مفاجئ حول حدوث تغيير وشيك وهام في علاقتها.

تمشت في الغرفة مستغرقة في التفكير، وقالت دون أن ترفع حاجبيها:
"ذلك مثير للرناء أيضاً: أنت روسي وأنا روسية ومع ذلك نتكلم بلغة مختلفة ولا نفهم بعضنا بعضاً"

تابع ظلال وجهها من المكان الذي جلس فيه على المنضدة التي كانت تنتقل من التعجب إلى الخوف ومنه إلى التلهف ودق قلبه بوحشية حين فكر: الليلة! الليلة!

تكهن بأن مزاجها كان مختلفاً عنه حين قرأ لها من دفتره - أقل تباهياً وخطورة وسخرية وتمكن من فهم الهياج الذي اكتشفه في صوتها.
وهل شعرت هي بنفس الإحساس أيضاً؟ فكر بشيء من الانتصار لكن بإشفاق أكبر.

ارتعشت وشدت شالها على نفسها أكثر وظلت تمرر يدها فوق جبينها وتحك خصلة شعر سوداء سقطت على خدها.

"أنا لا أفهمك أيضاً" سمعها تقول "في البداية ظننتك - ساعني على قولي - شخصاً عادياً جداً"
لماذا تعتذر؟ تسأل.

"ثم بعد ذلك وعلى نحو غير متوقع، تلك الدفاتر المربعة! حين كنت تقرأ لي منها تراءى لي أنني سمعت صوتاً من التأنيب آت من بعيد، من الماضي البعيد، يقول لي: ما الذي حدث لك؟ أنت تعرفين اللغة الفرنسية وتستمعين بالأسلوب الأدبي الجميل، حسناً، هذه رواية لك: رواية عن "صابون الموتى"! أنت تعرفين تاريخ العالم، لكن هل تعرفين تاريخ أو كوروف؟" أطلقت ضحكة قصيرة "في ذلك المساء كنت مثل طائر أمسكت به أنت، ثم بدأت بنزع ريش أجنحتي ببطء "ريشة إثر ريشة" ليس بدافع الحقد وإنما للتسلية فقط. في اليوم التالي ذهبت لأتمشى، تسلفت تلاً خلف البلدة ونظرت من الأعلى إليها بعيون مختلفة تماماً. هناك على الثلج جثمت عنكبوت سوداء كبيرة وامتدت إلى الخارج في كل الاتجاهات إلى القرى المجاورة، شبكة عنكبوت من أفكار ومعتقدات بلدتك أو كوروف - رغبة صابون الموتى السامة! التي وصلت بعيداً جداً، وأمسكت بعدد لا يحصى من الناس في شراكها وسممتهم بخرافات همجية وعذبتهم بوحشية فظة متبلدة. وذلك الحكيم المرعب - ماذا كان اسمه؟"
"بازانوف" قال مانفي بتجهم.

استاء منها على نحو مبهم مما قالت عن البلدة، وتذكر كيف نظر إلى أو كوروف منذ وقت غير بعيد وتنهّد قائلاً:
"إنها مجرد بلدة صغيرة طبعاً، لذا من الطبيعي أن تكون أفكارنا صغيرة أيضاً"

"من المؤسف أنني امرأة" قالت وقذفت بيديها خلف رأسها.
"ولماذا الأسف؟".

"لأن ذلك يمنعني من عمل أشياء أحببتها" قالت بتأمل "أعرف - كما قال أناس محددون - أن هذا الوقت ليس لطرح المشاكل الكبيرة والتنطع للمهام الكبيرة، وبدلاً من ذلك علينا أن نباشر بعمل الأيسر، الأشياء اليومية". وكنت أضحك من هؤلاء الناس، لكنهم ربما كانوا على حق. ربما مشاكلنا الضاغطة الآن هي القيام بالمهام البسيطة، وهنا تكمن البطولة الحقيقية.^(١٢)

وبدا مرة أخرى الرقص المحير للأفكار غير المفهومة وللكلمات غير المألوفة التي لفت حولها مثل ربح في مفترق طرق، تدفعها حول المكان وتمنعها من الوصول إلى الرجل الوحيد الذي يجلس في الزاوية المظلمة. كانت هناك تطوح بها الريح من جانب إلى آخر، تقرب منه تارة ثم تتراجع في سديم من الأفكار وتتركه منهراً من التشوق واللهفة.

إنها تتحدث مع نفسها وليس معي، فكر.

لم يكن ماركوساً مخطئاً تماماً.

وحين خرجت فجأة دون أن تلاحظ وكأنها ذابت، شعر أن كلماتها لم تترك فيه انطباعاً واضحاً وقوياً، لا شيء سوى منظر مشوش من المفاهيم غير المألوفة.

لكنه كان على خطأ، فمنذ ذلك المساء باتت أفكاره عنها أشجع وفيها مسحة من الشفقة، فقد اكتشف ضعفها "غريبة، أليس كذلك؟"، "تجد نفسك في أرض غريبة" ابتسم ابتسامة صغيرة لعوبة وهو يستعيد كلماتها شاعراً بأنه كان أقوى منها في بعض النواحي.

في صباح اليوم التالي جاء بوريس راكضاً، وقال إن أمه مريضة ولا تستطيع النهوض من السرير.

"مريضة؟" كرر ماتفي مذعوراً.

ذهب إلى الطابق العلوي بجراًة، وعند دخوله الغرفة الصغيرة بسقفها الذي يشبه غطاء التابوت المائل خائته الشجاعة.

"ما الأمر؟"

ابتسمت بوهن.

"هـى-صداع"

لم ير سوى وجه متوهج في غيمة من الشعر الأسود الناعم على وسادة بيضاء.

"هل ترغبين ببعض عصير التوت البري؟"

"كثيراً جداً" قالت.

"سوف أخبرهم ليجلبوا لك بعضاً منه. هل لحدثك مع ماركوشا أي سبب في ذلك؟" سأل بنهيب وهو مطرق عينيه.

"بالأكيد لا. ومع ذلك كلفني شيئاً طبعاً" ابتسمت عبر أهدابها المسبلة "أشعر وكأنني ضعفت بشكل سيء"

خرج ماتفي وهو يفكر، لقد تأثرت كثيراً.

في المطبخ، تذكر ماتفي لسبب غامض أن المرء يستطيع أن يرى من نافذة العلية برج مراقبة الحرائق الذي كان بارزاً مثل إبهام مفرح.

ظلت طريحة الفراش لمدة خمسة أسابيع تقريباً - خمسة أسابيع من العطلة بالنسبة إليه. كل يوم تقريباً كان يأتي ليرى كيف أصبحت، ويجلس في الغرفة الصغيرة على قدم السرير، ويظل هناك حتى تمل وتعجز عن التحدث.

تحدثت كثيراً وبرغبتها. والشيء الأهم الذي جمعه من حديثها كله ورفع قدرها في نفسه "إن كل ما قالته جاء من الكتب، وكل معرفتها اكتسبتها بواسطة القراءة"

"حالمًا تشفين وتتعافين يجب أن تعطيني كتباً" أصر قائلاً.

"نعم، بالفعل. أنا مسرورة لأنك راغب في القراءة"

"وكذلك أنا أيضاً"

وأضاف مفكرًا: قريباً سأعرف بقدر ما تعرفين.

سره كثيراً حين عرف بأن تفوقها عليه أتى من الكتب فقط.

قالت وكررت أنه يجب على الناس أن يتعلموا ليصبحوا أفضل ويعيشوا مثل الكائنات البشرية. تحدثت له عن أناس كرسوا حياتهم كلها ليجعلوا الآخرين مستقيمين أخلاقياً وليزرعوا فيهم احترام المعرفة. ومن أجل هذا تعرضوا للسجن وللنفي في سبيلها.

استغرب حين سمع بوجود أناس تجرؤوا على استنجماع قواهم ضد الحياة كما وجدوها، لكنه حين تذكر والده الذي كان يشبههم في بعض النواحي سهل عليه تصديق ذلك. أخبرته المستأجرة عن الكثيرين من هؤلاء الناس، العشرات منهم، ورأى كيف وكم أحبتهم، وكانت عينها تلمعان بالحب والإشفاق كلما تحدثت عنهم، وبات أسير جمال هذه القصص على الفور وقبل بأبطال الحقيقة والعدالة النبلاء هؤلاء مثلما وبنفس القدر الذي قبل فيه جنيات ماروشكا وغيلانه. أصفى إلى قصص حياتهم وأعمالهم المجيدة بتبجيل أبداه سابقاً حين كان يستمع إلى حياة القديسين، لكنه لم يستطع تخيل وجود مثل هؤلاء الناس في شوارع أو كوروف.

ذكرته قصصها بالمصاعب التي واجهها برجال من الماضي كانوا
لصوصاً وخارجين عن القانون في شبابهم، وفي شيخوختهم اعتكفوا في
الأديرة سرّاً ليصلوا من أجل خلاص أرواحهم. شعر بأن لدى هذين
النموذجين الغريبيين شيئاً مشتركاً بالتساوي، طريق مختلف في الحياة، ورغم
إعجابه به لم ينجذب إليه أكثر من انجذابه إلى قصص الجنيات.

"ما الذي يجب فعله لكي يكون هؤلاء الناس أحراراً في نشر المعرفة
والحقيقة؟" سأل.

شرحت له المستأجرة مطولاً عن ضرورة الظفر بهذا، وأصبحت أشد
جمالاً من ذي قبل حين تكلمت عن هذه الأشياء، لكن كلماتها كانت تربكه.
"ذلك جيد وحسن" عارض قائلاً بحرص "لكن كيف تضعين روسيا
كلها في منزلة واحدة؟ ليس هناك أحد يهتم بتاتاً بأي شيء عدا بيته
وعائلته"

"سوف يجري استنهاض الاهتمامات الأخرى فيهم"

"ماذا سيحدث؟" فكر بصوت عال. "لو دعي قومنا إلى القيام
بواجباتهم؟ فهم لا يعرفون أي شيء ولا يريدون أن يعرفوا سوى
أو كوروف، وأهل ديرموف لا يعرفون سوى ديرموف وأهل مياملين لا
يعرفون سوى مياملين وهكذا في مناطق أقاليمنا الأحد عشر، كل واحد
لنفسه. لن يفعلوا سوى افتعال الشجارات والمكائد وأهل فورغورود أكثر
ذكاء ومشاكسة من البقية لهذا سيثبوا بسرعة ويكونوا في القمة ويدعموا
المناطق الغنية بشكل طبيعي. أخشى أنك ستضطرين إلى صب ماء مغلي
علينا لتطهيرنا من آثامنا أو كينا بالنار مثل المقلاة في بداية أسبوع عيد
الفصح"

أخبرته عن نفسها، كيف مات والداها وهي طفلة وكيف تربت في بيت عمها العقيد، ثم كيف تزوجت من مدير مدرسة استخدم ضميره كدليل ومرشد له بدلاً من الكتب المدرسية وأنها ساعدته في ذلك بأقصى قدرتها، وكيف فتشوا بينهم في أحد الأيام ووجدوا فيه كتباً ممنوعة ونفيا إلى سيبيريا. هذا كل شيء. قصة بسيطة وغريبة. توقع أن تكون قصة طويلة مليئة بالأحداث المربكة. حكته بآيماز وتردد وهي مقبلة وتنشق بازدياد. أراد أن يسألها إن كانت قد أحببت زوجها وإن كانا سعيدان معاً. تمنى لو أخبرته شيئاً عن حياتها الشخصية السرية ومشاعرها لكنه لم يجرؤ على ذلك

"هل عمك لا يزال حياً يرزق؟" قال.

"نعم، إنه نائب الحاكم الآن" قالت وهي تتأهب.

"ألم يعرض أي مساعدة عندما.....ار..... حدث ذلك؟"

"أنا وهو نرى الأشياء بمنظار مختلف"

"حتى مع ذلك تظنان أقرباء"

"ماذا يعني أقرباء؟" سألت وهي عابسة.

"أقرباء دم، من قبيلة واحدة"

"الدم والقبيلة-، أفكار عتيقة" ضحكت ثم قالت بوقار وهي مغمضة

"أقربائي هم هؤلاء المشابهون والقريبون من روحي"

هل يمكن أنها تغازلني؟ فكر كوجيمايكي مرة أخرى. دب الخوف في قلبه.

كان الحديث معها يثيره غالباً ويملأه بشعور من القرابة والصلة مع هؤلاء الذين يعيشون خارج عالمه الخاص، فكان يخرج إلى الحقول ويجلس

على تل يراقب الشفق وهو يهبط على البلدة والصراع بين الضوء والظلام. يا للسهولة التي يخرج بها مفسحاً المجال ليوم جديد!

في ساعات العزلة تلك كانت تملكه رغبتان بالتناوب، الأولى أن يقوم بعمل هام يعطيه الحق بأن يعود إليها ويقول: أأست جديراً بك؟ والثانية أن يعود إليها متسللاً في صمت ويستلقي عند قدميها مثل الكلب.

يا للروعة التي سيكون عليها ذلك، فكر في أثر من الندم، أن أعطيها كل شيء - كل ماله وأملاكه - ويرحل كما فعل سوزونت، ولكن أكثر ما كان يشعر به هو دافع مبهج بأن يقول لها:

"أنا وأنت وحيدان، وغريبان هنا، دعينا نرحل ونعيش حياتنا معاً"
حلم بحياة هادئة يعيشانها معاً، لا يشعران فيها بحاجتهما إلى الناس وتخلو من الاستياء أو الخوف منهم. هي وهو فقط، يعيشان روحاً مع روح. كان الركود إلى هذه الفكرة حلوّاً يغمر الضوء والدفء فيها جسده وكأن الفجر أشرق في قلبه.

انحنى العشب الصغير على التل فرحاً بالصباح نافضاً عنه الندى الفضي على الأرض المتبخرة ومشى كوجيا يمين عائداً إلى البيت وكان الضباب الورد يلف البلدة.

أحياناً كانت المستأجرة تقرأ له الشعر، وكلما أتت على كلمة "حب" كان يغض بصره في ارتباك ويقول لنفسه:

"هل هي تغازلني؟"

في أحد الأيام وفي وسط قراءتها، أغلقت عينيها متعبة. تجمد في مكانه خشية أن تتحرك أي عضلة وفتحتها بعد دقيقتين أو ثلاث وقالت بضحكة قصيرة:

"حلمت بحلم"

"هل هو حلم مُسرّ؟"

"نعم. يا للأسف الأحلام المسرة تمر بسرعة كبيرة!"

إنها تغازلني، قرر ماتفي.

نهضت للمرة الأولى حين كانت أشجار البتولا تنزع عن نفسها أوراقها المبللة الصفرة وحين عادت طيور أبو الحناء والزرزور الساحرة من الجنوب. في ظهر يوم مشرق ودافئ، بدت شمس تذيب وتنتشر حتى في أوكوروف وحولت السماء كلها إلى شمس زرقاء مبهرة، خرجت المستأجرة الشاحبة والمهزولة إلى البستان، في صدرية حمراء وتنورة سوداء وتمشت ذهاباً وإياباً في ممراته لمدة طويلة، وكانت تدندن لنفسها كأنها تتمتع بصلاة، تبسم سعيدة وتلمس اللحاء الحريري لأشجار البتولا بامتنان، وتخطو بحرص على التراب الرطب كأنها كانت خائفة من سحن شفرات العشب الشابة وزهيرات موز الجنة.

كان شعرها ملفوفاً حول رأسها ويلمع كأنه رش بالذهب، رفعت يديها الرقيقتين ونظرت إليهما في الشمس. ماتفي الذي كان يمشي بجانبها، نظر أيضاً إلى الأصابع الشفافة والدم الأحمر يشق طريقه عبرهما وفكر:

إنها مثل الملكة في حكايا الجنيات التي نجت من الغيلان.

كانت أوراق النفل المخملية مرشوشة بنقاط صغيرة جداً من الرطوبة كما لو أنها تفجرت بالعرق من شدة ابتهاجها في مشاهدة الشمس، غمرت أزهار الثالوث بعيونها اللطيفة ورنّت نباتات الجريس على الأغصان الهشة ولمعت نقاط كهربائية من الصمغ على أغصان أشجار الكرز وتوردت

أشجار التفاح بالبراعم التي لم تتفتح بعد. اهتزت غصينات طرية تعج بنسغ الحياة في النسيم وانتشر عطر نبات مر في الهواء.

كان الأطفال يصيحون بابتهاج في الشارع وراعي القطيع يعزف بقيثارته في الحقول والراهبات يحفرن حقل الدبر وينشدن أغنية شكر بأصوات عالية رنانة: "لك، أوه، أيتها العذراء التي تغنيننا بها كثيراً، يا أم الرب"

ركزت المستأجرة نظرة عينيها الغائرتين الناعمة على ماتفي وقالت:

"العذراء التي تغني بها الكثيرون هي الربيع، والرب هو الشمس. هذا ما اعتقد الناس به سابقاً وكان إيماناً جيداً. لا يمكن للربيع أن ينجب سوى الآلهة الأخيار واللطيفين. دعنا نجلس"

جلسا على المنضدة تحت شجرة الكرز. سقطت أشعة ذهبية على أكتافهما وصدريهما وركبهما وضربتهن بأيديها الشاحبة، وتحت الجلد كان الدم ساطعاً ومتوهجاً كأشعة الشمس.

شعر ماتفي بالدوار وبدا قلبه يتوقف وتراقصت أمام عينيه نقاط ملونة. نهض على قدميه ببطء كأنه يرفع ثقلًا هائلاً وقال في صوت منخفض:

"أصبحت أحبك بعمق يا يفجينيا بيتروفنا، هل تتزوجيني؟ أرجوك أن تفعلي"

شعر بموجة حارة من البهجة تغمره: لم تغضب ولم تعبس بل ابتسمت بطريقة ودية غريبة وقالت بنعومة:

"آه، يا للأسف!"

جلس مننصقاً بها، وأمسك بيدها وضغطها على خده.

"لا أستطيع الانتظار! أريدك أن تتزوجي مني! أنا خائف جداً. قولي لي، هل ستتزوجيني؟"

"كلا" قالت.

لم يصدقها.

"انتظر..."

"كلا. لقد انتظرت أطول مما يجب"

"لماذا انتظرت أكثر مما يجب؟"

"كان يجب أن أخبرك قبل أن تسألني، قالت - بهدوء لطيف وقولها ذلك بهذه الطريقة جعل من المستحيل أن يصدقها:

"حين أتيت إلى هنا في بداية الأمر - أنت تتذكر متى كان ذلك يا ماتفى فاسيليفتش - قلت لنفسى على الفور: ذلك الرجل سوف يقع في حبك. كنت خائفة من ذلك وتجنبتك لذلك السبب، ألم تلاحظ ذلك؟"

"نعم لاحظت" قال وهو ينصت بلهفة.

"لكن ذلك كان صعباً في تلك الظروف. ثم أخبرني شاكر وناتاليا مرات عديدة جداً كم أنت طيب ولم أنت مختلف عن الآخرين وأنت عانيت من الإذلال...."

"نعم، أوه، نعم"

"هما يودان أيضاً أن أتزوج منك"

"أعرف" صاح وهو يقفز من السعادة "كلاهما يجبانك حقيقة وبتلك الطريقة سنعيش أربعتنا فقط كما في قلعة!"

تنشقت بعمق وجرت إصبع قدمها للأمام والخلف عبر الأرض.

"أردت أن أعرفك بشكل أفضل."

لماذا قالت ذلك؟ فكر ماتفى قلقاً.

"نستطيع أن نكون صديقين فقط، لن أكون زوجة لك أبداً" قالت ووقعت الكلمات عليه مثل نقاط من الماء البارد. "لا تفكر بذلك مرة ثانية بعد الآن" استطاع بصعوبة سماعها بسبب الطنين في أذنيه. نهضت ثم ابتعدت وراقبها وهي تذهب، وكان يشعر بأن الأرض تلف تحت قدميه. تلت ذلك أيام صعبة، كان كل يوم يجلب له هزة عنيفة ومفاجئة جديدة، كان ضحية لأفكار محمومة وأمزجة غير مسبوقة. أحياناً يتبادى له أن صدره تمزق وانفتح ودخل في جسده كل حزن الأرض وشرها من خلال الجرح وكانا يسحقان قلبه.

لم يعد هناك وجود لأي شيء بالنسبة إليه. حتى قبل هذا لم يهتم بعمل الحبال إلا قليلاً، فقد أدار شاطر الشغل والتجارة بكفاءة عالية، لكنه كان مهتماً بشغليته، فكان يمضي بعض الوقت معهم في مكان العمل وفي المطبخ وكان يصغي إلى أحاديثهم ويسألهم عن الأخبار، لكنه لم يعد يلاحظ أحداً سوى المستأجرة التي كان يلاحقها بتهور أينما تذهب. أنا مثل كلبها، فكر.

كلما التقى ببوريس الذي كان يمضي معظم وقته في الخارج، كان يأخذه بين ذراعيه ويقرصه ويدغدغه بلحيته. "دعني أذهب يا عم ماتفي! اتركني! لبس لدي الوقت! أنا ذاهب إلى الغابة مع ليوبا وفانيا" كان يركض مندفعاً ليترك ماتفي يحدق بالأرض ويمجري حساباً بينه وبين نفسه: "الآن هو في الثامنة من عمره، وحين أكون في الأربعين سيكون هو في السادسة عشرة، وفي الخمسين في السادسة والعشرين، أيها الرب الطيب، حرك قلبها"

مرة أمس لها: "فكري بما تفعلينه بي يا يفجينيا بترفنا"

"لا أستطيع تجنب ذلك. لا أستطيع" قالت، كل كلمة كانت مثل جمرة ارتجت عليه.

"انتظري، لا تستعجلي، دعيني أمتلك بعض الأمل على الأقل"

"كلا، لا يجب أن تمتلك الأمل"

"لماذا يجب أن يكون الأمر هكذا- اشرح لي إن كنت تستطيعين بحق المسيح! أنت تقولين إنني رجل طيب وصديقك وكلانا روسيان ومع ذلك لا نستطيع أن نوحّد حياتنا معاً. الأشياء التي أريدها ليس لك مصلحة فيها والأشياء التي تفكرين فيها أنا لا أستطيع أن أفهمها. لماذا الأمر هكذا؟"

حاولت أن تشرح، لكنه لم يكن يسمع سوى تدفق كلامها فيزداد غضبه ويهددها في قلبه.

"أنا محظوظ لأنني وديع جداً. أنا مكبل اليدين والرجلين بكلماتك السحرية تلك..... وبحبي العميق لك"

"أليس لديك أية شفقة؟" سأله في مناسبة أخرى.

"لا يجب المرء بدافع الشفقة" ردت عليه بصرامة.

"ماذا؟" قال في ذهول "ليس الأمر هكذا يا يفيجينيا بترفنا. ذلك هو السبب بالضبط الذي يجعل المرء يحب: لأنه يكون حزيناً ومتأسفاً على الآخر، حزيناً أن يراه غير سعيد في وحدته"

لكن مرت أوقات كان يشعر فيها أحياناً أنها أزالّت عاطفته المشبوبة كما يزيل المعالج المرض، تكون فيها ليومين أو ثلاثة أختاً محبوبة انتظرها طويلاً ليخبرها بكل شيء بحرية كما لو كان يتكلم مع رجل آخر: يخبرها بكل شيء- عن والده وبيلاجيا وكل حياته. وأحياناً كان يندهش من هذا. ما الذي أقوله؟ كان يسأل نفسه. وحين يمدق فيها كان يرى عينيها اللطيفتين الحريصتين على الأرضاء والمتعاطفتين جداً وشفتيها المنفرجتين والخط الوقور بين الحاجبين، وجه لشخص كان عزيزاً عليه بشكل لا حدود له.

ومرة أخرى كان يمتلئ شوقاً لا يقاوم ليضمها ويسحقها على صدره
ويقبلها كما قبل بيلاجيا ويسمعها تبكي بعرفان كما فعلت بيلاجيا وتمت
عبر دموعها:

"الامر كما لو أنني استحممت في جدول، كما لو أن روحي اغتسلت
وتطهرت بحنانك....."

ربما علي أن أخبرها، فكر بذلك أكثر فأكثر على نحو متكرر.
لكنه لم يجرؤ. هناك شيء حولها جعل ذلك مستحيلاً حتى للتفكير
باستخدام القوة. وكان يسأل نفسه وهو شبه مريض وغاضب منها ومن نفسه:
"كيف ستنتهي هذه العلاقة؟ كيف؟"

وحاول مرة أخرى أن يستجدي شفقتها.
"لكنك أشفقت على بيلاجيا وأشفقت على الناس العاديين وأشفقت
على زملاءك المعذبين....."

"ذلك مختلف تماماً" كانت تقول وتمز رأسها "أنا أشفق عليك أيضاً
بنلك الطريقة، أريدك أن تكون سعيداً، أريدك أن تنمو وتتطور كي تعيش
وسط رفاقك الرجال دون شعور بأنك غير مرغوب أو لا حاجة إليك.
القوم العاديين يجب أن يُجْبَوْا ويُفْهَمُوا ويُسَاعَدُوا لكي يجدوا طريقهم
للخروج من هذا الوجود المخزي والمقرف والسطحي"

أخبرته عن مئات البلدات الصغيرة الأخرى المماثلة لأوكوروف التي لا
تزال ترتعش من الخوف من أي شيء جديد وبضجر سحيق يقود إلى
اليأس. تفص بسكان جهلة مستعدين لتصديق أي شيء لا يزعجهم أو
يقلق رضاهم الذاتي المشين عن حيواتهم، كل بلدة غريبة عن كل البلدات
الأخرى، استلقت على الأرض الفسيحة مثل كوم من القرميد والخشب

كدسه شخص عزم أن يشيد بنياناً ذا أبعاد خيالية، لكنه اختفى تاركاً كل هذه المواد الثمينة تتعفن تحت ثلوج الشتاء وأمطار الخريف دون حراسة أو عناية. تكلمت بشكل جيد وجميل وحاسي مثل غر صغير يتلو أنشودة دينية متوهجة بالإيمان، عاشقة وحاسدة مريم العذراء التي اختبرت لتولد ابن الرب. كانت تحرك أصابعها الطويلة وهي تتكلم كما لو كانت تقتلع أوتار غوسلي غير مرئي أو تحيك صوراً ساطعة من حياة الماضي البعيد في بلدي نوفرود ويسكوف. برقت عيناها ببهجة طفولية وكان وجهها مشعاً.

أمسك بيدها وقبلها..... ثلاث مرات ورحل وهو يتمتم:

"شكراً لك يا بفجينا بروفنا. سأزور قبرها وأحكي لها..... شكراً

لك"

كان ربيعاً مهدداً بالجفاف. صعد ضباب كثيف من المستنقع وانتشر في الجو الساكن الذي لا ريح فيه، حاملاً رائحة عفن كريهة ومقرزة إلى البلدة، وبدت الشمس الحارقة الضبابية التي بلا أشعة مثل زهرة عباد الشمس ذاتبة، والليالي بدلاً من جلب نسائم منعشة لفت البلدة بظل أسود فاسد مثل ثوب حداد أرملة. كان القمر دولاباً هائلاً، أحمر ومشووماً، أشرق وخيم فوق البلدة وبدا وكأنه يزيد من انغلاق الجو أيضاً. فقد القمح الشتوي اخضراره وذبلت الأعشاب ونبات الحوذان الأصفر والخشخاش الأحمر ونبات الجريس وكل الزهور المتفتحة المسكينة الأخرى في الحقول الجذباء، فانعقدت بتلاتها وتدلّت رؤوسها بخنوع وكانت الأرض مخرمة بشقوق مثل شفاة شوهها عذاب العطش.

في النهار، كانت أسراب من الذباب تطن مثل أسلاك التلفراف النشطة وأشخاص نشيطون يحومون في الجو. اندفع السنونو الأوروبي في الشوارع

زاعقاً، وكانت الطيور الأخرى كلها تبحث عن ملجأ في الظلال وعند المساء تطير غيوم من البعوض عالياً من المستنقعات وتطن طوال الليل. كان أهل البلدة الكسولون ينتقلون في المكان ويحدقون بالسما بتأنيب غاضب ويكلمون بعضهم بلا رغبة وفتور وضجر ويأس، ويخرجون عن أطوارهم ولأنفه استفزاز يخسرون بعضهم ويشتمون بعضهم بأقذر الكلمات. لم يستطع كوجييايكن النوم، فقد كان رأسه يؤلمه من الأرق ونحول الشعر الذي على صدغيه إلى اللون الرمادي من الهم وأجهده عاطفة مشبوبة كانت شدتها تزداد عليه يوماً بعد يوم، ولم يعرف الراحة. كان منهكاً ووجهه مشدود وفي عينيه نظرة يائسة وبلا أمل. وكان يرى من خلال السديم نظرات شاكر وناتاليا المتعاطفة وابتسامات الشفيلة الساخرة، وعرف أن مروجي الإشاعات بثوا إشاعات وضیعة حول المستأجرة، لكنه داخلياً هز كتفيه وقال باستخفاف:

"وما أهمية ذلك؟"

في الليل كان يخرج إلى الحقول ويستمع إلى همس الأعشاب الجافة الحزين وحفيف فتران الحقول الجائعة وأزيز الجنادب القلق -دمدمة غريبة وجافة في كل مكان مثل ندب ناعم للأرض المعذبة. وكان يردد كلمات مألوفة له منذ زمن طويل وهو يمشي: أحبيني! أشفقي علي!

وتخيل أن كل شيء حوله كان يردد صدى هذه الكلمات في همس دائم وحاد.

مشى ويدها مقفلتان خلف ظهره كما كان يمشي والده، رأسه معني نحو الأسفل وظهره محدوب، يحرق قدميه بصعوبة. عقلياً، عرى المرأة التي اشتهاها ورفعها عالياً في الجو الخائق وحملها أمامه وهو يقول لها: "والدي

كان رجلاً طيباً لكنه بهيمة، أما أنا فلست بهيمة، وأولاد من نسلك سيكونون أكثر شبهاً بالكائنات البشرية. حبيبتى يفجينيّا! بتلك الطريقة فقط ومن خلال الحب فقط يمكن أن يولد أناس جدد وأفضل"

رأى ندييها، فأكهة طازجة شكلت لترضع حيوات جديدة، وتذكر حلمتي بيلاجيا الورديتين اللتين كانتا مشدودتين للأعلى كأنهما تبحثان عن شفتي رضيع. هذه الصور خفتت وأخلت المجال لصور أقسى.

أطبق قبضته وأسرع في مشيته وتقصّد العرق منه ورمى نفسه على العشب لاهثاً ومنهكاً على جانب الطريق.

أحياناً، وبعد أن يصل إلى البيت، كان يعبر الفناء بخطى مثل النمر، وينظر إلى الأعلى إلى نافذة العلية بعين ضيقة ويعض على شفتيه، وهذا كل ما بمقدوره ليمنع نفسه من النداء بصوت عال ومهيب: "تعالى إلى هنا"

لكن شجاعته كانت تخونه في كل مرة ليذهب إلى الداخل محطماً ومستهلكاً وتالفاً، ويسقط على السرير ويسلم نفسه لرعب رؤاه. لو كانت لي شجاعة أبي لانهيت من هذا كله منذ أمد طويل. في هذا الوقت جاء رجل جديد للعمل في الفناء، كان صغير الحجم ورثاً وهزياً وساقاه طويلتان ونحيلتان ووجهه شاحب ولحيته صغيرة متناثرة. عيناه متصلبتان على نحو مثير للضحك، وليخفي هذا كان يضيقهما للأعلى فيبدو الشقان مثل شفرتي موس جيب أحدهما أطول من الآخر.

كان وريث ماروشكا، وعلى الفور لفت الانتباه بابتسامته المؤدبة والفأرضة وبطريقته البليغة في الكلام. قابله الشغيلة بعداء ازدرائي بعد تفحصهم الحذر له، فوما، فلاح نحيل، مدور الأكتاف وجهه طويل ونحيل من فوغورود، يعلن:

"لست أنا من جلب القحط يا أيها الرجل الطيب الأخاديد، هي من جلبت القحط، وهذا ما قاله لي سيد متعلم جداً. أنتم أيها الناس الذين تديرون الأشياء تركتم الأخاديد تكثر والماء يتفرغ فيها والآن بانتظارنا جفاف قاس جداً أيها الناس الطيبون"

فتح فمه ونظر حوله إلى رفاقه.

"أنت أخ أحمق بالتأكيد، أحمق بجدارة" قال وهو ينظر إلى الرجل من فوق كتف شاكر.

انفجر الجميع بالضحك ما عدا شاكر الذي أخذ حمال الفناء الجديد إلى الحظيرة، وقال له:

"الجم لسانك، هم سوف يضربونك"

"أنا لا أؤمن بالقبضات" قال الزميل الضعيف.

طائر غريب آخر، فكر كوجييايكين الذي كان يجلس في ظل الحظيرة. عند القبول بتشغيل حمال الفناء تبين من جواز سفره بأنه يدعى أليكسي إيليتش تيغريستيف ويبلغ من العمر سبعة وعشرين عاماً، وأنه من بلدة توبي أوغول. تفحصه كوجييايكين وقال له:

"أنت تبدو شماساً"

"ربما" أجاب الرجل بشكل مؤدب "لا يوجد أحد في أوغول يبدو كما يفترض أن يكون، عليك أن تأخذنا كما نظهر لك"

شعر كوجييايكين بوجود شيء ماكر ولا يوحى بالثقة، وكان مندهشاً جداً حين وجد أن يفجينا بتروفنا أجرت مناقشات مطولة وحامية معه وأنه أصغى إليها بانتباه ورد عليها بجدية واقتضاب وفي صميم الموضوع. تذكر أنها حين أتت لتسكن في بيته كان تخرج كثيراً وتذهب إلى مشغل الجبال

وتجلس هناك وهي ترتجف وتحاول الدخول في نقاشات مع العمال الذين كانوا يردون على أسئلتها بفظاظة عدائية واقتضاب وكانوا يقهقهون خلصة متخفين بلحاهم ويتبادلون نظرات ذات مغزى، وحين تغادرهم كانوا يتناقلون ملاحظات مهينة عنها. لم يكن في قلوبهم أي حقد، لكن عدم مبالاهم الفاترة كانت أسوأ من الحقد، ولاحقاً حين رأوا التقدير الذي يكنه رب عملهم للمستأجرة التي في بيت سيدهم باتوا ينعنون جداً لها كلما مرت ويخلعون قبعاتهم ويتدللون لها كالشحاذين ويتحلون نغمة خانعة حين يتكلمون معها ويتنهدون ويقبلون بكل شيء تقوله.

"يا له من مصير بائس ومضطهد ذاك الذي لشغيلتك!" قالت مرة مهزومة.

فكر ماتفي.

تزوجي واحداً منهم وسترين إلى أي درجة هم مضطهدون! امتنع من الاهتمام الذي تبديه للقوم العاديين، وشعر بأنها كانت تعطيهم شيئاً كان هو بحاجة وحق له أكثر منهم. وها هي الآن تمضي كل مساءاتها في الحديث مع أليكسي ذي الساقين الطويلتين المغزلتين: لماذا تفعل ذلك؟

بعد العشاء وبعد الانتهاء من العمل وحين تكون البلدة عالققة في ليلة خائفة أخرى تعج بطنين آلاف الحشرات، يخرج ساكنو البيت الخمسة ويجلسون على الدرج أو في البستان. كان شاكر يشعل ناراً صغيرة ويلوح بأغصان فوقها فترسل خيوطاً زرقاء من الدخان باتجاه ماتفي والمستأجرة لإبعاد البعوض، وكان الناس يسعلون ويعطسون، لكن البعوض يستمر في طنينه وعضه غير هباب.

اندمج صوت القادم الجديد أليكسي مع أزيز الحشرات.

"يوجد الكثير من المياه في المكان الذي ولدت فيه وذلك لوجود عدد كبير من الجداول المائية، لكن ليس هناك أرض كثيرة وما بقي منها أرض قاحلة، لهذا أغلب القوم رحلوا بحثاً عن رزقهم في مكان آخر. كان البولونيون يدبغون لنا جلود الحيوانات في الأزمنة الماضية، لكن لم يعلمنا ذلك أي شيء ما عدا النسوة اللواتي تعلمن خياطة الجوارب وصنع النقانق لبيعها. وستفاجئين بعدد النقانق التي يستطيع الناس أكلها في موسكو! الفلاحون لا يفعلون شيئاً سوى التذمر: ينتقلون هنا وهناك ويشتكون من قدرهم القاسي قائلين إن الرب نسيهم، زرع الموظفون ذلك فيهم ورجال الدين لم يعلموهم شيئاً وهم بدورهم لا يملكون أي رغبة بالتعلم، وإجمالاً ليس لديهم أية معرفة بالسبب الذي ولدوا من أجله أو الفائدة من العيش في مكان تخلى عنه الرب مثل توبي أوغول.

وجه عينيه الصغيرتين المعقوفتين في كل الاتجاهات وابتسم بأدب، ضرب البعوض بعنف بينما ظلت كلماته تتقاطر منه مثل ماء عبر دلو مثقوب.

"لو سألتيني، لا يفعل الناس شيئاً سوى الجلوس، يجلسون منذ خمسين سنة ويفكرون عما يستطيعون فعله ليمتعوا أنفسهم، وفي السنة الواحدة والخمسين يبدون ازدهاءهم ويموتون أطفالاً كما ولدوا ما عدا اللحى الرمادية على ذقونهم"

تدلى القمر بلا حراك فوق البستان، كأنه التصق بالسما المظلمة، وكانت الظلال قصيرة والأشجار المغبرة قد تدلت إلى الأسفل بلا حياة. كل شيء يفتنى في الحرارة الواهنة الصامتة، الأصوات الوحيدة التي تسمع، صراخ

عرضي لطائر ليلي أو زعبق بومة في المستنقع أو مواء القطط المشردة وهي تتشاجر في بيت بوبونوف المهجور.

جلست المستأجرة ورأسها محني مخفية وجهها نصفني إلى البكسي وترقب لحيته المتنافرة التي كانت تهتز وهو يتكلم، تراقبه وهو يدفع قبضته المجددة من أذن إلى أخرى. بين الحين والآخر كان تطرح عليه سؤالاً لتصمت ثانية وهي تلطم بشكل خفيف عنقها أو خديها بيدها.

بات كلامها أقل وأسلتها أكثر في هذه الأيام، قال ماتفي لنفسه وهو يراقب يدها مثل طائر أبيض يرفرف في الظلام.

خطرت له فكرة كئيبة صغيرة وهو جالس هناك لساعات: ها نحن نجلس هنا مختلفون كلنا لكننا مثل متشردين تائهين على هذه الأرض.

"يا ربنا في الأعلى" قالت ناتاليا "الجو الحار لا يسمح بالنوم ولا بالاستيقاظ"

"لماذا تقول شيئاً مثل هذا؟" قال شاكر بهياج من حمال الفناء الجديد "الرب يقول اعملوا، أما الروسي فيقول لا فائدة من العمل، فأنت ستموت في كل الأحوال. لماذا تقول مثل هذه الأشياء؟ الروسي مكر ولا يحب العمل" بعد واحد من مثل هذه المساءات، قال ماتفي للمستأجرة وبشيء من الغيرة:

"لماذا أنت ودودة جداً مع أليكسي هذا؟"
"لأنني أجده ممتعاً" قالت يفجينيا بتروفنا.

"يبدو لي أنه غير مبال بأي شيء مثل ماركوشا" أضاف بعد لحظة من التفكير. "إنه يرى الأشياء من زاوية مختلفة فقط" نظرت حولها كما لو كانت تبحث عن شيء وقالت بحزن:

"هل تتذكر ذلك الناتور وسكين؟"

"يفجينيا بزوفنا" قال في نضرع ناعم "أشفقي علي. أحبيني. أتوسل إليك مثل منسول. سوف أفعل أي شيء تطلبين. اطلبي مني أن أعطي كل مالي إلى عمالي وسأفعل على الفور"

"هل تعرف ماذا قررت؟" سمعها تقول بهدوء "أن أرحل في القريب العاجل أيضاً. الجميع يرون كيف تشعر وأنا أجد ذلك متعباً، حتى بوريس قال لي قبل الأمس "لماذا يحملق بك مثل هندي؟"
"ذلك سيكون النهاية بالنسبة إلي"

رفعت كتفيها وابتعدت ماشية دون استعجال وهي تهز رأسها.
قولها إنها يجب أن ترحل وابتعادها دون استعجال جعلاه يفكر في محاولة من الأمل:

إنها تخشى أن تقول نعم، تخشى من أن أخدعها بأنني لن أتزوجها، بارك الرب قلبها! يجب أن أكون أكثر شجاعة. مم أنا خائف؟

بعد بضعة أيام هبت ريح رطبة من الغرب وتجمعت غيوم سوداء مزرقة فوق مستنقع لياخوفسكوي. انتشرت رايات الحداد في السماء الحارقة وأبحرت فوق البلدة. زعقت غربان الزيتون والغربان بأصوات عالية وجرفت الريح القشور إلى داخل الفناء ممسكة بمزق القنب والزغب في دوامات صغيرة، ودوت البوابة مثل طلقة نارية، وتعالى صراخ الأطفال من كل الأفنية وصراخ النسوة الحاد اللواتي كن يضعن أحواضاً لجمع مياه المطر. وكان فرع من شجرة اللابم التي نمت بجانب برج جرس الدير يضرب الجرس ويرن بابتهاج. ومن الحقول في الخارج أطلق راعي المواشي مزماره لاستدعاء القطيع، فالبرق كان ينقض كالسهم والرعد يقرع.

خرج كوجيما يكين إلى الشرفة ووقف وعيناه شبه مغمضتين ليحميها من الغبار لينصت إلى دمدمة الأرض التي عذبها العطش.

يفترض بالمستأجرة أنها بدأت بدرسها المتوقع مع طلابها، لكنهم كانوا في الخارج في الفناء يلفون مع القشور والأوراق الساقطة، لويبا، بيضاء ومرغبة مثل قطعة من الصوف، أمسكت تنورتها بين ركبتها و صفقت بيديها بفرح وهي تراقب بورييس والسمين فانيا خريابوف وهما يرقصان مثل همجين، وقد أمسك كل منهما بيد الآخر وبدأا يُحبطان بأقدامهما على الأرض بأقصى قوتيهما ويصيحان حتى احمر وجهاهما:

يا رب أرسل المطر؛ للحقل والسهل؛ افتح السماء على مصراعيهما؛ واسق الجاودار.

"ليس هكذا" صاحت ليوبا.

يا مريم العذراء نصلي إليك؛ أرسل لنا لمطر في هذا اليوم؛ دعي المياه تتدفق؛ لكي ينمو المحصول.

"انظر. ولدي أيضاً تحول إلى وثن" سمع ماتفي أحداً يتحدث من خلفه. التفت إلى الوراء والتهم المرأة بعينين جانتعتين.

كانت ترندي قميصاً أبيض من موردوف واسعاً وبلا قبة. سقط القماش الناعم في طبقات ناعمة مظهراً الانحناءات المغرية لكتفها وئديها.

ضربت نقاط من المطر الدافئ السقف بصوت صاخب، وارتدت للأعلى من الأرض الحارة في الفناء، وثار غبار في غيمة خلفها والتهمها. ازداد الظلام حين اقترب الغيم فوق الفناء ولمع البرق وارتجف كل شيء وطارت بقايا بيت بوينوف الخرب وسقطت بضجيج صام للأذان؛ زعق الأطفال

واندفعوا إلى الحظيرة. وفي اللحظة التالية كان هناك هدير مطر غزير كأنه نهر
انهمر من السماء.

ثار الغبار في غيمة ليهزم ويدمر، أشرطة صفراء من الماء تلوت عبر
الفناء، جداول براقه انهمرت من السقوف، ازداد المطر الغزير حتى لم يعد
في الإمكان رؤية أي شيء سوى جدار لامع من الماء.

"يا للجمال! يا للروعة!" سمعها ماتفي تقول عبر خرير الماء والهدير.
"الجو بارد جداً" قال دون أن ينظر حوله "ورطب، من الأفضل أن
تذهب إلى الداخل"

"فكر فقط في الذي يحدث في البستان!" هتفت قائلة.

هي لن تذهب، قال لنفسه.

وفجأة أدرك أنها ذهبت.

مشى متداعياً مثل رجل أعمى شق طريقه إلى غرفة بيلاجيا. كانت
يفجئنيا تقف ويدها مشبوكتان فوق رأسها وتنظر إلى البستان في الخارج.
دون ضجيج وضع مزلاج الباب وتقدم ولف ذراعيه حولها.

"يفجئنيا، حبيبي" همس قائلاً "اقتليني بعد ذلك إن أحيت..... فهذا
غير مهم...."

رفع جسد المرأة بين يديه، أحكم قبضته عليها، استدارت نصف استدارة
ورأى عينيها الحنونتين وشفثيها المنفرجتين وسمعها تدمدم بنعومة:

"لا تفعل، يا عزيزي، يجب ألا.....".

رفعها بذراعيه بسهولة كما لو كانت طفلاً وضغطها إلى قلبه. أدارت
صدرها نحوه برشاقة وللحظة قصيرة ضغطت شفثيها الرطبتين على شفثيه
الجافتين، ترنح معها عبر سديم أحمر، لكنها بدأت تصارع وتصبح فجأة:

"أنزلني"

انسلت من قبضته مثل سمكة، ركضت إلى الباب، ومن هناك فكت المزالج بيد واحدة وبالأخرى سوت قميصها وتلفظت بكلمات جففت كل قوة فيه:

"لا أستطيع أن أخدعك - أنا أعرف نفسي جيداً. لو أن ذلك سيحدث سأحتقر نفسي وأكرهك. هذا ليس شيئاً يؤخذ بهذا الاستخفاف - ساعني إن كنت أستحق اللوم"

انهار على المقعد، ولم يكن يشعر سوى بشيء واحد: إنها سترحل. حين أفلتت نفسها من بين ذراعيه لم تسرق جسدها منه فقط وإنما شجاعته وقوته أيضاً، وأدرك على الفور بأن كل شيء قد انتهى: إنه لن يراها أبداً. جلسا وهو يهتز إلى الأمام والخلف ممسكاً برأسه بين يديه وناظراً إلى وجهها المتورد الهائج وعينيها اللماعتين وتحيلها تذوب. لقد قلبت قلبه مثل فنجان وجففت كل شيء فيه ولم تترك سوى العار والاشتياق.

"انصرفي" قال بتلويح يائس من ذراعه.

ذهبت. تمايل الطلاب عد الباب بقرعة صغيرة. ارتمى على الأرض دبوساً شعر ومنديلاً أبيض صغيراً فجعد إلى كرة. لو رآهم أحد لتخيل شيئاً لم يحدث أبداً، فكر. التقط الدبوسين ووضعهما على الطاولة وغطى المنديل بقدمه ونسى أمره في الحال.

توقف وابل المطر الغزير، تموضعت بقعة ذهبية من أشعة الشمس على أرض البستان. لوحات الأشجار بأغصانها التي غسلت للتو وتساقطت حبات المطر براقاً مثل الزئبق، وتشيع الهواء الدافئ بعطر الأوراق الخضراء المتبخرة.

أنت أصوات مرحلة من الفناء.

"توقعت أن يكون هناك برد" قالت ناتاليا.

ضحك الأطفال وكذلك شاكر بطريقته الكثيرة المنذمة، وجاء صوت اليكسي وهو يقول:

"رُمي به علينا مثل الصدقات، كما لو أن الوهاب كان حاقداً هنا، افركوا أنوفكم به"

جلس كوجيايكين يستمع إلى ارتطام الكلمات بصدرة الأجوف وفكر لنفسه: هي رمت صدقاتي.

شعر بالخجل فجأة إلى درجة الغيظ وتملكه دافع لأن يقتلع شعره ويقفز من النافذة ويتمرغ في الوحل مثل خنزير أو يصرخ ويشتم بأعلى صوته.

غرد عصفور الدوري بصوت عال وزقزق حسون شجرة السمن ونعقت الغربان مستحسنة ذلك، ونادت ليوبا بصوت عال:

"أوه، أوه. ستغرقان!"

"توقف عن ذلك يا بوريس!" جاء صوت يفججينا بتروفنا الحاد.

"لقد بلل نفسه على كل الأحوال" قالت فانيا.

شعر ماتفي بالدموع تتدحرج على خديه. تدحرجت دموعه ودخلت في فمه وجعلته ملوحتها الباردة يرغب في العواء مثل ذئب. كان متأكداً أنه لن يحتمل رؤيتها في اليوم التالي أو في أي يوم آخر بعده، كيف له أن يجمع كبرياءه الذكوري المتضرر أو يخمد غضبه المتأجج؟

"أنا نفسي سوف أرحل، قد أقول شيئاً أندم عليه"

انفتح الباب بحذر. مسح ماتفي وجهه بسرعة والتفت.. لقد كان شاكر.

"موعد الشاي"

"لا أريد أي شيء. قل لالكسي أن يجهز الحصان، سأمضي الليلة في
باليمرى"

اختفى التري وسمعه ماتفي وهو يقول بحزن: "إنه سيغادر إلى
باليمرى"

انفتح الباب مرة أخرى ونوهج الأمل فيه. أسقط رأسه وسمع صوتاً
هادئاً رقيقاً:

"لننس كل هذا، كل هذا الجانب المظلم يا ماتفي فاسيليفيتش. لتحدث
حديثاً ودياً كأصدقاء"

"آه، يا بفجينيا بتروفنا" قال دون أن ينظر إليها "لقد رمتني بسحر
سيدوم طوال حياتي. أنا أشعر بالخزي. أرجوك انصرفي"

تصارع ضد اشتياق خفيف بأن يرمي نفسه عليها ويمسكها ويلويها
ويحببها حتى تصرخ من الألم.

"ألا نرى... لا أستطيع..... لأنني..... لأنني -"

"انصرفي" أصر قائلاً بفتور.

بعد نصف ساعة كان جالساً في عربة خشبية صغيرة ذات دولابين، يقود
حصانه بهياج. ضربه الوحل المتطاير بوجهه وصدره. صهل الحصان
الأملس وهو يرش رش ماء البرك التي لم تمتصها الأرض الجافة. نظر
كوجيما بكن إلى الخلف وقد صرّ على أسنانه. كانت الشمس منخفضة في
سماء صافية وساطعة وأشعلت أشعتها نيراناً في نوافذ البيوت ونفثت هواء
حاراً عليه. فتح قبة قميصه، أرجع رأسه إلى الخلف وأغمض عينيه نصف

إغماضة ليحميمها من الوحل المتطاير. كان الحصان يعدو وكانت أفكاره المقرحة تعدو معه أيضاً.

أنا لم أرفع يدي إلى امرأة- وأي نساء هناك-دونكا وساكا- وكان مقارنتها بهما ممكنة! وأنا لم أرد أن أضرها أبداً: آه يا حبيتي، يا حبيتي لقد صعدت قلبي كما يفعل البرق! لو كنت أستطيع ضربك فقط! ثم أتمرغ عند قدميك بعد ذلك وأشرب دموعك! ها أنا ذا في طريقي إلى بيت موكي شابونوف وهو شخصية سيئة سرق ابنته المتبناة. سأحرق جسدي وروحي! ولماذا لا أفعل؟ لا أحد يكثرث بي سوى الشيطان.

أنت الأفكار وضغظت عليه من كل الجوانب ومن الأسفل مثل سرب من الذباب ثم تلاشت دون أن تترك أوهى اثر على الحمل الذي رزح مثل نقل مميت على قلبه وتفجرت الدموع من عينيه المغلقتين بإحكام.

عمري تجاوز الثلاثين ولا أزال مغفلاً! قال لنفسه موبخاً حين بانث شوارع القرية أمامه من بعيد وانقضت عليه بسرعة ونهم مثل فك فاجر، فك بأستان متعفنة حادة وخشنة.

وقف الحصان أمام كوخ تشابونوف، وكان موكي جالساً في الخارج، فأوماً برأسه الأصلع الذي يشبه البيضة وقال:

"كيف حالك"

"اعتن بحصاني" قال كوجيمايكن وهو يشب إلى الأسفل في الوحل "لقد جئت من أجل التسلية"

جعد الفلاح الخافي ذو الساقين المقوستين وجهه وحك بطنه المتنفخة بحزام مربوط تحتها ونادى بصوت جهر متعجرف: "آنا، لوبيا" افتحا البوابة

بعد ذلك اقترح قائلاً وهو بضيق عينيه الباهتين:

"يشعر المرء بالحاجة إلى قليل من المرح الصاخب بعد المطر، ذلك صحيح. الأرض نالت أغانيها والرجل يحتاجها أيضاً"

التفت ماتفي إلى الوراء وحدق باتجاه البلدة، ضباب وردي خيم على الحقول ظهرت من خلاله بقع حمراء فيها نقط ذهبية كأنها قطع من قماش قطني مدت بيد كريمة. سقطت الشمس خلف التلال البعيدة فغابت البلدة عن النظر. وفوق الرؤوس عالياً امتدت أجنحة مشتعلة من الغروب وغيمة سوداء وحيدة كانت تسبح مثل سمكة هائلة في بحر من اللهب.

"أشعل فلاحو مياملين النار في الغابة وهي تحترق منذ ثلاثة أيام. هل مازالت كذلك؟"

"كيف لي أن أعرف" قال ماتفي بخشونة.

تلاأت أخايد الطريق الذي أصابه الفيضان مثل شرائط حريرية وكانت تشير إلى طريق العودة إلى أكوروف حين حطت عليها عيون ماتفي الذي كان ينتظر سراً خيلاً أسود لفارس يظهر في السماء الحمراء (شاكر أو الكسي) يعدو حصانه بسرعة بين الشرائط وكوعاه يضربان بضلوعه وينادي بأعلى صوته من بعيد: "أرسلتني إليك يفجينا بتروفنا!"

كانت الغربان تطير فوق الحقول، وكلما مر أحد الطيور فوق البركة يصبح اثنين. انحنى لماتفي امرأة طويلة بحاجبين سميكين وعلى وجهها تعبير حزين.

"أعطني المفاتيح" قالت لموكي.

"هي من أريد- أنا" نطق ماتفي بأسلوب هزلي فغادرت المرأة.

ربط الفلاح حزامه ثانية وسأل: "هي، أنا؟"

"نعم، هي"

"لا يمكنك نيلها" قهقه الرجل "أنت تعرف لماذا"
"لماذا؟".

"هي زوجة ابني كما يفترض. هي كتي"

كان كوجيمايكي في مزاج للجداول والصراخ وإثارة الهرج:
"إنك وغد يا موكي، أين ابنك؟"

"في المكان الذي ينتمي إليه. لص هذا ما هو عليه!"

"إنه لم يسرق نقودك أبداً وأنت تعرف ذلك! لقد نصبت له فخاً للتمكن
من أخذ زوجته! لا تنكر ذلك!"

تثائب الفلاح ورسم علامة الصليب فوق فمه ورد وهو راض عن
نفسه:

"لا أحد يستطيع أن يثبت شيئاً كهذا. رزمة من الأكاذيب. لا تصدقها.
القانون هو القانون، ووفقاً للقانون يجب على ابني فاسيا أن يمكث في
السجن وأنا حر بأن أفعل ما يسرنا، دعنا نذهب إلى الداخل"

تلاشى مزاج ماتفي القتالي تدريجياً، فليس هناك من يستحق القتال
ضده، ولم يعد مهتماً بالتحديق في الطريق، بهت الغروب وتجمعت قطع
القماش القطني كما فعلت الأشرطة الحربية، وأصبح لون البرك الصغيرة
أزرق غامقاً.

دخل الكوخ قابلتهم لوبيا زوجة ابن أخ موكي الذي كان يؤدي الخدمة
المسكربة. كانت صغيرة الحجم ونحيلة وقالت:

"نهارك سعيد يا ماتفي فاسيليفيتش، يا سيدي!"

مر كثير من الوقت على آخر مرة كان فيها في هذا الكوخ الذي هو أكبر وأنظف من أغلب أكواخ الفلاحين الأخرى، لكنه شمر وكأنه البارحة فقط. رأى ركن الأبقونات الذي فيه خمس أبقونات والمرأة ذات الإطار النائي. وساعة الجدار بنواسها الذي لا يتحرك ونعل الفرس المثبت كثقل بأحد السلاسل وأسرة النوم العريضة والمنخفضة.

أحضرت ليوبا صينية من الفودكا والطعام. ازدرد ماتفي ثلاثة كؤوس من الفودكا التي ذهبت إلى رأسه مباشرة. لم يكن يستمتع بالشراب، وكان يكره طعم الفودكا بالإضافة إلى تأثيرها عليه، فقد كانت توهن قوته وتبلد عقله دون أن نسلبه منه تماماً، فكان يلاحظ كل شيء لكن بشكل ضبابي وغامض.

ظل لثلاثة أيام يتمرغ بلا بهجة وبقلب متعرج في وحل فسق قرية. أحياناً كان يذرف الدموع المملة ويتعجب في وجه ليوبا المشوهة ويقول: "ليوبا، حاولي أن تظهرني مثلها مرة واحدة وسأعطيك كل شيء أملكه. أنت لا تستطيعين، أليس كذلك، أيتها المومس؟"

بكى موكي أيضاً وصرخ: "أنت ماتفي، أنا موكي - هذا كل الفرق بيننا، أتفهم؟ نحن كلنا بشر بنظر الرب. كل الكلاب كلاب بالنسبة إليك وإلى. كلنا بشر بالنسبة إلى الرب. هذا كل منا في الأمر و-ل-ا-1-فرق على الإطلاق، أتفهم؟"

"تلك أكذوبة!" صاح ماتفي وهو يضرب صدره بقبضتيه. "إنها مختلفة. لا أحد بطبيعتها. لا أحد!"
قبله موكي في خده وقال:

"أوه، تعال! نحن كلنا مجرد بشر. أين الحقيقة؟ ربما أنا الحقيقة؟ أنا لست خيراً. أنا نذل ووغد، تلك هي الحقيقة. الرب يمتلك الحقيقة!" صلب نفسه "أيها الرب الرحيم، ما الذي يجعلك تتحملنا وتصر علينا؟" خر كوجيما يركب على ركبتيه أمام لوبيا السمينة صاحبة الفم الواسع: "قابلت امرأة محدة، المرأة الوحيدة التي كانت تستطيع أن تنقذني من هذه الحياة والآن انتهى كل شيء. لم يأت أحد يمتطي حصانه بسرعة. هي ليست بحاجة إلى أحد. بنت لي بلدات جديدة امتلأت بناس رائعين، نادتي لتسلق برج الأجراس معها ثم رميني إلى الأسفل. وها أنا. لقد رحلت. بعبارة أخرى، أنت لست مؤهلاً لها"

ضرب رأسه بالسريـر وقال:

"من هو المؤهل لها إن لم أكن أنا؟" ثم أضاف وهو ينشج "يا ربي العزيز أنت قتلت الروح الحية في داخلي حين جعلتني أراها. لماذا؟" حاولت ليوبا الثملة أن ترفعه عن الأرض، فسقطت دموعها على رأسه وعنقه وسمعها تتحب وتقول:

"أيها الصبي التعيس المسكين! اشتر لنفسك كعكة وابتهل عليها من أجل الأخوة الثلاث، أوسينيا وبوردينيا ونيكيتيا مامتي^(٣) واطلب منهم أن يتشفعوا من أجلك، قل باسم الأمهات الثلاثة: اعصفي يا رياح، اعصفي وذوب الثلوج وذوب قلبها الذي أعرفه ثم انطق باسمها بعد ذلك" موكي الذي كان جالساً على الأرض شد ماتفي نحوه:

"لقد لامست شغاف قلبي. نادِ أنا يا- إن كنت تريد أنا فستانها- مقابل خمسة وعشرين روبلاً. خمسة وعشرون روبلاً من أجل أنا القعبة وخمس وعشرون روبلاً لي أنا، الأخ الـوغد. ستكون حلوة معك. سنعطيك أي شيء

تريده. لقد لمست قلبي أيها الأخ" ثم زأر بأعلى صوته "أيها الرب في السماء
لماذا تتدخل في كل شؤون تعيس مثلي؟"

هاجت الغرفة ولفت في دوائر بطيئة وهناك، واقفة مثل.... بجانب
الموقد، أنا الصامته الطويلة الضخمة وقد صالبت ذراعيها على صدرها
وعلى عينيها غشاوة مثل عيون الموتى.

"انصر في أبتها البقرة الميتة!" صاح موكي بها.

"اهدا أيها المعجوز، إلى أين علي أن أذهب؟" جاء الرد بصوت فاتر
ومباشر.

"مانفي فاسيليفيتش!"، نحب موكي وهو يجبو على الأرض مثل
عنكبوت "انظر إليها! ها هي خرابي! أرسلها الرب عقوبة لي على ذنوبي!"
انطلق بأغنية بشكل همجي فجأة

شجرة كرة الثلج تنمو/ على تلة خارج البلدة....
غني يا آنا، أنت أبتها الساحرة المشعوذة.

أغلقت المرأة الضخمة عينيها، وبدأت تغني بصوت جميل وراثني بشكل
غير متوقع:

تحت الشجرة ترقد هناك حجرة/ تحت الحجرة يرقد هناك حبيبي.....
"انظر إليها يا مانفي، المشعوذة!"

ذبح في ليلة مخيفة/ ذبح بيد مجهولة وبطريقة قدرة.

تمايلت ليوبا إلى الأمام والخلف على المنضدة وعوت مثل ذئب جائع:
شق صدره وكسرت عظامه/ ولوثت يده الزنبقيتان بالدم.

موكي الذي كان يحاول النهوض ولم ينجح إلا في الوقوف على أربع
استمر...:

ميت، آه، ميت....

على طول الطريق من باليمري إلى أوكوروف كان ماتفي فريسة
لذكريات مروعة عن هؤلاء الناس وأغانيهم وأحاديثهم. وصل ليلاً،
مريضاً من الفسق غير المعتاد ومغموم بشمور من العار والبؤس.

وهم يسمون ذلك قضاء وقت منع! قال لنفسه. والأمور دائماً كذلك:
كل شيء منقوع بالدموع والأغاني والرقص، مجرد ضجيج فارغ وصراخ
كأن الإنسان يقول لنفسه: هيا، انظر، ماذا سيحدث لو بدأت بالصباح
والصراخ؟

كانت النجوم مشعشة في السماء المظلمة. تذكر أن والده كان يسميها
النجوم الروسية وأن يفجينا تعرف أسماء كل النجوم الكبيرة وتسمي
الزهور أيضاً بأسماء غير مألوفة.

كانت هناك رائحة احتراق في الجو، يتدوغ اشتعلت بها النيران ورائحة
لاذعة دغدغت أنفه وجعلت رأسه يدور وفي مستنقع لياخوفوسكايا مواء
البوم كالقطط.

كانت يفجينا بتروفا تذكره بالقطة كلما عبرت الفناء حاملة ثانيا ثوبها
وتختار طريقها باهتمام بالغ، وربما حين لا يكون هناك من ينظر إليها تنفض
التراب عن قدميها كما تنفضه القطة عن مخالبها، لكن أكثر ما كانت تذكره
براهبة متزمنة جداً حتى حين تلبس ثياباً ملونة. لم تذهب إلى الكنيسة أبداً
لكنها تتحدث عنها ببساطة ودون خوف وبحماس عن المسيح.

قال لها مرة:

"أنت تعبدن الرب بطريقة مختلفة عن طريقتنا بشكل ما يا يفجينا
بتروفا"

ردت على سؤاله:

"ذلك لأنك تعترف بوجود الرب لكنك لا تعبدّه"

"ماذا تقصدين؟"

"ذلك فقط"

"كل شخص يعترف بوجود الرب"

"الرب موجود وأنت موجود لكن لا توجد روابط بينكما"

شعر أنها نظقت بالزندقة وتجنب التحدث معها في الموضوع ثانية.

الآن وهو يقود عربته إلى البيت، قال لنفسه: كيف لي أن أقابلها وجهاً لوجه؟ بالتأكيد سأكون فرجة. أي خنزير جعلت من نفسي! سأجعلهم يستخون الحمام وأفرك نفسي.

لقد نمرغ في الوحل، لطخ جسده وعاقبه بقسوة ولهذا أبقى نفسه في احتقار وازدراء لكن حبه للمستأجرة أصبح أنقى وأصفى. شعر أنه سبب لها أذية.

ممسكاً بحصانه مثل لص في الليل، قاد العربّة إلى البوابة ونزل عن الحصان ورفع الدقاقة الحديدية بحذر مرة أو اثنتين. رأى وميضاً أبيض لكلمة فاحشة كتبت بالطبشور على السياج.

"اللعة عليهم!" شتم بصوت منخفض وهو ينزع قبعته عن رأسه ومحا الكتابة بها.

سمع صوتاً رتيباً لأقدام سريعة حافية. وصل شاكر في قميص نوم طويل، أخذ رسن الحصان بصمت.

"صه" قال ماتفي "سوف نوقظ البيت"

"كلا" قال شاكر.

"أحدهم كتب على البوابة مرة أخرى"

"إنهم يفعلون ذلك دائماً"

التفت ماتفي وهو يصعد الدرج ليسأل:

"هل بوريس بخير؟"

رد شاكر من الجانب الآخر من الحصان بصوت عال غير ضروري:

"لقد رحلا، كلاهما رحلا"

خار كوجيمايكن على درجة السلم.

"ذهبا ليسكنا مع زوجة صراف الرواتب"

جلس ماتفي هناك مصعوقاً غير مصدق أذنيه وهو يتمتم:

"رحلا، كيف يمكن أن يحدث ذلك؟ بدون أية كلمة؟ كان عليها

الانتظار حتى أعود. لماذا تركتها تذهب؟" وأضاف رغماً عن إرادته "أي

حال سأكون عليه الآن؟"

كما لو كانت في انتظار انصرافها، اختبأت الليلة الصيفية القصيرة في أركان معزولة، في العشب الطويل وفي خرائب منزل بوبونوف وكان ظلامها تحنر إلى كتل أخذت شكل الحظائر والأشجار والأسقف مخفية الجو من أجل ضوء الفجر الوردي. بعض الظلال دخلت صدر هذا الرجل وكمنت باردة ورطبة على قلبه.

تدفق شعور بالضجر عبر جسده المسمم والمتعب، وفي قلبه سمع صراخ ليوبيا وهي تنشد أغنية:

آه، أنا! محروقة أنا من الأقارب والأصدقاء.....

شاكر الذي جعله القميص الطويل يبدو مثل جثة في تابوت قال بنعومة:

"لقد تركت رسالة"

"رسالة؟" قال مانفي يائساً. "ماذا سأفعل بالرسالة؟"

"المولى سوف...." نتمم التتري الذي دخل إلى البيت فاصدر الباب صريراً.

لقد انتهى كل شيء، فكر مانفي وهو يدور حول نفسه.

جلس هناك حتى الفجر، في يده صفحة الورق التي تغطت بخط جبل، اندمجت حروفها بخطوط سوداء لذلك لم تعد قابلة لفك رموزها ولم يعد لذلك أهمية أيضاً. أخيراً أصبحت السماء خضراء باهتة وبدأت الطيور في الاستيقاظ في البستان ونسلت الظلال خفية من الأشجار والأسبجة كما لو أن الصباح أخاف الليل وطرده من مخبئه. ثم بدأ بقراءة الرسالة ببطء، سطرّاً سطرّاً.

"عزيزي مانفي سافيلافيتش،

لقد رحلت كي لا يكون حضوري عبثاً عليك وقد أرحل عن أوکوروف كلها قريباً. لن أحاول تفسير الظروف التي حالت بيني وبينك لأنني أجد تناوُلها بالتفصيل مؤلماً جداً، وأشك إن كنت ستعتبر أي شيء أقوله لك مقنعاً، صدقني عندما أقول إنني لن أكون زوجة مناسبة لك أبداً، أما بالنسبة لإظهار الشفقة فقد أبديتها لواحد آخر سابقاً وبقيت لمدة أربع سنوات مستمرة في الكذب عليه وعلى نفسي أيضاً.

وهناك سبب آخر يحتم علي أن أرفض الزواج منك لكنني أعتقد أنك ستجد راحة قليلة فيه إن أخبرتك عنه.

أود أن أشكرك لأنك وهبتني مودتك ولأنك كنت لطيفاً مع ابني ولمساعدتك لي في فهم أشياء كثيرة.

لقد أعطيتني لمحة عن طريقة مرعبة للعيش جعلتني أقبل الناس ببساطة أكثر وأتبنى مواقف أكثر جدية نحو نفسي والآخرين. ربما لم تبتدع ملاحظة

نافذة أعمق عن البطولة من تلك " يؤلف الحب والعمل والتحمل أسمى شكل من أشكال البطولة " لو أنك تعرف كم أحبتك أن تفكر بروسيا، بالأسباب التي تجعل أهلها إما نعساء وهستيريين أو نعساء وغير مباينين. لم يتأخر الوقت بالنسبة إليك لكي تبدأ بالدراسة، أنت لا تزال شاباً وصغيراً في روحك وتعاني بشكل فظيع من الحياة البائسة التي تحياها ومن معرفتي أن الطيبة التي في داخلك والتي يكون الآخرون بأمرس الحاجة إليها تهدر بلا قيمة. طالما أنا حية سأذكرك، رجل يعيش في بلدة صغيرة وحيداً تماماً كما لو كان في سجن كبير، الناس فيه بسبب الملل الصرف - مثل حراس السجن يتجسسون عليه. يؤلمني أن أفكر فيك. الوداع، لا تغضب مني وساعني إن أخطأت بحققك بأية طريقة "

يفجينيا منصور وفا

يا للخط الرائع الذي نكتب به! فكر ماتفي وبدأ يقرأ الرسالة مرة تلو الأخرى. يحتاج آخرون لطبعتي؟ وماذا عنها؟ إن لم تكن هي في حاجة إليها فما حاجة الآخرين إليها؟ كنت لطيفاً معي: لقد ربت بأصابعها على رأسي وأهملتني.

لكن كان دفء صوتها ونظرتها في تلك الحروف السوداء الصغيرة التي كتبت بخط يدوي جميل مع الكلمات الكثيرة التي شطبت (من الواضح أنها كتبت بعجالة) قرأ الرسالة مرة أخرى، وعند اقترابه من النهاية جعلته ذكرى مفاجئة يطويها باحتراس وهو يلمسها بأطراف أصابعه فقط.

" شاكرًا " صاح منادياً.

دخل التري خلفه.

" هل سخن الحمام. أكثر حرارة من المعتاد "

فتح شاكر فمه ليقول شيئاً.

"اتركني لوحدي لو سمحت" قال ماتفي بسرعة "سأغفو قليلاً. نادني حالماً يجهز الحمام".

عاش لمدة أسبوع كامل في حالة من الترف الدائم. وبمرور الأيام أصبح ترقبه مليئاً بقلق يسبق الكارثة. لم يصدق أن كل شيء قد انتهى. كان المنزل غريباً بدون يفجينيا، وشعر أنه لن يعود على غيابها أبداً. اعتبر وجهي شاكر وناقاليا وابتسامات أليكسي عبارة عن إداة وشجب.

هل أخبرتهم بأنني أمسكت بها عنوة وعانقتها في تلك الليلة؟ تساءل وهو يهيم في عزلة في البستان على غير هدى.

اعتاد على الضجر الذي كانت تبده ثرثرة بوريس الدائمة كل صباح، واعتاد على التحدث مع يفجينيا بحرية وبلا ارتباك في كل المواضيع بما فيها تلك التي عنه هو وزاد حبه لصوتها القوي والمشجع وأدرك بوضوح متزايد كم كانت قصصها وآراؤها وكل ما تقول ضرورياً بالنسبة إليه ومهما كانت متطرفة وغير مفهومة إلا أنه وجدها تنير أفكاراً جديدة ومشاعر دائمة.

وكيف كشفت ماركوشا!

حين قارن، رغباً عنه، الأشهر القليلة الأخيرة مع الشريط الطويل من الحياة التي سبقتها، أدرك بجلاء أن المستأجرة انتشلته من ركن كان يعيش فيه مثل غبي أحق ووضعته على عتبة شيء جديد، ثم رحلت بعيداً عنه بعد أن أحدثت تلك الهزة في روحه ورمته في حالة من قلق لن يتغلب عليه أبداً. في غالب الأحيان كان الاستياء يملأه.

أعطني الكتب التي وعدتني بها! أين هي؟ لا تحبثيها! لا تركي الأمور معلقة في الهواء! أكمل ما يجب أن تقوله لأتمكن من فهمك ومجادلتك، فقد

أثبت أن كل ما قلته غير صحيح - كل شيء، قلته عن الناس والعامّة و- كل شيء.

كان يمضي أياماً كاملة وهو يؤلف خطباً يسخر فيها منها ويوبخها ويشجبها، ثم تأتي لحظات تبدو فيها كل اعتراضاته فارغة ومصطنعة ويذوب في شوق واسع يتعذر قياسه.

كانت حاجته الواضحة إليها لا تحتمل، فقد كان مهزوزاً في أعماق أساساته وغياها كان يعني دماره. شعر بأنه سيلجأ إلى الشراب والفسق وحب العاهرات، أي شيء يخذع نفسه فيه، يجد فيه ملجأ من الوحدة المخيفة التي انقضت عليه بقوة لم يعرفها قط.

في قبضة تلهفه الخيف، كان يجلس في ركن معزول من البستان يفكر: سأذهب إليها وأقول: افعلي أي شيء ترغيبه بي، لكن لا تركبني فقط! وتقول هي: لا يوجد شيء أرغب فيه.

مسحوقاً بالفكرة كان يعيد قراءة الرسالة المجمعة التي حفظها عن ظهر قلب ويجد العزاء فيها.

هذه وثيقة، كان يقول لنفسه. لا توجد وثيقة نافية.

في مساء أحد الأيام وبعد العشاء كان جالساً بجانب نافذة غرفته حين سمع أليكسي يلقي واحدة من خطبه المهاجمة للمعتقدات الدينية بصوت مبهج:

"هناك أقوال محددة ابتدعت لتريح الناس فقط، مثل وضع كمادات على بشرة جلدية. كل البشر محاكون من نفس الخيط، إن الإنسان طيب بقدر غيره. رزمة من الأكاذيب! كل الناس مختلفون ويجب أن يكونوا هكذا. خذوا يفجينييا بترفنا هل هي مثل غيرها من القوم؟ كلا، ليس أكثر من

شبه التوتة البرية بالنجمة؛ أو سيدنا الذي يظن نفسه دائماً تاجراً؟ يا له من تاجر رائع! إن طحن الأرغن البدوي يناسبه أكثر"

"أنا قلت فقط أول شيء خطر ببالي، أستمع عذرك، ليس لي الحق، بالتأكيد"

ضحك ماتفي.

"أوه، لا تهتم. لديك حق التفكير بما نحب وكذلك أنا. عم كنت نتحدث؟"

"عن يفجينيا بتروفنا" رد الرجل بتردد ثم بعينون لامعة وبثقة مفاجئة في نفسه تابع "وعن الروس عموماً. كما أرى الأمر، أغلب الناس عبارة عن أسافين مربعة الشكل في ثقوب مدورة ولا يفهمون بعضهم البعض. طبيعة هذا الإنسان أنه فضل أن يكون صاحب حانة، وما هو لسبب جنوني صار راهباً في دير - إنه عمي الذي في ذهني الآن، أو رجل محترم بدمن على الشراب فجأة ليتحول إلى خنزير، أو خذ القاضي الذي عملت عنده في بيتزا، ثبت أنه كان يكتب أغاني قذرة. تخيل ذلك، قاض! لقد علمت أنه يمضي وقته في كتابة أغان مقفأة من الصنف المشبوه لا تتفق مع مهنته السامية. وهناك الكثير من الأمثلة المشابهة. ها أنت تاجر لكنك لم..... شيئاً من الناس أبداً، تعيش لوحدك دائماً بعيداً عن طريق أي أحد، أنت لست تاجراً أبداً. يفترض بالتاجر أن..... حسناً..... يكون لديه الكثير من الأولاد، مثلاً، أستمعك عذراً"

"ذلك صحيح" قال ماتفي مشجعاً ومفكراً:

إنه يتكلم بصوت عال ويجرأة وبلا خوف، يفترض أن يكون رجلاً طيباً.

اكتسى أليكسي بنفحة حزينة في اليومين التاليين، وفي نهايتهما اقترب من سيده في الفناء ودفع قلنسوته للوراء وطلب منه بأدب أن يعطيه حسابه لأنه سيرك العمل.

"ما هذا؟" قال ماتفي متفاجئاً "ألا تحب العمل معي؟"

"أنا لا أرحل بدون إخبار، لكن أرجوك اعثر على شخص يحل مكاني" قال أليكسي وهو يؤرجح قلنسوته.

"ليس لدي شكوى أرفعها، لكن المكان لا يناسبني، اعذرني" أطلق ضحكة قصيرة وهو يتعد وقال بحبوية "أنا أحتاج إلى كلب ليكون سيداً، واحد يكشر عن أسنانه ويجعلني أقاتل رداً عليه. تلك هي طبيعتي، لا يمكن تفاديها: أنا أحب القتال والشجار"

"أنت طائر غريب أيها الأخ" قال كوجياماكين وهو يتفحص جسد الرجل الهزيل بفضول فاتر. "هل أنت متأكد بأنك تريد الرحيل؟ أنت لست قوياً وضخماً. ستورط في قتال في يوم من هذه الأيام نكون فيه نهايتك"

"لا يمكنني تجنب ذلك، تلك هي طبيعتي" كرر الرجل بهزة من كتفيه "البلادة في هذه البلدة - يا إلهي كم هي بليدة! لا توجد روح واحدة تتجادل معها؟ تستطيع القول للرفيق: هل سمعت الأخبار؟ لقد أصدر القيصر أوامره بأن تتوقف الغربان عن النعيب في الجمعة القادمة وكل ما يفعله أن تغمز مصابحه ويرد: هل الأمر هكذا؟ هل يهمه نعيها بهذا القدر الكبير؟ مل جداً ولا يحتمل"

"أعتقد أنك محق" وافق كوجياماكين بنعومة. "هذا ما كان يقوله أبي منذ عشرين سنة"

رماه الحارس بنظرة حادة ووضع يده فوق فمه وسعل سعلة قصيرة مؤدبة.
"الحقيقة إن الوضع بليد في كل مكان. لقد زرت عشر مقاطعات ولم
تكن أي واحدة أفضل من البقية. أينما تذهب تجد الناس مثل الديدان في
المقبرة: تأتي جثة جديدة فتنتطق وتلتهمها وبعد أن تنتهي من الجشة نستلقي
لنتلوى فقط" نفخ خديه مما جعل شعر لحيته المتناثرة ينتصب ويقف مثل
رزات حيوان شائك من القوارض.

"في الأمس ذهبت لأرى الانتحار"

"الموظف في المجلس البلدي؟"

"نعم كان ميتاً هناك مثل مسمار، لكن هناك نظرة من السعادة على وجهه
كأنه يقول: أنا ميت يا أخي ومسرور جداً بذلك! تماماً كما أقف هنا. كما لو
أنه قام بأذكي خدعة في العالم".

"كان يشرب"

تراجع الحارس خطوة ورمى قبعته على رأسه وقال باقتضاب:

"لا أظن أنه فعل ذلك لأنه كان سعيداً جداً"

"كل امرؤ يريد أن ينال بعض المتعة أحياناً، نحن لا نعيش سوى مرة واحدة
لهذا سأنطلق لأجد مكاناً أكثر حيوية وبهجة أعيش فيه، أستمحك عذراً"

"هذا هو شأنك. إلى أين أنت ذاهب؟"

حديق أليكسي حوله وهو يفكر بالسؤال:

"أفكر في الذهاب إلى فورغورود لأعمل ممثلاً، ورأيت أن لدي فتقاً
ويفترض بالممثل القيام بالكثير من الصراخ، وقالت يفجينيا بترفونا إنهم لن
ياخذوني"

"متى قالت لك ذلك؟"

"يوم أمس"

"لماذا زرتها؟" سأل كوجيمايكن بصوت خافت.

"أوه، نعم، في الواقع. إنها امرأة ذكية والاستماع إليها متعة"

"هذا صحيح" قال ماتفي بشكل لاإرادي "آه، حسناً. إذا هو الوداع

أيها الأخ"

"الوداع وشكراً لك" قال أليكسي وهو يصافح يد سيده الممدودة.

يبدو أنني سأظل أودع شخصاً ما، فكر ماتفي وهو يتجول في البستان. لو

كان لدى الإنسان أي روح لكان أخذ نفسه وغادر مدينتكم الملعونة هذه!

أغلق عينيه لثانية ورأى بينه بوضوح شديد: إنه يعرف كل صدع في السياج وكل عقدة في ألواح خشب الأرضية وكل شق في الجدران وارتفاع كل شجرة في البستان وطول كل غصن جديد نبت وأوراق في الصيف. شعر أنه يعرف حتى عدد الشعرات التي في لحية شاكر ويعرف بالتأكيد كل شيء قاله عماله.

عرف سابقاً كل أفكاره الذاتية القليلة والعشوائية والمفككة التي كانت تأتيه بهدوء وتركه حزيناً دون أن تقض عزله أو تطلب منه شيئاً لقد قامت بدور المنوم المخدر في الحقيقة، أما الآن فإن تلك الأفكار ولت وفعلت ذلك لصالحه، أما الأفكار الجديدة التي حلت مكانها فهي على شكل سلسلة طويلة كل واحدة منها تجر الأخرى وراءها، وكل واحدة تطلق أشعة مهتزة في كل اتجاه.

سأذهب وأخبرها بأنها وضعتني في تشوش لن أخرج منه أبداً.

في مساء يوم أحد وجد نفسه عند مدخل بيت صراف الرواتب الأنيق يشاور نفسه إن كان سيذهب إلى البوابة الأمامية أم عبر الفناء إلى باب المطبخ.

كان يرى ماتوشكين في المكتب المالي كثيراً، رجل حليق الذقن له فم قاس ويتحدث بعجفاء فظ، ينظر إلى الناس في أعينهم مباشرة حين يحجز على ممتلكاتهم.

ربما يتذمر إن دخلت من الباب الأمامي، فكر كوجيمايكين. أسرع دقات قلبه عندما سمع صوت بوريس آتياً من الجانب الآخر من السياج الذي امتلاً قسمه العلوي بالمسامير واشتاق أن يزيلها وينظم إلى رفيقه الصغير الذي يعج بالحوية.

قرص مقابل صدع في الجدار ونادى الولد، لكن قبل أن يرفع المزلاج خطت يفجينا بنفسها إلى الخارج. نهض كوجيمايكين وخلع قبعته وأحس رأسه.

"مساء الخير" سمعها تقول بصوت ودي، وشعر بيد حارة تقبض على يده بإحكام. "لماذا تأخرت كثيراً لتأتي؟" وكان شيئاً لم يحدث، أراد أن يهتف.

"رأيتك من النافذة. تعال إلى داخل الحديقة وقابل صاحبة المنزل. إنها مشلولة ربما أنت تعرف ذلك"

"وكذلك أنا" تتمم قائلاً "كنت متأكداً أنني لن أستطيع أن أخطو خطوة واحدة إلى الداخل"

انسابت الابتسامة المألوفة على وجهها. "هل أنت خائف من صراف الرواتب؟ لقد ذهب في إجازة طويلة. بوريس، انظر من هنا"

قفز بوريس من وراء بعض الشجيرات، شفق ورمى نفسه على الزائر وتعلق به مثل ثمرة شائكة.

"نستيني تماماً!" قال ماتفي في صوت أجوف خشية أن ينهار.

"أوه، كلا يا عم ماتفي! صدقاً لم أفعل!"

"مر أسبوعان منذ أن -"

"أحد عشر يوماً" صححت يفجينيا بتروفا قائلة.

لقد عدت الأيام، قال ماتفي لنفسه فرحاً.

"كنت مشغولاً جداً!" صاح بوريس.

لمح ماتفي رأس فانيا خريابوف.

"جاء صانع الحبال!"

"مرحباً، مرحباً" صاحت ليوبا ذات الشعر المجمد وهي تلوح بيدها

الملوثة بالطين.

"وهذه فارفارا ديمتريفنا"

رأى شكلاً سقيماً لامرأة صغيرة جداً شبه مضطجعة في كرسي كبير

مصنوع من أغصان مجدولة. مدت بدأ كيد طفل:

"أنا مسرورة برؤيتك" قالت في صوت بداله آتياً من بعيد.

"انتظري يا عمة فارفارا نحن سنريه -" بدأ بوريس بنغمة رجال

الأعمال.

"عجل يا بوريس!"

اختفت يفجينيا بتروفا بين الأشجار ومعها ابنها. شعر ماتفي أنها ذهبت

عمداً وأخذ نفساً عميقاً.

"حدثني يفجينيا بتروفا بأشياء جميلة كثيرة عنك!"

ابتسم بخجل وحدث في عيني المرأة الكبيرتين اللتين نوضعتا في وجه

شفاف.

هي مريضة جداً كما يبدو! فكر.

وقعت كلماتها ببطء مثل أوراق الخريف في يوم هادئ لكن الإصغاء إليها كان مسراً. رد بكلمات قصيرة وهو يفتش ذاكرته عن كل ما سمعه عنها. في وقت ما سابقاً، كان هناك إشاعة حاقدة. في بداية مجيئها إلى هذه البلدة حاولت أن تصادق الجميع. زوجها كان غيوراً جداً لذلك اعتاد على شرب الكحول ودبر لنفسه عشبة. دفعته الفضيحة إلى العيش في عزلة. والآن لم يعد اسمها يذكر وكأنها ماتت.

عادت بفجينا وهي تدندن وتهوي وجهها بورقة نبات شائك.

"هل سبب حريق الغابة دماراً كبيراً؟"

"لم أسمع بذلك. لا تزال تحترق"

"هل صحيح أن الفلاحين هم من أضرموا فيها النار؟" سألت وهي تجلس عند قدمي صاحبة المنزل.

"ربما. كانت الغابة مهملة وملينة بجذوع الأشجار الساقطة والأغصان الكثيفة والمهاد النباتي. هناك الكثير الذي يتغذى عليه الحريق"

"في الوقت الذي لا يملك فيه الفلاحون أي حطب لمواقدهم في الشتاء"

"الغابات تموت والناس يموتون" قالت صاحبة المنزل بنعومة وهي تتأمل.

"هل فكرت بذلك على أنه انتحار؟"

"لست أنا فقط وإنما كل الناس هنا"

تحدثنا عن أشياء كثيرة لكن بطريقة غير مزعجة، حتى أنه وجد متعة غريبة في الاستماع إلى تلك الأشياء.

جلد صدغي المرأة المريضة كان أزرق تقريباً، كانت هناك دوائر سوداء تحت عينيها ونبض.... في عنقها تحت الأذن تماماً وكل ما يحيط بها يتقل الانطباع بأنها كانت تعيش آخر أيامها.

إن استمرت يفجينيا بتروفتنا في العيش هنا ستصبح مثلها، فكر كوجيايكيين وجفل من تلك الفكرة.

الاهتمام الذي أصغت به صاحبة المنزل وضعه في راحة بقدر تلك الأيام السابقة، حين، لوحده مع يفجينيا، نسي أنها كانت امرأة. جلسا في ظل شجرتي لايم ضخمتين شكلت أغصانها الممتدة مظلة خضراء فوق الحديقة مخفية السماء الزرقاء الملوثة بالسخام.

"أليكسي يتركني" أخبر ماتفي يفجينيا.
"أنا أشرت عليه أن يفعل" قالت وهي تغطي وجهها بورقة نبات شائك (بوردوك) لذلك لم يظهر سوى عينيها.

"دعه يذهب إلى بلدة كبيرة، هناك للحياة معان أكثر. أنت ينبغي عليك أن ترحل من هنا"

"ماذا سيحدث لو رحل الجميع؟" قال بضحكة قصيرة. "يجب على أحد ما أن يبقى"

"لكن لماذا أنت؟"

"فقط لأنني غير مناسب في بلدة كبيرة. أنا خجول أيضاً"

وحكى لهم عن زيارته الأولى لفوغورود وكيف تعرف على بعض الرجال في الحان الذين حثوه على لعب الورق معهم، ولافتقاده لشجاعة الرفض، أخذ مكانه على الطاولة. وما إن أخذ مكانه حتى ناداه الساقى المعجوز وأخذه إلى الممر وأخبره أن الرجال محترفين وغشاشين وأنه متأكد بأنهم سيفرغون

كل ما في جيوبه، وعرض عليه الرجل أن يحجزه في غرفة فارغة ويخبر الآخرين أنه استدعي فجأة من أجل عمل تجاري. ظل محبوساً لمدة ثلاث ساعات، وخلال هذا الوقت سرق أحدهم الوسائد الريشية من غرفته.

كلما ذهب إلى الخارج كان يشعر أن كل مواطني فورغورود أعداؤه الرئيسيون. قام أحد الدهانين برشه بطلاء أخضر، أما التاجر الذي جلب له البضاعة، فقد هزأ به لكونه صغيراً جدت وأجبره على شرب الخمر حتى ثمل. "أنا لا أجزؤ أن أروي ما حدث بعد ذلك" اعترف بخجل متحاشياً "عبون النسوة" ربما كانوا يعتقدون أنني وثني وكانوا يحاولون هدايتي إلى الإيمان الصحيح، لكن ليس بباء مقدس وإنما بمشروب كحولي قوي" انتشر نورد قائم على وجه المرأة المريضة الشاحب.

"لماذا يحاول أحد في كل مكان فرض أسلوبه على الآخرين بالقوة؟" قالت وهي تدفع شعرها للوراء بيديها الصغيرتين "حالمًا يظهر شخص بأقل اختلاف يبدأ الناس بنهشه ونشره ويزيلوا أي شيء يعطيه الفردانية" ردت يفجئياً بحماسها المعتاد.

"إنهم يعتقدون أن السعادة موجودة في التوازن والسكون وانعدام التغيير ويكرهون أي شيء يهددهم في إقلاق سلامهم وهدوئهم" إنها تقول نفس الأشياء دائماً، فكر ماتفي، الأمر عندها مثل تلاوة صلاة. كان الجو ديباً وهادئاً هنا وأصوات الأطفال مريحة. شعر بالسعادة في بيت هؤلاء النسوة، لكنه شعر بالحزن من أجلهن.

خطابهن، إبياءاتهن، وجوههن، حتى أحذيتن وثيابهن كانت مختلفة، ليست من نموذج أكوروف وكأن الريح جلبت بذوراً من مكان بعيد ونثرتها على فسحة بور امتلأت بالنفايات وتغطت بالأعشاب الضارة، ومن

هذه البذور كان هناك زهرتان جميلتان غريبتان عن هذه التربة، أزهرتا لفترة قصيرة من الوقت.

خلف كل شيء قلته كان هناك عطف يسعى إلى مسامحة الناس وإيجاد الأعذار لهم. سماع هذا مسر بشكل خاص وهذا بالذات ما أثار تعاطفه. كان الوقت ليلاً حين تصالح مع قدره بشكل ما وذهب إلى البيت. إذاً أنت تذهب إلى خارج البيت لتقلق السلام؟ حسناً، أنت أقلقتم سلامي بالتأكيد، فكر ماتفي بحزن.

"ما الذي سأفعله الآن؟"

بدأ بزيارات متكررة إلى بيت الصراف الرواتب وأمضى الكثير من وقته هناك. حين كان لا يجد يفجينيا هناك كان يخرج مكنونات قلبه لصاحبة البيت المريضة: حياته انقلبت رأساً على عقب، ولم يعد في مقدوره مواصلة العيش بالأسلوب القديم وهو لا يعرف كيف يعيش بأسلوب الآخرين. في أحد الأيام أخبرها أنه ربما يلجأ إلى شرب الخمر.

"لا تفكر فيه!" صاحبت بصوت عال وهي ترمش بعينيها المحتضرتين من الخوف "هذا لأنك كبرت فقط ولم تعند عينك على الضوء بعد" كره قولها الذي بدا فارغاً ومعسولاً وغير مرض وزائد. أرادها أن تنقل مزاجه إلى يفجينيا فقط التي شعر بأنها كانت تتجنبه لأنه حين يأتي تكون هي خارج البيت دائماً.

لم يجرؤ على التكلم معها عن حبه مرة أخرى، لكنه أراد أن يكون معها لوحده مرة أخرى، كي يستطيع أن يقول شيئاً نهائياً قاطعاً، لكنها لم تعطه الفرصة.

في أحد الأيام، أعلنت دون سابق إنذار حين التقت به عند البوابة:

"أنا راحلة في غضون ثلاثة أيام"

برد ووقف هناك مصعوقاً وغير قادر على التفوه بكلمة.

"تعال، دعنا نخرج إلى الحقول" قالت وهي تأخذه من ذراعه.

بينما كانا يمشيان ضغطت كوعه إلى جانبها وقالت بهدوء:

"يا بني الكبير العظيم! أنا آسفة من أجلك كأسفي على أخ أو ابن"

"بفجينا" تمتم "ماذا يجب أن أفعل؟"

"قراري لم يحدده التفكير بي بل بك، أنا لا أريد أن أخدعك"

نظر بوجهها وتعرف عليها بصعوبة، بدت له قريبة جداً. استطاع بالكاد

أن يتنفس وشعر بقلبه ينصهر ويفيض عبر أوردته في جدول حار منعش.

"حبيبي!" همس "لا يهم. أنا لم أعد أحلم بالزواج منك، ذلك سيكون

سخيفاً. شاهدي ما جلبه الزواج على صاحبة البيت الذي نستأجرينه!

فكرت كثيراً بك وبذلك. ما هي حاجتك لامتلاك كلب؟ وأنا يجب أن

أكون مثل كلب يركض عند قدميك"

"لا تكمل!" قالت وهي تنظر حولها.

"لكن هناك شيء واحد أطلبه منك" قال بنشوق "كوني أختاً طيبة لي،

لا تتخلي عني، لا تنسي. اكتبي لي، دعيني أعرف أحوالك....."

"طبعاً، سوف أفعل..... ستقابل امرأة أخرى أفضل مني" قالت وهي

تنتزع قبة قميصها.

لوح بيده باستنكار.

"لن أخطئ بحق امرأة أخرى. سأظل دائماً أراك في مكانها، وذلك لن

يكون عادلاً لها، أليس كذلك؟"

تابعا السير حتى وصلا إلى موقع مستوطنة موردوفية قديمة جداً، تفلصت الآن إلى أربع روابٍ يغطيها العشب. هنا في هذا المكان دفن أهالي أو كوروف السكارى والمتحررين. أحد القبور حفر مؤخراً، لذلك لم يتسنّ الوقت للعشب أن يغطيه، بدا كما لو أن الجلد قد قشط عن الأرض في تلك البقعة.

"دعنا نجلس" قالت.

جلسا وأخذ يدها بيده وقال وهو يربت عليها.

"الوداع يا يفجينا، الوداع يا حي!"

"ما تفني" قالت دون أن تسحب يدها وسمحت لكتفها أن يلمس كتفه

"لو أنك تعطيني بعض المال -"

"بقدر ما تشائين".

"ليس لي" قالت بسرعة وهي تسحب يدها وتبعدها "أريد أن أشترى بعض الكتب وأرسلها لك"

حين عادا إلى البلدة شعر بقوة جديدة في داخله وجلد كانا يقهران الشكوك المعذبة والتناقضات التي أثارها يفجينا فيه مرة.

لكن في البيت في تلك الليلة تخيل مرة أخرى أن كل شيء قالته في فترة بعد الظهر لم يكن شيئاً سوى كلمات فارغة القصد منها مواساته وراحته.

تذكر رأي ماركوشا الشرير.

"ليس هناك فرق فيما تقوله للناس طالما هم يتركونني في سلام وأمان"

غمرته رطوبة باردة كما لو أن الكلمات حبسته في قبو.

سوف ترحل وتنساني تماماً. سآزداد توحشاً مثل خنزير بري في غابة وأموت في تعاستي.

لكن فجأة خطرت له فكرة بأنه يستطيع ربطها به بواسطة المال، أولاً وأخيراً هي مفلسة وعليها أن تعلم ابنها.

وفي اليوم التالي قال لها:

"أرجوك دعيني أقدم لك بعض المال يا يفجينيا بترفنا"

"أوه، نعم" ردت بسرعة. "ليس لدي شيء منها من أجل الطريق. إن

كنت تستطيع إقراضي خمس وعشرين روبلاً وليس عشرين، خمس وعشرين"

"من أجل الطريق! ذلك لا شيء" قال مانفي متجهماً. "اقصد من أجل

بوريس..... وعموماً.... لتعيشي"

اعتدلت وومض غضب في عينيها، لكنها ابتعدت على الفور وردت في

نغمة.....

"أوه سوف تناقش ذلك لاحقاً إن أصبحت في حاجة"

"ألن تأخذه الآن؟"

"الآن؟" فكرت للحظة ثم بنغمة عملية كما لو أنها تناقش صفقة كبيرة:

"حسناً جداً، سوف أقترض خمس وعشرين روبلاً- ليس عشرين، بل

خمس وعشرين"

أنا أحمق، فكر مانفي، مسقطاً عينيه بنظرة مرتبكة. وكأن في مقدور أي

شخص شراؤها! إنها لا تعرف قيمة النقود حتى.

رحلت في الصباح، قبل الفجر في الظلام البارد قبل أن تستيقظ البلدة.

كان وجهها متورداً وهائجاً، وفي عينيها لمعان جاف عصبي، وتفرق في معطف

قماش رمادي مع خمار أبيض على رأسها. حدثت جلبة حول العربة وهي تلوح

بذراعيها مما ذكر مانفي بطير تأخر في الانطلاق نحو الجنوب في الخريف.

بوريس الذي أخرج من السرير في ساعة مبكرة كان يرمش عينيه من النعاس وكان متبرماً:

"لماذا هذه الأحصنة صغيرة الحجم جداً؟"

"كل القطيع صغير هنا" قال شاكر بحزن.

"لن نصل إلى أي مكان بهذه الخيول، إنها مجرد كلاب في شكل خيول"

كانت ناتاليا تروح وتأتي في الفناء وهي تمسح عينيها المنفختين وقالت:

"لا تنسي الكعك يا عزيزتي يفجينيا بتروفنا، إنه في الحقيبة تحت المقعد"

كان رأس شاكر الحليق يعلو ويهبط وهو يربط صندوق الثياب الجلدي القديم بمؤخرة العربة، وبجانبه سائق العربة يجاهد، وهو شاب ذو وجه عريض يملأه النمش بكثافة.

وقف كوجيما يمين عند البوابة يداعب شعر بوريس ويقول له:

"لا تنسنا. اكتب لي. هل تسمع؟ أخبرني بكل شيء عن ماما.. وعنك.

أنت لن تنسى أليس كذلك؟"

"طبعاً لا" رد الولد باكتئاب.

أقحمت زوجة صراف الرواتب رأسها الأشعث من خلال النافذة

وتفوهت ببطء ببعض الكلمات التي لا حياة فيها:

"ابق لتناول الفطور معي يا ماتفني سافيليفيتش".

كانت يفجينيا تهذر دون حاجة لذلك، وتنقلت عيناها هنا وهناك في

توجس أو ربما في اضطراب، وذكرته حركاتها السريعة مرة أخرى بطير،

لكنه هذه المرة في قفص فتح بابه وبدأ ينط في مكانه ويجدق في حرته عاجزاً

عن اتخاذ قراره في أن يطير خشية أن يكون الباب المفتوح مجرد شرك.

أشقى عليها.

وحيدة تماماً. ترحل هكذا.. وحيدة.

"حسناً" قالت وأمسكت بذراعه وسحبته وراءها إلى داخل البيت وهي تنم "أولاً يجب أن أودع فارفارا ديمتريفنا ولبوبا التي لا تزال نائمة" شعر ماتفي أن هذا ليس ما كانت نود قوله، لكنه تركها تتابع الركض. وقف في الصلاة، يستمع إلى القبل والنشيق القادم من داخل الغرفة، ورأى في عين عقله أرضاً مترامية وتلالاً نائية وغابات تنتصب عليها ووادياً مملوءاً بأشجار سوداء وبينهما نهر بارد متعرج وطريق ترابي لا نهاية له شق المشهد برمته.

"الوداع يا صديقي العزيز"

وضعت يديها قويتين على كتفيه وحدقت به بعينين مبللتين لماعتين، وبدأت تنفوه بكلمات عزاء سريعة، لكنه عانقها وقبلها على خديها وجبينها، ورد عليها دون أن يسمع ما كانت تقول:

"لا تنسيني باسم كل ما هو مقدس، لا تنسيني أولاً وأخيراً أنا بشر" بعد ذلك وقف في الشرفة وراقبها بغيرة وهي تقبل شاكر، ورأى التري يخط قدميه مثل حصان ويضغط رأسه الحليق على كتفيها ويصيح:

"أنت طيبة جداً، طيبة جداً"

ركضت ناتاليا وهي تبكي، ووضع ثلاثهم أذرعهم حول بعضهم البعض وقاموا بها يشبه رقصة مريكة.

إن الجميع يحبونها، فكر ماتفي.

"أيها العم ماتفي، تعال"

ذهب إلى الصبي.

"اكتب لي أرجوك أن تفعل ذلك" قال له.

"سأفعل".

ربت بأصابعه على خدي الطفل وأذنيه ونشق ليمنع نفسه من البكاء،
لكن الدموع تدرجت إلى الأسفل وعلقت بذقنه.

انطلقت العربية مخلفة وراءها غيمة من الغبار وهي ترتطم وتصرف فوق
الطريق الوعر. ولوح خمار أبيض فوق العربية ويد يفجينيا، وردت عليها
زوجة الصراف ملوحة بمنديل من النافذة.

ركضت الكلاب في الطريق وهاجمت أثر الخيول ماطة أجسادها مثل
المطاط.

"إذاً لقد رحلت ضيفتنا العزيزة" قالت زوجة الصراف وهي تمخط أنفها.
"نعال وتناول الفطور معي يا ماتفى فاسيليفينش وستحدث عنها"
جفل ماتفى.

"شكراً لك، في الحال" تمتم وانطلق وراء العربية.

مشى ببطء، النصقت عيناه بالطريق كما لو أنه كان يترصد شيئاً أغراه
بشكل لا يقاوم، وقبل أن ينتبه كان قد أصبح خارج البلدة.

كان الهدف المركز عليه بقعة سوداء في غيمة من الغبار كانت ترد لتتقدم
إلى الأمام وفي كل مرة تختفي فيها وراء شجرة أو مخزن غلال، كان قلبه
يخور. وأخيراً تسلقت التل الأخير، تمايلت فوق القمة وراحت.

توقف كوجيمايكين وخلع قبعته.

وداعاً يا يفجينيا بترفنا.

مرت ساعة قبل أن يتجرأ ويدرك بأنها رحلت وأن يتخيل كيف سيكون حاله
بعد رحيلها. شيء محزن جداً، لكنه مر وعانى من أحاسيس أكثر إيلاماً وحدة.

حين صدم باكتشافه بأن الأمر كان أقل إيلاً مما توقع، انطلق بنفس الاتجاه وأسرع بالمشي متفحصاً قلبه.

لقد أنهكتني الأيام الأخيرة، فكر بنوع من التبرير الذاتي. كنت أنتظر هذا الحدث والآن انتهى، إنه راحة تقريباً. إنه مثل موت شخص إذ طالما الجسد في البيت فالأمر لا يحتمل لكن بمجرد أن يدفن يكون راحة.

تمايلت أشجار بتولا بيضاء رشت بأوراق صفراء في هواء الصباح الخريفي النقي بشكل واضح موحية بموعد المذبح، خيول بهلوانية ترفع رؤوسها وتخفضها وهي تسير ببطء في أخاديد؛ فلاحون زرق وحمرة يتبعونها بصمت وهم منحنون على تربة بنية جافة، وفي الحفر التي أحدثتها الأقدام على جانبي الطريق ومضت زهور صفراء وبنفسجية شاحبة، وبزغ نوع قاس وسط العشب المغبر، وحين نظر إليها بانفي تذكر كلماتها:

"يجب على المرء أن يحب، عندها لن يشعر بالخوف أو الوحدة. يجب على المرء أن يحب"

مشى بعيداً حتى التل الذي اختفت العربية وراءه، ووقف هناك يحدق بعيون مبللة في جدار الغابة الأزرق القاتم الذي شقه الطريق، ثم ألقي نظرة حوله، أثر لامع لنهر يتعرج فوق حقول غير مستوية التف حول المكان، كما لو أنه غير متأكد أين سيذهب. كانت التربة مثل لوح الداما بمربعاته التي اختلطت معاً، غابة على حافة الحقول استندت إلى السماء الفارغة، آخر موسم طيور السنونو اندفعت مثل البرق في الجو، زفرقة باهتة للجراد الصغير يمكن سماعها، ومن الأخاديد المحروثة أنت صيحات متعبة تنظم خيول الحراثة.

كان كوجيمايكي مجرداً من كل الرغبات، كان صدره فارغاً مثل الجرس، تعلق قلبه مثل لسان بارداً وثقيلاً.

في البعد امتدت البلدة مقحمة صلبانها عالياً في الفضاء الساطع للسماء.
سمع قرع أجراس مكتوم وطرق صانعي البراميل البليد الذين حان موسم
شغلهم (الوقت الآن لتمليح الملفوف والفطر من أجل الشتاء).

تستغل النسوة هذا الموسم بأفضل وجه، فكر ماتفي حاسداً. لديهن كل
أصناف المهن التي يشغلن أنفسهن بها... ولديهن الأطفال يعتن بهم.....
أشرقت شمس خريفية شاحبة فوق غابة تشير نورامينسكي، وأنت
القطط السود للناس على طول الطريق تثب وتهرول مثل فئران تفر من
حفرة مظلمة.

أظهرت البلدة ظلالاً وألواناً لا تحصى، تفحص كوجيامكين البيوت
التي تبدو كبيوت الدمى: كل بيت بيستانه وسياحه لكن كل واحد منها كان
مفصلاً عن الآخر بهوة عميقة: الخلاء بطوقه.

شعر بالشفقة ثملأه وانتفخ صدره إلى حد التحطم، وخرت الدموع رغماً
عنه لكنها شفقة ممزوجة بالاستياء. حن كي يعود مسرعاً إلى البلدة ويأخذ
مكانه في السوق حيث يتسنى للكل أن يراه ويصبح بصوت عال بالمارة:

"أيها القوم الأعزاء، أيها الناس التعساء! الشفقة التي أحسها نحوكم
يتعذر التعبير عنها بالكلمات. أنا الذي تخليتكم عنه وهجرتموه وشجبتهموه
وأدنتهموه كلكم. آه يا قومي المحبوبين المساكين!"

من حين إلى آخر استمر في اجتزار هذا في الطريق، ثم مسح عينيه بقبضته
ووضع حداً لاستسلامه العاطفي بقوله لنفسه:

لن يصغي إلي أحد، وإن فعلوا فسيكون لمجرد السخرية مني لا أكثر.
ثم دلى رأسه وهو يشعر بأنه غريب حتى إلى نفسه.

القسم الثالث

رن جرس الكنيسة مرتين واهتز زجاج النافذة واستيقظ الخفير الليلي.
تكت قعقة بخمول وتحرك الهواء كأن شخصاً أطلق تنهيدة ومرر يداً ناعمة
داعبت الأشجار في البستان.

بمحاولة جاهدة رفع كوجيما يمين رأسه الرمادي مستنيراً بالمصباح
الأخضر؛ ظلل عينيه بيده ونظر إلى الساعة الجدارية التي كانت تشير إلى
الثالثة إلا رباعاً.

ظل سكون الليل الذي كسره رنين الجرس يقطاً للحظة مثل قطرة
مرتبكة، ثم تمدد واستقر على الأرض ثانية.

جذب الرجل العجوز نفساً عميقاً، ثم غمس قلمه في المحبرة وانحنى
على الطاولة لينقش بجلد حثيث الكلمات التالية على صفحة بيضاء في
دفتره:

"بما أن هذه المواد وأيام حياتي اقتربت من نهايتها، فهذا هو ما أريد أن
أقوله لك يا صديقي البعيد: ما أجده خيفاً ومرّاً ليس الموت، وإنما هذه الحياة
الموحشة المعزولة. كيف أعيش معزولاً بينما الأرض تعج بالناس الذين
أعيش في وسطهم كما لو أنني لم أوجد أبداً؟ لقد عشت أتغذى على أفكار
كما تتغذى الفراخ على قشرتها، لكنني لم أجد القوة قط إلى خرق هذه القشرة
والخروج منها. وحين أتأمل هذه الأفكار تبدولي أفكاراً سميدة، أفكار لا
يعرف أحد بها وكل واحد يحتاجها، لكن بعد أن كتبتها ها هي تحملق بي من

الورق مثل همجين بوجوه كلاب وهم متشابهون وشبه عميان بعيونهم
المقرحة الدامعة والملتهبة"

بعد أن كتب هذه الأسطر تفحصها عن قرب، وأدرك أن أفكاره شذبت
وبيضت مرة أخرى بمجرد صياغتها في كلمات، وغرق في التفكير في المعاني
المبهمة للكلمات. أحياناً وعلى نحو غير متوقع تماماً تكشف له الكلمات
أعماقاً واسعة من المعاني والعلاقات المتداخلة الغريبة.

تذكر مرة أنه وجد "حقق ire" توضع جنباً إلى جنب مع كلمة "نار
fire" وأثر تماثلها جداً عليه، وقال لنفسه إن الحقق مولود من النار. فقط
الشخص الذي لديه نار في قلبه يشعر بالحقق. هل شعرت أنا بها قط؟ كلا
أبداً. ليس في قلبي أي نار وليس في أفكاري أي دم أو حياة.

هناك فأر خلف خزانة الثياب يظل يخرمش وكوجيباكيين يعرف هذا
الفأر الذي يخرج راكضاً في الليل وهو كرة رمادية صغيرة مع زرين أسودين
للمعينين ويجلس في وسط الغرفة ينظف وجهه المدبب بمخالبه. وفي هذه
الليلة بالذات أثرت خر مشته على صمت روحه بطريقة مزعجة.
"شو! اغرب عن وجهي" قال بنعومة.

ناضل ليقف على قدميه وشعر بإغواء فجأة، ارتخى جسده كله، رفضت
عضلاته أن تطيعه، وبدأ دمه السميك والحامل على وشك التوقف عن شق
طريقه عبر أورده.

المرض والدوار حولاً أفكاره إلى شيء لزج غير متبلور. متمسكاً بالجدار
شق طريقه إلى النافذة وفتح مصراعها وانهار على عتبها.

ارتعشت أعداد لا تحصى من النجوم الذهبية في السماء السوداء، وكان
العالم توقف عن الدوران في الفضاء وتدلّت بلا حراك مثل نواس ساعة

معطلة. في هذا السكون الصافي وقاع البئر العميق بدا كل شيء - عناقيد البيوت وبرجا المراقبة وأجراس الكنيسة اللذان برزا عالياً مثل إصبعين غليظين - مكسواً بثياب كاهن جنائزية.

صرخ كلب ناعس أيقظته عضة قملة أو حلم سيء فجأة، وأصدر العشب حفيفاً، وطقطق قنفذ بأسنانه ثلاث مرات حين هرول مسرعاً، لكن هذه الأصوات كلها لم تكسر صمت الليلة الحارة المتخمة برائحة الزيزفون. من مكان ما قريب، أتت قعقة الخفير الليلي الجافة وجر جرة أقدامه المتعبة فوق الأرض وتمتمة صوت خرف:

"آه، يا مولاي، يا مولاي". مكتبة الرمحي أحمد

خفيرنا الليلي عمره فوق الثمانين، فكر كوجيمايكين وها هو يواصل حراسة السلام والأمان ويحفظ الناس من الضرر ليلاً، ويعتقد أنه يستطيع فعل ذلك وسوف يواصل حتى ساعة موته.

أغلق كوجيمايكن عينيه مسنئلاً.

وساعتي ستأتي في ليلة رائعة ما.

لكز رعب الفكرة قلبه، وجعله يثق بقوة أكبر وبانتظام. عقد حاجبيه بعناد وذهب إلى السرير واستلقى، وبدأ يقرأ في ملاحظاته ليرى أنه لم يحذف شيئاً مهماً.

"مرت ثلاثة أسابيع على رحيلها، وروحي الأسيرة تتوق إليها أكثر من أي وقت مضى، لا أريد أن أرى أو أفكر بأي شيء غيرها. أنعذب في النهار بحنين يفوق الوصف، وفي الليل أكون ضحية للغيرة والرؤى الشهوانية. أطوف في الفناء والبستان بحثاً عن أثر لخطواتها، وأستحضر في ذهني كل الأشياء الحكيمة التي قالتها، وأرى وجهها الباسم، ويرادني

خيالها ويدفعني إلى الجنون. أمضي ساعات في تقطيع الخشب والمشي في الحقول حتى أوشك على السقوط، لكن لا شيء ينفع. ليلاً أضع إلى العلية وأستلقي على السرير، أبكي هناك محترقاً بالرغبة. لقد اعتدت على الغضب الشديد. أنت أفعى سامة! أنت مكنت نفسك في قلبي ولا يوجد شيء يحررني منك أبداً. أنت عبث بي - هل نستطيعين إنكار ذلك؟ لا شك بأن شخصاً آخر ينظر إليك الآن وتردين عليه بابتسامة وتغريه وتجعلينه ينفجر في لهب لا يمكن إطفاءه. كنت دائماً أحتقر السكوتس - طائفة دينية مارست الإخفاء - لكنني أعتقد الآن أنهم وحدهم من وجد طريقة لحماية الرجل من جنون الجسد الذي يجعله أسوأ من كلب مجنون. لو مرة واحدة فقط أستطيع فيها الاستمتاع بعذابات الحب الحلوة في النوم إلى جانبك يا يفجينيا يا حبيبتني، فإنني بكل سرور لن استيقظ أبداً وسأموت فرحاً بعد أن أطبع قبلات لا نهاية لها على قدميك أولاً""

بعد قراءة هذا المقطع تنهد كوجيمايكن قليلاً. رفع نظارته وقال لنفسه كما لو أنه ينتقد شخصاً آخر:

"يوجد هنا حب أقل من الاستياء. أيتها الروح التافهة الصغيرة"

بعد أن قلب عدداً من الصفحات تابع القراءة:

هذا الصباح وجدت بين صفحات كتاب صلواتي الرسالة الوحيدة القصيرة التي بعثتها لي. كتبت:

"الآن نحن في فورغورد. بعد استراحة لمدة يومين سنستقل القارب في هذا النهر الجميل"

نحلت شريط النهر الأزرق الممتد في البعيد، يتلاشى وسط التلال والمروج كأنه يصب في مركز الأرض، ونصورت القارب كواحد صغير ينط

على الماء هنا وهناك مثل عربة يريد على طريق وعر ولبس على القارب سوى امرأة رزينة وولد صغير أجعد الشعر وكلاهما ليسا أكبر من ذبابتين. لقد قالت إن على الشخص أن يعيش بين هؤلاء الناس الأغبياء ويحاول جلب منفعة لهم، لكنها هي نفسها رحلت. لقد فضحت حقيقة ماركوشا حين تجادلت معه، لكن ما قاله كان الحقيقة، الحقيقة التي لا تدحض "كل شخص لنفسه"

تكيفت على الذهاب إلى الكنيسة مرة أخرى. من المفيد أن تكون هناك. كثير من الناس حولك ومع ذلك أنت لوحدك وبمفردك وسطهم مثل إله متوحد في مكان عالٍ فوق العالم وفوق ناسه، والجيد أن الكاهن الجديد الأب ألكساندر لم يكن يلقي خطباً دينية وإنما يخرج حاملاً الصليب فقط ويتنسم لكل واحد كما لو أنه يعد بقول شيء جميل له. أرسل الأب إلى هنا ككفارة عن شيء ما فعله. كان الأب بافل يلقي خطباً دينية كل يوم أحد قبل أن يموت يشعر الناس بالضجر ويغضبهم: حان وقت الذهاب إلى البيت من أجل الغداء. وهنا كانوا يقفون ويقال لهم أي حياة شريرة تلك التي يعيشونها. لكن هذا الكاهن لديه إحساس بالتناسب في الكلمات والوقت وهو يتلو الصلاة بصوت مفعم بالعاطفة، وجهه قبيح لكنه لطيف ومهذب، خداه يختلجان مما يجعله يبدو وكأنه يغمرزك ويقول: ثانية فقط وسأريكم خدعة - فقط ثانية! نظل ننظر إليه ليفعل شيئاً أو يقول شيئاً يسر الجميع. إن الوقوف هناك في ركن مظلم بانتظار حدوث شيء مثل جميل جداً.

طوال الليل وحتى الفجر أهيم في الحقول وأفكر بما قالته يفجينا عن البلدات الصغيرة المعزولة كبلدتنا، لقد قالت: هناك أكثر من ثمانمئة منها مبعثرة فوق الأرض ولا تعرف عن بعضها البعض حتى. ربما يوجد في كل

واحدة منها مجنون مثلي بطوف في الحقول ليلاً وقد ضجر من الحياة. أنساء
إن كان الرب قد فكر في هذه البلدات وبرجال مثلي؟ ما هو مبررنا لنكون
أحياء؟

كان القمر بدرأً وبحلول منتصف الليل اكتست الأرض بصقيع متجمد
وكان كل شيء ساطعاً وفضياً. كانت السماء صافية لا غيم فيها عند الفجر،
وكان النظر إلى البلدة التي غطاها ثلج وردي ودخان المدافئ الذي ارتفع
مثل بخور من عدد لا يحصى من المباخر مريحاً للعين والروح. مرة أخرى في
الصباح الباكر وقبل أن يستيقظ الناس تذكرت كلماتها التي ترن بالحقيقة،
لكن الحياة في النهار تكذبها. إن الحياة سوق وليست معبدًا، والذي يدوم
فيها هو القتال والمساومة وليس التعبد!

تمنيت أحياناً أن أكون غير مرئي وأستطيع الذهاب من بيت لآخر،
أحرق بكل عائلة وأرى ما يفعله أفرادها وأسمع ما يقولونه وأكتشف ما
يأملونه في عيشهم. ربما هم يعيشون مثلي دون معرفة السبب وربما الحياة لغز
بالنسبة إليهم مثلما هي لي وأفكارهم بلا هدف أو معنى مثل أفكارني.

في بلدتنا تحدث كل أنواع الأشياء، أشياء محزنة وأشياء مضحكة، لكن
ليس لدي الرغبة في تدوينها كلها. كل أنواع القذارة تطفو على سطح النهر.
ليكن ذلك. أما ما يحدث ويستمر في الأعماق فلا يعرفه أحد. فمثلاً لدى آل
ستوياكين طفل في الثالثة من عمره شرب الكيروسين، أخت صانع الأواني
ميغانوف هربت، في حفلة زفاف عند آل تيتوف شرب الجميع حتى ثملوا
وذهبوا إلى النوم في كل الأماكن، وفي الصباح استيقظ ياكوف تيتوف ليجد
أخت عروسه مستلقية بجانبه، هزها وصاحت بصوت عال: أين زوجي؟
وتبين أن زوجها كان مستلقياً مع وسيطة الزواج. بدأ بالصراخ والقتال

والبكاء، ثم بدأ بالشرب بعد ذلك من جديد، حتى النسوة يثملن في الأعراس. لكن لماذا على المرء أن يتذكر كل هذه الأشياء؟ أي فائدة تجني منها؟ لا شيء إطلاقاً.

هذا الصباح وجدني شاكر مكتئباً وحزيناً، وحاول أن يفرج عني ويبهجني، روح طيبة. قال: "إنها ليست المرأة الوحيدة في العالم". هي ليست كذلك طبعاً حسب الطريقة الترية في النظر إلى الأمور، لكن الأمر مختلف معنا. بالنسبة إلينا يبدو أنه كتب على الرجل أن يكون له حب حقيقي واحد فقط يلتصق به مثل ظله. استمر في التحدث إلي بلغته المكسرة "أنت تفقد صوابك يا سيدي. كيف يمكنك مواصلة العيش بدون رأس يميز الصواب من الخطأ؟ ومن يريد رأسي؟ أنت تحب قليلاً جداً، يجب عليك أن تحب امرأة أخرى، عندئذ سوف تنسى نفسك ويكون كل شيء على ما يرام". خطر في باله الأب فيتالي -تذكر نصيحته- رغم أنه تربي، إلا أن القس أظهر له الشفقة. الرجل المسكين قتل نفسه بالشرب. كان يظهر في الشارع شبه عارٍ وعيناه محمرتان كالدم ليوقف الناس ويقول لهم:

"لكن ديوسكوروس"^(١٤) كان يهودياً! اللعنة عليكم، لماذا لم تخبروني؟ لماذا أخفيتني عني هذا؟ أنا ديوسكور، أليس اسمي ديوسكوروف؟ أنتم عرفتم ذلك وكنتم تعرفونه طول الوقت! في جنونه كان يرمي بنفسه على الناس مثل بهيمة متوحشة. الرجل الطيب يذهب للكلاب. لماذا يعيش عدد كبير من الناس الطيبين مثل هذه العيشة الرديئة ويموتون ميتة فظيعة؟ آه مني! نحن قدر بائس.

إنها ليلة شريرة، الرياح تعوي وتشعري بتعاسة أكبر من قبل، والغيوم تمر بسرعة في سباق كأنها تحاول الهروب من هذه الأرض الموحشة، وهناك

أصفر هلال للقمر يومض بشكل باهت حين لا يكون مخفياً مثل قطعة صغيرة من قارورة مكسورة في قاع كوم من النفايات.

حل شهر تشرين الأول. كان خريفاً بارداً وجافاً. تغطي البستان بأوراق ميبة، والأرض ترن كالحديد عند المشي فوقها. في بلدتنا ظهر رجل عجوز ورع. جمع الناس حوله وألقى بهم خطبة دينية عن أرواحهم. ذهبت اليوم ناناليا لتستمع إليه، والآن هي جالسة في المطبخ تبكي، والشيء الوحيد الذي أستطعنا استخلاصه منها: "أنا خائفة جداً!" لقد سممت لدرجة مقرفة وهي تتنفس بصعوبة بسبب بدانتها، لكنها تواصل الأكل مثل خنزير. ليس هناك ولو كلمة واحدة من يفجينيا. لقد نسيتني.

يسكن هذا الواعظ عند آل سيشوغوف. إنه شيخ صغير الحجم وجسمه ليس أكبر من جسم صبي وهو كهل جداً، رأسه أصلع تماماً ما عدا حاشية رفيعة من الشعر الأبيض تمتد من الأذن إلى الأذن. أذناه مديبتان وبارزتان مثل أذنا فأر، أنفه طويل ومحدب وفمه مخفي بلحية صفراء وشاربين وعيناه غائرتان جداً لدرجة لا تعرف فيها أنهما موجودتان، ولكن الدمع يظل ينهمر منهما على وجنتيه البنيتين. هو قبيح الشكل ويتكلم بشكل غير واضح ويصعوبة، لديه عادة وضع يديه على الطاولة وثني أصابعه المعقوفة التي تشبه المخالب كأنه يقتلع أوتار آلة الغوسلي. أعطوه مقعداً في الزاوية تحت الأيقونات، فسقط ضوء الزجاج الأزرق للأيقونات على رأسه الأصلع مما أعطاه منظرأ منفراً غير طبيعي.

تحدث عن الروح، وقال ينبغي علينا أن نحبها ونحافظ على استمرارها، لكننا بدلاً من ذلك نقص أجنحتها ونمنعها من التحليق عالياً إلى المسيح. إن أول وألد عدو للروح هو الجسد، الروح في الجسد مثل سجين في سجن.

للإنسان طبيعتان، وهنا تكمن معاناته الأبدية. الجسد يتبع للشيطان والروح للرب، يريد الشيطان أن تكون الروح جزء لا يتجزأ من خطايا الجسد، لكن يجب على الإنسان ألا يسمح بهذا. حتى الآن كلام جيد، لكن كل ما قاله بعد هذا كان مشوشاً وغير مقنع. سأله أحد الأشخاص كيف يمكن للإنسان أن يقهر الجسد فقال: "أطلق العنان للجسد ليستهلك ذاته ويترك الروح تعبد الرب بسلام وطهر"

جلس إلى جانبه رجل بدين هو من أحضره إلى هنا، ويدو أي رأبته في مكان ما من قبل. عيناه قبيحتان ناتشتان كعيني سرطان البحر وتدوران بشكل مخيف من طرف إلى طرف، وجهه مدور مدهن مثل قرص من حلوى مقلية. من وقت إلى آخر يشرح ما يقصده العجوز، وكان يقوم بذلك في تذرر دائماً. قال "اعملوا ضد كل الوصايا الدنيوية والأوامر من أجل خلاص أرواحكم" يشخر ويتلعثم بغضب حين كان يتكلم وله صوت أجش يبدو مألوفاً لي. كان هناك رجل أعور قال له:

"بعبارة أخرى، بدون خطيئة ليس هناك توبة وبدون توبة ليس هناك خلاص- هل الأمر كذلك؟ نحن سمعنا هذا من قبل"

بدأ الكل بإسكاته، ولم يرد الرجل البدين عليه. بعد ذلك بدأ كل واحد من الحضور يخمن أين تتوضع الروح، قال بعضهم في القلب وبعضهم الآخر في الدماغ داخل الجمجمة. وقال الرجل الأعور ساخراً مرة أخرى: "لا أحد يعرف أين هي أو ماذا تكون، ومع ذلك أنتم تقولون إن الروح مهمة فقط!"

الغريب سماعه يتكلم بتلك الطريقة دون أن يوليه أحد أي اهتمام. كان العجوز يغط في النوم فهزه مرافقه بفضفاضة وقال:

"هيه، أنت أين الروح؟"

كان الرجل المعجوز مرعوباً جداً، لذلك جلس برنمش ويتنحب لبضع دقائق قبل أن يستطيع أن يتأتىء: "استقرت الروح في الجسد على سبيل التجربة". رضي الجميع بهذه الإجابة، واكتفوا بهذا السؤال. بينما كنت جالساً أصغي وأراقب الناس، انتابني شعور بأنني مررت بكل هذا من قبل، ربما في حلم.

كان هناك رجل آخر، طويل ونحيل كعمود وله زر مضحك عوضاً عن الأنف وعينان صافيتان وجبين عريض وشارب كثيف ووجه صغير جداً بالنسبة إلى حجمه. وقف دون أن يتكلم، وابتسم لكل من حوله كما لو كانوا أصدقاءه، وانضم إلي هذا الرجل وأنا ذاهب إلى البيت، وتبين أنه ابن عم كنة خريابوف الكنة التي غرقت حين أشعلت النار في القارب، وكان اسمه سيميون دروزدوف، ووجدته مسلياً، فذهبت معه إلى المنزل لشرب كوب من الشاي. وجدنا الأعور تيونوف هناك، ابن القابلة ووسيلة الزواج ليفينغ وتر. إنه متشرد ولا يصلح لأي شيء ويجب التحدث بجرأة. دخل دروزدوف في جدال معه.

"من الجيد أن يفتش الناس عن أرواحهم فقد عشنا وقتاً طويلاً بدونها" قال دروزدوف.

عقص تيونوف لحيته ولفها حول إصبعه وابتسم ابتسامة عريضة وقال: "ذلك الحديث كله مثل أضرار ذهبية على أسماك بالية، مثل قبعة مخملية على رأس فارغ. هم شرعوا برعاية قطعانهم ناسين أنهم لا يملكون أيأ منها. يجب عليهم التوقف عن شرب فضلات الفودكا وضرب زوجاتهم وأولادهم بأول شيء تطوله أيديهم قبل أن يبدأوا البحث عن أرواحهم"

"كلا، لا يستطيع الإنسان العيش بشكل قويم حتى يكون واثقاً من روحه" قال دروزدوف.

"هؤلاء الوعاظ يجب أن يطردوا ويضربوا على آذانهم. إنهم يلتهمون كل ما يستطيعون وضع أيديهم عليه لوحدهم ويطلبون من الآخرين الكف عنه" تابع تينوف قائلاً.

"ليس هذا الرجل العجوز. إنه يقول افعلوا ما تحبون"

نهض تينوف من مقعده، وبدا كأنه يريد أن يعض أحداً ما.

"نحن نعرف ذلك بدون أن نخبرنا به هو، لكن قل لي ما هو الشيء الأساسي، الشيء الذي لا نستطيع أنا أو أي أحد آخر الاستغناء عنه"

"الروح هي ذلك الشيء الأساسي"

خرج تينوف عن طوره، فلكزه دروزدوف في وجهه بإصبعه القذر وصاح بأعلى صوته:

"ستتعفنون في الوحل وأنتم تضعون أصابعكم في أنوفكم قبل أن تجدوا تلك الروح خاصتكم. أنتم لا تستحقون أرواحاً بعد. لن نستطيعوا حصد ما لم نزرعوه أبداً. وأنتم تفتشون عن أرواحكم، أنتم تفتحون بعضكم بعضاً حتى الموت. العيش بينكم خطير مثل العيش بين وحوش البرية. الإنسان وحيد على هذه الأرض كما لو أنه يقف على كومة من العشب في مستنقع مظلم يحيط به الماء. كل شخص وحيد وثائه ومشرد يملأه الخوف. من الأفضل لكم أن تجدوا بعضكم البعض قبل أن تشرعوا في رحلة البحث عن أرواحكم. يجب عليكم أن تمسكوا أيديكم لبعضكم البعض وتمسكوا بها بقوة وإحكام.

قال القسم الأخير هذا بهدوء، لكنه بدا وكأنه بصرخ. خشيت أن ينقض عليه الرجال، وكان هناك خمسة عشر منهم في غرفة المشرب. كلهم رجال

عابسون، لكنهم جلسوا يصغون إليه فقط كأن ما قاله لا ينطبق عليهم أبداً. دهشت بشكل عظيم، وبدأت أرى الناس وأهل المستوطنة خصوصاً بشكل مختلف.

لم أستطع انتزاع ذلك الرجل العجوز من رأسي: أن يكون في هذا السن الكبير والغباء ورغم ذلك يهتم بالآخرين ويحاول تعليمهم ما ينبغي عليهم فعله. أغلب الرجال حتى وهم في زهوة أعمارهم ويتفجرون بالقوة الجسدية والعقول الصافية يديرون ظهورهم لرفاقهم الرجال كي يستمتعوا بالحياة دون إزعاج.

أتى دروزدوف معي إلى البيت ليمضي الليلة لأن آل خريابوف أقفلوا بوابتهم في تمام الساعة الثامنة، وكانت الحادية عشرة حين غادرنا المنزل ومازال يسكن معي. فكك دروزدوف الساعة الجدارية ولم يستطع تركيبها مرة أخرى، وقال إن هناك دولاباً ثلاثي الأطراف مفقوداً فيها، لكن هل هناك من سمع بدولاب ثلاثي الأطراف قط؟ إنه مسلٌ جداً. يظل يتحدث عن كنوز دفينية ويقول إنه يعرف كيف يجدها لأنه يعرف الكثير من الأسرار القوية، لكنني أعتقد أنه مخادع. تبين أن الناس من الأقوام الأخرى أكثر بهجة وإمتاعاً من قومنا دائماً تقريباً. لنأخذ حال فناننا الجديد مكسيم: إنه من ياروسلاف، لديه رأس جيد على كتفيه، وسيم بشكل استثنائي - شعر مائل للحمرة، عينان زرقاوان، فم صغير وحلو كفم امرأة - وهو شغيل جيد، لا يستعجل أبداً، لكنه شغيل مخلص ودقيق ويعمل بنشاط وتلذذ كما لو أن الشغل وجبة طعام. إنه ينظر إلى المهمة من كل الجوانب أولاً، ويفكر بأفضل الطرق للبدء فيها. شاكر لا يستطيع مدحه بما يكفي ويقول إنه ليس كالآخرين، ليس كالروس. من المزعج سماعه يقول هذا،

وأنا لم أفكر كثيراً بهذا المكسيم. لديه عدد كبير من الكتب التي يجلبها في صندوق ثياب أسود مقفل دائماً وفي المساء كان يقرأ لنا. منذ وقت غير بعيد قرأ لنا قصة مؤثرة جداً عن امرأة ابتلت بحب عظيم وماتت بسببه، مثل بيلاجيا، ومن الجيد لو أن كل النساء حذون حذوهن.

يتحدث دروزدوف كثيراً عن النساء، ورغم ذلك لم أستطع أن أفهمه في غالب الأحيان. هو ومكسيم يتشاجران دائماً، وكان مكسيم يرد على كل شيء يقوله: "تلك أكذوبة". ادعى دروزدوف أنه ابن غير شرعي لكونت كانت أمه على علاقة به وقال مكسيم: "الاحتمال الأرجح أنه إيفان عادي"

"ليس بي أي نفع للناس" قال مرة. "وكل ما يريدون فعله هو التسكع من مكان لآخر، وليس لديهم حب للعمل خصوصاً في الشتاء ولهذا هم قلقون جداً. إن حركوا ألسنتهم فذلك ليغطوا نقائصهم، وإن أمسكوها وصمتوا فذلك لعدم وجود ما يؤمنون به. جوهرهم قوي ويزخر بالحياة ولا يجدي تنصيب كل أصناف السلطات لمراقبتهم، فالطيبة إن لم تأت من الداخل، فمن غير الممكن فرضها عليهم من الخارج. إنهم قدر غادر لا يعتمد عليه.

لقد طاف بالأرض من أولها إلى آخرها وما يقوله يحمل ما لاحظته بنفسه في الناس. إنهم لغز وهم ضجرون حتى الموت. ما هو السبب؟ يقول مكسيم إن السبب ناتج عن غيابهم. أتعجب. الأحق يستمتع بالحياة ويقدم النسبية للآخرين.

سألت دروزدوف عن عمله الذي يكسب منه رزقه.

"أنا أنتقل بحثاً عن الناس الطيبين وألتصق بهم فقط" قال. خذ نفسك أنت مثلاً. راقبتك وأنت تجلس هناك كأنك في حلم بينما كان الرجل

المعجوز يتحدث ورأيت على الفور أنك لست واحداً من هؤلاء الطماعين
ولم تسأل أي شيء لنفسك. وها أنا ملتصق بك"

دعه؛ إنه رجل طيب القلب لكنه متلهف جداً: إنه يتعهد دائماً بأشياء لا
يستطيع تنفيذها وإتمامها. تعهد بإصلاح باب مخزن الغلال القديم، وبعد أن
كسر الآلية رماها قائلاً: إنه ليس قفل خزنة. لم يقل أحد إنه كان كذلك.
حين بدأ شاكر بالشكوى ولامه على ما فعله بدا مكتئباً، رمشت عيناه وصر
كتفيه وابتسم بوداعة كقديس. شاكر لا يستطيع تحمله وقال لي مرة:

"أنا أخشى هؤلاء الناس. إنهم يعترضون طريقك دائماً ويدسون
أنوفهم في كل مكان ويجربون كل شيء لكي يكتشفوا فقط. أناس كهؤلاء
يؤذون كثيراً"

ناتاليا تحاول بكل ما تستطيع أن تسمنه لكنه قلما كان يأكل شيئاً. في كل
وجة يظل يتحدث بصوت عالي النبرة وبلا توقف. على الإفطار يوم أمس
صعق مكسيم بقوله:

"تبدولي أنك طفل غير شرعي أيضاً"

"تلك كذبة. أبي وأمي كانا متزوجين"

"ذلك لا يعني شيئاً" قال دروزدوف.

سيده صغيرة تذهب لتتمشى في الشارع، يراقبها بدقة سيد جميل، يدعوها
للارتباط به وهكذا هو الحال. الزوج لا يعني شيئاً في مثل تلك اللحظة. كما لو
أن المرأة تهتم. إنها تعيش بغرائزها. هي مثل الأرض: لا يهمها من أين تأتي
البذور طالما هي تأتي. هي مخلوقة لذلك. اعط الأرض حقها ولا تكثرث
بالكيفية والسبب. تخرج المرأة أحياناً وتمضي كل حياتها نفتش عن رجلها
المقدر لها، وقد لا تجده أبداً، ورغم ذلك فهي محكومة بقدرها.

يزداد عمق وسواد عينيه حين يتكلم عن النساء وينخفض صوته إلى الهمس ويحذب كتفيه كالخائف.

"تستطيع المرأة امتلاك عشرين روحاً أو أكثر في داخلها، لهذا السبب هي قلقة جداً وتطوف هنا وهناك. من الصعب أن تفهم المرأة" عقص مكسيم أنفه للأعلى وعوى قائلاً:
"ما تقوله كذب"

"أوه، كلا. ليس كذباً. من أين يأتي الأطفال الصغار؟ من النساء. حسناً، إذاً من يعطيهم أرواحهم؟ أترى؟ بعض النساء يلدن عدداً كبيراً من الأطفال يصل إلى عشرين طفلاً، لهذا يجب أن يكون في داخلهن عشرين روحاً. وإن أنجبن طفلين فقط تظل بقية الأرواح بالداخل تطالب أن تولد في أجساد، والمرأة لديها شعور بأن زوجها لا يستطيع فعل هذا من أجلهم لهذا تنقلب ضده. البعض يسمي ذلك بغاء، لكنه ليس كذلك البتة لو نظرت إليه من وجهة نظر وظيفة المرأة.

"ليس هناك شيء يجب الحديث عنه أكثر من النساء والروح كما أن الإنصات إليه ممتع حتى لو كان الكثير مما يقوله غير واضح. لم أسمع امرءاً قط يتحدث عن النساء بتلك الطريقة مع ما يبدو أنه احترام ورهبة حتى مع الخلاعة"

أخبرني دروزدوف عن زوجة تاجر ضغطت عليه كي يسم لها والد زوجها:

"كان والد زوجها عجوزاً مقعداً ويتنقل داخل البيت على كرسي متحرك وهو مدثر بتيابيه. كان يتنقل متدحرجاً ورأسه ينبج بكل شخص (كان الهدوء في بيتهم كهدهوء القبور). كنت آنذاك في الخامسة عشرة من

عمري وكنت صبي بيت للرجل المعجوز، أرنب غرفته وأقرأ له رسائله وكان يهتم بي، حتى إنه كان يصرخ بي: لماذا لا تصغي إلي أيها الأحق؟ أنا أحاول أن أصنع منك رجلاً! لهذا كنت أصني إليه، ولما لا؟ ابنه كان مخلوقاً خائفاً ووديعاً، يملؤه الحقد ويتنمر على زوجته، لكنه لم يرد بوقاحة على والده أبداً. كان المعجوز يذمه ويهاجمه بعنف. وكان كيرليو، وهو اسم الابن، يقف ويحرق بالأرض فقط ويقول: نعم يا أبي. كان يشرب الخمر في السر - ليس الكمية التي تجعل منه سكيراً وإنما ما يكفي للهروب من الحياة البائسة التي يعيشها. انحدرت زوجته من أفقر صنف من أهل البلدة، لكنها كانت امرأة جميلة وشجاعة. كانت تصاب بهلوسات في رأسها دائماً.

خلال فترة قصيرة بدأت تنوّد إلي فدعنتني مرة إلى تناول الحلويات وغازلتني في مرة أخرى، وكلكم يعرف ماذا يدور في ذهن صبي في ذلك العمر. انجذبت إليها كما العشب إلى الشمس. كانت ضحكاتها كافية لتجعل الحجر الأصم يذهب متدحرجاً عند أقدامها، فما بالكم بكائن في صدره قلب! استمرت الأمور بتلك الطريقة لثلاثة أشهر دون أي تغيير ملحوظ، ولكن في تقدم خلال الفترة كلها. استيقظت في أحد الأيام وجاءت إلي مباشرة ووضعت ذراعيها حولي وقبلتني ثم قالت:

"يا لك من صبي طيب يا سنيا أنت شريف جداً. أنت ترى بالتأكيد ما يحدث هنا. أنا تعيسة جداً! ساعدني يا عزيزي. كيرليو يشرب الكحول خلسة وسيضعني في قبري قبل أن يموت الرجل المعجوز. ساعدني أرجوك. هل خلقت لأعيش مثل هذه الحياة؟"

ما قالته كان صحيحاً كله فهي لا تستحق حياة كهذه حقيقة. أردت أن أساعدها. أشفقت عليها لكنني خفت وارتعبت. قلت لها "انتظري برهة"

جعلتني أحلف بعذراء سمولينسك بألا أخبر أحداً أبداً، لكنها ظلت خائفة كما يفترض من أن أخبر الرجل المعجوز بما طلبت مني فعله لأنها وضعت لي الزرنينخ في كمعتي المحشوة بالمربي في أحد الأيام. شككت بطعمها الغريب وأنا أتناولها وحالما بلعتها- يا إلهي، كيف أخذت على حين غرة. خفت كثيراً، ولم أقل شيئاً ثم طلبت منهم أن يأخذوني إلى المستشفى. وفي مساء اليوم الخامس شفيت تماماً ما عدا بعض الضعف والبقع البنية التي غطت كل جسدي- سألوني كيف حدث ذلك لكنني كذبت عليهم- قلت إنني ارتكبت خطأ اعتقدت أنني كنت أرش سكرأ على كمعتي.

بينما كنت مستلقياً دخلت علي فجأة- وجهها أبيض مزرق تقريباً وعيناها تلمعان- عبت وتقدمت كما لو كانت تجر بسلسلة. جلست على سريري النقال وقالت: "هيه جلبت لك طعاماً وشراباً" وأبدت بعض الملاحظات الأخرى ثم همست قائلة:

"هل أخبرهم أنني من فعلت ذلك؟"

"لا طبعاً. ألم أقسم على الأيقونة؟" قلت.

"لا تكذب!" قالت. "أستطيع معرفة من ذلك من خلال عينيك! لا فائدة. لا يمكنك أن تثبت ذلك!"

لقد جرحتني بقولها هذا.

"انصرفي عني" قلت. "لا أريد أن يكون بيننا أي شي آخر بما أنك لا تثقين بي"

ثم أخبرتها بما قلته لهم. بدأت تبكي بنعومة وقالت:

"يا أم الرب. لقد خشيت كثيراً من أنك ستخبرهم. أشكرك يا عزيزي. لتجازيك العذراء، أما بالنسبة لذلك المسخ فسوف أتدبر أمره بدون

مساعدتك، أنا أعرف كيف سأفعل ذلك- القليل في كل مرة وليس في جرعة واحدة"

أسقطت في يدي ثلاث أوراق نقدية خضراء وقبلت جيبني وقالت:
"ارحل أرجوك. لأنه إن حدث أي شيء فأنت تعرف الفاعل وقد نفلت منك كلمة بالصدفة، ارحل أرجوك"

فعلت طبعاً. ولماذا لا؟ البلدات مثل بعضها البعض في الجودة بالنسبة إلي، كما لم تكن عندي الشجاعة لرفض طلبها. غادرت البلدة وذهبت إلى سافانا.
"وماذا حدث بعد ذلك؟" سألت.

"لا أعرف" قال.

"هل دست السم لوالد زوجها؟"
"لم أسمع بذلك قط. أنا كذلك بمجرد أن أرحل عن مكان أفقد أي اهتمام فيه"

وأنا أسمع قصته لم أستطع أن أقرر ما هو جيد وما هو سيء. لقد سمعت الكثير من قصص مشابهة، أينما استدرت نجد أناساً ليسوا سيئين حقيقة بل هم طيبو القلب حتى، ويسرهم جداً أن يصنعوا لك معروفاً، لكن على حساب طرف ثالث دائماً.

يعرف دروزدوف كيف يروي القصة ويستمتع بذلك. كل شيء يبدو بسيطاً وطبيعياً حين يرويها، وهو لا يحكم على الناس أبداً ويتكلم عنهم كما لو كانوا أمواتاً.

في القداس اليوم شعرت أن الأب ألكساندر كان ينظر إلي بطريقة ودية خاصة. انتظرت في الشرفة، وحين أتى وباركني سأله إن كان في مقدوري زيارته في وقت ما. أمسكني من أكمام معطفي وقال مستعجلاً:

"في أي وقت نحب. نسري جداً زيارتك"

جرني خلفه. مشى بخطوات قصيرة سريعة. كان يرتدي معطفاً بالياً من الفرو غير مناسب له ويستطيع أي شخص أن يرى أنه لم يفصل ويخاط له. إنه صغير ونحيل وسريع الهياج. حين وصلنا إلى بيته اندفع مسرعاً في المكان، علقت قدمه في المقاعد وكنس بأحكام رداءه الكهنوتي أشياء من فوق الطاولات وهو يندفع من غرفة إلى أخرى، وقال بصوت خافت كالهمس:

"يا لطيف، كم أنا أخرق! ساعني!"

ارتعش خده وشكل شعره غيمة فوق رأسه، وكانت عيناه الكبيرتان الرماديتان مثبتتين على السقف في أغلب الأحيان، وظلت ابتسامته تتطاير على وجهه النحيل. وكان يمرر يده النحيلة على وجنتيه من حين إلى آخر كما لو أنه يمسحهما. بدا مختلفاً تماماً عن القس الذي يتلو صلوات الكنيسة، ربما أدهى أو أغبى. إنه على العموم يتصرف كما لو أنه يعاني من رعب شديد، وكان يشعر بالذنب تجاهي ونجاه زوجته. هي أكبر سناً منه وأكثر ثباتاً وتبخرت في المكان كجندي، تضع نظارة وصدرها تمسوح وبلا حواجب، وجهها بلا لون مثل ثيابها، لديها طريقة مريبة في الحملقة في عينيك من وراء نظارتها.

التهم القس طعامه، أسقط سكبته وشوكته، جعد خبزه ودعك كسرات الخبز إلى كرات صغيرة كان يمجنها حول حواف طبقه وكانت تزيلها زوجته بأصابعها الطويلة وتراقبه كما تراقب الأم طفلها. مرة تسوي المنديل المربوط حول عنقه وأخرى تدفع له قطعة من الخبز وتشمر أكمام رداءه، وكانت تفعل كل هذا بدون أن تنبس بكلمة واحدة.

أخبرته بما قاله الرجل العجوز عن الروح. رفر ف ذراعيه كما لو أنه يوشك على الطيران وقال لزوجته:

"ها! اسمعي ذلك، يا آنا؟ هممم"
"ذلك عائد للجهل" قالت مؤكدة.
"تابع، تابع يا ماتفى سافليفيتش".

قلت له ليس في مقدوري أن أقدم رواية مناسبة لخطبة المعجوز الدينية لأنني لم أعتد على التحدث وأنا بدون تعليم وأن أفكاري تظل تقفز هنا وهناك، لكنه قاطعني عند هذه النقطة ثانية: "ذلك هو. القفز هنا وهناك!" قال. "طريقة فطنة للتعبير. تظل أفكارنا تقفز هنا وهناك وهذا ينطبق علينا كلنا، كل الروس. أفكار العوام تقفز للوراء إلى الشرق وأفكار المتعلمين تقفز للأمام إلى الغرب، وبينهما يكمن حزننا العظيم وغير المعترف به وسبب عدم وصولنا إلى أي مكان منذ قرون كثيرة. لقد طمرنا التاريخ إلى أعناقنا بين هذين الطريقتين. أفكار الرجل المعجوز تقفز للوراء إلى ألف وسبعمائة سنة. في القرن الثاني بعد ميلاد المسيح، ظل أناس محددون يقولون كما يقول الرجل المعجوز بأن المرء يجب أن يطلق العنان للجسد وأن هذا لا يضر بالروح، بل أكدوا أنه كلما زاد الترخيص المعطى للجسد زاد نقاء الروح وطهارتها. مثل هؤلاء الناس يدعون أنفسهم أغنوستيين^(١) وسأعطيك كتاباً عنهم، إنه عمل بليغ ومشوق"

أمضى ساعتين وهو يحكي لي عن هرطقات متنوعة. تكلم بمهارة كبيرة وحماس، لذلك كنت مسحوراً، ولم أفعل شيئاً سوى الجلوس والتعجب. خلع رداءه الكهنوتي ونظ كالجمل داخل الغرفة في سترته الطويلة السوداء المهترئة مثل طائر السمن في قفص وهو يلوح بيده اليمنى وكأنها سيف. دفعت زوجته نظارتها للأعلى على جبهتها وقالت بهدوء:

"ساشا!"

لم يسمعها وسأل قائلاً:

"ما هي الروح؟ الروح لفافة ورقية تسجل فترات الحياة الإنسانية كلها والفترة الأحدث لم تنرها روح القدس بعد. يجب أن تقرأ من هذه اللفافة بعناية الكتابة التي نقشتها عليها أصابع الحياة الحادة"
قاطعت زوجته مرة أخرى لكنه بقسوة أكبر هذه المرة.
"ساشا!"

سمعها فخمد وابتسم وبدأت زوجته ترتعش.
"آه، نعم. حسناً جداً يا آنا" قال.

جلس في ركن ومسد شعره. تكلمنا قليلاً عن الأحداث الجارية في بلدتنا، لكن بطريقة عشوائية إجبارية. استأذنت للمغادرة فوراً. قادتني زوجة القس إلى الباب، وحين أصبحنا في الصالة قالت بضحكة قصيرة خجولة:

"أعني ألا تخبر أحداً بما قاله"
"لا يوجد أحد لأخبره" قلت.

ضغطت على يدي بدفء، وطلبت مني أن أزورهم مرة أخرى. عملها هذا ألقى علي مسؤولية محددة، لكن لم أقدر أن أتبين بوضوح أي مسؤولية هي. القس مخلوق قريب وجذاب جداً، لكن هناك شيء غير سليم حوله. طبعاً أنا لا أتذكر كل ما قاله وأشعر بوجود شيء غير كنسي في أفكاره. يعيشان في فقر مدقع: حطام أثاث وأطباق، ثياب زوجته مرقعة وحذاؤها مرقع أيضاً. الشيء الوحيد الذي يملكان منه الكثير هو الكتب. رأيت خزانتي تفصان بها في الغرفة المجاورة وكلها من المجلدات السمكية. أعارني واحداً منها، كتاب سميك نشرته مطبعة علمانية عن الطريقة.

كلما قابلت أناساً أكثر زادت قناعتى بأنهم يشبهون بعضهم البعض في قلقهم وتعاستهم حالما تلقى عليهم نظرة من الداخل، رغم الاختلاف الذي يبدو عليهم من الخارج.

مكسيم طلبق جداً في يديه. يوم أمس ضرب اثنين من الشغيلة وجاءا إلي يشكوانه وهما ينزقان وقد أصابتهما كدمات، فأرسلت بطلبه ووبخته، لكنه تكلم بصوت عالٍ وبجراحة دون أن ترمش له عين أمام الشغيلين الذين كانا واقفين ويصفيان:

"وسين الآن مني ضرباً أسوأ في المرة القادمة. كانا يهزآن من شاكر ويسخران من دينه!"

أفهمته طبعاً بأنه ليس السيد هنا، لكنني أحببت ما قاله في أن الرجال في مشغل الحبال يؤذون كثيراً. وعلى العموم يبدو أن القوم يزدادون قذارة وخصوصاً هؤلاء الذين من مستوطنة الحرفيين.

حصل مكسيم على كتاب ممزق بعنوان "الجوانب المشرقة والمظلمة من الحياة الروسية"^(١) من فاسيا ابن صاحب النزل سافيليف، تركه أحدهم في النزل. قرأه لنا على مدى خمسة أيام متتالية. إنه كتاب لاذع ومضر والإصغاء إليه مؤلم، لكن هذا لا ينكر الحقيقة التي فيه. هناك على ما يبدو باحثون يسعون وراء الحقيقة ويعرفون كيف نعيش هنا في أوكوروف، هذا جعل كل شيء قالوه مؤثراً بشكل خاص وكأنهم جاؤوا بصورة غير مرئية ونقبوا في حياتنا ووبخونا عليها. أحب الكتاب كل من مكسيم وشاكر، لكنني ودروزدوف لم نحب. ليس فيه سوى النقد. أي واحد يمكنه إصدار الأحكام على غيره، الجميع غير راضٍ، لكن لم يحاول أحد أن يفعل شيئاً لتحسين الأحوال. فضح دروزدوف نفسه مرة أخرى. أصيب شاكر بالأم في أسنانه فحاول دروزدوف أن

يعالجه فقرك لثته بسائل لكنه حرقها وفتت السن. اندهش دروزدوف وقال إنه جربه على حاكم رايازان دون أن تكون له نتائج سيئة.

قضيت خمسة أيام في شرب متواصل. أنا ميت أكثر مني حياً في الوقت الحالي، رأسي مثل حانة من الداخل وقلبي يؤلني.

انتابت كوجياماكين رعشة من الغثيان حين تذكر كابوس حفلة الشرب تلك، وظهرت في ذهنه مجموعة من المشاهد المتنوعة والناس.

إنه يرى صورة دروزدوف الآن وهو جالس على غدائه يتمطق بشفتيه ويشد شاربيه إلى خارج فمه ويملسهما ويرجعهما للخلف ويتلو أغنية شائعة رقيقة:

الروح نحتاج إلى الطعام

الروح نحتاج إلى الشراب

غذّ الروح ولا تكثرث

بما يظنه العالم المتقلب

"أخرس وتناول طعامك" زمجرت ناتاليا قائلة.

قذفه مكسيم بنظرة استياء أيضاً وقال:

"إنه يظن مثل بعوضة"

نزع شاكر سنه المشوه وهو مرعوب، وقاد ماتفى إلى ركن من المطبخ وهمس له قائلاً:

"يقول العجوز خريابوف إن دروزدوف كان سجيناً، ويقول إنه سرق"

"هو لا يبدو لصاً" اعترضت قائلاً.

"هل عرفته بما يكفي؟ الناس مختلفون، اللصوص مختلفون" أصر شاكر قائلاً.

خيم العداء والرتابة على الجو. لم ينسم أحد سوى دروزدوف لكن بشكل كثيب. تودد للجميع مثل كلب هجين شارد.

"سأذهب وأزور القس" قال كوجيمايكين لنفسه في أحد الأيام حين كان ضجره لا يطاق.

هكذا بدأت الأمور كلها. عند خروجه من البوابة رأى رجلاً يرندي معطفاً وقبعة مشدودة فوق أنفه واقفاً على الطرف الآخر من الشارع. كان ينظر من تحت قبعته، رأسه منتصب كرأس نور وعيناه ثبان من رأسه. رشت قبعته ومعطفه بالصقيع المتجمد.

"هل هذا بيت كوجيمايكين؟"

"نعم"

"هل مات الرجل المعجوز؟"

"منذ زمن طويل"

"هل أنت ابنه؟"

"نعم"

مشى الرجل نحو الرصيف ببطء رافعاً قدميه في حذائه الجلدي الملمع بعسر. لم يكن أمام ماتفي خيار سوى اللحاق به، وقرر ألا يباغته، ونساءل من يمكن أن يكون هذا الرجل.

"ألم تعرفني أم أنك لا تريد الاعتراف بذلك؟" سأل الرجل بازدراء ملحوظ حين وقف والتفت بوجهه الأحمر نحو ماتفي.

"بدو أنتي أعرفك" تلعثم كوجييايكن خشية أن يحدث رد فعل سيء، لكن الرجل مشى بجانبه ولكزه لكزة خفيفة بكوعه ومشى معه وكرشه بارز إلى الأمام.

"أنت تعرفني جيداً" قال بشكل فظ. "كنت أعمل عند والدك. هل تتذكر سافكا؟ هل تتذكر الضرب الذي تلقينته منكم، وكيف ارتعت أنت وجلبت لي نقوداً وفودكا؟ ليس أنت من فعل وإنما بيلاجيا. قالوا إنه قتلها. هل هذا صحيح؟ مسح بعينه ماتفى من رأسه حتى قدميه ثم تابع بعبوس: "أنت لن تحكي طبعاً فقد كنت صغيراً جداً آنذاك، لكنهم قالوا إنك طارحت زوجة والدك الغرام. رأيتك عند آل سايشوغوف وعرفتك مباشرة- نفس العيون. ما رأيك أن نمر إلى النزل ونتذكر الأوقات القديمة؟"

افتقر كوجييايكن إلى الشجاعة ليرفض؛ كان اللقاء مثل حلم سيء، ونبض قلبه بحب بيلاجيا والخوف من سافكا. ولهذا وجد نفسه جالساً في ركن عاتم في غرفة المشرب الكبيرة. مط سافكا شفثيه الغليظتين وهز رأسه المدور المفروش بشعر صوفي للأعلى ونادى:

"هيه، أيها النادل!"

شعر كوجييايكن بالهجل. الشخص الوحيد الذي كان يخدم النزل هو سافيليف ابن فاسيا، شاب هادى وشاحب ومولع بالكتب ويعرف على الأوكورديون وصديق لمكسيم.

"إذا أنت الرجل الذي يرافق الواعظ؟" سأل ماتفى.

"أنا هو. إنه يوشك أن يموت. الواعظ. تعجب بيلاجيا".

شربا قدحيهما ثم سأل سافكا بوقاحة:

"سمعت أنك لم تتزوج بعد، فلماذا لم تفعل؟"

"أوه، لا أعرف"

"هممم" زجر سافكا وهو يملأ الأقداح ثانية. "قالوا إنه كان لديك امرأة محترمة كعشيقة"

"هذا ليس صحيحاً" صاح ماتفي مع غصة ألم.

"هل نخجل من الاعتراف بأنها نخلت عنك؟ لقد نخلت عنك ونبذتك. أليس كذلك؟"

نظر كوجيمايكين حوله في الغرفة بيأس. كان ورق الجدران أخضر مع أزهار حمراء كبيرة فيه وعلى الطاولات أغطية قماشية حمراء وعلى النوافذ أصص مهمة من نبات إبرة الراعي التي اصفرت أوراقها. في ركن بعيد جلس فاسيا بمنظره الباهت وهو يداعب أوتار أكورديونه. كانت النغمات الجهيرة الخفيفة مبحوحة والنغمات العالية حادة ومرتفعة بشكل عنيد ومثيرة للإزعاج.

"لست سعيداً. أليس كذلك؟" قال سافكا وهو يتمطق بشفتيه.

أحب كوجيمايكين أن يرحل، لكن قبل أن تتوفر له الفرصة بدأ سافكا بإحضار المزيد من الفودكا وازدرد قدحين مملوءين. كان يستند على الطاولة بوجهه الأرجواني وعيناه تقدحان شرراً وبدأ يروي له قصة.

"مر وقت طويل حتى تمكنت من الوقوف على قدمي مرة أخرى. بعد ذلك الضرب المبرح أخذتني عمتي إلى دير فيه راهب يطيب القوم. أقمت فيه كعامل إسطلبل لمدة أربع سنوات. كانت حياة سهلة - رهبان طيبون جداً لكنني ضجرت منها حتى الموت"

"ضجرت" كرر ماتفي الكلمة المألوفة وبدأ رنينها بنعشه.

"أكثر مما يستطيع الإنسان تحمله. اعتدت على الشراب لهذا تركني
الرهبان أرحل"

"الجميع ضجرون" لاحظ كوجياما يكين قائلاً بنعومة وعيناه على
الشعرات السود القاسية على قفا يدي سافكا الحمراءوين: ارتعش: تصدر
عن الرجل رائحة غريبة، مزيج من البصل والشمع وزيت المصباح.
"الجميع ضجرون تماماً" قال سافكا موافقاً وهو ينمطق بصخب معبر
عن رضاه. "والأشياء التي يفعلونها هي للهروب من الضجر! سباق الخيل
وصيد الحمام بالبنادق وقتال الديكة - لاشيء ينفع - وكذلك النساء والخمر
وجني المال كل ذلك لا يفيد -

نفخ وجنتيه وجعل عينيه كبيرتين ومخيفتين، ثم أقحم إصبعه في شعره
الملبد وجلس في صمت برهة. بعد ذلك وفي ابتسامة متكلفة ونخرة، صب
لنفسه قدحاً آخر من الفودكا، تجرعه دفعة واحدة ورمى رأسه للخلف.
"اشرب. ماذا تنتظر؟" قال. "رأيت شيئاً واحداً أو اثنين يا أخي. هناك
بعض الناس الذين يبدوون وكأنهم يشعرون بالسعادة ويكدهون في مهنتهم
مثل علقه في جلد كلب تمتص دمه. إنهم مثل السكيرين لديهم العادة لكن
الوقت الذي يعتادون الشرب فيه يأتي أيضاً أو شيئاً آخر بنفس السوء وهنا
تبدأ الصخرة بالتدحرج"

كلما شرب أكثر ازداد اللون الأرجواني قتامة في وجهه وارتحى لسانه
أكثر وتكلم بشكل أسرع، وكانت الابتسامة المتكلفة قلما تبارح شفثيه.
"لقد نفذت قواي تقريباً في عمل مجهد. قلت لنفسي في أحد الأيام: أنت
ولدت فلاحاً وستموت فلاحاً. هذا هو قدرك. لهذا انضممت إلى مجتمع
قروي ومنحت أرضاً لأعمل بها. تزوجت واستقرت. ستة أعوام وأنا

عاكف على الحرائة ثم هربت بعد ذلك. ليذهبوا إلى الجحيم! زوجتي والأطفال المزعجون. صبيان صغيران اثنان. اعتصروا مني ضوء النهار في تلك القرية تقريباً. أعط لهذا الشخص ولذاك. سرب من الأقارب جاؤوا يتزنون كلهم فقراء مثل فئران الكنيسة. واحد يأتي للتسول وآخر ليسرق وثالث ليأخذني من حلقي ويقول (ارفع يديك أنت هنا من أجل هذا!).

فهقه وأطفاً ضحكته بصب قدح من الفودكا في فمه الفاجر.
"أنا لست مغفلاً وتابعاً لأي أحد. انهض وارحل. جئت إلى البلدة، تجولت هنا وهناك - ليس هناك راحة للمتهك. عدت إلى الدير لكن العمل كان صعباً جداً علي. لقد أخذت الأرض كل القوة مني، جعلتني البلدة طرياً، الضرب الذي نلته خرب قلبي وشجاعتي. في ذلك الوقت ظهر واعظ، ليس هذا الذي تعرفه، واحد مختلف. مزيف وفاسق فصادقته. يا الله يا لقدرة ذلك الرجل على الوعظ! حكمه تبكيك. ينعت كل واحد ويفضح كل شيء، لم يكن يخشى أحداً، لكن حين نكون لوحداً كان يضحك ويقول: (أن تكسب رزقك بلسانك أسهل من أن تكسبه بيدك).

"هل كان يؤمن بما يوعظ به؟" سأل كوجيمايكين في صوت واهن.
"من يعرف؟ يبدو لي أنه كان يؤمن بالرب وليس بالبشر. أضجرتني بالتلويع في وجهي بعذابات جهنم وإرسال نفسه وكل شخص آخر إلى جهنم بيرديشن، كان يشرب الخمر ويضحك ويعاشر النساء العاهرات ويتنحب، كلها مخلوطة مع بعضها البعض. في أحد الأيام أنخم نفسه، وكان في ذلك نهايته. شرعت في البحث عن آخر من نوعه. وجدت عجوزاً بأفكار ورعة في قرية صغيرة على فيتلوغا. أنصت إليه قليلاً ورأيت أنه رجلي

المطلوب. قلت له: "نعال أيها الجدد. تلك رسالة رائعة التي لديك لكن من يسمعها في هذه الحفرة؟ إخفاؤك لموهبتك خطيئة"

دور سافكا عينية بصورة مخيفة وكشف عن أسنانه وهز رأسه الكبير. عملت في مهنة الوعظ في وقت سابق. قال العجوز: "أنا عجوز وحن وقت الموت بالنسبة إلي وأن أكف عن التنقل من مكان إلى آخر لتعليم القوم" قلت له: "لا شيء من هذا أيها الجدد" حسناً، أمسكت به وجر جرته من مكان إلى آخر منذ ذلك الوقت، حيوان الفظ العجوز! ليس في مقدورك أن تعلمني شيئاً في ذلك الكار يا أخي!" فجأة ظهر الأعور تيونوف.

"هل تمنعون انضمامي إليكم؟" قال وجلس على مقعد. "فودكا يا فاسيا!" صاح قائلاً. "إذاً واعظك لا يؤمن بشيء، أليس كذلك؟" سأل بلطف وعينه الوحيدة تحدق بكوجيمايكين. "لا يؤمن بالجنة أو بجهennem ولا يؤمن في القطر أو في تمويذة الساحرات، أليس كذلك؟ لقد صادفت الكثيرين من أمثاله"

لفت الغرفة واندفعت الجدران كالأشعة ومن الخلف وصل إلى مسمع ماتفي صوت مألوف يقرأ:

"والآن أيها الطاغية المتوحش، املا الغابة بصر خاتك...."

"البائس!" تمتم فاسيا.

"متى ستتوقف عن حبي بطوع إرادتك الحرة؟" تابع الصوت قائلاً: "سوف أجبرك على ذلك بانتهاك شرفك...."

التفت كوجيمايكين حوله: على طاولة خلفه جلس فاسيا ومكسيم ورأسهما يكادان يلامسان كتاباً كان مكسيم يقرأ منه بصوت عال وبغمة شماس يتلو صلاة جنازة.

كيف لي أن أعرف الآلية والدوافع الداخلية لكل الناس وأن أعرف مسبقاً ما الذي سيقولونه، سأل كوجيمايكين نفسه.

"لقد عرف واشتهر في قريته كفاسق وسكير وهمجي" قال سافكا بصوت أجش وضحكة مبحوحة.

"هل رأيت؟" هتف نيونوف. "هم يفعلون ما يحلو لهم ويعتصرون حويصلات الطير من الناس وعندما يشيخون يحاولون إسدال الصوف على عيني المولى"

"صحيح تماماً. ما اسمك؟"

"تيونوف"

"هذا يعبر عن حقيقتهم"

أطلق سافكا شنيمة فاحشة، وتابع تيونوف تقديم ملاحظاته التبريرية: "هم يحاولون أن يجعلوا الرب يصدق بأنهم أخذوا المسار الخاطئ من أجل الحفاظ على طهارة أرواحهم...."

تدلى رأس سافكا الكبير على صدره، زحفت أصابعه الكبيرة على الطاولة، قلبت الأقداح فأطلق ضحكة مبحوحة ونمطق بشفتيه وتمتم قائلاً: "صحيح، صحيح"

"أنت رأيت الكثير" قال نيونوف بصوت رفيع وعالٍ "كيف ينبغي على الإنسان أن يعيش كي يكون محتشماً؟"

"من يهتم؟" صاح سافكا قائلاً وهو يضرب الطاولة وينفجر في ضحكة خشنة.

نبت ضحكته كوجيمايكين وجعلته يصحو.

"حسناً. يجب أن أذهب" قال وهو ينهض.

"لكنني جاد...." أصر تينوف قائلاً.

"من يهتم؟ انتظر يا كوجيمايكين...."

هل تعتقد أنك ستنتج وتتقدم بشكل أسرع في هذا العالم لو كنت أحمق؟"

"أسهل بكثير"

"كلا. ليس الأمر كذلك. الأحمق ليس حاراً ولا بارداً. الأحمق مثل الطين - في الطقس السيئ يُلصق بقدميك وفي الطقس الجميل لا يكون له أي علاقة بك"

"أنا لم أعط حكماً لعيناً!"

بدأ سافكا يزغق بوحشية وهو يرفع يده ويدور عينيه.

آه، ولدتني أمي وجلبتني إلى هذا العالم

آه، لأعرف حياة الحزن والهم

آه، لم ترسم لي درباً

آه، أين سأذهب؟ أخبروني أين؟

تدحرجت دموع ثلمة على وجتيه القذرتين الرماديتين. شعر كوجيمايكين بالأسف عليه فجأة.

"ما المشكلة يا أخي؟" قال والدموع تدحرج على خديه "ما المشكلة؟"

تعانقا وقبلا بعضهما وهو مستند على الطاولة. قطع صغيرة من الخبز المكسور سحقته تحت أقدامهم، وأخيراً خرجوا يترنحون معاً بعد أن ارتبطوا بعاطفة جياشة. حين أصبحوا في الخارج، دفع مكسيم وقال:

"انصرف أيها الخنزير!" وأخذ ذراع ماتفي. حرر ماتفي نفسه وهو مستاء من التدخل.

"انصرف أنت نفسك! من تظنني؟" صاح بصوت عال.

"ارحل يجب أن تحجل من نفسك" قال مكسيم وهو يدفعه إلى الأمام. حين وصولوا إلى البيت أيقظوا درزدوف من النوم ودخلوا إلى المطبخ حيث شربوا الشاي والفودكا.

ضرب شاكر الأرض بقدمه غاضبا.

"لماذا تحضر هؤلاء الخنازير هنا؟" صاح بمكسيم قائلاً.

"انتظر أنت أيها التتري" قال تيونوف وهو يتمايل على قدميه "هناك مسألة كبيرة يجب تسويتها"

وقفت ناتاليا بجانب الموقد مثل تمثال، لم تتحرك إلا عندما تتمخط، وكانت تفعل ذلك بصوت عالٍ، لدرجة كان كوجيايكين يجفل في كل مرة. نماذج ظلال خضر زحفت فوق جدران المطبخ ووجوه الناس كما لو انتشر عفن فطري فوق كل شيء. كان رأس سافكا مثل رأس سمكة الأنقليس ورأس مكسيم مثل فأس صدئة. جر شاكر إلى ركن ووضع يديه على كتفيه وقال:

"ألا نعبد كلنا نفس القبصر؟"

عقص دروزدوف أنفه للأعلى وضيق عينيه باحتقار وقال لسافكا:

"هل تقصد القول إنك تتكلم عن الروح يا رجلي الطيب؟"

"اخرس أنت أيها المومس"

لكن دروزدوف لم يسكت.

"إذا أنت الشخص الذي يأخذه من مكان إلى آخر" قال.

جلس سافكا قبالة بشكل ثابت وبدا كثيراً مثل قط أسود في الظلام.

"آه ها!" صرح دروزدوف. "بعبارة أخرى أنت -"

النقط سافكا حبة خيار من على الطاولة وحشاها في فم دروزدوف.
ضحك الجميع حتى كوجيامكين الذي شعر بأنه ملزم ليقول:

"هيا يا أصدقاء. يجب ألا نئين بعضنا بعضاً"

"أستطيع أن أغفر أي شيء" صاح دروزدوف "أي شيء بشرط أن
أحترم...."

"ما رأيك بالسجن؟ هل تحترم ذلك؟" أتى صوت شاكر بهدوء.

"م...إذا؟" صاح نيونوف. "انتظر، يجب أن نبحث في هذا الأمر. هذا
شيء يجب أن يُجلى"

دروزدوف وهو مرتبك وذليل قاد شاكر إلى ركن بعيد وهو يحاول
إقناعه بأصله الكريم.

"لثلاثة أشهر وأنا أقول لك إن أمي عاشت مع الكونت
رودولف...."

سحبه مكسيم ذو الشعر الأحمر بعيداً وظل سافكا يقول:

"إلكمه بقوة، اجلده بالسوط، اطحن عظامه العفنة، انزع ذيله"

"ارفع يديك عني أنا شخص مهم" صرخ دروزدوف. شعر
كوجيامكين في الحال بشارب دروزدوف بدغدغ عنقه حين لمس في أذنه
"أرسل بطلب بعض الصبايا، يوجد هنا رجل طيب!" ثم ضرب صدره
بقبضته وقال مفاخراً نيونوف "هل أبدو لك مثل قوام العوام؟ هل رأيت
واحداً مثلي من قبل قط؟"

رمشت عين نيونوف الوحيدة مستحسناً:

"كما لو أن في مقدور أي أحد أن يكون مثلك. أنت البصلة الوحيدة
وسط كل هذه البطاطا!"

"غنوا أيها الأصدقاء!" صاح سافكا رافعاً رأسه. "هيه أيها الأبتز،
غنّ!" بدأ بسحق الطاولة بقبضتيه والصياح بأعلى صوته "هاليلويا!
هاليلويا"

"الأحق!" قال تيونوف ملوحاً بيده. بعد ذلك بدا كل واحد منهم
يتلاشى في فراغ، انبثقوا منه تدريجياً ملوحين بأذرعهم وهم يصرخون
ويتمتمون. لا أحد منهم لديه أي فكرة عن الوقت ولا حتى إن كان الوقت
ليلاً أم نهاراً؛ كل شيء كان ضبابياً وكل الانطباعات كانت غائمة. أخيراً
خرجوا إلى الحمام حيث بخروا أنفسهم وشربوا البيرة ثم عادوا إلى البيت
تائهين وبغير انتظام، وهم عراة عبر البستان يدفع بعضهم بعض في الثلج.

وصلت الفتيات. إحداهن بعيون حول وعنق ملئو. اثنتان أخريان
بديتان وبدتا متشابهتين في الشكل والثياب. ظل سافكا ودروزدوف يخلطان
بينهما ويتشاجران عليهما، حتى نصح دروزدوف سافكا أن يلوث وجه فتاته
بالسخام. فعل هذا فاحتجبت الفتاة بصوت خفيض وعريض.

جلست الصبية الحولاء على ركبتَي كوجيايكين وظلت تقول:

"هل تحبني أيها الذئب الكبير السيئ؟"

جلس سافكا على الأرض وهو يصرخ "هاليلويا!" حاول إغلاق عينيه
بإحكام أصابعه فيهما، لكنهما انفتحتا فجأة رغماً عنه. وضع دروزدوف ذراعه
حول تيونوف وقبله.

"أنت يا ياكوف شخص وحيد الجانب" قال "أنت لا ترى سوى
جانب واحد من الأشياء، جانب واحد فقط. لهذا كنت أقول دائماً إن على

الشخص أن ينظر إلى الأشياء بعينين شبه مغمضتين. أنا نفسي شاذ الشكل لكن لا تقلق. أنا أرى وأميز الطيب من الخبيث دائماً. من هو الذي بدأ حياتنا؟ هيا قل لي من بدأها؟ النساء! صحيح أليس كذلك؟"

"وأنت أبتري!" أكد سافكا معانداً وهو يستمر في إقحام أصابعه في عينيه.

ربت الفتاة الحولاء على شعر كوجياماكين وقالت بنعومة:

"لدي قطة تحبني حتى الموت يا عزيزي، يا الله كم تحبني تلك القطة! تتبعني مثل ظلي أينما ذهبت. وفي الليل تستلقي على صدري وتمر وأنا أفهم ما تحاول قوله، أنا أفهمها حقاً. هي تشعرني بالدفء والمحبة حين تكون على صدري"

كان كوجياماكين خائفاً منها. ظنها مجنونة لكن ليس لديه وسيلة للهروب، لهذا ظل يتراجع إلى الوراء ضد شيء كان يصدر صريراً تحت ثقله. فجأة عضت الفتاة الحولاء كتفه وسقطت على الأرض وبدأت تقذف نفسها في المكان مثل سمكة على أرض يابسة.

أمسكها سافكا من قدميها وجرها إلى الباب.

"لقد أصابتها نوبة!" صاح قائلاً.

وثبوا كلهم وصاحوا وتدافعوا ثم اختفوا بجلبة شائنة كأن الأرض ابتلعهم.

وجد كوجياماكين نفسه جالساً في سريره مقمطاً في مناشف رطبة ومسنداً بوسائد، ممسكاً رأسه بيديه وساكناً بأقصى ما يستطيع، لأن أقل حركة كانت تجلب له موجة من الألم المسبب للعمى والذي يوقف القلب.

كان مكسيم جالساً وراء طاولة يقرأ بصوت عالٍ، فعلقت بعض العبارات في ذاكرة كوجياماكين.

"رحماك يا سيدتي، إلى متى ستظلين محافظة على مظهرك المتغطرس؟"
تراءى له رأس تيونوف، طويل وأعور ينوس على رقبتة النحيلة مثل
قرن خشخاش جاف.

"لنتكلم بصراحة وبشكل مباشر....." بدأ قائلاً.

"هل رحل تيونوف؟" سأل مانفي بنعومة.

قال مكسيم دون أن يرفع رأسه عن الكتاب:

"لقد رحل من تلقاء نفسه لكننا رمينا سافكا خارج البيت واضطررنا
إلى إبعاد دروزدوف أيضاً. تيونوف ليس شيئاً جدياً" توقف ثم أضاف "إنه
يبدو كالمرساة"

كان الثلج يتساقط بغزارة في الخارج. راقبه كوجيمايكيين وهو يسقط على
الزجاج وينجرف على النافذة من الخارج مثل قباط قماشي. يا رب كم أكره
نفسي! فكر.

مرة أخرى اخترقت كلمات الكتاب وعيه.

"حين فتح الفجر الوردي بواباته للشمس التي طردت أشعتها ظلال
الليل-"

كان الوقت ليلاً، ولسبب ما كان المصباح واقفاً على الأرض وكان وهجه
الأخضر الذي يشبه عين تيونوف الحادة النقطة المحورية التي تركزت عليها
الظلال المطوقة في حذر كبير مشؤوم. كانت الغرفة تعج برائحة النشادر
والملفوف، وكان مكسيم جالساً على قدم السرير حافي القدمين وبلا حزام
وقبة قميصه مفتوحة ورأسه تدلى على صدره ويهتز ويتراجع إلى الوراء.
"أنا مريض جداً" تأوه كوجيمايكيين.

"هل تحب بعض عصير الملفوف المخلل؟" سأل مكسيم مغطياً تناؤبه بيده.

"أفضل أن تخبرني بشيء آخر"

"قصة؟"

"كلا، شيء ما عن نفسك"

حك مكسيم أذنه وفكر متأملاً:

"لا أعرف شيئاً عن نفسي" قال متردداً ثم جر كرسيه إلى الأمام فجأة وتكلم بحيوية:

"سأحكى لك كيف وقع غراب في حبي، قصة مضحكة ومسلية جداً. حدثت حين كنت في السادسة عشرة من عمري فقط. وجدت غراباً في شجيرات في الخارج في الحديقة وكانت ساقه مكسورة وجناحه مغطى بالدم. غسلت الطائر المسكين وربطت عظامه المكسورة بشظايا خشبية صغيرة. يا للنفرة التي نقر يدي بها ذلك الطائر! انتفخت يدي كلها. لقد أوجعت الغراب طبعاً. نعى وررف وكاد أن ينقر عيني في كل مرة أضع ربطة أو ضهاداً عليه. نقرني حتى الموت تقريباً"

ضحك وهز رأسه بمناسبة الذكرى وتبدل وجهه كله كأن قناعاً سقط عنه.

"ثم بدأ يعتاد علي بعد ذلك، أينما أذهب كان يجبر جناحه على الأرض ينمق ويلوي رأسه كأنه يحاول أن ينظر في عيني"

ابتسم ابتسامة خجولة ناعمة وتابع حالماً:

"ما إن يراني حتى ينط حول قدمي - كنت أخاف أن أتحرك خشية أن أدوسه، كانت تلك طريقته التي يطلب مني فيها أن أضعه على كتفي. كنت

التقطته وأضعه هناك فينقر أذني ويصدر صوتاً من الشخير يثير الضحك إذ كان يضحك كل من يسمعه".

حول نظرة مؤنبة نحو كوجييايكين ليقول بانفعال:

"من الخطأ القول إن عيني الغراب خالية من أي تعبير. الغراب طائر ذكي جداً"

توقف ودلى رأسه. قال كوجييايكين لنفسه: لماذا يتكلم الناس دائماً عن القطط والطيور والكلاب والخيول التي أحبوها ولا يتكلمون أبداً عن الناس؟ هل هم خجلون من هذا؟

عاد مكسيم للتكلم مرة أخرى، لكن في صوت مسطح لا روح فيه: "فيما بعد يفترض أن أحد الأشخاص ضربه أو ربما عضته قطة. رأته يحتضر فحملته بيدي. دس رأسه تحت ذراعي والتصق بحضني بأقصى ما أمكنه ثم رفرف ومات"

إنه شلب ووسيم، فكر مائفي وهو مغلق العينين ويتظاهر بالنوم، يفترض به أن يغازل البنات ويعزف على الأكورديون لكنه يعيش كراهب، لم يصرف كوبيكاً واحداً، يحتاج حذاؤه إلى إصلاح وليس عنده بدلة ثياب ليوم الأحد. يعيش في جحر. الأشخاص السيئون يخرجون إلى الشارع ويشيرون الشجار والأخبار ينسللون خلصة إلى داخل الجحور.

لديه رغبة في تدوين أفكاره كلها بشكل صحيح ودقيق ليحافظ على سلامتها مع كل المخاوف الكامنة والهواجس التي ظلت تتضاعف داخله. حنّ إلى حياة من السلام والهدوء، لكن شيئاً ما منعه من تحقيقها. حين كان يحرق بشكل مكسيم القوي المفتول العضلات عبر رموشه شبه المغمضة،

خطرت له فكرة بأن هذا الشاب هو من سبب الإزعاج وهو الذي حرك في روحه شيئاً جديداً ولكنه غير مفهوم بعد لكنه شيئاً اساء منه.
انتظر فقط سوف اضبط الأمور بنفسى. هذه هى الفكرة التى مرت بذهنه وخر نائماً.

بعد ذلك حدث شيء صادم وغريب وهزلى. استيقظ كوجيمايكن بسبب صرير الباب وألواح خشب الأرضية. حين حرق فى الظلام زاد وهنه وتفجر منه عرق بارد. لم يستطع أن يطلق صيحة بسبب خوفه الشديد. شكل رمادى طويل وبذراع رفيعة ممدودة كانت تتلوى ببطء ودون ضجة فوق أرض الغرفة نحو السرير بحركات ضفدع مهووس.

إنه للص، إنه مكسيم، استنتج كوجيماين حين سيطر على نفسه واعتدل من السرير وأمسك باللص من شعره وبدأ يضرب رأسه بالأرض.
قذف اللص بساقيه للأعلى وبدأ يرفسه وهو متمسك بالأرض بأظافره ويهس مثل بيرة دافئة.

"أمسكت بك" همس كوجيمايكن، لكن هياجه كان كبيراً جداً لذلك توقف قلبه عن الخفقان وخرجت قوته من ذراعيه. تلوى اللص وأفلت من قبضته وقال فى صوت دروزدوف:

"انتظر، لا تصرخ من أجل المسيح! انتظر..... اسمع...."
"أن-ت!" هت كوجيمايكن مندهشاً. شعر بالارتياح فوراً، لكن بعد ثانية شعر بغضب شديد لأن اللص لم يكن مكسيم.

جلس دروزدوف على الأرض يمسح وجهه بيديه كما تغتسل الهرة.
"اضربني وعاقبني، أنا لن أطلب الرحمة. هيا اضربني لكن لا تستدع أي أحد" همس مستعجلاً.

دفع رأسه نحو صدر مانفي ونساقطت دموع دافئة على قدمي الحافيتين.
"اهدا!" قال كوجييايكين وهو يضربه على رأسه ويصفي. صمت. لم
يأت أحد. نظف دروزدوف أنفه بطرف قميصه مصدراً ضجة، ثم وضع
ذراعيه حول ساقبي كوجييايكين وضغط وجهه المبلل على ركبتيه.
"من أعلمك وأخبرك به؟ إيه؟"

تمنى كوجييايكين أن يتكلم مكسيم لكن دروزدوف نتمم قائلاً:
"الشیطان، ومن غيره"

"أنت أحق. لو كان هناك واحداً" قال كوجييايكين وهو غاضب وبلا
خوف، ثم وقف وأشعل المصباح وجفل حين رأى سكيناً مكسوراً ملقاة
عند قدميه.

"أردت أن..... أن....." تلثم ويرد.

جر دروزدوف نفسه على ركبتيه ولوح بذراعه ثم همس بعجالة:
"كلا، كلا! ربي يشهد على ذلك! قصدت أن أفتح صندوق الثياب
فقط. ولم أقصد أن ألمسك. أقسم على ذلك"
"أنت أحق" كرر كوجييايكين بشعور أقرب إلى الشفقة "كانك
تستطيع فعلها بهذا السكين! للصندوق أشرطة معدنية وعليه قفل مضاعف
أيها الغبي البليد"

تحرك كوجييايكين نحو الباب وهو مدرك أن ما قاله لا علاقة له
بالموضوع وحبا دروزدوف خلفه مثل عنكبوت وقد تشبث بساقيه وترجاء
قائلاً:

"لا تبعد. اضربني فوراً- لكن ليس بقسوة شديدة. ولكن لا نستدع
أي أحداً"

تفجر وجهه باللطخ وكان أنفه ينزف. مسح بأكمامه وحاشية سترته
مخلفاً بقعاً قائمة على القماش القطني الرمادي.

نال مني ما يستحقه من ضرب! فكر كوجيمايكن الذي جلس على مقعد
وهو راض.

"لقد أويتك أيها...! أطعمتك ورعيتك والأشياء الكثيرة التي
خربت... " قال ببطء وذهنه مشغول بشيء آخر.

"اطردني!" قال دروزدوف بعد لحظة من التفكير.

"ألا تستحي؟" تمت كوجيمايكن دون أن يعرف ماذا عليه أن يقول،
وتحاشى النظر في عيني اللص أيضاً؟

خطف دروزدوف يد كوجيمايكن وقبلها بشفتيه المبللتين.

"أنا ضعيف ولا أستطيع القيام بعمل شاق، خلقت للأعمال السهلة.
كنت سأخذ عشرة روبلات فقط، أقسم، خمسة عشر على أكثر تقدير. هل
تسمي ذلك سرقة؟ لا أستطيع العيش هنا إلى الأبد. حان وقت تحركي
وانتقالي"

"ينبغي أن أ استدعي رجال الشرطة" قال كوجيمايكن بهمة فائرة.

"تابع إذًا!" قال دروزدوف بصوت عال وتمخط بصوت أعلى.
"سيكلفك ذلك مبلغاً جيداً. رجال الشرطة ليسوا مثلي. إنهم يعرفون كيف
يفتشون في صندوق مال الشخص!"

فجأة بدأ يتكلم بحرية وبلا خوف وبصورة اتهامية.

"يا لك من شخص رائع! تسلم رجلاً لرجال الأمن من أجل عشرة
روبلات فقط، من أنت لتحكم علي؟ حسناً، سلمني إن أردت ذلك، ستثير
المشاكل على نفسك فقط!"

شمر كوجيمايكن بالخجل والارتباك.

"اغلق فمك واصمت أيها الخنزير!"

لم يعرف ما يجب عليه فعله، ولم يستطع أن يقرر شيئاً محدداً. لم تكن لديه النية في استدعاء الشرطة، سيكون ذلك مزعجاً وغير مسرّ. انكمش من وضع يده على دروزدوف مرة أخرى، مرة واحدة كانت كافية. جفل من ضجيج في الصلاة فقفز وقال لدروزدوف بهياج:

"أحدهم قادم! اخترع قصة، اللعنة عليك! لا أريد لهذا أن ينتشر ويتفشى"

"طبعاً" همس دروزدوف مومثاً برأسه ونهض على ركبتيه.

ظهر شاكر في مدخل الباب ويده هراوة. كانت الهراوة ترتعش وأقحم رأسه للأمام. ضيق عينيه وعرى أسنانه ومن وراء كتفه استطاع أن يرى رأس مكسيم الأشقر ووجهه الأبيض العابس.

"اذهب إلى سريرك" قال كوجيمايكن وهو يلوح باستخفاف بيده. "إنه هو فقط"

"أنا مجنون" قال دروزدوف وهو يرسم إشارة النصب على نفسه ويومي برأسه. "في الحقيقة، نهضت من نومي لأمشي في ضوء القمر فاصطدمت بالباب"

غادرا وهما مترددان. انحنى دروزدوف ليصغي عند ثقب الباب وهمس بابتسامة فاترة:

"هما ينتظران خارجاً في الصلاة"

يتحدث إلي وكأنه صديقه المفضل، فكر كوجيمايكن.

"كل ما يجب علي فعله أن أستخدمهما ليبرحانك ضرباً!" انفجر غاضباً.

"أوه، نعم. ذلك ما يجب أن تفعل" تتم دروزدوف وهو يرمش بغباء
"ليس هناك شيء يقدم متعة للإنسان أكثر من رمية لإنسان آخر في الخارج"
"اغرب عن وجهي أيها الوحش" قال.

لكن دروزدوف هز كتفيه وقال في حيرة:

"إلى أين يفترض بي أن اذهب؟ هل تعتقد أنهم صدقوا ما قلته أنا؟ ليس
كثيراً. إنها ينتظرانني هناك في الخارج. أوه، لن أغادر هذه الغرفة. سوف
أتكور هنا على هذه الأريكة"

ذهب إلى الأريكة واستلقى عليها.

"كلمني، الجو جميل ودافئ هنا في الداخل" قال بتثاؤب مطول.

ضحك كوجييايكين وأطفأ الشمعة ثم جلس على حافة السرير. تلاًلاً
زجاج النافذة الأسود كأن أحداً لمعه للتو، كتلة متشابكة من الظلال دبست
فوق أرض الغرفة وانجهت إلى الباب وتسلقته. حفت الريح وهي تمر من
فوق جدران البيت.

"أنت تتصرف كمعتوه" قال ماتفي مؤنباً. "يجب أن يكون لديك ملاك
حارس يراقبك" "نعم" وافق دروزدوف بعد وقفة "لقد تحولت الأشياء
إلى وضع أفضل مما هو متوقع. أفضل أن يأتي رجال الشرطة: كل ذلك
المرج والنفقات. ربما يمكنك أن تعطيني القليل غداً وأرحل لفائدة
الجميع"

"ألم نخجل من فعلتك هذه معي؟"

"إن طلب النقود بخجلني أكثر"

"ولا نخجل من سرقته؟"

تحسر دروزدوف.

"السرقه أصعب طبعاً، لكن بعد كل شيء من يقوم بها هو أنت، لا أحد يراك ولا أحد يعرف..."

الوعد! قال ماتفي لنفسه.

"لكن ألا تخاف؟"

"قليلاً ولكن يشعر الرجل بحرية أكثر. آخذ المال وانصرف بدون أي التزام تجاه أحد"

"ليس لديك معايير أيها الرجل: أنت لا تفهم ما هو جيد وما هو سيء"

"نعم، أعرف. أنت طيب فعلاً"

"أنا طيب؟ ومع ذلك أردت سرقني"

"لو كنت أنت سيئاً لقمتم بالسرقه بنفسك"

"لا يستطيع المرء أن يتناقش معك" ضحك كوجيمايكن "ولا يمكن القول إن كنت طفلاً أم غيباً. لا يوجد أي إدراك في رأسك هذا" واصلا الحديث حتى الفجر تقريباً.

"إنها الحياة البائسة التي تعيشها" قال دروزدوف مؤكداً "ليس فيها متعة أو تغير"

"وكيف ينبغي علي أن أعيش برأيك؟" سأل كوجيمايكن متهكماً.
"أن يكون في حياتك شيئاً اليوم وشيئاً آخر غداً وفي الشهر التالي شيء مختلف مرة أخرى"

"طريق مؤكد تجد فيه نفسك في الحبس!"

"الناس هم هم أينما كنت"

"هل جربته؟"

"ماذا؟ السجن؟ لمدة أحد عشر شهراً"

"قتل؟ ما الذي وضعك هناك؟"

"النقود. أصل الشرور كلها" رد دروزدوف وهو ناعس.

"سرقة؟"

"هذا ما يسمونها به"

"مال كثير؟"

"ثلاث مئة وسبع وأربعون روبلاً وعشرون كوبيكاً"

جلس مدلياً ساقبه فوق حافة الأريكة ووضع كوعه على ركبته ثم مال للأمام وقال بنشاط وحيوية:

"أهانني يهودي، اللعنة عليه! كان ذلك أثناء المذبحة الجماعية والاغتصاب في زفيرغو حيث كنت أعيش، كانوا يضربون اليهود، حاملون وسائقو عربات وجزارون الكل! يا الله كم ضربوني! ضربوني حتى الموت. أمسكوا بالنساء والفتيات من شعورهن وتنانيرهن وجردوهن من ثيابهن وسحلوهن عاريات في الشوارع، رفسوهن في بطونهن، في البطون. انتبه نساء وفتيات بأجساد مثل المرمر. كان منظرًا يخرج العقل من الرأس. أخيراً، كل واحد - يسوع المسيح والقبصر والقديسون كل واحد منهم ولد من بطن امرأة وثديها على السواء، وها هم رجال يركلون بأحذيتهم الكبيرة..."

"أنا لا أصدقك" صاح كوجيمايكين برعشة خوف. اعتدل أيضاً وجلس في سريره، لكن دروزدوف تجاهله وظل ييقب في هياج كبير جداً.

"لا أستطيع تحمل رؤية امرأة تضرب. تسلفت إلى السقف واختبأت في المدخنة وأنا أرتعش كأنتي أصبت بالزكام. لم أستطع أن أتماسك إلا

بصعوبة، كانت يداي ترتجفان جداً وفي الأسفل يا رب! ماذا كانوا يفعلون!
"اضربوا الزانيات" تعالت الصيحات. اشتعل القتال. رحماك أيها المولى
القدير! جلست هناك أراقب ذلك رغماً عن إرادتي، ولم أستطع أن أقفل
عيني بسهولة. هشموا تلك النسوة العاريات.

"لكن لماذا؟" سأل كوجييايكين باستغراب شديد.

"لأنهن يهوديات"

"أنا لا أصدق ذلك"

"إنها حقيقة ربانية. لأنهن يهوديات"

كان دروزدوف مائلاً للأمام وبدأ أنه سينقلب فوق سرير ماتفي.

"وهل كان ذلك حين سرت النقود"

"أوه، كلا. لقد حدث ذلك بعد أسبوع كما يجب"

"من اليهود؟"

"بالتأكيد لا. من محقق الوفيات. بالتأكيد فقدت رشدي بسبب الخوف.

قتل نساء والتخلص منهن بتلك الطريقة! لماذا، إن قتلت النساء فإنك تقتل
الكل. هذه هي النهاية. والطريقة التي مزقوهن إرباً بها كانت بلا شفقة أو
رحمة!"

"أوقف الكلام عن ذلك!" قال ماتفي بصورة قاطعة ومع أنه كان

عاجزاً عن التصديق رأى في ذهنه كيف سلكت بيلاجيا الدرب عبر البستان
وهي تلف شعرها المعزق حول إصبعها.

"حدثني عن نفسك"

"هذا ما أفعله. حسناً. تنقلت في المكان بعد ذلك في نوع من الذهول.

وفي أحد الأيام التقيت بصديق وقال لي هل رأيت المذبحة؟ اذهب وأخبر

محقق الوفيات بما فعلوه أولاد القحبة! لهذا ذهبت. وجدته جالساً هناك، رجل شاب له شارب أسود ونظارة ذهبية ينكش أسنانه بنكاشة. سألتني عن الذي رأيته. أخبرته لكنني لم أطق ذلك الرجل -التحدث عن قتل الناس وتمزيق النساء وهو ينكش أسنانه وكان ذلك هو الشيء المهم الوحيد فقط. بعد ذلك ذهب إلى الخزانة في الزاوية وانحنى لبأخذ شيئاً وكان على الطاولة كل أصناف الأشياء، من بينها محفظة نقود. هذه فرصتي! فكرت وأسقطت المحفظة في معطفي. بمجرد إن تركني أغادر ذهبت إلى يهودي أعرفه، صانع قبعات، رجل عجوز، رائع وذكي جداً، الكل يعرفه، كان جندياً سابقاً. بدأ يخبرني بما حدث ووقف شعر رأسي حقيقة لما سمعته منه. كانت الغرفة تنفس بالأطفال - أحفاده وأبناء وبنات إخوته وأخواته. حتى أنني وجدت صعوبة كي لا أدوس أحدهم. لقد نال حصته - حطموا نوافذ بيته وخربوا أثاثه لكنه نجح وأفراد عائلته في النجاة والبقاء أحياء بواسطة الاختباء. أعطيته الثلاث مئة وسبع وأربعون روبلاً وعشرين كوبيكاً، وطلبت منه أن يقسمها بين الضحايا. لكنه لم يفهم فذهب وأخبر رجال الشرطة عني لهذا جاءني ضابط وسألني "هل أنت من أعطى النقود للمعجوز اليهودي؟" فأجبت "أنا هو" وسأل "من أين حصلت عليها؟" أجبت "وجدتها". لم يصدقني. وفي ذلك الوقت بلغ نكاش الأسنان عن فقدان محفظة نقوده. لذا أودعوني السجن.

"أنت فعلاً فقدت قواك العقلية..." نتم كوجيايكن.

"أعرف" أوما دروزدوف برأسه. "في ذلك الوقت كنت معنوهاً تماماً،

قال هذا عني كل من المحامي والقاضي"

"هل حصلت على محاكمة؟"

"نعم، في الحقيقة" رد دروزدوف متفخراً. "محاكمة رائعة مع كل الزرکشات. كان اليهودي في المحاكمة ورأى أي خطأ ارتكب، انفجر بالبكاء وتوسلهم ألا يجسوني. حاولوا إسكاته، لكنه ظل يتوسل ويتوسل وفي النهاية أبعده. لقد كان العجوز الأحق محطاً. شعرت بالأسف عليه فعلاً. لقد ظن أني سرقت المال من اليهود أثناء المذبحة الجماعية"

قفز كوجيمايكين ووقف، أشعل الشمعة وحملها أمام وجه دروزدوف:

"هل أنت متأكد بأنك لم تخترع تلك القصة؟"

"لا طبعاً ولماذا أفعل؟" سأل دروزدوف وهو يرمش ويتنسم بشكل حالم "كل ذلك حقيقي"

وضع ماتفي الشمعة على مقعد ومشى على طول الغرفة مرة أو اثنتين.

هو لا يكذب لكنه مجرد أحق، قال لنفسه.

تثاءب دروزدوف وتكور على الأريكة مرة أخرى.

"كلمتي أنا نعمان" قال..

"على الأقل ضع وسادة تحت رأسك" قال كوجيمايكين وهو يتراجع إلى زاوية في الغرفة.

لم يجب دروزدوف. وحين عاد كوجيمايكين كان الأول يشخر بصوت عالٍ. بشعور محير وقف ماتفي يحدق بوجهه الطفولي.

حدث أن شعر دروزدوف بالأسف على اليهودي، وحدث أن سرق المال. ماذا يعني ذلك؟ فكر.

حلّ الفجر. بهت لون الشمعة وألقت ظلالاً متراقصة فوق البقع السوداء على أرض الغرفة قرب السرير. اندفع اللهب الأصفر هنا وهناك

كأنه يريد أن يفر وينجو من الشمعة، وأعطت البقع انطباعاً عن التحرك والبحث عن ملجأ تختبئ فيه.

أطلق كوجيمايكين حسرة عميقة وبدأ يلبس ثيابه بتمهل وهو يلقي نظرات جانبية على الشكل الذي على الأريكة من حين لآخر دون الوصول إلى رأي معين واضح فيه أو الإحساس بأي عاطفة واضحة.

"من الأفضل أن يرحل"، فكر كوجيمايكين، "قد يكون قديساً مما عرفته منه، لكن قد يحدث أن يضع زرينخاً في حساء أحد ما في يوم جميل ما" بعد أن لبس ثيابه أخرج ثلاث ورقات بالية من فئة الخمسة روبلات، أيقظ دروزدوف من نومه وأعطاه النقود وقال له:

"هيه أيها الصديق، خذ هذه وارحل من هنا"

أمسك دروزدوف يده وعصرها وقال وهو يشعر بالسعادة:

"شكراً لك! شكراً لك! كنت يائساً، لم أعرف كيف سأبتعد عن هنا، شعرت بأنني في شرك. لكن الآن سوف أذهب على أجنحة!"

استدار كوجيمايكين وابتعد لينحاشي رؤية التعبير الذي على وجهه.

بعد نصف ساعة من ذلك وبدون أن يكشر في الإفطار، نقر دروزدوف على شاربه ومد يده للجميع وقال في ابتسامة مشرقة:

"الوداع أيها الأصدقاء أتمنى لكم الصحة والثروة والسعادة!"

أجبروا أنفسهم على الابتسام وتمنوا له حظاً طيباً بالمقابل. رأى كوجيمايكين نفورهم منه وساء ذلك.

قبل دروزدوف وذهب إلى غرفته الخاصة.

"لن أنسى كل ما فعلته من أجلي إلى يوم مماتي يا ماتفي سافيليفيتش!" ناداه دروزدوف قائلاً بصوت عالٍ.

إنه أحمق، فكر كوجيا يكين وشعر في أحماقه بالندم بسبب رحيله.
لقد رحل واحد آخر، لا أحد يعرف إلى أين! كانت الفكرة الكثيرة التي
تشكلت في ذهنه. لقد راح وأنا باق. ومرة أخرى كأنني رأيته في حلم فقط.
ذلك يتجاوز الفهم البشري.

في نفس اليوم ماتت ناتاليا بعد الغداء.

كتب ماتفي المادة التالية في دفتره:

بعد الغداء مرضت ناتاليا جداً فجأة، قذفت برأسها للوراء وأزرق
وجهها ولثت:

"يا أمنا المقدسة! لقد أكلت شيئاً ما!"

قال مكسيم: "يجب أن أفكر بأنك فعلت ذلك. كأنك تأخذين أجراً
بدلو مملوء!"

"ذلك صحيح إنها تأكل مثل الحصان منذ بعض الوقت. كانت تأكل
حتى نحفظ عينيها وترنخي ذراعها ولا نستطيع التنفس إلا بالكاد ونجبر
على التوقف حتى نمر الفترة، كان منظرها غير مقبول أبداً. في لحظات كهذه
كان مكسيم يحاول إقناعها بالامتناع عن ذلك ويشعر شاكر بالحجل عليها
فيحمر وجهه حتى تبدو أذناه وكأن حريقاً اشتعل فيها.

لقد اعتدنا على هذه الحالة فلم نهتم كثيراً هذه المرة. نهضت وذهبت إلى
الباب وفجأة رفعت يدها إلى حلقها وسقطت في مدخل الباب. حملوها
ومددوها على الأريكة. كان أنفها ينزف دماً وتتنفس بصعوبة ولثت قائلة:
"أنا.... أحضر...."

أرسلوا بطلب القس وبدأت تشهق لإصابتها بالفواق وماتت دون أن
تعرف ذلك حتى. حين وصل القس أعلن أنها ماتت مسبقاً. قطب شاكر

وجهه وحبا بشكل جانبي وخرج إلى الصالة وصعد الدرج وذهب إلى العلية وهو يتمسك بالجدران والدريزون كأنه ثمل. لحقت به وقلت "إلى أين أنت ذاهب؟"، لكنه لم يسمعني كما يبدو. جلس على إحدى الدرجات وظل يتمتم لنفسه "الله! الله!" حاولت أن أجد شيئاً لمواساته لكن هل هناك قول يجعل الموت أسهل؟ وضعت ذراعي حوله فقط ولم أقل شيئاً. جلسنا هناك لمدة ساعة كما أتوقع.

لا يوجد شيء يمكنني قوله عنها، لم أحبها أبداً ونادراً ما لاحظت وجودها. لم تفعل شيئاً سوى العمل والأكل، ماذا يمكن أن يجده الشخص ليقوله عنها؟ طبعاً شعرت بالأسف وبنوع صامت من الحزن.

دفناها هذا الصباح. كان من المثير للشفقة أن أرى شاكر يمشى وراء التابوت وهو يحتك بالأسبيجة مثل كلب ضربه صاحبه وأبعده ولم يعرف إن كان سيتجرأ ويعود لطلب المغفرة أم لا. رماه المتسولون بنظرات جانبية وتفوهوا بملاحظات حاقة وقذرة. كم أكره المتسولين!

لم يدخل شاكر إلى المقبرة، دفنوها بدون، وخفت حين لم أراه هناك. ركضت أبحث عنه دون أن أرمي حفنة تراب في القبر المفتوح. كان يركع ويصلي في حقل على الجانب الآخر من السياج.

جلسته إلى البيت وتحدثنا بقية اليوم. هو رجل طيب جداً وروح طاهرة. بكى وقال لي:

"لقد كانت امرأة روسية طيبة ونبيهة جداً، رأت كل شيء، ولها قلب طيب، فضلت أن تكذب على أن تؤذي أحداً. عرفت ما يجب عليها أن تفعل حين يكون مزاج الرجل سيئاً، تضع ذراعها حوله وتقول: كل شيء سيكون على ما يرام، لا تقلق، اصبر. كانت تشبه مريم العذراء كثيراً، وكانت

تحدث عنها دائماً. في الليل كانت تقول: نحن لسنا أفضل من الآخرين، لا يجب أن نتذكر أخطاء الآخرين بحقنا وألا نتذكر أخطاءنا بحقهم"
قال لي في وقت واحد: "أنت لست سيدي، أنت أخي" كررت العبارة بعده من كل قلبي لأنني أحببته إلى أبعد الحدود.

جاء لينام في غرفتي، أخبرته أنني أخاف من النوم وحدي بعد الجنازة، لكن في الحقيقة كنت خائفاً عليه. يوجد الكثير من الجبال في بيتنا والحزن خادم الشيطان. كان يرفع رأسه في الليل ويصغي ليعرف إن كنت نائماً أم لا، ثم يركع ويبدأ بالصلاة ويستمر طوال الليل وفي الصباح ينظر إلي، يهز كتفيه ثم يخرج وعلى وجهه ابتسامة صغيرة يائسة. لم أكن ألحق به لأنني رأيت من وجهه أن الحزن قهره. يا للشفقة لا أستطيع التفكير بأي شيء جميل أقوله عن ناتاليا! أحب أن أكتب كلمات جميلة ملهمة مقدسة عن أحداً ما!

تلا الأب الكساندر صلاة الجنازة وقام بذلك بشكل حسن جداً ومؤثر جداً وبشعور عميق وصوت مرتجف. حين عدنا من المقبرة إلى البيت قال لي بطريقة ودية:

"لماذا لم تزرنني بعد تلك المرة؟ عم زوجتي هنا وسنعرّف على الأورغان- زوجتي ستعرّف من أجلك"
أعتقد أنني سوف أذهب.

لقد فعلت وقابلت هناك رجلاً مختلفاً جداً عن أي واحد عرفته من قبل، لذلك بدا الأمر وكأنه نقل من عالم آخر. كان مظهر الرجل استثنائياً وفي حركاته قلق لا يوجد عادة في شخص بمثل سنه. تفاجأ ماتفني على الفور وارتبك من هذه الخصلة. هناك شيء غير عادي ومخادع حتى في طريقة الحياة التي عاش بها.

"مرحباً" قال بصوت جهر عميق وهو يشد يد ماتفي للأسفل. "أنا مسرور جداً بلقائك، فعلاً مسرور جداً، اجلس. اسمك ماتفي سافيلفيتش ليس كذلك؟ اسمي مارك فاسيلفيتش"

في اللحظة التالية كان يذرع أرض الغرفة الصغيرة القذرة ذهاباً وإياباً ويلوح بذراعيه كما لو أنه نسي ثماماً وجود ماتفي، وقال: "الغابات هناك جميلة بشكل عجيب والأنهار عريضة وسريعة الجريان والقطعان كبيرة وخاملة والناس -حسناً، الناس محافظون أكثر من هنا وهذا سيء من جهة وجيد من أخرى، هذا يعني أنهم يعرفون قيمة أنفسهم"

كان يرتدي رداء بحزام من مادة رمادية مع جيب ملصق على الصدر. ساقا سرواله البالي دفعتا داخل حذائه غير الملصق، ثيابه كلها لم تكن متناسبة مع وجهه العريض وأنفه الأنفوس الذي تغطيه لحية على الموضة الروسية وصلت من عينيه إلى كتفيه. رقبته كلها كتلة من الشعر حتى أنه نما على أذنيه وخرج منهما لكن رأسه كان أصلع ما عدا خصلات رمادية قليلة على صدغيه تدلت للأسفل والخلف. ساقاه مقوستان وكرشه بارز للأمام، ذراعه قصيرتان وفي حركة دائمة إما تتحسسان بأصابعه نسيج الثياب التي ينسلها من سرواله أو ترسمان نماذج في الهواء.

رغم أنه قبيح الشكل إلا أن فيه شيئاً جذاباً بل وحتى رسولي في وجهه حين كان ماتفي يتفحصه عن قرب، جبينه محدد بخطوط حمراء مثل خربشات، حجمته الكبيرة الناعمة في أعلاها والخشنة من الخلف وعلى الجانبين، تعطي المرء انطباعاً بأنه أمام رجل ذو تصميم عنيد، لكن الوهج النشيط والناعم لعينيه الصغيرتين لم يكن يتوافق مع العناد.

كان وجه مارك فاسيليفتش متغيراً مثل يوم خريفى: مرة مثل عجوز رزين وأخرى مثل شاب فرح ويظل وميض عينيه يبدل شخصيته.

ذرع أرض الغرفة ذهاباً وإياباً وهو يدخل إصبعه في لحيته وشاربه بشكل دائم، يمد خطواته على ساقيه المقوستين بتأقّل الديك الرومى، ومشيته الرصينة لم تكن متزامنة مع حركة ذراعيه ورأسه وحركة ملامح وجهه النشطة. كان فيه شيئاً هزلياً، رؤيته تستجر الابتسامة لكن كلامه الواضح والمحكم يفرض الانتباه ويخلق تأثيراً عميقاً.

جلست زوجة القس الباهتة صغيرة الحجم بجانب النافذة تصغي بعد أن دفعت نظارها للأعلى على جبينها لتترك يديها وحياتها تسقط في حضنها، وكانت تقول كلمة أو اثنتين بين الفينة والأخرى. أما من الطرف الآخر ظل القس الأشعث يقفز ويندفع هنا وهناك في الغرفة ويصطدم بالمقاعد ويسقط على الأريكة كالبائس الحامل رأسه بيده.

"لكن انظر يا عم مارك -"

وكان العم مارك يقول له بصوته الجهير المنبلد:

"توقف عن النط هنا وهناك، هي لم تصبح واحدة من مخطاتك. ما أقوله هو يجب عليك أن تنزع السلاسل عن الناس كلهم، مرة وإلى الأبد. لكنك تريد أن تستبدل مجموعة من السلاسل بمجموعة أخرى"

"لكن تلك الحرية خاصتك مستحيلة ولا يمكن تحقيقها!"

"ماذا لديك أنت وأمثالك لتقوله للإنسان؟ لا شيء سوى: أنت إنسان سيء، سيء بسبب كذا وكذا، أنت غارق في وحل الخطيئة وأصبحت كالبيهمة. والإنسان بصدقكم، لأنكم تنكرون الطيبة الأصلية فيه بالأقوال والأفعال. تفعلون كل شيء لتسرقوا منه كل أمل وتقنعونه بقوة الشر التي

لا تقاوم. أنتم تستأصلون إيمانه بنفسه من الجذور وتجتثون القدرة الإبداعية لإرادته الخاصة به وتقصون أجنحته وتجعلونه يغرق في الوحل أكثر فأكثر"

"ما الذي تقوله؟" صاح القس وهو ينط للأعلى ويخبط قدميه على الأرض مثل ولد غاضب.

أتى من الزاوية صوت رزين:

"ساشا"

يهز القس رأسه للأمام والخلف ويسقط جالساً على الأريكة؛ ويتكلم الرجل بصوت عميق وثابت مرة أخرى:

"كفوا عن القول للإنسان إن كل ما يفعله سيء وإن الحياة نفسها سيئة ولا يمكن أن تتحسن أبداً. قولوا له العكس، بأنه يستطيع أن يصبح أفضل لأنه مصدر الأشياء كلها، الجذر الذي تنبع منه الأفعال كلها".

"هل تجد هذا مشوقاً؟" سمع ماتفى شخصاً يهمس في أذنه - جفل ورفع رأسه وقابل العينين الرماديتين الضيقتين لزوجة القس التي انحنت فوقه.

سحب يده عبر جبينه بصعوبة وأخذ نفساً عميقاً وقال:

"نعم، في الواقع! هو ما احتاج إليه بالضبط. لكن أجد صعوبة في متابعته كلامه وفهمه.

"من هو محق برأيك" سألت وهي تبسم وتضع نظارتها على عينيها مرة أخرى.

"عمك،" قال في حسم كأن مفاجئاً حتى له.

اعتدلت زوجة القس في وقفنها.

"هل سمعت ذلك يا ساشا؟" قالت.

وقف عمها في وسط الغرفة يدخن ويصهل وهو ينظر إلى كوجياماكين.
"طبعاً أنا على صواب!" قال غامزاً. "كل شخص يعيش طويلاً بما يكفي ليكون لديه بعض الفضة القليلة على صدغيه، يوافقني لأنه رأى شيئاً من الحياة. بالنسبة إلى الوعاظ، إنهم لا يعرفون حقائق الحياة ووقائعها أو يأخذونها في حسابهم"

"لكنك أنت نفسك واعظ ومتعصب في ذلك" هتف القس قائلاً.
لوح العم مارك بيده مقللاً من قيمة الأمر، وجلس بجانب كوجياماكين وقال:

"ماتفي سافيليفيتش، أنا بحاجة إلى غرفة من نوع ما. أنا أبحث عن واحدة منذ أسبوع لكن بلا جدوى"
"لا أعتقد أنه ينبغي...." قال القس متلعثماً.

نهض كوجياماكين وانحنى وقال ببعض الذعر والقلق:
"اسمح لي أن أقدم لك واحدة. لدي الكثير من الغرف، بيت فسيح أعيش فيه لوحدى"

أراد أن يعيش هذا الرجل بجانبه، أراد أن يراه ويصغي إليه كل يوم. أدرك أن نعمة صوته خائنه وأنه كان يلتبس هذه الخدمة مثل متسول وكان ذلك غباء وعدم جدارة منه، لكنه خاف أن يرفض طلبه، لذلك دلى رأسه وبدأ يتمتم بشكل يشبه الهمس.

قالت زوجة القس في نغمة قاسية وجافة:
"من الضروري أن تعرف يا ماتفي سافيليفيتش أن عمي عاد لتوه من سيبيريا التي نفي إليها لأسباب سياسية"

جلس كوجيمايكن وابتسم بسعادة وقال:

"أعرف"

"مسبقاً؟"

"خمنت ذلك، عرفت من خلال ما قاله.

"أوه هكذا إذاً" قالت زوجة القس بلطف وتبادل القس والعم مارك النظر وابتسما.

"حسناً، أيها القس؟" قال العم بنظرة ذات مغزى.

أخذ القس ذراعه، فركها وقال:

"هذا طبيعي فقط. أنا مغرم بك للغاية يا عماء ويزداد ولعي بك يوماً"

شعر كوجيمايكن بالارتياح على الفور.

"في السنة الماضية سكنت سيدة معينة معي. اسمها يفجينيا بتروفنا منصوروفا"

"لا تقل؟ منصوروفا!" صاح العم مارك. "أنا عرفها. هل تتذكران أنا؟ سيسوييفا؟ هي بعينها! حسناً حسناً! لقد رأيتها منذ شهرين فقط!"

حدق بكوجيمايكن متعمداً، أمسك بلحيته وأطلق غيمة من دخان تبغ.

"بلدتك كانت صفقة لها"

"صفعة؟ ماذا تقصد؟" سأل ماتفي بصوت ناعم.

"صفعة على الرأس. كانت تحلم بحياة بطولية، بإنجاز أفعال عظيمة لكنها نصر وكما يفعل آخرون كثيرون، - في الحقيقة هي تصبح من أسطح البيوت حتى إن هذا الزمن ليس زمن الأعمال البطولية وأن الناس يجب أن يعتادوا على الحياة البسيطة، ويذهبوا ويبدروا البذور في بلدات صغيرة كهذه"

"هل هي تريد العودة إلى هنا؟" سأل ماتفي بشرارة أمل ضعيفة.

"هنا؟ كلا، لن تعود إلى هذا المكان أبداً"

التفت العم مارك بعينيه المتوهجتين وهز رأسه الأصلع.

"كلا، هي لن تعود إلى هنا أبداً" كرر القول. "بالنسبة إلى زرع البذور

في أرض قاحلة، تلك كلمات واهنة. كل شخص في روسيا يا عزيزي يريد أن يتال أكبر قدر من المتعة بأقل قدر من العمل والكد. تلك صفة ورثناها من الشرق. الرغبة في المتعة بدون صرف أي جهد. إنها رغبة تدميرية. مع ذلك قسك هنا، يناصر ويحارب...."

"عمي!" توسلته المرأة بلطف.

بدأ العم مارك بذرع الغرفة ذهاباً وإياباً.

"لن تأتي بشيء جيد حتى نتعلم أن نجد المتعة في العمل" قال برزانة.

"لا تبني أية حياة على المتعة فقط، لأن الحياة في جوهرها- نشاط ومع ذلك نشكك في قيمة النشاط وفضله. ذلك غباء أو بالأحرى بهيمي. لأننا ورثنا ثمار عمل أجدادنا الذين عانوا طويلاً، نحن نعيش على دمهم وعظامهم، نستمتع بكل الخير الذي خلقوه دون أن نفعل شيئاً لمضاعفة هذا الخير لأنفسنا أو لذريتنا، وأنا مقتنع وسأظل بأن ذلك لا يمكن ربطه إلا بسلوك خنازير تلتهم بنهم جوز البلوط الملقى على الأرض تحت شجرة سنديان.

رفع سرواله بعنف. خرجت إحدى ساقي سرواله من الحذاء، وحين

انحنى للأسفل لكي يعيدها إلى الحذاء بدا لكل العالم نيس نطاح.

"الرجل الكسول هو أكبر كذاب ومنافق على وجه الأرض وليس هناك

شيء قاطع ببرر كسله. لقد خلقت الحياة لنا لكن إكمالها وترقيتها يتوقف

علينا وهؤلاء الذين لا يرغبون في العمل ملزمون باللجوء إلى المجادلة بأن الحياة كلها والجهد لا معنى لها"
اعتدل وقد تنفخ وجهه واحمر.

"يستغلونها ثم يستهترون بها بعد ذلك؟ يا للحقارة!"

إذاً هو يعرف يفجنيًا! فكر كوجييايكين بسعادة. شيء غريب أن تسمعه يقول هكذا أشياء حادة في صوت هادئ وعميق بدون صراخ هائج، لكن الأفكار حول يفجنيًا منته من متابعته والانتباه إليه.
هي لن ترجع أبداً، كرر قائلاً لنفسه.

حتى اللحظة بقي الأمل في رؤيتها مرة أخرى حياً فيه، لكن الآن مات الأمل وعذبه هذا.

أشعلت زوجة القس المصباح. قفز ماتفي سافيليفيتش، نظر بالدخان الذي ملأ الغرفة، انحنى للرجل المعجوز، الذي بدأ يطفو في الضباب الرمادي واستأذن في ارتباك سريع:

"اعذروني على مكوثي الطويل جداً، لم ألاحظ الوقت"

ودعه ثلاثتهم إلى الباب وقالوا أشياء ودية معنادة وبسيطة أخذت معنى حقيقياً. انبثق في الشارع كأنه خرج من حمام، شعر بأنه نظيف جداً ومنتعش ونشط، ثم مشى إلى البيت ببطء، خائفاً من إراقة أي من الإحسان الذي تملك قلبه في ذلك البيت المتواضع. لكن في القاع كانت هناك بقايا مرة وثقيلة: هي لن تعود أبداً.

بعد يومين انتقل العم مارك إلى بيت كوجييايكين. جاء في الصباح وعلى الفور غرقت غرف البيت بهواء الربيع العنيف كأن نوافذ البيت فتحت على مصارعها. حين قدم العم مارك إلى شاكر، وقف لحظة يتفحص وجه التري

الرمادي وشاربه الرمادي المشذب القصير ولحيته، ثم خاطبه فجأة بلسان
تتري. ارتعب شاكر تقريباً، رفع حاجبيه وفتح فمه كأنها يلهث من أجل
الهواء كاشفاً عن جذول سود لأسنانه المخربة وانفجر في ضحك فرح حاد.
"التتريون أناس رائعون" قال العم مارك لكوجيايكيين. "عقولهم لا
تعمل بسرعة، لكنهم صادقون وأمينون. سنرى منهم ما يستطيعون فعله
أيضاً. انتظر فقط"

ثم بدأ يحكي لشاكر باللغة الروسية عن ظهور رسل دين جديد في بلاد
الفرس وأسماؤهم باب ويحيى وبهاء الله وكتاب مقدس باسم آيكان الذي
كتب وقيل فيه: ليفتخر الإنسان في حبه للسلالة البشرية^(١٧)

كان شاكر يسأله بتلهف بمزيج من اللغتين التترية والروسية. مكسيم
الذي كان في الزاوية يفك الحبل عن صندوق أمتعته الجلدي الكبير المستأجر
قذف برأسه للخلف وقال:

"من الطبيعي للتتريين واليهود ويفترض بهم أن يحبوا الجميع فهم
يعيشون وسط غرباء"

"لا تستعجل كثيراً في قول رأيك" وبخه كوجيايكيين قائلاً.

"وما رأيك بنا نحن الروس؟" قال العم مارك وهو ينقر لحيته بإصبعه.

"نحن، نحن نعيش في بلادنا" قال مكسيم وهو يشد الحبل.

"إنه صفيق" قال شاكر. "إنه لا يزال صغيراً"

في هذه اللحظة صر مكسيم كتفيه ونظر إلى الجميع بالتالي ونحطاً في
الغرفة والحبل في يديه وقال وهو ذاهب:

"أن تكون صغيراً ليس خطيئة ولا غباء أيضاً"

"رفيق حساس" قال العم مارك وهو يضحك.

"هو صغير وغبي فعلاً" قال ماتفي معتذراً: "لا تكثر به أبداً"

وضع العم مارك يده على كتف ماتفي.

"هناك مثل عربي يقول: غباوة الشباب غير الفاسد تهذب وتثقف أكثر من حكمة الشيوخ السيئة"

وقام باستعلام عن مكسيم الذي كان ينقل الثياب والكتب ورزم الورق من الصندوق.

إنه يعاملني كطفل، فكر كوجيا بكيين بطيبة قلب.

في اليوم الأول الذي أمضاه هناك قام بعدة دعابات على حساب مكسيم. وفي مساء ذلك اليوم ركع أمام صندوق الشاب المفتوح في المطبخ واطلع على الكتب، ثم رماها على الأرض بلا اكتراث وقال:

"هذا هراء- وكذلك هذا وهذا-"

وقف مكسيم خلفه ويده خلف ظهره، وارتسمت ابتسامة مشوهة على وجهه تعبيراً عن الكره. لم يعد يحتمل أكثر من ذلك وقال ساخراً:

"أظنك قرأتها كلها، أليس كذلك؟"

مد العم مارك يداً مليئة بالكتب الملقاة إليه وقال:

"اختر أي واحد منها وسأخبرك عن كل ما فيه"

أطلق مكسيم حسرة وقال:

"لا يستطيع أحد مضايقتي"

"ولم لا؟ هل أنت خائف، سوف أريك؟"

"لا شيء من هذا النوع"

"وكأنني لا أعرف! لكن أستطيع أن أعطيك كتباً أفضل من هذه"

ركع مكسيم بجانبه وقال:

"هل ستفعل ذلك حقيقة؟" سأل مشككاً.

"سأفعل"

"عن ماذا تتحدث كتبك؟"

"عن كل شيء، عن الحياة والناس..."

"أعرف ما يكفي عن الناس بدون كتب" قال الصبي بحسرة أخرى.

سهل العم مارك، ثم جلس على الأرض، وشبك يديه حول ركبتيه وقال:

"هل تعرف؟"

"بالتأكيد. ذلك ليس صعباً"

"حسناً إذاً يا بني تلتطف وتكرم وقل لي ماذا تعرف عن الناس" كانت نعمة المعجوز وقورة، لكن شاكر انفجر بالضحك وكان كوجيمايكن مستمتعاً أيضاً.

"الضحك سهل" قال مكسيم وهو ينهض ويعبس بغضب. التقط قبعته وقذفها على رأسه وخرج.

"لا يحتاج الضحك إلى الكثير من الذكاء" قال.

نهض العم مارك بروية وتمطط وقال:

"ما رأيكم ببعض الشاي؟"

ليت الرب ينعم بالسلام على روحه، تتم كوجيمايكن وهو يرسم علامة الصليب على نفسه ثم أخذ دفتره وتاهت نفسه في ذكرياتها.

العم مارك يعامل كل من يلقاه وكأنه يعرفه طوال حياته، ينظر بالعين مباشرة وكأنه يقول:

"لا تخف مني يا صديقي. لقد عرفت أناساً أكثر أسوأ منك. قل لي ما الذي يقلبك؟"

وكانوا يخبرونه كلهم وخصوصاً مكسيم. فقد قال الصبي مرة:
"أنا لا أثق بالناس. ليس فيهم واحد يقول الحقيقة، حتى عطفهم ولطفهم خداع ومكر. لا أريد أن تكون لي أية علاقة معهم"
ضحك العم مارك فقط.

"لا تريد أن تكون لك أية علاقة معهم أليس كذلك؟ لا تتسرع بهذا الشكل في البدء بالصباح، أنت لا تزال مجرد ديك صغير"
شعر مكسيم بالاهانة، لكن وقاحته بدت تخبو مثل قماش فطني رخيص في الشمس ولم يعد صفيقاً جداً كما اعتاد.
ليلة أمس حكى العم مارك لشاكر عن كتاب تنري قرأه وسجل منه بعض الأقوال المأثورة:

"تمسك بقوانين الرب بأيدي قوية وقادرة وادم قوانين الجهل"
"قريباً سيختفي كل شيء ولن نظل سوى الأوهام الخيرة"
قاطع مكسيم القراءة وأصر بأن الوعاظ الروس أكثر حكمة من أندادهم التتريين، لكن العم مارك أطفأ نار حماسه بقوله:
"ألم نقل في آخر مرة إنك لا تؤمن بالشياطين؟"
"لا أؤمن"

"قال الكاتب الروسي البارز سيرافيم سفياتوغريتش^(١٨) إننا لو أنكرنا وجود الشيطان فيجب علينا أن ننكر الروح القدس والأسفار المقدسة والكنيسة نفسها. وبسبب هذا التفكير الحر تلقى خطبة اناثيا الحرم الكنسي في أول يوم أحد من الصوم الكبير. ما هو رأيك بذلك المارق الكبير؟"

جفل الصبي وقال بوقاحة:

"إنه الشخص الوحيد الذي قال مثل هذا الشيء كما يفترض"
لكن العم مارك وعده بدزينة من الكتب تتحدث عن الشيء ذاته.
"أعطني ذلك اليرافيم لكي أقرأه" قال مكسيم.

ضحك الرجل المعجوز وقال:

"لماذا؟ ألا تصدقني؟"

"لا أصدقه هو" قال مكسيم مستاء.

لكنه لم يهرب هذه المرة، وكان شاكر، الشيطان الكبير، سعيداً جداً لذلك
أشرق كله وكافأ الرجل المعجوز بنظرة طويلة غامرة وعطوفة أكثر من تلك
التي خلعها على يفجينيا. رجل راجح العقل وطيب القلب، عظيم جداً
وجميل ويمكن تشبيهه بشمس الربيع بلا مبالغة.

مرت الأيام بسرعة مذهلة وكأنها تطير، وترك كل واحد ذكرى طيبة عن
نفسه. شيء لم أكن قادراً على قوله قبل وهلة قصيرة.

جاءني موظف من قيادة الشرطة وأخذني جانباً وأنبني لأنني أجرت
شخصية متهمة أخرى في بيتي.

"لكنه يجب أن يسكن في مكان ما" قلت.

استجوبني حول الرجل المعجوز وأقواله وأفعاله، لكنني طمأنته
وأعطيته ثلاث روبلات وودعته إلى البوابة حتى إني لم أستطع منع نفسي من
أن أقول له:

"من الأفضل لكم يا رجال الأمن أن تراقبوا ما تفعلونه أنتم وخصوصاً
في يوم البازار. عيونكم على الناس الشرفاء والنظيفين ولكن أنوفكم مملوءة
بالمخاط دائماً والمثال الجيد أنت!"

لن أخبر العم مارك عن تلك الزيارة التي جعلتني أخجل من أهل بلدي. مرة وحيدة وغير متوقعة يظهر هنا رجل محترم لتتقلب معدهم من مظهره فقط.

يوم أمس سمعت العم مارك يسأل العمال عن الأغاني الشعبية والأمثال، وقال لي في وقت لاحق من ذلك اليوم ونحن نشرب الشاي:

"القول المأثور شيء عظيم، حكمة الناس مختلطة فيه كالزبدة، فمثلاً الكابتن ذو الكرش في الحرب يصبح بلا كرش في السلام. أو هذا: من يصنع المدن الرؤوس وليس البيوت. لقد ابتدعت الأقوال المأثورة حين كان الناس يقدرّون قيمة العمل. لقد تبدلت الأزمان وقال الناس: حلت المراهقة ومحفظه النقود مكان العقل. البلدة-المدينة مكان جيد للاختباء. لاحظ أن هذه الأقوال مبتدعة من قبل نوعين مختلفين من الناس. النوع الأول شجاع وحاذق والنوع الآخر ذكي لكنه جبان وفيه القيل من وقتنا الحالي"

يبدو أنه يعرف المئات من الأقوال المأثورة. أعتقد لو أن المرء نغمس بكل كلمة ينطق بها هذا الرجل لأصبح يفهم كل شيء، لكن أباشر بفهم مفتوح وأخلق بقمم أعلى رؤوس الناس وهذا ما جعلني أبدو أبله.

كان العم مارك منفياً في سيبيريا حاله حال يفجينا، وكان رئيس كلية الرهبان الدينية قبل نفيه حيث ألقي القبض عليه بسبب قراءة كتب ممنوعة. كانت حياته معقدة جداً. لا يمكنني إحصاء عدد المرات التي سجن فيها وأخجل من سؤاله عن ذلك. هو لا يحب التحدث عن نفسه ويفعل ذلك بطريقة متردة وساخرة جداً دائماً وفي سخرية شيء لم أحبه، إنه يحزنني. قلقه ناتج عن حبسه الطويل جداً كما أعتقد، فهو لا يستطيع الجلوس ساكناً لمدة خمس دقائق في المرة الواحدة. لديه عادات مضحكة فمثلاً كان يمسك

بأطراف لحيته التي فوق فمه وينفث غيمة من دخان التبغ فيها ويشمها وهذه تشعره بمتعة عظيمة كما يبدو، وكان يحك رأسه بنفس البقعة فوق الأذن اليسرى بإصبع يده اليمنى الصغير، ويظل يرفع سرواله مثل صبي يستعد لدخول لعبة ما.

إنه يعرف كل شيء. مرضت النجمة البيضاء وهي واحدة من خيولنا فتعهد بملاجها، وفي غضون أربعة أيام شفيت. أهذه أنت؟ مد لسانه ساخرًا لها. طائر غريب. عرفت النجمة البيضاء أنه يجبها لهذا كان يكشف عن أسنانه فيما يبدو أنها تكشيرة ويتابع اللعب معها.

أية متعة كبيرة حين تكون على مقربة من إنسان طيب! حتى البهائم تفهم وتحب الإنسان الطيب. ورغم ذلك أرسلنا مثل هذا الإنسان إلى سيبيريا ووضعناه في السجن. من يقدر أن يفهم هذا؟ هذا غير مفهوم. نحن نرمي الناس ونتخلص منهم مثلما يرمي المتسول قطعة نقدية ذهبية بالخطأ، لأنه لم ير الذهب قط ولا يعرف قيمته.

أخبرنا العم مارك اليوم عما كتبه الأجانب عنا، نحن الروس في العصور القديمة. قال أحد ملوك الإغريق: "يحرص السلافيون شرفهم وحريتهم بغيرة شديدة لدرجة ليس هناك سلطة على الأرض تستطيع تركيعهم. كان العرب مدهنين جداً والنرويجيون كذلك وآخرون غيرهم إذ قالوا كلهم إن السلاف أذكاء وكادحون وجريثون. لكن هذه الصفات اختفت لاحقاً وبدأ الناس يتغيرون. قال الملك الألماني فريدريك إنهم عرق من الأغبياء والسكران والشكاكين. كتب أحد الشعراء الأجانب: اعتاد الناس على حالة من التذلل والخنوع لمن يؤذيهم ويضرهم بطريقة حقيرة غير إنسانية. وكتب سفير آخر: ليس عند الروس احترام لذواتهم. وكتب آخر: يستطيع

الذين في السلطة أن يفعلوا ما يشاؤون بهم، إنهم لا يفقهون شيئاً ولا يهتمون بشيء، إنهم مدمنون على السكر وكسولون ويعيشون كما لو أنهم في حلم. نسخت سبعة عشر رأياً مدهناً من العصور اللاحقة بحزن وامتناع، ولم أعرف لماذا قمت بذلك. استغربت جداً من بعض الروس الذين يوافقون هؤلاء الذين أهانونا: تيونوف مثلاً، الأعور أليكسي وحتى مكسيم. العم مارك طيب جداً تجاه مكسيم ويعامله كما لو كان ابنه تقريباً، لكنني أخشى أنه يزرع بذوراً في تربة صخرية.

بعد هذا الحديث شربنا أنا والعم مارك بعض الخمر والبيرة المنزلية وثلثنا قليلاً، أنشد بعض الأغاني الروسية القديمة بصوت جهير. ومرة أخرى بدا وكأن صنفين مختلفين من الناس كتبوا الأغاني: الصنف الأول مرح وعاشق للحرية والصنف الآخر كئيب وكسول. بكى العم مارك وأنا كذلك، لقد بكيت كثيراً ولم أخجل من ذلك أبداً.

كان مكسيم يقرأ كتب العم مارك في الليل والنهار، ففقد قسماً من وزنه وأهمل عمله. يوم أمس نسي إغلاق منظم المدفأة فأضينا أنا والعم مارك الليل ونحن نرنعش من البرد. لكن ما أهمية ذلك طالما أنه يتعلم ما هو الصحيح. أما أنا فلم تكن لدي القدرة على القراءة. كنت أصغي، أصغي جداً وكثيراً، وهذا أعطاني شعوراً جيداً، لكنني لم أستطع استيعاب كل ما أسمع. أخشى أن الوقت بات متأخراً عليك لتشرب الحكمة يا ماتفى.

الشيء المهم، قال اليوم منذ ساعة واحدة، إن هناك الكثير جداً من المخلوقات الفقيرة المسحوقة على هذه الأرض بالإضافة إلى الكثير من المخلوقات الغبية والشريرة أيضاً التي طالما هي موجودة، تستطيع أن ترهق ذهنك وقواك العقلية وتكذب وتخدع نفسك بقدر ما تحب، لكنك لن تجعل

الحياة تستحق العيش لأي أحد أبداً. محاصر بكل هذه المعاناة القاسية، الشكل الوحيد الممكن هو حياة لصر، مبنية على الأكاذيب أو حياة بهيمة تكشر عن أنيابها وتلقي نظرات مختلطة حولها؛ بدلاً من تكريس وقتنا لتطوير حب العقل والخير والجمال، نمضيه في حماية أنفسنا والدفاع ضد الجائعين والمحرومين. حيث عليك الاستمرار في مراقبتهم بعين يقظة والقول لهم برباء: اقبلوا بعوزكم وقذارتكم باستسلام خانع لأنه ليس هناك مخرج؛ لكنهم يتوقفون عن تصديقنا بالتدريج ويقولون: لكن يبدو أنكم وجدتم مخرجاً. ونرد عليهم: ماذا يعني ذلك؟ كل البشر فانون ومملكة الرب ليست في هذا العالم. لكن شكوكهم لا تهدأ. حتى الآن هم يتكتمون بها لأنفسهم لكن سيأتي اليوم الذي ينطقون بها على المكشوف ثم تكون أيام شريرة علينا بعد ذلك.

أضاءت هذه الكلمات حياتي كلها وصدمتني ببساطتها الشديدة، انفتح قلبي الذي أذبله الحنين على مصراعيه له، وبدأت أحكي له عن نفسي. "قريباً سنكتمل أربعون سنة على ولادتي في هذا العالم ولم أقابل رجلاً سعيداً واحداً. مرّ وقت كنت ألوم فيه الناس، لكنني تعودت الآن على ذلك مع السنين وبت أشعر بالأسى والحزن عليهم" قلت. "أنت تشفق على الناس الطيبين لأنهم يعانون وعلى الناس السيئين لأنهم سيئون فقط، أليس كذلك؟"

لديه البراعة في إيجاد الكلمة الصحيحة للشيء دائماً. "لكن الشفقة نوع خداع من الشعور، بمجرد أن يبدي الإنسان الشفقة يتخيل أنه فعل كل ما يستطيعه أو يتوجب عليه، يصبح راضياً بعد إظهاره للشفقة ويبقى كل شيء كما كان عليه. إنها شعور مميت، الشفقة لا يستحقها سوى الأموات، أما الإحياء فتؤذيهم وتضرهم" قال.

طوال اليوم، من الصباح الباكر حتى ساعة متأخرة في الليل، يسمع في بيتي الهادئ دوي صوت جهوري عميق ويرى رأس أصلع هنا وغيمة تبغ معطر نحوم في الجو وجدول من الكلمات الجيدة المشرقة ينساب من بين زوج شفاه لم تعد شابة.

أنا متأثر بعمق. عند الذهاب للنوم أشكر الرب والأب على جمال هذا الرجل الذي خلقه.

مكسيم، الشيطان الأحمر، سبب شجاراً كبيراً، لذلك أخشى أن يجد نفسه حبساً في السجن. فقد أعطى واحداً من كتب العم مارك لفاسيا سافيليف ابن يفيم صاحب الخان، وجده يفيم ورماء في الموقد ثم عاقب ابنه بالضرب ولا يزال الأخير في السرير جراء ذلك. ذهب مكسيم إلى الخان يوم أمس وشد يفيم من شعره. هذا الصبي لا يستطيع القتال كما ينبغي حتى؛ من سمع قط بجر رجل ناضج من أذنيه؟ ادفعه، اضربه لكن لا تشده من أذنيه! إنه لم يفعل ولو شيئاً واحداً كما يفعله أي شخص آخر ودائماً يتفاخر. أتى يفيم إلى هنا وأذناه معصوبتان وفي أعقابه رجال الأمن، وكان هناك الكثير من الضجيج والشتم. ارتعش يفيم من رأسه حتى قدميه وصاح بأعلى صوته:

"ماسونيون؛ مارقون!"

وقف مكسيم الذي ازرق من الغيظ أو ربا من الخوف فقط ولم يفعل شيئاً.

"يمكنك البحث عن سيد آخر" قلت.

ظل ساكناً، ولم يقل شيئاً كأن فمه سد بحبة بطاطا.

لسبب ما فقد شاكر أعصابه وابيض وجهه وومضت عيناه وصاح:

"لماذا رميت الكتاب في الموقد؟ الكتب مقدسة، الرب أعطى الكتب؛ كيف تجرؤ وتحرق الكتب؟ أنت من يجب عليه أن يذهب إلى السجن بسبب ذلك"

بدا يفهم مصدوماً بهذا وبات أكثر هدوءاً، التنري محترم جداً من أهل البلدة كلهم لأمانته لكن لا أحد يستطيع فهمه. رغم هذا كتبوا كل شيء وجروا مكسيم إلى مركز قيادة الشرطة حيث استجوبوه، والآن يتنقل هنا وهناك ويبدو أكثر سواداً من الليل. هم سيعتقلونه بالتأكيد.

أوضح له العم مارك أنه من الخطأ أو العقم ضرب رجل لترويعه فقط دون أن تعلمه شيئاً. في البداية أصغى مكسيم إليه وعيناه مسمرتان بوجهه مثل علقتين ثم صعد اللون إلى وجنتيه وظهر وميض أفسى في عينيه ونتم قائلاً: "إنه بهيمة وسأظل أقاتل أمثاله دائماً" كلما يهزم في جدال يتنعد ماشياً ورأسه الأحمر مقذوف للوراء وأسنانه مصكوكة، وهذا ما فعله هذه المرة.

نفث العم مارك خلفه غيمة من الدخان وقال:

"إنه صبي قلق. سيكون الأمر صعباً على هؤلاء الذين سيكون لهم علاقات معه"

تابع قائلاً إن الروس ليس لديهم إحساس بالتناسب، هم لا يعرفون كيف يستخدمون السلطة باعتدال، إن وصل أحد عانى من الظلم إلى السلطة فإنه متأكد بأنه سيظلم الآخرين ويصبح طاغية. تحدث عن إيفان الكبير وافيكيوم واراكشيف وغيرهم من الذين اشتهروا في قسوتهم ووحشيتهم. كانوا يعذبون الناس والدموع تسيل على وجناتهم.

"ربما عذبوهم لأنهم يملكون لطفة عنيفة لفعل الخير، ربما بكوا لأنهم لم يعرفوا ما هو الخير أو كيف الشروع في فعله"

"تلك عادة ممتازة منه. دائماً يبرز الجيد الذي يمكن أن يكمن وراء السيئ ويبين أن الشيء الذي يسبب المشكلة الأكبر هو الغباء الشديد للكائنات البشرية"

تكلم مطولاً وبلطف عن افاكوم، لكنني لم أحب رئيس الأساقفة هذا من قلبي. لقد كان متعصباً بشكل وحشي في الأشياء التي يهتم الناس بها وكان غتلاً ومغروراً في علاقته بالرب. قال "رأى الرب من المناسب أن يسكن السماء والأرض وكل مخلوقاته في داخلي. هناك غرور من أجلك!"

قلت الكثير للعم مارك الذي نظر إلي بوقار وقال:

"هناك بعض الحقيقة فيما تقول، أعترف. لقد فعل القس المجنون الكثير الذي أحدث خرابنا وعانى الشعب ضرراً كبيراً بسبب جهله وأخطائه ودفع إلى ركن مظلم ظل فيه منكمشاً لثلاثة قرون من الزمن يداري أخطاءه ولم يدركوا أي شيء غيرها"

كانت ملاحظات يفجنيها طفولية مقارنة بملاحظاته، عقله يمتد لبصل إلى الأعماق السحيقة للروح الإنسانية. ولهذا السبب كما أعتقد تبدو عينيه حزينتين ومحبتين حين يقول أشياء قاسية كعيني أب. الغريب أنه لم يزر القس وكذلك القس بدوره لم يأت لزيارته سوى مرتين وكانتا يوم الأحد بعد صلاة المساء. جلسا هو والعم مارك حتى الصباح تقريباً يتحدثان عن العقل والروح والرب. شعرت أن القس لم يكن راضياً عن الرب وخائفاً منه لكن العم مارك تكلم بلا خوف وقال:

"انظر إلى الرب كمعقل للعالم لم يجد بعد تعبيراً مناسباً فينا نحن الكائنات البشرية الناقصة. ذلك يجعل كل شيء أكثر بساطة ومهابة"

كانت أقوال القس أكاديمية وكتيبة ولم أفهمها لصعوبتها، تنقل وهو يطوح بذراعيه منفعلًا وغير مرتب، يومي كما لو أنه كان يشير إلى شيء ويندفع لآخر. ورأيت العم مارك ينكمش بمجرد رؤيته بنعومة وحزم وقال:

"لا تتورط كثيراً، ليكون تفكيرك أبسط"

كان جدالهما حاداً، لكن العم مارك يفوز على القس دائماً الذي كان يهدر ويدخن وينط ثم يسقط في تفكير حالم. ومرة ففز للأعلى وأمسك العم مارك من كتفه وقال:

"أنت صنف طيب وذكي جداً وكريم!"

أوقفه العم مارك "لا تكن كريماً في مديحك. هل تتذكر ما قاله الأسقف سينيسيوس عن المديح؟^(١١) المديح ليس رياء لكنه مضر ومثل السم المخلوط بالعسل يقدم للمحكوم عليهم بالموت"

أحببت هذا لكنني لم أفهم مسألة السم، لهذا روى لي قصة الفيلسوف سقراط الذي سمه شعبه لأنه أنكر وجود الرب. يا لأهمية المعرفة! إن كل شيء حدث في الماضي مشوق ويعلمك شيئاً وها أنا مثل خلد انقطع عن ضوء النهار.

في المناسبتين الاثنتين اللتين جاء بهما القس كانت تلحق به زوجته وكانت تجلس في الزاوية مثل خفير تطوي ذراعيها فوق صدرها المسطح دون أن تنفوه بشيء وتنهض من وقت لآخر وتذهب إلى النافذة بحذر وتلتصص في الظلام. ضحك العم مارك منها وقال لها مرة:

"لا تخافي لن تجدي أحداً هناك"

"الامر ليس مضحكاً" قالت وهي تستدير.

تساءلت عما في ذهنها، لكنني افتقدت الشجاعة للسؤال.

ماتت ماثوشكيئا، زوجة صراف الرواتب وجنازتها اليوم. سارت البلدة كلها تقريباً وراء النعش إلى المقبرة. الغريب جداً تبين أن الكل كان يعرفها رغم أنها عاشت حياة عزلة، وسمعتُ أشياء لطيفة ومتعاطفة كثيرة قيلت عنها في الطريق إلى المقبرة. مشى الصراف خلف التابوت مباشرة محدودب الظهر، وجَرَّ قدميه ودلى رأسه كأنه مستعد للسكين أو الفأس. كان وجهه محمراً وعيناه متفتحتين وبدا مثل دب. مشت ليوبا بجانبه في معطف سنجابي قديم وقبعة من جلد الفقمة وبدت كثيفة للدرجة لم أتحمّل أن تحط عيني عليها، لم تكن تبكي وإنما زمت شفيتها بإحكام وكان وجهها أبيض مثل صفحة من الورق. انحنيت لها ونحن نغادر المقبرة وبدت مسرورة لكن والدها أخذها من ذراعها وزجر بي قائلاً:

"من أنت؟"

"كوجيمايكين. أنا أراك دائماً تقريباً في مكتب الخزينة وأنا تعرفت بابتتك"

"أنت أفسدتها لي" زجر وجرها وراءه وترشرشت بريكات الماء وبدت مثل غصن نحيل نبت من جذع نخين عصفت به الريح. كان منظرأً محزناً. أتساءل ماذا حلّ بها الآن.

أهل بلدتنا يحبون الجنازات، عند موت أقل شخص أهمية تظهر كل البلدة على الفور لتسير وراء التابوت. يبدو أنهم يستمتعون بذلك. أظن أن هذا طبيعي. حتى الجنازة راحة حين تكون الحياة بليدة كحياتنا.

حل شهر آذار للثو وصادف يوم أمس عد القديس اليكسين، ويفترض بالأعاصير أن تندفع بأسفل التلال، لكن كل شيء كان مجمداً، وارتدت السماء سطوع الربيع. تمشينا أنا والعم مارك اليوم في البلدة، وحكى لي عن

الصراعات والصعوبات التي عانى منها الروس، هو يحب الشعب الروسي بعمق ويجعل الآخرين يحبونه أيضاً. مكسيم الشخص المتخلف، أصبح لطيفاً ومهذباً ويتسم طول الوقت كأنه عاشق، فقد أصبح يشرد أكثر مما كان وذلك بسبب الكتب؛ كان يلتهم الكتب مثلما يلتهم المهر العشب في الربيع.

أرى أن العم مارك يفضل علي، فهو يتحدث معه أكثر وبمتعة أكبر. أنمى ألا يصيبه الغرور. يوم أمس قال له العم مارك بابتهاج:

"أجسادنا أرهقت لكن أرواحنا سليمة، رغم أنها لم تخرج إلى النور بعد فهي منكشمة في الأديرة وفي البرية، في الزوايا المظلمة وفي عربة السكر، في الفسق وفي التشرد. لا نزال مراقبين روحياً ولا نزال الحياة واسعة أمامنا وغير مكتشفة. لكن لا نخافوا يا أصدقاء سنخرج إلى الضوء! ستنهض أمانا روسيا على أقدامها رغم كل شيء لو آمانا بها فقط. لأن الأشياء الجيدة كلها تنجز بالإيمان. بمجرد أن يكون لدينا الإيمان نستطيع تحريك الجبال"

لا أستطيع إخراجه من عقلي. يبدو أنه عرف سعادة عظيمة في وقت ما في حياته وجرب بهجة عظيمة وخيفة أشعلت النار التي لا تنطفئ أبداً فيه والتي لا تزال تلقي الضوء على الآخرين إلى هذا اليوم وستظل تلقيه طالما هو حي يرزق.

أحببت ما قاله مكسيم يوم أمس:

"يجب ألا يسخر بعضنا من بعض، يجب أن نأخذ بعضنا بالأيدي وبثقة ونعمل بهدوء جنباً إلى جنب من أجل مجد وطننا الأم. حان الوقت كي نتعلم أن نحب بلادنا روسيا هذه التي عانت طويلاً"

سرني سماع قوله هذا. صحيح نحن نسخر من بعضنا البعض ويهتم كل واحد منا في تحسين ظروفه الخاصة على حساب جاره لهذا يسود العداء

والشفاق في كل مكان. أحياناً، أستلقي على السرير ليلاً وتمتلئ روعي بثورة وأريد أن أخرج مندفعاً وأصبح: أيها الأخوة أشفقوا على روسيتنا، تلك الأرض القديمة التي ولدت من دماء وعظام أجدادنا!

اختفى فاسيا سافيليف، استمروا في البحث عنه لمدة ثلاثة أيام. جاء يفيم الذي لم يتمالك نفسه راكضاً إلى بيتي وهو يرنعش من رأسه حتى قدميه ويزيد فمه: "هيه أنت أيها المارق من فعل هذا به!" صاح قائلاً. "أنت تعرف أين هو بالتأكيد يا مكسيم! تكلم!" ورمى قبعته على الأرض.

اكفهر وجه مكسيم وحملق بغضب يفيم مثل ذئب لكنه لم يفعل شيئاً. ذهب فاسيا عشية اختفائه إلى خياطة تدعى غروشينا، أنا لا أعرفها فذهب يفيم إلى بيتها مسرعاً وشمها وضربها لكن الناس قالوا إنه لا يحق لك ذلك وليس لديك أي مبرر. مكسيم يعرف الخياطة وقال إنها صغيرة ومحتشمة جداً وليست من النوع الذي يسمح بأي انتهاك للأصول حتى لو قبلت أن يزورها فاسيا ومكسيم، وهي على علاقة ودبة مع زوجة القس، وزوجة القس لا تقبل بأن تكون على علاقة معها لو كانت منحلة.

لم يكن العم مارك نفسه في اليومين الأخيرين، كان يمشي ذهاباً وإياباً طوال اليوم وهو يدخن ويصفر. عيناه غائرتان وتتل الآن وبات سمعه ثقيلاً فكان يطلب أن تكرر له أي شيء ويقول إن السبب الطنين الذي في أذنيه. البيت موحش مثل يوم خريف ماطر، الهواء حار رغم السماء الزرقاء والشمس الدافئة. لقد تأخر قدوم الربيع.

جاء العم مارك وقال وهو يتنسم:

"متى يكون شعورك أسوأ؟ في الخريف أم الربيع؟"

"في الشتاء" قلت.

"الربيع يثير الكآبة. حالما تصحو السماء يبدأ شيء ما بشد قوي في قلبي ويتملكني نوح للترحال والانطلاق والمشي في البلدات والقرى وأتابع حتى نهاية العالم"

نظرت إليه لكنني لم أجد ما أقوله. شكرت الرب لأنه لا يستطيع الرجل من هنا إذاً، لأن القانون يلزمه بالبقاء ستين هنا.

جلبت الشمس الدفء فجأة. وفي غضون يومين بدأت الأرض المجلدة بالذوبان. ليلة أمس انكسر الجليد في بوتانيستا ووجد جسد فاسيا تحت الجسر. لقد شوه بصورة سيئة لكن لم يعرف بعد إن كان قد رمى نفسه أم رماه شخص آخر. انب رجال الشرطة يفيم واستجوبوه لكنه كان مفجوعاً وعقله تائه ولم يحصلوا على أي شيء منه. لف مكسيم يديه خلف ظهره ولم يقل شيئاً وكان في حالة انبهار، عيناه مغبشتان وأسنانه مطبقة.

ذهب العم مارك لزيارة القس في ظهر يوم أمس وأمضى الليلة هناك، وربما ينوي البقاء الليلة أيضاً لأن الساعة أوشكت على العاشرة، ولم يعد إلى البيت بعد.

في جنازة فاسيا، رأيت غروشينا، كانت تمشي وذراعها بذراع ليوبا ماتوشيكينا. ليس هناك ما هو غير عادي فيها سوى ثيابها البسيطة جداً والجميلة.

دعاني القس لأذهب معه إلى بيته، وذهبت كل من ليوبا وغروشينا معنا أيضاً. بعد ذلك بقليل عزفت زوجة القس على آلة الهرمانيوم بشكل جميل وبكت ليوبا، ثم ذهبن كلهن إلى الغرفة الأخرى. بدت غروشينا على علاقة حميمة مع زوجة القس وكان القس ينادينا دينا، قد تكون قريبة لهم من نوع ما. حالما ترك القس وحده معي ومع العم مارك بدأ يتحدث عن الرب.

وقف في وسط الغرفة عابس الوجه، رتب نفسه ورفع ذراعه وقذف بشعره الطويل للوراء. كان عمه مقتضباً ولم يصبر عليه.

"أنت تخلع على الرب صفاتنا البشرية وتدمر وحدانيته بنسب العقل والرغبة له" قال القس.

"هراء قديم" زجر العم مارك.

"لكن انتظر! كيف للرب أن يرغب بأي شيء في نفس الوقت الذي هو فيه كل شيء؟ وكيف يستطيع الرب أن يفعل، ولأي غاية يوجه فعله، حين لا يوجد شيء خارجه؟"

"ذلك تفكير شرقي يا ساشا. كفّ عنه. لقد انتهينا من ذلك" قال العم.

"وماذا لو لم أنه أنا منه؟ ماذا لو أنه مازال مشكلة موجعة بالنسبة

إلي؟"

"أنت تتخيل ذلك فقط" قال عمه ثم التفت إلي واقترح أن نذهب إلى البيت. غاص القس في ركن وانكمش في مقعد، من الواضح أنه تأذى لأنه مدّلي يده بدون أي كلمة ولم يفعل أكثر من إيذاء برأسه للعم.

على الطريق إلى البيت سألت العم مارك الذي مازال واجهاً عن المشكلة، فشرح لي على الفور:

"المشكلة أنه يفتقر إلى إيمان بسيط ثابت لهذا يحاول اختراعه، لكنه لا يستطيع ابتداء ما هو غير موجود"

حين وصلنا إلى البوابة أضاف قائلاً:

"الشيء نفسه في كل مكان. نحن منجذبون نحو الشرق للصفاء الشرقي وتبريره للقصور الذاتي. ذلك هو الشيء الوحيد الذي يجعل الفعل جوهري وضروري فقط"

أخبرني العم مارك حين كنا داخل البيت أن القس أخبر كاهن الاعتراف مرة بالشكوك التي تعذبه، ونقل الكاهن الخبر إلى الأسقف، كما اتهم القس قبل هذا بالتفكير الحر فعوقب على ذلك فأرسل إلى كنيسة بلدتنا، وتعيش زوجته الآن في خوف وارتعاش من أن يرسل إلى دير. لهذا كانت تصدر التحذيرات دائماً: ساشا! ساشا!.

أخبرني هذا بنغمة بليدة والقصة نفسها بليدة. يشس القس فاعترف، استمع له كاهن الاعتراف وبلغ عنه. ونتيجة ذلك رمي القس في أو كوروف البائسة مثل نفاية ترمى لكلب.

بعد جنازة فاسيا بيضعة أيام كان العم مارك وكوجيمايكين يجلسان على منضدة خارج البوابة بمجدقان في قبة السماء الصافية والصليب المزين لبرج أجراس الكاتدرائية الذي توهج مثل معدن حار في قلبها.

"كيف لهذا أن يكون؟ لديك نهر بدون سمك" كان العم مارك يقول.

"نعم، وأنا لا أعرف لماذا؟" قال كوجيمايكين وهو يبتسم.

"حسناً، ها أنا أتيت" سمعاً صوتاً يقول بشكل اعتذاري.

"وهذا شيء جيد جداً. تفضلي بالجلوس" قال العم مارك.

نهض كوجيمايكين تقريباً ليرحب بالقادمة الجديدة، وجلس ثانية ممسكاً الأصابع التي لامست يد امرأة ناعمة.

"أنت إذاً لا تريد أن تتقدمي بشكوى ضد المتهم؟" سأل العم مارك وقد حجب نفسه وراء غيمة من الدخان.

"أوه يا عزيزي، كلا" قالت المرأة بنغمة شبيهة بالتوسل. "لقد نال ما يكفي من العقاب"

"صحيح تماماً. المباركون رحماء حتى نحو البهائم"

"هم، لولا هذا ربما لم تسمحى أن يمر هذا الهجوم عليك بلا عقاب؟"

"ما الفرق الذي يحدثه ذلك؟" قالت وأخرجت مندبلاً من جيب صدرتها ومسحت شفيتها مثل نساء الطبقة الوسطى قبل تقبيل الصليب في القداس، ثم قالت وهي تنحسر: "لبس هناك محكمة تعيد إلى فاسيا" كم هي عادية! فكر ماتفي وهو يسترق النظر إليها بحذر.

كانت طويلة وممتلئة وترتدي ثياباً سوداء وعلى رأسها شال غامق اللون جعلها تبدو كراهبة. كان من المستحيل القول إن كانت جميلة أم لا. أعطت عينها المسبكتان اللتان تحجبهما الرموش انطباعاً بأنها عمياء. لم يكن هناك ما يلفت الانتباه فيها، لا شيء يجعل المرء يخمن شيئاً عن حياتها وشخصيتها وطموحاتها أو إن كان في مقدور المرء أن يضع ثقته فيها.

ظهر رأس مكسيم الأحمر في المدخل. كان في عينيه الزرقاوتين ومبضاً مؤقتاً ثم خرج قادماً بعد أن قذف برأسه للوراء متفاخراً، ثم ابتسم ورفع حاجبيه الداكنين.

نهضت غروشبنا ومدت يدها له وقالت:

"مساء الخير يا مكسيم ستيانوفيتش"

صافحها مكسيم دون أن يقول كلمة واحدة، وعاد مسرعاً إلى الفناء من خلال البوابة، مسحت شفيتها بمندبيلها مرة أخرى وانهارت جالسة على المنضدة.

يبدو أن هناك شيئاً بينهما، فكر ماتفي غير مبال. الجو ربيعي.

"هل نذهب إلى الداخل؟" اقترح قائلاً.

"كلا. دعنا نبقى هنا" قال العم مارك وضرب ركبته بيده.

وقف كوجيمايكين يتشاءب وحدث بالشارع وبالسما الذي كانت ترتدي
حرمة المساء وبالتلال السود التي وراء البلدة ثم دخل إلى البيت متردداً.

في وقت لاحق وازن في عقله فداحة سلوكه الأخير كله ووصل إلى
استنتاج بأن هذه هي الليلة التي بدأ فيها العناد غير المفهوم الذي ساقه في
المسار الذي يعتقد أنه اختاره لنفسه بشكل نهائي. بعد ذلك بفترة قصيرة
بدأت جماعة صغيرة من الناس تردد إلى منزل كوجيمايكين. جاؤوا لزيارة
العم مارك والتحدث إليه. من بينهم غروشنا غير المميزة وأحد يدعى
سينيا كوماروفسكي ابن شماس الكاندرائية الذي طرد من الجامعة وانضم
إليهم لاحقاً، تيسفاتيف الذي يعمل في مجلس البلدة ذو الشعر المجعد
والوجه المبشور، والأصلع ذو الأنف الكبير روغانشيف وهو مساعد طبيب،
وكايتولين غالاسكايا ابنة أخ مساعد القس في الكاندرائية وهي فتاة ممتلئة
ومرحة وصاخبة ذات وجه أحمر ملطخ. كانوا يجتمعون بانتظام كل مساء
سبت أثناء صلاة المساء في غرفة العم مارك أو في البستان تحت شجيرات
البتولا قرب الحمام حين يكون الجو دافئاً. أحياناً كانت زوجة القس تنضم
إليهم وتجلس في زاوية تراقبهم منها بصمت من وراء نظارتها ويدها
منشغلان بحياكتها الختمية أو نظريزها. مكسيم أيضاً كان يأتي متأخراً بهيئة
مستقلة، يرتب بإحدى يديه على شعره الأحمر مرة وباليدين الثانية مرة أخرى
كما لو أنه يطبع الأشياء التي كان العم مارك يشرحها بقوة وحيوية. وشاكر
كان يتأكد بأنه واقف وقبعته تغطي جانباً واحداً من حجمته وينقل وزنه من
قدم إلى أخرى ويرفع كل أذن بالتالي ليلتقط كل ما كان يقال، ماسكاً يديه
خلف ظهره ومبتسماً بنوع غامض من الابتسامات، بدا كما لو أنه جاء
للحظة للتلفظ بصلاة مستعجلة قبل أن يعود مسرعاً إلى مهمة ضاغطة.

كلما يحضر كوجيمايكن كان يقطب بعدم ارتياح ويومئ برأسه لكل قادم دون أي كلمة، يتقدم ويأخذ مقعداً على الطاولة بجانب العم مارك ويحاول أن يبدو مؤثراً وعلى راحته، لكنه في الحقيقة أصبح يشعر بارتباك لم يستطع التغلب عليه بحضور هؤلاء الناس.

أصبح منشغلاً تماماً فيما بقوله العم مارك ونسي كل شيء عن نفسه. كان يصغي بانتباه ويضحك مع الآخرين ويتحسر بعمق حين توصف مشاهد الحياة الكثيرة ويدلي رأسه وهو يشعر بالذنب عندما يؤنب العم مارك الناس ويلومهم على كسلهم وجبنهم وقسوتهم وميلهم المشين إلى تصالحهم مع الذات ومع أي شيء على الإطلاق. تكلم مطولاً عن هذا وعن المظاهر المهينة الكثيرة الأخرى للشخصية الروسية.

لكن حين تعب الرجل العجوز وحاول التوقف عن الكلام وبدأ إتباعه ينعمون كالغربان التي تطوق برج الأجراس، أصبح كوجيمايكن شاعراً بنفسه ثم في مكنون صدره ببطء وبشكل سري لكن بوضوح متزايد، وتسلسل إدراك للفارق العظيم بينه وبين هؤلاء الناس.

استطاع أن يراهم كلهم من مكان جلوسه. كانوا أصغر منه عمراً ووجدتهم غريبين ومضحكين نوعاً ما. كان لانكي تسفيتايف وركبتاه الحادتان بارزتان، يؤرجح متقاره من جانب لآخر مثل غراب نائم في يوم حار ويقول في صوت مزجرج ظل ينطلق فجأة في صوت عال وحاد:

"وهكذا تواجهنا مشكلتين. مشكلة الفرد ومشكلة المجتمع"

تكلم بثقة لكن لم يفهم أحد ما كان يحاول قوله. ظل يغلغل عينيه ويرسم علامات في الهواء بإصبع واحد ثم وضع يده على جبينه أخيراً وسقط في حلم يقظة -

"هل انتهيت؟" سأله العم مارك.

"هناك سؤال واحد آخر فقط...."

مرة أخرى تحولت كل العيون إلى وجهه المبتور، وطرق العم مارك على الطاولة بأصابعه وحرك حاجبيه الكثيفين للأعلى والأسفل تعبيراً عن نفاد صبره.

حين أنهى تسفيتايف كلامه عقت عليه غالاتسكايا بادئة بالهتاف:

"لكن لماذا علينا أن نضيع الوقت في مناقشة مسائل منفصلة؟"

كان وجهها يزداد حمرة وفمها يفتح وينغلق بسرعة وهي تصب سبلاً من الكلمات التي لو أخذت معاً لكانت مثيرة للحزن ولو أخذت بشكل منفصل لكانت مثيرة للغضب. نظر كوجيمايكن حوله بعدم ارتياح. سقطت عيناه على زوجة القس، كان رأسها يغمص أدنى فأدنى على عملها بالتناسب مع ازدياد عدم مبالئها بمحيطها. شعر أن رأسها الرمادي مليء بأفكار أولية حقيقية لكنها متأنية وحذرة وأشعره هذا بالراحة.

فور توقف غالاتسكايا عن الكلام تجادل تسفيتايف وروغتشيف معها، الأول في صوت متأذ والآخر في صوت جهوري لطيف وبلهجة فولفية واضحة.

"لكن ذلك خارج عن الموضوع" قالت.

بدا مثل أداة استخدمت كثيراً. كتفان عريضتان قويتان، ورأس من النوع المستعمل غير الجيد، يده مدسوستان في جيوبه، ساقاه قصيرتان ناتئتان، يجلس محملاً بكل واحد بعيون مدورة لا ترمش. تنفرج شفاه الرقيقتان من وقت لآخر عن ابتسامة عريضة وجدها كوجيمايكن غير

مستحبة. حاول كوجيمايكين ألا ينظر إلى الحدة لكن ذلك جعله ينظر أكثر مدفوعاً بالاستغراب.

أصغت غروشنا إلى الجدل والخطب وفهما الدور مفتوح وعيناها الباهتان ترمشان وتنفسها يدخل في شهقات عميقة كما لو كانت تمتص كلمات المتكلم.

برز وجه مكسيم كبقعة ساطعة على هذه الخلفية الباهتة. رفع يده الأولى ثم الأخرى ليربت على شعره وأعطى الانطباع بأنه يتسلق سلماً غير مرئي يبطء وحذر. كلما توقفت عيناه الزرقاوان على غورشينيا كانتا تزادان قتامة ورطوبة ويرتجف منخراه. برؤية هذا قال كوجيمايكين لنفسه:

الجرو! ها هم يحاولون وضع بعض المنطق في رأسه لكن لديه أشياء أخرى يفكر فيها!

كانت عينا كوماو فسكي تقعان على وجه إحدى النساء وشكلها من حين لآخر، وفي هذه اللحظات تبدو الحدقتان تتوسعان وتبتلعان البياض كله مثل عيني البومة، فكر كوجيمايكين.

يتصرف الأشخاص هنا بحرية وبأسلوب سهل وكل خطاب يستدعي عشرات الاحتجاجات تقريباً. اندهش ماتفي من هذا في البداية.

يا لكثرة الأفكار التي لدى الناس! فكر ماتفي في انتشاء تقريباً. لقد وجد تشجيعاً في هذه الغزارة من الأفكار البسيطة المفهومة التي أهتمته بالإيمان بالناس وبقوة العقل وباحترام النوايا الطيبة للناس. كان ممنوناً بوجود هذا العدد الكبير من القوم الشبان الجديين في بلده ومن هذه الملاحظات الجريئة التي تحكى في بيته هو. ولم يعد يخاف من الأشياء الحادة التي يقولونها، لكنه كان يحني رأسه متوجساً حين تفتح كايبتولينا غالاسكابا فمها الواسع فقط،

ويحاول ألا ينظر إليها. وتمنى سرّاً لو قاطع أحدهم الاندفاع العاصف
لكلماتها.

كتب في دفتره:

في المظهر، تبدو كابتولينا غير مؤذبة تماماً كأنها روح بسيطة، لكن لا أحد
منهم يتكلم بنفس الطيش الذي تفعل به، إنها نجعلك نعتقد أن الغضب
والبؤس هما الحافزان الوحيدان في الحياة. تتكلم بمنعة غير مخفية عن المجاعة
المتوقعة هذا العام، وبناء على رأيها كلما عاش الإنسان في ظرف أسوأ بات
الوضع أفضل، وكلما زاد عذاب الإنسان زادت فائدته من ذلك. لو كان هذا
صحيحاً فلا نستطيع إيقاظ روح الإنسان سوى المصيبة وحدها، إنها حقيقة
مرة وصعب سماعها وقبولها والشيء الطبيعي أن ينكرها الناس ويقولون من
الأفضل للإنسان أن يعيش في غيبوبة من أن يستيقظ لينعذب. مسنيقظ أو
نائم كل شيء سينتهي بالموت كما يقول الأحذب كوما وفسكي في الحقيقة.
فضلاً على ذلك، كابتولينا بغبي سيئة الطبع، لم تنادني باسمي إلا نادراً
وكانت تقول ببساطة "التاجر هنا، أو المالك"؛ يمكنني الرد عليها بنعتها
باسم كريبه: غبية مثلاً، لكن لم أكن الوحيد الذي كانت تبهنه. لاحظت أن
لديها ضعفاً تجاه الققط الرمادية، كلما ترى هريرة رمادية يتوهج وجهها
وتصبح ودية ويبدو أنها تحجل من ذلك.

فهمها صعب جداً، ولا أستطيع الذهاب إليها والتحدث معها ببساطة
وثقة أبداً. تبدأ بالصراخ والسخرية دائماً. تلبس بطريقة مهملة لكن ليست
معوزة. صداريها مبقعة بالعرق تحت الذراعين دائماً والكلابات مفكوكية
غالباً، لذا يمكن رؤية ما يخفى تحتها. وتساءلت وأنا أنظر إليها: من يمكنه
أن يجبها؟ لا أعتقد أن هناك من يفعل ذلك.

بمجرد أن يعتاد المرء على هؤلاء الأشخاص وينجذب إلى داخل دائرة تفكيرهم يريد بدوره أيضاً التعبير عن أفكاره ويقول لهم ما يعتقد أنه خطأ في جدالاتهم. في البداية يتحدث بتردد وخجل، ثم بعد ذلك يشارك في النقاشات بجرأة وإصرار.

"هل يمكن أن أقول كلمة واحدة؟" سأل مرة وكاد أن ينهض عن مقعده وشعر بقلبه يدق بعنف.

عند تلقي إيماءة إذن كريمة من رأس العم مارك، انطلق في نقاش مصاغ في لغة متباهية مكرراً نفس الفكرة الوحيدة:

أنا لا أشك بأنكم أنتم الذين تجمعتم هنا من أكثر من كرس نفسه بإخلاص لمصلحة بلدنا الأم، لكنكم بسبب اختلاف في الرأي حول الطريقة المثلى لخدمة القضية أصبحتم متورطين في هذه السجالات الساخنة التي تهيئون بعضكم بعضاً فيها. هذا خطأ فادح برأيي وإعاقة كبيرة لفهم الأفكار المتنوعة المعبر عنها، وأسألكم أن تكونوا أكثر صبراً والطف مع بعضكم البعض. من المؤسف والمثير للشفقة كما يبدو أن أشخاصاً استثنائيين مثلكم، إن جاز لي التعبير، يجتمعون معاً للعمل من أجل الخير العام، ويؤذون مشاعر بعضهم بعضاً.....

أحياناً كان يتأثر بما يقوله ويجيش قلبه بحب رفاقه الرجال، لذلك لم يسعه إلا أن يمنع دموعه. كان لهذا أثر على سامعيه الذين كانوا يتضحكون بخجل ويحدقون به بود، بينما كان العم مارك يتنسم من وراء غيمة من الدخان. "صحيح تماماً" كان تعليقه الذي يقوله بنغمة تهكمية مرة ومرة بنغمة هادئة وحزينة.

إنهم لا يردون علي عندما أتكلم، فكر كوجيايكن بينه وبين نفسه بشعور أكيد بالفخر.

في أحد الأيام أطل خطابيه وقال:

هذا هو الشيء الثاني الذي أردت قوله. هذه كابيتولينا. وفي الحقيقة كلكم لكن بدرجة أقل تظنون مهاجمون التاجر والطبقة وكل الأغنياء وتتهمونهم بالجشع والطمع. صحيح تماماً. ومع ذلك أثبت لنا نسفيتيف كما يشير مارك فاسيليفيتش دائماً، أن الإنسان ضحية الظروف، ولا يستطيع أبداً أن يكون سوى الحياة التي صنعتها. حين تصدرون الأحكام في حقه وتلومونه على ما يفعل، لا تنسوا أنه ليس حراً، وإنما هو يعيش الحياة التي حكم عليه القدر بأن يعيشها، لهذا يجب أن نجعلوه يرى جذور رعبه وخطأ حياته بطريقة محبة وبصبر دون إيذاء مشاعره، أي بشعور من الأخوة وذلك سيجلب الفائدة له ولكل شخص آخر.....

حاول التكلم بصورة مهذبة وغير متفردة بقدر استطاعته، لكنه سمع غالاسكايا تصدر نخرة صغيرة، وارتسمت نظرة خجولة على وجوه الجميع، لكنها لم تكن نفس النظرة السابقة. أصبحت وجوههم طويلة وكثيبة وكان التعبير الذي على وجه مارك فاسيليفيتش مبهماً— مثل بطيريك أرثوذكسي، وحول بصره عنه وشد على غليونه أكثر.

لكنهم لم يقاطعوا كلامه. كلما التقت عيني نسفيتيف بعيني غالاناسكايا كان يتسم وكانت تعبس بوجه ممتعض. حين لاحظ كوجيايكن هذا، عجل ليختم، ما جعله يضطرب في كلماته. وبعد أن انتهى علق أحدهم قائلاً:

"على العموم إن الذي قلته صحيح تماماً طبعاً"

كان روغانشيف أكثر استجابة ولطفاً من الآخرين، لكنه بدا في هذه المناسبة كما لو أنه نسي كيف يقول أي شيء سوى:
"نعم، في الواقع"

بعد محاولات خطابية كهذه، لاحظ كوجيمايكين أن كلماته لم تعد تلقى اهتماماً مدهناً. لم تعد تثر أي نقاش أبداً. وازداد بشكل ملحوظ نفاد صبر سامعيه الذين كانوا ينظرون إليه لينهي. حين كان يتوقف عن الكلام كانوا يومنون برؤوسهم له ويقولون بعجالة:
"نعم، نعم"

"صحيح، بشكل أو بآخر، لا شك - أعتقد....."
وجاء الوقت الذي بات يقاطعه فيه كل من غالاتسكايا وتيسفيف أيضاً.

"لقد سمعنا كل ذلك من قبل" كانوا يقولان.

واضطر العم مارك للتدخل أكثر من مرة.

"هيا، دعوه يكمل"

كان كوجيمايكين يتأذى من ذلك ويرتبك.

إنهم لا يصغون إلي حتى حين أجادلهم، فكر. إنهم يتكلمون بالقدر الذي يحبون، لكن ليس لديهم الصبر لسماعي.

بعد ذلك ألقى مكسيم خطاباً غير عادي متغطرس أكثر من خطبه المعتادة بدون أن ينهض على قدميه.

"لا يبدو أنك تلاحظ يا ماتفي سافيليفيتش أنك تظل تقول الشيء عينه المرة تلو الأخرى وتدافع دائماً عن طبقتك. ليس التجار من يعاني بل من يجعل الآخرين يعانون"

بدا متجهماً ووسياً وتملك صوته سامعيه وباتوا أهدأ. راقب كوجيمايكين الذي أخفض رأسه من الخجل الناس، كانوا كلهم ينظرون إلى مكسيم ما عدا الأحذب وزوجة القس. تسمرت عينا الأحذب التي تقلصت حدقتها وتأطرت بحلقات بيض مائلة للزرقة بوجه ماتفي كأنها تنتظر منه أن يرى نظرتها، أما زوجة القس فوضعت شغلها من يدها وجلست ويدها مطويتان في حضنها، تحديق من فوق نظارتها بالسقف.

أنهى مكسيم ما كان عليه أن يقوله ومرر أصابعه في شعره.

"جيد، صحيح تماماً" قالت غالاتسكايا وهي تتمتع على الأريكة بهياج. "وماذا لديك من القول أيها التاجر؟"

كان الصوت المسموع الوحيد هو تنفس العم مارك الثقيل المشير إلى عدم قبوله بهذا.

نهض كوجيمايكين عن الطاولة وقال وهو عاجز عن كبح غضبه:

"أنت تعبر عن رأيك بطريقة لا يريد أي إنسان محترم سماعها يا مكسيم...."

قوبل كلامه بدمدمة من الاحتجاج.

"برقة يا ماتفي سافيليفيتش، برقة" قال العم مارك بقسوة مهذبة.

"ليس من صالحني أن أثير ضجة حول ذلك" هتف ماتفي قائلاً وقد لدغ بطنين عدواني. "ما يقوله غير صحيح. كما لو كنت أكثر بطبقني ولو قليلاً. أنا أعيش لوحدي ومثار سخرية من جيراني والكل يعرف ذلك. الذي أحاول قوله إن الكل متساوون، إذاً الكل متساوون في اللوم ومتساوون في الحكم عليه. وصحيح أيضاً أن اللص يسرق بدافع العوز والحاجة وذلك يصح أكثر بالنسبة إلى طبقة التجار". قهقهت غالاتسكايا بصوت عال لا

حياة فيه، نخر نسيفيتيف وارتمت ابتسامة على وجه الأحذب ببطء. برد ماتفي وتلثم وتوقف عن الكلام وسقط فجأة فوق كرسيه.

"انتظرا!" قال العم مارك غرساً كل الأصوات على الفور. انطلق في خطاب توفيقى معتدل، لكن كوجيمايكي لم يتابع ما كان يقوله، واستسلم بحزن إلى ضجيج الصوت وإلى إحساسه بالتأذي.

هم يهتمون بذلك الجرو أكثر مما يهتمون بي، فكر.

في ذلك المساء كتب في دفتره:

أظهر مكسيم اليوم أي صفيق من الرجال هو، أخذ موقفاً ضدي أمام الجميع، أنكر رافضاً ما قلته بشكل مطول جداً، وكانوا كلهم مؤيدين له ومعارضين لي. من الطبيعي أن اعتبر ذلك شيئاً لا يليق بي وليس من مستوإي أن أتجادل مع شغيل عندي وفي بيتي. كان على مارك فاسيليفيتش بصفته المسؤول عن كل هذا أن يرى كم كان ذلك في غير محله وألا يسمح له بالكلام. لم أكن أبالي وأهتم لو كان شاكر من فعل ذلك فهو كبير في السن وبوزن أخلاقي كبير، لكن مكسيم لا يزال صغيراً وهو مثل الجرس الذي يرن كلما هزته. أنا أدرك أن مارك فاسيليفيتش يملك مؤونة في الأفكار أكثر من الناس، لكن من أين حصل مكسيم على أفكاره؟ كل الأفكار متائلة ومصدرها بالنسبة إلينا كلنا واحد: مارك فاسيليفيتش المنشغل جداً في هذه الأيام، نادراً ما يبقى في البيت فهو يذهب ليشمشى ويظل حتى وقت متأخر من الليل لهذا لم تتوفر لي الفرصة للتحدث معه منذ وقت طويل. أشعر مرة أخرى بالنبد مثل ثؤلول على أنف شخص آخر.

أوشك شهر أيار على الانتهاء قبل أن يبدأ شهر حار وجاف في تلك السنة: اخضرت أوراق البستان وأزهر الليلك وغنى الهازج وسطع أبو

الحناء ذو الصدر الأحمر وسط الخضرة الفتية. دوخت روائح الربيع الناس وأخذ كسل حلو العقول.

أغرى ذلك الناس في الخروج إلى الريف وراء البلدة؛ حيث تغني القبرات فوق التلال الخضراء، ويبدو النهر والغابة في مرح كأنهما في عيد. بدأ أصدقاء العم مارك التجمع في البستان قرب الحمام في ظل أشجار البتولا حول طاولة انتصب فوقها سماور: في أيام الأحاد كانوا يذهبون أحياناً مباشرة عبر الحقول إلى بقعة عالية على الجانب الآخر من واد عميق يدعى سنم الفأر. يرون من هناك مشهداً كاملاً للبلدة التي بدت مرسومة في ظلال باهتة في المشهد.

"تبدو جميلة من هنا، الخليفة" قال سينيا كوماوفسكي ضاحكاً في أحد الأيام، "مثل لص في السوق، متأنق من الخارج ومتعفن من الداخل" نظرت أفدوتيا غروشينيا بعينيهما الباهتتين ولاحظت بهدوء: "في كل مكان هناك أناس طيبون"

"وكل محل يبيع الخل" قال الأحذب دون أن ينظر إليها.

نحسرت والتفتت إلى ماتفي: "أنا لا أفهم ذلك، بخصوص الخل"

ربما كانت تلك المرة الأولى التي تتحدث إليه مباشرة وأسعده ذلك.

"سينيا يجب التحدث بالألغاز" ضحك.

"ليس متوقفاً منك أن تفهمي أي شيء" قال الأحذب وقد ضيق عينيه

نحوها بنجهم. "لا يتوقع منك سوى أن تتزوجي"

"يا ساتر! ما هذا الذي تقوله؟" هتفت وقد احمر وجهها وأسقطت

نظرها للأسفل.

"أليس الأمر هكذا، يا ماتفي سافليفيتش؟" سأل الأحذب.

"هذا يعتمد على من ستتزوج" قال ماتفي "الطبيعي لأي امرأة شابة أن-"

عند هذه النقطة وصلت غالاتسكايا تلوح بمنديلها. توجهت بسماع ما قيل فقالت:

"تبا، يا لك من وضع جداً!" وأوضحت بحماس كبير أن الحياة تتطلب التضحية بالذات.

"ماذا تعتبرين الحياة؟ منسولة عجوز تقبل بأي عظمة قديمة ترمى لها؟" قال سبينا مدججاً الكلمات حين أكملت.

احمرت غالاتسكايا من الغضب الشديد وصرخت به وفكر ماتفي:
"لماذا يكون وقحاً جداً حين تكون غروشيناً حاضرة؟ إن كان يجبها
فذلك لن يفيد" وترك عينيه تطوفان على جسد غروشينا الشاب اللدن التي
كانت جالسة بجانبه. بعد أسبوع سمع أحد يهمس في البستان: "اتركني
وشأني- لا تلمسني...."

جفل كوجيبا يكين، مال بجسمه إلى خارج النافذة وسمع صوت امرأة
مرة أخرى، هذه المرة كانت مترددة ومتوسلة.

"شيء كهذا- أنت تعرف أي نوع من الناس هنا....."

"لا أستطيع تفادي ما أحس وأشعر به" رد مكسيم بوضوح وإصرار
وبغضب تقريباً.

ذكر الأرنب! قال ماتفي لنفسه، وقبل أن يعرف صاح بمكسيم على
الفور، وثب مبتعداً من النافذة وبدأ يذرع أرض الغرفة ذهاباً وإياباً وهو
يقول لنفسه في خشية: لماذا فعلت ذلك؟ وما هو شأنه؟
حين ظهر مكسيم في مدخل الباب سأله في ارتباك.

"هل ال-سما-ور جاهز؟"

"ليس بعد"

"ولماذا لم يجهز؟ يبدو أن أحد الأشخاص أتى"

"أفدوتيا غروشبنا"

حدق كوجييايكين بثبات ولاحظ أن وجه البواب كان منهكاً ونحيفاً، لكنه اكتسب بتعبير من الاستقلالية والتصميم الكبيرين.

سيفوز بها، فكر بحزن وهو يستدير عنه، سيجعلها تستسلم له.

"حسناً، انصرف" قال ملوحاً بيده.

لماذا لا يهتم بالطباخة؟ لا تزال تملك نسغ الحياة فيها وذلك هو الشيء المقبول: بواب الفناء يعيش مع الطباخة وعليه ألا يطير عالياً.

حدق بنفسه في المرأة وأطلق حسرة. خرج إلى البستان وقد تملكه قلق غامض غير مألوف.

كانت غروتشينا جالسة على المنضدة تحت شجرة تفاح وترندي صدارة زرقاء باهتة اللون وتنورة رمادية وتركت مندبلها الأحمر ينزلق عن رأسها ويسقط على كتفيها. بقع قرنفلية من ضوء الشمس تراقصت فوق شعرها الأشقر ومندبلها الحريري، وبعض البتولا تلمس خدها وهي تحدق متأملة بالسما وتحرك شفتيها كأنها تصلي.

حياها كوجييايكين وجلس بجانبها.

كم هي هادئة وخاضعة، فكر كوجييايكين. هي متأكدة بأنها سوف تستسلم له.

كان النحل يصدر طنيناً، اخترق الصوت صدره ورأسه وأثار فيه أفكاراً غير متوقعة.

"أنت أرملة، أليس كذلك؟" سأل بصوت ناعم.

"كنت كذلك لمدة ثلاث سنوات"

"هل كانت فترة الزواج طويلة؟"

"سنة وخمسة أشهر"

أجابت بلا استعجال، لكن على الفور وبلا تفكير. تخيل بأن كلماتها غربلت بواسطة فكرة واحدة جففتها من كل لون. أخبرته ذلك بصوت رتيب ومسطح كأنها نقول شيئاً لا علاقة له بها. قالت حين كانت في السابعة عشرة من عمرها زوجها والدها الذي يعمل خفيراً ليلاً لبناية عامة من أحد الموظفين العاملين هناك. بعد زواجها بوقت قصير أدمن زوجها على الكحول ووقع ميتاً في الشارع مرعوباً من كلب وثب عليه.

"هل كان لطيفاً معك؟" سأل كوجيايكيين متعاطفاً.

"لا أعرف" قالت وهي مستغرقة في التفكير، ثم ابتسمت وهي تمسك نفسها وشرحت: "لم تكن لدي الفرصة كي أكتشف ذلك. كان دائماً إما مريضاً أو ثملاً. كان قلبه وكبداه مريضين وكان غاضباً أغلب الأوقات ليس بسببي بل من مرضه ثم بعد ذلك جلبوه إلى البيت ميتاً"

"إذا لم تكن له حياة حقيقية معك إطلاقاً؟"

كسرت غصين البنولا إلى نصفين وقذفت به عند أقدام سينيا الذي جاء إليها في هذه اللحظة نازعاً قبعته المجددة المدهنة عن رأسه.

"أخشى أنني قد تأخرت" قال بصوت لا يوحى بالثقة. صافح الحضور وجلس على الجانب الآخر من غروشينا: قريباً منها أكثر مما يجب، فكر كوجيايكيين.

تبعه تسفيتايف وغالاتسكايا. ذهب كوجيبايكين إلى الطاولة ولمح مكسيم الذي كان جالساً على منضدة الحمام بمعلق بالسما حيث ارتفع برج أجراس الدير من وسط أغصان اللآيم والذي طوقته حمامات بيض من الأسفل.

"أوه، لا منطق فيها" أتى الصوت الصادح للأحدب سنيا.

"أوه، تعال!" احتج تسفيتايف متغطراً.

"ما هو ذلك؟ ما هو ذلك؟" قالت غالاتسكايا مثل دجاجة تقاقي.

"سنجرم كلنا ويحكم علينا بالبقاء في البرية لأربعين سنة، ورغم ذلك سوف ننجب رجالاً أقوياء ليسعفوا العالم ويساعدوه" قال الأحدب.

ضحك كوجيبايكين وقال لمكسيم:

"الحديثان هكذا دائماً يلودزون بالصمت طويلاً ثم يخرجون بأفكار لافتة كهذه"

ولدهشته قال مكسيم:

"إنه صبي ذكي جداً"

علا صوت سنيا أكثر فأكثر:

"لا تصغ لهم يا عزيزي! حافظ على السير بتواضع في الدرب الذي اخترته، جالباً السعادة للذي يستحقها لأنك ولدت من الرب لكي -"

"من الرب"، فهقته غالاتسكايا.

"ليجلب السعادة للشخص المختار، أنت خلقت لتكون إما...."

"أسمعتم ذلك؟" قال مكسيم وهو ينهض وعلى وجهه الشاحب ابتسامة مصطنعة. "إنه ماهر"

"نادِ الآخرين" قال كوجيبايكين. دون أن يحرك مكسيم يديه المطويتين خلف ظهره، صاح بصوت عالٍ:

"الشاي جاهز!"

إنه غيور، فكر مانفي، ليس بلا أرضاء. أطلق حسرة وشعر بالغم والاكتئاب فجأة.

انجه الناس إلى الطاولة دون مقاطعة للجدال، كان ترتيب سينا الأخير، وجاء يتسم بغل ويمسح جبينه الوعر. جلست غروشيلا إلى جانبه وهي محمرة ومرتبكة ونصورها مانفي مثل عروس تساق إلى المذبح رغماً عن إرادتها. زادت حدة النقاش. كان سينا يهاجم بقوة من هم على يمينه تارة ومن هم على يساره تارة أخرى ويتلوى ويرد بغضب مثل ذئب. هاجمه تسفانييف وغالاتسكايا بشراسة لكن مكسيم وقف جانباً وعيناه مسمرتان بالأرض. تمنى كوجيماكين لو أنه فهم مغزى هجمات الأحذب الحادة، لكن ذهنه انشغل بأفكار حول غروشيلا ومكسيم.

هي هادئة ومستسلمة، ظل يقول لنفسه.

في نوع من الذعر سمع الأحذب يهاجم بقسوة ويقول:

"أنتم كلكم تلفون مثل نفاية في مفترق طرق في يوم عاصف وقد دхتم من اللف، أما أنا فأقف على أحد الأطراف وأتفرج وأستطيع أن أرى -"

غالاتسكايا التي تعرقت من شدة الإثارة خبطت الطاولة بيدها وتسيفاتيف الذي احمر وجهه وزم شففيه لم يقل شيئاً. ظل روغاتشيف يسمل ويبصق بغزارة ويدمدم:

"هذا يكفي أيها الناس الطيبون!"

"-أرى بوضوح: أن هذا الدوران ليس فيه أية متعة" صاح سينا

بصوت عالٍ "الريح تعصف بالورقة الميتة ليس من طيب خاطرها..."

هنا فقد روغاتشيف أعصابه فنهض وقال لغالاتسكايا:

"توقفي عن ذلك. إنه لا يستطيع أن يجادل هو يستعرض فقط ويحاول أن يبدو مبتكراً"

غربت الشمس وبدت صلبان قباب أديرة الكنائس تنصهر في الفسق المتجمع وتوهج بضوء ضارب للحمرة. طنت الخنافس البيضاء ونادت طيور السنونو بعضها بعضاً وهي تطير بشكل متعرج في الجو، عزف راع على نايه بحزن، كل ما يحيط به فرض الهدوء.

لماذا يجلبون شجاراتهم إلى هنا؟ فكر كوجيمايكن وهو مستاء وقال بصوت مسموع وعال:

"ماذا يمكن أن يكون الشيء الذي يمنع مارك فاسبليفتش من الحضور؟"

جفلت غروشينا، ونظرت حولها وهي تشعر بالذنب، وتمتمت بأن العم مارك لن يأتي اليوم لأن الأب الاسكندر أصيب بحمى وعمه يعتني به.

"إنها ليست حمى" قال سينا "لقد باشر بنوبة من السكر"

تنهدت غروشينا وأخفضت عينيها.

خروف، فكر كوجيمايكن وهو يحملق بمفرق شعرها المائل للزرقة وقد ملأه شوق بأن يقول لها شيئاً يلاطفها فيه، لكن سينا عندئذ سأل بنفس النغمة التهكمية:

"لماذا تقولين إنه أصيب بحمى وأنت تعرفين أنه ثمل؟"

"ولماذا أقول أشياء بغیضة عن الناس؟" ردت عليه قائلة.

"ذلك صحيح" قال كوجيمايكن.

نظر سينا منه إليها وسأل بخبث مرة أخرى:

"هل تعتقدين أن إخفاء الحقيقة يغيرها؟"

مكسيم الواقف خلف كوجيمايكين قال:

"أنت تبحث عن المشاكل دائماً! لا ترد عليه يا أفدوتيا غافريلوفنا"

اعتقد أنني يجب أن أدافع عنها، قال مانفي لنفسه.

"حسناً، نحن مغادرون" أعلنت غالاتسكايا قائلة وهي تسوي قبعتها القشبية التي عليها قوس أحمر.

لبس نسيفاتييف قلنسوته البيضاء كما لو كان يعاني من صداع وكانت لمسة القلنسوة مؤلمة. مط روغاتشيف كتفيه مثل شخص برمي حملاً ثقيلاً ودمددم:

"الوداع"

وانطلقوا في صف واحد.

"هل رأيت كيف كانت تنظر إلى نفسها في السماور حين سوت قبعتها؟" سأل سينا.

"وهل هناك خطأ في ذلك؟" قالت غروشيina.

"ليس خطأ بل سخافة"

رمت غروشيina بنظرة عدوانية.

"سيكون الأمر أكثر سخافة لو ذهبت بقبعة مجمدة" قالت.

"أوه، كلا" زجر سينا بوقاحة "من المثير للضحك أن تري شخصاً شاذ المظهر ينظر إلى نفسه"

"المضحك أكثر أن تنظر إلى شخص شاذ المظهر" قال مكسيم مشاكساً.

كان كوجيمايكين متأكداً أن بواب الفناء والأحذب كانا يقيسان بعضهما البعض مثل ديكين متقاتلين: عضلاتهما مشدودة ورأساهما مقحمان للأمام ويعدقان ببعضهما بشكل قتالي. توتر مانفي قليلاً لكنه كان مستمعاً نوعاً ما.

نظر إلى غروتشينا التي كانت تحرق بالزهور التي في الفئجان الذي تحمله بيدها وواضح أنها صمت أذنيها للمناوشات بين الأحذب ومكسيم. كان وجهها شاحباً وعلى عينيها الباهتين غشاوة. شعر وهو يخلق بها أنها على وشك الرحيل الفوري وإلى الأبد وأراد أن يحافظ على ذكرى رأسها المطرق للأسفل ووجهها غير المزين وفمها الصغير البريء وكتفها المدورين النحيلين وثدييها الصغيرين العذريين ويديها الطويلتين بأصابعها التي ثقبتها إبرة الخياطة.

سوف يمزقانها إرباً ويلتھماها، فكر كوجيايكن بقلق وليقنع نفسه بشيء ما. هؤلاء الأشخاص ليسوا من صنفها.

في هدوء البستان المغبر بمسحوق الغروب الوردية، استمر تدفق صوت الأحذب متقطعاً في ملاحظات غير متوقعة من حين لآخر.

إن أي شخص يريد العيش بسلام وهدوء، نعم هذه هي الطريقة الأكثر أماناً وأرضاء ويكون في منتهى الحرص، لكنه حالما يحاول أن يعيش مثل هذه الحياة يشب عليه وحش بري ويضع نهاية لها.

"إذا أنت نرى يا صديقي الطبيب -"

بانت أكثر السخرية التي في عينيها المدورتين اللتين تشبهان عيون البومة وانقسم وجهه إلى نصفين متساويين في ابتسامة هزيلة. كل شيء فيه يتناقض مع نغمة صوته الناعم وكأن ما قاله لا علاقة له بما هو عليه. شعر مكسيم بهذا وظل يحرق به في طريقة عدوانية، شفتاه مزموثتان وحاجباه معقودان.

"هناك بعض الناس" تابع الأحذب بشكل يخلو من الثقة "يعلمون ويقولون إن الوحش يفوز في النهاية دائماً وأن الإنسان في الإنسان محكوم عليه بالهزيمة. وهذا مقنع أكثر من تعاليم الإنجيل مثلاً وله جاذبية خاصة

للأشخاص الذين لديهم قبضات قوية وضائير ضعيفة. إن أحبيت
سأعطيك كتاباً تشرح فيه هذه الأفكار بوضوح كبير وبساطة"
"لا أحب" قال مكسيم.

"أوه، لا تحب؟ حسن جداً. يمكنك ممارسة هذه التعاليم بنجاح كبير
بدون أي كتاب"

اقترب مكسيم منه ببطء وكأنه يفعل ذلك رغماً عن إرادته؛ تنحنح
كوجييايكين ونظر حوله مذعوراً ونهضت غروشيina مرتبكة ورمشت عيناها
ومدت يدها إلى ماتفي وقالت:

"الوداع، حان وقت الذهاب إلى البيت بالنسبة إلي"

جر جر مكسيم قدميه ومشى ببطء وبشكل مضطرب وهو يراقبها
يقادran البستان. مدت غروشيina خطواتها بحذر وهي ترفع أطراف تنورتها
كأنها خائفة من أن تعلق بشيء يعيدها للوراء.

ملأت زقزقة الجراد الجو وطنت الخنافس حين علقت أجنحتها في
الخضرة الرطبة الجديدة وتحركت الأوراق المزهرة على أشجار البتولا.
"سأذهب لجلب الماء" قال مكسيم بعد أن نهض ومشى مبتعداً.

هو ذاهب ليتجسس عليها وليس لجلب الماء، فكر كوجييايكين.
انتعشت في داخله أفكار مانت منذ زمن طويل من عدم الثقة في الناس
والتوجس منهم. عانى طوال الليلة من هذا وفي الصباح كتب في دفتره:

مرة أخرى جرحت روحي وهي تؤلني مثل ولد صغير يبكي في الليل
دون أن يسمعه أحد. يقولون: يجب أن نتحد في القضية المشتركة. ومع ذلك
يتشاجرون طول الوقت؛ يردون على الكلمة الواحدة بعشرة وعلى العشرة
بمئة وأكثر ويتكلمون عن الصداقة وجمع القوى لكنهم يتشاجرون دائماً

وقلوبهم يملؤها الحقد على بعضهم البعض. حتى مارك فاسيليفيتش ينحط بمستواه لأشياء لم تكن تليق به فكلمها تحدث تسيفاييف عن البلدات والمصانع يتجههم ولا يصفي إليه كأن كلماته ليس لها أي وزن. بالتأكيد إن تسيفاييف بنصف عمر العم مارك وغير مؤدب دائماً، لكن تظل هناك أشياء في ذهنه وأفكار المرء عزيزة على نفسه دائماً ويجب أن يحترمها الآخرون. تنصرف غالباً لتسكايابا كما لو كان تسيفاييف قساً وكانت هي شماساً وهي في الحقيقة تبدو مثل الشماس.

بدا مساعد الطبيب مختلفاً لأنه كان يجلس هادئاً جل الوقت ويسعل ونادراً ما تورط في جدال مع أحد باستثناء الأحذب، وكان دائماً بخصوص الإنجيل. وقد أفصح بحماس كبير أن مملكة الرب في داخل المرء. يبدو ذلك غريباً بالنسبة إلي: من الذي يستطيع أن يعرف ماذا في داخل الإنسان؟ هناك أشياء كثيرة غير متوقعة، أشياء نجعله مختاراً وعاجزاً عن فهم مصدرها ومن أين أتت. سأله الأحذب وبشكل مروع: كيف يمكن للإنسان أن تكون مملكة الرب في داخله إن كان لا يملك عقلاً في داخله؟ رد روغاتشيف بسرعة أن القلب ليس مهماً فهو يربك الناس بدل أن يضبط الحياة. كيف للمرء أن يفهم ذلك ويتقبله؟ هل الرب مخلوق غير عاقل إذا؟ لاحظت أنه كلما تحدث الناس أكثر عن الرب كثرت المضاعب والأشراك التي يورطون أنفسهم فيها. من الأفضل لو تركوا جلالته في سلام لأن جدالاتهم تتحول إلى شيء صغير وقبيح وغير جدير بهذا الموضوع الرفيع. الأحذب هو الأسوأ بينهم، يتسلق بتهور مثل توماس الشكاك يحاول وضع مسحوق البارود تحت معتقدات كل شخص لذلك ينقلبون ضده كلهم. حين يبدو أنهم توصلوا إلى اتفاق حول شيء ما، يخرج بـ "هل هو كذلك فعلاً؟" ويبدأ الجدل الفارغ مرة أخرى.

ينقلب كل شيء ويزداد غضب مارك فاسيليفتش ويستهج سينا المحتال! صرخ مساعد الطبيب فيه مرة: لماذا لا تنضم إلى أناس منشغلين في البحث عن إيمان؟ نقص الإيمان هو ما يبحث عنه أمثالك من البؤساء. وفي الحقيقة إن الأحذب يتلاعب بكلمات غريبة كما يتلاعب الشيطان بجمرات الفحم الحارقة ويستطيع أحد أن يرى أنه كان يستمتع بذلك؟

كنت مسروراً حين ظننت أنني اكتشفت أناساً من نوع مختلف عن الذين في أو كوروف لكن من الواضح أن ابتهاجي لن يدوم طويلاً. ما هو الشيء المختلف فيهم؟ حتى الآن لا شيء سوى كلماتهم، إنهم دمامل كغيرهم ومنى ما انفجر الدمع يحاول أن يكون ملحوظاً ويؤلم بأقصى قدرته. هذا هو الأحذب، دمل بالضبط.

أما بخصوص مكسيم فانا لا أستطيع تحمل التفكير فيه، لقد أصبح جريئاً جداً وصفيقاً ومختلاً. حظي باهتمام أكثر من أي شخص آخر وهو ينبخر في المكان معتزاً بنفسه بطريقة تقلب معدة أي شخص. لا أستطيع أن أطيقه. أما فاسيا لا أحد يعرف من هو المسؤول عن وفاته.

في صباح أحد الأيام وأثناء الإفطار استلم كوجياماكين رسالة من زوجة القس تطلب منه فيها أن يزورها. ربما تريد اقترض بعض المال مرة أخرى، فكر مانفي.

لبس ثيابه متردداً ومشى متلکئاً إلى بيت القس، ووجد زوجة القس في الحديقة. كانت منكبة على نباتات الفريز مثل سنجاب كما هي دائماً.

"يداي متسختان" قالت وهي تحييها ومدتها أمامه كما لو كانت تمنعه من الاقتراب. أنزلت تنورتها العلوية المشمورة ووقفت تمسح أصابعها بمشرر لبعض الوقت وجين مجمد كأنه نحت من خشب.

سأل كوجيمايكين عن صحة القس فردت باقتضاب:

"لقد مر بليلة سيئة وقد نام لتوه وعمه مضجع"

"ماذا أصابه؟" سأل ماتفي متسائلاً إن كانت ستقول الحقيقة.

"المصاب روسي- شرب الكحول" ردت بحدة وجفاء وابتعدت إلى

الكشك الخشبي ومن هناك ومن وراء نظارتها قالت:

"ألم يقل لك سينيا كوما رفسكي؟"

"كلا. أقصد، نعم فعل. لكن -" غتم كوجيمايكين بارتباك.

"لم تصدقه، أليس كذلك؟ حسناً. كان يجب عليك أن تفعل. إنه

يحترمك كثيراً ويراك شخصاً طيباً"

جلست في زاوية من الكشك، دفعت نظارتها للأعلى على جبينها، مررت

عينها الضيقتين فوق ضيفها، تأملت فكرة ما استجرت حسرة من صدرها

وقالت بتأكيد مبالغ فيه:

"أرسلت في طلبك كي أخبرك عن سينيا. إنه مخلوق يائس لذلك هو

لاذع جداً. يجب أن يرى كل شخص آخر في ضوء مشوه وسخيف. يستمتع

في اكتشاف السوقي والسخيف ويعتبر ذلك حقاً له وواجباً عليه...."

إلى ماذا تهدف؟ تساءل كوجيمايكين.

رفعت المرأة إحدى يديها لتلمس شعرها وظلت تتحدث في نغمة رتيبة.

علقت حزم من الأعشاب العطرية في جدران الكشك وسقفه، جففتها

شرائط رفيعة من الشمس وقلصتها وانتفت الألوان من الأزهار الذابلة

وهي تدور ببطء على حبالها. قطنان صغيرتان واحدة رمادية والأخرى

صهباء، كانتا تبصقان على بعضهما وتشقلبان على عتبة الباب. بينما كان

كوجيمايكين يراقبهما هوجم بكلمات غريبة:

"-وصحيح أيضاً، ينبغي عليك أن تتزوج"

جفل كوجييايكيين.

"من قال هذا؟" سأل بسرعة وهو يقف على قدميه. "بالتأكيد ليس سينيا؟"

"نعم، سينيا وأنا أتفق معه. لقد قلت لك إنه حساس جداً في أعماقه في الحقيقة فضلاً عن قدراته العقلية. لقد أدرك ذلك من أجلها-"

"من-من أجل أفدوتيا غافريلوفنا؟" سأل كوجييايكيين.

أنزلت المرأة نظارتها وحدثت في صمت لدقيقة قبل أن تقول:

"إذا أنت لم تكن تصغي إلي، أليس كذلك؟"

"أوه-نعم-أنا-يعني-"

أصبح صوتها هشاً وتعليمياً، ولفظت كلماتها بنغمة واقعية ذات وتيرة واحدة:

"أنا أعرف أفدوتيا منذ زمن طويل فتحن نتحدر من نفس البلدة وهي إنسانة رائعة على نحو استثنائي وسينيا على صواب: مكسيم سيكون دماراً لها ولا شك في ذلك"

"أوه، نعم" رضح كوجييايكيين وهو سعيد.

حلق بوجه زوجة القس بعينين مفتوحتين من الاندهاش كأنه في حلم، وخشية أن يستيقظ جلس متوتراً ساكناً لدرجة أصابه تصلب في ظهره. المرأة التي في الزاوية ظهرت له بألوان مختلفة كطاووس ورن صوتها حلواً ولطيفاً.

يا لها من امرأة لطيفة وذكية، فكر كوجييايكيين وهو ينصت إليها.

"أفدوتيا ليست أنانية ومقتنعة بأنها ولدت لتخدم الآخرين، ولكل واحد الحق بأن يطلب منها أي شيء حتى حياتها. سوف تستسلم للشخص الأول الذي يصر ويلح. هل تدرك ماذا أعني؟"

"نعم هي حليلة بشكل رائع ومختشمة"

"وإن اجتمعا هي ومكسيم سيكون ذلك مصيبة كبيرة عليهما الاثنين. من المبكر جداً له أن يتزوج، ألا تعتقد ذلك؟"

"ماذا يكون ليتزوج؟"

"نعم، وهناك ذلك أيضاً"

استندت إلى الجدار وصالت يديها على صدرها، ثم تابعت بهدوء أكثر: "بعبارة أخرى، بزواجك منها سوف تنقذ شخصين طيبين من خطأ محبت، وأنت ستكسب صديقاً حقيقياً لبقية حياتك."

نهض كوجيمايكين في استعجال.

"إلى أين أنت ذاهب؟" سألت زوجة القس بحدة.

"ليس إلى مكان محدد تماماً"

"يجب ألا يعرف أحد بهذا في الوقت الحالي"

"هل تكلمت مع -عها؟"

"ليس بعد. كان عليّ أن أضمن موافقتك أولاً"

"التفكير بهذا طيبة كبيرة منك يا أنا كيريلوفنا" قال كوجيمايكين في تعجب وفرح. "في الحقيقة أنا وضعت عيني عليها.."

"أستطيع فهم ذلك". قالت المرأة وهي ترفع كتفها قليلاً. وانطلقت ثانية في حديث تأكيد طويل يتطلب صبر سامعها.

"ولهذا تعال إليّ في الساعة الثالثة من هذه الليلة لتعرف ردها" ختمت قائلة وهي تنهض وتمد يدها.

شعر بدوار حلو، رفّ قلبه، تدافعت آمال كبيرة في ذهنه. إذاً ها أنا قد وصلت إلى مرسى أخيراً! سيزوجنا الأب ألكساندر بهدوء، وسأذهب أنا وأفوديتا في رحلة إلى فورغورود. يا لها من امرأة ذكية زوجة القس هذه! إنها تفهم وتعرف كيف تررب تزويج الناس. مؤكد أن أفوديتا ستحبني. هي تشبهني في الشخصية كما لو أنها كانت أختي. كيف حدث ولم أفكر بنفسى؟

بضحكة انتصار قصيرة تخيل خيبة أمل مكسيم وهز إصبعه نحوه عقلياً:
"أعرف مكانك أيها الرجل!"

غرقت البلدة في الحرارة ولهتت الأسيجة والجدران والأرض بالحرارة وعلق ضباب من الغبار في الهواء الراكد وكان وهج الشمس معمياً للعيون. كانت الأغصان التي تعلقت فوق الجدران بلا حياة ورخوة، أما المناطق الظليلة فكانت خائفة. امتلأت الشوارع بالفلاحين المهلهلين القذرين - نساء مع أطفال رضع بين أذرعهن وأطفال شبه عراة يتمرغون في التراب يمدون أياديهم من أجل صدقات.

ما أكبر حشودهم! كانت الفكرة التي ومضت في ذهن كوجيمايكين وهو يقذف لهم بنقود نحاسية محاولاً أن لا يسمع النحيب الجنائزي للجوع. ورأى كما لو في حلم أيديهم المنسخة الخاطفة ووجوههم الهزيلة الملتحجة وعيونهم المرهقة اليائسة.

عجل بالذهاب إلى البيت وهو غارق بالعرق ومرهق بالحرارة. خلع عنه ثيابه وتمشى بالغرفة ذهاباً وإياباً وهو يمسد لحينه ويسترق النظر إلى المرأة

التي ظهر فيها وجه مدور شاحب ساذج وجيوب تحت العينين وخطوط من الشعر الرمادي عند الصدغين، فردّ له الابتسامة بلطف ودماثة.

في المساء سلم نفسه تماماً لفكرة الزواج ورسم خياله المنظر تلو الآخر لحياته المستقبلية، وقرر برضا متزايد بأنه وجد ما كان يبحث عنه منذ زمن طويل أخيراً: فرح مريح يناسبه.

سنميش بهدوء في دير خاص بنا، فكر.

كانت هناك فكرة واحدة مزعجة حاولت شق دربها بالقوة عبر الصفوف المتلاصقة لأحلامه المهدئة، لكنه طردها وهو غير راغب في الاستماع إلى ما حاولت أن تذكره به.

في الساعة السابعة تماماً ارتدى ثيابه وكان وجاهزاً لزيارة زوجة القس، لكن فجأة ظهرت هي بنفسها، بسيطة، مسطحة الصدر، مصممة، كما هي دائماً ودخلت إلى الغرفة، أومأت برأسها دون أن تتكلم وجلست. رمت نظارتها ولمعتها بمنديلها وقالت بنغمة منخفضة:

"نحن تأخرنا كثيراً جداً"

من دون أن يفهم معنى كلماتها، وقف كوجييايكين ينظر إليها بابتسامة لطيفة على وجهه.

تحسرت وبدأت تتكلم بصوت خافت، لذلك كانت أكثر أنساً من المعتاد، عيناها على الأرض كما لو كانت تقرأ من كتاب ملقى مفتوح هناك.

"هما يعيشان كزوج وزوجة مسبقاً. نعم، لسوء الحظر الأمر هكذا رغم أنني حذرتهما بأنها لن تعرف سوى الحزن إن توددت إليه"

"مع مكسيم؟". سأل كوجييايكين وهو مندهش ومرعوب، وخار على كرسي.

"قلت لها الشيء نفسه اليوم، لكنها قالت إن كان يحتاجني فلا يهم وإن ذلك لن يدوم طويلاً. هل تستطيع فهم مثل هكذا طبيعة؟"

"لماذا فضلته علي؟". قال كوجييايكين وهو يهز كتفيه بلامبالاة وقد ملأه استياء بارد شعر به تحول إلى غضب. "انه شخص تافه ولا يملك شيئاً"

وضعت نظارتها وحدثت به لدقيقة قبل أن تقول بصوت امرأة متعبة:

"جرب. على المرء أن يذهب إلى أقصى الحدود لإنقاذ شخص دون التفكير بنفسه"

"لم أحب ذلك الجرو ذا الشعر الأحمر أبداً". قال كوجييايكين بنعومة وتأمل، "سوف أطرده غداً، ثم نرى!"

"يجب ألا تفعل ذلك!". قالت بحدة.

"لماذا لا؟ أنا السيد هنا-أستطيع-"

"كلا، لا تستطيع!"

توقف كابحاً غضبه، لقد خاف قليلاً من ردها السريع. ومضت عدسات نظارتها حين نظرت في عينيه وتحدثت بطريقتها المسهبة المعتادة.

أصغى دون أن يفهم إلى أن سمعها تقول:

"لا تنس أنه يملك أفضلية عليك: إنه شاب ووسيم ويمتلك الثقة بالنفس التي تفتقدها أنت"

شعر وكأن تلك المرأة النحيلة المتييسة غير المتجانسة قد وجهت إليه ثلاث صفعات على صدره ووجدتها قبيحة ومنفرة.

الجميع يفضلونه عليّ، فكر وهو يتأرجح على قدميه ويلقي نظرة حول الغرفة الفارغة.

"يجب ألا تستسلم للغيرة والامتناع". قال الصوت الممل الرتيب.

كان ضغط أفكاره المتناقضة كبيراً جداً لدرجة أنه لم يلاحظها حين غادرت. خلع ثيابه ورمها في أي مكان وجلس بجانب النافذة ينظر إلى البستان وهو مسحوق كتيب ومستاء ومرتبك بما حدث.

هل كانت تخدعه؟ أم ماذا؟ فكر. أغرتني، عذبتني ثم خطفت الدمية وقالت: "هي ليست لك"، رفعت آمالي ثم "يجب ألا تكن غيوراً." غيور؟ سأل نفسه. كلا أنا لست غيوراً، إنها مجنونة.

لكنه شعر أن رده لم يكن مقنعاً، ما قاده إلى التفكير بفجينا ووضعها فوراً بجانب غوروشينا. أحضر الاثنين معاً متعمداً، وبهذا العمل أنجز ما كان يرغب فيه بشكل غامض: صورة غوروشينا تندمج مع صورة يفجينا ونحيي فيه الشوق المتوحش لامرأة سببت له مثل ذلك العذاب الذي تسارع الآن بسبب انطباعات حديثة.

طن البعوض ولسع في الظلام، ضربه بكفه بفتور، تركز ذهنه على صورة امرأة كانت خجولة وبسيطة مثل غوروشينا وجيلة وغالية مثلما كانت يفجينا. حين استقر على هذا أصبح مدركاً للعملية التي كانت تحدث في داخله ونهض بؤسه القديم من الخرائب، فجأة قفز عالياً وقد استنفذ قواه الخوف والغضب: في الخارج، في الفناء، كان هناك شخص يتسلق السياج.

اندفع من الغرفة ثم ذهب إليه معتقداً أنه مكسيم. خرج إلى الفناء مسرعاً في الحال وقد انتعل خف غرفة النوم. فتح البوابة وشد مزلاج باب البوابة دون أن يحدث ضجة ورفع لسان القفل وغاص في قلب ظلام الليلة التي غاب عنها القمر. دق قلبه بوحشية، نفصد عرقاً، خفق خفه، خلعه وحمله بيده، حبا خلصة بمحاذاة السياج في مطاردة الخطوات السريعة الثابتة التي كان يسمعها أمامه.

بات في قبضته تماماً شعور لم يجربه من قبل أبداً. حدق في الظلام وهو يقظ ومتوتر ورأسه مقحم في المقدمة، وحاول أن يميز الشكل القوي الذي عرفه جيداً جداً. حبا مثل كلب على الرائحة وكان يتوقف مرتعشاً على أدنى صوت خشية أن يكتشف حضوره. فجأة سمع قعقة الجرس النحاسي على البوابة وصرير الترياس. نوقف مندهشاً وأصغى. لم يعد يسمع خطوات مكسيم. إنها لا تعيش هنا، فكر وهو يطلق تنهيدة ارتياح. ولبس خفه ثانية وهو خجل.

تابع السير، وحين وصل إلى بيت صغير له ثلاث نوافذ سمع صوت تسيفيتيف الحاد يمزق صمت الشارع.
"ستكون هناك مجاعة مرعبة....."

هل يمكن لها أن تكون هنا؟ سأل كوجيما يكين نفسه وهو يتلصص من النوافذ كلص.

عبر الشارع بشكل قطري ثم عاد، وحين مر بالبيت وقف على رؤوس أصابع قدميه ليختلس نظرة على الغرفة. أعاق نظره أصص نباتات على عتبة النافذة، لكنه استطاع أن يرى ظهر روغاتشوف المحني ورأس غالاتسكابا الأشعث فقط. بعد أن وقف لبضع دقائق وهو يصغي إلى طنين الأصوات الهائجة، أسرع منطلقاً إلى البيت قائلاً لنفسه:
غداً سأذهب وأتكلم معها.

لم يستطع أن ينام في تلك الليلة بسبب التفكير في قراره والمحاولة في إقناع نفسه بصحة قراره. عند الفجر سمع مكسيم يتسلق عائداً من فوق السياج ويهدده عقلياً:

انتظر فقط أيها الوغد! سوف أعلمك كيف تتسلق الأسوار!

غلبه النعاس وهو يفكر:

يجب أن يجبره على مغادرة البلدة وإلا أفدوتيا... هي شخصية ضعيفة. سأطلب من زوجة القس أن تنظر في الأمر. دعها تقنعه بالرحيل. هي من بدأ هذا كله أولاً وأخيراً.

ذهب لزيارة غوروشينا في وقت مبكر من العصر، إذ اعتقد بعدم وجود أحد في الخارج بسبب حرارة النهار ولم يكن مخطئاً. كانت الشوارع هادئة وفارغة حتى النوافذ المفتوحة لم تبد أي إشارة واضحة لأي شخص يتحرك. عند وصوله إلى جدار الكاتدرائية، استطاع من هناك أن يرى الشارع والبيت الذي تعيش فيه غوروشينا. توقف ليجمع أفكاره ويهدئ ضربات قلبه. جففت الحرارة كل قوته وشعر كأن رأسه ملأ برصاص منصهر. كانت الحرارة شديدة لدرجة بدا فيها كل شيء على وشك أن ينصهر ويسيل فوق الأرض في جداول موحلة.

كلب بشعر طويل خشن ومبقع كان مستلقياً في شريط ضيق من الظل، تلوى في محاولة ليخرج كل جسده من الشمس لكن ظل رأسه أو قائمته كانتا معرضتين لها. حلق ذباب جائع حوله وتكاسل الكلب عن رفع رأسه فعض ظلالها المندفعة فوق الأرض الترابية. غطت عينه اليمنى غشاوة فبدت مثل النحاس حين تسطع عليه الشمس.

كان البيت الصغير المظلم الذي تسكن فيه غوروشينا خارج صفوف البيوت الأخرى، كما لو أنه تقدم إلى الأمام في دعوة، وسقفه مقوس مائل من الجانب مثل انحناءة تواق. خلعت اثنان من نوافذه الخارجية والثالثة تدلت مائلة. ومن خارج السقف الذي نمت عليه الطحالب برزت مدخنة مغطاة بالسخام فقدت عدداً من قزميها. كان لوحشة البيت أثر مخرب على

كوجيمايكين، فانهسرت قوته ونحول تنفسه إلى لهاث وتلاشت رغبته في التحدث إلى غوروشينا.

ليس هناك وقت لمثل هذا، قال لنفسه مؤنباً. خاطب رائع متعرق ولاهث كهذا! لم أنم طوال الليل: يمكنني تخيل الشكل الذي يبدو عليه وجهي!

بشعور بليد من الإحجام والنفور وقف يراقب عين الكلب النحاسية ومخلبه الذي كان يضرب به ظلال الذباب. أنت من جهة النهر صيحات أطفال يلعبون.

الأفضل أن تأتي وتزورها في المساء، إنها تعمل الآن وكل ذلك.

في نوبة مفاجئة من المشاكسة خبط قدمه على الأرض وصاح بالكلب: "اغرب!"

أدار الكلب عينه السليمة نحوه، ومضت العين النحاسية، استعرض ظهره، تغطى وتثاءب وانتهى بصريز.

خرج ثلاثة من الفلاحين في صف واحد من شارع جانبي ومشوا في الساحة مثل ذئاب تدخل إلى أرض خلاء في غابة. وقفوا في الشمس الحارقة مهلهلين وبائسين وأذرعهم تتأرجح بوهن، وتشاوروا معاً بأصوات منخفضة، ثم مشوا بتكاسل إلى جدار الكاتدرائية مثيرين غيمة من الغبار بصنادلهم المصنوعة من لحاء الشجر. طفل مريض كان يبكي في مكان ما. صفق باب البوابة وصاح صوت نرق: "اطردوهم!"

نظر كوجيمايكين إلى الفلاحين، تحسر وسار إلى البيت ببطء، استلقى لأخذ غفوة قصيرة وهو مصمم بقوة على الذهاب وزيارة غوروشينا في المساء.

حين استيقظ كانت الشمس تغيب، وكان البستان متوهجاً. وسمع شاكر يصبح بغضب في الفناء:

"وماذا بعد؟ هو لم يفعل شيئاً، لم يحضر الماء، ماذا يظن نفسه؟ يجب عليه أن يعمل!"

"أعتقد هذا". صاح كوجيمايكين، قفز وذهب إلى النافذة وصاح بالتري. نظر إلى المرأة وهو يمر ليرى إن كان قاسياً وجدياً بما يكفي. بصعوبة حتى تعرف على عينيه المتفتحتين وكان خده الأيمن محمراً ومنخفضاً من النوم، شعره منكوش وبدا كله متسخاً.

خاطب رائع. قال لنفسه في جزع قلق. أدار ظهره لشاكر حين دخل وقال بسعلة مصطنعة:

"أعط مكسيم إنذاراً بالطرد من الخدمة"

"آه". قال التري بنعومة وقد جفل وندم بوضوح.

"أنت سمعتني!" تنم كوجيمايكين. استرق نظرة أخرى إلى المرأة ورأى ابتسامة خجولة على وجه التري المجعد، وخشي من أن يكون التري على وشك التوسل من أجل حمال الفناء.

"أسرع وافعل ما قلته لك". أمر بصوت قاس بأقصى استطاعته وظل مديراً ظهره لشاكر.

"لقد تحملت الكثير. ما حاجتي لتسكع مثله؟ ليرحل اليوم بل في هذه الدقيقة. دللناه بما فيه الكفاية. اغرب عن وجهي"

خرج شاكر بلا ضجة. غار سيده في كرسي في وسط الغرفة وبدأ يتفحص قدميه الخافيتين وهو يقول لنفسه:

"سبأتي لبيودعني. هل سأعطيه محاضرة؟ ربما على العكس هو من سيعطيني محاضرة. الرجل الوقح!"

"ليذهب إلى الجحيم!". جاء صوت مكسيم من الفناء.

ذلك يعني أنا طبعاً، قال لنفسه وهو يخفض رأسه ويصغي. عرف أنه سيعود عن قراره إن توسل شاكر لحمال الفناء أو إذا جاء مكسيم بنفسه وقال: "لماذا طردتني من عملي؟"

شعر بالرضا حين سمع تنمة غاضبة آتية، ومرة أخرى من المطبخ وغيرها من الفناء. كان مكسيم يشتم وكانت هذه راحة صغيرة لكوجييايكين الرجل وسارة لكوجييايكين صاحب العمل ومقوية لقراره في التخلص منه.

عاد شاكر. أغلق الباب بإحكام خلفه، وألقى نظرات مختلسة على النافذة المفتوحة وقال في حيرة:

"أنت مدان لمكسيم بأحد عشر روبلاً وعشرين كوبيكاً"

"أعطه خمسة عشر". قال كوجييايكين في صوت خافت.

حدث تغير على وجه التتري الطويل، مد يده وفتح فمه.

"أعرف، أعرف". قال كوجييايكين بسرعة. "أستطيع أن أخن ما نود

قوله، و-"

انحنى التتري، فتح الباب بدفعه بظهره وخرج. نهض كوجييايكين وابتعد عن النافذة ووقف يحدق بالأرض، مصمماً على طرد كل الأفكار من رأسه خشية مواجهة هاجس سوء الطالع الذي ظل يكبر في داخله.

"وداعاً يا أصدقاء". سمع أحد يقول في الخارج. "شكراً لكم"

خبط باب البوابة وسمع واحد- اثنان- ثلاثة- الصوت المتناقص
لخطوات ثابتة تمشي مبتعدة على الأرض الصلبة.... خمسة عشر- ستة عشر-
سبعة عشر.... عد. رحل دون أن يودعني. تسلل خفية مثل كلب مرعوب.
أراد أن يشعر بالمضايقة، أراد أن تكون لديه أفكار تبرر فعلته، لكن ذهنه كان
مخدراً ومملوءاً بالذعر والقلق.

طوقت كآبة الفسق الخائق البستان. ندلت الخضرة المغبرة بلا حركة.
شيء ما ظل يصدر حفيفاً في العشب العطش. نجسات صغيرة متعبة جداً
كانت تومض، ثقتب السماء المظلمة. دق شخص باب الدبر بشكل خفيف
وفي الصمت الثقيل أتى صوت رفيع بشكل يأس:

"لا يوجد لدينا مكان آخر نذهب إليه أيتها الأخت، لقد جربنا كل
الأمكن-"

هل يجب أن أذهب إليها الآن؟ فكر كوجيمايكن طويلاً وقد أتعبه
الضجر الذي يصعب وصفه. لقد تأخر الوقت وقد يكون هناك. إنه هناك.
إنه هناك بالتأكيد.

كانت أفكاره كلها مزدوجة ومتناقضة. بعد أن لبس ببطء خرج من
البوابة، وقف لدقيقة يحرق بالبلدة ثم استدار ومشى إلى الحقول الحارة
المظلمة.

حين وصل إلى مستوطنة موردوف رأى شيئاً يتحرك على إحدى الروابي.
أشعل عود ثقاب طال وقت احتراقه في الجو الذي لا ربح فيه، وأثار اليد
التي تحمله وقرصاً أصفر لوجه.
استدار كوجيمايكن في الحال.

يرتاد المكان كل أصناف المخلوقات البائسة، فكر في نفسه.

لم يكذب يجتاز خطوتين في الاتجاه الآخر حتى سمع سبينا كوماروفسكي ينادي:

"ماتفي سافيليفتش! هل هذا أنت؟"

"تعال إلى هنا. اجلس وحدثني"

سر كوجيمايكين بقاء الأحذب، لكنه بعد لحظة من التفكير قال:

"كلا، أنا لن أنضم إليك. أنت تعال معي"

اقترب الأحذب مرحباً وهو يصفر ويقشط الأرض بقدميه ويجذب كتفيه. صافح كوجيمايكين ومشى على بعد خطوة منه تاركاً الشريط الرفيع لصغيره يتبعه في الهواء وراءه.

"إذا طردت مكسيم من العمل، أليس كذلك؟" قال فجأة.

"نعم" قال كوجيمايكين وقد جفل قليلاً.

"رأيتك" قال الأحذب متأملاً وهو يقطع بورقة في جيبه "يمشي وأنفه في السماء ولديه صندوق أسود فيه كل ممتلكاته الدنيوية حمله على كتفه ويتنعل زوج أحذية جديد بقدميه يتقدم خابطاً قدميه مثل حصان ويتلفظ بكل الكلمات البغيضة عنك"

"عني أنا؟"

"نعم"

"ما هو شعورك بخصوص هذا؟" قال كوجيمايكين بعد وقفة قصيرة.

"لا أظن أنك مغرم به على نحو مميز؟"

"أنا لست مغرمأ بأحد" قال الأحذب ببساطة كبيرة ليبدو طبيعياً.

"إنه يكذب" قال كوجيمايكين لنفسه.

"لكن ألا تدرك أنك قللت من نفسك بعيون أصدقائك بسبب طرده من العمل؟" سأل الأحذب وهو يتشاءب مثل ذلك الكلب ذي العين النحاسية. انزعج كوجيمايكين وجفل.

"ما الذي يجعلك تعتقد هذا؟" سأل بتردد.

"هم لن يسامحوك أبداً"

"ليس هناك ما يسامحونني من أجله وليس لدي نية في طلب المغفرة" قال ماتفي باستياء وكبرياء.

أسرع كوماووفسكي الخطى وكأنه تذكر فجأة بأن شخصاً ما ينتظره. قال كوجيمايكين وهو يحاول مجاراته في المشي:

"هل هو خطأي أنه كسول ومهمل في عمله؟ أنا السيد ولدي الحق في إدارة شؤوني"

"في الحقيقة إنهم هم من يديرونك" قال مرافقه وهو شارد الذهن. لاحت شجرة كبيرة في الظلال فجأة وكأنها بزغت من الأرض لتوها. توقف كوجيمايكين تحتها.

"ما رأيك أن نجلس؟"

"ليس لدي مانع" قال كوجيمايكين.

استند الأحذب على جذع الشجرة وفتش جيوبه عن عود ثقاب، ضربه على سرواله وراقب الشعلة وقال في صوت خال من أي تعبير:

"لو جاز لي لقلت لك اذهب واطلب المغفرة من مكسيم فربما تقول: أنا لا أمانع"

أنساءل ما الذي يهدف إليه، فكر ماتفي وهو يصغي باهتمام.

"ولو جاز لي لقلت لك أن تقحم وجهك بوجهه فربما تقول أيضاً أنا لا أمانع"

"كلا، لن أفعل" قال كوجياماكيين ببلادة.

بعد قليل قال الأحذب بلا أي ذرة من الحقد:

"أنت لست رجلاً سيئاً، أنت أسوأ من السيئ. الرجل السيئ يجعلك تريد مقاتلته لكن أنت الشيء الوحيد الذي تجعل الشخص الآخر يشعر به هو الأسف. أنا أسف من أجلك، هذا كل شيء. أنت روسي بالكامل وللعظم. أنت وأمثالك يجب أن تطردوا إلى البرية لمدة أربعين سنة، وهي أيضاً"

"افدوتيا غافريلوفنا؟" سأل كوجياماكيين بنعومة وهو منحني للأمام.

"نعم. ليس هناك شيء تناضل من أجله. لا شيء توقره وتعده مهياً، حتى يصعب القول لماذا ولدت أصلاً"

أشعل الأحذب عود ثقاب آخر ورماه قبل أن ينطفئ.

"أنت لا تدخن، لماذا تهدر أعواد الثقاب" لاحظ كوجياماكيين لأنه لم يجد شيئاً أفضل بقوله.

"أنا أشعل أعواد الثقاب في الظلام" جاء الرد من الظلام وهو مستغرق في التفكير "أشعلها وأنا مستلق على السرير في البيت وأينما أكون" "لماذا؟"

"ويجب أن تكون عيدان كبريت روسية وليست سويدية. الروسية تحترق ببطء وبألوان مختلفة وتصدر رائحة كريهة"

إنه يحاول أن يبدو مبتكراً، فكر كوجياماكيين وهو يحرق حوله.

"أربعون عاماً في البرية" قال الأحذب كما لو كان ثملاً.

في البعيد انتصبت الغابة مطوقة الحقول بجدار مظلم غير مدرك تقريباً. بدت الأرض كما لو أنها ضغطت إلى كرة صغيرة، لكن كان هناك شيئاً مألوفاً ومربحاً ومؤثراً بعمق في متانتها وصفرها.

"أنت صنف ساخط" قال كوجيمايكين متذمراً "لا يرضيك شيء"
"لا شيء" وافق الأحذب قائلاً.

الطريقة التي وافق بها جعلت كوجيمايكين فضولياً ورغب بأن يسمعه وهو يتوسع بالموضوع - كلماته ارتدت معنى مسراً في ظلام الليلة. أراد أن يحثه للدخول في حديث عن الناس والرب وكل شيء وأن يستمع في رهبة لينسى كل شيء عن نفسه.

"أنت متفطرس جداً"، قال "هل ذلك شيء جيد؟"
"شيء جيد جداً" رد كوجيمايكين الذي ظل جالساً وساكتاً كأنه نائم.
فجأة قال الأحذب بضربة غير متوقعة:
"هل تحبها؟"

جفل كوجيمايكين من دهشته وقال:
"أنا؟ أنا - ار - أنا أميل إليها"
"هممم" نخر كوماروفسكي بفتور، لكن كوجيمايكين شعر بأن عدم مبالاته مصطنعة وأضاف قائلاً:
"أحببت أن أتزوجها -"
"يجب عليك أن تتزوج" قال كوماروفسكي "إنه الشيء الأفضل الذي ربما يمكنك فعله"

"حسناً، أفسد مكسيم كل شيء" قال كوجيمايكين بحسرة.
"انس مكسيم وانس افدويتا غافرتيلوفا أيضاً، كلاهما خارج عالمك تماماً"
وبدأ يصفر بلحن مألوف. شكل منجلي ضبابي للقمر فوق الغابة جعلها تبدو أشد سواداً من قبل.

شعر كوجيمايكين بدافع لجرح الأحذب وقال: "ماذا عنك أنت؟ تركت في المكان الحرج، أليس كذلك؟"

نهض كوماووفسكي، نفخ التراب عن ثيابه بيديه الطويلتين وقال بلا أثر من الضغينة:

"أنت غبي بلا شك يا مانفي سافليفتش، غبي ووضع"

خبط الأرض بقدمه ومشى مبتعداً في الغابة وهو يصفر.

خلع كوجيمايكين قبعته ووقف يراقب شكلاً حمل شبهاً بكائن بشري يختفي في الظلام. شد عضلاته ونفخ وجنتيه في نية الصراخ بشنينة بأثره، لكن لم تصل أي كلمة إلى شفتيه، وتوقف بسبب تطفل فكرة أخرى عليه:

أنا غبي في الحقيقة مثل دروزدوف، كل شيء أفعله مجرد صدفة وحظ.

"هيه، يا كوجيمايكين!" أتى صوت الأحذب من بعيد.

"آوه، نعم!" رد عليه كوجيمايكين.

"أنت لست غاضباً مني، أليس كذلك؟"

"آوه، كلا، رغم كل شيء أنت لم تقلها أمام أي أحد آخر"

أصدر الأحذب الذي لم يكن مرئياً صوت قرقرة كأنه يضحك ثم رن صوته ثانية:

"يجب عليك أن ترحل لفترة من الوقت"

"لماذا؟" قال كوجيمايكين لكن كوماووفسكي لم يرد.

أتى صوت طاحن لأقدام تمشي فوق عشب جاف عبر الحقول. سطعت السماء قليلاً وخبت نجمات صفر كأنها كانت تشعر بالبرد لكن الأرض ظلت حارة جداً كما كانت دائماً.

كانت زوجة القس مصيبة حين قالت إن الأحذب روح طيبة، فكر كوجيمايكين حين مشى ببطء عائداً إلى البيت. وهو مصيب أيضاً حين قال

إنه ينبغي علي الرحيل لفترة قصيرة. لا يوجد شيء أريده في الحقيقة. رغم كل شيء لم أذهب لزيارتها. لقد تخيلت أنني أريدها لكن ذلك كان بسبب غيبي من مكسيم الخسيس. وفي الواقع يجب علي أن أتزوج. يمكنني أن أجد امرأة ما مثلها، واحده لا تتكلم. إن الكلام يرهقني في هذه الأيام.

وصل إلى البيت وقد هدأ وتصالح مع قدره. وبهذه الروح أمضى عدة أيام غير شاعر بالفراغ من حوله، لكنه لم يعتد عليه طويلاً وسبب له القلق مرة أخرى، وأخيراً أثار الرعب في نفسه.

لماذا أثارت زوجة القس كل هذا؟ قال لنفسه، لقد وضعتني في مزاج الزواج ثم رمتني كم يقال. اللعنة عليها.

كان شاكر ينتقل في الفناء بهدوء يشرح لفوكا، حال الفناء الجديد أين توجد الأشياء وماذا يجب عليه أن يفعل. كان فوكا فلاحاً، طويل القامة، مدور الأكتاف، له وجه مجري مؤطر في لحية غزيرة بهنت من كل الألوان بسبب الشمس. عيناه الداكنتان تحطان على الأشياء بلا مبالاة وتحقق بسكون وكان يومئ برأسه الأصلع المدبب دون أن ينبس بكلمة رداً على التتري.

"من أي بلاد أنت؟" سأله كوجيمايكين في اليوم الذي استأجره.

حدق الفلاح بالأرض لبعض الوقت قبل أن يقول:

"كل شيء مكتوب ومدون في جواز سفري"

"هل هناك مجاعة أيضاً في المكان الذي جئت منه؟"

"نعم"

"حسناً، عش هنا في سلام وربما تسترد قواك أيضاً"

"أنا مسالم تماماً" قال الفلاح وهو يبادل أقدامه مصدراً نفخة غير

متوقعة من منخرين امتلاكاً بشعر أسود.

كانت حركته بطيئة ويلتقط الأشياء بتردد ويتهايل من طرف لآخر حين
يمشي، كأن ساقه كسرتا من الركبتين. بالمجمل كان مخلوقاً يثير الحزن.

بينما كان يجهز لجام الحصان ليذهب ويحضر الماء لكمه بوجهه مرتين،
وحين قفز الحيوان المسكين الذي أفسده لطف مكسيم وأذناه للخلف
واتسعت عيناه من الرعب، رفع ساقاً طويلة وركله في بطنه.

كان كوجيمايكين يراقبه من النافذة وصاح بصوت عال:

"هيه، أنت، ماذا تفعل؟ يجب ألا تفعل ذلك"

"إن كان علي ألا أفعل، فلن أفعل" رد فوكا بعد أن لوى رأس الحصان
لية غير ضرورية وهو يدفعه بين عريشي العربة ما جعل البهيمة ترتجف
وتغمز وترشح الدموع من عينيها.

"توقف عن فعل ذلك" صاح كوجيمايكين غاضباً. "الحيوان غير معتاد
على مثل هذه المعاملة"

"سوف يعتاد عليها" قال الفلاح بطريقة صريحة.

"ماذا أنت؟"

"لكي أجعله يعرف"

"يعرف ماذا؟ يعرف من؟ أنت؟"

"نعم، أنا" قال فوكا وهو يثبت اللجام. "أنا جديد"

"علمه بلطف"

"هو ليس بكرة لكي أعلمه بلطف" قال الحمال، وهو يهز كتفيه
بلامبالاة ويوسع منخريه.

"أنت همجي!" قال كوجيمايكين بحسرة وهو يشعر بهزيمته.

لقد حان الأوان لفعل شيء ما بخصوص هؤلاء الهمجيين من أمثاله، فكر ماتفي، لكن هؤلاء الذين ينبغي أن يفعلوا شيئاً مستمرين في التجادل حول الكلمات ووزن الأفكار.

ازداد موقفه عدوانية نحو هؤلاء الذين ينبغي عليهم أن يفعلوا شيئاً لأنهم لم يعد يأتون لزيارته.

جلس ساكناً في وحدته وأصبح غاضباً ومستاء.

أخيراً، ولشعوره بأنه مزود بما يكفي من أجل حديث حاسم، لبس أفضل ثيابه وانطلق إلى بيت القس بعد القداس يوم الأحد. مشى برشاقة وهو يشعر بالجرأة والفتنة وعقد حاجبيه ليبدو مؤثراً وفكر لنفسه:

"سوف أحكي لهم عن فوكا. ماذا ينبغي أن يفعل المرء مع رجل كهذا برايم؟"

لكن قلبه توقف وهبط فجأة حين فتح البوابة غير المقفلة. أتى نحوه عبر الفناء مكسيم في قميص أزرق جديد وبدا أنيقاً ومرتباً كما لو كان ذاهباً إلى زفافه. حديق بوجه كوجيمايكين، تردد، هز كتفيه غير مبالي وعاد ليدخل إلى البيت، مديراً ظهره العريض لكوجيمايكين وياقة قميصه تحز في رقبتة القوية.

حتى إنه قص شعره قصة جميلة، لاحظ كوجيمايكين ساخطاً، حين تراجع للوراء وحاول إغلاق البوابة خلفه دون أن يصدر ضجة ظهر العم مارك على الشرفة في تلك اللحظة وصاح بنغمة مبهجة:

"مرحباً، ادخل!"

اقترب وأخذ ماتفي من ذراعه وقاده إلى الممشى.

"هل سمعت كيف انتشرت المجاعة؟" سأل "الآلاف يموتون"

تحسر كوجيمايكين دون أن يرد. لقد توقع نوعاً آخر من الترحيب.

ذهبا إلى الكشك الخشبي في الحديقة حيث كانت زوجة القس تقرأ بصوت عال في جريدة تمسك بها على مسافة قريبة من وجهها. كانت غوروشينا تجلس بجانبها والقس متفخ ومنكوش الشعر، كان شبه مضطجع في مقعد كبير ويداه خلف رأسه. كانوا كلهم مرقشين بضوء الشمس.

"مرحباً" صاح القس بصوت غير طبيعي وهو يثب على قدميه. انتشرت حمرة من الخجل على وجه غوروشينا الشاحب المتعب وجلست معتدلة ولم تقل شيئاً؛ أخفضت عينيها حين مدت يدها لتصافح القادم الجديد. أما زوجة القس التي كانت تضع الجريدة في حضنها فقد سألت: "كيف هو تقدمك؟"

شعر الجميع بالارتباك، جلس كوجيمايكين ووضع قبعته على ركبته وتحنح.

"يا لهذه الحرارة!" هتف القس معذراً، "وحشية، أليس كذلك؟"
"نعم" وافق كوجيمايكين قائلاً.

"افدوتيا" قالت زوجة القس "من فضلك اذهبي وتأكدي إن كان الغداء جاهزاً"

"الأمر هو" قال القس وهو يشد أكمام العم "أن الفلاح يتجول من مكان لآخر وهو غير قادر أن -"

"ماتفي سافيليفيتش" قالت زوجته "أريد أن أقول لك كلمة"
دخلت إلى الحديقة أما القس فسلم وقال متوسلاً:

"لن تتأخري طويلاً يا آنا، أليس كذلك؟"

دون أن تكلف نفسها عناء الرد قالت لكوجيمايكين:

"مكسيم هنا"

"رأيت"

"كان خطأ منك أن تفعل ما فعلت"

نظر إليها نظرة جانبية وفكر: أنت الشخص الذي بدأ هذا كله.

شعر أنها تتوقع جواباً منه، فقال أول شيء خطر بباله:

"من حق كل صاحب عمل صرف عماله من الخدمة"

"هل له ذلك؟" زمجرت "بدون سبب؟"

"مكسيم كسول وصفيق جداً" قال كوجيمايكين متردداً "بالمجمل هو

ليس جيداً"

"ذلك غير صحيح" قالت زوجة القس وهي تكاد تصرخ ثم أخفضت

صوتها، وبدأت تحاضر فيه بأسلوبها الرقيق المعتاد وهي تقوده في الممشى بجانب السياج.

"إن كنت تؤمن حقيقة بالأشياء التي كنت متحمساً لها مؤخراً، كان

عليك أن تفكر جيداً قبل أن-".

عضت سوق عشب أعلى جزمته وعلقت أغصان الكشمش بسروره

وأطلقت الشمرة رائحة ثقيلة. على الجانب الآخر من السياج، هناك دجاجة

تقافىء، أغرقت كلمات زوجة القس الرتيبة. كان كوجيمايكين مسروراً

بالقافاة التي منعه أحياناً من سماع وفهم ما كانت تقول، لكنه حكم من

نغمتها أنها كانت هجومية. مشى خلفها مباشرة وإلى جانبها أحياناً، حدق

بجلد أذنيها الأحمر المتقشر الذي حرقته الشمس وفكر وهو ينفخ بضجر:

"كان يفترض بك أن تكوني القس".

"يؤلني أن أراك في الجهة الخطأ-"

توقف كوجيمايكين وقال:

"كيف ينظر العم مارك إلى الأمر؟"

وقفت بمواجهته واقتربت أكثر ومررت موجة من التجاعيد فوق وجهها.

"إذا رأيي ليس له أهمية بالنسبة إليك؟" قالت وهي تذكره باليعسوب واستدارت وهي تهز كتفها غير مبالية وقالت قبل أن تبتعد:
"سوف أرسله لك إلى هنا"

نظر كوجييايكين حوله. كان يقف في زاوية من الحديقة خنقتها الأعشاب الضارة. بزغ اللفت الأصفر والقراص والشيح الفضي للأعلى وسط شجيرات الكشمش والفريز. كان السياج المقوس المفتوح تعلوه الطحالب. علفت الشجيرات في حجاب من الظل مثل غيمة متلائة تطوف عبر الشمس، وكان هناك نشاط للشجيرات النامية تحت الشجيرات الكبيرة.

"حسناً" قال العم مارك وهو يرفع سرواله ويقترب من كوجييايكين.
"دعنا نتحدث"

نزع كوجييايكين قبعته وحدث بالوجه الأنيس الذي عرفه جيداً جداً ولسبب ما حل شياً غريباً بوجه زوجة القس فبدا مسطحاً وغير ممتع مثله.
"هذه العاصفة الصغيرة يجب أن تتوقف في بدايتها" سمعه يقول
"الصبي فخور وقد تضرر بشكل غير عادل. البس قبعتك لأن الشمس
تصيب بالقروح"

هو يلومني، فكر كوجييايكين، وسأله متأملاً:

"هل أنت غاضب مني؟"

"تلك ليست الكلمة" قال الرجل المعجوز وهو يشد سيجارته "كان
يجب عليك ألا تلطم الناس بتلك الطريقة"

مرة أخرى كان كوجيمايكين يمشي بجانب السياج وهذه المرة بجانب العم مارك. نبضت كلماته بفتور رغم نعومتها، إلا أنها جعلته يقاوم. ليس منذ زمن بعيد كانت مثل هذه الكلمات تلهمه وتسمو به، لكنها اليوم كانت تلفظ بنبرة رتيبة مثل ذباب مزعج في الخريف، تدور وتدور دون أن تلمس قلبه.

"ابن الزنى!" همس كوجيمايكين.

"من تقصد؟ مكسيم؟" سأل مارك مندهشاً.

"طبعي. هو من يقع عليه اللوم"

"هممم" قال الرجل العجوز وهو يهز رأسه "إن الأشياء أسوأ مما ظننت إذا كان هذا هو شعورك. يا ساتر! لقد ظنتك..... كنت على وشك أن أقترح عليك أن تعتذر له"

"لمكسيم؟" سأل كوجيمايكين غير مصدق أذنيه. رمى نظرة بطرف عينيه على العم مارك الذي كان يملس لحيته وقال بهدوء:

"بعدها يمكننا إصلاح كل شيء"

"عن ماذا سأعتذر؟"

"ألا تفهم فعلاً؟"

"الذي تأذى هو أنا؟"

"وهو؟"

لم يقول شيئاً لمدة دقيقة، ثم نظر العم مارك إلى كوجيمايكين بقلق وقال:
"حسناً، كيف سيكون الأمر؟"

"أنا ذاهب إلى البيت" قال كوجيمايكين وهو ينظر في البعيد "يجب أن أفكر في الأمر"

"وهو كذلك يا صديقي، فكر في الأمر. أفعل ذلك وإلا فلن نقدر أن نضبط الصبي. وخذ كلمتي إنه صبي رائع. من المؤسف أن يحدث هذا!"

صافح كوجيمايكن مارك بطريقة آلية وخرج من الحديقة رافعاً رأسه الذي شعر بأنه فارغ، ومع ذلك والغريب أنه كان ثقيلًا.

بعبارة أخرى، الكل سيان عنده: مكسيم أو أنا، حتى إنه يفكر بمكسيم أكثر، فكر كوجيمايكن وهو يمشي ببطء في الشارع. أنت خنزيرة من شارع جانبي تنخر قلقة ومستنكرة، توقفت تشم الهواء ولوت أذنيها وجرت حولها خمسة خنايصوص كانت تقفز فرحة وترعق ودفعت بأنوفها على خاصرتي أمها الملوئين بالوحل. شمشمت غبار الطريق، نفضت جلدها الكث ورمشت عيونها الصغيرة حين فشلت في البحث عن إيجاد ملجأ من هكذا حرارة. كانت هناك فراشتان صفروان تطاردان بعضهما فوق ظهرها وسمع صوت ذكر دبور أيضاً.

اختلس كوجيمايكن النظر حوله وذهب إلى الخنزيرة وركلها بكل قوته في خاصرتها. اندفعت الحيوانة بسرعة وهي تصرخ بشكل شهواني. نظر مرة أخرى في الشارع المهجور من أوله إلى آخره قبل أن يكمل طريقه.

حين وصل إلى البيت كان منهكاً تماماً من الحرارة، خلع ثيابه كلها ما عدا الداخلية منها واستلقى على الأرض. أحس بشعور سيء من الظلم والنبد من الجميع. مر الكل أمام عينيه في مظهر مبتذل دائماً وبدا له وجه العم مارك القلق غريباً كوجه زوجة القس.

إذاً يجب علي أن أطلب السماح منه. هل يجب أن أفعل ذلك؟ ظل يتمتم لنفسه ولوى شفته بازدراء حين تذكر عيون مكسيم التي توحى بعدم الثقة وحاجبيه المحنيين وقصة شعره القصيرة التي جعلت مؤخرة رأسه تبدو مثل مؤخرة رأس الجزار.

يا للطريقة التي يقدمون له فيها الأشياء! فكر بامتعاض. أراد امرأة فأعطوه واحدة. يريدني أن أجنو على ركبتي أمامه وهم يحاولون دفعي إلى فعل ذلك. ماذا يفعلون، رغم أحاديثهم عن الطبقة العليا، سوى إفساد هذا الفلاح الصبي؟ وعلى أي حال، من هو مكسيم؟ حصان أسود. حتى هذا اليوم لم يوجد ويعرف قاتل فاسيا.

لكن ذهنه طرد هذه الفكرة التي أقحمت نفسها على الفور في اللحظة التي وصلت فيها خصومته مع مكسيم ذروتها. كل أفكاره الأخرى لم تفسر شيئاً ولم تغد إلا في زيادة مرارته وامتعاضه. حين رفع رأسه فجأة شعر بأنه مثبت بالأرض وثقيل فتأوه قائلاً: "أوه يا ربي، أوه يا ربي!"

مرة تلو أخرى، تشكلت دمة في زاوية عينه، كان يزيلها بإصبعه ثم يزم شففيه ويحملها إلى الضوء ليتأملها لحظة قبل أن يمسحها على قميصه كأنه يسحق حشرة. كانت البلدة ساكنة كأنها ذابت بالحرارة، وكان الصوت المسموع الوحيد صوت جرجرة أقدام عرضية على الرصيف: قد يكونوا فلاحين أفقدهم الجوع عقولهم وأسكرتهم الحرارة، يتسولون من أجل صدقة.

زارته رؤى مروعة بعد أن غلبه النعاس في غفوة خفيفة. رأى بيلاجيا تدخل إلى الغرفة شعناء مهلهلة وشبه عارية. أتت إليه على رؤوس أصابع أقدامها، هزت إصبعها وقالت محزنة: "انتظر حتى الفجر! لا تنس - حتى الفجر!" تخطته وطففت خارجة من النافذة. بعد ذلك نقل إلى الحقول، انبطح على الأرض وألم حاد في صدره، ورأى من خلال الظلام الكثيب حصاناً أسود يعرج في قائمته الأمامية اليسرى أتى يشب من فوق التل واقترب منه كثيراً لدرجة سمع فيها صهيله كما لو أنه كان متألماً. صارع كي ينهض ويهرب لكنه كان مثبتاً بخازوق اخترق صدره. قبل أن يصله الحصان وجد

نفسه في الحمام حيث كان الكفاس ينسكب فوق الحجارة الساخنة ويصدر غيوماً من البخار الخائق. جالساً على الأرض وبجانبه مخلوق نقرح جسده كله وله وجه دروزدوف ظل يشد بسالفه ويقول في صوت غريب:

"أنا أتوسل إليك، أنا أتوسل إليك أنا أتوسل إليك..."

فجأة، انفتحت النافذة بقوة وانهمرت غيوم سوداء ثقيلة كال دخان، خيمت حوله والتقطته وحملته إلى الخارج وأسقطته على شجيرات شائكة حيث استلقى يئن ويلهث وهناك كلب غير مرئي يركض في سباق حول الشجيرات وهو يعوي وينبح. انحنى فوقه وجه ناعم بلا عيون وامتدت إليه أذرع طويلة. شعر بها تقتربان جداً منه وأوقفته على قدميه ودفعه شخص ما من جانب لآخر. لقد كان سافكا الذي بدأ يتشقلب ويتدحرج على الأرض ويصيح: "سبحان الله! سبحان الله!"

جاء حشد من الناس الداكنين بلا وجوه يركضون ويصرخون "حريق!". صاحوا بصوت واحد ورموا أنفسهم على الأرض، سحقوا الشجيرات تحتهم. وأبعدوها عنهم، يتنف بعضهم البعض ويتشبثون بوجه كوجيايكين وصدرة بأيديهم الحارة وأخيراً هربوا كلهم معاً بسرعة كبيرة وأخذت أنفاسه بعيداً. صرخ وهو يصارع ليحرر نفسه من قبضة الأحذب كوماووفسكي، وحين نجح في ذلك سقط على الأرض على رأسه ليستيقظ ويجد نفسه جالساً مستقيماً كالسهم وهو يلهث من أجل نفس وقد غرق بعرقه وغطاه الذباب بشكل كثيف.

نهض وشرب بعض شراب الكفاس وانهار على الأريكة مثل كلب ضال، فكر مرعوباً حين استلقى محرقاً بالسقف: بتلك الطريقة سأموت: وحيداً تماماً.

حل المساء جالِباً معه بعض الراحة من الحرارة، وبدأ يراجع في ذهنه كل انطباعات النهار المريعة. هذه المرة كان أقل تصلباً لأنه كان أكثر هدوءاً واعترف بصعوبة بإمكانية المصالحة.

"الآن إن كان يجب أن أتحدث إليه على انفراد وأقول: رغم كل شيء يجب أن تفهم يا مكسيم أنني سيدك وبضعف عمرك تقريباً، لهذا-"
لهذا ماذا؟ سأل صوت داخلي وحين لم يأت رد تكرر: لهذا ماذا؟
لو انتهى كل شيء فقط! هتف قائلاً لنفسه وهو يلوح بيده ليعبد الذباب عنه.

تجولت أفكاره وشردت: هذا هو موسم المطر لكن ربما لن يكون هناك مطر في هذه السنة مع هذا القحط-

طقطق مزلاج الباب وسمعت خطوات تعبر الفناء مسرعة.
هل يمكن أن تكون زوجة القس؟ سأل نفسه وهو يشب للأعلى. وفي تلك اللحظة ظهرت غوروشينا في مدخل الباب.

"أوه، ضع على نفسك بعض الثياب-"
وقفت هناك تلهث وقد احمر وجهها. لفت رأسها بمنديل على نحو سريع، تمسح وجهها بيد والأخرى منقبضة على صدرها. تكلمت بسرعة وبشكل غير متماسك. من الواضح أنها كانت تطلب شيئاً. انجبه نحوها ويده على يافته لكنه تراجع للخلف ووضع على نفسه المعطف وركض إلى الزاوية وتمتم بهياج وهو يتلمس سرواله وقد عجز عن إدخال ساقيه فيه بشكل مناسب:

"آسف - آسف"

أخفضت صوتها إلى درجة الهمس تقريباً وحنث رأسها كأنها تعترف بخطاياها:

"آنا، زوجة القس، أنا كيريلوفنا أخبرته بكل شيء - بأنك نعمته بأنه شخص عديم الفائدة وبكل شيء - إنه غاضب جداً - لقد جن من الغيظ وهو قادم إلى هنا ليحسم الأمر معك"

"آه-آه" زجر كوجيمايكين. "هل ستبدأ المشاكل من جديد؟ يا رب السماء!" "أتيت لأطلب منك - إن كان بإمكانك الرحيل لمدة من الزمن؟ أرجوك، أوه، أرجوك افعل - لا تغضب، أنت طيب جداً - ولا يختلف الأمر بالنسبة إليك. أرجوك، أتوسل إليك - ما الفائدة التي ستأتي من بقائك هنا؟ ارحل فترة قصيرة فقط حتى يحمد كل شيء"

روح طيبة القلب، فكر كوجيمايكين الذي تأثر بهياجها. ذهب إليها ودعاها بإيماءة مرتبكة:

"نعمالي واجلسي" قال.

"لقد ركضت الطريق كله والجو حار جداً"

جلست ونشرت منديلها على ركبتيها.

"كلهم ما عدا الأب ألكساندر لاموك ووضعوا الحق عليك وخصوصاً كوماروفسكي" قالت بهدوء أكثر وهي تمسك منديلها.

"الأحدب؟ يا له من شخص رائع!" هتف كوجيمايكين باندهاش.

"لكني لا ألوامك. لم أتناجلد معهم، أنا لا أعرف كيف، لكنني أختلف معهم وهو غاضب ويصرخ بي. يستمرون في التحدث بالموضوع وذلك بشيره فقط، هو فخور جداً ومتهور. هو لا يصدقني. أخبرته بأنك شخص طيب القلب حقاً مما جعله يشك بي وهددني بكل أنواع الأشياء ولهذا جئت راكضة كي أخبرك. يا ربي، لا نستطيع أن نتخيل كم أنا مرعوبة! لم يحدث شيء بسببي قط من قبل ولا أريد أن يحدث، أوه يا عزيزي. يجب ألا يحدث!"

رفعت وجهاً مدوراً ومبقعاً بالدموع وهمست قائلة:

"هذا ليس خطأي: أنا خائفة جداً من أن يحدث شيء! أرجوك ارحل"

"سأفعل، سأفعل ذلك من أجلك" تمتم كوجيايكن وهو منكسر تماماً.

تلاشى خوفه وارتابكه مفسحاً المجال لفرح كان تهليلاً تقريباً. ربت على شعرها بأصابعه ولمس وجنتيها.

"كل شيء سيكون على ما يرام" قال بتفاؤل متزايد. وضع ذراعيه حولها وقال:

"لترحل معاً. إنه ليس نداءً لك"

لكنها انسلت من عناقه وابتعدت عنه وقالت بقوة:

"بماذا تفكر! لا أستطيع فعل ذلك!"

"ولم لا؟" سأل بشهوانية. "سوف نتسلل ونهرب ولن يعرف أحد أبداً"

"كلا، لا أستطيع" قالت وهي تتحسر.

"أقصد - ليس بتلك الطريقة. سوف أتزوجك"

أسقطت رأسها وجمدت مندبليها بأصابعها وتمايل جسدها من جانب لآخر كأنها أرادت أن ترحل، لكنها لم تستطع انتزاع قدميها من الأرض. دون أن يستمع إلى ما تقوله وضع ذراعية حولها مرة أخرى.

"سنرحل بعيداً في الليل وليذهبوا إلى الجحيم!" حثها بهياج. "كل ما يفعلونه هو أن يتجادلوا ويلوموا بعضهم البعض. إنهم ليسوا ودودين في الحقيقة تجاه بعضهم، لكن أنا وأنت سنعيش معاً في سلام وهدوء. دعينا

نذهب يا افدوتيا، سأكون طيباً معك وأحبك. سأفعل ذلك حقيقة. أنا
لست ولدًا صغيراً؟ أنت ترينني كما أنا، كلي، كلي لك"

وضع يده على كتفيها واثقاً من انتصاره، لكنها انجھت نحو الباب فجأة.
"كلا، لا أستطيع" قالت بوضوح وبساطة. "أنا مملوكة لشخص آخر
مسبقاً. أنت لن تريدني الآن!"

في الصباح أدرك هو نفسه هذا، ولم يشعر بالغيرة من مكسيم، لكن في
هذه اللحظة كانت كلماتها مثل لسع سوط. تراجع للوراء ونأثاً يخنقه الغيظ:
"مسبقاً؟ أوه، ألهذا لا تستطيعين أن تقاومي!"

هز قبضته بوجهها وهو مرتجف ومتعب وفتش عن إهانات لكنه سمعها
تقول بوضوح شديد فجأة:

"لقد أخضعني لإرادته. لو أنك أثبتت أولاً -آه، حسناً! الوداع
وليباركك الرب"

هبت موجة من الأمل فيه ورمت وهجاً فوق المرأة، طهرتها كما لو كان
بالنار. رمى نفسه عليها، أمسك بيدها ونظر بعينيهما وقال:

"هل أجبرك على فعلها يا افدوتيا؟ إن كان أجبرك فهذا ليس مهماً. رغم
كل شيء أنت لست عذراء، أنت أرملة"

"كلا، كلا" صاحت مرتعبة. رفعت نفسها للأعلى فبدت طويلة،
أبعدت يدها وأمسكت بمقبض الباب. قالت شيئاً آخر لكنه لم يسمعها.

وغادرت. رمى معطفه. قبل أن يتسنى لها الوقت للمغادرة، دقت بوابة
البيت مرة أخرى وظهرت ثانية في الظلام، شكلها الصغير محني للأعلى
وتلوح بيدها له وتصيح:

"اختبئ إنه قادم!"

أطلق زئيراً، دفعها جانباً ثم اندفع إلى الصلاة، قفز من على الشرفة وقذف بنفسه على مكسيم. طرحه أرضاً وانقض عليه، وبصمت لكم جسده العضلي بقبضته، دوخته لكمة على الرأس، ترنح للوراء ثم اندفع للأمام مرة أخرى. صرخ وبدأ بركل كتلة سوداء لا شكل لها تتلوى على الأرض. كان شاعراً بصراخ المرأة ونحيب شاكر المنخفض ونخير مكسيم الذي كان يشبه نباح كلب. رقص ووثب بشعور حلو ومفرط بالأهمية على هذه الأصوات وملاءه ابتهاج حلو في كل مرة بضرب بقدمه الجسد المرن. تدرجت الكتلة التي لا شكل لها إلى السياج وانكسرت إلى نصفين، نصف وثب للأعلى وغاص في الظلال وهو يصيح:

"حاذر"

على الفور أصبح كل شيء هادئاً ما عدا ضربات قلبه العنيفة التي أرسلت ضعفاً خدرًا عبر أطرافه. شد قميصه الممزق حول جسده ودفعه شعره الذي التصق بجبينه المبلل للوراء. جاء فوكا يجبو على الأرض وهو ينخر ويصق ويحرك ذراعيه كأنه يسبح. في المدخل كان شاكر والطباخة الصماء المصابة بتضخم الدرق يتجادلان في صخب. في الحال كان كوجيبا يكين يشرب الكفاس وفوكا جالس عند قدميه وقال موافقاً ومستحسنًا:

"مكسيم مقاتل جيد"

"لكنه هزم وضرب هذه المرة، أليس كذلك؟"

"نعم، لكن أنا من تلقى ركلاتك يا سيدي"

"أنت؟"

"هذا صحيح. لك قدم طرية"

ثمكنا من سماع شاكر الذي كان يتنفس بصعوبة خلفها ويحك رأسه.

"لماذا ضربناه؟" سأل فوكا.

لم يجب كوجيمايكين فوراً. وبعد وقفة قصيرة قال التتري بهدوء:

"الأفضل أن نسأل أولاً ثم نتقاتل بعد ذلك"

رد الفلاح متأملاً وهو يسحب كسرة فئات من رأسه:

"ولماذا علي أن أفعل ذلك؟ سألت بدافع الفضول. أين نايي؟ سأحضر مصباحاً"

وأضاف في حيرة:

"يمكنك أن تعطيني قطرة يا سيدي لقاء جهودي"

"اذهب إلى الداخل واشرب بقدر ما تشاء" قال كوجيمايكين بفتور.

ظهرت نجوم شاحبة فوق الرؤوس وخفق وهج في الأفق المظلم من الشرق. ربما كانت إحدى القرى تحترق. عبر الصمت أتت أصوات غير مترابطة، هلوسات البلدة المحمومة. صوت ثمل يكاد لا يسمع يتحبب بلا كلل:

"أي-ي-ووا"

عاد فوكا إلى الفناء بمصباح ونجول وهو يحمل المصباح إلى مستوى وجهه كأنه أشعله لكي يرى هو.

نهض كوجيمايكين على قدميه. تخيل أن الكل كانوا يتوقعون حدوث شيء: ومض وجه الطباخة الشاحب الذي استطال بسبب فرط غدتها الدرقية في النافذة، فوكا الذي وضع المصباح على الأرض ظل معلقاً بدائرة الضوء، شاكر واقف بلا حراك كأنها ثبت بمسار في الأرض.

إنه يلومني طبعاً، فكر كوجيمايكين وقد ابتعد مترنحاً على ساقين ترنحفان. الكل سيلومني الآن.

تذكر رأس العم مارك البابوي وصوته الرقيق وعينه الطفوليتين والتجاعيد التي حفرت جبينه العالي ووجه زوجة القس الذي بدون حواجب ولمعان نظارها التي أعطتها نظرة زجاجة.

سيكون مكسيم نهايتي، أنذر نفسه حين تسلل إلى البيت مثل لص. بعد أن وصل إلى غرفته أخذ مقعده المعتاد بجانب النافذة بمواجهة البستان وغرق في أفكار الغد كأنه في كيس مظلم، الأفكار التي لم تؤد إلا إلى سواد من اللافهم ورغبة أكبر في تجنب الناس.

هم من دفعني إلى ذلك، هتف قائلاً لكنه عرف أن ذلك غير صحيح. في اليوم التالي جاء القس وسينيا كوماروفسكي لزيارته. كان القس منكوثاً ومسوداً ويقفز للأعلى والأسفل ويلوح بذراعيه. في البداية بدأ يوبخ كوجييايكين في همس عال وهائج، لكن لاحقاً أصبحت كلماته مفهومة أكثر وأجفلت كوجييايكين وجعلته يقف على قدميه:

"لقد ضربها، هل تسمع؟ إنه مجنون! لا يمكن فعل أي شيء معه!" وقف الأحدب متيناً وصلباً مثل صخرة ويداه في جيوبه ثم قال بشكل يخلو من العاطفة:

"الزمن وحده يستطيع أن يلقي الضوء على هذه اللخبطة. في الوقت الراهن. هذا مكانك ليس لك"

"هذا لب المسألة" قاطعه كوجييايكن "هذا مكان ليس لي. أنا لا أنتمي إلى هنا. أنا لم أنتمي أبداً".

خرج الأحدب واندفع القس متجولاً وهو يقول وقد رفع إحدى يديه فوق رأسه:

"أنت في حالة ارتباك كبير. كبير. لكنني أشفق عليك. أي عذابات مروعة عانى منها الإنسان وتحملها حتى يهاجم مخلوقاً زميلاً ويضربه، أوه، أنا أفهم- هكذا كان الأمر، اليس كذلك؟"

"لقد فقدت السيطرة على نفسي" قال كوجيمايكن بندم.

كان راغباً في طلب المغفرة منهم كلهم بمن فيهم مكسيم. ملأه هذا القلق حول مصلحته وتشوق لأن يسامح، لكن القس تجاهل صيحاته، شد ذراعه وهمس في حماس:

"سيأتي اليوم الذي يجلب فيه المحكومون وقضاتهم إلى العار"

"أنا أوافق على أي شرط" وعد كوجيمايكن لكن القس أخذه جانباً وقال على نحو غامض:

"إننا نهاجم من قبل البشر كل يوم وفي كل مكان، لكن الخير يأتي لنا في لحظات نادرة وغير متوقعة ومن مصادر غير معروفة"

"صحيح" نشج كوجيمايكن قائلاً.

"لذلك يجب أن تكون قلوبنا مستعدة لاستقبال الخير دائماً"

"يكفي!" قال الأحدب بقسوة وهو يفرقهما.

"اكتب لي عما يكمن في أعماق قلبك، أنتظر أخباراً منك بفارغ الصبر"

قال القس وهو يعانقه ويقبله بشفتين حاريتين وجافتين.

دخل شاكر وقال:

"الحصان ينتظر"

جلس كوجيمايكن ونظر حوله، رأى حدود الأشجار خلف النافذة، سواد على السماء الرمادية كأنها نحتت من الظلام.

"يجب أن تسرع" قال الأحدب في صوت خشن وعال.

أتى فوكا وعلى وجهه تكشيرة قائمة وثلثة ووقف في الممر ويداه ممدودتان كأنه مصلوب.

"منى ستمود؟" سأل شاكر وهو يتحسر.

دفع القس كوجيمايكين نحو الباب وقال:

"كل شيء سوف يحل بالشكل الصحيح"

"يكفيننا وعظاً أيها الأب" صاح الأحدب.

تلا ذلك لحظات من الاستعجال والهياج وتراكم هنا وهناك وتدافع ودمدمة وتصادم.

شعر كوجيمايكين بنفسه حين كانت عربته التي يجرها جوادان خارج البلدة. كانوا يتسلقون تلاً وقلل الحصانان سرعتهما إلى المشي. نهض ورفع قبعته ذات الرأس المستدق. كانت الشمس تشرق ولونت أشجار البتولا بلون ذهبي محمر يبهز العميون. ضيق عينيه ونظر وراءه: بدت أوكوروف مرحة وملونة مثل فتاة صغيرة لبست كل زينتها وثيابها، تراجع للوراء وتختفي خلف التلال التي أقفلت عليها مثل أصابع سافكا القصيرة التي غطاها الزغب وفيها ومنها خرج نهر بوتانيسا متعرجاً مثل الزئبق. بالتدريج اندمجت البيوت معاً واختلطت ألوانها وضاعت حدودها. بانث خضرة البساتين في ظلال خفيفة وردية ومضبئة وطفأ ضباب أزرق فوقها وأخيراً تضاءلت البلدة إلى لطخة متعددة الألوان كأن بدأ قوية عجتها مثل عجيثة.

تاق كوجيمايكين إلى النوم، لكنه أراد أولاً أن يكتشف كلمة واصفة تلخص كل شيء. تدلت ذقنه على صدره، شد كل قواه وعصر ذهنه المتعب وخرج بعبارة وحيدة تفيض بالاستياء:

لقد طردوني.

القسم الرابع

على بعد سبعة فيرسات من فورغورد، وعلى هضبة ليست عالية فوق نهر أوشكا البراق، غرس دير غني سمي باسم النبي ايليجهاء جذوره عميقاً في التراب.

من خلال الأغصان والجذوع ذات اللون النحاسي لأشجار الصنوبر العتيقة يمكن رؤية شريط أبيض عريض لسور معزز بأبراج في زواياه الأربعة. انتصب برج خامس أوسع وأعلى من الأخرى في وسط السور الأمامي فوق المدخل المؤدي إلى الفناء حيث انتصبت كنيسة واحدة شتوية وأخرى صيفية، تحيط بهما أبنية خضر صممت لأغراض أكثر دنيوية. فوق أسقف النزل والمخزن والسقائف تلالأت القباب الذهبية المحرشفة للكنيستين مع صلبانها المزين بإسراف بسلاسل ذهبية التي حلقت عالياً فوق أشجار الصنوبر. في أعلى سفح التلة هناك بستان هائل، في وسطه، بين أشجار التفاح والكرز والخوخ والإجاص وفي بحر من الخضرة النظرة من كل لون، وقفت صوامع النساك، وفي فرجة واسعة مشمسة ضمن السور البعيد هناك بيت منخفض له ثلاث نوافذ زرقاء يعيش فيه رجل عجوز جليل يدعى المبجل ايوان اشتهر في تلك الأرجاء بالسلوان الذي تجلبه كلماته للفقراء والمعذبين.

حل منتصف الصيف وراح دون أن يخفف من الحرارة المرعبة لهذا العام من القحط والجفاف. جلبت عطلة الكنيسة إلى الدير في عيد ايليجهاء أكثر من ألف حاج، لكن بعدها أصبح جو الرتابة المملة لروتين الدير أكثر

وضوحاً. حبا الرهبان الضجرون والغاضبون في المكان وفي حرارة أرضيات الدير اللزجة مثل ذباب على زجاج نوافذ، ووقف تيس هرم في طلعة مهيبة في باب الحظيرة يهز اللحية التي مشطتها الكآبة بقلق وحلق بعينين بنيتين حكيمتين بالناس الذين هرعوا إلى الداخل، إلى ظلال الأبنية. كان الرهبان المبتدئون يرتبون الأراضي ويفسلون أرض نزلهم الفسيح ويرمون من خلال النوافذ المماسح وكسر الخبز ولفائف الورق الدهني وسطول مليئة بالماء الذي كان يتبخر فور اصطدامه بالحجارة الحارة.

الآن كل المؤسسة الكبيرة المضيفة مشغولة في إعادة الترتيب والنظام. تحرك الرهبان في فتور إلى أشغالهم بينما وقفت مجموعة من الناس على قمة التل على شكل نصف دائرة أمام محل إقامة المبجل ايوان ينتظرون خروجه ليقول لهم كلمات فيها بعض الراحة والعزاء لهم.

كان كوجيمايكين من هذه المجموعة. إنه يعيش في الدير منذ شهر تقريباً، وفي الساعة الثالثة بعد الظهر من كل يوم يتسلق الهضبة عبر ممشى باليا كسرت سطحه القاسي جذور الصنوبر المعقدة والحجر الرملي النائي. كان يرمي قبعته بسرعة دائماً حين يصل على مرأى من نوافذ صومعة الرجل المعجوز، وعند الاقتراب من الناس المتجمعين ينحني جداً ثلاث مرات، مقتنعاً بأنه كان أكبر الخطاة بينهم. كان يجلس على إحدى المناضد الثلاث قرب الشرفة أو يقف جانباً تحت شجرة الصنوبر ينتظر بتوقير ظهور الرجل المعجوز ليلقي بكلماته البسيطة التي تملأ القلوب بالسلام والاستسلام.

يظهر المبجل ايوان عادة من صومعته عند الساعة الثالثة والنصف تماماً بطول عادي ومنتصب كجندي ونحيل كخفاف، يمد يداً طويلة بيضاء مباركة، بينما هناك راهب مبتدئ أزرق العينين وله شعر رقيق خفيف ليضع

كرسياً جلدياً منخفضاً خلفه ومن دون أن ينظر حوله كان يفرق في داخله، يرفع إصبعه إلى ذقنه الخفيفة المتفرقة التي بدت مثل الفضة الخالصة ما عدا بعض شعرات سوداء قليلة فيها ويرفع رأسه وجاجبيه الداكنين السميكين. بعد ذلك لا يرى المرء سوى عينيه الثابتين الباهتين ووجه رجل عجوز هادئ ونبل كأنه نحت من خشب السرو، يحمل شيخاً لافتاً مع الوجوه النزيهة الخيرة المصورة على الأيقونات بأسلوب أجنبي جديد^(٢٠).

حديق متعمداً بالناس الذين كانوا ينحنون أمامه، ضيق عينيه وازدادتا قتامة وظهر على وجهه تعبير جدي قاس لكن في اللحظة التالية لعبت تجاعيد على جانبي منخرية الناعمين وشفته الرقيقتين وذاب الوهج البارد في عينيه إلى ابتسامة ناعمة مطمئنة وأنى صوت قوي واضح وأمر من تحت شاربه الرمادي:

"أحييكم يا أخوتي باسم الأب والابن وروح القدس"

انحنى الناس وخروا على ركبهم وهم يتمتون:

"الوسيط! الشفيع! الأب المبارك!"

جلس العجوز منتصباً وساكتاً ويداه الناعمتان على ركبتيه على خلفية من النباتات المأصصة: زهور، نبتة الراعي ونبتة كوب الماء وورود أخرى براقطة طمرت في خضرة مغرية. شكله الداكن مثل أيقونة في إطار أثري: كانت الورود براقطة كالجواهر التي على إطار الأيقونة، وكان الراهب المبتدئ ذو الخدين الاحمرين والشعر المجعد مثل ملاك.

حين حبا المتضرعون إلى الشرفة ليلمسوا ثياب وقدمي العجوز بأصابع مرتعشة وقبلوها بشفاة ناتئة للأمام، انكمش للوراء وسحب قدميه إلى تحت الكرسي ولوح الراهب المبتدئ العابس للناس كي يتعدوا. نشتوا

متراجعين للخلف في فوضى كبيرة وأصبحوا سريعي الغضب وذوي طبع حاد مع بعضهم البعض بعد أن نفذ صبرهم وهم ينتظرون كلمات الرجل المعجوز عن الراحة.

"أريد أن أكلمك على انفراد يا أبونا" توسل أحد الأصوات بتلهف ورددت صده أصوات أخرى بعضها ناعم هادىء وبعضها عالٍ، بعضها مستكين وبعضها ملح. مكتبة الرمحي أحمد

"أنا أيضاً - أنا - أنا"

أحياناً وبعد أن يطيل الرجل المعجوز النظر كان يقول لأحدهم:
"قف جانباً وسوف أسمعك"
لكنه عادة يقول بنغمة عادية:

"لا أستطيع، هذا مستحيل. ترون بأنفسكم الأعداد الكبيرة منكم. ليس لدي الوقت لكل واحد منكم بشكل منفصل. ما الذي تود قوله؟ ما الذي في قلبك؟"

كان عويلهم العويل القديم نفسه الذي سمعه كوجيا يكين كثيراً جداً ورزح على قلبه كالحجر:

"لا أملك السلام والطمأنينة، أنا أبأس رجل في البشرية ويبدو ليس هناك طريقة للخلاص..."

ثم يأتي بعد ذلك الصوت المطمئن اللطيف من خلال الرائحة الحلوة لأشجار الصنوبر والتفاح الناضج:

"لا نستطيع أن نجد السلام والطمأنينة في أي مكان غير حضن الرب. يجب أن نحيا ونحن مؤمنون بطيبة الرب، يجب أن نحيا مثل الأولاد الصغار

أي أن نحيا كما أراد الرب لنا. مخلصنا كان ولدًا في قلبه وأحب الأولاد الصغار وقال لهم: إن مملكة الرب من أمثال هؤلاء"

انبعث السلام من أشجار الصنوبر التي انتصبت كالشموع، وتزخرفت جذوعها بالذهب وعبر الراتنج المقسى ونشرت أغصانها الظل الحلو فوق الأرض وتوهجت قممها كشعلات زمردية في ضوء الشمس. عبر خضرة النباتات ومض ذهب قيب الكنيسة وفضة النهر وصفرة الرمل. تدلت أشجار التفاح والأجاص بالفاكهة بسخاء كأنها موكب مهيب آت من سفح التلة. كل شيء كان بلفه هدوء حلم جميل.

حرق كوجيمايكن بالوجوه التي حفر التفكير المؤلم أخاديه فيها وثلمها العذاب. رأى عيوناً بليدة وكسولة بسبب اليأس وعيوناً احترقت بضوء مجنون، رأى شفاهاً ارتعشت ووجنات التوت وحر كات مزيفة وغير واثقة وابتسامات غريبة وغير قابلة للتعليل ودموعاً يتعذر التعبير عنها. في بعض الأوقات تراءى له أنه يتأمل جسداً واحداً عظيماً، مزقه الحزن، يرتعش متسججاً على الأرض وروحاً معذبة واحدة وبينها كان ينظر قال لنفسه:

هل يفترض بهؤلاء أن يكونوا أولاداً صغاراً؟ هل يأخذ هؤلاء الناس الأولاد الصغار نموذجاً لهم؟ لماذا، إنهم هم من يضربون الأولاد وبقسوة. لكن الرجل العجوز واصل مواساة قطيعه بابتسامة هادئة على وجهه.

"المولى حضنا على تحمل عذابات هذا العالم. هل تذكرن كيف صلى في جيتسمين؟ أبونا، دع هذا الكوب يتجاوزني. كان أصعب عليه (الرب)، أصعب مما هو علينا، لكنه خضع لمشيئة أبوه من أجل خلاصنا. أعطيت لنا هذه الحياة كاختبار ومحنة لنا. هل ولدنا لنعارض خالقنا وننتهك قوانينه وننصب قوانيننا فوق قوانينه؟ نخلصوا وارموا من قلوبكم الرغبة المتكبرة

التي ولدها الشيطان في الانتقام من الذين يكرهونكم ويستبيحونكم، فقد قيل "مبارك الحليم المتسامح. ألبسوا أنفسكم رداء التحمل، روضوا جموح طبائعكم وانعموا بسلام الرب الذي يتجاوز كل الفهم. إن مقاومة الشر لا تولد سوى مزيد من الشر"

كان يتكلم عن أشياء معينة بعينها: الصبر والتواضع والمحبة وينهي حديثه دائماً بنفس التوقيت - في الساعة الرابعة والنصف.

هذا رجل مؤمن، فكر كوجييايكيين وهو يحدق بلامح وجه المبجل ايوان الدقيقة المتقشفة.

نظر الرجل العجوز إلى الجمع الكبير من علو وهم يتخبطون عند قدميه مثل سمك رمي على رمل جاف، يفتحون أفواههم ويفلقونها، يلوحون بأذرعهم بشكل مجنون، كانت نضرة عائم تنطق بصفاقة وتردد واكتساب وصخب وإسهاب. كل واحد منهم مختلف عن الآخر. لقد مزقتهم عذابات مختلفة، عذاب كل واحد منهم جعله أصم وأعمى عن كل شيء باستثناء عذابه هو. سقطت كلمات الرجل العجوز مثل نقاط مطر صيفي مهدئة على هؤلاء الناس المصابين بكل أنواع الوجع.

"كونوا كالأولاد الصغار"

هو يمتلك الإيمان بالتأكيد، فكر كوجييايكيين لكنه أدرك بوضوح متزايد بأن هؤلاء الناس لا يمكن أبداً أن يكونوا مثل أولاد صغار ولا يمكن أبداً أن يحبوا ويعيشوا إلا كما كانوا يعيشون. ليس هناك سلام في داخلهم ولا توجد قوة في قلوبهم الممزقة والمكسورة للاعتماد عليها. لم يشاهدكم في حضرة الرجل العجوز فقط وإنما في النزول في الأسفل أيضاً ولدى كل واحد منهم نار تحترق فيه وستظل تحترق إلى آخر أيامه أو حتى تستهلكه بأكل أعضائه الحبيوة.

رغم كل ذلك باتت قناعته أكبر بهذا، زادت دهشته من الإصرار الهادىء الذي يقول فيه الرجل المعجوز لهؤلاء الناس المتعطشين للسلام والأمان والهدوء:

"تحملوا!!"

كان الحاضرون ينصتون إليه بتشوق وخيمت على وجوههم ظلال السكون وظلال المساء وبدت أشكالهم أنعم وأثقل وأكثر استرخاءً كما لو أنهم كانوا منغمسين في حلم يقظة.

قال كوجييايكين لنفسه أكثر من مرة:

سوف أطلب منه أن يسمعني على انفراد وأعري روعي أمامه.

بهذا الأمل كان يعود نازلاً التل.

في غرفته في النزول كان الأب زكريا يزوره يومياً، وهو راهب سمين مرح، عيناه مقرحتان وأجفانه متورمة تحتفي وراء نظارة داكنة. بعد رسم الصليب على نفسه، يجلس الأب زكريا إلى الطاولة التي وضع عليها السهاور ويقول الشيء نفسه يوماً تلو الآخر.

"نعال وعش معنا أيها المسيحي التقى، ما رأيك؟ الجوء هادىء هنا ويمكنك تكريس وقتك كله للصلاة من أجل هذا العالم البائس، ما رأيك؟ لماذا تواصل العيش لوحده؟ لقد وصلت مرحلة من العمر ينبغي عليك فيها أن تفكر بنفسك، ويقولون إن صحتك ليست ممتازة"

ربما هو مصيب، فكر كوجييايكين ولديه صورة مرضية لنفسه، شيخ عجوز ورع بلحية رمادية، يملأه السلام وحب البشرية، يجلس مثل المبجل ابوان في كرسي أمام الناس، يجلب لهم الراحة بكلمات يستخرجها من أعماق روحه. حبت فكرة مويخة بلطف إلى ذهنه لكنها لم تضايقه بشكل خاص:

وهكذا، هل علي أن أنسحب من رفاقي البشر مثل كل واحد آخر؟
أحياناً كان وجه العم مارك الملتحي يظهر أمامه، لكن الرؤية أصبحت
ثائية وضبابية أكثر فأكثر ونقلصت إلى ماض مؤلم.
سأكون واثقاً بأنني سأجد السلام هنا وخصوصاً إذا قدمت لهم هبة
سخية.

لكن في أحد الأيام وخلال زيارته للمبجل ايوان لمحت عيناه عين
الأعور تيونوف، أحد معرفه في أكوروف. كان يقف وسط الحشد ويستند
إلى جذع شجرة صنوبر ويداه خلف ظهره، رأسه على أحد جانبيه، شفثاه
الزرقاوان تتحركان وهو يحدق باهتمام بالرجل المقدس. استدار
كوجييايكن مبتعداً لكن ليس قبل أن يلحظه تيونوف ويحبه بإيماءة ودية من
رأسه.

لقد رأي، فكر كوجييايكن في انزعاج.

بعد قليل سمع تيونوف يقول:

"أيها الأب ايوان! هناك شكوك في عقلي حول سؤال واحد. حكمت
المحكمة مؤخراً على سكوبتسكي بالنفي إلى سيبيريا ولكن الكتاب المقدس
يقول: "لا تحكموا على السكوبتسكيين لأنهم يجذعون أنفسهم كي يبلغوا
مملكة الرب". من فضلك، تكرم وشرح هذا لغبي مثلي. إنهم يسعون
للذهاب إلى الجنة ولكنهم يرسلون إلى سيبيريا"

"أهو أنت مرة أخرى؟ لقد شرحت لك مرة يا رجلي الطيب أنني أتيت
إلى هنا ليس لأشغل نفسي في جدال عقيم وإنما لأجلب الراحة إلى قلوب
هؤلاء المظلومين بهموم الحياة. وبما أنني لست قاضياً فإن إصدار الأحكام
ليس من ضمن عالمي ومجالي"

زجر الناس بتينوف و غنموا متذمرين. انحنى الراهب المبتدئ ليهمس بشيء في أذن الرجل المعجوز، مغطياً كتفه بخصل من شعر بني كثيف. هز الرجل المعجوز رأسه.

لن يعطوه فرصة للكلام، فكر كوجييايكين وهو مرتاح. لكن تينوف ظل واقفاً على أحد اطرافه، يلف لحيته حول إصبعه ويحدق باهتمام في الرجل المعجوز الذي كان يتكلم بصوت عالٍ: "نحن نعاني ليس لأن الرب لا ينجح في سماع صلواتنا وإنما لأننا نهمل وصيائه وبدلاً من البحث عن السلام في عبس تقوي وتسليم أنفسنا لمشية الرب، نشكك بقوانينه ونوطد أنفسنا ضدها...."

"صحيح تماماً يا أبونا" قال تينوف بصوت عالٍ "نحن نتدافع مسرعين هنا وهناك مثل قطيع ضال يبحث عن راعٍ وعاجزين أن نجد أحداً"

"المولى هو راعيها ولا أحد سواه هو جلالته"

لا أريد أن أسمع هذا، قرر كوجييايكين وهو يشق طريقه عبر الحشد وينطلق في الممر المتعرج بين أشجار التفاح والبندق. وحينما كان يجتاز البوابة التي تؤدي من البستان إلى فناء النزل سمع تينوف بحبيبه بعبارات محترمة وشعر أن سؤاله يخدش مثل مخالب لعوبة.

"طاب يومك يا ماتفي سافيليفيتش، هل قضيت وقتاً طويلاً في هذا المقعد المقدس؟ هل كل أصدقائنا في أكوروف بخير وسعداء؟ هل تذكر سيمون دروزدوف؟"

لفت السؤال الأخير اهتمامه.

"أين هو الآن؟" سأل كوجييايكين.

"هنا في فورغورود، في البلدة"

وبلهجة مزاح ليست عدائية أخبره أن دروزدوف استقر مع مالكة المخبز، أرملة أكبر منه بخمس سنوات. ولته أمور نفسها بالإضافة إلى أعمالها ويحظى الآن بكل نعم الحياة من طعام وثياب وحتى الشراب في أيام الإجازات - لكن لا يسمع له أبداً أن يخرج عن مدى رقابة الأرملة أبداً.

هي لانتق فيه أكثر من ولد صغير لأنه كما تعرف رجل خيال والأرملة ذكية وهناك اشاعات بأنها قامت بدور مريم العذراء بالنسبة لطائفة خيلستي لبعض الوقت وكسبت مالها من هذا^(١). تعلم سيمون العزف على الغيتار وطور شغفه بالشعر.

"إذاً هو استقر، أليس كذلك؟"

"هذا ما يبدو عليه الامر. حسناً لم يحدث ضرر من كونه مزدهراً. إنه ليس رجلاً طماعاً"

"هل الطمع مضر؟"

"ليس مضرأ كالغباء طبعاً. الطماع الذكي لا يضر بالقضية"

"أية قضية؟"

"أوه، أية قضية. أقصد بشكل عام"

كان كوجياماكيين عطشاً لكنه لم يستطع أن يقرر إن كان سيد هو تيونوف ولم يستطع كذلك أن يودعه، وقبل أن يعرف كان تيونوف يمشي بجانبه على الطريق المعبد عبر بستان تؤدي إلى مكان إنزال بضائع الدير على النهر. حكى له تيونوف عن كل الأشياء المشوقة بأصوات متنوعة كأنه كان يمثل أدواراً عديدة في مسرحية، مرة كان يتكلم بحزن نائراً كلماته بحسرات، مرة بفرح يشدد كلمات معينة بالتحليق إلى طبقة صوتية صادحة وقحة ثم يهبط

فجأة إلى صوت خفيض عميق ورقيق وفي كل ما قاله ومهما تنكر يمكن اكتشاف مسحة من السخرية تستحوذ على اهتمام المستمع.

"هل تعرف المبجل ايوان؟"

"كلا، من يكون؟"

"إنه من أو كوروف"

"أو كوروف؟" كرر كوجيمايكين في ثقة وذعر بأن تيونوف يجب أن يكون مخطئاً في ذلك.

"هذا صحيح. ألم تسمع به قط؟ ايوليت فوفودين"

"كلا بالفعل!"

"أنا أتذكره كضابط. كان جندياً رائعاً جداً- والآن ماذا أصبح؟"

تمشيا في الشارع النظيف وفي مستوطنة الدير المزدهرة، مروا ببيوت صغيرة بهيجة تتوضع خلف حدائق أمامية. الخلفية الخضراء جعلتها تبدو كأنها خرجت من تحت الخيمة الخضراء وتقدمت في نزهة ودية على طول ضفة النهر. قابل كوجيمايكين وتيونوف أهل المستوطنة المكسوين والمطعمين بشكل جيد، للنسوة خدود حمراء كبيرة والأطفال هادئون ووقورون بالنسبة إلى أعمارهم.

"ما الذي جعله ينضم إلى الدير؟" سأل كوجيمايكين وهو متردد نوعاً ما.

"لا أعرف. اعتقد أن السبب هو الجوع" قال تيونوف الذي ظل يرفع قبعته ويكشف عن جمجمة تشبه البطيخة. "في هذه الأيام ليس هناك سوى طريقين اثنين مفتوحين للسيد النبيل الكريم النسب: إما أن يدخل وينضم إلى أحد الأديرة أو يلجأ إلى القمار- يصبح غشاشاً في لعب الورق"

"ألا يستطيع أن يصبح موظفاً حكومياً؟"

"أوه، يتوفر ذلك طبعاً. كالتجنيد والانضمام إلى الجيش فهو مفتوح للجميع"

"وهكذا الدخول إلى الدير أيضاً"

"لكن لا يستطيع كل شخص التسلق عالياً في ذلك المجال"

"إلى أي مدى من العلو؟"

"إلى إلقاء المواعظ. هم دائماً يدبرون الأمر في دفع الطبقة الثرية إلى تلك المناصب العالية، المبعجلون وأمثالهم الذين يلقون المواعظ لأنهم لن يكشفوا السر أبداً"

"أي نوع من الأسرار؟"

"كل أنواعها. الأعمال السرية وأشباهاها" قال نيونوف بشكل مرواغ متبختر كديك رومي، رأسه مقذوف للخلف ولحيته المدببة ناتئة مثل سلاح. طردت كلماته الشعور بالاستسلام الهاديء الذي أثاره جو الدير.

"لاحظ أن كل القديسين في روسيا كانوا من الأمراء أو من طبقة النخبة الثرية، لم يأت أي قديس من التجار أو الحرفيين أو الفلاحين - إلا ربما البعض من المؤمنين القدماء لكنهم لا يؤثرون أو يحسبون"^(٢٢)

"امم" قال كوجييايكين بشكل غامض "صحيح، حسب كتاب حيوأت القديسين، هناك عدد لا بأس به من النبلاء أصبحوا رجالاً مقدسين"

"عموماً يبدو أن الطبقة الثرية ستكون الأولى التي تصل إلى الرب. لكني أتساءل كيف سيبدو الأمر لو أن فلاحاً هو الذي كتب حيوأت القديسين، أيه؟"

ضيق تيونوف عينه وقهقهه، ولم يستطع ماتفي منع نفسه من الضحك أيضاً وقال:

"لكن الفلاحين لم يستطيعوا كتابته لأنهم كانوا أميين"

"صحيح، صحيح!" صاح تيونوف وقد توقف بشكل تام وأخفض صوته:

"نحن الروس على المسار الخاطئ. نحن لا نريد صرف طاقاتنا في الحصول على الذهب والفضة وإنما على التعلم. يجب على المرء أن يمتلك قدرًا خفيفًا من الذهب والفضة إن كان في مقدوره التثبيت بهما وأن يستلم السلطة ويارسها من خلالها- لكن لا أحد يستطيع انتزاع معرفة تعلمها المرء، المعرفة متجذرة في نقي عظامه"

لو كان لدي معرفة واسعة مثلهم لما أخبرتهم إلا بشيء أو اثنين! كانت الفكرة التي لمعت في ذهن كوجييايكيين وماتت على الفور لتتلوها ذكريات متسارعة من تجارب حديثة تركت له شعوراً بالمرارة الشديدة نحو العالم.

"كل غلام يأتي مسرعاً ويظن أن له الحق في الحكم علينا" نتم بعبوس "ونحن لا نعرف كيف ندافع عن أنفسنا"

"نحن أجراس بلا ألسنة. نحن لا نرن إلا عندما يخبطننا أحد من الخارج" قال تيونوف.

"هذا صحيح"

"شيء واضح وبسيط مثل الأنف الذي على وجهك. هل تسمي هذه حياة وعيش - كل واحد منا يجثم في حفرة في الأرض خوفاً من يتجسس عليه ويكتشفه هؤلاء الذين في السلطة؟ ولكن إن كان قد قيل أن "رجلاً

وحيداً في الميدان لا يكون محارباً" إذاً أي نوع من المحاربين ذلك الرجل الوحيد المختبئ في حفرة في الأرض؟"
"دعنا نذهب ونشرب كوباً من الشاي" قال كوجيمايكين مندفعاً وهو يأخذ تيونوف من ذراعه.

شعر كما لو أنه خرج من غيمة داكنة إلى النور، كما لو أنه خلع معطفاً ثقيلاً كان يلف روحه وجسده معاً، مشى عبر غرفة البار المشرقة وهو يشعر بثورة مشتعلة داخله وأخذ كرسيّاً وجلس إلى طاولة في الشرفة وفتح كل أزرار معطفه بقوة.
"اجلس" قال.

"الجو جميل جداً هنا" قال تيونوف وهو يفرك يديه معاً ويلقي نظرات على كل واحد وكل شيء حين أخذ مقعداً بمواجهة كوجيمايكين. نظر كوجيمايكين أيضاً حوله وإلى ما بعد الحاجز إلى الشارع في الأسفل.
"ما هو رأيك بالرجل العجوز؟" سأل بهدوء وثقة.

"أوه، رجل شرير، شرير جداً" قال تيونوف رافعاً إصبعه للتأكيد.
ارتسمت ابتسامة خالية من الفرح فوق وجهه المجذوم وتلاشت الندبة الحمراء التي كانت على عينه سابقاً.

"تجادلت معه خمس مرات على الأقل" تابع تيونوف بنعومة وهو يغمز كوجيمايكين: "مرة اضطرروا إلى حملي إلى سفح التل. لقد خرجت عن طوري. يا له من رجل عجوز شرير جداً"

"شرير؟" كرر كوجيمايكين الكلمة بمزيج من المتعة والألم الذي يشعر به المرء حين ينتزع شظية.

"نعم هو كذلك تماماً: شرير" همس تيونوف وظهر وميض أخضر في عينه. "أنصت لما يجب علي أن أقوله، وهو شيء لم أفكر فيه متأثراً بهذه اللحظة وإنما شيء تشكل وطرق مراراً في داخلي خلال سنين طويلة من التجربة القاسية"

أمال صدره فوق الطاولة وثبت عينه الوحيدة على وجه رفيقه وتكلم في صوت منخفض متوتر:

"من نحن؟ نحن شعب أرهقته حياة قاسية. خائفون، عراة، ثكالي، بشيء ليس أكثر من نكاشة أسنان ندافع بها عن أنفسنا. لقد انقطعنا عن جذورنا واحتقرنا تراثنا لهذا نواصل العيش بدون شرارة من الحياة، يوماً تلو الآخر، من اليد إلى الفم، على الكفاف، نأخذ ونقبل بما يأتي. إنها حياة كلب، نوع جحيمي من الحياة لكن لا ننكر أننا كسولين جداً. هل نوافقني؟"

"نعم أوافقك" قال كوجيمايكي.

"ألا، هناك، أترى؟" صاح تيونوف "نحن لسنا كسالي فقط وإنما أذكاء أيضاً" أضاف في همس مبتهج "نحن سريعون في فهم الأشياء، لدينا أذكاء وسطنا، حتى إننا أكثر حكمة في طريقتنا الخاصة"

"والرجل العجوز أيضاً؟" سأل ماتفي سافليفتش.

"حسناً، سنأتي إليه لاحقاً. أولاً الناس. كيف هي عقولهم؟ رمادية وطرية وإن كان علينا قول الحقيقة فإن التفكير يأتي صعباً عليهم فهم لا يزعمون أنفسهم في إيجاد طرق جديدة لعمل الأشياء. الجلد لديه محراثه وخنزيره، الحفيد حاز عليهما الآن. الفلاحون يمتلكون وفرة كثيرة من القوة العضلية والقليل جداً من القوة العقلية وليس لديهم احترام للعقل، ينظرون إليه على أنه ملكية تخص النبلاء. لكن أي خبر أتى من النبلاء؟ لهذا إلى أين

سيلجأ المتسولون الفقراء من أجل عزاء؟ إلى قارورة الشراب وإلى إيوليت فوفودين. واضح كالأنف الذي على وجهك، حسناً، مرة ذهبت إلى المبحل وقلت: "يا أبتي أنا لا أعرف أي نوع من الحياة يجب علي أن أحيها فقال: ولماذا تريد أن تعرف؟ هذا ليس مطلوباً منك. المطلوب منك أن تعد نفسك وتجهز للموت. أياً كانت الطريقة التي يعيش فيها الإنسان في هذا العالم فإنه سيموت في النهاية؛ الشيء الأساسي هو الجنة، مملكة الرب. أترى الآن كم هو شرير؟ هل يمكن أن تكون مملكة الرب للمتبطلين الكسالى؟ لا يمكن! لكن الرفاق من أمثاله يساعدون على مضاعفة أعداد المتبطلين الذين يوجد الكثير منهم مسبقاً بدون مساعدة منهم. ما هي كلمات راحته؟ اصبروا، أطعموا مشيئة الرب، لا تقاوموا الشر، اقتلوا جذوركم في هذه الحياة لأن مملكة الرب ليست في هذا العالم والرب لا يوجد في القوى التي تكسركم وتحطمكم وإنما يوجد في الحقيقة. حسناً إذاً، ما هي الحقيقة؟ الحقيقة يجب أن نجدها ونأخذها بيدنا مثل هراوة لندافع بها عن أنفسنا ضد كل الشرور في هذه الحياة. بقوة العقل يجب أن نجد الرب والعقل هو الحقيقة. هذه هي الثالث بالنسبة إليك: العقل والحقيقة وقوة الرب التي نخرج منها"

تورد وجهه وتوهجت الندبة التي عليه مثل فحمة حارة والحماس الذي تكلم به قلل صوته إلى همس خشن:

"ماذا قال المولى؟ ها هي الأرض اكدحوا عليها بعرق جبينكم وحولوها إلى فردوس. وحين قال المسيح مملكتي ليست في هذا العالم، لم يقصد العالم بشكل عام وإنما قصد العالم الروماني واليهودي. هذا ما كان يقصده. العالم كله فطيرتي وليس فقط هذه القطعة الصغيرة التي اقتطعها اليهود والرومان منه. بعبارة أخرى، مملكة الرب هنا على هذه الأرض: اشتغلوا بما قوم

وستقف مشيئة الرب إلى جانبكم ١ كلمات الراحة كتلك التي يقولها الرجل
العجوز تجعلنا أكثر كسلاً من قبل فقط. لنذهب إلى الجحيم! لا نريد المزيد
من كلمات الراحة. شكرًا لك! لا شيء سوى الحقيقة! الإنسان بئس
وحزين؟ عليك بالعمل! ليس هناك قوة؟ جدوا القوة. لا أستطيع؟ إذا
وداعاً. قصيرة ولاذعة. عامله مثل جندي: يمين در، أمام سر.

لم يكن هذا ذوق كوجيمايكن. ابتعد وتمتم قائلاً:

"ألم تكن قاسياً قليلاً وعديم الرحمة؟"

"ولماذا أكون رحيماً؟"

التوى وجه تيونوف ومط فمه الذي بلا أسنان في تكشيرة وغمزت عينه
الوحيدة:

"لقد استمعت إلى عشرات المتنبيين من أمثاله، في كل الأماكن من أول
الأرض إلى آخرها" واصل قائلاً وقد رفع صوته وصر زوايا فمه "واقول
لك بصراحة: ما يقولونه أسوأ من القارورة، إنه سم صرف للقوم من أمثالنا
الغارقين في اليأس. يجب أن نعلم قومنا مقاتلة أمراضهم وليس الاستمرار
في تحملها. يجب أن يتعلموا حب العمل وأن يكونوا مستعدين ونشيطين"

كما قال مارك فاسيليفيتش تماماً، فكر كوجيمايكن. يجب أن يكون هناك
شيء من الحقيقة فيه إن كان الناس من مختلف مشارب الحياة - بينما كان
يصغي حلق إلى الخارج من فوق الاسطح إلى تدفق النهر الهادئ. على
ضفته البعيدة نمت أشجار البتولا والصنوبر وتوغلت لتشكل غابة في
البعيد. حينما كان يحدق بانعكاسها في الماء تخيل أنها انبثقت من أعماقها
وكانت تنتقل ببطء وبالتدرج إلى نهايات الأرض. في الفراغات المكشوفة
انتصبت أكوام القش ومعها فلاحون في قمصان حمراء وزرق يتحركون

وسطها وهو يقذفون القش في العريات. على قمم الأشجار المنعكسة صورها بالماء جثم قارب بلا حراك، نتأ من مقدمته مجذافان يوحيان بمجسي خنفساء كبيرة. قارب أسود كبير يدفعه راهبان أسودان وثالث يقوم بدور دفة التوجيه، ترك مسارات متموجة امتدت مثل أجنحة خلفه كانت تهز الصور المنعكسة في الماء إلى الحياة وتخلق انطباعاً بأنها تعدو إلى الضفاف الخضراء بحثاً عن ملجأ.

إنه يحب أن يقضي على الرجل العجوز، فكر كوجيمايكن وقد ذهبل من عدم مبالاته التي أصنى فيها إلى كلمات نيونوف الملتهبة الذي ظل يكرر ويؤكد رسالته:

"كل شخص يجب أن يمتلك شيئاً ما يعلق عليه آماله. ما هي الحياة بلا أمل تصمم على تحقيقه؟ لنأخذك أنت مثلاً"

"أنا؟" سأل كوجيمايكن جافلاً.

"لست أنت شخصياً وإنما التجار عموماً، كطبقة"

"حسناً؟"

"وما هي الطبقة؟"

"هل تقصد....؟"

"قوة حقيقية"

"أوه، قوة، أنت قلت"

"نعم في الواقع" قال نيونوف "أين هم أبناء الطبقة العليا في هذه الأيام؟ بماذا يشغلون أنفسهم؟ لا شيء سوى المحاكم القانونية والمحاكمات. لهذا الشيء الوحيد الصحيح أن طبقته جردتهم وباتت أكثر أهمية منهم. ليس التجار هم من يبنون الكنائس والمستشفيات والمؤسسات الخيرية

والسكك الحديدية؟ أليس التجار هم من يمزق ويحفر في كل البلاد بحثاً عن أي شيء يمكن تسخيرهُ لاستخدام مفيد؟ أنا أسألك"

أوماً كوجيمايكي برأسه، وبرم تيونوف وجهه في تكشيرة وحشية وكاد أن يصرخ:

"لكنهم لم يفتنوا إلى الشيء الرئيسي. ما الذي يحتاجونه إن كانوا يريدون أن يكونوا على القمة؟ المعرفة! التعلم! ما ينبغي أن يبنوه لبس المستشفيات وإنما المدارس، لكي يستطيع كل الناس التعلم ليكونوا مفيدين نوعاً ما لاستخدام حقيقي وليعرفوا قيمة أرضهم ووطنهم الأصلي. واضح مثل الأنف الذي على وجهك، من غير التجار يستطيع أن يأتي ويساعد عامة القوم؟ القيمة الوحيدة التي يمتلكها إنسان بالنسبة إلى أغلب الناس هي في كونه يمكن أن يُسرق، لكن التاجر ينظر إليه بطريقة مختلفة. التاجر يحتاج إلى إنسان يقوم له بعمل ناجح لأن التاجر رجل عملي، لهذا يتوقف الأمر على التجار في تقديم تعليم للعوام يعرفون من خلاله قيمتهم الخاصة بهم وقيمة بلادهم. ارفع الإنسان إلى ذرى العقل لكي يستطيع النظر حوله واختيار الوظيفة والمهنة التي يحب، لا تدفعه إلى أول حفرة دون النظر إن كانت تناسبه أم لا، قد لا يكون شخصاً طيباً لكنه مخلوق حي ويؤلمه أن يقحم بتلك الطريقة"

"أصبحت كلمة تاجر لعنة وشتيمة لبعض الناس" قال كوجيمايكي متذكراً غالاتسكايا.

"ولماذا؟" صاح تيونوف "لماذا احتقر الناس القوة؟ هذا كله من فعلهم، هؤلاء، ايوليت فوفودين وأمثاله، كل ذلك بسببهم. أقول لك. شيء سهل أن تسرق القميص من على ظهر الخنوع الحليم. ليتوقف ذلك. حان الوقت

لأن نضع نهاية لكل الهراء عن الورع! كلنا اعتاد على تمزيق القمصان ونزعها عن ظهور بعضنا البعض والجلد أيضاً، لكن ذلك لن يوصلنا إلى أي مكان، نحن نظل نراقص في مكاننا في دوائر وأيدينا ممسكة بحلوق بعضنا بعضاً. وبدلاً من التغذي على ثمار الأرض نشرب دم فقير وسيء مسمم بالقودكا. ما يجب أن تفعله هو أن نلبس الإنسان ثياباً تليق بالكائن البشري ونضع الأدوات والأسلحة في يده ونعطيه كل شيء في مقدورنا، ومن أجل كل شيء نعطيه له، سوف يسدده ويعيده مئة ضعف. الرجل العاقل يدفع دينه دائماً، الأحق فقط من يحلم بسرقة مئة روبل ويهرب"

"الذي قلته صحيح" قال كوجيبا يكين بعد أن تأثر بتحمسه.

"هذا الرأس أنجز بعضاً من التفكير الصعب" قال تيونوف وهو يديق على جبينه مفاخراً "حين أنظر حولي لا أستطيع منع نفسي من التعجب من الأغبياء المتشرين في كل مكان. نعم، نعم! ماذا ينقص بلادنا هذه؟ لا شيء سوى العقل. يكفي أن نجعل الرجل ييكي ليرى ما يحدث: السيول حفرت أخاديد في الأرض والأنهار سدتها الرمال والغابات تحترق حتى باتت أرضاً جرداء والقرى أيضاً، القطعان تنقلص إلى حجم القملة والفلاحون يعيشون مثل الهمجيين: جوع وقذارة وجهل ضار. لا أحد يكثرث. يجب أن يهتموا ويحاولوا تحسين حياتهم كثيراً، لكن ليس هناك أمل في ذلك. إنه ضد القانون. نحن نعيش مثل الأسرى وليس هناك من يعلمنا كيف نعيش بصورة أفضل، والحكومة لا تهتم إلا بضرائبها. ادفع ضريبتك وهذا ما يهمننا"

أغلق عينه المتوهجة وتدحرجت دمعة كبيرة من تحت رمشه. تأثر كوجيبا يكين بعمق وتذكر وجه المبجل ابوان المنحوت بشكل دقيق وفكر: هو لم ييك أبداً لكن مارك فاسيليفيتش بكى.

"أسألك العفو والمعذرة" قال تيونوف بنعمومة وهو يحول وجهه جانباً
"إنه نوع من فتح جروح قديمة"

تنهد كوجيمايكيين واستدار لينظر بعيداً دون أن يتفوه بكلمة. أتى نسيم
المساء من التلال، رن الجرس من أجل صلاة المساء وطاف الصوت عبر
النهر إلى الغابات الزرق حيث اشتعلت قمم الأشجار بغروب الشمس.
أنه سيرحل وسأظل وحيداً مع أفكاري مرة أخرى. سيستمر الأب
زكريا في مضايقتي كي أصبح راهباً وقبل أن يعرفها سوف أستسلم
لأنخلص منه. لا يمكن إنكار حقيقة الرجل المعجوز فقد قال اصبروا لكن
لماذا علينا أن نصبر؟ تيونوف لديه طريقة جريئة في التكلم ومع ذلك يبدو أنه
يحاول أن ينال حظوة عندي.

أبعد تيونوف كوب شايه غير المنتهي للوراء وقال:

"هل ستذهب إلى صلاة المساء؟"

"كلا، لست في مزاج جيد" قال حالماً.

"ولا أنا أيضاً"

حذر تيونوف بالسما والنهر وكوجيمايكيين دون أن يراهم كما يبدو
وبعد توقف ضيق عينيه وقال:

"هل تود أن تقضي الليلة مع بعض صيادي السمك. هم على بعد ثلاثة
فيرسات عن النهر، إنهم يعدون حساء رائعاً من السمك والبطاطا
والبصل"

"لا مانع عندي" وافق كوجيمايكيين "أقول لك حقيقة: أنا متأسف
لأنني تركت رفقتك"
"وأنا كذلك"

ذهبا في الشارع الذي تلمح بوهج الشمس الغاربة بلا استعجال.
كلما تحدث كوجيمايكيين إلى تيونوف أكثر، أحبه بشكل أفضل. لم يشعر
أنه أقل منه بل ندأ له. هو لا يزال لا يثق به لكن عدم الثقة غيىها اهتمامه بما
يقوله تيونوف. تذكر انطباعه الأول عن الرجل. كان يتكلم بنعومة ومع
ذلك بدا وكأنه يصرخ بأعلى صوته.

سارا باتجاه النهر أو بالأحرى انزلقا مع الرمل. في أحد اطراف مكان
إنزال البضائع تمكن من رؤية رأس رمادي مجمد فوق حواف قارب أزرق.
"هيه! نزاريتش!"

وقف رجل ضخيم عريض المنكبين في القارب، جذبته إلى الشاطئ وحين
ضربت المقدمة بالرمل قال في صوت ودود عميق:
"اصعد!"

"عينة رائعة، ايه؟" قال تيونوف لكوجيمايكيين وهو يغمز باتجاه النوي.
"مقبول" قال كوجيمايكيين وهو يجلس وينفس الوقت لمعت فكرة في
ذهنه: قد يأخذني إلى مكان ما ويذبحني.

للرجل عينان كعيني خشف تبسيمان لهما وهو يحدق.
"مقبول- هذا ما تقوله النسوة عني" قهقه قائلاً.
"أنت آثم عظيم يا نزاريتش" قال تيونوف.
"حتى القيصر آثم في عيني الرب"

جلس نزاريتش منتصباً دون أن ينحني وهو يحذف مستخدماً ذراعيه
فقط اللتين عملتا ببطء وبلا ضجيج لذلك كان الصوت المسموع الوحيد
لفرقعة المجاذيف واندفاع الماء حين تشقه مقدمة القارب، فكان يترجرج
بعيداً معكراً الخيالات الداكنة للأبنية التي بمحاذاة الشاطئ. شعر

كوجيمايكن بالرهبة في حضرة هذا الرجل العجوز. كانوا يتحركون عكس التيار، تخيل ماتفي أنهم كانوا يهبطون في حفرة مظلمة في اهتزازات صغيرة. دندن برتابة صوت تيونوف الصريخ الموشى بمزاجه الساخر وتناغم مع الارتظام الهادئ للماء.

"انظر إليه! رجل ذو جمال نادر وقوة لا تنفد! إنه يحمل سبع وستين سنة على كتفيه كأنها عشرون، وسيحمل حتى المئة، يملك الثقة في ذلك ولم يحرم نفسه من أي شيء في الحياة. هل هناك شيء واحد يانزاريتش؟"

"أخشى لا، لا يوجد ولماذا أفعل ذلك؟ إن كان الرب أعطاني مثل هذه القوة فهو كان يقصد أن أستخدمها بالتأكيد"

"لقد استخدمتها بالشكل الصحيح لكن ليس لفرض جيد. أنت لم تكثر أبداً إلى نوع الاسم الذي ستركه خلفك. لو أردت لكنت أنجزت أشياء عظيمة وجلبت نعماً للناس وجعلت نفسك غنياً"

جلس كوجيمايكن مستسلماً لحركة القارب يحدق بجمجمة تيونوف المدببة وعينه الوحيدة المصفرة بتأثير الشمس وفكر:

ليس هناك ما يشبعه. إنه يتحدث عن النقود دائماً. إنه جشع بالتأكيد. ثم قال بصوت عالٍ:

"ما هي فائدة الأغنياء؟"

"لا فائدة لهم" أكد صياد السمك "المسيح نفسه كان صياد سمك فقير وكذلك كان أتباعه".

"أوه، كلا، إن لم يدفن الإنسان روحه بالمال، لو استخدمه بصورة عاقلة، فسيصنع له مصداقية ويجلب الفائدة للآخرين. نحن بحاجة ماسة للأغنياء. أرضنا غنية ولكن لا يوجد أحد يعمل بها ويديرها ولهذا يعيش الكل في فقر.

"لقد وصلنا، تفضلوا" قال الرجل العجوز وهو يقود القارب بصعوبة إلى شاطئ رملي: قفز خارجه، رفع المقدمة وجر القارب بسهولة فوق الرمل ثم اعتدل وصاح في صوت قوي أمر "نيكولاي!"

ومشى بخطوات واسعة إلى غباً زورق شجري بني في سفح التل، أشعلت أمامه نار تلقى بضوئها على الحفرة السوداء للمدخل. خلف الشكل الطويل لصياد السمك أتى ظلان عبر الرمال: الأول من الخلف، بدا أسود وقصيراً بسبب ضوء النهار والآخر من الأمام طويل وباهت بفضل ضوء القمر. بجانب النار وقف صبي نحيل جميل الطلعة، له عيون مدورة ووجه وقور كوجه راهب.

"هو ليس هناك تماماً" قال تيونوف "لقد تعرض لخوف شديد. احترقت أمه وأخته حتى الموت، ففقد عقله ثم عاش في دير مدة قليلة، لكنهم طردوه - اعتقدوا أن المكان غير مناسب له. تأكد أنه لو كان أكبر سنًا لصنعوا منه قديسًا" ضحك تيونوف بنعومة.

تعلق قمر من النحاس المطروق في سماء زرقاء، على الطرف الآخر من النهر وصلت الغابة إلى حافة الماء، وكانت قمم أشجار الصنوبر مثل أسنان منشار عملاق، تغطت الكتلة المنحدرة خلف الملجأ الشجري بأبيكات كثيفة وأعطتها مظهرًا ضبابيًا غامضًا، كما لو في حكايات الجنيات. كان للنهر لمعة فاترة، وبدلاً من الجريان بدأ يجيش للأعلى والأسفل دون أن يتحرك إلى الأمام. توهجت النار لتطوق القدر الأسود المعلق فوقها، وتراقصت الظلال على الرمل مثل طيور جريجة في حركات موت تشنجية.

"إذا لقد أضعت حياتك" أصر تيونوف مازحاً.

"وماذا في ذلك؟" رد نزاريتش الذي القت النار ضوءاً أحمر مترجراً على هيئته الضخمة.

استلقى كوجيمايكين على الحصيرة المصنوعة من لحاء الشجر قرب الملجأ.

يبدو أنه ليس هناك مهرب من مثل هذا الحديث، فكر.

وصلت قطعة الذهب وحديث الرجلين إلى مسمعه.

"أمرنا المولى أن نخدم الناس وألا نتواضع في قدراتنا"

"إذا لماذا يذهب القديسون إلى البوادي والغابات ليعيشوا منعزلين؟" سأل المعجوز بتكاسل.

"انظر...."

"لكن لم يعد هناك الكثير من القديسين في هذه الأيام. يزداد الناس قسوة وبذاءة كل يوم"

"إنهم بحاجة لمن يعلمهم كيف يستخدمون رؤوسهم"

"لقد تفرقوا إلى أصناف مختلفة. لم يكن في السابق سوى الفلاحين والربان والنبلاء"

"وماذا عن التجار والجنود؟"

"كانوا كلهم فلاحين. لكن في هذه الأيام هناك كل الاصناف: موظفون ومحامون ومعلمون وشرطة نهرية وكل البقية. نبيلات لا بيوت ولا وطن لمن جئن من مكان ما بدون أن نخبرن أحداً من أين"

سيطر على كوجيمايكين اليأس وقال لنفسه: كلا، ليس هناك مهرب من هذا الحديث.

أغلق أذنيه عن الحديث باستدعاء قصة هزلية لكنها مخيفة لذهنه وقد سمعها حديثاً. في إحدى الليالي وبينما كان مستلقياً في السرير في الغرفة الزرقاء الصغيرة في نزل الدير سمع شخصاً في الغرفة المجاورة يقول:

"كان غريشا في السادسة والثلاثين حين أرسله والده إلى سان بطرسبورغ لبيع حمولة من دهن الخنازير. فكر في خداع والده فأرسل رسالة له تقول لم يشتر أحد الدهن. حالما استلم الأب العجوز الرسالة جلب حوضاً نحاسياً ووضعته على الأرض في الصلاة ثم جثم على ركبتيه وقطع حلقة فمات في مكانه ولحظته"

"تس-تس!"

"نعم، لقد فعل ذلك"

"ولماذا الحوض؟"

"ليمنع الدم عن أرض الصلاة. لا تستطيع غسل الدم عن الأرض، يجب عليك أن تقشطها، لقد فكر كثيراً بالأرض"

"بأله من عجوز مقتصد!"

"حسناً، كانت الرسالة مزيفة طبعاً. حصل غريشا على سعر جيد مقابل الدهن، عاد إلى البيت وعاش كما رغب. تزوج من فتاة قصيرة، حبسها في البيت وطاف في الريف مثل ذئب بحثاً عن ضحية. ذهب إلى باشكيرز وقايض الشاي والسكر والفودغا مقابل الأرض. تدفقت النقود أنهاراً ببديه ومضت ثلاثون سنة -"

"ثلاثون؟"

"لا أستطيع القول بدقة، ربما أكثر من ذلك حتى، كبر ابن غريشا - إنه فاسيا ذلك الذي قابلته للتو - وكرر التاريخ نفسه. أرسل غريشا فاسيا لبيع

جلود الغنم في مكاريفسك، وأرسل له فاسيا نفس النوع من الرسالة معتقداً أن والده سيتحرر مثل جده لكن ليس غريشا! أرسل غريشا رداً على رسالته: يع الجلود بأي سعر تستطيع الحصول عليه وعد إلى البيت. حسناً، باعها فاسيا وعاد إلى البت فقابلته غريشا بنفس البقعة التي قطع فيها الرجل العجوز حلقة وضربه بمهماز حديدي على رأسه فأصبح فاسيا أحرق منذ ذلك الحين"

انقطع الصوت للحظة وتمكن من سماع صوت احتجاج صبي الإصطبل في الفناء.

"أنت، يا ابن العاهرة الابله!"

"بماذا مات غريشا؟"

"على الأرجح من الهرم ومن الطعام الرديء أيضاً، فقد كان يذهب إلى السوق وكلما رأى امرأة تبيع بيضاً فاسداً وتفاحاً فاسداً أو توتاً مسحوقاً، كان يبدأ بالزعيق: وما هذا؟ نحن بلدة زارتها الكوليرا وأنت تبعين الطعام التالف هنا! سأبلغ الشرطة عنك! تصاب المرأة بالهلع طبعاً. غريشا أرغانوف مواطن مهم وإن أبلغ الشرطة عن شخص تكون العواقب وخيمة، لهذا تكون المرأة مستعدة لرمي كل شيء والهروب؛ لكن غريشا يتقدم ويقول: رديء جداً أيتها المرأة الطيبة سأعطيك كوبيكا واحداً وأريحك من كل هذا المتاع الرخيص، ثم يضعه في كيسه ويطعم عائلته بكوبيك واحد"

"وماذا عنه وعن ملاينه؟"

"ملاين"

"أربعون، هكذا يقولون"

"هكذا يقولون"

"حسناً، نفرض الملايين مستحقاتها على الإنسان أيضاً" فكر كوجييايكين في هذا، إنها فكرة لا معنى لها.

أيقظه من تداعي أفكاره صوت صياد السمك:

"حساء السمك بالبطاطا جاهز" صاح وهو يتمطق "هيه أيها التاجر، تعال لتأكل"

"دعه في حاله، لا توقظه" قال تيونوف "إنه يصارع الشر"

تهامسا وهدهد الصوت كوجييايكين إلى النوم.

استيقظ عند شروق الشمس، كان السديم يتصاعد من النهر الفضي، ومن خلاله انزلق قارب والرجل العجوز وهو واقف فيه، حاسر الرأس، كتلة من الشعر الأبيض لونها وهج الصباح الباكر الوردى. كان ينحني ويرفع ذراعيه كأنه يصلي إلى الفجر ويستدعي قدوم الشمس التي لم تشرق بعد على الغابة. على الرمل وقرباً من كوجييايكين استلقى تيونوف مغطى بقطعة من الخيش. مقلّة عينه اليمنى المفقودة الحمراء تحديق في السماء مباشرة، أما عينه اليسرى فكانت مغلقة بإحكام والحاجب مشدود فوقها، نقاط من العرق علقّت على وجهه المتوتر مثل دموع وشفته تتحرك كأنه كان يتابع كلامه حتى في نومه.

هو أيضاً روح وحيدة، فكر كوجييايكين بلطف حين كان يصارع للوقوف على قدميه. لماذا يتنقل من مكان إلى آخر ويهيج الناس؟ يفجئنا ومارك فاسيليفتش تعرضا للظلم، لهذا من الطبيعي أنهما يريدان الانتقام، لكن لماذا هو يفعل ذلك ومن أجل من؟

في البعيد كان دولاب تجديف باخرة يصفع الماء بشكل إيقاعي:

"سوب، سوب، سوب" قال الماء.

استيقظت الطيور. من الأيكات أتى نداء الحسون واضحاً، وعلى التل ضحك ديك دجاج ساخراً وردت زوجته بصوت منقطع "كوكو، كوكو! ذهب كوجيمايكن إلى حافة الماء. اثنان من طيور الشنقب هربا في سباق فوق الرمل. نزع عنه ثيابه ودخل في الماء، تقلصت عضلاته بسبب برودته وملأته بالطاقة.

"لقد ضجرت من الدير، سأعود إلى البلدة هذا اليوم بالذات" صمم فجأة.

خرج من الماء بجسد بارد وجلس على الرمل لوقت طويل يدفئ نفسه في الشمس التي أشرقت الآن فوق النهر.

"مرحباً" أتى صوت صياد السمك الودود من خلفه "لقد نصبنا شباكنا والآن ستناول الإفطار. هل أحيت المكان؟"

"نعم، جداً" قال كوجيمايكن مفتوناً بالرجل المعجوز الذي كان يقف أمامه وقدماه منغمرستان بالأرض ومنفرجتان وهو ينفض شعره المبلل لذلك سقطت نقاط باردة على جسد كوجيمايكن العاري.

"يفترض بي أن أعتقد هذا!" قال الرجل المعجوز وهو يجلس على وركيه ويحك صدره.

"تيونوف متمرّد إن كان هناك واحد. إنه نائم الآن. ليباركه الرب! إنه ذكي ويرى أشياء نحن لا نعرف شيئاً عنها. لقد اشتغل علي حتى الصباح لكنني لم أمتسلم - ليس أنا!"

تحولت ابتسامته إلى تثاؤب.

"أدرك أنه يريد أن يجعل الأشياء أفضل" تابع قائلاً "لكنها لن تتحسن أبداً. ستكون أسوأ، وليس أفضل. كل شيء يعتمد على الناس، هناك عدد كبير جداً من الناس في هذه الأيام ولكنهم مختلفون كلهم" حدق كوجيمايكين بعينه المتودنتين بشكل سار.

"هنا يذهب الناس إلى الريف في الربيع ليتنفسوا هواء نقياً كما يقولون وبدلاً من ذلك يتنفسون دخان التبغ طول اليوم. مارأيك؟ هذا هواء نقى من أجلك! أو يذهبون ويطلقون النار على بعضهم مثلما فعل أحد الغرباء هنا منذ زمن ليس ببعيد. كما أطلق أحد الرجال على نفسه في سيثينا العام المنصرم. حسناً، لنذهب وتناول الفطور"

مشى بخطوات طويلة بجانب كوجيمايكن وصاح قائلاً:

"هيه! يا تيونوف! حان وقت الاستيقاظ انظر أين أضحت الشمس!" ففز تيونوف. نظر حوله وذهب مسرعاً إلى النهر. تجرد من ثيابه وغطس في الماء. دفع نفسه ثلاث مرات في ضجة ثم خرج وبدأ يصلي. كان عارياً، وجسده مطلي بالشمس، كوعاه إلى جانبيه، رسم إشارة الصليب على نفسه بعجالة بانحناءات صغيرة؛ أرسلت رجفات من رأسه نقاطاً من الماء حول كتفيه. بعد ذلك ارتدى ثيابه وذهب إلى ملجأ القارب وجلس على الرمل بعد أن حيا الجميع ثم قال راضياً:

"شيء عظيم أن تصلي للرب عند شروق الشمس وفي الهواء الطلق؟"

"لكن هل يجوز أن تصلي وأنت عارٍ؟" سأل صياد السمك.

"ربما لا، لكن علي أن أجفف نفسي"

بعد الإفطار، صعدا إلى القارب، اخذ الشاب المعتوه المجاذيف، كان الرجل العجوز واقفاً في الماء الذي غمره حتى ركبته وقال لكوجيمايكين:

"نعال ثانية، لا تنتظره حتى يأتي بك. نحن سنجلس فقط دون أن نقول شيئاً. أحب القوم الهادئين. هؤلاء المتحدثون يشيرون أعصابي وخصوصاً العور منهم"

ضحك وقد قذف برأسه الرمادي إلى الوراء وفتح فمه الملتحي إلى آخره، فبدا مثل غول، وانهمرت عليه الشمس مظهرة لون قميصه الزهري وسرواله الأزرق المرقع.

"هيه، هذا رجل طيب من أجلك!" قال تيونوف وهو يهز لحيته الصغيرة الخشنة "لا يوجد أفضل واصلق منه، إنه ذكي أيضاً ولدبه ما يستحق الإنصات إليه، لكن ما الفائدة؟ أحياناً لا أستطيع منع نفسي من الظن بأنه طيب لأنه كسول: هيه خذوا ما أملك واتركوني بسلام"

لقد سمعت ذلك من قبل، فكر كوجيايكين جافلاً وقد تذكر ماركوشا. فكر تيونوف قليلاً ثم قال:

"حين أفكر بكل الرجال من نوعه الذين قابلتهم! وهم أكثر مما نستطيع عدّه. كلهم جيدون كالذهب وكلهم كسالى. صيد السمك أكسل مهنة" ذكرني ببوشكاريوف، فكر كوجيايكين، إن كان شاكر سيموت فسأنقله إلى بلده ومكانه.

بعد أيام قليلة أدرك كوجيايكين أن هذا الرفيق الأعور المتسخ أصبح ضرورياً له وذو تأثير كبير عليه.

"الشيء المهم" قال تيونوف "أن يعرف الإنسان طبقته التي انحدر منها ويحترمها. طبقته مثل عائلته. من الخطأ القول أنا لست فلاحاً أنا صياد سمك. هذا يقسم الناس ويفرقهم وهم بحاجة إلى الانضمام معاً إلى بعضهم بعض ورص صفوفهم. انظر إلى النبلاء. مر زمن كانوا يختارون فيه ضباط

شرطتهم بأنفسهم وإلى هذا اليوم كل ماريشالات طبقة النبلاء من اختيارهم. حين يصطف كل الناس في صفوفهم الخاصة بهم تسهل رؤية أين تكمن القوة ومن يجب أن يستلم السلطة. واضح كالأنف الذي على وجهك. كل عدد يتألف من أرقام والأرقام يجب أن تتماسك وتتلاصق معاً، وكل شخص يجب أن يعرف بأنه ليس مجرد شخطة قلم وإنما هو قوة حية. تلك هي الطريقة الوحيدة التي يجعل فيها النكرات يحترمونه. حين يذهب إلى الإنسان هنا وهناك وإلى أي مكان فإنه يفسد اللعبة على نفسه وكل طبقته ولهذا السبب نرى البيادق يتحولون بشكل أحق إلى ملوك"

"صحيح" قال كوجيمايكين وهو يفكر بمكسيم.

أخذ تيونوف كوجيمايكين إلى حفلة موسيقية أقيمت في أكاديمية الفروسية المحلية لفائدة ضحايا المجاعة. كانت الصالة حارة ومزدحمة. كان هناك فرقة موسيقية تعزف، نساء شبه عاريات في ثياب ملونة خرجن على خشبة المسرح المرتجلة وغنين بأصوات عالية ثاقبة. غنين بشكل منفرد وثنائي ثم غنين ككورس معاً مع رجال في بدلات رسمية ضيقة.

"انظر" قال تيونوف "نتيجة لهذه الفاجعة انتقل أشخاص معينون إلى بقعة الضوء وجلبوا الانتباه. من هم ومن يكونون؟ تلك المرأة زوجة مهندس وتلك معلمة وتلك زوجة محام ويهودية أيضاً. جلهم من اليهود والألمان وفئة قليلة من الروس. هم ليسوا من التجار أبداً. لماذا هذا؟ من هم الأقرب إلى الفلاحين الجياع: هؤلاء الأجانب أم التجار الروس؟ انظر إلى ما يحدث: مجموعة تنكفىء لتفسح المجال لمجموعة أخرى. لولا هذه المجاعة فلن يعرف بهم أحد، لكن بفضل تلك الفاجعة فازوا بسمعة كونهم عظماء وكرماء"

جثم وكوجيمايكين معه مثل ديكين على منضدتين عاليتين وكل ما يحيط بهما أناس مملون ووقحون. جلس شبان في مكان أعلى من مكانهم وكانوا يصفقون ويصيحون ويخبطون باقدامهم. صدر عن الألواح التي جلسوا عليها صرير وأنين بسبب ثقلهم. انتظر كوجيمايكين وهو خائف ويرتعش من أن ينهار البناء كله ويرسلهم محطمين حيث كان يجلس المواطنون البارزون في صفوف لائقة، أكتاف النساء العارية تلمع تحت ضوء المصابيح وأذرعهن تلمع حين يهوين وجوههن المتوردة.

"المشكلة أن الناس لا يعرفون إلى أين ينتمون؟" همس تيونوف.

حين انتهت الحفلة وغشى تيونوف وكوجيمايكين في شوارع البلدة قرأ تيونوف أسماء لافتات المحلات التجارية بصوت عالٍ:

"شولتز ألماني، ويتنزل ألماني آخر، بوش وميتشل كنوب - انظر كم هم كثيرون"

ذهل كوجيمايكين حين رأى كم هي قليلة جداً الأسماء الروسية على لافتات المحلات، لكنه كره تيونوف لأنه لفت انتباهه إلى هذا واكتشف الطمع والحسد في كلماته.

"يجب أن يأكل الإنسان بغض النظر عن جنسيته" قال.

"واضح كالأنف الذي على وجهك. حسناً، يجب أن يأكل ولكن لبأكل كل شخص في مكانه الخاص به"

"لكن ماذا لو لم يحصل اليهود على أي مكان لهم وخاص بهم؟"

"اليهود ليسوا سيئين جداً فقد قيل إن اليهودي يسير متناغماً مع أي أحد. لكن الألمان؟ إنهم اليوم تجارنا وسيكونون غداً ضباطنا وبعد غد جنرالنا وبهذا تكون نهايتنا"

نشاط البلدة الكبيرة الصاخب أصم كوجيمايكن. حشود الناس التي ظلت تمر بجانبه وكثرة الانطباعات الجديدة جعلت من المستحيل عليه تجميع أفكاره. يوماً تلو الآخر كان يتجول في الشوارع ذهاباً وإياباً برفقة تيونوف وملاحظاته التنويرية. في المساء وبعد أن يرهق، كان يذهب ويجلس في نزل، ويراقب قاطني بلدته الصاخبين السوقيين الطنانين، ويفكر: إن الحياة في أكوروف أكثر هدوءاً واحتراماً.

وجد نفسه منزعجاً وحزيناً بسبب الضجيج وحب المال والدوامة العيشية من النشاط الذي رآه في كل مكان. الناس يتدافعون هنا وهناك كأنهم يخشون أن تفوتهم مواعيد. أثناء النهار، ليس هناك وسيلة لتجنب إلحاح المتسولين المزعج والباعة الجوالين، وفي المساء ليس هناك وسيلة لتجنب حلقة المومسات ورجال الشرطة والشخصيات الغامضة المثيرة للشكوك. "أبوجد هناك منهم الكثير!" قال في أحد الأيام راجياً أن يطلق رفيقه نقاشاً بمحمد تشوقه.

وبالتأكيد كان تيونوف جاهزاً لتفسير وشرح أي شيء وقال متحذلقاً وبفتور:

"الكثير جداً. هي ليست مهنة محترمة لكني لست من يحكم عليهم. كل الفتيات لا يمكنهن توقع الحصول على أزواج، ذلك واضح، ومن يريد أن يخلف ويحلب متسولين إلى العالم؟ بالإضافة، إلى أنه إذا لم يمتلك الرجال مثل تلك النسوة ليتلاعبوا بهن فإنهم سيقتحمون العائلات. أنت وأنا نعرف جيداً أن النسوة لا يضعن سعراً عالياً لشرفهن في هذه الأيام. لهذا ترى، حتى السيئ يملك بعض الجيد فيه.

إنه على حق، هذا الشيطان الأعور! قال كوجيمايكين لنفسه، وهو عاجز عن إخماد تقديره المتزايد لناصحه رغم الانزعاج الشديد الذي كان يثيره فيه. استحضر كوجيمايكين صورة لنوع آخر من الحياة: رأى نفسه جالساً وسط قومه في أكوروف، يتحدث لهم عن أنواع الأشياء في نغمات هادئة وهم جالسون يصغون إليه بانتباه جذل.

يمكنني أن أحكي حول أشياء كثيرة الآن، فكر، لكن؟ كيف سأعود إلى البيت؟ سوف أتسبب بهياج. التفت إلى تيونوف وقال:

"هل لك أية علاقة مع الحاكم؟"

"نعم، في الواقع - كنت ألقى خطبة في محكمة المقاطعة" قال بدفعة فخورة من رأسه "خطب دفاع عن المضطهدين لكن هذا بات ممنوعاً الآن - لا يسمح لأبي أحد أن يلقي خطبة سوى المحامين المرخصين. لقد دبس المحامون الأمر. فهم لن يكسبوا شيئاً حين يترافع الفقراء في قضايانا. أتفهم؟ القصة القديمة نفسها. بالإضافة إلى أن كل واحد الآن يحاكمه موظفون حكوميون ويحكمون عليه، لكن هل نظن أن في مقدور موظف الحكومة فهم كل أصناف الناس؟"

كانا يجلسان في حانة مكتظة. تفحص كوجيمايكين الناس من تحت أجفان مسبلة واقتنع بأنهم كانوا يخادعون ويزيفون، وبدوا له أنهم يستمتعون مرحين بوقت جيد في هذه الغرفة المزدهجة التي يملأها الذباب ودخان التبغ، لكن هذا كله مظاهر وتظاهر. وجوههم محمرة من الجعة والحرارة، بلوحوون بأذرعهم كأنهم غرقى أو يستعدون للقتال، يصرخون بلا سبب، يكيلون المديح المبالغ به لبعضهم البعض أو يشتمون بعضهم لأنفه الأسباب، وبعد لحظة ينسون خلافاتهم ويقبلون بعضهم البعض بصخب.

كان هناك صندوق مشغل يعزف الموسيقى وينفخ أبواقاً حادة ويضرب طبولاً مفرقة بأقصى صوت ممكن، وبدا كما لو أن الناس أيضاً، العاملون في المتاجر والحرفيون والموظفون والتجار، كانوا مثل صندوق الموسيقى، تمت برمجتهم وإعدادهم للمرح، لكنهم كانوا مكسورين من الداخل.

فقدوا المرح الحقيقي وعرفوا ذلك وحاولوا أن يخفوه عن بعضهم البعض. كان هناك رجال ثملون يعربدون من حين إلى آخر ثم يهدؤون فجأة ويخنون رؤوسهم ويتكلمون بأصوات صاخبة رزينة. قال كوجييايكي لنفسه وهو يراقبهم: كلهم أنذال بلا شك.

لمح وجهاً هائجاً، عيناه محمقتان ومنفختان ولا حياة فيهما مثل وجه غريق، كما لاحظ انطباعات لابتسامات مرعوبة واعتذارية، عبوس وحشي، أسنان عارية، قبضات مشدودة بقوة لناس جاسوا لوحدهم. بين الحين والآخر كان أحد هؤلاء ينهض ورأسه محني للأسفل ويختار طريقه إلى الباب بحذر فيتخيل المرء أنه خرج ليكيل الضربات لأحد ما أو ربما ليعترف بارتكاب جريمة.

خرق صوت تيونوف الضجيج والفوضى بسهولة إبرة تثقب جلدًا مهترئًا.

"ليس هناك شك في ذلك. إن لم يلتحم الناس معاً فهم محكومون بالعيش في خوف بسبب افتقارهم إلى الإيمان وافتقارهم إلى الروح...."

ليذهب كل ذلك إلى الجحيم، فكر كوجييايكن. أنا راحل.

في طريق عودتهم إلى الخان قال تيونوف:

"متى ستعود إلى وطنك؟"

"ماذا تقصد بالوطن؟"

"أو كوروف"

"اه، لم أفكر فيها".

احتشدت الأبنية الكبيرة للبلدة معاً وحدثت بعبوس بالناس مثل سادة قساة يضعون نظارات على عيونهم. مرت العربات مجلجلة، عند تقاطع الطرق توجد أشكال مريبة لأشخاص كانت تتلاشى في نهاية الشارع. مومسات يسرعن وراء الزبائن، القبيحات منهن يختبئن في ظلال مداخل البيوت حيث يمدن أياديهن ويشدن أكمام المارة، الأصغر عمراً والأجمل تحت أضواء الشارع يضحكن بصوت عال وبلا حياء. أزرار رجال الشرطة النحاسية تلمع في الظلام. مقاطع أحاديث غريبة تصل إلى المسامع:

"سأعصره وأخرجها منه...."

"عاشق بشكل رهيب"

جاء ثملان يترنحان في الشارع، قال الأول للآخر:

"إنه للرجال القساة من أمثالنا...."

تحدث تيونوف بصوت منخفض لكن كالعادة بدا وكأنه يصرخ:

"أنا لم أغرم بأكوروف تماماً. إنها ليست بلدة بمعنى الكلمة - حتى ليس

فيها سكة حديد. إنها نوع من نقطة انطلاق فقط"

"كنت أفكر أن كنا سنعود إليها معاً"

"هذا سيكلف تسعة رويالات وثلاثون كويكاً وروبلان لقاء الطعام

والشراب في الطريق"

"يسرني جداً أن أدفع لقاء ذلك"

توقف تيونوف لحظة قبل أن يقول:

"سأفكر في الأمر. شكراً جزيلاً لك"

لم يحب كوجيمايكين رده، هناك شيء ساخر على نحو مهين في "شكراً جزيلاً لك"

حين كان مستلقياً في سريره قال لنفسه:

"سأعود إلى البيت غداً حتى لو اضطرتت إلى ذلك لوحدي. ليس جديداً علي أن أكون وحيداً. لقد أضعت ما يكفي من الوقت في التسكع هنا وهناك مثل سمكة خارج الماء - شهران تقريباً. سوف أرقع الأمور في البيت بطريقة ما. سأذهب وأتحدث مع العم مارك فاسيليفيتش - ليكون وسيطاً بيني وبين مكسيم. قد يقبل مكسيم بالمال تعويضاً عن الضرر الذي سببته له"

عندما التقى بتيونوف في الصباح قال:

"أنا راحل في هذا المساء"

"هذا المساء؟"

ضغط تيونوف شفثبه وحدث بعين قائمة لفترة قبل أن يقول:

"حسناً، في هذه الحالة، أتمنى لك الحظ الطيب"

"إن عدت إلى أو كوروف، تفضل بزيارتي"

"سأفعل بكل تأكيد"

"سأكون مسروراً برؤيتك"

"شكراً جزيلاً لك"

من الواضح أن تيونوف كان مستعجلاً للمغادرة، ظل يتنقل من قدم لأخرى، وينظر حوله ويمسك لحينه المتنافرة. رفيق بلا إحساس، فكر كوجيمايكين وهو يستأذنه بالانصراف. لا يمكن مقارنته بمارك فاسيليفيتش. يذكرني بما قاله كوماروفسكي مرة عن الخل: هو الخل بعينه.

والعم مارك دبس السكر. مع ذلك أنا لن أنسى تيونوف أبداً. أتساءل ماذا يدور في داخله؟ يبدو أنه فخور. صحيح هذا القول: ليس هناك طريقة لرؤية ما في داخل روح الآخر.

حين وصل إلى بلدته في الصباح الباكر، أتى سرب من اللقائق طائراً فوق الحقول الجرداء لملاقاته والترحيب به وفي السماء الفرغة فوقه، علق صقر وبدا مجرد نقطة في السماء الزرقاء.

تفرج كوجياماكيين على البلدة من وراء ظهر الحوذني. قطب وعبس حين رأى كم هي صغيرة وباهتة في الوادي الضيق، بين هضبتين بنيتين شائكتين. بدت وكأنها ذبلت في ذلك الصيف.

في صمت الصباح، سمع أصواتاً مألوفة لأذنه: صانع البراميل كان يعمل.

"طوب-طوب-طوب-طوب"

اللقائق صاحت:

"بيو-بيو-بيو-بيو!"

ما إن دخل الفناء حتى تكون لديه حدس بارد بحدوث شيء ما. شاكر الأشد شحوباً وذبولاً مما سبق اندفع إلى الخارج لملاقاته وهو يتحجب وينشق، يضحك ويبكي في الوقت نفسه، رقص حوله وحضنه بين ذراعيه وأدخله إلى البيت بسرعة ثم أغلق الباب. وقف قبائله وقد امتدت رقبته المجددة إلى الخارج ولهث قائلاً:

"مشكلة، مشكلة، يا لها من مشكلة!"

حاول كوجياماكيين الذي جمد من الرعب أن يفهم ما حاول التتري أن يخبره به في همس منخفض وبكثير من التلويح بيديه. أخيراً فهم أن

غالاتسكايَا ونسيف ذهاباً إلى الريف وأخذوا طعاماً للفلاحين الجائعين فأمسك بهما رجال الشرطة واعتقلوهما ثم أعادوهما إلى البلدة؛ وفي الليل فتش الدرك البيت واستجوبوا شاكر وفوكا عن المكان الذي ذهب إليه سيدهما.

"أخبرهم فوكا بأنك ضربت مكسيم - إنه رجل سيء جداً ولا يمكن الاحتفاظ به"

تابع شاكر قوله وهو يقفز هنا وهناك بهياج بأن العم مارك وكوماروفسكي وروغانسيف ورجل وزوجته يعملان في مجلس البلدة جمعوا وأرسلوا إلى خارج البلدة.

صفر كوجيمايكين بقلب خائر.

"ضربني أحد رجال الدرك على أنفي وصرخ قائلاً إنه سيضمني في السجن"

"يبدو أنني أنا أيضاً سأوضع في السجن لأنني سمحت لهم باستخدام بيتي" تتم كوجيمايكين وهو يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً. "وهل أخذوا مكسيم؟"

"لقد أرسلتهما زوجة القس هو وافدوتيا إلى مخيم لنشر الأخشاب بعد أن رحلت مباشرة"

إذاً، لقد رحل، فكر كوجيمايكين بارتياح. الآن لم يعد عليه أن يناقش المسألة مع أحد ولا حتى التفكير فيها.

نصف خوفه حل محله التأسف على خسارة مارك فاسيليفيتش ولم يكثر بغيره وأزعجته أفكاره عن رجال الشرطة.

"هل سألك الدرك عني كثيراً؟"

"لقد أخبرهم فوكا. إنه رجل غبي وقام بضربي وضرب الجميع كما أنه لا يحب العمل"
"سوف أتخلص منه"

واظب على حياة هادئة، فقد مكث في البيت طول الوقت كأنه ينتظر حدوث شيء ما، وكان يذهب إلى الكنيسة بانتظام ويرى القس هناك. القس بشكله المهمل وشعره المنكوش كعادته لكنه بدا أكثر خضوعاً واستسلاماً؛ إذ كان يقوم بطقوس الكنيسة باستعجال وينسم بشكل نادر ورجاء أقل من ذي قبل؛ شعر كوجيمايكين بدافع للصعود إليه في مناسبات كثيرة ليطلب منه أن يباركه ويستفسر عن أصدقائه، لكن كان هناك شيء يمنعه من ذلك دائماً.

مر الوقت جالِباً معه الضجر القديم. حنّ للخروج إلى الناس والتحدث معهم. حاول التحدث مع شاكر وكان التري يصغي إلى وصفه لتيونوف والبلدة الكبيرة، ثم يتحسر دون أن يعلق ويسبل عينيه اللتين أصبحتا خافتين ودامعتين.

وفي أحد الأيام قال:

"لا يمكن أن تكون الحياة أفضل. لقد طرد الناس الطيبون ولم يسمح لهم بالعيش. يجب أن تكون هناك يد قوية تحكم كل شيء. إذا لم يكن الناس طيبين فلن تكون الحياة جيدة"

لبس فوكا قميصاً أحمر وسروالاً أسود وربط حزاماً من صنع الراهبات حول خصره فبدا مثل صاحب حانة وبدا كأنه ينتظر شيئاً أيضاً. كان يخرج إلى الفناء، قدماء منفرجتان وإبهامه على الحزام، يحدق بعينين زجاجيتين بالبوابة.
"ماذا تفعل هنا؟" سأله كوجيمايكين مرة.

بصق ثم قال: لا شيء.

"هل تنتظر أحداً؟"

"من ذا الذي أنتظره؟ أنا لست من هذه الأصقاع؟".

في المطبخ، بعد العشاء، كانت أورينا الطباخة المريضة بفرط الدرق تفتش رأسه من القمل وتحكي له خرافات مثل ولد صغير. من وقت إلى آخر كان ينظر في وجهها وينخر ويصيح:

"بالراحة! أنت تجزين شعري! سمعت تلك القصة من قبل، احكي لي واحدة أخرى"

بدأ كوجيمايكن بخشاه، ولأنه لم يملك الشجاعة على طرده من العمل، قرر أن يبيع تجارة الحبال وصنعها، ويظل هو وشاكر لوحدهما: لكنه شعر بالأسف بالافتراق عن المكان الذي تصنع فيها الحبال.

سوف أنهى تجارتي في الربيع ببساطة، قرر كوجيمايكن أخيراً. ماذا سأفعل بها بأي حال؟

حاول قراءة الكتب التي تركها العم مارك خلفه؛ بدأ بأحدها:

"في المجلد السابق من هذا العمل....."

ثم في مجلد آخر:

"الثقافة أو الحضارة بالأحرى بالمعنى الاثنووغرافي الأوسع للكلمة تتكون بالمجمل من -"

هذه ليست لي، استنتج كوجيمايكن بعد توغله في الصفحة الاولى ثم أغلق الكتاب.

في حنينه إلى الرفقة البشرية، تشجع وفكر بما قاله له تيونوف:

"ينبغي للإنسان أن يعيش مع طبقته، طبقة الإنسان عائلته"

وفجأة وبسهولة أدهشته، وجد نفسه في وسط تلك العائلة، ففي أحد الأيام ذهب إلى متجر بسولوف ليسدد فاتورة اللحم، وبعد محادثة قصيرة دعاه بسولوف إلى الغداء في يوم السبت التالي.

كان اليكسي ايفانوفيتش بوسولوف مكتئباً جداً، متوسط الطول وله رقبة طويلة جداً لدرجة أنه لقب بالقارورة. وجهه أحمر وليس له لحية مثل وجه مخصي باستثناء خصل من الزغب المائلة للحمرة توضع حول زوايا فمه. غطت رأسه نتوءات وفي مكان حاجبيه نتوءان تدلى منهما شقان صغيران للعيون. لديه عادة في توسيع منخري أنفه العريض حين يستنشق بصخب وينخر كأنه يكبح شيئاً يحاول الفرار من بين شفثيه المطبقين بإحكام. كان يتكلم قليلاً وينشج لكنه يصفي للآخرين بانتباه، يدير أذنيه الكبيرتين نحو الصوت ويضيق عينيه الضبقتين أكثر.

زوجته مارفا اغناطييفنا، أطول منه فهو لا يصل إلى كتفها وتبدو مثل دمية. كانت مدورة وممتلئة، رقبتها ناعمة بيضاء، ووجهها كالبورسلان رسمت عليه عينان زرقاوان بدقة، شفتان حمراوان لامعتان تنقوسان في ابتسامة كلما تكلمت وهذه الابتسامة أيضاً بدت مرسومة على وجهها وكان مضمونها:

"يمكنك أن تفكر بما تشاء طبعاً لكني أعرف بما أتحدث"

تناولوا الطعام في غرفة صغيرة غصت بالأثاث بشكل فوضوي. على أحد جدرانها، علقت صورة حريق لون لبه بفرشاة عريضة فسالت على الإطار مثل دم. تحدث المضيف والمضيضة بصوت منخفض كأنها يخشيان إيقاظ شخص وقفا في حضرته برهة.

"هيه، ناوليني الفلفل" قال القارورة لزوجته "ألا ترين أنني

بحاجته؟"

رفعت يدها الممتلئة البيضاء وهي تبسم ثم عادت ووضعته كما كانت مثل كمكة بيضاء طرية وناعمة.

تضايق كوجيمايكيين وشعر بالارتباك بسبب فظاظة بسولوف مع زوجته. تضايق بشدة وفي نقطة كان منزعجاً وحزيناً بشكل خاص قال لمضيفته: "لديك زوج صارم"

"هو يفضب ويكون سيء الطبع في النهار دائماً" ردت بهدوء.

رقت ملامح زوجها على الفور وقال بشكل أكثر تهدياً:

"والا فكيف يتحدث الرجل إلى النساء؟ إنهن حارات"

بعد لحظة، نظر إلى زوجته وازداد تعبير وجهه قساوة وبات أكثر كرهاً مما سبق.

هو نفسه لم يشرب سوى قليل من الفودكا لكنه فرضها على ضيفه وظل يقول لزوجته:

"غفوت مرة أخرى؟ املاي له كأسه"

حين رفض كوجيمايكيين الكأس الأخرى، نخر مضيفه باستهجان وأسبلت مارفا أجفانها كأنها متعبة.

لم يستطع كوجيمايكيين أن يجد ما يتحدث به مع هذين الشخصين. حين ذكر مجلس البلدة قال القارورة:

"لصوص كلهم"

أراد كوجيمايكيين أن يقول: لكنك واحد منهم" وبدلاً من ذلك سأل مضيفته إن كانت تعرف سبب القتال الذي حدث في زفاف آل سماغيز.

"لقد غادرت العرس قبل أن يبدأ القتال" قالت بابتسامة تخلو من الإحساس.

"من بدأه هو نيكون ما كلاكوف" قال القارورة.

"أهل بلدتنا يعيشون كاهلهمجين" قال كوجيبا يكين.

نخر بسولوف وفكر للحظة وقال باستمتاع:

"هير"

قدم الشاي بعد الغداء.

"ألا تود فنجاناً آخر؟" قالت مارفا بإلحاح.

"كلا، شكرًا لك"

"أوه، لكن يجب عليك ذلك. واحد آخر مع المربي"

ابتسامة مثل شروق الشمس أضاءت وجهها في كل مرة تنظر فيها إلى ضيفها.

أما زوجها فقد جلس فقط يراقب كوجيبا يكين وهو يشرب وكان ينبج مصدرراً الأوامر لزوجته.

"املايها! ناوليني الكعكة!"

تلاًلاً وجهه بالعرق وبدأ طحاله يذوب من الحرارة وقال فجأة:

"لماذا تعيش مثل ناسك يا ماتفى فاسيليفيتش؟ هل أنت واحد من كارهي البشر أم ماذا؟"

لم يستطع كوجيبا يكين الذي خدره الطعام وخبلته فترات الصمت الطويلة أن يجد شيئاً يقوله.

نفخ القارورة وجنتيه ومسح وجهه بمنديل ملون وقال:

"هل تلعب الورق؟"

"كلا. لا أعرف كيف ألعب" قال كوجيبا يكين.

في هزة لرأسها فككت مارفا الزرين العلوين لقميصها القطني الأزرق
ومررت بدها على رقبتها وقالت غير مبالية:
"هم سوف يعلمونك"

"نحن سنفعل ذلك بالتأكيد" أكد القارورة "نعال يوم الأحد القادم،
سوف أَدعو بازونوف وسماخين أيضاً. تعال"
"شكراً لك. سأفعل" قال كوجيمايكين.

أصبح مضيفه أكثر حيوية وذرع الغرفة ذهاباً وإياباً ثم توقف أمام ركن
الأيقونات الذي كانت فيه عشرة صور بإطارات ثمينة.
"نعال، ذلك رجل صالح"

قرر كوجيمايكين الذهاب إلى البيت خشية أن يفقد كرامته بعمل غبي فقد
كان مغموراً برغبة في النوم ومرتبكاً بابتسامات مارفا وقميصها الذي فككت
أزراره. ودع مارفا دون أن ينظر إليها. أما القارورة فقد أمسك بيده بقوة:
"مؤكد من أنك ستأتي!" قال مهدداً تقريباً.

في يوم الأحد تفاجأ كوجيمايكين بالترحيب الذي قابله به مواطنو بلده
البارزون. بازانوف الذي قدر عالياً لكونه ابن أبيه وأصبح عمدة البلدة
الآن. كان سلساً جداً ونظيفاً؛ ويرتدي معطفاً من الفراك كاد يلامس
الأرض أعطاه مظهرأ مصقولاً كاذباً وقد طلى شعره بالزيت حتى بدا لامعاً،
وشذب شاربه ولحيته ومشطهما بشكل جميل وكان يلمسها بحذر بأصابعه
التي لبس فيها خواتم وبدت كأنها مصنوعة من زجاج. لم يكن هناك شيء
يميز في وجهه المنفوخ ولا وجه زوجته التي لبست بطريقة أنظرف؛ وضعت
منديلاً أحمر على رأسها، ولبست تنورة مشجرة وقميصاً حريراً أحمر داكناً
وحلقاً قديماً تدلى للأسفل حتى كتفها ووضعفت قفازات على يديها.

الضيف الثاني من حيث الأهمية كان سماغين كبير الكنيسة وشيخها. لبس قميصاً فضفاضاً، ومعطفاً بحواشي كاملة مثل تاجر وحذاء طويل الساق وطرياً. كان رجلاً بديناً، وجهه حليق بالنسبة إلى قس وعيناه جاحظتان ودامعتان ولهما نظرة مؤذية. أما زوجته فلبست ثياباً سوداء بالكامل، مثل راهبة. طويلة ونحيفة ولها فكسي فرس وشفة عليا قصيرة كشفت عن أسنان بيضاء لماعة.

الزوجان الثالثان، ريفياكين، تاجر الأقمشة وزجته. كان ريفياكين رجلاً طويلاً وذابنية رخوة، له لحية مدبية وعينان غير متناسقتين: عينه اليسرى زرقاء فاتحة اللون ولا تتحرك، تحدق بشكل مستقيم عبر الناس في البعيد؛ عينه اليمنى: كانت أغمق لوناً وتتأرجح باستمرار من طرف إلى آخر كأنها معلقة بخيط. وجهه أيضاً يتقصه التهازل: الطرف الأيسر مرتخ ومنفوخ كأنه تعرض لصفعة وطرفه الأيمن يظل يغمز كأن ذبابة غير مرئية تعضه منذ الأزل. زوجته ماشا، كانت عققماً صغيراً، مرحة وشكلها جميل، عيناها كالبرقوقي وتعبير مراوغ على وجهها ذي الملامح القائمة. لبست بطريقة مبهرجة، قميصاً أحمر من الحرير المائي الرقيق، مزركش بشريط ذهبي وتنورة رمادية مع كشكش صغير وفسطونات. كانت تندفع في القاعة برشاقة وتصدر قليلاً من الضوء الباهر ويفوح منها عطر قوي.

في البداية جلسوا لمدة طويلة في الغرفة الأمامية التي كان لها ثلاث نوافذ مطلة على الشارع. هذه الغرفة معتدلة البرودة تقريباً وليس فيها الكثير من الأثاث؛ الطاولة الكبيرة في الوسط، عملة بالمربى والكمك والبسكويت والحلويات وقد ذكرت كوجيايكين بطاولات محلات بيع الحلويات في فورغورود. كانت للمعجنات رائحة زكية في الغرفة. حتى المرأة بدت

ملطخة بالزبدة التي سالت في أشرطة صفراء على الإطار. عكس وسط المرأة لوحة زيتية لراهب يلبس الأسود وعلى وجهه تعبير حلو ومر.

لاحظ كوجيايكي أن البدين المترهل سهاغن كان يعامله بعدوانية أما ريفاكين فقد عامله بفضول صريح، إذ كان يبتسم له بطريقة مائلة، فنصف الابتسامة كانت تختفي في خده الأيمن المنتفخ. بازونوف حدق بعينين كعيني خروف وحلق بالحاح في صورة الراهب، وكان يحرك أذنيه بطريقة غريبة في الوقت نفسه. كان القارورة ينهض في أغلب الأحيان ويتمشى ببطء حول الطاولة ويداه مشبوكتان خلف ظهره، يتفحص الأطباق كأنه يحسب كمية الطعام التي استهلكت. النسوة اللواتي تظاهرن بعدم ملاحظة كوجيايكي، رمينه بنظرات جانبية ونبادلن ملاحظات هامسة. كان كوجيايكي مرتبكاً بالاهتمام السيء الذي أثاره؛ شعر كأنه اهتمام عدواني. كان هناك توتر في حديث الرجال كأنهم كانوا يجبرون أنفسهم على التفكير وقول أشياء لا يكرثون بها إلا قليلاً. أدرك الجهد العام لدفعه إلى التكلم وخصوصاً من قبل بوسلوف الأخرق-ولكن كلهم وبالأخص ريفاكين، منعه من التحدث وذلك بالإجابة نيابة عنه دائماً.

"والآن مثلاً يا ماتفي سافيليفيتش" قال قارورة بعد نخر وعبس ثم نفخ خديه "ما هي المتع التي تسميها متعاً آتمة؟"

"كل المتع" قال سهاغن وخص كوجيايكي بنظرة فاحصة.

ضيق ريفاكين عينيه وقال متشداً:

"حتى غناء المزامير الدينية؟"

"تلك ليس متعة، تلك صلاة" لاحظ كوجيايكي بقسوة.

"وماذا في أن أجد متعة في الصلاة؟"

"هم، كيف أعبر عن ذلك؟" تتم بازونوف الذي ظلت عيناه مثبتتين على الراهب.

"هراء، يا فيكتور!" قال سماغين لريفاكين "يضحك الشخص حين يكون مسروراً ولا يضحك أبداً وهو يصلي"

"لكن لو جئت أمام الرب والفرح في قلبي؟" أصر ريفياكين.
أصدر قارورة نخرة عالية بعد أن خشي من شجار قد ينتهي بشعور سيء.

"مارفا!" صاح وكأنه يأمر فوج إطفاء "اهتمي بضيوفك!"
نهضت وكاد صدرها الممتلئ أن يلامس السماور وقالت بابتسامة متكلفة:

"تفضلوا أيها الاصدقاء، اخدموا أنفسكم بأنفسكم"
ظل ريفياكين يحاول إثبات نقطته وهو يلوح بيده النحيله نحو سماغين:
"الشي الوحيد المهم هو الإيمان؛ إن كان لديك إيمان فإن الرب لن يسألك عن شيء غيره. كان هناك ناسك ذهب ليعيش في الغابات وهو طفل. من الطبيعي أنه لم يكن يعرف الصلوات التي في كتاب الصلوات لهذا كان يقول للرب: أنت وحيد وأنا وحيد أشفق علي يا مولاي!"
من الطرف الآخر من الطاولة دخلت ماشا في المحادثة على نحو غير متوقع:

"لقد لخبطت الأشياء يا فيكتور، لقد كان هناك اثنان منهم وكانت صلاتهما: أنتما اثنان ونحن كذلك - أشفق علينا يا مولانا!"
"ذلك يبدو أشبه بالحقيقة" قال بازونوف وهو يرمي برأسه مستحسناً ذلك.

"كلا، إطلاقاً" قال سماغين "الرب واحد وليس اثنين"

"لكنهما لا يعرفان ذلك" صاحت ماشا.

"يجب عليهما أن يعرفا، أليس ذلك هو ما تعلمناه في عيد الثالوث

المقدس؟"

"من يحفظ الثالوث المقدس في الغابات؟"

"في الغابات؟" قال سماغين وقد احمر وجهه وهز رأسه.

لم يكن مهماً أي منحى يأخذه الحديث، كان شيخ الكنيسة يضع نفسه دائماً ضد الآخرين: أخذ ريفياكين الجدال بحماس كبير، وفي الحال تشوشا بشكل معقد وازداد عبوس سماغين. تابع المضيف الشجار دون أن يتدخل فيه وحين أصبح حامياً أخذ سماغين من ذراعه وقاده إلى طرف الطاولة بنكد وقال:

"جرب جرعة من هذا الشراب، إنه من صنعنا"

لحق بهما بازاتوف ببطء واندفع ريفياكين إلى الطرف الذي فيه النساء راجياً أن يقبلن انضمامه إلى صحبتهن، لكنهن رفضن طلبه بتغنج. على الفور عجت الغرفة بالضحك وحفيف التنانير ورنين الأقداح وتمطق الشفاء والمجاملات السخية التي قدمت للمضيافة.

ماشا النشطة اغتنمت الفرصة وذهبت لتقف بجانب كوجيمايكين؛ عرفت رقبتها التي تشبه رقبة البجعة وربتت على شعرها وهي تحديق بنفسها في المرأة وهمست له فجأة:

"لا تلعب الورق مع قارورة ولا تتناقش مع سماغين. يريدان أن يجملا

أنك اضحوكة"

"شكراً جزيلاً لك" رد وهو مسرور ومرتبك "هل تتناولين معي قديحاً

من الشراب؟"

"ولم لا؟"

أخذته من ذراعه وقادته إلى الطاولة حيث رحب بها زوجها صائحاً:
"انظروا إلى تلك الماشا. لقد أتت بالناسك وهي تجره جراً!"
ضحك الجميع.

بعد الشراب دار حديث مصطنع فيه تكلف أكثر. حين كان
كوجييايكين يصفى نساءل لماذا لم يناقشوا أشياء عملية: شؤون البلدة
وأضرار المجاعة.

أخيراً نخر بوسولوف نخرة عالية بشكل خاص وقال لزوجته:
"حسناً، لقد حان الوقت!"

نادت مارفا الممتلئة الطباخة ونظفتا الطاولة معاً. تظاهرت النسوة
بالمساعدة، قرقعت الصحنون حين مالت الطاولة بشكل غير ثابت فهتفت
النسوة "الحذر! الحذر! الحذر!"

أسرعت ماشا إلى ماتفي سافيليفيتش وقالت بدلع:
"تعال معنا! هناك أربعة رجال من دونك ونحن ثلاث لاعبات فقط
لأن مارفا لا تعرف اللعب، هيا تعال!"

"ما هذا؟" سأل بوسولوف بنغمة المضطهد وبشكل لافت على عكس
نغمته المعتادة:

"خذني فيكتور ممكن."
"أنا لن افعل".

صر بوسولوف كتفيه وابتعد مكتئباً.

"أرايت؟" همست ماشا وهي تغمز كوجييايكين.

ارتفعت معنوياته نتيجة اهتمامها المفرط به وبدأ يلعب بتهور زائد مما امتع النسوة كثيراً.

زوجة بازونوف وهي اللاعبة الأفضل وسطهن، مطت شفيتها السميكتين بابتسامة حلوة وقالت:

"يا للمجازفات الجريئة التي تقوم بها يا ماتفي سافليفيتش!"

"ربما يملك هو وأمثاله من الرجال الحظ مرة تلو أخرى ولكن يتحول حظهم فجأة. إنهم من النوع الخطر" تمتت زوجة سماغين بنغمة قارئة كف عجرية.

كانت تزلق ورقها دائماً تحت الطاولة وترسم إشارة الصليب عليه قبل أن تنظر إليه.

"هل أنت من النوع الخطر؟" سألت ماشا ضاحكة وهي تنظر إليه بود. ابتسم كوجيايكن لها ممتناً.

في بعض اللحظات اعتبرها لعوبة وطيبة القلب وفي لحظات أخرى شعر أنها مأكرة وتخفي أفكاراً سوداء تحت مظهرها المرح. أحياناً يدخل ضوء جشع في عينيها المدورتين حين تتسمران على ورقها ويزداد شحوب وجهها ويستطيل. وأحياناً كانت ترمي مارفا بنظرة قاسية ويتوسع منخري أنفها الجميل ويرتعشان.

هي لا تطبقها بالتأكد، فكر كوجيايكن وهو يجازف مرة تلو أخرى. كانت المضيفة تأتي وتروح بين الغرف والمطبخ وتنقل بين طاولات اللعب وتتوقف قليلاً خلف مقعد كوجيايكن لتسرق النظر إلى يده. كلما كان يدق على الطاولة ليعلن أنه سيلعب الورقة الأولى كانت تصبح عالياً محذرة:

"أوه، لكن لا يجب أن! ليس بورق كهذا!"

أنفاسها على رقبتة من الخلف دافئة بشكل يستفز.

انتهت النسوة من اللعب قبل الرجال لأن السيدة بازونوف فازت مما جعل السيدة سهاغين غاضبة ومتقلبة.

"أنا وأنت خسرنا" قالت ماشا لكوجيمايكن وهي ترفع عينيها بارتباك "لكن لا بهم. خسرنا في لعب الورق لكننا قد نفوز في شيء آخر"

إلى ماذا نلعب، فكر كوجيمايكن وهو يتنسم لها بخجل وجبن.

مرة أخرى أحضرت الطاولة المستديرة إلى الغرفة، وكانت هذه المرة من أجل العشاء. في وسطها تمدد خنزيران صغيران يكشران لبعضهما أنفاً ضد أنف، أحدهما شوي وكان لونه بنياً قاتماً وفي منخربه باقات من البقدونس والآخر طلي وسبح في قشدة حامضة مع زهرة ورقية حمراء بين أذنيه. ربت حولهما مثل حجر أرصفة الشوارع طيور مشوية من أنواع مختلفة وتكونت الدائرة الخارجية من ملفوف مملح ومخللات وصلصة. فاحت رائحة حادة من الجرجير والخل والفار وأوراق الكشمش.

نهض الرجال وهم منكدون ومعمرون باستثناء ريفياكين الذي لوى وجهه المائل في ابتسامة وقذف المال الذي كسبه من يد إلى أخرى وقال:

"هذه دموعكم، أنرونها؟"

ثم ضرب الأرض بقدمه برشاقة وغنى أغنية مقفاة:

ظننت أن دموعها لن تتوقف أبداً

ظلت تتساقط -بلوب-بلوب

رمت زوجته بنظرة جانبية وتهدلت زوايا فمها للأسفل لكنها أجبرت نفسها على القول ساخرة:

"تعال أيها المغني، اجلس والزم الهدوء!"

في البداية كل واحد منهم مضغ الطعام بصمت، لكن فيما بعد وبعد أن تعبوا وابتهجوا من الخمر بدؤوا بمديح المضيفة. راقبهم كوجيمايكن من دون أن يتكلم لاحظ أنهم كلهم بما فيهم ريفيايكن يعاملون زوجة ريفيايكن بحذر كأنهم يخشون أن تطعنهم بنظراتها الحادة ولاحظ أيضاً أن مضيفه كان يحاول أن يسكره فقد أعاد ملء كأسه أكثر من كؤوس الضيوف الآخرين حتى إنه صب له فودكا مع بيرنه ولاحظ ساخين ما فعله بوسولوف فارتسمت ابتسامة حبورة على وجهه المترهل. استاء كوجيمايكن من هذا وتخشرت الإساءة إلى كتلة صلبة في حلقه جعلته يقفز إلى الأعلى ويصبح بالجزار:

"لا تقلق. أنا أرى ما تفعله!"

بوسولوف الذي كان معتمداً على إمساك ضيفه المحمر الوجه في غفلة، سأله فجأة:

"أي نوع من الرجال، القس العم - صديقك الذي استأجر في بيتك وأخذه رجال الدرك؟"

"شخص رائع، واحد من أروع الناس الذين عرفتهم في حياتي" أعلن كوجيمايكن بحماس.

جلس الجميع دون أن ينسوا بكلمة وكانوا يتنفسون بالكاد وتسمرت كل العيون عليه. نظر كوجيمايكن إلى الوجوه المتوترة من حوله، أسنانهم البراقة، ابتساماتهم الصفيقة، باستثناء ماشا التي كانت عابسة ومارفا التي أطبقت عينيها كما لو كانت مخدرة.

"شخص رائع؟" قال سماخين بصوت أجش وهو يضع سكينه وشوخته على الطاولة "كيف ذلك. الكل يقولون إنه ضد القيصر"
"لا يمكن تصديق ما يقوله الناس" ردت ماشا.

لأول مرة في حياته شعر كوجيمايكيين بقوة جامعة تسري في عروقه جالبة معها الوضوح والبساطة إلى أفكاره. لم يشعر من قبل قط بأنه وحيد تماماً وسط الناس ودفعه الشعور نحوهم بمد لا يقاوم. استند للوراء في مقعده وثبت عينيه في وجه سماغين الكبير وقال في هدوء وفتور بأقصى ما استطاع: "كلا، يا إيفان اندرييفيتش. أنت لست على صواب. هو والرجال من أمثاله ضد الكره والطمع والغباء. إنهم رجال رائعون. لم يفكروا قط في دعوة صديق لزيارتهم كي يشمل ويعملوا منه أضحوكة. هم لا يمضون وقتهم في لعب الورق والأكل والشرب وإنما في قراءة الكتب الجيدة التي نتحدث عن روسيا الفقيرة وحياة شعبها. هذه الكتب تروي لماذا الحياة بهذه الصعوبة وماذا يمكن فعله لجعلها أسهل".

نفخ كوجيمايكيين نفسه مثل فقاعة ونخر. رفع ريفيايكيين حاجبيه وكشر عن أسنانه الطحلبية من الدهشة. مسح بازونوف فمه بمنديل به سرعة، نفش لحيته المشذبة جيداً وشاربه وبدأ كأنه يناقش نفسه إن كان سيهرب أم لا. بوسولوف، أرجواني اللون من السخط، همس بشيء للنسوة وانكمش في مقعده مثل ساحرة على مقلاة ساخنة.

تابع كوجيمايكيين كلامه بنغمة هادئة ومقنعة:

"علمنا الرب أن نكون لطفاء على بعضنا بعض لكننا نبحث دائماً عن السيء في جيراننا ونشير بإصبعنا إليه ونصبح: "انظروا، يا له من آثم!" لا يجب أن نصرف طاقتنا على إيجاد الأخطاء وإنما على الالتقاء بود لنقرر إن كنا نعيش كما يجب وإن كنا نستطيع تحسين حياتنا بطريقة ما. أنا لست واحداً من هؤلاء الناس وأعرف أننا لو عشنا بطريقة أكثر حكمة وأفضل فلن تبقى حاجة إليهم"

حين أكمل خطابه شعر أنه أرحب سامعيه وأربكهم كما يفترض لهذا
قوبل بصمت ثقيل. جلست ماشا ورأسها منحني للأسفل، تدفع حبة فطر في
طبقها بواسطة شوكة؛ مارفا حدقت دون أن ترمش في الفراغ ونظرت كل
من زوجة بازونوف وسماغين إلى زوجها.

نخر بوسولوف قائلاً "أمم" ولدهشة كوجيايكين ضرب سماغين
الطاولة بيده وقال:

"أنت على حق يا مائفي سافيليفيتش، على حق تماماً! يجب أن نفكر بهذه
الأمور!"

"يعني..... ار..... حسناً طبعاً، يجب أن نفكر بها" تمتم بازوروف.
عاد ريفياكين للحياة وأدار عينيه المتبايتين على رفاقه وقال وهو يكاد
يصرخ تقريباً:

"لقد قلت الشيء الذي كنت أفكر فيه تماماً، أقسم على ذلك! اليس
ذلك ما كنت أفكر فيه يا ماشا؟"

"أنت تفكر بكل شيء ماعدا الشيء الذي ينبغي عليك التفكير فيه"
قالت دون أن ترفع رأسها.

مسحهم كلهم بلا خوف بنظرة انتصار وصاح وهو يمد ذراعيه:

"هذا كله بسبب الخواء الذي نعيش فيه، بلا حضارة"

"لم يتبق في الناس أي قوة - سنة قاحلة - مجاعة، والفلاحون سكبزون
وكسالي. ونحن نعتمد على الفلاحين بشكل تام. هناك وفرة من الرجال
يأمرون رجالاً آخرين ورغم ذلك ليس هناك نظام"

"نعم كثرة من الرجال يأمرون" ردد بازونوف بحسرة عميقة.

بدأ كل واحد منهم يتحدث على الفور، قاطعوا بعضهم بعض دون أن يصفوا إلى ما كان يقال وكرروا نفس الكلمات والعبارات مرة تلو أخرى وقد بذلوا كل الحيلة والحذر كي لا يتجاوزوا الخط ويقولوا شيئاً منهوراً" استمتع كوجيايكن بإحساس الانتصار لحظة وصعد النجاح والنبذ إلى رأسه. غادر البيت بعد أن قبل دعوات كثيرة لزيارة هؤلاء القوم في بيوتهم، وحين شعر بالثالج يسحق تحت قدميه اكتأب وأحس بالغم وقال لنفسه بشكل لاإرادي:

بالقدرهم البائس مقارنة بهؤلاء الرجال! ليس لديهم أفكار خاصة بهم ولا كلمات حتى. هم يتبعون أي واحد يتولى القسم الأكبر من الحديث كرجل أعمى يتبع دليله.

ثم خطرت الفكرة بعد ذلك:

ألم انسرع كثيراً في حكمي عليهم؟

ورطته روابطه مع أبناء بلدته في مشاكل كثيرة. وجد نفسه يسحب بقوة من بيت إلى آخر. اندفع مسرعاً هنا وهناك مثل سمكة في شبكة صيد. ذهب في زيارات واستقبل زواراً، تحدث واستمع. أحياناً كان يقنع نفسه في مزاج رديء وأحياناً يتعرض للسخرية لكن بالمجمل أدرك أن الناس مهتمون به ووجد ذلك مشجعاً لغروره. لاحظ على الفور أن معارفه الجدد سعوا لاغتنام فرصة التحدث معه على انفراد وحين يؤخذ بمفرده يكون أكثر سروراً وإمتاعاً ولطفاً مما يكونوا عليه عندما يكونون في جماعات. حاولوا إقناعه بأن يكون أشد حذراً.

"سأخبرك بصراحة" قال صانع البراميل وصاحب العضلات والشعر المجعد كولوغوروف "أنت بريء مثل طفل رضيع، وعشت وسط قوم

ليسوا من صنفك مما جعلك معنوياً بشكل ما. أنت لا تعرف كيف هي حقيقة الناس والذي تقوله عبارة عن ثروة أطفال ستدفع ثمنها في يوم من هذه الأيام. تذكر كلماتي! سيجردونك من كل شيء تملكه ويجولونك إلى متسول ويكون ذلك نهاية الفصل "

كما أخبره سوخابايف الشيء نفسه، وهو رجل مهذب وذو عقل حاد وارتجالي مثل خنجر:

"يجب ألا تطلق العنان للسانك هكذا يا مانفي سافيليفيتش" قال "أنت ترى أن الناس غير معتادين على الأشياء التي تقولها وتسبب لهم شيئاً من الخوف. يتجسس الناس على المرء أكثر مما يفعل رجل الشرطة. أنا أفهم طبعاً أن نواياك من أفضل النوايا وأنا أكن لها أرفع التقدير، لكن كما أرى الأمور، عليك أن تقدم للناس ما لديك بصورة أكثر عقلانية كما لو كنت نهب صدقة بيد غير مرئية، بهذا المعنى"

كان سوخابايف يضغط على شفثيه دائماً حين ينظر إلى الناس ويحدق في الفراغ حين يتكلم معهم. إن حدثت ووقعت عيناه على شخص توخزانه كالإبر.

في أحد الأيام قال العجوز المراي خرابوف لكوجيمايكين بكثير من الغمز واللمز:

"ذلك صحيح، انشر الحقيقة! انتشلها وأخرجها إلى ضوء النهار وفاسيا سوخابايف سيسلخ جلدها وهي حية. يستطيع الاستفادة من الجلد بشكل جيد، الوغد! أنا أمزح طبعاً..."

فهقه دون ضجيج كاشفاً عن نابين أصفرين.

إنه الآن في الستين من عمره وقد توقف عن التردد إلى الكنيسة منذ ثلاث سنوات، وحين سأله ريفياكين مرة لماذا لم يعد يحضر إلى بيت الرب قال: "قرأت صلواتي لمدة نصف قرن دون أن تجعلني شخصاً أفضل والآن حان الوقت لي كي أستاذن هذا العالم لأنني لا أستطيع أن أهدر وقتي في الصلاة"

لكنه أضاف بعد أن نظر باقتضاب إلى سامعيه:

"أنا أمزح فقط طبعاً. يعود السبب إلى ضعف في الساقين: لا أستطيع الوقوف خلال صلاة الكنيسة"

لا يتذكر الناس من كل ما قاله كوجيايكين سوى ما وجدوه صعباً أو يستحيل تطبيقه، وفي رفضهم للشيء غير القابل للتطبيق كانوا يرفضون كل شيء آخر أيضاً. سعى كل واحد منهم إلى تفكيك أفكاره وتقويضها. مثل قطع صغيرة من مرآة، كل قطعة تعكس قسماً صغيراً فقط مما قاله ولا تتضمن الكل، ولكن في أعماق كل شخص يخشى "جرسه الصغير" الخاص به الذي لو جرى هزه بالطريقة الصحيحة لاستجاب على الفور بالتأكيد حتى لو بترنح. حاول كوجيايكين أن يقنع الناس بأنهم لو تحلوا بقدر أكبر من الإيمان والاهتمام ببعض البعض فلن تظل الحياة مملة جداً ولقل السكر أيضاً. وقال لهم أيضاً أن يلتقوا في اجتماعات شعبية عامة بأنون إليها كلهم ليفكروا بطريقة يدلون فيها حياتهم ويحملونها.

أصغى إليه الجميع باهتمام وكالواله المديح من أجل نواياه الطيبة.

"أنت لاتعرف كيف نعبر عنها يا كوجيايكين، لكنك تملك الفكرة الصحيحة" قال سماغين بابتسامة مناصرة "صحيح أن كل طبقة ينبغي أن تناسك وتتلاصق معاً مثل عائلة واحدة كبيرة وصحيح أيضاً أن طبقة

النبلاء حين اتحدت معاً سيطرت على كل روسيا وهذا ما يجب على التجار أن يفعلوه الآن. كل تاجر عبارة عن إصبع في نفس اليد"

حين يحدث ويكون خريابوف موجوداً، كان يجلس جانباً، يرمش بعينه الدامعتين ويصغي بصمت ثم يأخذ كوجيمايكين جانباً ويكلمه بصوت أجش تملؤه السخرية والمرارة:

"آه يا رجلي العزيز، نهرنا هذا يغص بالأعشاب الضارة الفاسدة وأنت لن تسبح إلى الشاطئ الآخر أبداً- سوف تمسك بك الأعشاب وتمنعك. أنا أعرف نوع الناس هنا. بماذا يفكرون؟ إنهم يفكرون متى يستطيعون إيجاد بندقية ترمي لهم طيرهم وتشويه في الوقت نفسه، بضربة واحدة-بانغ، دون أي جهد من جانبهم. يفضلون أن يضربوا جباههم بالأرض ويروا الذهب يراق ويتثر. ربما يستحق سوخوباييف عشر كوبيكات لكن لا أحد غيره من الآخرين-خمس كوبيكات سعر جيد للكثيرين منهم. لا تهدر أنفاسك عليهم. حاول مع صغار السن من القوم- يمكنك وضع أملك فيهم- خذ حفيدي فانيا...."

دمعت عيناه أكثر وازداد صوته رقة:

"هذا صبي سيأخذ مصيره بيده! لم يبلغ الخامسة عشرة من عمره حين توقف عن الخوف من الظلام، كان يذهب إلى أي مكان ليلاً لوحده ولم يخف من الخنافس أيضاً. كان يمزق أجنحتها لتبدو مثل خراف ويقول: سوف أجز صوفك حين تكبرين، أنا أمزح فقط"

أطلق ضحكة رنانة وأسرع خطاه وهو يرتد للأعلى والأسفل كأنه يسير على نوابض.

قلما جلس كوجيمايكين إلى مكتبه وأخرج دفتره في هذه الأيام، فقد اندهش كثيراً حين اكتشف أن هؤلاء الناس لم يقدموا له شيئاً يكتب عنه. لم

يكن لديهم شيء يتمسكون به. لقد اندمجوا كلهم في كتلة رمادية لا شكل لها، كل واحد منهم - وهذا صحيح - لديه شيء خاص به لكنه شيء غامض ومراوغ وليس له سوى أثر بسيط.

اشتاق كوجييايكيين إلى صديق يمكنه التكلم معه بصراحة عن معرفه الجدد وعن الحياة عموماً، لكن لم تكن هناك روح واحدة يمكن الوثوق بها. شعر بعدم الارتياح والقلق من حضور بوسولوف، فقد حاصره الجزار مثل صقر، يحدق به دون أن يتكلم وينخر كأنه يرفع ثقلاً غير مرئي مما أثار كوجييايكيين الذي حاول تفاديه.

"لماذا انقطعت عن زيارتي تماماً؟" نخر اللحم في أحد الأيام وهو يتحاشى النظر في عيني كوجييايكيين "هل أنا أسوأ من الآخرين؟ لقد عرفتهم من خلالي والآن أسقطتني"

أخيراً رتب كوجييايكيين، متردداً، يوم الزيارة وساعتها، وحين وصل إلى بيت بوسولوف نفخ اللحم وجتبه وقال معتذراً:

"شيء رائع! ها أنت أثبت لزيارتي وأنا مضطر أن أذهب للاهتمام بمسألة صغيرة؛ هل يمكنك الجلوس مع زوجتي مارفا قليلاً وانتظاري؟ افعل ذلك أيها الشاب الطيب، لن أتاخر كثيراً"

حينما خرج مستعجلاً التفتت زوجته الممتلئة إلى ضيفها وقالت:
"ألا تجلس؟"

أخذت لنفسها مقعداً بمواجهته وطوت ذراعيها تحت صدرها مما جعله يرتفع بشكل مربك. ثبتت عينيها عليه بانسامتتها المعتادة التي ربما كانت مرسومة على وجهها.

"لماذا تظلين في البيت دائماً؟" سأل.

"لا أحب الخروج"

"لماذا؟"

"عليك أن تلبس ثيابك حين تخرج من البيت، وأنا أكره أن تقيدي الثياب ولكنني أذهب إلى الأعراس"

"لم تقم أعراس كثيرة في هذا الشتاء"

"صحيح" قالت دون أن تبدي أي ندم.

"ذلك بسبب المجاعة"

"حقاً؟" تساءلت بلامبالاة.

شرح لها لماذا منعت المجاعة في الريف أهل البلدة من الزواج، وحين كان يحدق بها فكر: يا لها من امرأة فاجرة! من المعيب حتى النظر إليها.

قاطعته فجأة وقالت بصوت صريح:

"لكن انظر، أنت لا تريد أن تتزوج، هل ذلك بسبب المجاعة أيضاً؟ يفترض أنك تملك الكثير من المال.

"أنا أخاف من الزواج" قال كوجيمايكين ساخراً.

"وما الذي تخاف منه؟" بدت متفاجئة تقريباً وغطى عينيها تبدل طفيف من التعبير.

"منكن أنتن، النساء"

مالت إلى الأمام وضيق عينيها مثل هرة وترنمت من خلال أنفها:

"أنت لا تقصد ذلك! أخبرني لماذا؟ ما الذي تخاف منه؟"

ثبتت عينيها وأثارت حلققتها الثقيلة فيه عاطفة محدودة جداً. وجد كوجيمايكين نفسه خالي الوفاض من الكلمات وخشي من أسئلتها وانتابه دافع كي يصبح بها بصوت عالٍ:

أنت، أيتها الحمقاء! الصغيرة!

"لقد تأخر زوجك كثيراً" تتم ببلاهة واستدار حول الغرفة. جلست منتصبه وحدثت بشكل مستقيم أمامها ثانية.

هل تغوي الرجال مثل أرض محرمة، فكر وهو يسترق النظر إليها. لن أعود إلى هذا المكان مرة أخرى أبداً.

غادر دون أن ينتظر عودة اللحم، وفكر وهو يسير بخطوات واسعة في الشارع:

"قوم غريبو الأطوار! أنا أخاف أن أبقى معهم مدة من الوقت"

ثم وجد نفسه في أحد الأيام بمواجهة واحد من هؤلاء الناس الغريبين الذين كان يقذف بهم القدر في طريقه دائماً.

في تلك الأيام نظر إلى نيكون ماكلاكوف على أنه أعظم شرير وفاسد في البلدة. تجاوز الآن الثلاثين من عمره، رجل متباه ومختال، له أنف نسري، عينان رماديتان لهما تعبير متغطرس، شعر مجعد رقيق عند الصدغين. يحتفظ كوجيمايكن بذكرى قوية من شبابه حين ضربه الأخوان ماكلاكوف. بعد ذلك تزوج أكبر الأخوين وبات يربي عائلة وعاش حياة هادئة ورزينة وأصبح أصلع ودفن طيشه الشبابي في بدايته. أما الآخر، نيكون فقد ظل أعزب. لم يعمل بل تعلم العزف على الغيتار والأوكورديون وأمضى أيامه يتسكع في نزل ليسبون الذي اشتراه سوخايف من وريشه المجنون سافيليف. وكان نيكون يتحدث هناك إلى كل من يلعب الورق معه وكان يفوز دائماً على غير المجريين والمتهورين وحين يعترضون على غشه كان يسخر منهم بشكل مكشوف:

"غشاش" يزأر قائلاً "وماذا بعد، هل أنت أمين وصادق أيها المنافق اللعين؟"

كان يثير الخوف كمغازل، وقد دعي إلى البيوت المحترمة للمعزف على الأوكرديون في الأعراس والخطوبات وأعياد الميلاد لأنه أفضل موسيقي في البلدة.

في الأيام التي يقام فيها السوق، يذهب إلى الحانات برفقة مغنين ريفيين يدعونه على حسابهم إلى الشراب ويحثونه على الغناء وإن سره أحدهم وأرضاه كان يزعم بأعلى صوته:

"هذا جيد جداً مثل جنازة! ابكوا أيها الديدان! هيه، يا سماغين إيبك، أقول لك إيبك، أم أنه لم يلمس قلبك؟"

كلمات من السلوك الشائن تنساقط من لسانه كما تنساقط الشمار من شجرة السنديان لتضرب الناس على رؤوسهم بشكل مؤلم. كان يتفجر بالغضب دائماً ويهين مواطني البلدة البارزين، أولهم وأكثرهم أخوه وبمجرد أن يبدأ لا شيء يمكن أن يوقفه.

"جسدك البدين هذا يا سيمون بزن تسعة بودات على الأقل لكن رأسك خفيف كالريشة. ما رأيك بقدح يا أخي؟ أنت غبي وأنا فقير. أخي احتل مكان والذي الآن أيها السادة، لكن لا حاجة للقلق، قريباً سوف يموت فجأة وأكون وصياً على أولاده المشاغين. سأرسلهم إلى العمل كناسين وسأشرب كل ما لهم أو أصرفه على القمار"

عاش سيمون ماكلاكوف بخوف قاتل من الموت، وكان يدبر عبوناً متوسلة نحو أخيه شاحب الوجه ويرنجف ويتمتم: "توقف عن هذا أرجوك، كل شخص سيموت في يوم ما"

كان كوجيمايكي يكره نيكون ويحذر منه مثل كل المواطنين المحترمين في البلدة. نحاشى لقاءه والتحدث معه لكن حين يسمح لنفسه بالإصغاء إلى أحاديثه الحمقاء، كان يجد نفسه مهتماً بشكل متزايد بالرجل. ومع مرور الوقت بات ينظر إليه كمصباح يشع في الظلام - مصباح قذر وملوث بالسخام والزيت بالتأكيد، لكنه الوحيد الذي ينير شعاعاً باهتاً من الضوء في الظلام.

تعرف على نيكون بطريقة غريبة ومسلية. خلال زيارة له إلى آل ريفياكيين بعد ظهر أحد الأيام قابلته الطباخة الثملة وحين سأها عن سيدتها ضحكت وتمتمت بشيء غبر مفهوم ثم اختفت. تنحنح بصوت عال ونقل قدميه بصوت مسموع على الأرض لكن لم تحدث أية استجابة.

ربما هم نائمون. فكر وهو ينظر إلى باب غرفة النوم. مسح كل الغرفة التي وجد نفسه فيها. بدت دافئة جداً في وقت الغسق، عبات النوافذ امتلأت بأصص النباتات، وعلقت صورة ملونة على جدرانها وشغلت إحدى الزوايا خزانة صينية امتلأت بالفضيات المتلاثلة والزجاجيات.

كاد أن يغادر حين سمع أحداً يتحرك في غرفة النوم. انفتح الباب على مصراعيه ووقفت ماشا حافية لا تلبس سوى قميص داخلي شفاف وتحمل إبريقاً زجاجياً في يدها.

"يا إلهي! من القادم؟" هتفت بنعومة وهي تمسك بعمود الباب. في اللحظة التالية ظهر رأس نيكون الأشعث من فوق كتفها. ومضت عيناه الباهتان بالغضب، فدفع المرأة إلى الورا إلى غرفة النوم، أغلق الباب بإحكام خلفها ثم حبا نحو كوجيمايكيين بلا حزام وبقميص فكت أزراره وقال بلهجة متوعدة:

"ماذا تفعل هنا؟"

"أنا..... أنا أتيت لزيارتهم" تتمتع متلعثماً ومرتعداً.

"يا للوقت الرائع الذي اخترته" زار نيكون وهو يتأرجح للأمام والخلف ويتلوى من الغيظ.

"كيف لي أن أعرف أنك هنا؟" قال كوجيهايكين معتذراً ومترجعاً نحو الباب.

قذف نيكون برأسه للوراء وخرج الغضب من وجهه فجأة:

"ماذا تتوقع مني أن أفعل: أكتب رسالة أقول فيها "لا تأت اليوم أنا سأكون هنا؟" سأل بصفاقة.

"لكن كيف لي ان أعرف؟" كرر كوجيهايكين وهو يدخل إلى الصالة.

"انتظر، اجلس" قال نيكون.

دفع شعره للخلف وعبر الغرفة وهو ينظر إلى نفسه في المرأة ويزرر ثيابه.

"ماشاً" صاح قائلاً "اعطيني حزامي وجزمتي. أو انتظري، لا تزعجي نفسك"

ذهب نحو كوجيهايكين مرة أخرى، نظر إلى نفسه في المرأة ثم انفجر ضاحكاً:

"يا للوجه الذي لك يا ماتفي كوجيهايكين! ويا لوجهي أنا أيضاً! سرك يا مولانا"

"ليس هناك نكران لهذا" قال كوجيهايكين بابتسامة متكلفة.

سقط نيكون على مقعد بجانبه وضرب ركبته بيده وقال بجدية:

"اوه، ما هو الإحساس بأن تملكك رغبة جنسية؟ كل واحد يفعلها ويستمر في ذلك: أنت لن تروي الحكايا، أليس كذلك؟"

"يمكنك الاعتماد علي في ذلك"

"ظننت هذا بك. سأشكرك إن أمسكت لسانك وسأعاقبك إن لم تفعل" وأضاف وهو ينظر إلى كوجييايكن:

"إنك لا ترغب في إيذاء سيدة، أليس كذلك؟"

"لا، طبعاً" قال كوجييايكن متنهداً "من أنا كي أحاكم الآخرين؟"

"أوه، أعرف أنك كنت رجلاً صاحب ضمير"

نهض وصر كتفيه في هيئة رجال الأعمال وصاح:

"ماشأ، اخرجني وتعالني. مارأيك أن تقدمي لضيفك كأساً من الشاي،

أيه؟"

خرجت وهي محمرة وعيناها شبه مغلقتين بجفניה الثقيلين، لوت ذراعها أمام وجهها كطفل خجول وتقدمت نحو ضيفها برشاقة قطرة وقالت بنعومة:

"باللعار! باللعار!"

نحت وجهها جانباً وابتسمت بفضفاضة وهي تمد يدها له وقالت:

"لا تكن قاسياً في حكمك علي يا مانفي سافيليفيتش"

كانت جميلة جداً ورأى كوجييايكن أنها عرفت ذلك. كان سعيداً أن المشهد لم يكن فاحشاً. تأثر باستغاثتها وفتن بحسنها، فنهض وانحنى لها وقال:

"أرجو ألا تخافي مني. أنا لست مروج فضائح. بالإضافة إلى أنني أتذكر

أنك كنت لطيفة معي مرة"

تفاجأ ليكون من جالها أيضاً ودفعها باتجاه الباب وقال:

"اركضي الآن، اركضي أيتها العاهرة الوقحة!"

"ألست أنت بنفس الوقاحة" ردت وهي تلعق شفيتها بلسان وردي وتموج جسدها الجميل وهي تخرج.

راقبها نيكون وهي تذهب، وقد علا وجهه العبوس، ثم ذرع الغرفة ذهاباً وإياباً ورأسه نحو الأسفل.

"حسناً، حسناً، وهكذا أمسكتني متلبساً بالجريمة يا كوجيمايكين".
كان هناك شيء غير متوقع في الطريقة التي قالها فيها، شيء فيه خنوع وحزن انتصر له وتعاطف معه كوجيمايكين.

"أنت لست حذراً جداً" قال وهو يهرز رأسه.

"زوجها ذهب إلى الريف لشراء مزرعشات وبياضات والطباخة لديها علاقاتها التي تهتم بها وصدف أن كان عيد ميلادها" قال نيكون بتفكير عميق.

"وماذا لو كان القادم شخصاً آخر غيري؟"

"لكان الأمر صعباً معه" قال نيكون رامياً كوجيمايكين بنظرة سريعة.
جلس بجانبه ثانية وبدأ يتكلم وهو ينظر إليه باستغراب وعلى وجهه ابتسامة لطيفة:

"لا يمكنني منع نفسي من التفكير كم أنت رجل ممنوع" قال.

"لماذا؟"

"لا أعرف بالضبط - أنت خنوع جداً. أنت تعانق السياج دائماً حين تنزل وتتمشى في الشارع وتحنس في زاوية حين تكون في الكنيسة أو في حانة"

"هل الأمر يبدو لك هكذا؟ لم ألاحظ ذلك"

"لمن تفسح الطريق دائماً؟"

"لا أعرف"

"هم. أنتم أصحاب الأملاك!"

كان أصغر عمراً بكثير من كوجييايكين، لكنه تكلم كما لو كان أكبر منه. لم يتمتع ماتفى من هذا بل وجده ممتعاً. هناك تجاعيد صغيرة واضحة على صدغيه نيكون في المكان الذي انحسر عنه شعر رأسه؛ عيناه الرماديتان اللتان حلق بهما فيه بثبات وصراحة لم تعد فيهما نظرة الفطرسة اليوم رغم أنها نشرنا شعاعاً باهتاً غير محسوس. دخلت ماشا وقالت وهي تبسم:

"الطباخة ثملة" وبدأت تعد الطاولة من أجل الشاي، تنقلت وتمعجت مثل هريرة وبدت كل حركة من جسدها القوي تقول: لا تنفس علي كثيراً، خذني كما أنا.

وجد كوجييايكين نفسه يحسدهما؛ لقد كانت علاقتهما بسيطة وبلا قناع. كان الأمر وكأنهما يمشيان في المكان عاريين في حضوره ولم يجد هذا معيماً. شعر بالحزن ولم يستطع منع نفسه من التفكير ببيفجينا: لقد صانت نفسها بشكل أفضل.

لكنه لاحظ بعد قليل أن الأمر ليس جيداً برمته مع هذين الاثنين. شربوا الشاي ومزحوا بكل أنواع الأشياء، لكن نيكون كان بشرد من حين إلى آخر وتزداد عيناه قتامة وغموضاً ويتشكل خط عميق بين حاجبيه فيملس شاربه الكثيف باهامه وسبابته كأنه يفسح الطريق للكلمات التي كان يعدّها للنطق، وحين كان يتفوه بها تكون حاقلة بشكل غير متوقع.

كما لو أنها تبرر ذنبها، قدمت ماشا تقريراً مسلياً عن مغامرات صديقاتها جعلها تبدو بريئة مقارنة بهن.

"كل أطفالى ماتوا وأحدهم ولد ميتاً" قالت "وقالت القابلة إن السبب خطأ فيكتور"

حدث وذكرت قصة المسيح والزانية فقال نىكون ساخراً وهو ينظر إلى كوجيايكيين:

"الأمر نفسه دائماً. ما إن يرتكب الشخص إثماً حتى يستحضر المسيح كي يساعده"

خاف مانفي سافليفيش أن تغضب ماشا، لكنها ضحكت بنعومة وقالت بصوت رتيب:

"كيف ترى ذلك؟ تظن أنه يمشي معك متناغماً، وفجأة يضع قدمه أمامك لتعثر وتقع"

"بالنسبة إلى ماشا" قال نىكون "نستطيع أن نسقط منبطحة في الوحل وتنهض سعيدة كأنها أنت من جلسة اعتراف" هذا سيغضبها بالتأكيد، فكر كوجيايكيين.

لكنه كان مخطئاً للمرة الثانية، ضحكت ماشا حتى تدحرجت الدموع على خديها. وتابعاً حديثها في السخرية من بعضها البعض، يتلقيان دائماً طعنات مؤذبة جعلت كوجيايكيين يشعر بالتعاسة ولم يعد يجدهما صريحين ومستقيمين. أخيراً انزعجت ماشا، بدت الحدة في عينيها وانعقص فيها الصغير وافترق كاشفاً عن أسنان حادة كأسنان القوارض. أدرك كوجيايكيين أن الوقت الذي يجب أن يغادر فيه قد حان وسمح له بذلك بأدب فلم يحاول أن يمنعه أو إبقائه لفترة أطول.

"لا أملك بيتاً أدعوك لزيارتي فيه، لا شيء سوى الحانة" قال نىكون وهو يضحك "ولكني سأزورك قريباً بدلاً من ذلك"

وفعلاً بعد يومين من ذلك جاء بهيئة مألوفة كما لو كانا صديقين حميمين،
وقال فرحاً وهو يقذف قبعته في الزاوية: "حسناً، ها أنا قد أتيت!"
مسح الغرفة بنظره ومسح الصقيع عن شاربه.
"ليست دافئة جداً" قال وهو يهز رأسه "من السهل معرفة أنك
أعزب"

اقترب من مائفي وقال:

"حسناً، ماذا ستقدم لي؟"

بعد ساعة وبتحريض من الشراب كانا يتحدثان كصديقين قديمين
ويقاطعان بعضهما بسبب نشوقهما للتعبير عن أفكارهما.

"ما أرغبه" قال نيكون بفتور وهو يرفع قبضة مشدودة "أن أقابل
رجلاً أستطيع أن أخلع له قبعتي وأقول له شكراً لك لأنك ولدت ولو
عشت مدة أطول سيكون أفضل. هذا ما أتمناه"

"أعرف رجلاً كهذا" قال كوجيمايكين بسعادة.

"أو أن أقابل امرأة أستطيع أن أجثو على ركبتني وأقول لها "افعلي
مائشائينه بي"

"وأعرف امرأة كهذه" قال كوجيمايكين بسعادة أكبر مدركاً للأفضلية
الكبيرة التي لديه على ضيفه.

"هؤلاء الناس هم الصنف الذي نحتاجه. أربي إياهم. يسعدني أن أجد
كائناً بشرياً يمكنني الانحناء له"

ضرب صدره بيده وصاح من الإثارة مما حرض مضيفه أكثر من النبيذ.
"هذه هي النقطة: إن كان هناك أخبار في العالم فسيكون لكل شيء
معنى، حتى أنا وأنت"

تشوق كوجييايكن أن يحكي له عن مارك ويفجينا، وشعر أنه يستطيع فعل ذلك بأسلوب نبيل رفيع:

"يوجد أناس وسطنا يملكون قلوباً كبيرة جداً" بدأ بالقول.

"آه يا أخي، كل واحد منا يعتقد بوجود أشخاص طيبين حين ينظر بالمرآة ولكن ماذا لو -"

"انتظر، أنصت لما يجب أن أقوله لك -"

لكن سيكون نهض وسأله كأنه صحا من ثملته فجأة:

"هل تعتقد أن ماشا امرأة طيبة؟"

خطا نيكون الوسيم والطويل في الغرفة ووقف أمام كوجييايكن "إنها متعفة بالكامل" قال وهو يشبك يديه خلف عنقه ويندحرج للأمام والخلف. "ستري، ستطعني في ظهري يوماً ما، في الظهر، انتبه هذا مؤكد. سنتنظر اللحظة المناسبة ونقطعني كما تقطع الشجرة"

تحدث بثقة جعلت كوجييايكن يشفق عليه أكثر ويخاف على مصيره.

"لكن، لكن لماذا؟"

"هكذا فقط"

"إذاً، أليس من الأفضل أن تتركها؟" سأل وهو مستمتع بإسداء نصيحة لهذا الرجل.

"لماذا علي فعل ذلك؟" سأل نيكون وهو يقذف شعره المجمع للوراء "دعها! من المسي أن أراقبها وهي تحاول إيجاد نقطة ضعفي. على كل هل تفرق معك هوية من يرسلك إلى المقبرة؟ الأهم والأفضل لو تم ذلك بيد ماهرة"

"والناس يقولون عنك إنك زير نساء ومغازل مرح" قال كوجييايكن.

ذهب نيكون إلى الطاولة؛ اجترع قدحاً من الفودكا؛ غرس الشوكة بحبة فطر ثم نظر إليها وأعادها إلى الطبق. داعب شاربه وقال محدقاً براحة يده:
"ما هو المفرح في ذلك؟ إنه كالمشي في شارع مهجور في وقت متأخر من الليل دون أن تكون لديك أي رغبة في الذهاب إلى المكان الذي تتوجه إليه؛
الوخز يسري من أسفل حبلك الشوكي إلى أعلاه فتطلق صيحة أو تطرق نافذة لتحافظ على معنوياتك وتتأكد من وجود أحد ما حولك. نحن نربي قابيل بسبب الضجر"

تناول الكثير من الشراب لكنه لم يسكر، أصبح ليناً وثرثاراً وبدأت أقواله مقنعة جداً. هبت من البستان عاصفة ثلجية من عواصف شباط وأمسكت مخالبها بجدران البيت؛ صفرت في المدخنة وخبطت النوافذ بقوة.
"أعتقد أنني سأمضي الليلة معك" قال نيكون وهو يفك ياقته ويمط رقبته.

رمى نفسه على المنضدة وبدأ يتكلم بصوت منخفض لكن بإيقاع موزون ونطق حريص كقصاص.

"لدي ضعف تجاه النساء، لكنني لا أثق بهن. لم أثق بهن منذ أن كنت ولداً، ويعود الفضل في ذلك إلى أمي. من غير الجيد أن تسيء التفكير بأهلك لكنني لا أستطيع نسيان ما فعلته أبداً"

كان كوجيما يكين جالساً على كرسي ذي مساند جانبية، ساقاه ممدودتان وذراعااه مطويتان على صدره، يراقب التعبير الذي ارتسم على وجهه نيكون الوسيم، باتت نظرته صريحة ومكشوفة كنظرة طفل، مرة متشائخة ومتكبرة ثم تتحول إلى ساخطة. والشيء الغريب أن وجهه ظل يتبدل لكن التعبير الذي في عينيه كان كثيباً دائماً.

"ربما تتذكر والدنا، كان من النوع الطيب جداً، لطيف ورعديد" قال بصوت منخفض وأجش قليلاً "لكنه لم يكن عملياً أبداً بالإضافة إلى أنه كان يشرب. كانت أمور البيت والتجارة كلها بيد أمي وكان يقول لها أماننا ونحن أطفال: أنت رئيسة العائلة يا بوسيتا. كانت أمي امرأة قوية وشديدة ورأيها من نفسها. كانت تجلدنا وتلاطفنا وتحكي لنا القصص. أحييناها أكثر من أبي الذي كانت توبخه وتسخر منه أماننا حين يكون ثملاً وقلدناها نحن في ذلك -الأطفال قردة. حين يكون ثملاً كنا نفرك أنفه بالسخام أو نضع الفلفل في منخريه لكي يعطس ظناً منا أن ذلك ممتع بشكل رهيب. لقد ابتدع سميون خدعاً حاقدة بشكل خاص. أحببت أمي كثيراً جداً لذلك كنت أغار من سميون ومن أختي ماريا وكنت أقاتلهم دائماً لهذا السبب. إن وصل أحدهما إلى جانب أمي أولاً كنت أضربه بأي شيء يكون في يدي وأضربه ضرباً مبرحاً. أنا رجل كبير الآن وهناك بقع من الصلع على جلدي ومازلت أتذكر النظرة الخنونة من عيني أمي ويديها والقصص التي كانت تحكيها لنا. كانت تضمنني إلى حضنها وتمرر أصابعها في شعري حين تروي لنا الحكايات وكنت أعانقها وأتعلق بصدرها، كنت أسمع نبضات قلبها، استلقي هناك بلا حراك أو تنفس تقريباً. لقد كانت أسعد لحظات حياتي، أن استلقي بين ذراعي أمي وأحضن جسدها. هل تتذكر أمك؟"

"كلا" نمت كوجيا يكيين البالغ من العمر أربعين عاماً.

"باللعار. صحيح ما قالوه: لا يوجد صديق مثل أمك. كانت كل ما نقوله قانوناً بالنسبة إلي. إن شاغبت وكنت مزعجاً كنت آتي وأعترف من تلقاء نفسي ولا أتذكر أنني كذبت عليها أبداً. كانت تصرخ بي وتضربني على كفلي ثم تعانقني وتقبلني وتقول وهي تغمر: قل لسميون وماريا إنني

ساحتك لكن لا تقل لها إنني قبلتك. وقد طلبت منها ألا يقولوا لي إنها
 داعبتها وقبلتها بعد معاقبتها. كانت تفعل هذا لكي تؤمن بانضباطها
 وصرامتها. في أحد الأيام حين كنت في الثامنة من عمري أو التاسعة تقريباً
 جاء لزيارتنا شماس كنيسة القديس نيكولاس - علمنا الحروف ونحن
 أطفال. كان سميون مريضاً في السرير وماريا ذهبت إلى شبالدينو مع والدي
 تزور إحدى عماتنا، وكنت أنا جالساً في زاوية أبني بيتاً من الورق المقوى.
 فجأة رأيت الشماس يضع يده على ثديي أُمِّي - مخلب بني محمر مع خاتم
 فضي على إحدى أصابعه. "انتظر" قالت أُمِّي. لكنني رأيتها تفك أزرار
 صدرها وتضع يديه تحت ذراعيه. ورفعها عن كرسيها وقادها بعيداً
 فلاحقت بها. أقفلا الباب وراءهما، لكن ذلك لم يشكل أي فرق. لم أر شيئاً
 لكنني فهمت كل شيء وبكيت بمرارة. اختبأت في الزاوية بين الأريكة
 والمدفأة وبكيت. مر وقت طويل قبل أن تخرج مبنسمة وتتايل على قدميها
 وكادت تموت حين رأيته. لن أنسى أبداً نظرة عينيها. "يا إلهي!" قالت "ألم
 نم؟" أمسكتني بذراعيها وضغطتني على صدرها وأغلقت عينيها. بكيت
 وقلت: لماذا قرصك الشماس يا ماما؟ اطرديه. قبلتني مرة أخرى وهزنتني
 وهمست بحرارة: ماذا تقول؟ لا تتجراً! انس ذلك! هذا كله من خيالك!
 لكنني بكيت أكثر وقلت: هذا غير صحيح. أنا أعرف كل شيء. بعد ذلك
 بدأت تبكي أيضاً، عصرتني بقوة لدرجة لم أعد أستطيع التقاط أنفاسي، لقد
 بكيت بمرارة. بعد ذلك وعدتها أنا بأن ألجم لساني ولن أقول كلمة واحدة
 عن الشماس لوالدي أو أخي أو أختي ووعدتني بدورها ألا تسمح للشماس
 بأن يأتي إلى هنا مرة أخرى. لكنها لم تحفظ ونفي بوعدتها طبعاً. كان يلتقي بها
 في الحمام ليلاً. بدأت تعطيني الحلوى ونسمح لي أن أفعل ما أشاء. ظل

والدي يقول لنا سواء كانت هي حاضرة أم لا: يا أولاد اهتموا بأمكم وأحبوها فهي رأس العائلة. كان الشماس بديناً وشعره أحمر وينخر وهو يأكل ويلكمنا على جباهنا حين لم نكن نعرف دروسنا. لكن يفترض أن أمي أخبرته عني لأنه بات لطيفاً معي لكن هذا لم يجعله محبوباً أكثر. بعد ذلك بقليل رفسه حصان وهو ثمل فلزم الفراش فترة قصيرة قبل أن يموت. سررت كثيراً بذلك. جلبنا معلماً خاصاً جديداً، له أنف كبير وشعر طويل؛ رجل مرح ولم يمض الكثير من الوقت حتى كان لأمي علاقة معه.

ونشأت عندي عادة مراقبتها والتجسس عليها- كانت تستحق الوقت الذي صرفته فيها. لكن لاحقاً جاء غجري اسمه يليسي يعمل عندنا وتولعت به أمي وعاشرته. مرة أمسكت بهما بالجرم المشهود. ضربتني أمي وأوشكت أن أخسر حياتي لكنها أخذتني لاحقاً إلى غرفة نومها وقبلتني وانتحبت: ساحني يا نيكون، ساحني يا بني " لكن بلا فائدة. شيء ما انكسر وتحطم في داخلي؛ فقدت الاهتمام بكل شيء فبت غير راغب بأي شيء ولا أن أفعل أي شيء، أو أن اذهب إلى أي مكان. بدأت أصفر بسبب الضجر كما أظن. أينما أذهب أزم شفتي وأصفر حتى أنني صفرت على طاولة الطعام حين نسيت نفسي ونلت صفعة حادة بملعقة خشبية. أحياناً كنت أذهب إلى الخارج وأستلقي على ظهري على العشب حيث الحمام القديم الذي تم حرقه وأصفر بصوت عالٍ في السماء. كلما مشيت في شارع يتملكني الشيطان وأقوم بكل أنواع الخدع- ربما سمعت بعض الحكايات عني. في ذلك الوقت كنت في الثالثة عشرة من عمري. ولكي يصرف الغجري انتباهي عن علاقته بأمي بلا شك، علمني أن أفعل أشياء مع فتيات المستوطنة اللواتي يجئن لتعشيب حدائق الجيران. كان

ذلك الغجري فتى ظريفاً ومرحاً وخالي البال. همم وهكذا تحول المعبد إلى
زريبة خنازير"

توقف عن الكلام وتمدد متشنجاً.

"لكن هناك أصناف أخرى من الناس ليسوا مثلنا وهم موجودون
حقيقة" قال كوجيمايكيين بصوت أشبه بصراخ بأس.

وقال بإحساس وهو يبذل مجهوداً أكبر:

"سوف أخبرك عن أمثال هؤلاء، هل رأيت العم القس؟"

بسرعة بدأ يتكلم عن مارك فاسيليفيتش وتذكر كل ما قاله بسهولة.
أخرج دفاتره من المكتب وقرأ لنيكون منها وهو على وشك البكاء كأنه يقرأ
صلاة فوق جثامين أصدقاء خرجوا من حياته إلى الأبد. نهض نيكون
وجلس على الأريكة بجانبه وكان يحرق باندهاش في الدفتر الذي ظل
كوجيمايكيين يدس فيه إصبعه بلا كلل وهو يقرأ، وحيناً آخر يحرق بوجه
كوجيمايكيين المثار الذي فقد تعبيره المعتاد في الارتباك الاعتذاري. مصباحان
كانا يحترقان وحين بدأ الأول الذي كان أمامهما يقبض ويرسل شرراً إلى
المدخنة نهض نيكون بهدوء وأطفأه، ثم ذهب على رؤوس أصابعه إلى
الطاولة ليحضر المصباح الثاني ووضعه بدون أن يتكلم واستأنف جلوسه.

فتح الباب، ومد شاكر رأسه وقال بتوبيخ لطيف:

"الساعة الثامنة تماماً"

نظرا إليه ثم إلى بعضهما بعض وإلى النافذة "هذا يعني أنني أمضيت
الليلة من أجلك!" هتف نيكون وهو يجذب نفساً عميقاً ويطعطق لسانه.

صاح كوجيمايكيين المذعور لسبب ما بشاكر قائلاً:

"حسناً جداً، إنها الساعة الثامنة تماماً وماذا في ذلك؟"

"حان وقت فتح النوافذ الخارجية، بانث الشمس عالية في السماء"
"ارحل يا أخي" صاح نيكون ملوحاً للترتي أن ينصرف "تابع ما كنت
تقوله يا ماتفي"

"احضر الساور هنا" أمر كوجيمايكن بارتياح "ولا تفتح النوافذ
الخارجية. املاً المصباح بدلاً من ذلك" التفت إلى نيكون وقال بلهجة
توسل "لنظل هكذا- دعنا لا نغير الضوء" أوماً نيكون برأيه وقرب
كرسيه أكثر.

أصبحا صديقين، وانتقل نيكون إلى بيت كوجيمايكن وأصبح التاجر
يحبّه أكثر. لقد تفاجأ ماتفي سافيليفيتش بشكل خاص من الانتباه الشديد
الذي كان نيكون ينصت فيه إلى حديث عن أشخاص استثنائيين من أمثال
مارك فاسيليفيتش وفييجينيا وتيونوف. الاثنان الأولان أدهشا نيكون بلا
إثارة أي شكوك في ذهنه.

"هذا ما أسميه أشخاصاً بأدمغة" قال مبجلاً "لا أستطيع أن أصدق إلا
بصعوبة وجود مثل هؤلاء الناس في الحقيقة. هذا يبدو مثل حكايا
الجنّيات - إذاً هذا هو المكان الذي استقيت أفكارك منه"

وأضاف بعد لحظة من الصمت الكالـح:

"لكن لا يسمح طبعاً لأمثال هؤلاء الناس بالتكاثر أبداً"

"من الذي لا يسمح؟ السلطات التي ستكون؟"

"نعم ونحن. لن نسمح بذلك"

"نحن لن نسمح؟ ولم لا؟"

"نحن سنكنسهم ونزيلهم"

"لكن لماذا؟" سأل كوجيمايكن المندهم.

"لا أستطيع أن أعلل" قال نيكون وهو يهز كتفيه "لكنني متأكد أننا لن
نسمح. إنهم مثل بذور ترمى في أرض حجرية"

دلى كوجيمايكيين رأسه للأسفل حين تذكر كيف تصرف مع العم مارك
والأشخاص الذين جمعهم حوله.

اهتم نيكون بتيونوف والتفكير فيه وضعه في مزاج جيد.

"هناك وغد" قال وهو يقتل شاربه "كل ما يحتاج إليه السلطة والمال ثم
بعد ذلك سوف يفعل ما يشاء بالناس"

أحياناً كان نيكون يدعو ماشا إلى بيت كوجيمايكيين لتزوره. كانت تحيي
سيد البيت بمرح عرضي ثم يقفلان الباب هي ونيكون على نفسيهما في غرفة
بيلاجيا وكوجيمايكيين يصنع الشاي وينتظرهما حتى يخرجان وهو يشعر بأنه
راعيهما ويشعر بالحسد أيضاً.

في البداية اعتبر ماشا عادية مثل الهندباء البرية، لكنه كلما أصفى إليها
فهم أكثر موقف نيكون الغريب وغبر المريح منها؛ موقف لمحبه من خلال
مجموعة من المشاجرات.

في أحد الأيام جلست مهتاجة ومتوردة وحالة إلى طاولة الشاي وقالت:
"كم أحب أن أكون لوحدي في مساءات الشتاء الهادئة! أغلق الباب
وأترك الغرفة في ظلام باستثناء وميض مصباح متقطع وسريري مريح
ودافئ مثل الشرنقة. أستلقي هناك، أسمع لغة جسدي كله وليس هناك
سوى طقطقة الجليد. أنعس وأحلم بشخص يأتي وينفخ بوجهي بلطف،
أجفل وأفتح عيني دون أن أجد أحداً. وهكذا أستلقي هناك مرة أخرى وأنا
متأكدة تماماً من أن شخصاً ما سيأتي وينحني فوقي ويهمس بشيء عزيز في

أذن ولا أستطيع أن أميز من هو في الظلام. أوه، لا تظن أنني أستلقي وأنتظر رجلاً- بل شخص ما مختلف تماماً، ربما ملاك"
"أو شيطان" قال نيكون دون أن ينظر إليها "وهل هناك فرق بالنسبة إلى المرأة"

بضحكة صغيرة غمزت بغمزة ذات معنى مشيرة إلى نيكون وقالت:
"وأخيراً يحضني بين ذراعيه مثلما تحضن أم طفلها ويريني كل الأشياء الحقيقية ويعطيني طعاماً من البهجة والهادئة النقية التي لا يعرفها المرء في ساعات اليقظة. أحياناً أصلي حين أذهب إلى النوم وأقول "أيتها العذراء الغالية، يا واهبة الأحلام، أرسلني لي حلمًا سعيداً الليلة"
كم هي جميلة! فكر كوجيما يكن محتعاً عينيه.

لكن صوت نيكون رن بخشونة قبضة تسقط على برميل فارغ:
"ليال هادئة كذلك تجعلني أشعر دائماً مثل قرع أجراس الإنذار. في واحد من مثل هذه الأيام سأنتسلق برج جرس الكاتدرائية وأطلق سراحه. سترون!"

جفلت ماشا كأنها تعرضت لسقطة مفاجئة ثم أطلقت صفيراً من الضحك:

"ألا يتسبب ذلك في إخافة الناس! أستطيع رؤيتهم وهم يركضون عراة في الشوارع على الثلج! أوه يا عزيزي"
حين أنهت ضحكاتها نهضت فجأة وذهبت إلى البيت.
"لماذا تعترض دائماً على كل شيء تقوله هي؟" سأل كوجيما يكين نيكون.

حذق نيكون به لحظة قبل أن يرد:

"أريد أن أصل إلى أعماقها، هناك شيء يقف بيننا، في حال كنا نعني لبعضنا البعض شيئاً"

توقف عن الكلام ونهض وقال:

"أظن أنني سأذهب إلى النزل وألعب الورق مع قارورة" ثم أضاف بارتجال وهو ينحني ليلبس الحذاء المطاطي فوق الحذاء العادي "من الأفضل أن تكون حذراً من ذلك اللحم"
"لماذا؟" سأل كوجيمايكن مندهشاً.
"فقط لأن- كن حذراً، أقول لك"

كان كوجيمايكن مرعوباً. لم يمر وقت طويل حتى سقط بين ذراعي مارفا بوسولوف كما لو أنه وقع في حفرة فاغرة. ظل اللحم بصر عليه كي يزورهم وبما أن كوجيمايكن لم يعرف كيف يرفض الدعوة فقد ذهب مرات قليلة. في كل مناسبة كان بوسولوف يجد ضرورة وحاجة للخروج من البيت بسبب عمل ملح وعاجل وهكذا، رغماً عن إرادته تماماً كان كوجيمايكن يترك لوحده مع مارفا. كان يعرف أن قارورة لاعب ورق مسعور وأن تعاملاته سيئة. لقد افترض منه المال مرات عديدة ووعد أن يسدده لكنه لم يسدد شيئاً.

راجت إشاعات في البلدة بأن بوسولوف يضرب زوجته لأنها كانت سيئة مع ابنه من زوجته الأولى لذلك أجبر على إرسال ابنه إلى العيش في فورغورود، وعلى ما يبدو أنه نسي الصبي واهتم بمصالحه. وتفشيت إشاعات أخرى بأنه أرسل ابنه بعيداً بسبب الغيرة.

لم يصدق كوجيمايكن بأنه كان يضرب زوجته، لكنه شعر أن جسدها القوي الجميل كان يعاني من انتهاك ما.

إن ما محتاجه هو أن تنجب خمسة أطفال أو ستة وها هي بلا أطفال. فكر.
أي نوع من الأزواج هو لها؟

في إحدى زيارته وجد مارفا تشرب الشاي وتحيل أنها قابلته بحيوية أكبر
من المعتادة وبابتسامة ودية أكثر إشراقاً وحرارة.

"هل أليكسي إيفانوفيتش خارج البيت مرة أخرى؟" سأل.

"لقد ذهب إلى فويفو دينو لشراء عجول" قالت.

"لقد دعاني وقال إنه سيكون في البيت"

"إنه مجنون جداً"

جلست في وضعيتها المعتادة، كأنها تنتظر أحداً. رأى انحناءات جسدها
تحت قميصها الوردي الفضيض، ارتفعت رقبتها بفخر من خارج شريط
الزينة عند حلقها، تارجح رأسها الصغير بشعره الداكن المسرح للخلف
بنعومة بخفة وومض وجهها الخزي وعيناها الضبابيتان بابتسامة ابتسامة
باهتة.

"لقد سخنا الماء في الحمام اليوم" قالت وتشدقت من أنفها. "عزم
أليكسي على الاستحمام لكنه ذهب قبل أن يكون جاهزاً لهذا عرضت نفسي
للبخار عن كلينا، تبخرت وتبخرت حتى كاد قلبي أن يتوقف عن
الخفقان"

"أنت تعيشين نوعاً بليداً من الحياة" قال كوجيمايكين بحسرة "امرأة
شابة مثلك -"

"أوه، هي ليست بهذا السوء" قاطعته قائلة "إن ضجرت كثيراً أقرأ
المقدمات، عمتي اعطتني مخطوطاً وضعه ميثري روستوف دون أن يحذف
شيء منه" (٣٣)

استندت إلى الأمام وقالت وقد حبست أنفاسها قليلاً:

"بعض القصص في المخطوط غير محتشمة حقيقة"

"هي كذلك" قال كوجيايكن موافقاً.

"لكنها عن القديسين، أليس كذلك؟"

"أوه، نعم. كان هؤلاء القديسون بشريين جداً"

"لهذا نحن نسميهم قديسين"

قالت وهي تطبق عينيها نصف إطباقاً:

"لكن جلوسنا هنا نتفلسف ليس له أي معنى"

يجب أن أضع حداً لهذا الحديث، فكر كوجيايكن.

مدت يديها على الطاولة ونهضت ثم فتحت عينيها الثقيلتين إلى أقصاهما

وكررت بصوت عادي:

"ليس له أي معنى. يفترض بالعدراء المقدسة أن تسامح الناس؟"

حين عاد كوجيايكن إلى الأرض، كان خجلاً من نفسه ومنها: لقد

حدث الأمر بفضفاضة وصمت دون أن ينمق بكلمات نابغة من القلب أو

بذلك الجنون الجسدي الذي يتحدى العار والتوبة. من المروع أن يدرك أن

هذه المرأة التي ذهب معها لتوه إلى أقصى حدود الحميمة، أصبحت الآن

غريبة عنه، غير متجانسة وغريبة، تجلس في مكانها المعتاد، ترشف الشاي

وتبتسم له من فوق طبق الفنجان بنفس الابتسامة دون أن تبدي أي أثر من

الإعياء. شعر بالعار ورغب في الذهاب لكنه خاف أن يكون ذلك غير لائق

وأراد أن يسألها شيئاً لكنه عجز عن إيجاد الكلمات الصحيحة. جلس هناك

ببساطة يدفع أطباق الحلويات وصحون المربي للوراء والأمام:

"لماذا لا تقول شيئاً؟" سمعها تسأل.

جفل وسأل فجأة:

"إذا أنت تحبينني، أليس كذلك؟"

"لو لم أكن كذلك لما أثمت معك وفي يوم السبت"

سقطت مثل تفاحة نخرها الدود، فكر كوجيبا بكن.

لم يتذكر كيف تركها وإن كانت سألتها أن يأتي مرة أخرى. لزم بيته مدعياً المرض لأسبوع كامل وراجع في ذهنه فعلته وبحث عن مبرر لسلوكه. فكرة أخرى، فكرة ذكورية ظلت تتطفل:

لقد كانت هي من بدأت العلاقة، لهذا يفترض وجود شيء حولي، شيء لا يقاوم.

جذبتة ذكرى جسدها الحلوى للعودة إليها. في صباح أحد الأيام ذهب حين عرف أن زوجها كان في السوق، فكر طوال الطريق عن كلمات لطيفة يقولها لها. فكر بالكثير لكن ما إن رآها حتى أدرك عدم وجود ضرورة للنطق بها وأنه غير قادر على فعل ذلك بصدق وإخلاص.

وبهذه الطريقة بدأ بعلاقة غرامية تخلو من الحب وبشك وهاجس بتوقع كارثة.

أراد أن يحكي لنيكون عن مارفا وأن يسعى إلى مشورته، لكن الأفكار حول مارفا كانت تزول حالما يظهر نيكون.

بالنسبة إلى مارفا، فقد تعودت عليه بسرعة فأصبحت أكثر ثرثرة وحاسماً وكثيرة المطالب وأظهرت فضولاً ضاعطاً جعلته يستاء أكثر إذ حين كانت تلاحظه همست في أذنه:

"أخبرني كيف بدأ الأمر بينك وبين زوجة أبيك؟"

"كيف يمكنك أن تسألني؟" قال "لا يثرثر المرء بهكذا أمور"

"حسناً إذاً، ومع تلك المرأة المهذبة؟"

كانت عيناها تتضيقان حتى تصبحان مجرد شقين ويرتعش جسدها كله كأنها تغلي من الداخل. كان كوجيما يكن غاضباً جداً لدرجة عجز فيها عن الكلام وكان لديه دافع إلى ضربها.

ثم بدأت هي نفسها تخبره عن العلاقات بين الرجال والنساء: بعض العلاقات كان مسلياً وبعضها الآخر بهيمياً ومرعباً. رغم شعوره بالخجل لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من الإنصات، وفي مرات كان يسألها عن هذه العلاقات الهمجية حتى.

"آها!" كانت تصبح منتصرة لكن بإحساس من التأذي "تتوقعني أن أحكي لك وأنت ترفض أن تحكي لي"
"هذا غير لائق يا مارفا"

"فعله لائق أما الحديث عنه فغير لائق، أليس كذلك؟"

"كيف تصل هذه القصص إلى مسامع امرأة شابة مثلك؟ أنت ربما تؤلفينها فقط"

بسبب سخطها كانت تحكي له قصصاً قذرة أخرى لتؤكد صحة القصص السابقة.

"مستوطنات غنية والناس أصحاب وينغذون بشكل جيد، الصبيان والفتيات وسيمون والآباء غير متزمتين. بالنسبة إلى طائفتنا الحب ليس إثماً، نحن لسنا أرثوذكسين مثلك، لهذا اسمع هذه الحكاية: زوج آل موريانوف ابنهم كارب. كان الولد نحيفاً وصغيراً وضعيفاً -"

في اللحظة التالية كان كوجيما يكين بضحك ويحمر من الخجل ويقول لها:

"توقفي عن ذلك أيتها العاهرة!"

وكان يقول أحياناً وهو يشعر بالملل والاشمئزاز من قصصها:

"إذا كنت أقمت علاقة معي وتولعت بي كي تتسلي إلى داخلي فهذا فضول منحط وكرهه"

"أوه، طبعاً. يا لك من قديس" كانت تردد وتبتعد وهي عابسة.

سرع تحذير نيكون شكوكه، وشعر أن اللحم يقترض المال منه أكثر فأكثر وبشكل متكرر وكان يتفاداه عمداً حين يزوره في بيته وإن صدف والتقى به في بيت صديق أو في نزل يباغته ويهمس من وراء كتفه:

"مرحباً، كيف هو تقدمك وتحسن أدائك؟"

ترتعش أصابعه ويفرك يديه ببعضهما ويلوي وجهه ويحدق مباشرة في عينيه اللتين كانتا تتحاشيانه.

"قالت مارفا إنك زرتنا قبل الأمس؟"

"نعم-م"

"والآن أنا أحتاج إلى عشرة روبلات حتى يوم السبت إن لم يكن لديك مانع، مساء السبت"

قبل ذلك بوقت كان بوسولوف يتقاضى مالاً عن كل زيارة يقوم بها كوجيمايكين إلى زوجته، وتساءل إن كان يعرف؛ لكن الفكرة كانت بغيضة وغير مقبولة.

صمم أن يسألها بعد تحذير نيكون لها، هي ستخبرني إن فعلت ذلك بحذر.

لم يعد ناسكاً، وكان يزور الناس باستمرار، ولاحظ بأنهم كانوا يصلون إلى جيبوه. في البداية قدم له تجار البلدة الواحد تلو الآخر عروضاً خاصة

للتشارك معه ووعدوا بأرباح كبيرة جداً. كان سوخابييف صاحب العضلات أكثر من قدم له العروض. كان يجلس مقابلته ويسدل عينيه ويقول بفتور:

"الأهم من بين كل أفكارك هو ما قلته عن الطبقات؛ أنت محق في القول إننا يجب أن نقوي صفوفنا ونساعد بعضنا ولكني أرى أننا يجب أن نعمل بشكل منفصل"

كانت ثيابه من أفخر نوعية ولائقة عليه كأنه صب في داخلها صباً. حين أخبره عن نيته في إغلاق مشغل الحبال رف يده معترضاً:

"كيف يمكنك حتى التفكير في شيء كهذا؟" قال "لماذا هذا يتناقض مع كل ما تعظ به. مثل هذه التجارة الجيدة وفجأة وعلى حين غرة لا شيء! أنت نفسك قلت إننا يجب أن نتوسع، وها أنت تتحدث عن إغلاق بإرادتك الحرة الخالصة!"

جذب كرسيه واقترب جداً من كوجيمايكين حتى لامست ركبته ركبتي كوجيمايكين وحدث به بعيون ملتبهة وقال بنعومة:

"هل تبيع؟ كيف سيعمل سوخابييف خلفاً لكوجيمايكين؟ كم هو سعره؟ أعلنه بصراحة"

انجذب كوجيمايكين إلى التعبير الحي في وجهه والنظرة المصممة في عينيه والأكثر من ذلك إلى ما قاله عن تجارته وعمله:

"سأفكر بالأمر ثانية" قال بود "لقد سئمت من هؤلاء العمال ومن الضوضاء ومن كل شيء"

"أنا أفهم" هتف سوخابييف "ذهنك منشغل بأشياء أخرى؛ أفكار تنظيمية أكبر من هذه التجارة. أفهم. لكن بالنسبة إلى التفكير بالأمر مرة

أخرى، ماذا ظل هناك للتفكير؟ ها أنا سوخابييف خليفة لكوجيمايكين،
مستعد ومتنظر"

قبل أن يغادر كرسيه أقنع كوجيمايكين أن يبيعه. أعطاه رعبوناً ودس
وصل استلام في جيبه.

"بخصوص الضوضاء والمضايقة" قال وهو ينهض "يمكنك أن ترتاح
وتثق أنني سأحميك من ذلك كله. أنا أعرف كم هو مهم هدوء ذهنك
بالنسبة إليك. وكمعجب بأفكارك أعتبر نفسي مسؤولاً عن التأكد من توفير
الفرص لتتطور بدون أي تدخل"

أطرت كلمات سوخابييف كوجيمايكين وسره جداً أن يبيع مشغل الجبال
له، ولكنه احتفظ بالبيت. شيء لم يحسبه أو يفكر فيه"
في مناسبة أخرى قابله في الشارع وقال:

سمعت أنك صديق لنيكون ماكلاكوف، هل هذا صحيح؟ أفهم. إذا
دعني أرمي كلمة للحكيم: بتقدير لا يوجد في البلدة رجل صادق وشريف
أكثر من نيكون لكن لا تلعب الورق معه. إنه غشاش. ساعني لتقديمي
نصيحة لم تطلب مني، ذلك لأنني أردت أن أقدم خدمة بأية طريقة"

كانت هناك نظرة من الصراحة الواضحة في عينيه. استأذنه كوجيمايكين
وضغط يده بود وهو يفكر:

إنه وغد ولكنه وغد ممتع!

في أحد الأيام زار سوخابييف كوجيمايكين حين كان هناك نيكون.
جلسوا لوقت طويل بشربون الشاي ودهش ماتفي بملاحظة الاهتمام الكبير
والانتباه الذي أبداه واحد من مواطني البلدة البارزين الذي أصفى به إلى
الحديث المفكك لهذا المقامر والسكير.

"صحيح تماماً" وافق سوخابييف.

"والأطفال هذه الأيام لا يتوقع منهم أن يكونوا أذكى مما نحن عليه حين يكبرون ويصبحون رجالاً. إنهم يلعبون نفس الألعاب وينشدون نفس الأغاني كما فعلنا، وهم مؤذون فقط"

"هنا أنا أختلف معك" صرح سوخابييف باحترام لكن بشكل قسري.

"لماذا، يا فاسيلي فاسيليفيتش؟" سأل المضيف.

"الأطفال اليوم أكثر شراً وأقل ثقة بالآخرين"

"أوه، هذا صحيح" وافق نيكون بدوره "في هذه الأيام الصبيان أكثر مكرراً حين يقاتلون، لكنهم أقل صدقاً وجسارة، يفقدون هدوءهم بشكل أسرع وي يكون بسرعة أكبر مما كنا نفعل"

توقف للحظة قبل أن يضيف:

"وكل ذلك بسبب أمهاتهم: ذلك كله خطأ النساء؛ لم يمنحن أطفالهن الاهتمام الكافي لأنهن لم يرينهم بدافع الحب وإنما ليصنعن صورة طبق الأصل عن أنفسهن وحتى أسوأ. يجب أن يتعلم الصبية الصغار كيف يتصرفون؛ يجب أن ننشئ مؤسسات حنونة لتعليمهم - والفنيات الصغيرات أيضاً. حان الوقت أن ندرك أن العالم يحتاج إلى أمهات حكييات. يوجد شيء تفكر به يا مانفي سافيليفيتش؛ لديك المال، لماذا لا تنفقه على ذلك"

رفع سوخابييف رأسه وجلس يملس شعره المائل للحمرة وأقبل نيكون يدها خلف عنقه وتابع بابتسامة:

"لو أبدت النساء صدقاً وإخلاصاً أكثر، لنقل بصراحة، لأصبح الناس أفضل. لا يوجد أدنى شك في ذلك"

"نعم صحيح بالفعل" رضح سوخابيف موافقاً بصوت منخفض.

لم يقل كوجيبا يكين شيئاً لكنه فكر:

أفكار كهذه لا تخطر أبداً في بال ما يسمى بالقوم المحترمين وإنما تخطر لشخص سيء السمعة مثل نيكون.

وقال بصوت عالٍ:

"يجب أن أفكر في الأمر"

أسقط سوخابيف ملعقته على الأرض وراوغ عن النظر وانحنى لاسترجاعها.

"لو كان هناك مثل تلك المرأة التي أخبرتني عنها" قال نيكون وهو يقذف رأسه للخلف ويحدق متأملاً في السقف. "النساء مختلفات حقيقة في هذه الأيام، وأنا لا أعرف إن كن أفضل أم أسوأ. لكنهن مختلفات. كن أنعم وأحلى، الآن هن أجف ولهن ذوق حاد. في الماضي كان الرجل يحوم حول المرأة مثل آثم حول المعبد، يخاف الاقتراب الكبير منها ويتساءل أي كلمات ستلمس قلبها، وكان يجد الكلمات المناسبة والصحيحة عادة. في هذه الأيام لا يبدو أن النساء بحاجة إليها وهن بمضين وقتاً في المعاشرة أقل من الوقت الذي يمضينه في الشجار - يحاولن أن يعرفن من سيفلب الآخر. يرهقن أنفسهن في هذه الشجارات ويهرمن قبل أوانهن"

جلس سوخابيف يراقب نيكون من تحت جفنيه المسبلين، يحرك شففيه الرقيقتين ويبللها بطرف لسانه الحاد من حين إلى آخر. في مناسبات نادرة ترسم ابتسامة على وجهه وتختفي بسرعة دون أن تبدل البرود الذي في تعبير وجهه.

حين غادر المنزل بعد هذا الحديث، طلب بأدب الإذن ليزور كوجيبا يكين مرة أخرى في المساء التالي:

"تسرفي زيارتك دائماً" قال ماتفى سافيليفتش بمودة.

بعد أن ترك لوحده مع نيكون قال:

"ما رأيك فيه؟"

"إنه ذكي جداً" قال نيكون مع ضحكة صغيرة "أجد الحديث معه مسلياً أحياناً. يقول لي: قلبك طيب لكنك لست جيداً كشخص. أرد عليه: أنت شخص جيد لكنك بلا قلب بتاتاً، لا شيء غير الأيدي - ستة عشر زوجاً منها أو أكثر" فيضحك فقط. هو رجل يعتمد عليه. لا يضيع نفسه على الأشياء الصغيرة والتافهة وينال ثمناً جيداً مقابل بيع رجل ما - أنت أو غيرك. ولو باع يسوع المسيح فإنه سيفش المشتريين ولو بكوبيك واحد" أطلق ضحكة حاقدة ومشط شعره الرقيق أمام المرأة ودخل في مزاج تأملي.

في اليوم التالي ظهر سوخايبف في معطف أسود وبدا أكثر أناقة وكان لائقاً جداً على جسمه أكثر من سابقه، قلب أطرافه حين جلس وثبت عينيه عمداً على وجه كوجيايكين.

"حسناً، يا ماتفى سافيليفتش" قال "ساكون صريحاً تماماً إن لم يكن لديك اعتراض"

سحب مقعده واقترب أكثر.

"كما تعرف أنا أعتبر محتالاً ولا يثق بي أحد. لا يهمني هذا. كل رجال التجارة يوصفون بأنهم محتالين في البداية، لكن فيما بعد يأتي الناس إليهم يحبون على أربع وسيأتون إلي أيضاً مع الوقت. إن النقطة المهمة ليست هذه. من الطبيعي جداً ألا أدير عيني بعبداً عن المشهد أو أحاول أن أضعهم على أقدامهم ثانية. على العكس قد أستمتع وأتسلى بضحكة جيدة. لكن أقول لك

الحقيقة. ليس هذا هو الشيء الرئيسي بالنسبة إلي. ما أريد هو أن يحترمني الناس وألا يذلوا أنفسهم أمامي. الاحترام هو أن يقدموا لي رصيذاً، أما إذلال أنفسهم لا شيء سوى استعراض غبي مضر للصفقة. أنا رجل جديد في هذا المكان؛ جدي مات منذ ستة أعوام، حلاب بقر متواضع في اوبنوسكوفو، كل شخص يعاملني كغريب ولا يرغب أي منهم بأن يمنحني الثقة والمصادقة ومع ذلك كل رجالك من سماغين وكولو غوروف وبازانوف وغيرهم من البالين تافهون ومن الطراز القديم وليس لديهم عين للتجارة وأفضل ما يمكنهم عمله أن يتعدوا عن طريقي وألا يتدخلوا. أنت ترى كيف هي حالهم. وكنت محقاً حين أشرت وقلت لهم إننا يجب أن نغير الطريقة التي نعيش ونعمل بها. يجب أن نعمل لمصلحة الآخرين وليس كقطاع طرق لا يفكرون إلا بأنفسهم. لا نريد خطف الروبل كله من الرجل ولكن سنقول له خذ ربعه وبالمقابل كن لطيفاً واصنع لي من الروبل الذي أخذته"

في عدوانيته، ذكر كوجيمايكين بالجندي المعجوز بوشكاريوف. عرف ماتفي أن أهل البلدة كنوا له الاحترار وقالوا عنه كل الأشياء الكريمة من وراء ظهره.

إلى ماذا يسعى؟ تساءل كوجيمايكين وهو يراقب زائره الذي كان يفرك يديه النحيلتين بين ركبتيه ويتأرجح في مقعده للأمام والخلف.

"والآن ماذا أريد منك؟" قال سوخايفف كما لو كان يقرأ أفكار كوجيمايكين. تفجر وجهه بلمطخ حمر وهو يجيب نفسه على السؤال "أريدك أن تساعدني في تطبيق أفكارك الجيدة، لكي أحرك الأشياء وأرفع مكاتي في العالم. أستطيع أن أرى بأن رجلاً يمثل نظرتك الأخلاقية وموقفك يسره أن يستثمر رأسماله في قضية مفيدة؛ ألسنت على صواب؟"

"أوه، نعم" رغم أنه لم يفكر في هذا من قبل.

"حسناً، إذًا-"

حرك كرسيه إلى الأمام واقترب أكثر وهو يرمش كأنه أعمى، وضع يديه على ركبتي كوجييايكين وقال:

"أليس من الأفضل لك أن تزيد رأسمالك أولاً؟ كم هي الفائدة التي يدفعها لك البنك؟ ألا تحب الحصول على زيادة قدرها واحد بالمئة؟"

"ثلاثة بالمئة" قال كوجييايكين.

"إنك تمزح"

نهض سوخايبيف ووقف باستقامة كما لو كان مدرعاً، وفكر للحظة:

"كم المال الذي يمكنك أن تعطيني؟" سأل.

"خمسون ألفاً"

"قليل جداً. لديك ضعف ذلك أو أكثر حتى. أعطني إياه كله"

"أخشى أن" قال كوجييايكين وهو يضحك.

"سأعطيك كمبيالات وأقدم بيتي وأرضي ونزلي ضمانات"

جلس ثانية وواصل الكلام بلهجة تشير إلى أن كل شيء تمت تسويته.

"انظر كيف تقف الأشياء: بازانوف ليس الرجل المناسب لإدارة البلدة

وتسيير أمورها؛ لم يفعل أي شيء يمكن الحديث عنه ولن يفعل. أنا من

يجب أن يديرها"

بدا مشاكساً جداً، لذلك لم يستطع كوجييايكين إخفاء ضحكته:

"نعم أنا سأديرها" كرر سوخايبيف بإقدام "ويمكنك أن تساعدني في

تحقيق ذلك بالتحدث عني وإن فزت بالمنصب لن تكون البلدة كلها ربحاً

بالمقابل وإنما ستكون نقودك أكثر أماناً ويكون تحقيق خططك بين يديك.

سأكون خادمك المطيع والمنفذ. ما رأيك بهذا؟ لعبة مضمونة بلا مخاطر.
فاسيلي سوخوبايف سينفذ كل أفكار ومشاريع ماتفي كوجيمايكين
الرائعة!"

قفز ونهض وهو شاحب ويرتعش من الإثارة.

"سأقلب البلدة رأساً على عقب في غضون خمس سنوات. لتتصافح
ونقرأ فاتحة الاتفاق على الصفقة"

"كلا" قال كوجيمايكين "يجب أن أفكر ملياً في ذلك، هذا مفاجيء
وعلى حين غرة"

"كل الأشياء الجيدة في العالم يتم فعلها فجأة دون تضييع للوقت أو
الكلام" قال سوخوبايف بطريقة تنم عن النفوذ "وأقسم بشرفي على ذلك
لأن الشيء الوحيد الذي يقدر الروسي على التفكير فيه هو كيف يتهرب من
ضرورة فعل شيء. أرجو أن تساعدني على قولي هذا"

بعد أن غادر وجد كوجيمايكين أن الغرفة حارة وخائفة وشعر بشيء
ثقيل داخل صدره، لذلك بدأ يترنح من طرف لآخر بشكل خطر.

هم سيستولون على كل شيء عندما أموت، فكر كوجيمايكين وهو يشعر
بالمراة. سوف أكتب وصية أترك فيها كل شيء للبلدة. ليس لدي شخص
أترك ملكي له. بعد أن أكتب وصيتي يمكنني التفكير باقتراحه. إنه رجل
ماكر، سينال مني ما يريد به أية وسيلة. إن لم أبقَ حذراً فسيسرق مني كل ما
أملك لكن هل هناك فرق بالنسبة إلي من هو الذي سيرقني؟ وأعتقد أنه
سيفعل ما تعهد به فعلاً.

كان في هذا المزاج حين ذهب ليزور مارقا بوسولوفاً بعد بضعة أيام.
تشوق أن يحكي لها الذي كان يدور في ذهنه وهو منصهر بمداعباتها فقال:

"لقد قررت أن أستثمر نقودي كلها في تجارة سوخوبايف. ما هي أهمية النقود بالنسبة إلي؟ أنا وحيد وبعد أن أموت سيأخذها الآخرون. هو تعهد بأن-"

رفعت مرفاً رأسها ببطء إلى وضعية الجلوس، غطت وجهها بيديها وبدأت تتنحب بهدوء.

تفاجأ كوجييايكين وارتعب، نهض من السرير وأمسك بها من كتفها.
"ما المشكلة؟ لماذا تبكين؟"

لم ترد لكن دموعها سالت واستمرت بالنحيب مثل ذئب:
"أو-أو-أو-أو-وا"

سقط الثوب البني الشفاف عن كتفها واهتز جسدها الأبيض الكبير وبدأ ينتفخ وسالت دموع غزيرة بين أصابعها.

"ما الأمر؟" قال وهو مصر أن يبعد يديها عن وجهها، لكنها دفعته بعيداً بكوعها وصاحت به قائلة:
"انصرف"

نهضت عن السرير وهي تتمايل، ابتعدت عنه وماءت بنعومة وهي نشد ثيابها على جسدها ثم قالت:
"كلكم لصوص-كلكم-"

لبس كوجييايكين ثيابه بسرعة أيضاً وخرج من غرفة النوم العائمة التي لا يبرها سوى مصباح أبقونة في غرفة الضيوف حيث جلس وحمدق حوله بنوع من الانبهار وقد أدرك أن شيئاً قبيحاً حدث. خرجت مرفاً تمسك بشال رمته فوق رأسها وعبر وجهها وقالت بنكد:
"لماذا أنت جالس هنا؟ هيا اخرج وانصرف".

ذهب إلى حيث تقف وقال برقة:

"لماذا علي أن أنصرف؟ ماذا فعلت؟"

"لم يعد هناك أي مبرر لقدمك إلى هنا بعد الآن،" قالت بوقاحة دون أن تنظر إليه؛ ثم بعد ذلك استندت إلى الجدار وكان من الواضح أنها مرعوبة من فكرة ما. "اووه، ماذا سيحل بي الآن؟" قالت يائسة. في هذه اللحظة انتزع كوجيمايكن الشال عن رأسها وضغط خديها بين يديه.

"هل زوجك يعرف؟" قال بصوت أجش وهو يختنق من الغيظ والاشمئزاز.

"اتركني!" صاحت بغضب وهي تدفعه عنها بيديها السميتين.

"انظري إلي: هل هو يعرف؟ هل اتفقت معه على فعل هذا؟" افلقت نفسها منه وركضت إلى الباب، ومن هناك التفتت إليه بعيون تقدر شرراً وهمست بسرعة، عمرة ونمز قبضتها نحوه: "هل نعتقد أنني فعلتها معك بدافع الحب أيها الأبله؟ هذا لك!" طقطقت أصابعها نحوه وبدأت تحبط الباب بجبهتها.

"و-و-و" انتحبت. "ماذا سيحل بي الآن؟ أنت خنزير كبير" "ما هذا؟" زار كوجيمايكن، وقد انقلب عليها. ولكن بعد أن أطلق العنان لمشاعره بصب سيل من اللغة القذرة، شعر بالأسف من أجلها فجأة. وثبت للأعلى من المكان الذي انهارت فيه على الأرض وصرخت: "أطبق فمك واخرس أيها الضفدع"

أمسكها كوجيمايكن بين ذراعيه وقبل وجهها المبلل بالدموع.

"ساعبني" قال. "يفترض بي ألا أنفوه بذلك. ساعبني، أيتها الحمل الصغير المسكين، لا يمكن أن تتخيلي كم أشفق عليك. إذاً هو باعك كما يبيع اللحم غير أنه لحام بالهنة! لماذا لم تخبريني بصراحة؟"
"أبعد يديك عني" قالت بضعف. طافت عيناها بالغرفة كأنها تبحث عن شيء ويدها ترتعشان.

كاد أن يبكي من إشفافه عليها لكن قلبه كان لا يزال يغلي ويثور.
"لماذا فعلها؟ من أجل النقود؟" سأل.
"وكيف سأعرف؟"

"ماذا تعتقدين؟ إلى ماذا يسعى؟ ما الذي عول أن يأخذه مني؟"
انهارت على مقعد بعد أن دفعته بعيداً وقالت بفضفاضة:
"كأنني كنت مهتمة بصفقاتك القذرة!"
"لكنك كنت شريكة معه"

"وماذا في ذلك؟" تمتمت "لم أفعلها بإرادتي الخاصة، هو المسؤول أمام الرب"

قال كوجييايكين دون أن يفكر وكى يغبط بوسولوف:
"اسمعي يا مارفا، اتركي زوجك وتعالى عيشي معي"
قذفت رأسها للخلف وضحكت بوجهه:

"شيء رائع!" وبخنه قائلة "ويقولون عنك إنك ذكي ونلت معرفة.
كأن بمقدور المرأة ترك زوجها! لا يفعل ذلك سوى النساء المنحلات"
"وهل تسمينه زوجاً أيتها الحمقاء الصغيرة؟" صاح كوجييايكين.
"إنه زوجي بالقانون. تزوجنا في كنيسة. انصرف" تمتمت، عيناها على الأرض وشفاتها مبرمتان. ثم قالت على الفور وبصوت واضح:

"ونيكولا يرحل. أوه ياربي! أوه يا إلهي!"

"من هو نيكولا ي؟"

"لا أحد. وماذا يعنيك هذا؟" صاحت.

كانت الغرفة مظلمة ومكدسة بالأثاث. اصطدم كوجيمايكن بالمقاعد والطاولات وهو يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً مثل فأر في مصيدة.

"حسبتك شخصاً يمكنني التحدث إليه على الأقل" زجرت "لكن كل ما تستطيع فعله أن ترد بغضب وازدراء كالآخرين"

بدا وجهها مختلفاً، كان أبيض ومرتعشاً وعيناها مفتوحتان وخاويتان تحدقان بالفراغ:

"الوداع" قال كوجيمايكن وهو يمد يده.

رفعت كتفها واستدارت.

"ارحل وأرجو أن يغفر الرب لك" قالت.

سار كوجيمايكن في الشارع ومعه سرب من الأفكار الغاضبة التي كانت تطن في رأسه. أحب أن يؤذي بوسولوف ويهينه بطريقة لا ينساها أبداً.

في الأفق البعيد وفي نهايات حقول باهتة تراكمت غيوم ثقيلة ظلت تنفصل منها خصل وتحبو منخفضة فوق التلال التجهت نحو البلدة.

مشى كوجيمايكن بين صفيين من الأسبجة وفكر: سأجد روبلاً مثقوباً وقدراً وأرسله مع رسالة صغيرة تقول: هذا سداد لك لقاء موافقتك في السماح لي باستخدام زوجتك. لكن يجب ألا أفعل هذا. لن يفعل شيئاً ما عدا أن يصب حقهده عليها وهذا ليس خطأها، إنها مخلوقة بائسة وغبية. سوف أضربه، هذا ما سأفعله.

بعد أن أخذ هذا القرار أسرع الخطأ وهو متشوق لتنفيذه قبل أن يفقد شجاعته. استدار باتجاه ليسون على أمل أن يجد اللحم هناك وبالتأكيد كان هناك يتكاسل في مقعد وخداه متفخا يلعب الورق مع نيكون. مشى كوجييايكين مسرعاً إلى طاولته دون أن يحكي أحداً في الغرفة وقال بصوت مكبوت:

"مساء الخير"

"مرحباً" رد اللحم وهو يتفحص أوراقه "ما الأمر؟ هل نسيت أين أسكن؟"

تكلم بلامبالاة حتى إنه لم ينظر إلى كوجييايكين، وهز رأسه وهو يصدق النظر في مجموعة أوراق اللعب التي في يده التي قربها من أنفه كأنه يشمها. علق كوجييايكين قدمه برجل أحد المقاعد وشده نحوه وجلس عليه دون أن يتكلم وكانت شفتاه ترتعشان. حين نظر بشزر إلى بوسولوف تخيل كيف سيسدد قبضته إلى ذلك الخلد المنتفخ وتلك الأذن السمينة الحمراء وتصور الرعب والإذلال الذي سيعانيهما اللحم مما جعله يرتجف من رأسه حتى قدميه.

"ماذا بك؟" سأل نيكون.

"أنا؟ لقد جئت لأراه" قال كوجييايكين بصوت اجوف "أقصد لأرى زوجته. لديك زوجة رائعة يا أليكسي إيفانوفيتش"

عندئذ مد بوسولوف رأسه للأمام ونهض تقريباً وهو يستند إلى ظهر الكرسي ورمشت عينه الدامعة:

"زوجتي؟ ماذا بها؟" سأل بصوت مبحوح.

"زوجة رائعة!" صاح كوجييايكين وهو يخط الطاولة بقبضته "أوف! أنت لحام!"

قذف نيكون ورقه وقفز واقفاً على قدميه.

لم ير كوجييايكين سوى نقاط حمر تسبح أمام عينيه من شدة غضبه.

"لكنك أخطأت في حساباتك أيها الوغد!" صاح "لقد اعطيت نقودي كلها إلى سوخوبايف!"

وجه بوسولوف لكمة إلى خاصرة كوجييايكين اليمنى فتعثر وسقط على ركبتيه، لكنه وثب فوراً وكان سيضرب اللحام لو لم يجبره نيكون على العودة والجلوس في مقعده حيث ثبته هناك.

"اتركني.... سأردها له!" هت قائلاً.

"ابق حيث انت. لقد ذهب"

أخذه نيكون من ذراعه وقاده بعيداً.

"لن أدعه يؤذيها!" هت كوجييايكين.

أخذه نيكون إلى مستودع صغير ملا بأكياس التغليف، وحين هدأ كوجييايكين قليلاً أخبر صديقه باختصار بما حدث.

أصغى نيكون باهتمام وأطلق صفرة صغيرة وهو يضحك وقال:

"إذاً هكذا هو الأمر! أولاً هو حاول التحدث معي من أجل كسب المال منك بلعب الورق واقتسامه معه. الرجل أحق. ما كل هذه السخافات!"
ثبت كوجييايكين بعينه وسأله بحدة "لكن لماذا افتعلت شجاراً معه؟ لقد جلبت العار لنفسك أمام الجميع! تعال! علينا أن نخرس هذه الألسن بطريقة ما. حاول أن تبدو أكثر ابتهاجاً"

"هل تظن أنه سوف يضربها؟" سأل كوجييايكين حين دفعه نيكون إلى الأمام.

"وماذا لو فعل؟ ألا تستحق هي ذلك؟ هل ضربك بقسوة؟"

"لم تعد تؤلم الآن"

"لم يكن لدي الوقت لأوقفه. يجب علينا أن نسكت هذا الحادث بطريقة
ما" قال نيكون مؤكداً "ادع هؤلاء الذين شاهدوا الحادث إلى الشراب على
حسابك، دعوة صغيرة على نفقتك تجعلهم ينسون الحادث برمتة. سنكذب
بخصوص المبرر. تذكر ما قاله كتاب المزامير:..... وهناك أكاذيب من
أجل خلاص الروح"

طمأنت هبته كوجييايكيين. وفكر: كان يجب ألا أفعلها.

كان في المشرب أربعة رجال: شقيق نيكون وكولوغوروف وريفياكيين
وتولوكونيكوف.

نظاھر نيكون بهيئة مرحة على الفور فأخذ غيثاره من تحت الطاولة
وصاح وهو يعزف:

"ما رأيك بدعوة صغيرة منك يا كوجييايكيين؟ شيء يثقل معنوياتنا
ويمنعها من التطاير. لماذا أنتم بؤساء أيها التجار ولماذا أنتم متضايقون؟"
أتى ريفياكيين إلى كوجييايكيين وصفق بيديه تحت أنفه مباشرة وصاح
"بلوب!"

ضحك الجميع.

"لماذا لكم قارورة؟"

"أوف!" قال نيكون بحركة استخفاف من يده "إنه أحق. ألح في
طلب قرض آخر فرفض كوجييايكيين أن يعطيه. هذا هو الأمر"

"اسمع" قال كولوغوروف "بوسولوف رجل لا يمكن الثقة به
وبالمجمل هو ليس صديقاً لك. إنه وضع وأنت طبيب القلب كطفل"

"لا أريد التحدث عنه أكثر من ذلك" صاح كوجيباكيين بغضب "بما أنه قدر أن يفعل الذي فعله اليوم فإنه لم يعد موجوداً بالنسبة إلي"
كان ريفياكيين منشغلاً بصيد الذباب ونزع أجنحته ثم يتركه يمشي حول حافة الطبق واهتم بالألا يخرج الذباب عن المسار، أما سميون وماكلاكوف فكانا يراقبانه.

في غضون ساعة واحدة كانوا سكارى كلهم. وضع ريفياكيين ذراعيه حول الخنوع كوجيباكيين وهمس في أذنه قائلاً:
"أنا أعرف أن الأمر سينكشف يا أخي. هناك هؤلاء الذين سيخبرونني بكل شيء- أنا أعرف كل شيء قبل يوم من حدوثه. أنا أسمع أصواتاً-"
ثم انفجر أحد أطراف وجهه بابتسامة وصاح فجأة:
"بلوب!".

دفع تولوكونيكوف الصغير والمدور مثل كرة وجهه الشبيه بوجه القط في وجه كوجيباكيين وقال بشكل ملغز وهو يقتل شاربه:
"اسمع: عاد زوسيا بوشكاريف من الخدمة العسكرية كان يحرس الحدود- هل تفهم؟"
"حسناً؟"

"الحدود؟ انتبه. وقال هذا الجندي إن هناك أناساً غريبين، يظلون طول الليل مستيقظين وهم يمشون ذهاباً وإياباً هنا وهناك ولا يعرف أحد من يكونون وقد تلقى الجنود أوامر بالإمساك بهم وقد ظلوا يمسكون الكثير والكثير منهم وكلما أمسكوا منهم أكثر كان عددهم يزداد أكثر"
"جواسيس" صاح كولوغوروف "هذا يعني الحرب"

"أوه، كلا. لا يعني هذا" قال ريفياكين وهو يغمز الآخرين بكسل
"هذا لا يعني الحرب. أنا أعرف ماذا يعني؛ أنا أسمع أصواتاً". أغلق عينيه
غير المتناسقتين وسقط في حلم يقظة مبارك.

استند نيكون على كرسيه، دندن على الغيتار، قضم نهايات شاربه وحدث
بالسقف، بينما رمى كوجيمايكين نظرة حوله على رفقته وسره نيكون، لذلك
ضحك لنفسه.

فجأة ظهر شكل شخص في المدخل وصرخ قائلاً:

"قتل بوسولوف زوجته!"^(١١)

كل شيء دار في دوامة، جاشت وابتعدت حاملة معها كوجيمايكين.
سيظل كوجيمايكين يتذكر إلى آخر يوم في حياته وجه مارفا الأبيض
وعينيها المغلقتين وحاجبيها المرفوعين ما جعلها تبدو وكأنها تحاول الإجابة
على لغز. كانت مستلقية على أرض الغرفة، قذفت بأحد ذراعيها إلى الخارج
وراحة يدها مفتوحة، أما الذراع الأخرى فكانت مقبوضة بأصابعها المنتفخة
تحت ذقنها. لقد طعنها اللحم في خصرها. حيث يفترض أنها كانت واقفة
في ذلك الوقت لأن الدم تدفق فوق غطاء الطاولة وخلف بقعة طويلة داكنة
وبجانيتها بقع أصفر بينما كانت الأرض مرشوشة بنقاط من المطر الأحمر.

وقف كوجيمايكين واستند على الجدار بتفحص هذه الصورة الرهيبة:
الدم ووجه المرأة الذي كيباض الحوار ويدها الممدودة إلى الخارج كأنها
تطلب صدقة.

"أين هو؟" قال متشكياً لنيكون "يجب أن يجدوا الرجل. كيف أمكنه
فعلها؟ هو من دفعها وحثها على ذلك بنفسه".

"صه!" قال نيكون ولكزه بكوعه.

وقف رجل طويل أحر الشعر في العشرين من العمر تقريباً مستنداً على مخزن
فحم الموقد، كانت عيناه نافرتين من رأسه ويرتعش من رأسه حتى قدميه.
"آه-آ-آ" همس كولوغوروف الشمل وهو يهز قبضته عليه. "إذاً هذا
هو من دفع سيدك إلى سيبيريا!"

امتلات الغرفة بالهمس وفي الحقيقة البيت كله:

"يجب أن يربط الصبي"

"غطوا المرأة"

حتى رجال الشرطة كانوا يمشون على أطراف أصابعهم ويتهامسون.
أمسك نيكولاي بيد كوجيمايكن بغضب وجره إلى الباب فقابلها هناك
الصبي الصغير الذي صاح:

"لقد وجدوه! في الكوخ في الخارج! لقد شقق نفسه!"

"توقف عن الصراخ" قال كولوغوروف وهو يشير إلى المرأة الميتة.
حل صمت ثقيل مهيم وكأن الهواء كله قد خرج من الغرفة وتزلزلت
الغرفة، شهق شهقة صغيرة وأمسك ب صدره وحلقه وغطس في ظلام.
حين صبحا من إغمائه وجد نفسه في سريره في بيته، كان نيكولاي جالساً
بجانبه وماشا ريفياكين تقف بجانب الطاولة تعصر منشفة مبللة.

"الحمد لله" قال نيكولاي بخشونة "لماذا شعرت بكل هذا الخوف؟ هل
تظن أنك كنت الوحيد الذي نامت معه؟"

"لديها عاشقان اثنان" قالت ماشا بحسرة وهي تقترب من السرير.
"هل أنت غبورة منها يا ماشا؟" قال نيكولاي بحقد "نيكولاي، صبي
المحل عندهما هو العاشق الدائم"

انكمش كوجيمايكن بسماع حديثها عن المرأة الميتة واستغلاهما لها لتسجيل نقاط على بعضهما. راقبها من خلال أجفانه المسبلة وأصبعا الآن يتحدثان بأصوات مكتومة. كان نيكون شاحباً وأشعث وله النصيب الأكبر من الحديث، أما ماشا فقد اقتصرت على قول كلمة واحدة حادة كإبرة الدبوس من حين لآخر. كل الألوان بدت وكأنها جفت من عينيها.

دخل ريفياكين مبتسماً وجلس إلى الطاولة.

"أعطوني شيئاً أشربه" همس وهو يمسح العرق عن وجهه المبلل.

أدار عينه اليمنى إلى السرير وقال:

"هل هو نائم؟"

"ما الذي يحدث هناك؟" سألت زوجته وهي تدفع قارورة الكفاس نحوه؛ حملها إلى الضوء ونظر إليها كالأحول.

"قام رجال الشرطة بإبعاد الجميع عن المكان" رد قائلاً بابتسامة.

"جلس الثلاثة ووضعوا أكواعهم على الطاولة وهم ينظرون إلى بعضهم البعض ويتمتمون بطريقة ملأت كوجيمايكن بخوف من شر مرتقب.

يا ساتر يا رب! فكر. ماذا لو حدث الشيء ذاته هنا؟

ظل ريفياكين يلوي رأسه من جانب إلى آخر مما ولد انطباعاً أنه برأسين لكل واحد عين واحدة.

"لم يكن هناك أي مخرج لقارورة" قالت ماشا وهي تدق بإصبعها على الطاولة "ولو لم يشق نفسه لظل متسولاً لبقية حياته"

الناس الذين أعيش وسطهم! فكر كوجيمايكن وهو يش.

أسرعت ماشا إليه وانحنى فوقه وقالت بلهجة لطيفة وبقلق:

"هل تشعر بألم؟"

"قلبي -"

نهض زوجها وجلس قرب قدم السرير .

"أنا أعرف" قال بهدوء "قلبي يتوقف عن الخفقان تقريباً أحياناً .

الشيء الوحيد الذي يجب عمله في هذه الحالة هو تلاوة المزمور السادس"

أبعد عينه النشطة وقال بصعوبة وببطء بصوت غنائي رتيب:

"أوه يا إلهي، اشفني الآن، عظامي متضايقة، روحي متضايقة جداً. إنها

الأصوات الخالدة التي تتكلم"

"لغو وهراء!" قالت ماشا وهي تلوح لزوجها بالابتعاد كما لو كان

ذباباً "قلبك لم يؤلمك أبداً وأنت لا تعرف أي مزمور"

"بلوب" صاح ريفياكين وقد قفز على قدميه وقذف يديه إلى الخارج

كأنه ينشد السلام "هل آذيت مشاعر أي أحد؟"

"مهرج!" قالت ماشا بنعومة لكن بوضوح.

دق نيكون بأصابعه على الطاولة وصفر.

"الأول بصلي للرب والآخر بصفر للشيطان" قالت ماشا وهي تتحسر.

شد ريفياكين قبعته على رأسه بقوة والتفت إلى نيكون وابتنسم وقال:

"ألا تذهب؟"

غادرا. كان المطر يبقب في الخارج والريح تعصف والأشجار تصدر

صريراً وهي تنمايل وبوابة تخط. سمع كوجيمايكين الأصوات كما لو في

حلم وفكر:

هل سيستجوبونني؟

مشت ماشا في الغرفة وقد طوت ذراعيها تتفحص كل شيء.

"يا لهذا الغبار الكثير! ويا للسماور الذي طلبناه منذ وقت طويل ولم يجلبه أحد بعد. إن العيش بدون امرأة أمر صعب، أليس كذلك يا ماتفي صافيليفيتش؟"

لم يرغب في الرد على السؤال، لكنه خشي أن تعتبر ذلك إهانة وترحل إن لم يقل شيئاً.

"أحتاج إلى أحد يجعل البيت دافئاً ومريحاً" قال.

"أعتقد أن هذا ما يجب أن يحدث"

بدا شعور بالانتصار في ضحكتها وأزعجه هذا. "لكن العيش بدون امرأة صعب أيضاً"
"لماذا؟"

"أوه، لا أعرف" قال بارتباك "لكن حين أنظر إلى هؤلاء الأزواج والزوجات -"

"الأفضل ألا تنظر إليهم"

"ماذا تقصدين؟"

"لا شيء: سوى ألا تنظر إليهم"

احضرت الطباخة السماور فذهبت ماشاً إلى الطاولة لترى وتدقق بكل شيء بكفاءة.

"السماور غير ملمع"

جلست هناك تحت ضوء المصباح الناعم وفي عينيها الداكتين بريق، تحيك نموذجاً من كلمات مهدئة وتهدف إلى انتزاع مارفا من ذهن الرجل وتطرد عنه الخوف الرازح على قلبه كوزن ثقيل.

"يجب عليك أن تجد امرأة شابة هربت وعانت من زوج سيء لتفهمك
وتقدرك. ليس صعباً إيجاد واحدة. إن تسعة أزواج من أصل عشرة هم
أزواج سيئون وعاشرهم أحق عادة"

استاء كوجيمايكن من كلامها.

"هل تقصدين أنه لا يوجد أزواج جيدون؟"

"أنا لم أقابل أياً منهم"

"لكنني أعتقد بوجود الكثير من الزوجات الجيدات، ما رأيك"

"بحدث أن يقابل المرء امرأة واحدة بين الحين والآخر. مهما عاملنا
الرجال بطريقة سيئة فلن يستطيعوا إفسادنا كلنا. نظل أفضل منكم - أطف
وأذكى على الأقل"

نظرت إليه مباشرة وتابعت بنظرة تحد:

"خذني أنا مثلاً. أنا زوجة جيدة. لولاي لمات فيكتور مثل دودة منذ
وقت طويل؛ إنه نصف مجنون كما تعرف. لم يدرك ذلك أحد. يضحكون
عليه ويظن أنه يحاول أن يكون أصيلاً وجديداً، لكنني أعرف أنه يفقد عقله
بالتدريج. علاقتي غير الشرعية مع نيكوون خطأ زوجي! إن كنت لا شيء
بالنسبة إليه ومجرد امرأة في الليل حين نكون في السرير فأنا أستطيع أن أعني
الكثير للآخرين على الأقل. هناك الكثير من الرجال الجذابين في العالم. لو أن
رجلاً ما كان زوجي فيجب أن يكون أفضل من الرجال الآخرين ولهذا
أستطيع أن أحترمه وأفخر به حين أمشي معه في الشارع. ثم أنا لم ارد أن
أتلعب بالرجال الآخرين ولو أردت حتى فإن نفسي لن تسمح لي بذلك
وكنت تباهت بذلك وقلت له: انظر يا حبيبي، ذلك الرجل الوسيم فتنني
لكنني مخلصه لك وسأظل دائماً يا حبي حتى لو قبلت بشخص آخر في ذهني

فلن أقبل به في سريري طالما أنت تعاملني كرفيقة لروحك وليس مجرد زوجة شرعية أو مربية لأطفالك"

جذبت حاجبيها معاً وأشرقت بابتسامة صغيرة صعبة كما لو أنها تهدد أحداً ما. كان صوتها ثابتاً وتنقلت يداها بسرعة مثل طائرین أبيضين على الطاولة برشاقة وجمال.

"لقد نجاني الرب من الحياة التي عاشتها مارفا مع زوجها! أن أكون موضع شك وأنعرض للصراخ طول الوقت - كلا، شكراً لك. هو لم يكن زوجاً لها بل مجرد رجل مثل أي واحد غيره ولم يكن هناك أي مبرر كي تكون مخلصه له. تأسفت كثيراً جداً من أجل مارفا لكن لم يكن في وسمي فعل شيء لمساعدتها؛ كانت غبية جداً. امرأة غبية وعقيمة مثل مارفا لم يكن أمامها سوى مخرجين اثنين في رأيي: الدبر أو المبيع"

"أخبريني" قال كوجيمايكي وقد شعر بالثقة "هل تحبين نيكون؟"

أغلقت عينيها نصف إغلاق لتفكر بسؤاله قبل أن تقول مبتسمة:

"تقريباً. أحياناً أميل إليه عندما أكون معه لكني لا أكن له الكثير من الولع عندما لا يكون معي. أستطيع أن أخسره دون أن أذرف دموعاً واحدة عليه. إنه صديقك، أليس كذلك؟"

"إنه كذلك نوعاً ما"

"إذاً أخبره بها قلت"

"لماذا؟"

"لأبأس، أخبره فقط"

"سوف يغضب منك"

"إنه كسول جداً" ثم تابعت بعد لحظة توقف "لكنه محظوظ مع النساء"

"إنه رجل طيب"

"نعم-عم" قالت "لكن، بماذا يفيد؟ لن يأتي شيء منه أبداً، لا في التجارة ولا في الحرب. إنه لن يصنع عشاء لنفسه أبداً- قد يموت تحت طاولة في إحدى الحانات أو في مصرف مياه بجانب الطريق. كان عمي يقول: لا أحد يريد القوم السيئين أما الطيبون فيموتون وهم صغار" انضم عمي إلى طائفة تسمى بيغوني لأنهم يهربون من كل شيء ثم اختفى ولم يعرف أحد أين. ذلك هو ما يفعله أعضاء الطائفة كما يفترض: أن يختفوا فقط^(١٤)"

حين غادرت كان الوقت يقارب منتصف الليل؛ أسف كوجياياكين لأنها ذهبت. فور رحيلها فكر بهارفا وخاف خوفاً عظيماً من أن يعاني من خفقان في القلب مما جلب عليه أفكار الموت الذي شعر أنه يترصده عن قرب هناك في تلك الزاوية حيث تجمعت الظلال بصمت أو خلف الأريكة أو فوق رأسه. ففز من الفراش واتجه إلى النافذة وسقط على الأرض يلهث.

ظل مريضاً لوقت طويل واعنتت به كل من ماشا ولو كيرا ابنة كولوغوروف الأرملة، زوجها صانع البراميل، شرب خمرأ حتى الموت في حفلة زفاف لآل نولوكونيكوف؛ فقدت إحدى عينيها ولبس لديها أمل في الحصول على زوج آخر، فكانت تعني بالأطفال والمرضى وتساعد الجيران في الأعمال المنزلية. بدينة، شعرها أسود وطيبة لكنها مولعة بالخمر؛ كانت تضحك فرحة حين تحصل على قطرة منها وتروي قصصاً تتمحور حول الجشع البشري.

"بعد الغداء كانت الجدة فيدينييف تخرج خيطاً وتقيس كم بقي من الفطيرة وتخبيء الخيط في جيبيها"

ثم تنفجر في نوبة من الضحك وتسيل دموعها على خديها.

"قلت مرة لبايكوف: يا نيموفي بافلوفيتش أنت تطعم خنازيرك أفضل مما تطعم مساعدك" فرد قائلاً: نعم، هكذا يجب أن أكون، ما هي حاجتي في تشغيل سمين عندي، أما الخنزير السمين فهو نفود في جيبي" وانفجرت في عاصفة من الضحك مرة أخرى.

كأن الشيء الوحيد الذي لاحظته في الناس بخلهم وجشعهم وكأن هدفها الوحيد في الحياة أن تختبر هذا. كره كوجيايكين قصصها وجعله ضحكها الأجل ينكمش ويتراجع.

ألا تتوقف عن الكلام أبداً؟ فكر كوجيايكين.

أحياناً كان يرغم نفسه على القول:

"لا تفعل يا لوكيرا، لقد سمعت تلك القصة"

"هل سمعتها الآن؟" كانت تسأل باندهاش ثم تمسك لسانها لوهلة ثم تبدأ من جديد:

"مرة عند آل برودف-"

جعل المرض كوجيايكين يتلهف لكتابة وصية يترك أملاكه فيها للبلدة فأرسل بطلب الأب الكساندر لهذا الغرض.

لقد صدمه التعبير الذي ظهر على وجه القس وكأنه هو أيضاً كان يعاني من مرض خطير. كأن أطول منه وأنحف، اشتعلت عيناه بضوء جامع في مقلتيهما العميقين في وجهه الهزيل جداً وفاحت منه رائحة الفودكا. تمشى ذهاباً وإياباً كأنه لم يعرف كيف يجلس ساكناً، يخط الأرض بجزمته الثقيلة، صوب عينيه نحو السقف وملس شعره. كانت حواف ثوبه الكهنوتي تتطاير

مثل أجنحة سوداء ولم يحمل سوى شبه قليل برجال الدين على الرغم من رداءه وشعره الأسود الطويل.

حين أخبره بالسبب الذي استدعاه من أجله بدا مسروراً جداً؛ رسم الصليب فوقه وقبله في جبينه كما لو كان ميتاً.

"إذاً هذه هي نهاية ثورتك الواهنة؟" قال.

تنهد كوجييايكين حين تذكر الحادث مع مكسيم.

"هل نعتها بالواهنة؟"

"أوه، نعم واهنة جداً في الحقيقة" قال وهو يحدق بالإصبع الذي رفعه أمام وجهه "كلنا مبالون للتمرد بوهن ضد القوى التي تبعدنا عن كل قريب وعزيز علينا. إن علة روسيا كما أثبت أحد أدمغتنا العظيمة، يعود سببها إلى الهوة الكبيرة بين جوهرها الثقافي والروحي. لسوء الحظ أرواحنا أوعية امتلأت بسائل مسموم يأكل فيها، أوه يا روسيا البائسة!"

رفع ذراعيه إلى الأعلى لكن كوجييايكين عجز عن فهم كلماته ولم يؤمن بما قاله إلا بشكل قليل.

وفكر لنفسه: لكن عن أي روسيا هو يتكلم؟

"صراع دائم يضطرم داخلنا بين الذي نحن عليه وبين الذي زرعه فينا كطعم من الخارج سمم دمنا. وكلنا نقوم بثورة ضد هذا الأخير" قال القس بحماس زائد وكأنه يتحدث مع نفسه. تذكر كوجييايكين وهو ينصت إليه نيونوف الذي كان يتكلم بنعومة إلا أنه يبدو وكأنه يصرخ دائماً لكن هذا الرجل الذي استهلكته نار في داخله كان يصرخ وهو يتكلم ومع ذلك لا تصل كلماته إلى قلبه. كان الاستماع إليه منهكاً وحين بدأ نقاشاً حول

خليستي وبيغوني والطوائف المنشقة الأخرى التي انفصلت عن الكنيسة،
قاطعته كوجيمايكين ليسأل:

"هل زوجتك غاضبة جداً منك؟"

وقف القس في وسط الغرفة كأنه يصغي إلى صوت بعيد غير مفهوم أو
أنه حاول تذكر شيء منسي.

"ماذا قلت؟"

كرر كوجيمايكين سؤاله وهو خائف.

جلس القس ودفع شعره للوراء بكلتا يديه.

"هي لا تغضب أبداً. إنها من نوع القاضي الذي يطبق مقياس العقل
البليد على كل شيء وترفض الاعتراف بأي شيء خارج ذلك المقياس
المعياري"

ابتسم ابتسامة حزينة متذبذبة وجذب نفساً عميقاً.

"نعم، كل ما يقع خارج عالم العقل غير موجود بالنسبة إليها"

مرة أخرى وثب على قدميه وطرح عنه أكمام رداءه الواسعة.

"لكن هناك أشياء سخيفة ومهينة وممينة للروح تقع خارج عالم العقل -"

انحنى فوق كوجيمايكين الذي أحس بنفسه الحار يلوث وجهه.

"-ومع ذلك هي موجودة"

استدار القس، لبس قبعته وخرج وهو يحاول أن يخطو بهدوء في جزمته
الثقيلة ومد ذراعيه كأنه أعمى.

شعر كوجيمايكين بالحجل والعار. في واحدة من أصعب اللحظات في
حياته كان هذا هو الشخص الوحيد الذي لم يتخلّ عنه. عرف أنه مدان له

لكنه لم يحس بالعرفان، ولم يكن لديه إيمان بالقس الذي كان يجعل الأشياء غير يقينية وغير مفهومة أكثر مما هي عليه.

بدأ القس يزوره بشكل متكرر ومنتظم ويجلب معه أوراقاً يقرأها له بصوت عالٍ واتضح أنها بلا قيمة.

من الواضح أنه لا يجد مكاناً يذهب إليه، فكر كوجيمايكين بلا اكتراث. في أحد الأيام جاء القس ووجد ماشا ونيكون في بيت كوجيمايكين فحياهما بحرارة كما لو كانا من معارفه القدماء وبعد أن لف لفة حول الغرفة، توقف وابتسم لهما وهو ينظر إليهما كما ينظر الغراب إلى ديك وقال فجأة:

"يا لكما من زوجين ساحرين!"

انحنى ماشا لتخفي خجلها.

"هل تزوجتما منذ وقت طويل؟" سأل وقد وصل إليهما.

"نحن لسنا متزوجين" قال نيكون بعجالة وهو بعض على شاربه.

"إنهما صديقان فقط" قال كوجيمايكين بارتباك.

لكن ماشا نهضت وقالت بصوت واضح وصاف:

"إنهما يكذبان عليك يا أبتى. أنا خليلة هذا الرجل. هل تذكر؟ لقد

اعترفت لك منذ وقت ليس ببعيد"

اكفهر وجه القس وتراجع للخلف وهو يتمتم بصوت منخفض ويحفر

جيوبه بيديه.

"اوه، أفهم. كلا- لا أتذكر- لكن نعم، هذه حالة خاصة....."

ارتبك تماماً. بعد أن تمت بشيء غير مفهوم، ذهب وهو يثر الشفقة مثل

متشرد متجول تقريباً في قبعته القديمة المهروسة وردائه البالي.

ذهبت ماشا إلى البوابة لتودعه، قال نيكون وهو يراقبها وهي تذهب:

"إن ماشا صانعة أضرار!"

"هي كذلك" وافق كوجيمايكين بتنهيذة تعبر عن الارتياح "خشيت

أن يطالبك بتفسير وتبرير لفعلتك"

نهض نيكون وذرع الغرفة ذهاباً وإياباً ورأسه للأسفل:

"أحببت ذلك القس" قال لنفسه، "أنا اذهب إلى الكنيسة من أجله

فقط. إنه يتلو الصلاة بطريقة خاصة، بنعومة كبيرة كأنه يحكي لنا قصة في

السر وقصة غير مبهجة. بالمناسبة أشعر أحياناً برغبة في الذهاب إليه حين

يكون لوحده وأقول له: ما المشكلة يا أبونا؟ لكن في الحقيقة لا أريد أن

أدخل في محادثة معه أو التعرف عليه. شيء مضحك؛ طير ظريف مثل

الرغراف لا يغني بينما يفعل ذلك العندليب المخلوق الرمادي الصغير

والكثيب. كيف نفسر ذلك؟"

رجعت ماشا وزرعت نفسها مقابل نيكون ووضعت يداً فوق يد وقالت

بغل وحقد:

"إذا أنت تخشى قول الحقيقة، ألبس كذلك؟"

رفع يده ودفعها قليلاً على جبهتها

"هراء" قال مع ضحكة قصيرة "قول الحقيقة؟ أنت أردت إحداث

ضرر فقط. هذا كل ما في الأمر"

الحمد للرب أنني لم أتزوج، فكر كوجيمايكين.

كانت ماشا ونيكون يتوجدان كثيراً جداً في بيت كوجيمايكين خلال فترة

مرضه، وكانت ماشا تتصرف معه بشكل يفتقر إلى الكياسة كأنه رجل

عجوز مما جرح كبرياءه فقال لها في أحد الأيام:

"أنت بالتأكيد تنصرفين على راحتك وبحرية معي. سيعتقد الكل بأنني طفل"

"أوه، هيا الآن" قالت بعد أن ضحكت "تنصرف كماشوق. أنت تمتلك ضميراً. انظر إلى الذي عانيت به بسبب مارفا وماذا كانت تمثل لك؟ مجرد مرفأ مؤقت. أوه، كلا. كان ينبغي أن تكون زوجاً، لقد خلقت لتكون لامرأة واحدة والمشكلة كلها أنك لم تجد المرأة المناسبة والصحيحة"

حين عرف نيكسون أن كوجيمايكن أوصى بكل ما يملك إلى البلدة واستثمر كل ماله في مشروع سوخوبايف قال راضياً:

"شيء جيد جداً. لم يترك لك شيئاً تقلق عليه. لن يخذلك سوخوبايف. إنه سيني بوعوده. إنه طموح قبل كل شيء"

بوغنت ماشا ووقفت طويلاً تحديق به بعيون مدورة وحواجب مرتعشة كأنها لم تصدق أذنيها:

"هل صحيح أنك أعطيت كل شيء؟"

"كل شيء"

وقفت لحظة نععض شفتيها.

"لكن هذا عمل شرير تقريباً!" صاحت أخيراً.

"لماذا شرير؟"

"لأن-أوه-فقط لأن" ثم بحسرة "ذلك ناتج عن كونك أعزب"

"أنت لا تفهمين هذه الأشياء" قال كوجيمايكن الذي ساءه موقفها.

لم تقل شيئاً لبعض الوقت، لكن سألته أخيراً وهي تنظر إليه:

"ألم يكن من الأفضل لو تبنت بيتاً وتركت له كل شيء؛ أيها الطفل

المسكين؟ البلدة! وما هي البلدة: عبارة عن مجموعة من الأفراد"

حاول أن يشرح لها وأصغت إليه وهي تلمق شفتها كما فعل
سوخويبايف ثم أطلقت ضحكة قصيرة وقاطعته قائلة:

"أوه، حسناً جداً. هذا شأن يخصك. أتمنى أن تنبت الزهور فوق قبرك
بدلاً من الأعشاب"

أصغت إليه جيداً فيما بقي من المساء لكن بعد قليل سخرت منه مرة
أخرى:

"أوه، يا ماتفي سافليفيتش. لو كان الرجال كلهم مثلك لاستمتعنا
نحن النساء بالراحة والحرية"

حين شفي من مرضه وبدأ يخرج من البيت تبين له بوضوح أن ماشا لم
تكن الوحيدة التي لم تستطع أن تفهم لماذا كتب مثل هذه الوصية. لقد اعتبره
الجميع أبله ورعاً وكانت نظرهم إليه مؤلة ومويخة.

"يجب أن تمول المدارس من خزانة البلدة" زجج سماغين "ونحن
التجار نحتاج إلى صندوق قروض".

"أنا لست متأكد جداً" قال بازونوف "هناك شيء يقال من أجل
المدارس لكن من الجانب الآخر -"

سخر كولوغوروف من ماتفي وقال:
"هل أنت خائف مما سيحدث لك بعد الموت؟ هل تظن أنك مهدت
طريقاً لك إلى الجنة؟"

أما موقف تولوكونيكوف فقد أدهش كوجيبا يكين: غمزه وسار بجانبه
ثم همس في أذنه:

"لقد ارتكبت خطأ جسيماً؛ هل نسيت ماذا يقول الكتاب المقدس،
العهد القديم؟: من يكثر من المعرفة يكثر من الندم!"

ثم أسرع مبتعداً وهلو يلمس جبينه بإصبعه وكأنه قام بفعل خيري.
قام ريفياكين بمحاولة فاشلة في تركيز كلتا عينيه عليه وتمتم على الفور:
"لماذا لم تعطني المال؟ لو فعلت لكنت استخدمته في قضية كبرى. لقد
وجدت مرشدين - مخلوقات رائعة، غير معروفين وغير مرئيين لكنهم
يعرفون ويرون كل شيء"

لكن موقف هؤلاء لم يكن شيئاً يذكر مقارنة بموقفهم حين اكتشفوا أنه
استثمر رأسماله كله في تجارة سوخوبايف.

"أنت معتوه، هذا واضح ولست تقياً حتى" صرخ سماغين بفظاظة وقد
اهتز خداه المترهلان مثل الهلام وأدرك كوجيماكين أن هذا هو الرأي العام
والموقف العام منه.

الشخص الوحيد الذي دافع عنه كان خريابوف الذي مسح دموعه
الغزيرة بيدين مثل مخلبين وصاح أمام الجميع:
"لقد فعلت عين الصواب يا كوجيماكين!"

لاحظ كوجيماكين بعد فترة قريبة أن الناس ضجروا من معاملته
بسخرية وعدوانية وأنهم فقدوا الاهتمام به تماماً. لم يعد يدعونه لزيارتهم في
بيوتهم ولم يأت أحد لزيارته سوى سوخوبايف؛ حتى أنهم كانوا ينحنون له
عند المرور بقبول متردد كأنهم يقدمون له خدمة مجانية.

في البداية أحزنه هذا الوضع وأغضبه وفكر في أحد الأيام لنفسه:
لماذا تكيفت مع النكرات التافهين من أمثال نيكون وتيونوف
ودروزودوف الذين ربطوا أنفسهم بي ولم أنجح في حب تجار البلدة حتى
سوخوبايف؟ صار لي أربع سنوات أنتقل ناشطاً وسطهم ولم أجلب لنفسي
سوى الشعور بالمرارة؟

وفجأة بدأ كل شيء يدور في اتجاه معاكس وانجذب إلى دوامة أحداث من نوع مختلف تماماً.

توقف نيكون ماكلاكوف عن زيارته بالشدة السابقة: وفي الواقع كان لا يظهر إلا مرة في الأسبوع أو الأسبوعين. سمع كوجييايكين أنه أدمن على شرب الكحول وفي كل مرة يلتقيه فيها كان يلاحظ أنه يهرم بسرعة. بقع من الصلع كانت تشق طرفها الداخلية عميقاً في شعره والتجاعيد حول عينيه تعمقت وبدأ مرحه متكلفاً رغم أنه كان أكثر صخباً من قبل.

في أحد الأيام قال نيكون:

"بيوتر بوسولوف رجل محترم وقلبه طيب. قابلته قبل أمس. كنت جالساً في مشرب ليسون أغني "حداائق التفاح الخضراء" وعندما انتهيت نهض رجل كان يجلس في الزاوية ووقف ينظر إلي بوجهه المشع - أنت تعرف - منظر عاشق الموسيقى، ثم جاء إلي كالأعمى يتعثر بالطاولات والناس، تملأ الدموع عينه وأمسك بيدي وقال: شكراً لك. أنا لم أسمع تلك الأغنية تؤدي بهذا الأسلوب قط. أنا لست من المغنين الكبار من أمثالك - غنائي أشبه بالتلاوة لكن هذا يجمعنا معاً. غنى في جوقة الكنيسة حين كان صبيّاً وعندما جاء إلى هنا كان مساعد رئيس الجوقة ومثل في المسرح أيضاً وبجبه. ولا شيء سوى ذلك"

أحنى نيكون رأسه وضحك ضحكة قصيرة وهو يحك رقبتة من الخلف. "أصبحت مفتوناً به كما لو كان فتاة. ليس لديه عمل أو مكان ينام ويعيش فيه. بيعت كل املاك والده لتسديد الديون فقد اشتراها سوخوبايف. لهذا وجدت له مكاناً"

"أين؟" سأل كوجييايكين.

"في بيت ماشا، سيعمل في متجرهم"
وحل الصمت.

"أأنت خائفاً؟" سأل كوجيايكين.
أنشد نيكون بيتين من الشعر رداً عليه:
مهما خشيتيه وحاولت ألا تقترب منه
لا يوجد هناك من ينجو من الحب.

"أغنية سخيفة! واحدة من أحدث الاغاني، تعلمتها من زوسيا" قال
صاحكاً.

"ماذا يعمل؟"

"يسكر. يبدو أنه يمتلك حلماً. يظل يتحدث عن أناس غرباء، عن
نجار يعرف سر الأشياء كلها لذلك حتى القيصر يخافه. مررت في الفودكا"
"وماشا؟"

"ماشا" كرر نيكون وشرد في حلم يقظة.

بعد هذه الزيارة لم يرجع لبعض الوقت ثم جاء مرة أو اثنتين في حالة
سكر. صفر وصرخ وتجول في البيت، في عينيه نظرة حائرة، ولمح
كوجيايكين ابتسامة رهبة من الخوف وتشوق يتعذر كبته وراء طيشه
وخفته. أخيراً جاء ليزوره في أحد الأيام وهو ثمل بفضفاضة ومعه الشاب
الوسيم الذي كان في أوائل عشرينياته وكان يلبس بدلة رسمية حديثة الطراز
وحين مد يده فرقع بكعبيه معاً بطريقة مسلية وقال بصوت عميق ممثلاً:

"اسمي بيوتر اليكسيفيتش بوسولوف"

"إنه يشبه والده، أليس كذلك؟" صاح نيكون.

كانت ملامح بوسولوف فاتحة وهناك شيء أنشوي في النظرة الخجولة
الناعمة لعينيه الكبيرتين وعلى شفثيه الحمراوين ابتسامة فيها استحياء. قبل
أن يجلس طلب الإذن.

"قل له لماذا أتينا إلى هنا يا بيوتر" قال نيكون وهو يرجع شعره للخلف.
بدأ بوسولوف الكلام بطريقة مقنعة وقال:

"لقد جئناك بطلب ملح يا ماتفي سافيليفيتش. ساعدنا في تشكيل جوقة
للكاتدرائية"

ابتسم كوجيمايكين وهو يصغي إليه وأما برأسه ووعده بالمساعدة.

كان يمكن أن يكون لي ابنٌ مثله، فكر كوجيمايكين متحسراً.

حين ذهب بوسولوف التفت إلى نيكون بحسرة وقال:

"إنه شاب رائع"

"نعم، أليس كذلك؟"

"صغير وظاهر. يا له من شاب رائع!"

ذهب نيكون إليه وانحنى قائلاً:

"لكنني فقدت ماشا" قال بصوت متلبذ.

"لصالحه؟"

"طبعاً"

أخذ مقعداً مواجهاً لكوجيمايكين وحكى له القصة كلها. حكاها ببطء
وبطريقة استذكارية كأنه يتذكر شيئاً من الماضي القاتم.

"حين أخذه إلى بيتها لأول مرة عرفت من عينيهَا ونغمتها أنني كنت
أقوم بدور الأحق. تركتني أعرف ذلك إذ قالت لي في وقت لاحق: ألسنت
خائفاً؟ قلت: كلا. قالت: ألن تندم على ذلك؟ كيف لي أن أعترف أنني

كنت نادماً وخائفاً؟ ذلك أغضبها وقالت: أنت لم تحبني قط. كانت تكذب طبعاً، هي تحاول أن تجدد تبريراً لنفسها طبعاً"

توقف عن الكلام، نجرع قدحاً من الفودكا، شمّ قطعة من الخبز ودحرجها ككرة. من خلال النافذة المفتوحة جاءت أنفاس البستان الدافئة العطرة. أصدرت الأوراق حفيفاً وغنت الطيور. نهض نيكون، قذف بكرة الخبز من النافذة واتجه نحو الباب.

"الوداع" قال.

ودعه كوجيمايكين إلى البوابة. انتشرت الغيوم عبر المساء مثل سرب من طيور عملاقة هائلة، للحظة حدقت شمس باهتة بالأرض الجاقة المغبرة من بين أجنحتها ثم خبأت وجهها. جرجرت الظلال نفسها وتسلمت أسقف البيوت والتفت حول الأشجار وسرقت من الأوراق الخضر والذهبية بريقها وروبقها. كان بعض التجارين يرفعون عارضة خشبية؛ كان اللحن بطيئاً وكثيباً مثل الظلال. خياط ثمل يدعى باربانوف جاء يترنح في الشارع، يخبط السياج بقبضته ويتمتم وعيناه مثبتتان بالأرض:

"كلا، حسناً جداً. إذاً الجواب هو لا"

دبك صغير تسلق تحت السياج، اندفع تحت أقدام السكران يرفرف بجناحيه. توقف متمسكاً بالسياج بإحدى يديه، رفع ساقه وأطلق صغيراً حاداً.

أسقط كوجيمايكين رأسه وعاد إلى الفناء.

مرة أخرى أضحي بيته مركزاً للنشاط. مرتين في الأسبوع يأتي صبيبة صغار، حفاة وبشباب رثة ممزقة، يركضون إلى داخل الفناء بهيئة مريحة كأنهم قهروا عدواً عظيماً، وتدخل فتيات صغيرات خجولات، يسرن بوقار

ويزرعن أنفسهن في الزوايا حيث يصرخن بجدة هناك مثل الجراء،
متشوقات لكن خائفات أن يلفتن الانتباه. كانت الأصوات الذكورية
مسؤولة عن جل المرح والغندرة حتى أن أحدهم ارتدى خاتماً في إصبع يده
اليسرى المعقوف. اصطف أصحاب الأصوات الجهيرة بأقواهم الكبيرة
ولحاهم الطويلة في ظل مخزن الغلال وتنحنحوا بشكل مثير للإعجاب.
وسط هذا الحشد المتنوع رفر اللطيف بوسولوف مثل حمامة يلوح بكمانه
ويصيح:

"انتباه من فضلكم! دقيقة واحدة فقط!"

رسم علامات موسيقية على باب مخزن الغلال وأشار إليهم بقوسه:

"ما هو اسم هذه العلامة؟"

قاد الكمان العمل، صبي مسلول يرتدي معطفاً شبك أزراره حتى ذقنه،
وفي وجهه ندبة شقت وجنته من الأذن إلى الفم، غنى صبي بصوت صااح
رائع، وحلق عالياً صوت ليويا ماتوشكينا السبرانو بمرح، أما ياكوفليف
مساعد الصيغلي فقد غنى بصوت أعلى من الجهير وأقل من الصااح، وهو
يمسك بذقنه بيد واحدة. وفجأة فتح ماخالوف الحداد بعينه التين تشبهان
عينى بومة، فمه الكبير الأسود وأطلق صوت "أو-و-وا" فطنى على كل
الأصوات الأخرى: الكمان والمغنون وتمتمة الناس الذين تجمعوا خارج
البوابة. وضع بوسولوف أصابعه في أذنيه وقفز في المكان كأنه ملدوغ، وكان
منظهره مثيراً للضحك، فقد التوى وجهه وتنا كمانه من إحدى أذنيه وقوسه
من الأذن الأخرى. قهقه الجميع بالضحك بأصوات عالية وتمايلوا إلى الأمام
والخلف وأوماؤا بأيديهم. وضع الحداد يده فوق فمه، وزار من بين أصابعه:

"أطلقوا الكثير من النشاط مرة أخرى"

راقبهم كوجيمايكيين من وراء النباتات المخصصة التي على عتبة النافذة وهو يستم، وكان ينضم إليهم حين تكون الأغنية من تلك الأغاني التي يعرفها. هب من الفناء حزن معين مثل نسمة إلى داخل روحه.

أحياناً كانت تكتشفه عين حادة وهو يجلس هناك فيهمس الأولاد لبعضهم البعض:

"انظروا، إنه هناك"

"أين؟"

"هناك، هناك"

فينسحب كوجيمايكيين ويقول لنفسه:

تلك هي الطريقة التي يتحدثون بها عن الغيلان.

شاكر العجوز الصامت، كان يتأكد من إيجاد ملجأ غير مكشوف يمكنه الإصغاء منه دون إزعاج، يضيق عينيه وترسم ابتسامة لطيفة على وجهه، وعلى مقربة منه السكران المترنح نيكون، أشعث وهناك ابتسامة مضطربة على وجهه الأحمر المنهك.

"ألا تزال تشرب يا نيكون؟" سأله كوجيمايكيين مؤنباً مرة.

"لاأزال أشرب يا أخي"

"لماذا تفعل ذلك؟"

"حين يسكر الإنسان فإنه يثق بكل شخص" قال وفي صوته احتباس غريب. "السكران متأكد ومتيقن من كل شيء. الشياطين خضر والناس طيبون. هل يمكنك أن تجد رجلاً صالحاً واحداً وأنت صااح وغير ثمل. لا مستحيل. أما أنا فأستطيع أن أجد لك واحداً بسهولة - ها هو هناك" وأشار إلى بوسولوف.

أخذت ماشا زوجها إلى مصبح في فورغورد وعادت هزيلة وحزينة،
عينها أكبر وأشد قتامة من قبل وشفاتها جافتان وانكمشتا إلى خط مشدود
قاسٍ. كانت تتحدث بشكل أقل وبدت أكثر قلقاً وفي مشيتها حذر كأنها
تسير على حافة صخرية.

في المساء لبست أفضل ثيابها وذهبت لزيارة كوجييايكن، وقالت فجأة
وهما يشربان الشاي في البستان:

"أريد أن أتحدث معك يا ماتفي سافيليفيتش. لقد سئمت حتى الموت
من الحياة البهيمية التي لا معنى لها والتي أعيشها، وذلك ربما لأنني أكبر في
السن وأهرم، وربما لأنه ليس لدي أطفال، وأشعر أحياناً برغبة لوضع نهاية
لكل شيء"

حاول كوجييايكن التفكير في شيء مريح يقوله، لكنه وجد قلبه ورأسه
باردين ومظلمين.

"ألا تستطيع أن تقول شيئاً؟" سمعها تطالبه.

استجمع قواه وفرك صدره:

"أخشى أنه عليك أن تبدلي طرائقك" غتم بسرعة "يجب أن نخناري
بين هذين الاثنين"

نهضت وذهبت لتقف تحت إحدى الأشجار.

"إذاً لقد اشتكى لك نيكون، أليس كذلك؟" سألت.

"هو أخبرني"

"أنا أريد ذلك الآخر-بيوتر"

"نعم"

"إنه أحمق" قالت بهدوء وبدون حقد وهي تنزع غصناً صغيراً من شجرة بتولا وتهوي نفسها "لو كان لي أولاد فقط - لو كان لي طفل واحد منه! لكنه يحرق نفسه بالفودكا، النعيس!"

انتظر كوجيمايكن أن تأتيه الكلمات بصفاء شديد ليقولها لهذه المرأة التي أغرم بها جداً وقلق عليها لكنه شعر وأدرك خواءه مرة أخرى.

"ما المشكلة؟" سألت ماشا وقد جاءت إليه وحدقت بوجهه.

"لا شيء خاص" رد وهو يشعر بالخجل "أنا - أنا لا أعرف -"

ابتعدت ببطء وهي تتحسر.

"من الواضح أن الحصول على عون من الرجال غير ممكن" سمعها تقول "أوه، ياربي!"

تجولت في البستان قليلاً، ثم غادرت من غير أن تودعه. جلس كوجيمايكن مدة طويلة من الوقت يتفحص نفسه كأنه أمام مرآة وتزايد خوفه أكثر فأكثر.

تكاثف الظلام بتقدم المساء وتحول إلى ليل، أتت غتمة واهنة من بين الأشجار، طفت النجوم في سماء سوداء، كان درب التبانة فيها مجرد لطفة شاحبة. وفي حديقة الدير كان هناك شخص يقطع الخشب وينخر، وذكر كوجيمايكن بوالد بوسولوف. تساقط الندى وأصبح الهواء رطباً، فاخرقت برودة الخريف قلبه. حاول أن يركز أفكاره على شيء واضح وغير مضر، شيء خارج نفسه، لا يثير الخوف فيه.

لم يعد اليوم ينطق الآن، لأن سوخويايف جفف المستنقع ويفترض أنها طارت بعيداً.

فتحت البوابة التي تؤدي إلى البستان وسمع وقع أقدام تكشط فوق الأرض.

ظهر في الظلام الشكل المحني للتري:

"هل هذا هو أنت يا شاكر؟"

"نعم ولماذا لم تنم بعد؟"

"وماذا عنك أنت؟"

تجاهل التري السؤال، وجاء إلى الطاولة، ووقف وبطنه تضغط على إحدى زواياها:

"يجب عليك أن تنام" قال.

"هناك وفرة من الوقت لهذا" رد كوجيايكين متأملاً "لست مستعجلاً"

جذب شاكر حسرة عميقة ثم استدار وانصرف.

"عليك أن تعتنق المسيحية، ستموت قريباً" قال كوجيايكين "سوف يعطونك اسماً روسياً. حان الوقت لنا أنا وأنت كي نفكر بالأشياء الحقيقية في الحياة"

تلاشى التري، دون أن يرد، في الفرجة الضيقة التي بين الأغصان المظلمة. هذا أربع كوجيايكين؛ نهض ونظر يميناً وشمالاً وشق طريقه عبر البستان بسرعة ويدها ممدودتان أمامه، وكان قلبه يتوقف عن الخفقان تقريباً في كل مرة يلمس فيها أحد الأغصان.

عادت إليه فكرة الموت بالبحار متزايد في فترة ما بعد المساء وجاهدت تدريباً لطرد كل الأفكار الأخرى. في البداية تقبلها بخنوع ودون اعتراض، لكنها سرقت منه كل اهتمام في الحياة والناس. ثم بعد ذلك، وفي أحد الأيام،

لمح نفسه في المرأة فصُدم وانبهر حين رأى تعبيراً مرضياً على وجهه ونظرة آتمة في عينيه. شعر بالأسف على نفسه والامتعاض منها. عبس ونظر حوله كأنه يبحث عن شيء يمزق به الشراك اللزجة الرمادية العالقة في وجهه. تجول في البيت بلا هدف لوهلة، وأخيراً غرق في مقعده المفضل بجانب النافذة، جلس بجدق بشكل أجوف في الجدار الأخضر الريشي للخضرة النباتية وفي السماء الشاحبة فوقه متأملاً أن يجد شيئاً استثنائياً وغير عادي يهزه بعنف ويزيل عنه ضجره.

جاء سوخوباييف لزيارته، مهلهلاً ومنتصباً في قبعة مجمدة تفوح منها رائحة ماء المستنقع وفي جيبه شريط قياس ودفتر ضيق وطويل بيده. جلس وضرب ركبته بالدفتر وهمس عبر أسنانه:

"يا لسكان البلدة هؤلاء! يا لهم من مجموعة رائعة! لا يصلحون لشيء إلا لوضع العصي في أي دولاب أي مشروع محترم. لن تصدق كم هم كسالى يا ماتفى سافيليفيتش وكم هم جشعون! كيف يمكن للإنسان أن يكون كسولاً وجشعاً في الوقت نفسه؟ هذا يفوق معرفتي. إن هذه البلدة أشبه بوكر من اللصوص منها إلى تجمع بشري محترم. إنهم قطاع طرق ومستعدون لمهاجمة أي شخص يلتقونه ويمزقون القميص الذي على جسده" وثب وهز دفتره فوق رأسه في انفجار لمشاعره "لكن سوف أريهم! لن يحظوا بفرصة يمتصون دمي فيها!"

انهار على المقعد مرة أخرى، صر كتفيه وضيق عينيه الشاقبتين وقال: "أين المعنى والمغزى في ذلك؟ ليس هناك من مغزى. أخبرتهم أن المشروع سيفيد البلدة ككل وكل مواطن فيها. لقد سمتم النهر ونحن سوف نظهره. لم يستمعوا ولم يصدقوا بما أخبرتهم به وكانوا يجيبون: "لأنك

ستحقق منه ربحاً فقط". بلهاء، من أجل ماذا هذا الذي أفعله في اعتقادهم؟ لأحقق أرباحاً لأسلافي؟ قلت لهم: "أيها الرفاق المواطنون المحترمون، في كل سنة تشب حرائق في بلدتنا وتسبب أضراراً وخسائر لا تقدر. كل ما نحتاجه هو أن نبني بيوتاً من القرميد". يردون: "هذا لأنك اشترت الكثير من الطين من الفلاحين في باليمري لتنشئ ساحة آجر. حسناً ولنفترض ذلك وعزمت على بناء ساحة آجر، لأن شخصاً ما عليه أن يبني ساحة للآجر ومن الطبيعي حين يكون علينا أن نفعل شيئاً، أن يجلب الفائدة لكل من يقوم به"

ضحك كوجيماكين ضحكة قصيرة وقال: "نحن يجب أن نموت، لمن ستجلب هذه الفائدة؟"

"نموت؟" كرر سوخوبايف قائلاً "لماذا نموت؟ لا يزال الموت بعيداً. أولاً دعنا نتذوق قليلاً من طعم الحياة". وعلق في سلسلة جديدة من الأفكار وتابع قائلاً بحيوية: "يجب علينا أن نحاول الحصول على بيت بونبوف من أجل مدرستنا الجديدة يا ماتفى سافيليفيتش. إنه موقع جيد ويمكن أن نشتره بثمن زهيد. هل أبدأ التفاوض معهم؟ حسناً سوف أبدأ بهدوء"

كان يجلس أحياناً وعيناه شبه مقفلتين وترسم ابتسامة فوق شفثيه وهو مستسلم لأحلامه.

"بعد عشر سنوات لن تعرف هذه البلدة والناس الذين يعيشون فيها- ستكون جميلة مثل لوحة فنية. أقسم بشر في على هذا!"
ويمرر النهاية المديبة للسانه على شفثيه.

إنه غير خائف من الحياة، فكر كوجيماكين.

أحب كوجييايكن أن يتحدث عن الموت، لكن لم يجد من يتحدث إليه. في كل مرة يطرق فيها الموضوع مع شاكر كان التري يلوذ بالصمت العنيد أو يعبس ثم يمشي مبتعداً. فوكا عاجز عن أي شيء تماماً؛ نيكون ثمل دائماً ولا يصغي إليه؛ معرفته ببسولوف قليلة جداً لا تسمح للتحدث بمسائل كهذه.

كان لدى بسولوف شيئاً جديداً يقوله دائماً.

"هل لاحظت ذلك الصبي الهزيل، صاحب الصوت الصاح الذي على خده ندبة يا ماتفي سافيليفيتش؟ إنه لقيط واسمه براشكين وأصله من بيبيتوخوف هيل. مهنته خياط ولديه الكثير من الأفكار ويقول ينبغي علينا أن نتحد معاً بوجه القسوة ضد الكائنات البشرية". قرب مقعده أكثر من كوجييايكن وقال بصوت منخفض وأطلقت عيناه الزرقاوان ضوءاً ذهبياً وقال: "يجب علينا أن نهىء الناس كي يعلنوا أنهم نالوا من القسوة ما يكفي"

"لمن سيعلمون هذا؟"

"للعالم عموماً" رد بسولوف الذي تفاجأ نوعاً ما "ولهؤلاء الذين في السلطة بشكل خاص، ألا يكون هذا رائعاً؟". وقال بثقة متزايدة "إعلان عن إرادة الشعب: لقد نابنا ما يكفي من القبح والفظاظة. نحن نريد أن نعيش باحترام وسعادة. يا للفرق الذي يحدثه ذلك!". شرد وحلم وأضاءت ابتسامة مشرقة وجهه. تنفس أخيراً وقال: "إنها فكرة رائعة"

ازداد ولع كوجييايكن به، النظرة الحية والنشطة لعينيه الزرقاوين الصافيتين، اهتمامه الحاد بالحياة، تشوقه لفعل الأشياء وجذب أكبر عدد من الناس إلى نشاطاته، كل ذلك جعل كوجييايكن يهتم به اهتماماً أبوياً.

أفكار جديدة كانت تظهر أكثر فأكثر مثل أفراخ ولبدة تنقر القشرة الخارجية الكثيرة لحياة أو كوروف وتنط مبتعدة، كرات صفراء من الريش تختلس النظر بابتهاج. إنها مسلية وتحدث ابتسامة لطيفة.

حتى نيكون شعر بهذا فقال في أحد الأيام:

"يبدو أن الناس يتعشون يا ماتفي سافيليفيتش - ألم تلاحظ؟ باتت أصواتهم أقوى ونضاعت ابتساماتهم. عندما أنفوه بأشياء مهينة من أجل المتعة فقط صاروا يضحكون بدلاً من أن يغضبوا كما كانوا في السابق. ولكنهم مع ذلك يحملون الحقد كما يبدو، الحقد ليس ضد بعضهم البعض وإنما ضد أحد ما آخر. أحد غير مرئي وغير معروف"

نظر كوجيمايكين إلى وجهه المتبلد من شرب الخمر وشعره الخفيف وعينيه الدامعتين ثم سأل:

"كيف تسير الأمور بينكما أنت وماشا؟"

"أنا وماشا؟" خبا الصوت في عينيه "لا أعرف. لا تسألني عن ذلك؛ أسألها هي أو بوسولوف. هما يعرفان. أنا لا أعرف. هيه، أعطني شيئاً أبلل به حنجرتي"

ثم جرع قدحاً من الفودكا بصمت. وبعد أن ثمل تماماً سقط في ركن من الفناء. ذهب إليه فوكا الصاحي فنخره ولكزه بإصبع قدمه، تأوه ومشى مبتعداً بخطا بطيئة ثقيلة.

استاء كوجيمايكين من ذلك ومال إلى الأمام، إلى خارج النافذة لبويع الحمال، لكنه لم يفعل شيئاً، بقى دون أن ينطق بكلمة:

أريد أن أتكلم معهم، فكر. أريد أن أخبرهم بأنهم لا يستطيعون ترك رجل طيب ينهار هكذا.

ارتدى معطفه وقبعته وذهب إلى السوق وألقى خطاباً وهو يتجول فيه حول كيف يجب على المستمعين الحاضرين أن يشفقوا على نيكون ويظهروا له العطف وألا يسمحوا له بتمريغ نفسه بالقذارة والشرب حتى يقتل نفسه. وجد ماشا جالسة مع كتاب في دكان مظلم بارد تكدست فيه الخردوات من الأرض حتى السقف. وبعد أن تبادلوا التحية بدأ فوراً بالتكلم عن نيكون بطريقة مرتبكة وعرجاء. ومضت ابتسامة في عيني المرأة ثم ضيقتها وعضت على شفتها وقالت بقوة:

"لا تحدثني عن نيكون. هذا ليس من شأنك وأنت لا تعرف كم وماذا كلفني. أنتم معشر الرجال لا تعرفون النساء إلا من الخصر وأسفل فقط وليس من الصدر وأعلى - الصدر الذي تطعمكم به النساء أيها التعساء. لن تفهموا أبداً أن الزوج أو العشيق يمكن أن يكون طفلاً لها"

رأى أسنانها تطبق بإحكام، وأخافه هذا وأربكه.

"أنا لم أقصد أن أقول شيئاً لا يصح قوله" تتم "إنه رجل طيب وحزين جداً"

"هو حزين دائماً" قالت وهي تلفظ كل كلمة بشكل مميز وواضح "حاولت أن أجعله سعيداً. أوه. حسناً دعنا نتوقف عن هذا الحديث"

لكنها أضافت بشيء من الامتعاض "لن يكون سعيداً مع امرأة مثلي! لماذا؟ لقد شاركته بروحي نفسها!"

مسحت فمها وجبينها بمندبيلها وأطلقت حسرة كانت أشبه بالأنين. استأذن كوجييايكيين للانصراف بعد بضع دقائق غير مريحة.

استيقظ في تلك الليلة من نومه مع إحساس خفيف بالوحدة والعزلة؛ أشعل المصباح وحدث بالزوايا المظلمة قبل أن يخرج دفتره ويكتب:

كنت منشغلاً جداً وأنا أحاول السباحة ضد التيار لدرجة لم أجد الوقت لأكتب في دفثري حتى، ومع ذلك كل ما نجحت في فعله هو أنني أصبحت أدير في دوامة دون أن أصل إلى أي مكان. والآن ها أنا وحيد تماماً، مجروح ومصاب برضوض من المنحدرات المعلقة والصخور المتشبثة، أحرق بروحي كما أحرق في مرآة. في حياتي كلها حاولت أن أفهم الآخرين لكنني لم أفهم نفسي، أنا لا أرى ما هو الشيء الأساسي، وليس هناك شيء واضح ومحدد أستطيع أن أراه بخصوص نفسي.

نظر إلى ما كتب ولم يحبه: كل شيء مزيف. منى حاولت أنا السباحة ضد التيار؟

فكر ملياً ثم قلب الصفحة وبدأ مرة أخرى بكتابة حروفه الأنيقة المرسومة جيداً.

امنحني بركاتك يا مولاي لأعترف بكل شيء بلا خوف أو زيف أو إخفاء أي شيء.

حين أنظر إلى الناس من حولي، أرى وللأسف أن بعضهم، مثلي، يبحثون عن درب سهل يقودهم حول الحياة وليس إلى داخلها، وعلى الرغم من أنه لن يوصلهم إلى أي مكان يراوحوون في أمكنتهم حتى يستنفدوا أنفسهم ويموتوا دون أن يجلبوا أية متعة لأنفسهم أو لغيرهم. أما البعض الآخر منهم فعلى العكس، يذهبون مباشرة إلى ما يريدونه، يتحملون عذابات عظيمة من أجل ما يريدون دون أن يعرف أحد إن كانوا سينالونه أم لا.

لا فائدة. ليس هناك فائدة على الإطلاق. هذه ليست أفكار الحقيقة، قال لنفسه ووضع قلمه ثم جلس لبعض الوقت يمدق بطريقة تخلو من أي

تعبير بالنجوم التي كانت تتلألأ فوق أشجار البستان السوداء: أتت أصوات الليل المكتومة وتسلت إلى الداخل عبر النافذة وحركت بلطف أوراق النباتات التي في عتبة النافذة.

فتح كتاباً استعاره من بوسولوف وحقق في سطور الطباعة المنتظمة بارتباب:

هم تعاهدوا أن يتمسكوا ببعضهم البعض وأن يساعد كل منهم الآخر في كل الأوقات وأن ينقذ أحدهم الآخر من الخطر وأن يضحوا بحيواتهم من أجل بعضهم في حالة الضرورة وأن يتقموا الموت أي واحد من أعضائهم.

قرب كوجيمايكين المصباح أكثر دون أن يرفع عينيه عن الكتاب. مقدس جداً هو القسم الذي يقول إن الوالد يجب أن يتقم من ابنه لينجز مطالب عقد الدم الذي أبرمه مع الأخوية.

أغلق الكتاب لمدة ثانية، ثم فتحه ثانية بحذر على الصفحة الأولى، وضع كوعيه على الطاولة وبدأ يقرأ ويقرأ طالما ظلت عيناه قادرة على الرؤية. وحين رفع رأسه أخيراً اكتشف أن الغرفة مضاءة والأشجار في البستان خلعت عنها ثياب الليل الثقيلة. نهض مندهشاً ونمشى في الغرفة وابتسم لنفسه وهز رأسه المتعب.

هذه هي الغاية من الكتب، فكر، لكي لا تلاحظ مرور الوقت. طافت عبر ذهنه نتف مما قرأ مثل غيوم تبدل في اللون والشكل، تندمج وتنفصل وتتلاشى. لم يبذل أية محاولة للتمسك بها، واندesh جداً من القوة السحرية التي تجعله ينسى نفسه تماماً. بعد ذلك بقليل نزع عنه ثيابه واستلقى على السرير، فخر نائماً بسرعة.

في صباح اليوم التالي قال لشاكر حين كان يغسل وجهه:
"قل لكل من يسأل عني إنني لست في البيت".
"حتى نكون؟"

فكر كوجييايكيين:

"نعم، حتى نكون. أي أحد بالمطلق. سأكون مشغولاً جداً"

بعد تناول الإفطار جلس بجانب النافذة وفتح الكتاب مرة أخرى.

باتت القراءة أساسية وجوهرية بالنسبة إليه كأنه ذهب في درب طويل عبر حقول مفتوحة، تحديق به عيون معادية من كل الجوانب وبدت تطالبه بشيء. رغب في الاختباء عنها، لكن ليس هناك مكان لذلك. والآن وجد كوة معزولة لم يكن يرى منها سوى لمحة من الحياة المزعجة حوله، كوة يستطيع العيش فيها دون أن يلاحظ مرور الوقت البليد والرتيب. قرأ ببطء، راجع الأسطر التي كانت تسره أكثر من غيرها مرة تلو أخرى، وكان يتحسس بأصابعه الصفحات المتناقصة التي بقيت.

قل خروجه من البيت أكثر من أي وقت مضى. وحين كانت جوقة بوسولوف تجتمع في بيته للتدرب على تسبيحة الشكر مرة بعد مرة كان كوجييايكيين يعبس ويقول لنفسه:

كم من الوقت يحتاجون حتى يحفظوا هذه التسبيحة؟

قرأ أعمال كوستوماروف، قصة ثورة بوغاتشيف، وقرأ ابنة النقيب وبوريس غودنوف لبوشكين، لكنه لم يقرأ شعره.

"الشعر للأولاد الصغار، لا حاجة بي للشعر. وقال لبوسولوف: أريد المزيد من التاريخ.

"لم يعد هناك المزيد من التاريخ"

"ماذا تقصد؟" سأل كوجيمايكين المندهرش وغير المصدق.

"لم يعد لدي كتب أخرى في التاريخ"

"إذاً احصل على بعضها. حين تذهب إلى فورغورود لشراء البضائع سأعطيك بعض المال واشتر كتباً من النوع الهام والجدي. اسأل أحداً عما يجب أن تشتريه منها"

لهذا تعود على القراءة، ولم يستطع أن يمضي يوماً بدونها، وإن لم يحصل على كتاب جديد كان يعيد قراءة الكتب القديمة. وقال لنفسه وهو مذهول: تخيل ذلك! كنت أحتقر الناس الذين لديهم شغف للعب الورق وغيره من الأشياء، لكن انظر إلى الآن.

بعد ذلك بوقت قريب مات نيكون ماكلاكوف. في إحدى الليالي وفي حالة من السكر نسلق قمة برج مراقبة الحرائق، وعندما حاولوا إجباره على النزول قاوم وسقط على الدرج وكسر رأسه.

لم يتفاجأ كوجيمايكين من النهاية التي كان يجب أن يصل إليها نيكون، بل على العكس، فقد كان متأكداً دائماً أن شيئاً من هذا النوع سيحدث له. لقد ارتاح نوعاً ما حين فعلها؛ مات نيكون ولم يعد كوجيمايكين قلقاً عليه لكنه تأثر في الجنازة.

كانت جنازة هادئة وحضرها عدد كبير جداً من الناس. في الموكب وخلف التابوت كان هناك الكثير من القوم الفقراء من مستوطنة الحرفيين بالإضافة إلى أهل البلدة. كان هناك سوخوبايف ببدلة رسمية سوداء وماشاء عابسة وتضع منديلاً فوق عينيها وسماغين مزرقة من الربو وغيرهم من مواطني البلدة البارزين.

هز سوخوبايف رأسه الأملس وقال لكوجيمايكين:

"هذه ليست المرة الأولى التي يجد فيها رجل موهوب بالولادة وشريف وصادق بالطبيعة أن الحياة لا نطاق وأكثر مما يحتمل ويعتاد على طرق شريرة - أشياء لا يجب أن أقولها عن الميت. كيف يمكن أن أشرحها؟ هي عميقة جداً"

تسلل غبار الطريق إلى أنف كوجياماكيين وحلقه وتسربت أفكار مرعبة إلى ذهنه.

"نحن لا نعرف أي شيء" نتم وعيناه على الأرض.

من بين أكتاف الناس الذين أمامه ملح التابوت وأنف نيكون المتورم قد نأ في الهواء وماشا التي كانت تمشي على الطرف الآخر وهي تتحسر وترسم إشارة الصليب على نفسها. نظر إليها سوخوبايف وقال هامساً:
"أشياء غريبة تستمر"

بعد الجنازة انحنى سميون بطريقة اعتذارية ودعا الناس إلى وليمة الجنازة، وقال لكوجياماكيين وهو يضرب ساقه بقبعته وينقل نظراته من جانب إلى آخر:

"أنت كنت صديقه، تعال وتناول بعض الحلوى"

تجول المتسولون وسط الحشد وهم يمدون راحات قذرة وأصابع مثل دود سمين ويتوسلون بأصوات أنفية تلتصق بالأذن مثل ورق الذباب. كلنا متسولون في هذا العالم، فكر كوجياماكيين بلاوعي تقريباً ثم أسقط الكوييكات في أيديهم.

لم يذهب إلى وليمة الجنازة، وتندم على ذلك حين وصل إلى البيت. كان غارقاً في مزاج أسود لا يمكن لأي قراءة أن تطرده. نجح بطريقة ما في تمرير النهار، وفي المساء ذهب لزيارة سوخوبايف، فوجده جالساً في الحديقة

الأمامية يقرأ الإنجيل فدخلوا في واحد من النقاشات التي تنسى بسهولة وتقلق الروح بمشاكل سامة لا تحل.

"انظر" قال سوخوبايف الملمع والمفروق مشيراً: "الأحرف الكبيرة هنا. إنها تقولها بوضوح وببساطة شديدة". ورفع إصبعه منذراً بطريقة مهددة وهو يقرأ بصوت واضح ومميز وعال:

"إن لم نتحول ونصبح كالأطفال الصغار فلن ندخل إلى مملكة الرب بأية طريقة أخرى"

ثم أغلق الكتاب بقوة.

"أستمر في مجادلة بوسولوف، وهو يستمر في الطلب من الناس أن يتحدوا معاً ضد القسوة، ويقول إن الإنجيل هو القانون الأول والوحيد لكل العصور. ذلك صحيح طبعاً لكن -"

ألقي نظرة حوله وخفض صوته وقال:

"لكن هناك الكثير من القسوة في الإنجيل. نار وكبريت وما شابه. في المقام الأول يا ماتفي سافيليفتش كيف للمرء أن يقبل بالحياة مثل "طفل صغير" قل لي. نادراً ما يحدث شيء واحد إلا ويريد الإنسان الاعتراض عليه، وبمجرد أن يعترض أين "طفلك الصغير"؟ إن لم تواجه وتناصر نفسك في هذه الحياة ستبقى تنتقل وأنفك ينزف دماً"

وثب، ثم مر بجانب كوجيمايكن وجلس ثانية:

"حالمًا يبدأ الإنسان في التفكير بأقل وأدنى شكل يصطدم بالإبر والشوك ولا يستطيع تحريك إصبع. ربما يكون من الأفضل أن يغلق المرء عينيه ويفعل ما يجب، وبعد أن ينتهي الأمر دع كل من يريد أن يقرر إن كنت قد تصرف كطفل صغير أم لا. وأية طريقة أخرى لا تؤدي إلا إلى القذارة

والهمجية" هذه هي الحقيقة. لا تنس أنه كتب أيضاً أن الشجرة التي لا تحمل ثمراً يجب أن تقطع وترمى في النار. إليك نارك وكبريتك"
"لم أتوقع أبداً أنك تفكر بأشياء كهذه" قال كوجيمايكيين بعد أن تفاجأ.
هز سوخوبايف كتفيه:

"أنا كائن بشري، أليس كذلك؟" قال "طبعاً فكرت بذلك. لي عين حادة وذهن سريع وأحب القيام ببعض الخير في هذا العالم وألا يظن الناس بي ظنوا سيئاً، أحب أن أحظى بتقديرهم، حتى القديسين أحسبوا أن يكون الظن بهم طيباً، تفكيرنا الطيب بهم جعلهم قديسين"

"نحن مهددون من كل الجوانب" قال كوجيمايكيين بحسرة عميقة.
تعبد من حديثه مع سوخوبايف على الفور، ولم يجلب له الحديث سوى حلقة محكمة من الأفكار الضاغطة حوله.

"من قبل من؟" سأل مضيفه بعدوانية. "أليس ذلك من قبل أنفسنا نحن؟ والرب ينادي بنا: كونوا مثل الأطفال الصغار. كيف سيكون الإنسان طفلاً صغيراً حين ينظر الجميع إليه كوغد؟"
تحاشى كوجيمايكيين السؤال بطرح سؤال على ملل:

"متى تتوقع أن تنتهي البناء الذي شيدته في السوق؟"
رماه سوخوبايف بنظرة حادة، ثم للمم نفسه، وانطلق يروي عن مشاريعه الكثيرة.

كان يجب ألا أزوره، فكر كوجيمايكيين حين عاد ماشياً في الطريق عبر الظلال التي ألقاها القمر. أنا رجل عجوز؛ لقد عشت نصف قرن فلماذا أزعج رأسي بأشياء كهذه؟ كل ما أريده السلام والسكينة. حاولت أن أجد مكاناً يناسبني. يكفي محاولات فقد ضجرت! إن كان لدى المرء إيمان كاف،

فبمقدور كلمة واحدة منه أن تذبل شجرة تين، وإن لم يكن لديه الإيمان فلن يجد السلام مهما شيد من عمارات.

مشى كمعادته، عائق الجدران والأسيجة وكنسها مرة بكتفه وأخرى بكوعه. وبين الحين والآخر كان يثب أمامه ظل أسود يرتد إلى الخلف ويميره وراءه، وتنهّد وهو يراقب حركته وقال لنفسه:

نيكون مات وشاكر سيلحق به قريباً لأنه شبه ميت الآن.

حين عاد بوسولوف جلب له صندوقاً كبيراً من الكتب الجلدية، فغمره فرح كبير. قطع الصفحات ورتب الكتب في صفين على الأرض بجانب مكتبه ثم اختار كتاب: التاريخ لسولوفوف، ووضعه على المكتب؛ فتحه على الصفحة الأولى وتمشى أمامه ذهاباً وإياباً لبعض الوقت مؤجلاً متعة البدء.

وم ثم أمضى كل يومه وهو يقرأ ويستمر في القراءة حتى تؤلمه عيناه، يحمي عزله بحذر، لا يذهب إلى أي مكان ولا يهتم بأي شيء ونادراً ما يزعج نفسه بالنظر إلى عقارب الساعة التي تشير إلى مرور الوقت بوجهها الأصفر الذي ترك الذباب عليه بقعاً.

تروي الصفحات الرمادية للمجلد السميك أحداثاً بلغة ثقيلة وباردة دون أن تحكي شيئاً سوى القليل عن الناس، لا تسمع الخطاب الإنساني ولا ترى الوجوه الإنسانية فيها. من حين إلى آخر يتمتم المونى بشكاوى لم تكن تلامس القلب لبرودتها وخلوها من المشاعر مثل اللغة التي كتبت بها.

حفر كوجيايكين في الكتاب كما يحفر طائر في كوم ثلج في الشتاء، لكنه كان متحيزاً أكثر من الطير لأن الطير يبحث عن القوت بينما هو لم يكن يبحث إلا عن إشغال نفسه. شكل انطباعات عن الحكام الحريين والجشع

البشري والطمع والشجارات والمعارك والسرقات وأعمال القسوة والخزي والخذاع. كان هناك شيء مألوف في الفوضى الدامية والمظلمة في هذا كله، شيء بشير الكآبة لكنه بواسي:

لقد عاش الناس دائماً كما يعيشون الآن تماماً.

بينما كان يقرأ وهو شبه نائم، رأى رؤى هدأت روحه من الفكرة الرتيبة والمملة عن محاولة الإنسان العقيمة للتغلب على بؤس الحياة. أحياناً كان ينهض ويتمشى في الغرفة ذهاباً وإياباً وكان يدحض عقلياً نظريات مارك فاسيليفيتش ويفجئنا وغيرهما من الأشخاص الأغبياء الآخرين.

إن افتراض أن الحياة يمكن أن تتغير هو أمر صياني. كيف يمكن ذلك؟ ليس هناك شيء يستطيع تغييرها - ولا قضاء أربعين سنة في البرية. البرية الحقيقية! هي جوهر الأشياء عينه والجذور المتعفنة ذاتها!

يبقى تأثير الكتاب معه حتى حين يكون بعيداً عنه. رأى الحقيقة من خلال غبار القرون والعصور وشيد متراًساً من المعرفة التي أخذها من الكتب لمنع كل الأفكار المزعجة.

ومع ذلك لم تسمح له الحياة بأن تتركه، وكانت تفرض نفسها عليه بأشكال غريبة في الواقع.

في أحد الأيام وبعد انتهاء الجوقة الموسيقية من التمرين، جاءت لزيارته لوبا ماتوشكيننا ذات الشعر الأحمر، هي جميلة كلوحة فنية رغم أنها كانت ترندي جزمة مثقوبة وثوباً طويلاً جداً عليها.

"هل أستطيع التحدث إليك؟"

طرحت سؤالها برزانة أضحكت الرجل العجوز رغماً عنه، فدعاها للجلوس إلى جانبه. جاءت تنساب على الأرض وهي تبسم وتنظر إليه

بعينها الزرقاوين الصافيتين، وطلبت شيئاً منه، لكنه فوجيء بشجاعتها وظهورها فلم يفهم شيئاً. رمشت عيناه المتعبتان وقال:

"نعم، طبعاً"

اختفت على الفور وتركته بمشاعر مختلفة؛ لم يحبها غاماً، ولكنه شعر بالأسف من أجلها.

نشيطه مثل صبي، فكر. طفلة مسكينة ليس لها أم، يبدو أنها تعيش حياة صعبة. انظر كيف تلبس ثياباً قديمة كانت لأمها. وستكون في عمر الزواج قريباً.

عادت في اليوم التالي وفي أثرها، كما لو ربط بسلسال كلب، أتى الصبي المسلول صاحب الصوت الصاح وقد حذب كتفيه ودلى رأسه. تشوه وجهه بندبة قبيحة عميقة، يرتجف، شفتاه معقوفتان، ينظر حوله بعينين شبه مطبقتين لكنها تفادنا النظر إلى كوجيمايكي. توقف في وسط الغرفة وظل ساكناً هناك مثل عمود يدور قلنسوته بسرعة فكان من المستحيل معرفة شكلها أو لونها.

"ها قد جئنا" قالت ليوبا وهي ترجع خصلات شعرها إلى الوراء، وتوجه مباشرة إلى ماتفي سافليفتش.

"تكلم يا براشكين"

تقدم رفيقها خطوة إلى الأمام وفتح عينه الداكتين.

عينان مثل عيني القديس بانتاليمون الشافي^(٣)، فكر كوجيمايكي.

وضع الشاب القبعة في جيب معطفه وبدأ الكلام بهيئة واثقة.

"نواياي بسيطة جداً" قال "كل شخص يدرك بأن الحياة ليست بالشكل الذي ينبغي أن تكونه والتزاماً منه بالواجب عليه أن يوصل هذا

للآخرين ويجب عليه أن يبدأ مع الأطفال. من أجل ذلك السبب أرغب بأن أصبح معلماً وقد جئت طالباً مساعدتك. لقد تم إعدادي لخوض الامتحانات لكنني أحتاج إلى قليل من المال أعتد عليه خلال الفترة الأولى"

"أفهم" قال كوجيايكين وهو مسرور لأن الطلب كان بسيطاً وأن الشاب سينصرف حالاً.

"لماذا تعتقد أن الحياة ليست كما ينبغي لها أن تكون؟" سأل بأدب.

"بسبب القسوة وعدم الرحمة ويجب توضيح ذلك وتبسيطه. تأتي القسوة من خوفك من جارك ويأتي خوفك من جارك القاسي، وهكذا إنها دائرة شريرة. لذلك من الضروري أن يرفض بعض الناس أن يكونوا قساة وبهذا يكسرون دائرة الشر؛ هذا ما يجب أن نعلمه للأطفال"

رمش كوجيايكين من الدهشة ونظر إليه ومنه إلى الفتاة التي كانت تجلس وقد انفرجت شفتاها وأسقطت كوعها على ركبتيها. كانا صغيرين جداً ومع ذلك لديهما أفكار عن هذا الشيء غير العادي.

"أفهم" نتم "إذا الأمر هكذا. حسناً"

أطلق براشكين ضحكة قلقة صغيرة وجذب نفساً عميقاً وأضاف:

"الذي طلبته منك اعتبره قرصاً طبعاً"

بعد أن ذهب، ذرع كوجيايكين الغرفة ذهاباً وإياباً وهو يشعر بنفور معين منهما، وقال لنفسه بازدراء وهو يشد لحيته "باه" واحد آخر من أمثال الأمير غاليتسكي خاصتكم! كسر دوائر مغلقة وما شابه. لقد استغرقت صياغة هذه الدوائر قروناً من الزمن ويأتي مدعون صفار مثله-والفتاة التي

ليس لها من يعتني بها، إنها ستورط نفسها بالمشاكل مع هكذا أصحاب إن لم تحذر وتحرص على نفسها.

أعطى براشكين المال ونسي أمره تماماً. أما الفتاة ليوبا ماتوشكينا فظلت تتردد على ذهنه مراراً مثل فراشة، تبسم له وتمد يديها بأصابعها الطويلة والريقة. أزعجه هذا وأثار في نفسه أفكاراً غير مرغوبة. في أحد الأيام طلبت منه بعض الكتب فأعطاهما لها بتردد، ومنذ ذلك الوقت كانت العلاقة بينهما غريبة وغير محددة. كانت تنظر إليه بعينين ضاحكتين كأنها تتوقع شيئاً منه، وهذا ما أغضبه.

"إنها كتب بليدة، كتب جدية، ليس لطفلة مثلك"

"إنها ليست بليدة أبداً"

"أنت لن تفهميها"

"أوه، نعم، سأفعل. لقد قرأت أعمال تورغينيف التي بحوزة أمي"

أعلنت بفخر وسرور.

هز رأسه رافضاً تصديقها، ولم يقل المزيد حول الموضوع. لمعت في عينيها الزرقاوين ابتسامة مبهمة ذكرته بإحباط بابتسامة يفجينيا الماكرة المتعمدة. للفتاة سحر محير. كانت ممتعة ولها طريقة تصبح فيها رزينة وناضجة فجأة حين تبدي معرفة أكبر من عمرها، وتجعله يصغي إليها رغماً عنه. كانت تربكه بثقة وببساطة شديدة بالتفاصيل دائماً، فقد أخبرته عن والدها وعن أصدقائه الموظفين وعن شربهم للخمر وسكرهم ولعبيهم للقمار وعن نفسها وأحلامها. ذكرته قصصها بشبابه على نحو غامض، وكانت تترك شعاعاً وامضاً رفيعاً وحزيناً من الضوء داخل ظلام روحه، فيدفئ هذا الشعاع قلبه.

"لماذا لا تقرأ الجريدة؟" سألته مرة.

"ولماذا أقرأ الجريدة؟" رد بسؤال.

"لكي تعرف ما يحدث"

هز كتفه ونظر إلى وجهها الجميل وهو يشفق عليها:

"حسناً وما الذي يحدث؟"

بطريقتها السريعة في الكلام أخبرته عن جريمة غامضة، عن مقتل ممثلة من قبل ضابط، وعن صياد سمك حمل إلى البحر على رقاقة من الجليد، ثم عن ورطة عاشق دراماتيكية.

"لا مصلحة لك في معرفة أشياء كهذه" قال.

زمت شفيتها للأمام بصورة هزلية وقالت بهتاف يعبر عن المقت:

"أنت مثل بابا تماماً"

قبل أن يدرك، بدأ يعتاد على زياراتها له. كان قلقه يزداد إن مرت ثلاثة أو أربعة أيام ولم تظهر. كان يعرف أنها تعيش نوعاً من العزلة وبلا حماية وسط رفقة والدها من المقامرین الشملين، وكان يقلق أيضاً إن أكثرت من زياراتها له.

"إنها تكبر وتنضج. قد يطلق الجيران الإشاعات"

اخترقت شمس حمراء خضرة البستان، وأرسلت أشعة حادة من ضوئها عبر النافذة المفتوحة. أصبحت الغرفة كلها مطلية ومزينة ببقع من الضوء الحي، وهبت ریح لطيفة هزت الأغصان، وجعلت البقع ترتجف وتندمج وتختفي لتظهر مرة أخرى وتتدفق في ذهب منصهر فوق الجدران والأرض.

جلس كوجيمايكي خاملاً في سكون الغرفة العميق. حاول التفكير في شيء يبهجه، لكن صورة محددة ظلت تظهر في ذهنه: كان يمشي في الليل

وسط تلال جذباء وشعناء تحيط به برية ميتة مظلمة ونجوم تومض في سماء مشوشة ودرب التبانة يومض ثم يختفي في صورة ضبابية. بعيداً عنه استلقت البلدة التي تمددت على التراب كما لو كانت مصلوبة، وأتى صوت مخلوق غير مرئي وكلي الوجود صائحاً:

"النجدة، الرحمة"

صعدت كتلة إلى حلقه بسبب الرؤية، ووثبت دموع حارة إلى عينيه؛ أراد أن يصرخ بصوت عالٍ؛ ازداد الظلام والبرد. أغلق النافذة وأشعل المصباح؛ ظل ممسكاً به بيده وجلس إلى مكتبه. لفت نظره سطر من صفحة صفراء في كتاب مفتوح "... نكلم بلطف دائماً ولا نتكلم بقسوة أبداً"

تملكت عقله وطردت كل شيء آخر. فتع درج المكتب وأخرج الدفاتر وقلب الصفحات. لماذا هذه الصفحات؟ من يريد لها؟ لن تراها يفيجينيا أبداً. سترمى في نار الموقد بعد أن أموت. وسيسخر منها الناس أيضاً. ربما سأعطيها لليوبا؟

نكس رأسه على المكتب وذرف دموع رجل عجوز؛ سقطت على الصفحة نقاط صغيرة مثل تلك التي تنقط من السقف في شهر آذار، وجعلت الحروف تسيل وتشكل أسهماً قصيرة بحواف أرجوانية أنيقة. نفخ النقاط على الأرض، ثم أغلق عينيه وجلس ساكناً لوقت طويل وهو محطم ويائس.

أمضى يومه التالي كله وهو في هذا المزاج الكئيب، وعند المساء جاءت ليوبا ويدها كتاب.
"مرحباً"

وقفت هناك، طويلة ونحيلة ورشيقة؛ شدت المنديل عن رأسها فسقط شعرها المجدد حول جبينها وخديها وفوق عينيها الضاحكتين. رمت الكتاب على الكرسي ومسحت الخصل المتمردة وأعادتها بأصابع طويلة ودفعتها إلى ما وراء أذنيها الورديتين الصغيرتين. بدت شبه أمها بشكل لاف في تلك اللحظة، مثل دمية وقوى الشبه ثوب أمها القديم البالي الذي اعتقد كوجييايكن بأنه رآه سابقاً.

"إذا أنت هنا يا عزيزتي" قال كوجييايكن، وها هو يخاطبها بهذه العبارة لأول مرة.

وضعت يديها حول وركيها الضيقين؛ مالت إلى الوراء بطريقة تبرز فيها ثدييها المتبرعمين وسارت خطوات قليلة في الغرفة.

"أوه كم أنا متعبة!" هتفت وهي تنظر إليه، ثم سألت بلهجة عملية "لماذا أنت بهذا الشكل والحال؟"

"أي شكل؟"

"شاحب جداً وشعرك غير ممشط؟"

"أوه، لا أعرف"

جلست بجانبه ونظرت في عينيه.

"أوه، يا للوجه الكتيب! جتتك بزيارة قصيرة جداً. قضيت ولوشا معي اليوم كله في تنظيف البيت. كان يوماً كريهاً! لعب أصدقاء أبي الورق في بيتنا حتى الساعة السادسة صباحاً. أكلوا وسكروا، طبعاً قذارة وأعقاب سجائر في كل مكان. مجرد التفكير بها يقرفني. خسر بابا نقوداً في بيت مدير البريد يوم السبت فدعاهم كلهم إلى بيتنا ليلة أمس، وخسر مرة أخرى، وسكر حتى ثمل في حالة من اليأس. واليوم يبدو غريباً ومشيراً للسخرية؛ نزق

وصداع ويجد الأخطاء في كل شيء ويتذمر بأنني لا أحبه، وأنا كنت أفرك الأرض وأنظفها. طلبت منه أن يذهب إلى السرير حتى نرتب البيت وسيكون هناك وقت كافٍ للحديث عن الحب. أنا قاسية جداً معه أحياناً كما تعرف.

نظر كوجييايكيين إلى كتفيها النحيلين وذراعيها الطويلتين ويديها الجميلتين ووجهها: كانت عيناها تلمعان بالتسامح وتقوست شفتاها في ابتسامة لطيفة.

"من الصعب أن يكون الإنسان مع أناس مثل هؤلاء، أليس كذلك؟" ارتجف منخراها وشدت حاجبيها في خط مستقيم وضيق عينيها. "نعم-م" قالت بعد توقف قصير "لكنني كنت أنصرف إن بدأنا التحدث بالهراء ورفع الكلفة"

أطلقت ضحكة صغيرة ونورد وجهها حتى أذنيها. "إنهم يكذبون دائماً، إن الأشياء التي يقولونها لا تحدث أبداً. كنت أعرف ذلك لأن أمي أخبرتني بكل شيء-عن الناس والنساء، كل شيء. هم يقولونها بدافع النكاية" "النكاية بمن؟" سألت دون أن ينظر إليها.

"لا أعرف" أجابت متأملة "ربما ليست بدافع النكاية وإنما لأن ليس لديهم شيء أفضل يفعلونه. هم لا يفعلون أي شيء سوى شرب الخمر ولعب الورق وهذا عمل بشكل رهيب كما يفترض. وأنت اليوم أيضاً-" "أنا؟" قال كوجييايكيين بنعومة "أنا أفكر بالموت. سأموت قريباً" أسبلت جفنيها وقالت بمودة:

"أنت أيها المسكين! إن العيش متعة! أنا نويت أن أعيش طويلاً جداً"

ذهبت إلى النافذة وجلست على عتبها وأمالت جسمها إلى الخارج.

حتى كوجيميكيين رأسه نحو الأسفل وتدحرج إلى الأمام وإلى الخلف وريت على ركبتيه بأصابعه. كان البستان مطوقاً بظلال المساء الزرق التي أضفت لوناً رمادياً على لون النبات الأخضر. قمر أصفر تعلق في سماء صافية وبموض بطن في الجو. قالت لبوبا وهي تلوح بيدها لإبعاده:

"لا أشعر برغبة في الذهاب إلى البيت. أفضل الجلوس هنا معك وشرب الشاي و-و-الجلوس فقط، المكان نظيف وهادئ وجميل هنا. أنا متعبة بشكل رهيب فعلاً، عظامي كلها توجعني"

"ابقي" قال كوجيميكيين بهدوء.

"يجب أن أذهب إلى البيت من أجل العشاء. بابا سيوبخني إن تأخرت"

دقت الجدار بقبضتها وعلقت بشيء من الارتباك:

"أحياناً أجد الأمر صعباً جداً لأنني لا أعرف ماذا يجب أن أفعل، حتى إنني كنت أختبئ في ركن وأبكي. هل تصدق ذلك؟ لو كانت هناك وسيلة تجعل الزمن يعمل ويمر بسرعة كي أصبح كبيرة في وقت قصير جداً!"

ضحكت "هذا قول سخيف" دغدغت ورقة نبتة مطاطية رقبتها، أحنّت رأسها فأبعدتها بخدها "لكن من الممتع قول أشياء سخيفة. والجلوس على عتبة النافذة يعتبر تربية سيئة كذلك. لو كان عندي بيت لي وحدي لجعلت أحد جدران الصالة فيه من زجاج لأرى كل شيء. هل أنت مغرم بالبلدة؟ أنا مغرمة بها بشكل مفرط. إنها حلوة جداً وسخيفة مثل دمية. لو نظرت إليها من الحقول لرأيت بيوتها مثل الفطور التي ترتقي من سلة على العشب الأخضر"

ضكت ثانية ورفعت يدها لتدفع خصل شعرها ثانية، وبدت هادئة جداً وشفافة.

"فطور مسوسة" أضاف كوجيايكين. كان يبدي مثل هذه الملاحظات دائماً ليرى ردة فعلها، لكنها كانت تتجاهلها دائماً. كانت الأشياء البسيطة التي تقولها تبعد كآبته كما يبدد ضوء القمر الظل.

"حسناً، يجب أن أذهب" قالت وهي تقفز من عتبة النافذة.

"هل نحين أبيك؟" سأل بحسرة ونهض هو أيضاً.

"أحبه طبعاً" قالت مترددة ثم أخفضت نغمة صوتها وشحب وجهها "لكن ليس تماماً. كان فقطاً مع ماما"
"لماذا؟"

"لا أعرف. شرحت لي ماما لكنني لم أفهم تماماً. يبدو أنه أحبها إلى أقصى حد، لكنه لم يثق بها، وكان يتخيل أشياء دائماً. أليس ذلك مروعاً وبغيضاً؟ حتى إنه اشترك في أسوأ الجرائم والكتب ليغيظها"

"كيف يمكنه أن يغيظها من خلال اشتراكه بجرائم؟"

أرجعت رأسها إلى الخلف ونجهمت:

"إن كانت الأشياء التي فيها بغيضة ومزيفة؟" سألت بتجهم.

"من يعرف ما هو مزيف وما هو حقيقي؟" غامر قائلاً.

"الأمر بسيط جداً. الجيد حقيقي والسيئ مزيف" قالت مختمة. شكل حاجباها خطأ مستقيماً وأغلقت شفيتها بقوة وبدت قاسية وعنيدة مثل سنجاب صغير شجاع مشرق ومنقب.

حين ذهبت، تعلق ذهنه بها بشكل بائس وربطه عمداً عليها بواسطة التفكير:

كيف تعيش هذه الطفلة؟ لا أستطيع أن أقرر إن كانت أكبر من عمرها أم أصغر. أحياناً تبدو أكبر وأحياناً أخرى أصغر.

تأثر بصدقها وخشونتها ونظرة عينيها اللطيفتين الصافيتين. تراءى له أنه يسمع ضحكاتها المخملية المشرقة. نادراً ما تفتح فمها حين تضحك ولا يظهر إلا القليل من أسنانها البيضاء المتساوية وتحمّر أذناها وتقذف رأسها إلى الوراء وترفع يديها لترجع للوراء خصلات شعرها التي تسقط على وجهها. في لحظات كهذه كان المعجوز يلاحظ صدرها المنتفخ، فقال لنفسه: ستكون بحاجة إلى زوج في القريب العاجل.

لم يكن يذهب إلى أي مكان، لكن أحياناً كان سوخوبايف يزوره. أصبح سوخوبايف عمدة البلدة الآن، وكان يلف على قضاياه المتراكمة مثل البلبل الصباح، وأضحى أكثر نحافة وحدة من ذي قبل، ويتنفس بخشونة من منخاري أنفه المتوسعين. لم يعد يتذمر من الناس لكنه يتحدث عنهم بنغمت منخفضة ويبلل شفثيه على نحو دوري، وكان كوجيامكين يحبط من الأشياء القاسية التي يقولها.

"واجبنا مثل واجب راعي القطيع. إن لم يكثرث القطيع حين تصبح به، عليك أن تعطيه لسعة من السوط"

أصبحت لبوبا الحلقة الأساسية التي تربطه بحياة أهل البلدة، فهي تعرف كل ما يحدث فيها من إشاعات أهل البلدة ونواباهم، وأي شيء نقوله كان مثل نبع ماء نقي يبقب في جدول قذر، نبع وجد مجراه الجفاف ويتدفق بهدوء متجاوزاً القذارة دون أن يتلوث بها.

أحياناً كانا يناقشان الكتب التي يقرآنها، وفوجيء كوجيامكين حين سمع لبوبا تتكلم بنفس القدر من الإعجاب عن الأبطال والأنذال على السواء.

"لكن كيف يمكنك قول هذا؟" سألتها في إحدى المرات "أين ذلك الخط العريض الذي رسمته مرة بين الجيد والسيء"

"هكذا بدا الأمر لي بطريقة ما. أنا لا أعرف لماذا؟" قالت وهي تضحك.

كانت تستغرق في التفكير فيضابقها وهو مستمتع جداً لسبب ما.

ثم قالت في أحد الأيام وهي تنسم وكأنها تطلب مغفرة:

"إن ما يحدث في الكتاب انتهى ولم يبق منه شيء سوى الحكاية، وحين أقرأ الحكاية أحب كل واحد فيها بالمستوى نفسه: الساحرة والجنية الطيبة والغول وإيفان"

توسعت عيناها كما لو ظهر لها شيء فجأة وضحكت مقهققة:

"لكن لن تكون هناك حكايا لو لم يكن هناك ساحرات طبعاً"

"أعتقد أنك بدأت تفكرين بالزواج، أليس كذلك؟"

"كلا" قالت وهي تهز رأسها، لكنها خجلت بعد لحظة فأنزلت عينيها وأضافت "يعني أنا أفكر به طبعاً لكن الزواج بلا مشاعر - هذا يعني أن تفعل ما يفعله أي شخص آخر وأنا لا أريد أن أكون كذلك. أعتقد أنه عمل بغيض ومروع. فانيا خريابوف يأمل أن أتزوجه -"

"هل هو من الصنف الجيد؟"

"فانيا؟ نع-م" قالت غير واثقة "هو حسن لولا كسله فهو لا يريد أن يفعل شيئاً؛ يظل يتحدث عن الحرب، يريد أن ينتسب إلى الجيش كمتطوع ويريدني أن أصبح ممرضة، لكنني لا أحب الحرب. إن جده شخص محبوب" (٣٧)

"جده!" نخر كوجيمايكن الذي غار منه على الفور "لبس هناك شخص في البلدة لم يتأوه من جده، هذا المعجوز البخيل"
"لكن رغم ذلك فإنه شخص جيد في جوهره" أكدت ليوبا بهدوء.
حافظ الرجل المعجوز على صمت مطبق.

وقف في مساءات الخريف أكثر من مرة يحملق بالغيوم الحمر التي تنذر ببرد وعواصف ويعزلة الشتاء ووحشته، ففكر بينه وبين نفسه:

أتساءل لو أنني لم أتسرع كثيراً في وصيني التي تبرعت فيها بأملأكي للبلدة لربما وجدت زوجة شابة أتركها لها، ولربما كان لي ابن. إن الحياة لا تستحق أن تعاش بهذه الطريقة. ليس هناك روح واحدة تغمض عيني حين أموت حتى. يمكنني أن أغير وصيني طبعاً-

لكن نظرة واحدة في المرأة كانت تكفي لطرد فكرة كهذه من ذهنه. يخور قلبه ويظهر الخوف من الموت مثل غيمة في ذهنه، يجمده ويؤلم عظامه ويحرك شعره الرمادي الخفيف.

ثم تأتي الفتاة النحيفة الطويلة لزيارته مرة أخرى. كانت تروي له ما يجري في العالم بطريقة مثيرة وتنتهي بخبط قدمها وتقول وقد نفذ صبرها:
"لكن لماذا لا تشترك بصحيفة جيدة؟ أنت يجب أن تفعل ذلك حقيقة، أرجوك افعل"

استسلم إلى طلبها، لكن اشترط أن تأتي هي كل يوم وتقرأها له.
ها هي الآن باتت تقرأ له بنغمات سريعة واضحة من الصفحة الصاخبة.
وبينما كان كوجيمايكن يصغي إليها تخيل أن ما يسمعه كتبه مارك فاسيليفيتش أو بفجينيا أو سبينا كوماروفسكي اللاذع. إنها أفكارهم وكلما هم وليوبا تقبلها بلا شك أو تردد، فسألها بنكد مرة:

"لماذا تبلعين كل ما تقرأينه؟"

"لأنه صحيح وحقيقي؛ أي شخص يمكنه أن يرى ذلك"

أحياناً كانت تتمشى ذهاباً وإياباً في الغرفة، تسيل الدموع من عينيها وتلوح بالصفحة المجعدة ويسمعهما تنطق بقلب محبط بكلمات كانت صدى لأفكاره الخاصة به المنسية منذ أمد بعيد.

"لماذا الناس هنا مفلسون من كل شيء، تائهون ومهجورون؟ انظر، هناك أناس يريدون أن يحسنوا الأشياء، الناس الذين يكتبون مثل هذه الأشياء الصحيحة والرائعة. أما في هذه البلدة فلم نسمع أي شيء من ذلك أبداً. إن الناس هنا لا يفقهون شيئاً. هل صحيح أننا نخسر الحرب لأن جنرالنا من الألمان؟ لا شيء من هذا القليل. ولكن أبي يظل يقول إن سكويليف^(٢٨) -"

سوف ترحل هي أيضاً، فكر كوجيمايكين وهو يشعر بالتعاسة والبؤس، إنها ملزمة بذلك. ظهر الرعب القديم في ذهنه. ها أنا أوشك على الموت، لكن أفكاره تريد أن تعيش.

حاول إقناعها بلطف وحرص:

"لا تثقي كثيراً بتلك الأشياء. أعرف جيداً كم هو قليل جداً عدد الناس الذين يريدون الخير والحقيقة. لو ظهر الجيدون والخبرون هنا للاقوا استقبالاً بارداً. لا أحد يعرف كيف هم، سيخاف أهل البلدة منهم ويطردونهم. القادمون الجدد! إنهم لا يحبون القادمين الجدد. أنا أعني ما أقول وأعرفه يا ليوبا" أشار بأصابع الاتهام إلى نفسه وقال بلهجة تحذيرية وقد نسي عمرها "انظري إلي يا ليوبا، لقد ظهر والي، هؤلاء الجيدون والطيبون فطردتهم. أنا مشمئز جداً من نفسي، أمضيت حياتي كلها وأنا أحمل نفسي بنفسني وأنقلها

من مكان إلى آخر وقد أتعبني الحمل وأهلكني ولا أزال مستمراً في حمل نفسي. ليس أمامي شيء سوى الموت، لكن من المؤسف أن أموت دون أن أرى من الحياة- لا شيء سوى الخواء أو الأمل بشيء أفضل، وحين أتى هذا الشيء خفت وتكاسلت كثيراً في الذهاب وملاقاته بمنتصف الطريق وها أنا أمامك كما ترين"

وقفت في وسط الغرفة تصغي إليه وهي مذهولة. وحين أنهى كلامه أتت إليه وقالت:

"ذلك، ليس صحيحاً"

"أوه، لكنه كذلك" قال وأخذها من يدها وقد تملكه شوق لتجريد روحه وجلس بجانبها. التقط أحد دفاتره وفتحه وقال بعجالة:

"الرب ينظر إلى أولاده بازدياء ويقول لنفسه أين أنا؟ روحي ليست موجودة في الناس الذين خلقتهم. أنا ضائع ومنسي وصرت مثل صدى صوت جهير وفقدت كلماتي نارها الحية- لا شيء سوى رماد انتشر على حجارة، لا شيء سوى ثلج تساقط على أرض يباب"

"من كتب ذلك؟ هل هو أنت؟" سألت وهي تنقل النظر بينه وبين الكتاب وهي غير مصدقة.

"نعم، أنا، لكن ذلك ليس كل شيء. انتظري"

قلب صفحات الكتاب بهياج. أراد أن يجد شيئاً يهز قناعاتها ويقوم بدور إنذار وتحذير وأراد شيئاً لنفسه أيضاً. تحركت في مقعدها لتأخذ وضعية مريحة أكثر. أزعجته حركتها وألهمته. لمح تعبيراً جديداً في عينيها، تعبير لم يره من قبل قط.

"لقد كتبت الحقيقة كاملة في هذه الكتب"

"عن نفسك؟" سألت بهدوء.

"عن كل شيء"

بدأ يقرأ ورأى أنها كانت تفهم. امتلأت عيناها الواسعتان باهتمام شديد متوتر؛ تحركت شفتاها فجأة كأنها تكرر كلماته، أمالت نفسها عبر ذراعيه لترى الصفحة، فسقطت جديدة من شعرها على كفه وتحركت بلطف. حين قرأ لها عن مارك فاسيليفيتش اعتدلت وشع وجهها وقالت وهي سعيدة:

"أوه، لقد عرفت مثل هؤلاء الناس. أخبرني أمي الكثير من الأشياء الرائعة عنهم وهناك كتب عنهم أيضاً. أنا مسرورة لأنك كتبت كل هذا! ثم أخفضت صوتها وقالت: "لكن بابا، ذلك المسكين، لا يصدق ذلك، وهذا ما قتل ماما طبعاً. يجب أن أعود إلى البيت لقد تأخرت، لكن سأعود غداً بعد الغداء مباشرة وستقرأها لي كلها، أليس كذلك؟" قالت وهي تنظر إليه متوسلة "حتى آخر صفحة" ثم خرجت تركض.

في اليوم التالي قرأ لها عن يفجينيا ورأى تأثرها وأوشك هو نفسه على البكاء من منظر ابتسامتها الحزينة والشفقة التي في عينيها.

"إنها مشوقة بشكل رهيب" كان تهتفت من حين إلى آخر وهي تلمس الكتاب بحسد ورهبة "بهذه الطريقة يجب أن نكتب الكتب! أن نكتب عن الناس كما يجب متعة كبيرة! أنا نويت أيضاً أن أدون كل الأشياء الجيدة التي أراها. لماذا ليس لديك صورة للعممة يفجينيا؟" وقبل أن يستطيع الرد قالت: "هل تريد أن أعطيك صورة لها وبوريس؟ أرسلت لنا واحدة، إلى ماما وأنا لا أحتاجها. هل تريدها؟"

فرح كوجيبا يكين.

"أذكركها جيداً" قال وهو يحملق في الفراغ "وكتبت إلى بورس. لقد أرسل لي صورة له منذ وقت ليس ببعيد. إنه طالب جامعي الآن. هل تودين رؤيتها؟"

توردت فجأة وأخفضت عينيها وقالت:

"هل أحبتها كثيراً جداً؟"

"جداً" تنفس كوجيمايكن.

"لو كنت مكانها لما رحلت. ومع ذلك -بصعب القول" نظرت إليه بعيون مبللة وهي تعض على شفتيها:

"يا الله كم هي ممتعة!" تنفست "مثلما يحدث في أعمال تورغينيف"

لامس هياجها وتأثرها صميم قلب الرجل العجوز، وحرر الضغط الرهيب الذي نجمه هناك. استند إلى مكتبه وتمتم بشكل غير متناسق:

"آه يا ليوبيا، حياتي كانت خطأ كبيراً واحداً"

رفعت رأسها بيدين قويتين وقد ارتعبت:

"أنت رجل محبوب" قالت وهي تربت على شعره الرمادي "أعرف الخير الذي فعلته كله"

"فعلته كي يتركني الناس في سلام وسكينة فقط. كل واحد يحب أن يترك بسلام، سلام أخطأنا وحسبناه السعادة" اعترف قائلاً.

حين وجد بعض التخفيف عن كربه بالبوح لها وصبه خارج روحه، وازن مخطوطاته على راحة يده وقال:

"بعد أن أموت يا ليوبيا، خذي هذه الكتب وأرسلها إلى بورس، هل ستفعلين ذلك؟"

"سأفعل" وعدت من حيث كانت تقف، بيضاء ونحيلة في وسط الغرفة.

"ولا تنسي إحضار الصور لي"

"لن أفعل" قالت برفق.

اشتاق أن يسألها عن يفجينيا وبوريس.

"بماذا تفكرين؟" سألها.

نظرت إليه للحظة قبل أن تأتي ببطء عبر الغرفة.

"جدي خريابوف يتحدث عن نفسه بنفس الطريقة" قالت.

"هل يفعل ذلك؟" قال كوجييايكين مشككاً.

"نعم. كان عليه أن يكتب عن حياته أيضاً. لو عرف الأشياء التي يفكر فيها الناس والتي لا يقولونها أبداً، كل شيء سيكون مختلفاً وأفضل، أليس كذلك؟"

"أنا لست متأكداً"

"أنا متأكدة وأعرف أن ذلك سيكون" قالت بهيئة من الحسم وهي تضع ذراعاً فوق آخر وتنظر حولها كأنها كانت ترى أشياء لأول مرة "قبل أن أعرف ما كان يدور في رأس بابا كنت أخاف منه لكنه حكى لي في أحد الأيام عن نفسه والآن أنا أفهمه"

"لكنك لا تفهمين العجوز خريابوف" تتم كوجييايكين وهو يهز رأسه باكتئاب وقد استاء من المقارنة.

"إنه وغد كبير"

"كلا، هو ليس هكذا"

"لقد عشت بجانبه طيلة حياتي"

"وأنا كذلك" ردت الفتاة. ذهبت إليه وعلى وجهها ابتسامة فوز
وقالت: "ارجوك اذهب إليه لتزوره. أتوسلك أن تفعل"
أعطائها وعداً بذلك.

تمشى ذهاباً وإياباً بعد أن ذهبت، عيناه على أرض الغرفة كأنه يفتش عن
آثار خطواته، وانشغل ذهنه بأفكار صغيرة مرت بخفة وسرعة مثل غيوم
الربيع البيضاء الصوفية.

ليس هناك شيء يحتاجه الإنسان لجعله سعيداً أكثر من شخص ينصت
إليه بانتباه وألا يكون مستعجلاً في الحكم عليه.

جلس إلى المكتب وهو حذر كأنه خائف من كسر منحى أفكاره وبدأ
يكتب. الآن بات يعرف من سيقراً المواد التي يكتبها.

أكبر نعمة في الحياة أن تجد قلباً شاباً متبرعاً ومزهداً بجانبك دائماً، إن
أمعنت النظر فيه تثق بأنك ستجد ابتسامة بانتظارك. الإنسان الذي أرهقته
الحياة وأذاقته المر سيحسن صنماً لو تذكر ويبحث عن الشباب ليحكى لهم
بصدق عن كل معاناته كي يعرفوا لماذا أصبح الإنسان منغصاً وأي مسارات
هي الخاطئة. لو تظافرت المعرفة الناتجة عن العمر المديد مع قوة الشباب
النقية والمفعمة بالثقة وتوحدتا بروابط الصداقة لازداد الصلاح والود
والحنان.

وضع قلمه وأغلق عينيه وتخيل وجه يفجينا وهي تقرأ تلك الأسطر.
كان قلبه صافياً وساكناً بشكل محزن.

بعد ثلاثة أيام ذهب ليزور المربي العجوز خريابوف في عصر يوم كئيب
من أيام شهر ايلول. استقبله فانيا بوجهه الواسع وأنفه الأفطس وقال
بصوت متقطع بسبب عمره:

"ادخل، سأنادي جدي"

نفحصه كوجيمايكن بشكل غيور وكان راضياً: لم يكن الصبي من النوع الذي يحبه؛ صبي بدين وقصير، أحمر الخدين، يرتدي قميصاً أزرق مع صدرية فوقه وسروالاً واسعاً دس أطرافه داخل حذاء عالي الساق. كان برأبي كوجيمايكن خشناً وفظاً كأنه سائق عربة في الواقع. كان يترك شعره البني المحمر باستمرار فوق وجهه وعيناه البينتان تنتقلان بسرعة واحدة من مكان إلى آخر بشكل قلق، وهناك ظلال على وجهه كانت ترفرف بشكل ثابت، وكان يعطس ويشخر بشكل دائم. جلس على أحد الصناديق يؤرجح ساقيه وينظر بالزائر في فضول غير مستحسن.

"أسرع يا جدي!" قعقع صوته منادياً، ولكي يغطي ارتبأكه نهض متثاقلاً وخرج من الغرفة متعثراً.

انفتح باب صغير في الزاوية بجانب الموقد القرميدي، وأقحمت يد صفراء من خلاله تتلمس مرتعشة وتبحث عن حافة سرير الموقد وتشبثت به ثم تبعها العجوز خريابوف، فجلس على حافة الكرسي دون أن يصدر أي ضجة. بدا مثل شبح يحتضر في رداء منزلي رمادي اللون، طرز بشرابات سوداء. ترنح عبر أرض الغرفة، تظلل إحدى يديه عينيه والأخرى تمسك بحواف الأثاث ومساند المقاعد، رأسه نائىء للأمام وفمه مفتوح يكشف عن أنياب باهتة اللون.

"أين يمكن أن تكون أبها الجمار؟" أز قائلاً "آها، هذا هو أنت، أستطيع رؤية جسدك ولا أرى وجهك. أرى فقط شيئاً يبدو مثل منخل أو سلة. اعذرني"

وصل إلى كوجيمايكين، وجلس بجانبه. وبعد تبادل التحيات المعتادة استند على كتفه وقال مقهقهاً بلين:

"أذا أنت تبكي وتنوح؟ تبكي بسبب ذنوبك، أليس كذلك؟"

لماذا أخبرته بذلك، فكر كوجيمايكين وهو غاضب وقال بصوت مسموع "من يستطيع تفادي البكاء بسبب الهزيمة التي تلقيناها في هذه الحرب؟"

"هم يهزموننا بالتأكيد!" وافق خريابوف وأضاف بامتنان: "تعلمنا درساً مرتباً جداً، همهم همهم"

نظر بوجه زائره بدون أن يخفض البد التي تحمي عينيه، فاستدار كوجيمايكين.

"لقد نلنا ما يكفي من تعليمهم" قال باقتضاب.

"يبدو أنك لا تحب الطريقة التي نواصل فيها القتال. هيه يا أخي اضربي بقوة مرة أخرى. لكن أنا أمزح فقط"

أسقط خريابوف يده على ركبتيه بترنح وفتح عينيه الحمراروين الدامعتين، واستمر في تفحص كوجيمايكين ولكزه في أضلاعه.

"لا تنجمل. لبوبا أخبرتني عن الذي تكتبه. حسن. أنا وأنت قمنا بأفعال خرقاء في الحياة، جربنا هذا وذاك والآن ها نحن عجوزان خرفان لكننا لسنا الوحيدين فالبلدة تغص بالتافهين من أمثالنا" أخرج مندبلاً ملوناً من رداثة المنزلي ومسح وجهه المبلل وفمه "أنا لا أستطيع كفكفة دموعي والبكاء من أجل حياتي" قال ومط شففيه الرقيقتين بتكشيرة "لكنني لست خجولاً منها، إنها دموع خيرة حتى لو لم تفد أحداً. لكن قد تفيد لبوبا إلى حد ما؛

ربما هي بحاجة إليها، أليس كذلك؟ فهذه الدموع المرة تجعلها تعتقد أن الناس طيبون في جوهرهم. نحن نعرف أنهم أوغاد حتى نيكون، لكن ليس هناك أي مبرر لتعرف هي ذلك، هل هناك مبرر؟"

"أنت تهذي بكلام لا معنى له" تتم كوجيمايكن باستهجان ورفض، لكن يبدو أن خريابوف لم يسمعه.

"هي بدأت تقاتل من أجل الحق والصحيح. حسناً دعها تعتقد أن أسوأ وغد يمكنه غسل ذنوبه وإزالتها بدموعه. دعها تعتقد أن الدموع تظهره رغم أنها ليست دموع الندم في الحقيقة، ليست دموع سفكت لتفتح لي الباب من خلال التوبة، بل هي دموع الخوف، فقد آن أواننا لنكون في قبورنا. إنه الزمن، أليس كذلك؟ ونحن لا نريد أن نكون في القبور"

انكمش كوجيمايكن وثار من مزاحه وقال:

"لا أعرف ماذا ينبغي أن-".

لكن خريابوف لكزه مرة أخرى وقال بنغمة منخفضة:

"أنا أمزح فقط. لست أنت من هو في ذهني، لا تخف أبداً. أتذكر كل الخطابات الرائعة التي ألقيتها وكل الأشياء الجيدة التي فعلتها. أعرف كل شيء بخصوصها. لا تظن أنني لا أكن أي احترام لدموعك. كلا، في الحقيقة أنا أمزح فقط"

"ذلك ليس هو السبب-"

لكن خريابوف قاطعه مرة أخرى:

"ذلك ليس السبب أو ذلك هو السبب- أي شيء يجعل الإنسان يبكي" قال خريابوف وهو يربت بأصابعه على ركبته.

مرة أخرى استند على كتف كوجيمايكين، ضيق عينيه ففاضتا بالدموع، وتفحص وجه كوجيمايكين بنظرة شبه عمياء تعلوها الغشاوة. ترهلت شفاته واندفع لسانه القصير إلى الخارج والداخل مثل لسان أفعى حين كان يهمس:

"كيف للإنسان أن يتفادى العويل بعد أن سخر منه الرب؟ أو هل فعل الرب هذا؟ من المؤكد أن الشيطان يدفعه هنا وهناك كما لو كان يلعب لعبة داما قطعها من البشر الأحياء"

"لا يجوز قول أشياء كهذه في عمرك هذا"

"أنا أمزح فقط. هل أنت أحمق؟ لكنني أشكرك على تعليمك لي بما ينبغي علي فعله" قال وهو يهز رأسه كما لو أنه اقتلع من مكانه.
"أنا لا أعلمك"

"حفيدي هذا يعلمني دائماً. إنه وحش صغير عارف وذكي. قال لي: أنت عشت لتبلغ المئة عام وما هي النتيجة؟ أنا أخجل من أن يراني أحد في الشارع. كيف ترى ذلك؟"

قهقه مرة أخرى وهو يعبث بزينة رداءه المنزلي، سحب الخيوط ودحرجها في كرات بين أصابعه وأسقطها على الأرض.

"هل فانيا فعلاً يقول أشياء كهذه؟" سأل كوجيمايكين بلين وهو ينظر نحو الأعلى.

"لقد فعل في الحقيقة وقال إنه نخجل أن يرى في الشارع"

"نخجل من ماذا؟"

"مني، جده"

شعر كوجيمايكن بالأسف من أجل الرجل العجوز. تنهد ونظر حوله. كانت الغرفة مكتظة بصناديق الثياب وخزانات الأدراج. لفنت نظره خزانتان مليتان بالفضة. هناك أكداش من ملاعق الشاي والطعام ربطت معاً بشرائط زينة، عشرات من حاملات الأقداح وأقداح الخمر المطلية. على قمة خزانات الأدراج انتصبت شمعدانات وشمعدانات مشعبة وعدد من السماورات وزاوية كاملة من الأيقونات في أطر ثمينة. كانت الغرفة أشبه بمحل لبيع البضائع المستعملة.

كل هذه الأشياء اعطيت له كضمان كما اعتقد، قال كوجيمايكن لنفسه. خنقته رائحة التبغ ورائحة كرات المث وأوشك أن يعطس. تابع خريابوف:

"لقد قال لي هذا الصغير: (سنة نلوا الأخرى يا جدي وأنت تدخر النقود ولكن من أجل ماذا؟) وبدأ يعلمني؛ يعلمني بكل قوته ونشاطه وأنا جالس أصغي إليه. لكن أحياناً كنت أنتبه أنه لدي رأي أقوله: أنت مغفل صغير، من أجلك عصرت الدماء من أجساد الناس لكي تقدر أن ترتقي في هذا العالم وتصعد إلى كل ما هو جميل ونظيف. لقد تمددت في الوحل تحت قدميك الطفوليين (وهل طلبت منك أن تفعل ذلك؟) لقد بدأت بتلويث روحي من أجلك قبل أن تولد أنت، لكنه نخر بوجهي"

لم يستطع كوجيمايكن أن يصدق إلا بصعوبة بأن فانيا بالشكل الذي أفهمه له جده عنه.

"ربما علمته ليوبيا ليكون بهذا الشكل" قال.

"ليوبيا؟" سأل العجوز وهز رأسه.

"أوه، كلا. أنا أعرف ليوبا. لم تكن قد تجاوزت السابعة من العمر حين قالت لي في أحد الأيام: "جدي، هل أنت وغد؟" قلت لها: هذا ما أنا عليه يا عزيزتي. أنا أمزح طبعاً لكنها تسلفت ركبتني وبدت جدية جداً ثم بدأت تلعب بلحيتي وتقول: (لا تكن وغداً بعد الآن يا جدي، يجب ألا تكون بالفعل؛ هذا هو المقصص، قص لي فاسيليا شقراء أخرى لأن فانيا قطع رأس الدمية الأولى) كنت أروي لها القصص وأقص لها الصور والونها لهم. أنا وهي أصدقاء منذ ذلك الحين وهي تقف إلى جانبي وتدافع عني دائماً، نعم ليوبا تفعل ذلك"

تبلى وجهه بالدموع التي ظلت تنهمر بغزارة من عينيه اللتين كانتا مثل جرحين مفتوحين. أخرج منديلته مرة أخرى وظل يتحدث، مسح وجنتيه وملس عينيه. شيء غريب أن نجد هذا المعجوز المقعد يبكي ورغم ذلك يتحدث بذلك الصوت الحاد والرفيع.

"إنها ستدافع عني وتقف بوجه فانيا ووجه المولى. ستكون دفاعي في يوم الحساب، ولكنني أشك بأنهم سوف يستدعوننا أنا وأنت للوقوف أمام كرسي الحساب: لقد نابنا من العقاب ما يكفي، أليس كذلك؟"

"لا أحد يستطيع قول ذلك إلا المولى" قال كوجيباكيين برفق "نحن لا نعرف شيئاً فقد ولدنا عمياناً"

"هل تقول عمياناً؟" قال خريابوف وهو يمسح شفثيه الرقيقتين "ربما كنا كذلك. لكن تثبت بليوبا" وأشار إليه برزانة "إنها تعرف الشيء الصحيح وتقوله دائماً". جذب نفساً عميقاً ولمس كوع كوجيباكيين بيد ترتعش وواصل التكلم بنغمة منخفضة "إنها تعرف كيف تجدد تبريراً لكل

شيء. ربما تصبح قديسة عظيمة في أحد الأيام - قديسة حقيقية وليست من ذلك الصنف الذي ينصرف للعبث في البرية وإنما من النوع الذي يذهب إلى وسط الناس البسطاء تحرقه الرغبة لمساعدتهم وإنقاذهم من خطاياهم. هي مثل راهبة، أليس ذلك حقيقة؟". صعد على مقعده وقال فرحاً بنفسه الهمس المخنوق: "كيف أعطت درساً للأحقق فانيا! لكن برفق، سأطلعك. قالت له: (فقط لأنك نحصل على ما يكفيك من الأكل دائماً، أنت مستقيم وشريف. أنت كسول ومتسكع كبير. هل نسمع؟ كيف أحبيت ذلك؟ لو أنك كنت فقيراً ومجبراً على العمل لكسب لقمة عيشك لكنت شريراً مثل أي واحد آخر ولن تهتم بشرفك البتة. هل نسمع؟"

رفع أحد أصابعه وقال وهو سعيد:

"كلا، هي لن تتزوجه أبداً. ليست هي من يفعل. أبداً"

"لماذا؟ ألا تحب حفيدك؟" سأل.

"أحبه؟ أحاول ألا أنسى أنه من لحمي ودمي. لكن إن تشنجت ذراعك وضربتك بوجهك ولم يكن هناك ما تفعله لإيقافها فهل نجبها؟" فتح فمه واسعاً وانفجر ضاحكاً وقذف بيديه ضارباً ساقيه ولهث قائلاً: "أوه، كم أجب المزاح! انظر فقط إلى ما هو متوقع من الإنسان: قبل أن يبدأ في العمل يجب أن يخلف ابناً له في هذا العالم ويربيه كي يستطيع أن يقول له: أيها الابن يا من أنت من لحمي ودمي قل لي كيف يجب أن أعيش وبماذا أعمل كي لا تنهمني بأنني وغد وتبصق في وجهي في يوم جميل. كن لطيفاً جداً لتعلم والدك المسكين؛ رائع، أليس كذلك؟ نعم يا عزيزي ماتفي فاسيليفيتش، شيء هزلي جداً وبغيض"

شد كوجييايكيين من يده وقال في ختام حديثه:

"لكن على الإنسان أن يعيش بالطريقة نفسها وأن يفكر بهذه الأشياء، ومن المهم أن ينظر عميقاً إلى جوهر الإنسان. ليوبيا هي الوحيدة التي تفعل ذلك. آه ماذا لو أعطيت الفرصة لأحبو وأخرج من قبري عندما تبلغ الأربعين من عمرها وأنظر إليها! لكن لن يتركني الدود كما أعتقد"

أطلق كوجييايكيين حسرة وانكمش بشكل لا إرادي مرة أخرى. أغلق خريابوف عينيه ليعصر الدموع إلى الخارج وهز رأسه وقال:

"فانيا سيكون رجلاً ثرياً، ثري جداً جداً" أدار رأسه وأصغى للحظة ثم قال بلبين "لكني وضعت شيئاً لها في البنك أيضاً، حوالي الألفين. ما رأيك؟"

"حسناً" قال كوجييايكيين "لكن الطيبة أثمن من المال"

أطلق صيحة ازدراء "بوه!" قال خريابوف "الطيبة قد تكون أثمن لكن لن يعطيك أحد كوييكاً واحداً ثمناً لها. ذلك هو السبب الذي يجعل القوم من أمثالنا لا يحسبون. الطيبة يجب أن ترد وتجزى بمئة ضعف وبسعر متصاعد باستمرار. ذلك هو النوع الصحيح من التنافس. أنت تدينني بقيمة ثلاثة كوييكات من الطيبة والصلاح وأنا أرد لها لك ثلاثة روبلات. وتدينني بثلاثة روبلات فأرد لها لك ثلاثمئة. تلك ستكون لعبة حيوية، لعبة سيقذف الناس بها قلوبهم وأرواحهم. جنون مطلق في محاولة فعل الخير. من يمكنه أن يفكر بلعبة أفضل من هذه؟ سيظل الشيطان في خكري طوال الوقت، حتى المولى سيخجل ويرتبك لأنه في الحقيقة ليس سخياً في منفعه وليس حنوناً ورحيماً جداً"

ارتجف الرجل العجوز في هياج وضرب الأرض بقدميه في نوع من الرقص وأمسك بيديه المشلولتين شرابات وياقة ثوبه المنزلي وحافة الطاولة وثياب كوجييايكين.

"ونحن نتوقع من الرب أن يتحمل مسؤولية ذنوبنا! سيكون هذا غش وخداع. انتبه. أمضيت خمسة عشر عاماً وأنا قلق من أجل فانيا، وحاولت فيها أن أطلقه في الحياة وهو نظيف وشريف - أقدم له حياة بلا كد وتعب..."

إذاً هذه ما كان يأكل قلبه، فكر كوجييايكين وقد تعاطف مع الرجل العجوز لكنه ضجر من حديثه وشعر بعدم قدرته على الإنصات أكثر من ذلك واستنشاق الهواء الخائق لتلك الغرفة المظلمة المكتظة بالأثاث. نهض وأخذ يد خريابوف وضغطها بحرارة:

"لقد استمتعت بحديثنا يا مبخايلو كيروليفيتش. شكراً لك على هذا الحديث وعلى لطفك ومودتك"

"هل أنت ذاهب؟"

حاول خريابوف النهوض.

"لا تنهض، لا تزعج نفسك"

"حسناً" تمتم العجوز وهو يصارع للوقوف على قدميه "أنا أكبر منك بعشرين سنة، لكنني لا أزال أستطيع الوقوف في حضرتك. حسناً. أنت رجل غريب. تعال وزرني كثيراً، هل ستفعل؟ ليوبا أخبرتني الكثير من الأشياء المشوقة عنك"

مشى إلى الباب ويده على كتف كوجييايكين وتمسك بمضادة الباب وقال:

"تعال مرة أخرى، هل تسمعنني؟ أنا لن أخرج من البيت ولن أغادره إلى أي مكان سوى قبري. إنه ينتظرنني هناك في الجانب البعيد من المقبرة، قريباً من المكان الذي دفن فيه قومك، زوجة والدك والجندي المعجوز. جميل منك تلك الرعاية الجيدة التي أحطتها بها، هل تذهب إلى هناك كثيراً؟"

"بين الحين والآخر"

"تعال وزرني أيضاً حين أصبح هناك. الرجل الميت شخص جيد للتحديث إليه، فهو لن يكذب عليك ولن يؤذي مشاعرك" قهقهه ثم أضاف بهدوء "أنا امزح فقط"

تلك هي الحياة بالنسبة إليك، فكر كوجيمايكين بحزن حين عاد مشياً إلى البيت. ليس هناك مفر منه، ولا لأي شخص. أحب ما قاله عن الطبيعة "جنون مطلق من فعل الخير". يبدو أن مارك فاسيليفيتش وصل إلى هذه النقطة من الجنون. حسناً، يا لبوبا أنت من جمعتنا معاً.

ريح رطبة كانت تعصف بشكل متقطع، نزعت آخر الأوراق عن الأشجار الجرداء التي في آخر الرواق وكانت تسقط على الأرض الرطبة وتلف في دوامة في الشارع وتحت الأسيجة وفي مداخل البيوت.

حين أوشك كوجيمايكين على الوصول إلى البيت التقى بسوخوبايف وتيونوف. كان سوخوبايف في حالة من الهياج ودفع قبضته إلى مؤخرة رأسه وأشار متهاً رفيقه الأعور الأشعث الذي بدا أنه لم يتناول أي طعام منذ أسبوع.

"هذا الرجل جاء بأخبار تنذر بالشؤم ويقول إنه يعرفك، لهذا أحضرته إلى هنا لمناقشتها"

"هل أنت في البلدة منذ وقت طويل؟" سأل كوجيمايكين.

بعد أن تصافحا برزانة مشى تيونوف بجانبه في الشارع رافعاً ساقيه مثل اللقلق وأخبر كوجياماكيين بالتفصيل كيف جاء:

"وصلت في عربة البريد في يوم الأربعاء وذهبت إلى الحمام وخططت كي أكلم العمدة لأن الصحف تشوش الشخص فقط. والطريقة الوحيدة للحصول على صورة واضحة لما يحدث هي التحدث إلى شاهد عيان لا يريد أي شيء سوى أن يكون صادقاً ويعمل من أجل الأفضل"

تكلم بهدوء وبلا استعجال لكن ظل الانطباع بأنه يصرخ من أعلى السطوح، واندفعت عينه الثاقبة من وجه إلى آخر وشد حاجبيه بقسوة.

دخلوا إلى البيت ووضعوا أشياءهم وجلسوا إلى طاولة:
"إن الوضع خطير جداً يا ماتفي سافيليفيتش" قال سوخوبايف بصوت أجش وهو يلحق شفتيه.

"نعم بالفعل" وافقه تيونوف وثبت عينه الوحيدة على نقطة فوق رأس كوجياماكيين "الأشياء تبدو سيئة. أولاً وقبل كل شيء من الواضح أن العمال والحرفيين جماعة صغيرة مثلهم يعرفون ما يريدونه على العكس من التجار. ومن الممكن أن تقفز هذه المجموعة فوق التجار وتتخطاهم إلى دوما الدولة، وهي كيان ستعطى كل السلطة له، وليس سراً أن الجماعة الصغيرة تنظر إلى الأشياء نظرة لا رحمة فيها ويتحكم بآراء أفرادها الأجانب من اليهود وأمثالهم الذين هم أذكى منا، وهذه حقيقة لا ينكرها أحد"

أنت كلماته في تدفق ثابت وطويل، تنهمر فوق سامعها مثل حبات قمح من كيس، وأذهلتهم وملأهم بالذعر.

"لكني لم أفهم تماماً" قال كوجياماكيين وقد تجعد وجهه من الجهد "أين الخطر؟ إن أصبح الناس يدركون أخيراً ما هو المفيد لهم؟"

وثب سوخوباييف من مقعده:

"فكر بما تقوله! أي ناس؟ أنا لا أثق باليهود، وهناك قوم غرباء أشد خطورة من اليهود، قوم لا يعرفون مكانهم ويركضون قدماً ضد النظام المقرر للأشياء" حذب كتفيه ولحق شفثيه "أنت نفسك يا ماتفي سافيليفيتش قلت إن التجار يجب أن يتولوا الأمور الآن، وأن طبقة النبلاء خبت وخرجت من الصورة وأنت بدلاً منها الطبقات الأدنى. لا أحد غير الرب يعرف ماذا سيحدث إن وصلوا إلى الدوما!" جلس يرمش بعينه مذعوراً ويائساً "لن يتركوا لنا أي شيء سوى الذهاب إلى السهوب وأكل لحم الحصان مع الهمجين"

"سيكون هناك قتال مخيف وهذا مؤكد حدوثه" قال تيونوف "يصدر حديثو النعمة هؤلاء ضجة قبل أوانهم والسبب أن رؤوسهم ملأت بأشد الآمال غرابة وهمجية"

"آمال بماذا؟" سأل كوجيمايكين وهو يدرس وجه تيونوف بخديه الغائرين والدوائر السوداء تحت عينه الوحيدة ما جعله يبدو وكأنه خاض عراكاً.

التفت إليه تيونوف بفتور:

"أولاً وقبل كل شيء المساواة في الحقوق وتقسيم كل الأرض والثروات بين كل الناس بالتساوي"

"أسمعت هذا؟" صاح سوخوباييف "ماذا يوجد هناك للاقتسام؟ أين الثروات؟ سيكون نصيب الرأس أقل من كوبيك".

"لكن الأهم والأخطر والمؤسف أيضاً" قال تيونوف بوضوح ودقة كما لو كان يخاطب في محكمة "أن الأجانب هم من أحدث هذا وأثاره. لأن عدداً

صغيراً من الناس في روسيا استسلموا إلى أحلام يقظة ولأن قدرهم لم يكن سهلاً وحياتهم صعبة، اغتتم هؤلاء الأجانب ذلك وهمسوا بأغرب الآمال وأكثرها وحشية في آذانهم لدرجة أن السلطات وكل الرجال المحترمين لا يستطيعون إلا أن يروا على الفور مدى جنون هذه المطالب " "

رفع سوخوباييف رأسه ثم مال للأمام ليسأل: "لماذا قام الأجانب بهذا الفعل؟" "

أصبح تيونوف يتكلم بصوت أعلى من قبل وأسرع وأقل سلاسة الآن "يريدون أن يجعلوا من هم في السلطة يشككون بطبقة العوام، ولكي يقوموا بهذا هم يحاولون إظهارهم أغبياء وحمقى بأقصى حد ممكن، ويستطيع أي واحد أن يرى الأمر على أنه خطاب أحق، أبله ذو نوايا طيبة لكن فاشلة" "

ومضت عيناه في دائرة شملت مستمعيه، أمسك بحافة الطاولة بكلتا يديه ومد ذراعيه باستقامة كأنه يمسك بلجام حصان. أصبح لون الندبة التي على وجهه أحمر ونحول أنفه إلى لون أرجواني، وظهرت البقع على وجهه الكئيب وطقطق صوته:

"هذا هو خط تفكيرهم. أولاً روسيا تعددت. ثانياً هؤلاء الذين في السلطة أفسدوا الأشياء ويعرفون ذلك. ثالثاً، هم فقدوا قبضتهم لهذا لجؤوا إلى الناس طلباً للمساعدة: هيه دعونا ندير الأشياء معاً كأصدقاء جيدين. لكن هؤلاء الأجانب الماكرون يريدون لي ألمانيا رغم الأدلة الكثيرة التي تشير إلى أنهم يهود. هؤلاء الأجانب يحسبون أنه لو سارت الأمور بذلك الطريق فإن روسيا ستصارع لتقف على قدميها لوحدها مرة أخرى، وهذا لا يناسبهم ولا بأي شكل. وإليك سر سياستهم: أثبتوا أن العوام الروس

عبارة عن جماعة من الحمقى ولن يبقى أي أمل في الحصول على المساعدة منهم"

"همم" قال سوخوبايف وهو بهز رأسه "يبدو لي ذلك غير مقنع. يبدو لي أن الخطر لا يكمن هناك"

"هناك تماماً وفي تلك البقعة بالذات!" صاح تيونوف بهياج وقد أفلت يديه عن الطاولة.

بدأ الجدل بينهما وكان مهذباً في البداية وكلماته منتقاة كبيرة وناعمة، لكنه أصبح فظاً ومهيناً لهما بعد أن اشتد غضبهما.

"كيف يمكن لرجل أن يصبح عمدة لهذه البلدة ولا يعرف ماذا يريد أهلها؟" سأل تيونوف ساخراً.

"أنت واحد من هؤلاء الذين نشروا هذا الكلام الفارغ وسطهم" رد عليه سوخوبايف بصوت مرتعش.

لقد تأثر كوجيمايكين بعمق بالأخبار التي جلبها تيونوف وأغضبه أن يتورط تيونوف وسوخوبايف في شجار فحاول أن يوقفهما لكن من العبث ذلك.

"لا تفعل!" نتم "الشيء الأساسي أن نكون في وفاق مع بعضنا البعض"

ظل يرى وجه العجوز خرابوف ويتذكر ما قاله عن الطيبة: أن يصل الرجال إلى جنون مطلق من فعل الخير. أثارت هذه الذكرى ظهور فكرة أرسلت رعدة من المتعة في نفسه: ماذا لو تحول كل شخص وآمن بهذه الفكرة فسيكون ذلك بداية ال-ال-ال-ال-

"توقفا!" قال للمتشاجرين "دعونا نتوصل إلى اتفاق!"

كانت عينا سوخوبايف تومضان وابتض لون وجهه من الغبط.

"أوه، لا!" قال بضحكة قصيرة صعبة "أنا لن أتفق مع ذاك أبداً"

"ولم لا؟" سأل تيونوف ببرود وهو ينظر إليه بعين مكفهرة.

"لأن هناك نظاماً محدداً للأشياء يجب احترامه ومراعاته في الحياة"

"وماذا يمكن أن يكون هذا النظام؟"

"أنا آتي أولاً وأنت تأتي ثانياً- هذا هو"

"أنا لا أحاول أن أسبقك. لكن هناك سؤال واحد أود أن أطرحه: أين

كنت طول هذا الوقت؟"

"أين؟ هنا"

"وماذا تقصد بهذا؟ هل تقصد روسيا أم غير ذلك"

"هم-ار-"

سكت سوخوبايف وخاف من الرد.

"تلك هي النقطة برمتها" قال تيونوف هائجاً "لا أحد يعرف بدقة أين

يكون هو"

"هذا صحيح" ردد كوجيمايكين "هذا صحيح جداً يا فاسيلي

فاسيليفيتش"

"لماذا؟" سأل سوخوبايف بقلق.

عجز كوجيمايكين عن التفسير فجذب نفساً عميقاً وأسقط عينيه

خجلاً.

"لأننا" قعقع تيونوف "نشعر أولاً وقبل كل شيء أننا في مقاطعتنا

الخاصة بنا، بلدتنا الخاصة بنا وبيتنا الخاص بنا. بتنا أهم من كل شيء آخر

ولا نشعر بها يرتبط به وما هو حوله؛ نحن لا نشعر بروسيا من حولنا ولم نكثرث بها أبداً"

"هيه، هل فهمت؟" قال كوجيمايكين محاولاً أن يفرض صلحاً، لكن سوخوباييف بدأ يخطط الأرض بقدميه كما لو أن ساقبه قد تشنجتا، وتلفظ بصوت خشن:

"الوداع لكما"

وذهب إلى الخارج.

"يا للهول!" قال كوجيمايكين بنغمة خائبة ونهض وهو ينظر بأثره. نهض تيونوف وقد دفع ذقنه للأمام ولوح بيديه مستكراً، وبدأ المشي على أرض الغرفة ذهاباً وإياباً.

"الشيء عينه في كل مكان" نتمم "كل إقليم لديه ربه الخاص به وعذراؤه الخاصة به وكل مقاطعة لديها قديسها الخاص بها. نظن أن الوقت قد حان لتوحيد القوى لكن لا شيء من هذا القبيل. الفلاحون يصرخون: كل شيء ملكيته لنا! يرد عليهم العمال: لا، ليس كذلك؛ ملكية المعامل لنا! والقوم المتعلمون بدلاً من يقدموا العون للعامة وكل ما هو منطقي ومعقول، يصرخون: ضعوا السلطة في أيدينا وسنسهر على أن نجزيكم مقابل ذلك! وبهذه الحالة تضيع القضية العامة المشتركة مثل حمل وسط عصابة من الذئاب الجائعة"

اصطدم بالطاولة، مرر يده فوقها، جلس ونحس الندبة التي فوق عينه، أما عينه الأخرى فكانت مبلة وباردة وترمش كأنها خائفة.

"انظر يا ماتفي سافيليفيتش، لا أملك سوى عين واحدة، ولكنني أرى بشكل أفضل من عمدتك صاحب العينين والبصر. إنه أحق بكل ما تعنيه الكلمة وليس أقل من ذلك"

شكلت نقطة عرق خطأً بأسفل وجنته "ارتجف منخاره والتوت شفته بشكل تشنجي:

"لا يوجد شيء يربط الناس ببعضهم يا ماتفي سافيليفيتش" قال وهو يئن "هم كلهم أغراب تماماً بالنسبة إلى بعضهم البعض. شكراً لك، مثلاً، هل تعرف كيف هو إقليم ساراتوف وأي قوم يعيشون فيه؟"

"كلا، لا أعرف" اعترف كوجيمايكين مقرأً بذنبه.

"تلك هي" قال تينوف وهو يهز رأسه.

"إن الذي تجهله ولا تعرف شيئاً عنه قد يكون السبب في خراب روسيا. هناك أشياء كثيرة تحدث في ساراتوف"^(٢٩)، يحاول القوم هناك الوصول إلى جذور القضية. انتبه إنهم يحرقون بيوت ملاكي المزارع. صحيح أن لديهم سبباً وجيهاً لذلك لأن النبلاء أحرقوا الكثير من الفلاحين وهم أحياء في عهدهم، لكن تظل بيوت المزارع لا علاقة لها بذلك. آه، نعم من المحتمل جداً أن تخرب روسيا وتدمر. وفي غمار هذه الإثارة، فالألمان -عرق ذكي، رمتهم علينا كاتربنتنا^(٣٠) - أقول الألمان هادئون وأنيقون. تلك حقيقة. إنهم يلعمقون شفاههم: نعم يا سيدي، رأيتها بنفسني. ألماني يقف والغليون في يده، يكشر ويلعق شفته ولهيب ثلاثة بيوت يلعمق السماء"

أراد كوجيمايكين أن يقول شيئاً يواسي فيه تينوف الذي نهشه القلق والخوف، لكنه لم يجد ما يقال، لهذا جلس يرسم دوائر بإصبعه على الطاولة. وتابع تينوف بصوت أجش متوتر:

"أنت لن تصدق ما يحدث في فورغورود. امتلأت الشوارع بحشود كبيرة تصيح بأعلى صوته ومن كل أصناف الناس من روس ويهود، لكن جلهم من الشباب - يلقون خطابات تثير الحشود. وفكرت بأن الأمور ستصل إلى نهاية سيئة، وصعدت المنبر لأعبر عن رأيي: أيها الأصدقاء الطيبون، يا شعب روسيا الطيب، يجب ألا تفكروا بأنفسكم وإنما بمصير روسيا وكل شعبها. لكنهم أنزلوني وشدوني من قدمي ومن ذيل معطفي ودفعوني بعيداً وشتموني بأسماء المثة السود وغيره، ولكمني فتى رقيق المظهر وودود في ظهري، فالتفت إليه بأدب وسألته لماذا وجه لي هذه اللكمة "أهو، إذاً أنت (معتاد) على اللكم، على الأنف، أليس كذلك؟ وخصوصاً كلمة (معتاد). ما رأيك بذلك؟ هل يمكن لشيء أن يكون روسياً أكثر من هذا؟ اعتاد أن يتلقاها على الأنف. فقلت له أنت مخطيء أيها الفتى أنا لم أقصد ذلك. فرد: في البطن إذاً، أليس كذلك؟ حسناً ذهبنا أنا وهو إلى الحانة معاً بعد ذلك وبكيت تقريباً - لبس من اللكمة وإنما من الأذى الذي أصاب مشاعري. دار بيننا حديث صغير اعترف لي فيه بكل شيء وقال أنا آسف أيها الصديق، أنا حمار، وضربتك بلا أي سبب، وأنا خجول من ذلك. فعلت ذلك لأنني تعرضت لشد الشعر واللكم على أنفي كثيراً في مرات سابقة، وأردت أن أكتشف نوع المتعة التي يحصل عليها إنسان من لكم إنسان آخر على أنفه"

رفع تيونوف رأسه ونتاجت لحيته ورأى كوجيمايكين أن لحيته كانت ترتجف.

"لاحظ كلمة متعة، فقط تلك المتعة التي قالها فتى نشيط له قلب من ذهب، لهذا لم يكن فيها ضرر، لا ضرر هذه المرة. لكن بشكل عام؟"

نهض تيونوف واستند على الطاولة.

"أقسم إنني لم أفهم شيئاً يا ماتفي سافيليفيتش. أتحدث مع نفسي وأجادلها ولم أفهم شيئاً. كل ما استنتجته أن القوم أثيروا وحرصوا، لذلك هناك قوى هبت في تمرد وأن الروح الروسية عالية والشعب الروسي ينجمع في حشود عظيمة، لكن لا يستطيع أحد أن يقول لي إلى أين سيؤدي ذلك وما هو المسار الصحيح. لكن يبدو أنني كونت فكرة في مرات نادرة، لكنني لا أستطيع وضع إصبعي عليها. تملؤني الشفقة والدموع الحارقة. هذا كل ما في الأمر. أنا خائف يا ماتفي سافيليفيتش، خائف من أن تصل روسيا إلى الخراب والدمار"

"وأنا لم أفهم شيئاً أيضاً" قال كوجيمايكين بصوت أجوف. ازداد صمتهما وهما يجلسان مقابل بعضهما بلا صوت أو حراك.

"هناك فتاة معينة صغيرة-" بدأ ماتفي سافيليفيتش.

"أعرف تلك الفتيات الصغيرات" قاطعه تيونوف وهو يهز رأسه. مرة أخرى جلسا في صمت.

"يفترض أنني أصبت بنزلة برد" قال تيونوف بعد بعض الوقت.

"استلق" قال كوجيمايكين بعد أن ملّ من النظر إليه، ولم يعد يرغب في يتحدث إليه أحد أو يتحدث أحداً.

ذهب تيونوف إلى الأريكة واستلقى، وكانت ساقاه مشدودتين، لكن بعد دقيقة سرت فيه رعشة فجلس ولوح بذراعيه كأنه يسبح:

"هناك قدر كبير من الكلمات النبيلة التي تحكى في هذه الأيام يا ماتفي فاسيليفيتش ومفعمة بالمعاني، وظهر في المشهد عدد كبير من القلوب

العظيمة والعيون المفتوحة لتلقي كل ما يقال لها؛ كل أصحابها من الشباب. لهذا يجب أن يقال لهم الأشياء بحرص وبساطة، لكن لم يحذرهم أحد. على النقيض تماماً. لقد وصلت الزوبعة وستكنس كل القذارة التي على وجه الأرض إلى داخل قلوبهم المفتوحة"

أغلق عينيه وعاد للاستلقاء على الأريكة، وقال وهو يمدد ساقيه بشكل تشنجي:

"يمكن أن يدمر ويخرب كل شيء. السيد المهذب الذي يسمي نفسه رئيس البلدة- رئيس؟ إنه العكس تماماً. هذا ما يكونه"

يجب أن أهرب بعيداً، فكر كوجيمايكي، حيث شعر بأنه لم يعد يتحمل الإصغاء ولو لكلمة واحدة أخرى. ذهب إلى الأريكة وشرح معتزلاً بأن لديه بعض الأعمال التي سيهتم بها، ما دفع تيونوف إلى فتح عينيه وقال له بيئة المنزعج:

"هل أنا أعيقك وأمنعك عنها؟"

إنه بائس، فكر كوجيمايكي وهو يغلق البوابة وراءه.

تسلل مساء رمادي من التلال الجذباء المقفرة. كان في السماء جرح أحمر فوق المستنقع مثل طعنة عميقة يتدفق الدم منها ويلوث قمم الأشجار ويترك السماء مينة بلا حياة. غربان تنعق بصوت أجش وهو تعود من الحقول إلى أعشاشها. عمال يدقون بمطارقهم بسرعة بعد أن نفد صبرهم من إنجاز العمل اليومي. كانت الشوارع رطبة وفارغة مثل حوض غسيل أفرغت منه المياه القذرة للتو. لم تشعل المصابيح بعد، فكانت اللطخ المظلمة تعبس ببعضها البعض كأنها تتوقع مشكلة.

خرجت امرأة تركض من أحد الأفنية وتتسكى وهي تشد شالها حولها، وتوقفت حين وصلت إلى كوجييايكن وتنقلت من قدم لأخرى بشكل غريب، ثم أحتت رأسها وأطلقت عويلاً وركضت في الشارع وخفها البيتي يرفرف على قدميها الخافيتين. قال كوجييايكن لنفسه وهو يراقبها: هناك شخص يختصر وذهبت لتحضر القس. اندهش من نطقه بالأمر بهذا الفتور. خيم ضباب بارد فوق الساحة المركزية التي رصفت مؤخراً بحجارة الأرصفة الكبيرة. كانت تلمع مثل عيون. انهمر ضوء أصفر من خلال نوافذ ليسون الخمسة وأرسلت خمسة دروب صفر عبر الحجارة.

سمع كوجييايكن خطوات تسرع وراءه. انسحب إلى ظل مدخل إحدى البوابات ورأى تيونوف يظهر من شارع جانبي ويذهب متعشراً في واحد من دروب الضوء ويختفي في الخان.

كان المشرب يغص بالناس مثل جرة مملوءة بالفول، وبدوا مختلفين في ضوء المصابيح الكبيرة المعلقة رغم أنه لا يعرف معظمهم. رأى أنوفاً حمراء ورؤوساً صلعاء لماعة وأذرعاً وامضة وظهوراً مخنية وملتوية؛ كانت هناك مهمة من ثروة مفككة هائجة. في الركن الخاص المحجوز لضيوف مميزين تجمع أغلب مواطني البلدة البارزين حول سوخوبايف ومن وسطهم ثار صوت عالٍ. في الركن المقابل موظفو الدولة يهذرون من بينهم البدين بوكيفياكو رئيس الحامية المحلية ونيمنسيف مساعد رئيس الشرطة ووالد ليوبا بوجهه المتضخم وعينيهِ المنفتحتين.

وقف كوجييايكن في المدخل لبعض الوقت يفتش عن مقعد ويصني إلى المهمة الضخمة للأصوات:

"نورنا بضوء العقل" سمع بوسولوف بنشد بصوت حاد.

"لك ننحني يا شمس التقوى" جاء الرد من صوت جهوري.

دائماً يستخدم كلمات الآخرين، فكر كوجيايكيين الذي لم يلاحظ وجوده أحد، وجد كرسيًا لنفسه في ركن بين خزانة وباب يؤدي إلى غرفة أخرى. جلس وتابع الاستماع وسمع نفس العبارات المتبدلة:

"الأعرج يقود الأعمى" صاح صوت مرح فرد أحدهم عليه مزجراً.

"سدوم وعمورا"

"حكمانا يجعلون من أنفسهم أضحوكة حين لا تكون هناك حاجة إلى ذلك" جاءت شكوى.

"وها نحن الآن، تركنا إلى حيلتنا فقط"

لكن فوق كل الآخرين، سمع صوت تيونوف يصدر صريراً مثل مسحجة صدئة:

"أنا لا أكثر البتة برأيك يا سيدي الطبيب"

"صه!" صاح أحدهم وهو يخط الطاولة بقبضته. هدأت الغرفة لمدة دقيقة وسمع في الصمت أحدهم يتلو بإحساس مبالغ فيه:

"أنا أعرف سبب حزنه

هو يعرف سبب أساي

ظننت انه سيبادر في الدعوة إلى الوليمة على حسابه

وظن هو أنني سأوافق على دفع فاتورة الحساب"

اندلع ضحك قليل ثم عاد الضجيج إلى الغرفة مرة أخرى وتعالّت الصيحات.

"أنا أعرف روسيتنا هذه! لقد رأيتها كلها؛ أنا لست الغريب، إنه أنت -

"

"صه!" صاح بوسولوف وهو ينهض. ردد الكلمة آخرون كثيرون وخذ الضجيج ثانية.

"أنتم لا تعرفون الإرث الثري الذي هو إرثنا بالحق ولا تثمانون سوى القليل في الحياة" أتى صوت نيونوف "الغريب شخص لا يكن الحب لأي أحد وليس لديه الرغبة لمساعدة أخوته"

"وأنت ماذا يمكن أن تكون؟" صاح سوخوبايف.

"رجل"

"رجل؟ خادم أم عامل نظافة؟"

ضحك الكثيرون منهم، وشعر كوجيبا يكين بالأسف من أجل نيونوف. نظر إلى الركن البعيد عبر دخان التبغ الأزرق ورغب بأن يناديه:

"لا تضع وقتك وتهدر أنفاسك!"

لكن في مكان ما وسط الغرفة، من الطاولة التي جلس عليها بوسولوف ورئيس الجوقة أتى صوت واضح منخفض ومتسلط، انجذبت إليه كل الرؤوس وتوترت الوجوه بالإصغاء، أوما الرجال لرفقتهم بالصمت وطلب البعض الهدوء.

"قف على قدميك، نحن لا نستطيع أن نراك"

"بصوت أعلى."

"اهدأوا يارفاق"

"من يكون هذا؟"

"لا أحد يعرف"

"أيها القوم الطيبون أعطونا الفرصة ونحن سنتصب نظاماً جديداً للأشياء سيكون أكثر إنسانية. اتركونا بحالنا. توقفوا عن تحريضنا لحفر أحيان بعضنا البعض وقلمها؛ لا تعلمونا وتقولوا لنا ليس هناك سوى قانون واحد ولا يمكن تغييره. دعوا الناس يجدون قوانين جديدة للعيش في سلام ووثام والتخلص من القسوة-"

تحيل كوجيمايكن أن الغرفة أصبحت أكثر إشراقاً، هواؤها أنقى والتنصت بات أسهل. نظر حوله ورأى الوجوه المنصتة وسمع غمهمات الاستحسان. هو نفسه استسلم إلى الموجة اللطيفة التي ارتفعت بالجو وجملت الحشد يقف وقربت الناس أكثر من بعضهم البعض. شعر باتصال مادي مع الأفكار التي فهمت بسهولة وقوبلت بترحيب، الأفكار التي صهرتهم بجسد واحد. مرت بذهنه ذكرى مؤقتة سريعة لبستان الدبر، قسما الوجه المنحوتة للمبجل ايوان ووجوه الحشد البائسة المنهكة والكلمات الحلوة التي انهمرت مثل دبس السكر في أفواههم المشوّهة التي انفتحت وبدت تطلق صرخات الكرب.

"من هو الذي سيخبرنا بالحقيقة الضرورية لنا كضرورة الخبز اليومي؟ من الذي سيخبر العالم بالحقيقة عنا؟ لا أحد يستطيع عمل ذلك سوانا نحن، ويجب علينا أن نعد أنفسنا لهذه المهمة أيها الأخوة والرفاق. نحن من يجب أن نتكلم ونعبر عن أنفسنا بجرأة ودون أن نخفي شيئاً. دعونا نصب كل آمالنا وطموحاتنا في قلب واحد عظيم وندعه يغني أغنية عنا بكلمات من إبداعنا!"

"شكراً لك أيها الشاب!"

أضحى الحشد أكثر هدوءاً وضغط باتجاه الجدار حيث الوجه الذي عليه ندبة وعين مدورة لعراف ارتفع فوق الآخرين كلهم. لكن صوت سوخوبايف رن على الفور عالياً وخشناً:

"رجال البلدة الزملاء! وأنتم يا موظفو البلدة! ماذا يحدث هنا؟ لا أحد يعرف من هم هؤلاء الناس الذين يأتون إلينا ويقولون كل ما يحبونه ويهجون الناس، بينما في الحقيقة ليس هناك أحد يعرف أي شيء-"

"على الأقل نحن نعرف من تكونون أنتم-لصوص كلكم!"

"ماذا تقول؟"

"أنت سمعني"

"قلها ثانية"

"بكل سرور"

وفوراً كان كل شيء يلف ويدور ويتحرك بهياج ويصرخ ويزعق ويندفع ضد كوجيمايكين؛ حاول مذهولاً أن يصل إلى الجدار حيث كان يقف المتكلم:

"لا تقتربوا مني!" صاح سوخوبايف.

تخبطت المقاعد وتكسرت الأطباق وسحقت القطع تحت الأقدام. أطلق أحدهم صفرة ناعبة للأذان وآخر أمسك بكوجيمايكين من يافته ولحيته وسخر منه وهو يصرخ:

"تفرجوا! هذا نموذج منهم! انظروا كلكم!"

"دعني وشأني" قال وهو يلهث ويصارع ليحرر نفسه.

علق الاثنان في الحشد الذي حملهم ودفعهم إلى الدرج ومنه إلى الساحة التي أمام النزل. انتزع كوجيمايكين نفسه من يدي الإسكافي وشق طريقه

عائداً إلى الدرج وقد صبغه الإنهاك والإثارة. استدار ليواجه الحشد. ومن خلال الهدير الذي في أذنيه سمع شخصاً يصرخ:

"لماذا ضابقته بحق الشيطان؟"

"هم يقولون إنه يقرأ كتباً عن السحر الأسود- هو الشخص الذي سلبه سوخويافييف ماله"

"هو من ترك للبلدة كل أملاكه ليبنى لها مدرسة"

أمسك فتى ذو وجه عريض بيد كوجييايكين وهزها:

"لقد ارتكب خطأ ذلك الغبي الأحمق" قال معتذراً.

وصل إليه بوسولوف وبراشكين وتيونوف، لكنه لوح لهم بالابتعاد ونادى بالحشد قائلاً:

"أيها الأخوة، زملائي أبناء البلدة! هؤلاء القوم الشباب أتوا طاهرين كالملائكة ليخبرونا عن الكلمة غير المعروفة، ليتكلموا لنا عن حقيقة الرب، ويجب علينا أن نصفي بانتباه جم وقلوب مفتوحة. لديهم إحساس بالحقيقة التي جاءت من الرب. يجب أن نستمع إليهم بهدوء وبانتباه متأن وعقول مفتوحة. وماذا لو أننا لم نعرفهم، ما المشكلة؟ نحن لا نعرفهم لأنهم يبحثون عن الحقيقة ويحملون التقوى في قلوبهم، تقوى لا علم لنا بها"

"صحيح أيها الأب!" أتى صوت من الأسفل.

"نحن عشنا حياتنا كما لو كانت حلمًا. لم نفعل أي شيء من أجل أنفسنا أو من أجل الآخرين والآن أتى هؤلاء الرجال الشباب ليحلوا مكاننا" رسم إشارة الصليب على نفسه بايلاء واسعة.

"نسأل الرب أن يساعدكم كي يحيا حياة تختلف عن حياتنا ويجنبهم المرارة التي أكلت عظامنا. ليكن الرب في عونهم كي يجدوا الطريق الذي يؤدي إلى التقوى-تلك هي أميتنا لهم"

انزلت الشرفة من تحته وثار التراب للأعلى، انهار فوقه وأسقطه على الأرض.

حين عاد إلى وعيه وجد نفسه في سريره في البيت. كانت الغرفة مضاءة بشكل ساطع جداً لدرجة نأذت عيناه فيها وكانت النوافذ مخملية داكنة. كان المغني المنهك ذو الصوت الصادح ملتفاً على سرير الموقد ومقابل شاب متغندر نحيل كان يمشي ذهاباً وإياباً في الغرفة ويداه في جيوبه وعلى وجهه المزري نظرة ازرداء. كانت ليويا تجلس إلى الطاولة تقول له وهي تبسم:

"أنا لا أصدقك"

أخرج الشاب النحيل ساعته من جيبه ونظر إليها:

"إذا أنت لا تصدقيني؟" قال.

"كلا، لا أفعل"

أطبق الساعة فجأة.

"آسف جداً لسماع ذلك" زجر "هل أرسلت بطلب الدواء؟"

أومات ليويا برأسها دون أن تحول عينيها عنه، وعاد ليزرع الغرفة ذهاباً وإياباً مرة أخرى، وهو يجرد قدميه بصورة متكلفة.

اعتدل المغني صاحب الصوت الصادح في جلسته ووضع يديه في جيبه أيضاً.

"لماذا نعتقد بمثل هذه الأشياء يا دكتور؟" قال.

"لأنني اخترت ذلك" رد وعيناه مثبتتان بالأرض.

لم يتحرك كوجيمايكين. راقب الأشخاص الذين في الغرفة عبر جفنيه، ونحاشى النظر إلى المربعات السود في النوافذ.

لقد مرضت ثانية، قال لنفسه وهو يصغي إلى نبض قلبه السريع ويشعر بضعف غامر في كل جسده وحتى في أصابعه.

"هل أنا مريض يا ليوبا؟" سأل بصوت مسموع وواضح وبأقصى استطاعته، لكنه دهش كأنها لم تسمعه ولم تحاول الرد. تلفظ بأعين مرة أخرى. وفي هذه المرة قفزت وأنت إليه بسرعة، وجاء إليه الطبيب دون أن يسرع خطاه مما جعل كوجيمايكين يكرهه.

"ما الأمر؟" سألت ليوبا وهي تضع أذننا على شفتيه.

"اسمحي لي" قال الطبيب وهو يدفعها بعيداً. مرة أخرى أخرج ساعته وزم شفتيه كأنه يوشك أن يصفر. كان وجهه مصفراً شاحباً وله شارب داكن رفيع تحت أنفه الكبير. عيونه خضر، حليق الذقن ومال ذقنه ووجنتيه إلى الزرقاء. هناك شيء قاسٍ وآثم حول رأسه المدور المغطى بشعر أسود ناعم.

"كل شيء واضح" قال حين وضع يد كوجيمايكين على اللحاف بحذر مبالغ فيه مهيناً المريض "لهذا سيكون ذلك كل شيء يا آنسة -"
"ماتوشكيننا"

"أصر على مناداتك بباتيوشكيننا، اسم أكثر انتشاراً وشيوعاً. إذا ستذكركين كل شيء"

"طبيعي"

"حسناً إذاً إلى الغد"

تكلمت ليوبا بنغمة عالية ومقتضبة لم تعتد عليها، وتكلم الطبيب بدقة مثيرة للغضب كما لو كانت كلماته أرقاماً.

حين ذهب، فتح كوجيمايكن عينيه. أراد أن يأخذ نفساً عميقاً فلم يستطع: شيء في صدره كان ينخره بحدة كلما حاول ذلك.

جلست ليوبا بجانب السرير وضربت يده ضرباً خفيفاً.
بعد أن استجمع قواه قال لها:

"ما المشكلة معي، هل أنا أحتضر؟"

"يا إلهي، كلا!" صاحت وقد جفلت وأسقطت يدها "ما الذي يجعلك تفكر بشيء كهذا؟"

"قلبك ضعيف فقط" قال المغني ذو الصوت الصادح "ليس هناك شيء خطير"

"يجب ألا تفعل أي شيء" أضافت ليوبا.

"أنا لم أفعل أي شيء أبداً" قال وهو يحاول الضحك.

تدحرجت الأرض ومالت الجدران وبات رأسه يدور. أغلق عينيه مرة أخرى. كان الجو هادئاً لدرجة اشتاق فيها لأن يسمع صوتاً ما ولو حتى تكات الساعة لكن الساعة توقفت.

"ألا تحبه؟" سأل المغني بعد فترة.

"كلا، هس، ليس بهذا الصوت العالي"

رغب كوجيمايكن أن يطلب منهما التكلم بصوت عال كما يجبان، لكنه خشي أن يتوقفا عن الكلام لو فعل. ركز أذنيه ليلقط الكلمات التي كانت تهز الصمت بصعوبة.

"الناس يعلنون الآن عن أحزانهم القديمة جداً ومشاقهم في السوق"
همس الشاب "من الطبيعي أن يأخذوا مواقف مختلفة من الأشياء. الشيء
الأساسي أن يعرفوا ويتعرفوا على بعضهم البعض وأن يعترفوا أن هذا النوع
من الحياة سيء لكل شخص منهم على حد سواء. سيحاول بعضهم القول
"الحمد لله أنا ميسور وفي وضع جيد. تلك حماقة، ليس من الحكمة الخجل
من ذلك، يجب أن نعترف بصدق أن كل شيء سيء وسيء لكل شخص"
دخل تيونوف وانضم إلى الهمس.

"فكر في بلادك، أقول بروسيا. انظر نحن نبنى كاتدرائية جديدة وأنت
تظل تتحدث عن مسلخ"

تمت ليوبا ببعض الكلمات التي هدأته. بدا بياض عينيها أكثر سطوعاً
والقزحيتان أكثر سواداً. تصرفت كما لو كانت مدبرة المنزل وأصبح شاكر
مكرساً لها ولإلهاج كوجيامكين. رحل عنه النعب الآن وأصبح قلبه ينبض
بقوة أكبر.

جاء سوخوبايف لزيارته في صباح اليوم التالي. مسح المريض بنظراته
كأنه يستذكر قياساته.

"ليس بك شيء سوى الدوار" علق قائلاً.
جاء فانيا خريابوف وأعلن بحزن بأن جده مريض جداً أيضاً. تنقلت
ليوبا في الغرفة بشكل قلق لمدة دقيقة وخرجت.

تبارك قلبك، قال كوجيامكين لنفسه وهو يراقبها وهي تذهب، أنت
تجلبين السعادة لشخص ما دائماً.

توالت الأيام كأنها عرض عسكري بخطوات طويلة وضجة وانشغال،
تعد بشيء أفضل منتظر.

كل يوم يأتي لزيارة الرجل المريض براشكين وتيونوف وأصدقاؤهما ويتجمعون في غرفة بيلاجيا وي طرحون نقاشات حية ونشطة. كان البيت أشبه بخلية نحل وليوبا ملكتها. كانت تصفي لكل واحد واحد وتبتسم لكل واحد وتقدم لهم الشاي كما أصلحت معطف براشكين الممزق ووضعت رقعة على فروة تيونوف، وظلت تأتي راکضة إلى الرجل المريض لتسأله:

"تشعر بأنك أفضل، أليس كذلك؟"

"أفضل بكثير" كان يرد قائلاً.

شعر بأنه في حال أفضل، لكن الطبيب منعه من النهوض. في حضور الطبيب يطغى على ليوبا تبدل غريب. كان تمشي بشكل منتصب كجندي: صدرها مشدود، شفتاها في خط رفيع، عيناها تلاحقانه بعدم استحسان. كانت تجيب على أسئلته بارتباك. حين كانت تقول له "نعم" كان الانطباع أنها تناقش النقطة. راقبه كوجيمايكين بعين عدائية وكان يتنفس الصعداء حين يخرج. كان يلبس قبعته الطرية في الغرفة دائماً، يشدها وينزلها فوق جبينه وأذنه اليمنى. الغريب جداً أن الطبيب لم يعلق على ما يجري في البلدة، وحين سئل عن ذلك أجاب باختصار وتردد كما لو كان للكلمات طعم سيئ. لم ينم وجهه الهزيل عن فرح أو خوف أو استغراب. لا شيء مما جربه أي واحد في ذلك الوقت. لعيونه تعبير ممل مشنت ويداه تلمسان الأشياء بحذر وبإزعاج حتى. وجده الناس مملاً ولم يقدروا أن يتحاشوا التفكير بأنه لا يمكن أن يحدث شيء جيد في حضوره.

لو أنه لم يفر ليوبا فقط، فكر كوجيمايكين بقلق، يا ساتر، احرسها يا رب.

استيقظ في صباح أحد الأيام مبكراً وهو يشعر بأنه في كامل عافيته تقريباً، لبس أجمل ثيابه ثم أيقظ شاكر وقال:

"ساعدني على الكرسي يا شاكر، نسبت كيف أمشي"

أمسكه شاكر من يده وقاده إلى النافذة وعيناه ترمشان ويتمتم بسعادة:

"هيا لنذهب. سيبدأ الإزعاج كله مرة أخرى الآن"

جلس كوجيايكي. حلق بالأشجار ورسم إشارة الصليب على نفسه.

"هيه، شاكر، دعني أقبلك"

سقط التري على عنقه وبكى.

"حسناً" قال كوجيايكي مهدئاً صديقة ومربتاً على خده الشائك

"سنستمر في العيش أطول قليلاً إن شاء الله. كم أنا مسرور لأنني أقف!"

"أدعو الرب أن يهبك أياماً سعيدة أخرى" تمتم شاكر وهو يتكلم بشكل متقطع أكثر من قبل في قلق وخوف. "يسر الرب وجود رجال صالحين له، فليس لديه الكثير منهم"

ابتسم الصديقان لبعضهما. رغب الرجل المريض أن يأخذ نفساً عميقاً ويملاً رئتيه حتى الانفجار لكنه خاف.

"أتري يا شاكر؟ لقد عشنا لنرى ولادة بعض القوم الصالحين وقدمهم إلى هذا العالم" قال.

"نعم، نعم" أوما التري "شبان. قوم صالحون جداً"

"ما هو رأيك بليوبا؟"

فتح شاكر فمه وضحك الضحكة المرحطة الطيبة، ضحكة الأيام الخوالي:

"النساء الروسيات أفضل نساء"

فتح الباب بهدوء ووقفت ليوبا هناك تلف رأسها بشال ممزق.

"لماذا قمت عن السرير؟" سألت مذعورة.

"قمت لأنني قمت" رد كوجيمايكين مازحاً.

انفجر شاكر بالضحك وانحنى كثيراً، وأمسك بركبتيه بكلتا يديه.
حلت ليوبا شالها ببطء وأتت نحو النافذة وجلبت معها هبة من الهواء
البارد. كانت رموشها تلمع بالصقيع وخداها محمران لكن عينيها كانتا
منفختين وفيهما حزن.

"ما المشكلة؟" سأل كوجيمايكين بقلق.

ارتعش صوتها ونزلت رموشها. تحسر كوجيمايكين بلطف وأخذ يدها:
"هل مات خريابوف؟"

أومأت برأسها وجلست على مسند مقعده.

"في الساعة الثالثة من هذا الصباح"

كان الخبر غيمة رمادية طفت عبر السماء الزرقاء في يوم ربيعي.
خافت أن تخبرني وحاولت أن تجنبني ذلك، فكر كوجيمايكين.

"نسأل الرب أن يمنّ على روحه بالسلام والسكينة" قال بصوت عالٍ،
وهو يرسم إشارة الصليب على نفسه "سأكون أنا التالي"
"أوه، كلا" صاحت قائلة.

سرته كثيراً صيحة الاحتجاج التي أطلقتها، وشعر أنه يجب أن يقول
شيئاً آخر عن خريابوف. شرد بتفكيره لكنه لم يكن يفكر بخريابوف وإنما بها
وهو يحرق بوجهها الشاحب وعينيها الحائرتين، ثم التفت إلى النافذة:
"كان الأمر صعباً جداً عليه لكي -لكي" تمتمت بلين.

"لا يموت" أكمل العبارة عنها.

"نعم، فطيع ومرعب"

وجهت نظرة مرعوبة نحو كوجييايكين ثم تكلمت بحرية أكبر:

"هل تتذكر كيف كان يقول: أنا أمزح فقط؟ قالها آخر مرة عند منتصف الليل، وبعد ذلك بقليل بدأ يقذف نفسه هنا وهناك ويصبح (أبعدوها! أبعدوها!). سماعه كان مخيفاً جداً"

"أبعدوا ماذا؟"

"لا أعرف، لكن فانيا حمل كل الأشياء من الغرفة إلى الخارج ونقل الأثاث أيضاً"

"هل بكى فانيا؟"

"نعم، ليس كثيراً، كان مرعوباً"

"وأنت؟"

"أنا" فكرت للحظة "كان الأمر مرعباً وهو يحتضر، وحين انتهى كل شيء شعرت بالغضب. لماذا عانى هذا العذاب كله؟ لم أستطع فهم ذلك. بد لي الأمر قاسياً جداً وغير ضروري"

جذب كوجييايكين نفسه بعمق ويطء فانطلق ألم في قلبه وشعر بدوار في رأسه.

"أحسد الذين سيكونون قريبك" قال وهو يعصر أصابعه "أصلي للرب أن يعطيك القوة لتمدي يد العون لهم كلهم"

بعد يومين كان يمشي في الشارع خلف جثمان خريابوف بمساعدة ليوبا. لف البلدة ضباب خريفي، تجمعت نقاط ماء كبيرة على أطراف الأغصان

الجرداء، وسقطت على الأرض بقوة، وتجمعت حبات الرطوبة على ثياب الناس والنعش مثل نقاط من الزئبق. لم تكن الجنازة كبيرة؛ إذ لم يتجاوز عدد الذين مشوا وراء نعش المرابي، الذي ركعت البلدة كلها أمامه حين كان حياً، العشرة أشخاص. وقد حمل التابوت الثقيل المصنوع من خشب السنديان حملة جنائز مستأجرون.

يبدو أن أهل البلدة كلهم شاركوا في الجنازة التي كانت بلا عرض أو فرقة كورال، حتى لكنهم ظلوا على مسافة معينة بعيداً عنها. في كل الشوارع وكالحشرات فوق سطح بركة اندفع مواطنون متشوقون، مجموعات من أشخاص في ثياب بالية تجمعوا أمام ذا ليسون، وفي شرفة الكاتدرائية يطنون مثل يعاسيب وعلى وجوههم نظرات مترقبة. شرطيون من الخيالة متخشبون مروا على خيولهم ويمسكون أسواطاً في أيديهم اليمنى المسبلة. الشرطي كابينوكين هام في الضباب؛ إنهم ثملون تصادفهم في كل مكان. مرّ سوخوبايف في عربة يجرها حصان مرقط وقد ضيق عينيه الحادتين كأنه يبحث عن شيء. رجال ونساء وثبوا فوق البرك وذهبوا مسرعين وأطراف معاطفهم ترفرف مثل أشعة في الريح، أصوات بشرية ملأت الجو. صممت مطارق صناع البراميل - شيء غير عادي في أوكوروف. حتى البيوت بدت وقد فتحت نوافذ عليائها لتصفي إلى الصوت الضائع ولا تسمعه، وحدقت ببعضها في دهشة. على عيونها المربعة غشاوة الرطوبة. عثم الضباب الخطوط الثقيلة لبرج الكاتدرائية الذي يقحم في قلب السماء عادة بلون أحمر. كان اليوم رمادياً وغير واضح.

من فوق كتف خريابوف لمح كوجيمايكين إكليلاً ملوناً على جبين الرجل الميت وجدائل شعر أصفر تلتصص من تحت الإكليل وشاهد يديه المزرقتين

المطويتين تحت معطفه الطويل الأسود. بدا خريابوف في تابوته ملائماً
للمناسبة. أقفلت عيونه الحمر الدامعة بإحكام، أخفيت أنيابه تحت شاربه
وتلاشت ابتسامته الحقودة والتوت الآن شفتاه الغائرتان في ابتسامة كانت
مختلفة - أكثر ودية واعتذارية وبدت كأنها تقول: حسناً ها أنا قد مت أخيراً.
لم يتكلم أي واحد من الناس الذين كانوا في موكب التشييع عن الميت،
واكتفوا بالحديث عن شؤون البلدة. لكن بين الحين والآخر كانت تظهر
مجموعة من الحرفيين فجأة من الضباب وتحيط بالتابوت وتسال:

"من يكون الميت؟"

"خريابوف"

"المرابي؟"

"نعم"

"لقد مات أخيراً، أليس كذلك؟"

تلفظ بعضهم بعبارات فاحشة، وجاء بعضهم إلى الرجال الذين في
الموكب وسألوا مازحين:

"أليس في مقدوركم أن تقدموا قرباناً بثمن شراب باسم الميت؟"

كانوا يتلاشون ويظهرون ثانية مع تسولهم. أسرع الأب ألكسندر على
رأس الموكب، وقد رفع الصليب بيده عالياً. وكان يتوقف بين الفينة
والأخرى ليقول شيئاً، وسمعه مرة يقول:

"قبعتك - اخلع قبعتك!"

رد عليه صوت مزجر:

"سوف أخلمها من أجل الصليب وليس من أجله هو"

"لا يعرفون كيف يهذبون أنفسهم" قال كوجييايكيين لتيونوف الذي بدا مثل عصا متفحمة أكثر من أي وقت مضى لكنها الآن رطبة ومبللة. "إنهم مثل كلاب الصيد الصغيرة التي حبست وربطت بقيد طويلًا، والآن أطلق سراحها، فاندفعت هنا وهناك لترى إلى أي مدى يمكنها أن تذهب. هم لا يفهمون" توقف قبل أن يضيف: "ولا يتوقع منهم أن يفهموا. الرجل الأعمى يحدث بعض الأضرار حين يتنقل متلمساً دربه في الظلام"

شعر كوجييايكيين أن في كلماته بعض الحقيقة. كان الناس مبتهجين عمداً وصاخبين، وقد تعمدوا الضرر، وكانوا فظين بشكل متحدٍ. لقد تنشقوا كل شيء وجربوه، لكن جرأتهم تنقصها الثقة، وخلف ابتساماتهم الساخرة وصيحات التحدي يبدو للمرء أنه يسمعهم يقولون:

"هل يمكنني؟"

تظاهر الكثير منهم بالسكر أكثر مما كانوا عليه. طوقوا بعضهم البعض بأذرعهم وترنحوا أو وقفوا في وسط الشارع يحبون موكب الجنازة بأغان زاعقة وخشنة. تفرج عليهم أصحابهم باستغراب، لكنهم لم يفعلوا شيئاً لإيقافهم. وهكذا، وهم مكدرين ومرتبكون، توقفوا في وسط الأغنية وابتعدوا متسللين.

اثنان من مثيري الشغب هؤلاء اقتلعا عمود إنارة وسارا به أمام الجنازة على الرصيف. لحق الموكب بهم دون أن يكلمهما أحد. ورأى كوجييايكيين الشابين يرميان العمود دون أن ينظرا إلى بعضهما، ومن ثم يختفيان في الضباب.

ومضت عين تيونوف الوحيدة وقال بصوت يشبه الفحيح:

"مع ذلك ستبكي القطعة على الفأرة"

أخذوا خربابوف إلى المقبرة ودفنوه. عندما انتهى كل شيء، خلع الأب ألكسندر ثياب الصلاة بسرعة، ووضعها، ولبس رداء الكهنوتي الأسود الطويل، وحدث في الناس بعينه الضخمتين. شدّ قبعته المجددة فوق أذنيه، ومشى مسرعاً وخفيفاً بين القبور. ذكرت مشيته كوجياماكيين بفرار طائر مذعور.

ذهب كوجياماكيين إلى ركنه في المقبرة، وجلس على منضدة تحت الخيمة الخضراء التي شكلتها شجرة التنوب التي غسل المطر أغصانها الممتدة. انحنت أغصان بتولا صغيرة على الرابيتين بحزن، ولمع عشب غير مقصوص ولآلى من الرطوبة طوقت القبرين.

جلست ليوبا بجانبه وقد تدلى رأسها نحو الأسفل. قال كوجياماكيين بحسرة وهو يضع يده على كتفها ويمسك باليد الأخرى جذع شجرة البتولا الناعم:

"هذا هو الشيء الجيد الوحيد الذي فعلته في حياتي - زرعت هذه الأشجار الخمس"

"هذا غير صحيح" قالت برفق.

"بلى. يرقد هنا جندي بسيط يا ليوبا، لكنني أدركت الآن أنه كان رجلاً عظيماً"

رفعت رأسها والدموع في عينيها، وأمسكت يده، وقالت بصوت عالٍ:

"يجب عليك أن تهتم بنفسك إلى أقصى حد، كي تستطيع الكتابة عن حياتك كما كانت وكما لن تكون مرة أخرى أبداً". ثم شددت على يده متأثرة، وأخفضت صوتها إلى حد الهمس: "إنه ميت الآن، الكل يعرف كم كان بخيلاً وجشعاً، لكن لا أحد يعرف كم عانى وتعذب - لا أحد. كان يقول: لم يعلمني أحد قط أن أكون لطيفاً، وكانوا على حق لأنهم ربوني لأكون مصاص دماء. لم يكن يمزح حين قال ذلك - أوه، كلا! أنا أعرف أنهم لن يتذكروا منه إلا الشر، وبذلك الطريقة سيضاعفون الشر؛ أليس كذلك؟ كل واحد يستمتع بتذكر السيء: لكن السيء لم يكن كل شيء فيه. لا ينبغي أن نتكلم عن الشخص كله وبأقصى قدر ممكن عن السيء الذي فيه - ينبغي أن نتحمل عناء البحث عن الجيد، أليس كذلك؟"

التفتت إليه بنظرة تنقل أفكاراً وتبحث عن أفكار في الوقت نفسه.

نهض كوجيمايكين:

"نعم، ينبغي علينا" قال.

خلع قبعته، انحنى للقبرين. وبلهجة هادئة عادية قال لها وهو يضرب الأرض بجزمته:

"ضعوني بالطول - هنا، عند أقدامها؛ لا تنسي. أتوسل إليك. وازرعني شجرتين. والآن دعينا نذهب يا عزيزتي"

انحنى ثانية لكومتي التراب الشائكتين بعشب غير مقصوص، ثم مشى مبتعداً، صامتاً وحزيناً، وإلى جانبه ليوبا.

منذ ذلك اليوم استغل كل وقته في ملء دفاتره بوصف الحياة في أوكوروف وتقييمها. في النهار لم يسمح له بالجلوس طويلاً إلى مكتبه. وفي

كل الأحوال كان بيته يغص بالضجيج والناس. كان يكتب في الليل، في الصمت الذي كان يصفي إليه بانتباه كلما بحث عن كلمة. وأصبحت خربشة قلمه موسيقى لأذنيه: كانت تهدي قلبه التالف الشائخ، وكان يبكي أحياناً من الفرح حين يرى الكلمات الرطبة المدورة التي كتبها لتوه تنظر إليه من الورق.

”أرسل الرب الإنسان إلى العالم ليفعل الخير ويزين الحياة بالعطف والرافة. من أجل ماذا عشنا؟ ماذا فعلنا من أعمال تستحق امتنان زملائنا البشر وابتسامة استحسان من خالقنا؟“

من التعبير المرسوم على وجوه الناس الذين كانوا يرتادون إلى بيته بانتظام، ومما يقولونه، ومن النظرة القلقة لعيون ليوبا، أدرك أن القلق يزداد، وأن هياج الناس يتوسع ويتشر أكثر فأكثر، وبنفس الدرجة ازدادت لهفته إلى تدوين أفكاره. رنت الكلمات في أذنيه مثل ضجيج أجراس بعيدة تجلب أخباراً مفرحة عن حياة جديدة معدة وغبابة.

نحن كذبنا على الرب نفسه لنخفي كسلنا وعدم رغبتنا البليدة بأن نعطي من أنفسنا ليكون العالم مكاناً أكثر بهجة للعيش. لقد رسمنا الرب بألوان كالحة وكثيبة، وسرقنا منه حبه لمخلوقاته عمداً لكي نلقي اللوم عليه، فأصبح قائماً ومبهماً في الحقيقة، ولهذا أصبحت الحياة شراً مخيفاً يلفه الغموض.

لكن ظهر الشغيلة الجدد الذين امتلأت قلوبهم بحب الأرض التي لطخناها، سيحفرون بمحاريث حية عميقاً في داخل التربة، ليصلوا إلى

قلوبها نفسه، وستبزع شمس جديدة، وتنشر دفنتها وبركتها على الكل،
وتصبح الحياة سعادة في الحال.

أطفال قاطني العالم إلى آخر الزمن، أطفال الرب الأعلى، هؤلاء القوم
الشباب خالدون وورثة كل أعمالنا البطولية الماثورة، سيتبعون نداء قلوبهم
الطاهرة إلى أبعاد لانهاية من الزمن، وينثرون فرحهم وضحكهم وحبهم
فوق الأرض.

ماذا لدى العالم ليقدمه مقارنة بأطفالنا، بقضائنا العادلين المستعدين
لتعليقنا وتبريرنا كلما كان ذلك ممكناً، لتقبل أفعالنا بامتنان أو شجبها
بخجل؟

الشباب هم قلب العالم من خلال طهر أرواحهم وطموحهم نحو الخير،
أصغوا إلى ما يجب أن يقولوه لنا، وبعد ذلك تصبح حياتنا مثل مشاعل تلقي
الضوء والفرح على الأرض. ومن ثم سنبارك الأرض التي سنصبح معبداً
للخير الكوني.

خلال فصل الشتاء كله، وهو غير مدرك لعواصفه الموحشة، حدق في
المستقبل عبر القبر المفتوح عند قدميه. كتب أنشودته الدينية واعترافاته،
كأنه كان يطلب المغفرة من الناس الذين مر بهم وتجاوزهم على الجانب
الآخر، يطلب المغفرة لنفسه ولكل الذين أهدرت حياتهم المملة الجمال على
الأرض.

وباقتراب فصل الربيع نادته الأرض إليها.
حدث ذلك في صباح يوم من أيام شهر أيار الأولى. نهض عن السرير
وذهب إلى النافذة، فتحها واستنشق عطر الليلك والأكاسيا، ووقف يحملق
في السماء الوردية.

أنهى جرس الدبّر رنينه من أجل الصلاة الصباحية، وكان الهواء يرتجف قليلاً؛ حيث امتص اهتزازات الجرس النحاسي الناعمة، وطنين بعوضة كانت امتداداً للصوت.

ترصعت أوراق الأشجار الصغيرة والأعشاب الريانة بالندى الذي نثر ألف انعكاس لأشعة الشمس الأولى. بدا البستان كله مرشوشاً بمسحوق من الباقوت والزمرد.

تنهدت نسمة في الأشجار، نادى طيور الفجر بعضها بعضاً، حفت الأغصان ونفضت عنها الندى. كان كل صوت من الأصوات عميقاً ومميزاً في جو الصمت المطبق، وشكلت معاً كلها غنمة مديح للشمس المشرقة.

رسم العجوز إشارة الصليب على نفسه، وهو متأثر بجمال اليوم الجديد الوليد، وتتم بالصلاة التي تتلى بعد تناول القربان المقدس:

"أشكر يا مولاي لأنك لم تطردني من حضرتك ولم تشح بوجهك عني أنا الآثم، وأشكر من أجل تواضعك في كشف أسرارك المقدسة لي"
شاكر الذي كان نائماً على المنضدة رفع رأسه وقال:
"ماذا تريد؟"

"لا شيء يا صديقي؛ عد إلى النوم" قال كوجييايكين، لكن شاكر نهض وجلس على طرف المنضدة مستنداً على يديه:

"أنت بحاجة إلى النوم" قال وهو يهز رأسه مستكراً "أنا سوف أخبرها، ثم أنت -"

دخل نسيم بارد من النافذة، فشمع كوجييايكين بدوار وضعف بغطياته، وقال: "انظر كم هو جميل هذا الصباح!". ثم غاص في كرسيه ذي

الذراعين. ارتفعت كتل خضر من السديم وسقطت وراء النافذة؛ ضرب رقبته وصدره وهو يراقب تراقص الضوء عليهما. خبا الضوء من الكتل السديمية، وحلقت السماء نحو الأعلى، وغار جسده المنهك والثقيل نحو الأسفل وتأرجحت ذراعه من كتفيه بلا ألم كما لو أنها أزيلتا من مكانها وتمتم: "شاكر - يا صديقي العزيز -" بتلك الكلمات توقفت دقات قلبه إلى الأبد.

ملاحظات غوركي

طبع "حياة مانفي كوجياماكين" لأول مرة في "مختارات جمعية زنزانبا" الجزء الأول في الكتابين ثلاثين وواحد وثلاثين في عام ١٩١٠ والقسم الثاني في الكتاب الخامس والثلاثين عام ١٩١١ والقسم الثالث في الكتاب السادس والثلاثين عام ١٩١١ والقسم الرابع في الكتاب السابع والثلاثين في عام ١٩١١. نشر كل جزء من رواية مكسيم غوركي بشكل منفصل في برلين (١٩١٠-١٩١١).

خطة حياة مانفي كوجياماكين شبيهة بكتب غوركي الأخرى: "بلدة أوكوروف الصغيرة" الذي نشر عام ١٩٠٩. هناك آراء مختلفة حول ما سمي "بدائرة أوكوروف" من كتابات غوركي. يعتقد بعض الباحثين أن نية المؤلف الأولى كانت أن يكتب ثلاثية تآلف من "بلدة أوكوروف الصغيرة" و"حياة مانفي كوجياماكين" و"حب كبير"؛ بينما يؤكد بعض آخر أن المؤلف خطط الرواية لتكون عملاً واحداً من ثلاثة أجزاء. في كل الأحوال لم يكمل غوركي سوى اثنين من هذه الأعمال، "حياة مانفي كوجياماكين" و"بلدة أوكوروف الصغيرة" أما "حب كبير" فليس لدينا سوى مقتطف قصير منها.

هناك ترابط بين "حياة مانفي كوجياماكين" و"بلدة أوكوروف الصغيرة" ولهما اتجاه مشترك في حبكتيهما ويتحدان بشخصيات مشتركة

وأماكن. يقصد المؤلف في كلا العملين تعرية جذور النزعة المحافظة، ورسم صورة تاريخية واجتماعية متكاملة لروسيا النائية مع نزعتها المحافظة، واختصارها الروحي، قبل بضعة عقود من ثورة أكتوبر.

في البداية خطط غوركي ليجعل "ماتفي كوجيمايكين" "قطعة صغيرة وقصيرة" تشمل كما هو واضح: تاريخ بلدة أو كوروف الصغيرة في وصف "مدونها" ماتفي كوجيمايكين. ذكر غوركي هذه الفكرة في صيف عام ١٩٠٩ لإيفان بونين، الذي رد عليه كتابة بعد بضعة شهور: "ذلك العجوز الصغير خاصتك يثير مشاعري بشكل خاص كما فعلت روسيا القديمة وتاريخها"

حين جلس غوركي ليكتب "ماتفي كوجيمايكين" أدرك التعقيد الذي ينتظره، وبدأ بسمي الكتاب رواية. "أنا أكمل رواية [...] أعمل اثنتي عشرة ساعة في اليوم!ظهري يؤلني [...] أنا أدفع بقصتي بسرعة، وأريد أن أنهيا في نيسان، لكنها تكبر وتنمو مثل نبات القريبون في كابري... أكتب حين أكون جالسا أو واقفاً، وأرى استمرار القصة في خيالي.... تنهال العشرات من نماذج الروس فوقى ويطالبونني بضمهم إلى العمل! يقولون إنهم أناس طيبون وأضاعوا حيواتهم أيضاً. أرجوهم أن يكفوا عن ذلك، وأقول: يا أخوتي أنا لست مؤرخكم. لكنهم بصرخون: من سيكون مؤرخنا إن لم تفعل أنت؟ انظر يا رفيق إلى ما يفعله هؤلاء الكتاب لنا، لروسيا؛ لقد نسونا تماماً. راهبات وعمال حبال ومتشردون ومواطنون آخرون من أكوروف يتوافدون إلي بلا انقطاع..... أشعر أنه من الصعب أن أتمكن من تدبر أمورهم"

بدأ غوركي العمل على "ماتفي كوجيمايكين" من شهر تشرين الثاني ١٩٠٩ إلى أيلول ١٩١١ وأجرى تصحيحات على النص مرتين في عام ١٩١٣ وعام ١٩٢٣ عند التحضير لطبعات جديدة. وفي المناسبة الثانية قام بتصحيحات هامة، لم يسلم منها سوى عدد قليل من الصفحات. أراد غوركي أن يزيل كل الأشياء الزائدة ويحسن الأسلوب القصصي. وخلال هذه المراجعة أعطى العمل اسم "حياة ماتفي كوجيمايكين" بدلاً من اسم ماتفي الأصل.

كان غوركي يكن شعوراً خاصاً نحو كوجيمايكين. في رسائله عام ١٩١١ إلى من يرسلهم وهم متنوعون، ظل يشرح بحماس كيف أراد للكتاب أن يُقرأ على نطاق واسع، أتمنى أن يقرأ الشعب كوجيمايكين، كتاب بذلت جهداً كبيراً عليه واعتبره عملي الأهم.... اعتقد أنه كتاب نحتاجه الأمة....."

يرسم غوركي في هذا الكتاب صورة لبلدة أوكوروف لمدة تزيد على نصف قرن - منذ إلغاء نظام القنانة حتى ثورة عام ١٩٠٥

يحكي غوركي تاريخ أوكوروف ويصف تنامي البورجوازية الصغيرة التي أصبحت أقوى بعد هزيمة ثورة عام ١٩٠٥، كما يؤكد غوركي بنفسه أنه لم يقصد من بلدة أوكوروف الصغيرة وماتفي كوجيمايكين أن يصورا حياة الأشخاص الاستثنائيين الذين يعيشون في ظروف استثنائية، وإنما حياة الملايين الكثيرة من الشعب البسيط في روسيا القيصريّة. كتب غوركي في رسالة إلى بي ماكسيموف: "أنت تقول إنك لم تر أوكوروف مطلقاً، وليس هناك مثل هذه البلدات في الجنوب، لكنني أعرف أن أوكوروفاتكم أكثر بهجة

وحياة من أكوروفاتنا التي تزيد على ثمانمئة، ويمكنك أن تشمل معها
سيمبرسك وبنيزا ورازان وكالوغا وكثيراً غيرها في القائمة، ويعيش فيها
ملايين الروس".

الوصف الكثيب لحياة بلدة ريفية روسية، وتبدو الروح البرجوازية
الصغيرة، ينتهي باعتراف كوجيبا يكين الحزين:

"في ختام هذه الذكريات من حياتي البائسة والمخزية، أعترف بوجع
أنني أدركت في أوقات مختلفة بقوة ما، أوقاتاً لطيفة لدرجة كان الإحساس
بها نادراً، تشدني نحو حياة أخرى، نحو طريق مجهول لكنه طريق أشعر أنه
أفضل بما لا يقارن بذلك الطريق الذي اتبعته إلى ساعة موتي، بسبب الكسل
الأخلاقي والبدني الذي يسعى إلى تبرير فكرة أنني لم أكن أسوأ من
الآخرين. لم أدرك في الوقت المناسب بأنني كنت أقاوم قوى الحب والتنوير؛
كنت عبداً كسولاً، وحين تملكنتني هذه القوى أخيراً رغماً عني، كان الوقت
قد تأخر كثيراً. وهكذا أموت مع هذا الطعم الباهت من هذا العمل القليل
على شفتي..."

لم تكن مصادفة أن يبدأ غوركي قصته بالخاتمة؛ فهو على الفور يخبر
القارئ بالنهاية المأساوية التي تباغت بطل الحكاية وكيف وصل ماتفي إلى
تلك النهاية. يصف الكاتب مأساة ماتفي: لقد عرف صفات البورجوازية
الصغيرة الكريهة، وقابل أشخاصاً جعلوه يرى مسارات أخرى للحياة.
لكن بسبب قوة القصور والكسل الاجتماعي - بأن يكون مثل غيره - لم
يصدق أحداً إلا نفسه. ورغم أنه ارتفع فوق العقلية القديمة المحافظة،
وأصبح مرنداً وغريباً داخل معسكر البرجوازية الصغيرة، إلا أنه عاش حياة
برجوازية صغيرة.

في رسائله في ذلك الوقت كشف غوركي عن الأفكار الكامنة وراء عمله، وطلب ممن يرسلهم أن يتجهوا إلى الخط الاجتماعي والفلسفي المتصل بشخصية ماركوشا، إلى أهميته في القصة، وقال للناقد لفوف-روغاشيفسكي: أرجو منك أن تقتل سوء الفهم المتجذر بعمق والذي يحزنني؛ أرجوك أن تخلع عرش لوكا (شخصية في مسرحية غوركي الأعماق السحيقة)، هو بلا أدنى شكل شخصية إيجابية، واعظ عذمي مثل سولوفيفوف مثلاً.

"إن صدقت أنه موجود-فهو موجود، وإن لم تفعل فهو غير موجود" يقول لوكا ويقول ماروشكا الشيء ذاته: "هل هناك شياطين؟ نعم هناك- اتركوني في سلام" لكن ربما هم غير موجودين؟ حسناً هي ليست- اتركوني في سلام! جوهر رداء الطبع هذه موصوفة في أربعة أبيات من قصيدة لسولوفيفوف:

يوجد هناك مستنقع في الغابة

وعلى المستنقع طحلب

أولاً، ولد أحداً ما

مثل الموت مجرد نفاية.....

بعبارة أخرى: هذا أقسى شكل من العدمية وأشدّه سخريّة لدى الفردانيين الروس، "من الناس غير الضروريين"

غوركي في رسالة إلى ب. بيشكوف في أيلول ١٩١١ يؤكد مظهراً هاماً آخر لعمله: اعتقد أن مكسيم يسمح له بقراءة كوجيايكين. المشهد مع زوجة الأب، يبدو لي أنه لن يسبب أي ضرر، بل على العكس هو يفيد لو

شرح جيداً. هذا المشهد سيمكنك من التكلم عن القضية الملتهبة للنساء ببساطة ووضوح مرة أخرى... فقط عليك أن تشدد على أهمية غريزة الأمومة في كل نوع من الحب الذي تشعر به النساء. أضف إلى أن صدر المرأة مصدر لا ينضب من الحياة، وذلك بالضبط الجانب الأمومي في الحب، وهو الأكثر أهمية. ومن هنا أنت كل أشعار الحياة وكتبها.

تلقي غوركوي عدداً كبيراً من رسائل المديح المفرح لعمله الجديد؛ فقد كتب الصحفي الأوكراني مثلاً: "بعد قراءة الرواية حتى آخر صفحة فيها، تنفست بارتياح، وجربت شعوراً من الرضاء التام؛ جيد كلمة ضعيفة لوصف الكتاب [...] لقد غطى تماماً قصة بلدة روسية وحياة الغابات الخلفية. كما أزعجتني الكآبة السوقية المبتذلة من الحياة التي دونها كوجيمايكين، وأشعرتني بالغثيان؛ إنها تشبه النظر إلى صفحة من تاريخ الشعب، صفحة تبدأ في خلفية لا يمكن أن تتمنى أفضل منها، وكل الناس في تلك الخلفية رائعون جداً؛ لوحات رخامية منحوتة في كل مكان! كنت ناجحاً بشكل لافت وخصوصاً مع ماركوشا [...] وبالنسبة إلي فإن لغتك لا تحتاج إلى كلام، فهي مدرسة للكتاب الروس"

كما مدح العمل ويصوت عالٍ كاتب معاصر لغوركوي هو أ.ف. امفيتيتروف: "هي ملحمتك، فيها الشعور الحر والغني لبابلينا القديمة، وتشكل شهادة حية بأن روسيا الحقيقية حية وحساسة (كل شيء حساس هو حي)؛ وأن روسيا الأم تشوشت وأخفقت، وأنها ستنهض ونجد نفسها وتحرر نفسها.....

نعم، إن كوجيمايكين طبيب في الحقيقة، ومذكراته لافتة ومهمة، وأنت وصفت المرأة بشكل جيد أيضاً. وسأكون صريحاً معك وأقول لك إنها المرة

الأولى التي تصور فيها عضواً من الطبقة المثقفة بهذه الحيوية. لا شيء هناك قسري ومقحم على الإطلاق. وأستطيع أن أنصورها حية ترزق؛ وهي ليست قيمة نهب بحكم ثقافية. القطعة برمتها تصل عميقاً إلى قلب المرء وروحه"

كما هلل للعمل عدد آخر من الذين يرسلهم غوركي: أ. كوبرين، ل. سولرزينسكي. أي. برودسكي، أي سورغيتشيف، أي سميرنوف وكثيرون غيرهم. كتب ج ف بليخانوف للمؤلف بعد قراءة العمل: "حين قرأ بوشكين المخطوط الأولي للأرواح الميتة الذي جلبه له غوغول، هتف قائلاً: يا إلهي كم هي حزينة روسيا! هذا الشعور بالحزن، حزن عميق بعصر الروح، لم يتركني لوقت طويل. والآن حين أفكر بكوجيمايكين أكرر القول لنفسي: روسيا الحزينة! هذا الشعور بالحزن ليس خطأ طبعاً، وإنما هو مبرر وسبب لمدح المؤلف: لأن الموضوع الذي نعهدت بتصويره أكثر حزناً في الحقيقة. لقد غرقنا في كتابك، في نفس البيئة الخالية من الفرح، نفس مملكة الجهل التي صورها أوستروفسكي. ظن دوبروليبوف أن النهاية اقتربت من مملكة الجهل تلك، لكنها عاشت خمسين سنة أخرى بعد موته، وفي الواقع هي موجودة إلى يومنا هذا، عبء ثقیل جداً يقيد أرجل الشعب الروسي. لكن التاريخ لن يترك هذه المملكة في سلام، وسيرسل لها بذور فكرٍ يجعلها تتعفن وتتحول إلى خراب. كوجيمايكين وصف لهذه العملية تماماً وهو تصوير بارع. كل من يريد أن يتكلم عن هذه العملية يجب أن يقرأ كوجيمايكين، تماماً مثل كل من يريد أن يكتشف نفسية المجتمع الفرنسي خلال عصر النهضة في

ظل حكم لويس فيليب يجب أن يقرأ بعضاً من كتابات بلزاك. أنا متأكد أنها شيء يمكن للمؤلف أن يفتخر بفعله....

يرسم غوركي في ماتفي كوجيمايكين صورة لا نظير لها لبلدة روسية ولأسلوب حياة قاطنيها. رسمت هذه الصورة بدقة وعمق، تظهر كل شيء إلى آخر ظل وبقعة بوضوح كبير، لذلك كانت للتفاصيل العديدة والكثيرة والمشاهد قوة قاهرة تترك المرء مصعوقاً [...] وهي أيضاً روسية لاذعة جداً وشرقية وآسيوية بلا رحمة. لذلك احتاجت إلى شخص في منزلة غوركي الفنية ليصف لنا هذه العلاقات، الأوروبيون الغربيون، ليس بشكل كامل فقط، وإنما بطريقة جذابة وساحرة أيضاً. في تلك الرواية هناك شيء قوي جداً ومقاوم يجعلها ذات قيمة دائمة. هذا الشيء هو الفريدة الروسية العميقة للشخصيات الرئيسية كما اتضح من خلال شغفها وعواطفها التي لا تقاس، كرهها وحبها، غضبها وألمها، صلاتها وجلد ذواتها!"

كتب نقاد آخرون: هذه الملحمة الرائعة التي نتحدث عن بلدة روسية كتبت بشكل رائع، وستصبح من كلاسيكيات الأدب. غوركي شاعر الجماهير العريضة، يعطي جوهراً للحكايات الشعبية والخرافات القديمة والأساطير. هذا كتاب غير عادي وفريد يجب أن يقرأ بإمعان وتركيز وحب.

مكتبة الرمحي أحمد

١- "مثل مكسيم الإغريقي كما صور في الأيقونات": مكسيم الإغريقي (١٥٥٦-١٤٧٥) كان راهباً واسع المعرفة في دير آثوس وكاتب ديني. رحل إلى موسكو في عام ١٥١٨ لكي يترجم ويصحح بعض الكتب الدينية. بما أن مكسيم الإغريقي لم ينضم إلى قائمة القديسين، لم ترسم له صور أي أيقونات، لكن وصلتنا عدة صور لمكسيم حيث يرى في إحداها جالساً إلى طاولة وأمامه كتاب مفتوح وله لحية بنية مدورة وفوق رأسه هالة القديسين المعتادة.

٢- "لا التز ولا البولونيون ولا حتى بونا برت نفسه استطاع أخذها": يحكي سافيلي كوجيمايكين لابنه خرافة محضة: روستوف الكبرى تم أسرها وحرقتها من قبل التتار في عام ١٢٣٧ ومن قبل البولونيين عام ١٦٠٩ أما نابليون فلم يقترب منها أبداً.

٣- "أي واحد من ليس من القراصين لكنه متمسك بالإيمان الحقيقي القديم" القراص اسم فظ للأشخاص الذين ينتمون إلى الكنيسة الرسمية. سموا بذلك لأنهم يرسمون إشارة الصليب على أنفسهم بثلاثة أصابع بدلاً من اثنتين كما يفعل المؤمنون القدماء.

٤- مكسيم باشليك زعيم قوقازي أسطوري من عصاة لصوص الفولغا.

٥- ابومود قبيلة تركية-أوستياك اسم قديم للشعب الخانتي.

٦- ... حرق قرية هنغارية... "في عام ١٨٤٩ شارك الحكم الأونوقراطي الروسي الملكية النمساوية في إخماد حركة التحرر الوطني في هنغاريا.

٧- "حالما يلغون حقوق بيع الخمر..." لدى روسيا القيصرية نظام حق جمع الضرائب من السكان، وكان يباع لأشخاص خاصين يدفعون

للحكومة مبلغاً ثابتاً من المال ثم يستثمرون باستغلال لا رحمة فيه. الضريبة الأكثر ربحاً هي شراء حقوق ضريبي استئجار الخمر والتبغ. انتهى بيع حقوق ضريبة الخمر في عام ١٨٦٣

٨- "جلالة القيصر نيقولا.. "الإمبراطور الروسي نيقولا الأول (١٧٩٦-١٨٥٥).

٩- "التجنيد الإلزامي العام...." نظام تجنيد الناس في الجيش. كل شخص يدفع ضريبة الاقتراع يمكنه أن يجند بأي وقت من قبل الحكومة- بعد عام ١٨٦٢ أصبح شراء نفسك من هذا النظام ممكناً.

١٠- روبنسون كروزو "حياة روبنسون كروزو ومغامراته الغريبة والمفاجئة، ترجمت للروسية لأول مرة في ١٧٦٢-١٧٦٤) ونشرت في بطرسبورغ.

رودنوي-سلوفو (لغة أصلية) مقتطفات مختارة للأولاد الصغار ألفها المربي الشهير ت.د. يوشينسكي.

١١- اغتيل القيصر في بطرسبورغ في مارس / آذار ١٨٨١؛ القيصر ألكسندر الثاني الذي حكم عليه بالموت من قبل اللجنة التنفيذية لحزب الإرادة الشعبية، قتل بقبلة رماها عليه أي غرينيفيتسكي وهو عضو بارز في الحزب.

١٢- "هذا الوقت ليس لطرح مشاكل كبيرة والتطلع لمهمات كبيرة" هذا الشعار كان مع الأنثولوجتيسيا الليبرالية من ثمانينات القرن التاسع عشر، ولم يرغبوا التورط في الصراع الاجتماعي الذي اقترحه الديمقراطيون الثوريون في ستينيات القرن التاسع عشر.

١٣- يوسينايا بوروديسينايا، نيكيتا مانتيتي شخصيات تعتمد عليها الساحرات بسحرهن.

١٤- ديو سكوروس بطريرك الإسكندرية القائل إن للمسيح طبيعة واحدة، وتمت إقالته من قبل مجلس شالسيون في عام ٤٥١ واتهم بأنه من الذين يعتقدون بأن للمسيح طبيعة واحدة.

١٥- غنوسطي-الغنوسطية: تيار ديني وفلسفي في القرن الأول إلى القرن الثالث بعد الميلاد، في الإمبراطورية الرومانية، والغريب أن التعاليم وحدت بين الآراء المسيحية والوثنية، نقطتها المركزية كانت ثنوية حادة-إيمان بالقسمة غير القابلة للتوفيق بين الروحي والجسدي في الإنسان وبين الرباني والدنيوي في الحياة. طوائف محددة من الغنوصيين ترى أن الجسد غريب عن الروح ويجب أن يروض، وطالب آخرون أن يعطى الجسد حرية تامة بما أن هذا لن يسبب أي ضرر للروح الغريبة عنه تماماً. لهذا كان الغنوصيون قادرين على التبشير والوعظ بمزيج من الزهد المفرط والفسق المتسبب.

١٦- الجانبان المشرق والقائم من الحياة الروسية- رواية بقلم ب زاروبين نشرت عام ١٨٧٢. بنعت غوركي هذا الكتاب في مقالة له بعنوان كيف تعلمت الكتابة بـ (الممل الأكبر). وأفاد ف. ديستسكي أن غوركي قال له في محادثة: أنت تعرف [...] لو كنت تعلمت من أحد لقلت من زاروبين فقط.

١٧- أنبياء الإيمان الحديد ظهوروا في بلاد فارس. كانت أسماؤهم: الباب ويحيى وبهاء الله وكتابه المقدس كتاب-ي-ايقان. الباب هو ميرزا علي محمد ١٨١٢-١٨٤٩، مؤسس البابية وهي طائفة دينية وسياسية، وزعيم تمرد ديمقراطي في بلاد فارس في ١٨٤٨-١٨٥٢. يحيى سيد يحيى دارابي (أعدم في ١٨٥٠ كان أكاديمياً في شيراز) أحد أتباع الباب، بشر بالبابية بعد موت ميرزا علي محمد. بهاء الله، ميرزا حسين علي ١٨١٧-١٨٩٢ تابع آخر

للباب. بعد هزيمة التمرد وإعدام الباب، نبذ الجانب الديمقراطي في الحركة البابية وأعلن صراحة أنه ضد النضال الثوري والمحاولات الرجعية. الكتاب المقدس هو الكتاب الذي كتبه بهاء الله في ١٨٧٠-١٨٧٢ وفسر فيه تعاليم الباب.

١٨- سيرافيم سفياتوغوريتس: اسم مستعار للكاهن المقدس سيرجي (س. ١. فسين ١٨١٤-١٨٥٣) مؤلف كتاب رسائل سفياتوغوريتس إلى أصدقائه عن جبل آتوس المقدس وكتاب أعمال ورسائل سفياتوغوريتس التي جمعت بعد موته وله كتب أخرى.

١٩- "تذكر ما قاله المطران ساينيسيوس عن المديح؟" يشير إلى قول رئيس الأساقفة ساينيسيوس عن بطليموس (٣٧٩-٤١٢) فيلسوف أفلاطوني جديد وخطيب وشاعر.

٢٠- "... الأيقونات في الأسلوب الأجنبي الجديد" تأثير أوروبي (إيطالي-فرنسي) بدأ في الظهور برسم الأيقونات الروسية في أواخر القرن السابع عشر.

٢١- "... قامت بدور مريم العذراء لطائفة خيلستي" خيلستي حاملو السوط، طائفة دينية متعصبة، سمى رئيس الطائفة نفسه ابن الرب واحتفظ به (اثني عشر حوارياً) و(مريم العذراء) حوله. الخيلستي جماعة - سفينة - يرأسها (مدير دفة) و(مديرة دفة) وهما من يدير غالب طقوس تجمعات الجماعة، وسلطتهما على الجماعة غير محدودة.

٢٢- المؤمنون القدماء: أعضاء طائفة دينية ظهرت في القرن السابع عشر بعد انشقاق في الكنيسة؛ لم يعترفوا بالكنيسة بسبب التغييرات التي أدخلت على بعض الطقوس والشعائر.

٢٣- "...أنا أقرأ المقدمات... بدون الحذوفات التهذيبية التي قام بها ميترى من روستوف" أمضى المطران ديمتري من روستوف عشرين سنة بصوغ فيها نسخة جديدة من شيتي-ميني، وهي مجموعة من القصص الروسية القديمة عن حيوات القديسين المسيحيين، رتبت على أيام الشهر. كان اسم الطبعة السابقة "ذا غرين شيتي-ميني" وألفت، في القرن السادس عشر بواسطة المطران مكاريو. أما الطبعة الجديدة فقد استفادت من المصادر اللاتينية. قبلت الكنيسة الأرثوذكسية بطبعته لشيتي ميني ان توتو، لكنها لم تنل نفس الثقة من قبل عدد كبير من المؤمنين الذين فضلوا قراءة المقدمات (جزء من شيتي ميني) في طبعتها القديمة.

٢٤- "...بسولوف قتل زوجته!" - م. ف. أندرييفانروي في مذكراتها أنه في أحد الأيام في الوقت الذي كان يكتب فيه غوركي مشهد مقتل مارفا بيد زوجها، سمعت ضجة سقوط شيء ثقيل في مكتبه، فهرعت مسرعة إلى الغرفة ووجدت الكاتب ملقى على الأرض وفاقد الوعي. فكت أزرار ثيابه [...] لكي تضع ضاغطة على قلبه ورأت ندبة رفيعة على صدره أقرب قليلاً إلى يمين حلمة ثديه. حين استعاد غوركي وعيه أخيراً قال: لا يمكن أن تتخيلي [...] كم هو مؤلم أن تدفعي بقوة سكين الخبز في كبدي! لم أدرك إلا لاحقاً أنه تحيل الألم الذي عانتته المرأة المطمونة والشعور به بقوة، لذلك ترك ندبة، وأتذكر أنها ظلت عليه عدة أيام.

٢٥- بيغوني (عداؤون) طائفة دينية بدون قساوسة، طالبت أعضاؤها بأن يرفضوا (الركض) من كل الواجبات المدنية مثل دفع ضريبة الاقتراع والخدمة في الجيش وحمل جوازات السفر وحلف الإيمان وتجنب إحصاءات السكان.

٢٦- القديس بانتيليمون الشافي كان شهيداً مسيحياً درس الطب تحت إشراف الدكتور المشهور يوفيرزم.

٢٧- "... تواصل التكلم عن الحرب.. " الحرب المقصودة هي الحرب الروسية-اليابانية عام ١٩٠٤-١٩٠٥ التي بدأت لتوها.

٢٨- سكوبيليف، ميخائيل ديمتريفيتش ١٨٤٣-١٨٨٢ جنرال روسي.

٢٩- "... هناك أشياء كبيرة تحدث في ساراتوف..." بعض الثورات الفلاحية التي أثناءها نهب ملكيات ملاكي الأراضي وحرقت وحدثت في بداية عام ١٩٠٥

٣٠- "ألمان- عرق ذكي ألفت بهم علينا كاترينتنا...." في ١٧٦٢- ١٧٦٣ دعت كاترين الثانية الأجانب للاستقرار والاستيطان في الأراضي الروسية غير المسكونة. عندئذ تنامت مستعمرات المستوطنين الألمانية وازداد عددها في إقليم سامارا وساراتوف. هؤلاء الألمان نالوا مساعدة كبيرة لتقوية مزارعهم في البداية، لذلك بدأوا بالاستيلاء على عقارات وأراضي ملاكي الأراضي.

مكسيم غوركي

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحى أحمد

حياة ماتفى

سافيليفتش كوجيمايكين

يمسكك غوركي من يدك، ويسير بك تحت أشجار أوكوروف؛ تسمع صوت جرس الكاتدرائية، مختلطاً بأصوات العمال وهم يطرقون الحديد، وبأصوات النساء وهن يغنين بغنج، ومن السماء تنزل قطرات المطر وتبلل جسدك، فترتعش. ومن ثم يدخلك غوركي إلى بيت كوجيمايكين، ويقف جانباً لترى المشهد بعينيك: يجلس كوجيمايكين على سرير، ويكتب بخط واضح وكبير: "هذه قصة حياة ماتفى كوجيمايكين من بلدة أوكوروف".

ما كتبه كوجيمايكين يجعلك تصاب بالحزن، أو بشيء أشد من الحزن، وتصرخ برعب: كم هي بائسة هذه الـ "روسيا".

يا لهذه الملحمة الإنسانية!

يولد كوجيمايكين في أحضان البرجوازية الصغيرة، ولكنه - بخلاف البرجوازيين - كان يمتلك قلباً نابضاً بالحياة، قلب أتلفته العفونة الروسية سريعاً. لقد وقع في الحب مرتين، وعانى الطبقات الاجتماعية، وعرف الظلم الواقع عليها، فيتحول إلى نصير للمضطهدين، ولكنه يظل برجوازياً حتى مماته.

يرسم غوركي بذكاء عال الحاجة إلى التنوير والعقل في عصر القيصرية. حتى إنه يتنبأ بانتصار الجيل الجديد المحمل بأفكاره الثورية الخلافة.

المهم في هذه الملحمة، أنها تفيض بالقصص الجميلة والوصف الرائع للطبيعة. إنها حكايا الناس العاديين والمتقنين والمنفيين والمهاجرين والخدم والعمال. حكايا يدونها كوجيمايكين، وهو يجلس في بيته في بلدة أوكوروف، حيث ولد وعاش أهلها على مدى خمسين عاماً. قصة حياة ماتفى كوجيمايكين، هي قصة روسيا القيصرية، وقصة غوركي نفسه.

إنها الرواية الأجل لغوركي والأكثر حيوية، والتي توضع بجدارية بين الروايات الكلاسيكية الخالدة.

عقبة زيدان



للدراسات
والنشر
والتوزيع



متوفر أيضاً في
eKtab

نيلا وفرات.كوم